

د. بديعة الخرازي

تاريخ الكنيسة النصرانية في المغرب الأقصى

تقديم وترجمة

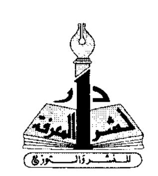
منشورات المعارف

د. بديعة الخرازي

تاريخ الكنيسة النصرانية في المغرب الأقصى

- تقديم وترجمة -

PRINTED IN MOROCCO





إهداء :

إلى زوجي أبو أسعد

الطبعة الأولى 1428 - 2007
رقم الإيداع القانوني 2007/0135
ردمك 7 - 146 - 20 - 9954
مطبعة المعارف الجديدة - الرباط

مقـدمـة

إن التوجه إلى دراسة أي موضوع من المواضيع التي يتعلق بها قصد البحث لابد وأن تستند إلى أسباب ودوافع تشكل الحوافز الحقيقية لهذه العملية، سواء بالنسبة إلى طبيعة الموضوع في حد ذاته، أو الإطار الفكري الذي يشمله، أو فيما يرجع إلى الأهداف التي يتوخى تحصيلها من خلال ذلك.

ورغم أن المسعى في هذا السياق من الناحية المبدئية هو أن تكون الدوافع المقصودة متسمة بقدر معين من الموضوعية، فإنه لا يمكن مع ذلك استبعاد تلك الهواجس المعرفية الخاصة التي تدفع الباحث في هذا المجال إلى تحقيق بعض الاقتناعات الذاتية التي يدعو إلى تحصيلها الرغبة في تشكيل وعي خاص حول بعض القضايا الفكرية والتاريخية.

وانطلاقا من هذه الاعتبارات فإنه لا يمكن إبعاد مسألة اختيار موضوع البحث، وكيفية النظر في عناصره عن العوامل التي أدت إلى كلا الجانبين، وهو ما ينطبق على هذه الدراسة التي اتخذت موضوعا لها "تاريخ الكنيسة في المغرب"، وينصرف منطلق الاختيار وأسبابه هنا إلى مختلف الجوانب التي يمكن أن يستوعبها هذا الموضوع، وهي على سبيل الإجمال، البحث في موضوع الحضور الديني المسيحي بالمغرب، لما يطرحه هذا الموضوع من أهمية بالغة في مجال البحث في تاريخ الأديان، إذ يفترض أن سؤالا ملحا ما زال مشروعا بالنسبة إلى دارس علم الأديان وهو: ما هي الصيغة التي تميز بها الحضور الديني المسيحي في المغرب، وبعبارة أكثر تحديدا في هذا السياق، هل هناك معطيات وحقائق تمكن

الباحث في هذا المجال من التعرف على تاريخ الكنيسة بالمغرب، واستقرار النشاط المسيحي به ؟.

ومن أسباب اختيار هذا الموضوع أيضا ما تعرفه حدودنا الشمالية من شراسة الكرز بالإنجيل ومحاولات التنصير، فالمغرب الذي انطلقت منه راية الإسلام إلى أوربا ومجاهل إفريقيا ظل مستهدفا منذ وقت بعيد في هويته التي انبنت على الدين واللغة خلال خمسة عشر قرنا، إذ لم يقف المبشرون الذين توافدوا منذ القديم عند حدود الخدمة الإنسانية والاجتماعية، بل ساهموا في تهيئ المغرب لغزو حضاري واستعماري وعسكري، وحصلوا على كثير من الامتيازات التي سارت في اتجاه خدمة الأهداف السياسية والدينية التبشيرية والتنصيرية للدول المسيحية التي مثلوها.

وإذا كان متعلق القصد في هذا السياق العودة إلى الماضي قصد تتبع حضور الكنيسة في المغرب منذ نشأتها وفي كل مراحل تطورها التاريخي، فإن هذه العودة لم نقصد بها التأريخ فقط للكنيسة، بل حاولنا تجاوز الوصف إلى تحليل سمات ومواصفات هذا التواجد الديني، ومختلف أهدافه وأبعاده في المجتمع المغربي. وقد وجه هذه العودة حافز علمي وحضاري، فهذه الدراسة تحاول إبراز جانب من جوانب محاولات تدخل (دار المسيحية) في (دار الإسلام) دينيا .

لقد حاولت بعض الدراسات أن ترصد تاريخ نشأة المسيحية والأسباب الباعثة على انتشارها وعقائدها ومذاهبها وشرائعها وأحكامها ومنزلتها بين الأديان. وتناولت أبحاث أخرى الإطار التاريخي والاجتماعي والثقافي للديانة المسيحية في مختلف البقاع التي انتشرت فيها، فدرست الظاهرة الدينية من خلال حضورها الديني في مختلف الجماعات الإنسانية التي تمكنت من الوصول إليها ومخاطبتها، ولم تهتم بالمغرب إلا لماما.

غير أنه موازاة مع هذه الأبحاث التي لم تهتم بالمغرب في تأريخها للديانة المسيحية، وجدت بعض الكتابات والدراسات الأجنبية التي

اهتمت بالتأريخ للنشاط المسيحي والوجود (التبشيري) في المغرب، وخاصة في القرون الأربعة الأخيرة (من ق 16 إلى ق 20). لكن هذا النوع من الدراسات لا يعبر عن الصورة الحقيقية والحيثيات الواقعة والأبعاد التي كان يرمي إليها النشاط الكنسي بالمغرب، لأنه يعد من صميم التصور المسيحي الذي لا يمكن أن يكون موضوعيا في تسجيل الحقائق والأحداث والأهداف ونتائجها.

ورغم ذلك، وعلى اعتبار أن هذا الموضوع هو الجانب المسكوت عنه في تاريخ المغرب، فقد ارتأينا أن نستند إلى هذه المرجعية التاريخية، وذلك من أجل متابعة تطورات وحيثيات تواجد الكنيسة بالمغرب متابعة تاريخية مفصلة. ومن هنا راعت الدراسة في تبويبها اتساقها مع طبيعة الأسس المنهجية التي أوحى بها هذا الموضوع، فقسمناها إلى قسمين.

حاولنا في القسم الأول وضع مقاربة تاريخية تحليلية لحيثيات الوجود الكنسي ومختلف أبعاده وأهدافه الحضارية والدينية التي حاول تحقيقها على أرض المغرب، وذلك من خلال ثلاث فصول ركزت على قدم الحضور الكنسي في المغرب، والأغراض الإنسانية والاجتماعية التي حاولت من خلالها الكنيسة أن تثبت حضورها، وتحقق مخططاتها التبشيرية والتنصيرية.

أما القسم الثاني، فيتناول ترجمة مجموعة من النصوص التاريخية الإسبانية والمخطوطات التي شكلت في هذا السياق منطلقا أساسا وهاما من أجل فهم وجهة النظر المسيحية وخلفياتها عن خصوصية ومدى الحضور الكنسي في المغرب، وقد تم اختيار هذه النصوص حسب التتابع الزمني لمراحل حضور الكنيسة ومظاهر تطورها، وحسب أهميتها في تسجيل الحقائق التاريخية المرتبطة بهذا الحضور. ومن ثم تضمن هذا القسم خمسة فصول تناولت تأسيس الكنيسة في المغرب، ووضعها في مختلف المراحل التاريخية.

القسم الأول

مقاربة تاريخية عن التواجد الكنسي بالمغرب

مدخل

يرتبط السؤال عن مفهوم الكنيسة بتصور مؤداه أن التعريف بالكنيسة في هذا السياق يعتبر مسألة لازمة تقتضيها الضرورة المنهجية، لكي نستطيع أن نتواصل تواصلا صحيحا مع رصيد التجربة الكنسية في المغرب. ولعل تعريف الكنيسة هنا لا يقتصر على رصد دلالاتها التقريبية المتداولة فقط، وإنما يتجاوز ذلك إلى معاينة خلفياتها التاريخية والدينية وتجلياتها المختلفة وامتدادها في الزمان والمكان.

تعني الكنيسة في المعاجم اللغوية المكان المخصص للعبادة المسيحية، وتطلق أيضا على جماعة المؤمنين المسيحيين. فالكنيسة الأولية هي التي جمعت مجموعة من الرجال الذين آمنوا بمعلمهم، ولذلك فهي مؤسسة تجمع جميع الذين يؤمنون بدين المسيح[1]. ويتحدد معنى الكنيسة في المعاجم الدينية بأنها مؤسسة دينية تشريعية وتعليمية، فهي تقوم على التراتبية في تنظيم قادتها الذين هم البابا والرهبان، ويملك هؤلاء الشرعية لاتخاذ القرارات، وتوجيه الإرشادات التعليمية، ويتحملون مسؤولية خدمة المؤمنين، وقد تطور معناها لتصبح مؤسسة جميع المؤمنين، ويستلزم على أعضائها الذين يتصفون بالقداسة الاستجابة إلى دعوة الإله المنقذ الذي أرسلهم إلى العالم[2].

(1) A. Rey et J.Rey Debove : Le petit Robert, le Robert-Paris, ed 1982. - Manuel Alvar Ezquerra : Diccionnario General , Zanichelli biblograf .

وفي الهادي إلى لغة العرب : "الكنيسة : معبد النصارى، والجمع كنائس". حسن سعيد الكومي، ج 4، دار لبنان ط1، 1992، وفي لسان العرب : "مادة كنس، اليهود جمعها كنائس وهي معربة، أصلها كنشت، وعند الجوهري : الكنيسة للنصارى" ابن منظور، ج 6، دار صادر بيروت.

(2) Paul Poupar et une comité : diccionnaire des religions. Presses universitaires de France, 2ème ed.1985

ويتبين من خلال هذه الدلالات أن مفهوم الكنيسة يستمد معناه من التطور التاريخي والحضاري للمشروع المسيحي. ومن هذا المنظور فإنه لابد من ربط الكنيسة بسياقها الذي انبثقت منه، والأهداف التي سعت إليها، والمنجزات التي حققتها. ويؤكد المؤرخون أن الكنيسة مرت بمراحل متعددة قبل أن تستوي مؤسسة دينية تشريعية منظمة. ففي عهد البدايات الأولى للدعوة المسيحية، لم يعمل المسيح عليه السلام الذي أرسل إلى أمة بني إسرائيل على إنشاء الكنيسة، إذ تؤكد النصوص الإنجيلية والأخبار التاريخية أن المسيح لم يخطط خلال دعوته لما يسمى بالكنيسة، ولم يصنع من الحواريين قساوسة[3].

ويبدو أن سيرورة الحياة الدينية المسيحية في الإطار الجماعي هي التي ولدت فكرة الكنيسة[4]. وبيان ذلك أن الكنيسة انبثقت أول الأمر من جماعات "القديسين"، فتطورت كل طائفة محلية من الإخوة إلى كنيسة، ولكي تكون مسيحيا يجب أن تكون جزءا من الجماعة الكبيرة التي هي الكنيسة المقدسة التي تجمع كل المجموعات الدينية الصغيرة. وعلى هذا فإن كنيسة الله هي مجموع تلك الكنائس الخاصة التي تتبادل الرسائل والتضحية بالثبات، وتعتمد كل واحدة منها على الأخريات. والكنيسة في هذا الطور من أطوار النشأة لم تتجاوز مستوى الأخوة بين المؤمنين المشتتين في مختلف الكنائس الخاصة. لكن هذه الأخوة والميل إلى المجتمع والتضامن لدى المسيحيين في العبادة وتدعيم العقيدة ومقاومة الأعداء هو الذي ساهم في تنظيم أسس الكنيسة لتنزع فيما بعد إلى البحث عن تحقيق مادي أكثر تنظيما[5]. ولم تتطور الكنيسة في تنظيم يبرز كيانها المادي إلا بعد أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية موالية للمسيحية، وأضحى الإمبراطور يعتبر نفسه حاميا للكنيسة، فازدانت الكنيسة بألوان من الثقافات والفنون الإغريقية والنقوش والفسيفساء، وكثير من المظاهر الخلابة التي جلبت للدين المسيحي أتباعا جددا، وأعلنت الكنيسة أن التعميد يغسل الماضي ويزيل الذنوب، كما أذاعت معجزات نسبتها إلى القديسين لتثبت قوتها الدينية والسامية الإلهية[6].

---

(3) جينيبير شارل : المسيحية نشأتها وتطورها، ص 166- 167. دار المعارف (د. ت).

(4) Raymond Darricau et Bernard Peyrous : Histoire de la spiritualité, Presses universitaires de France; ed 1994, p 39

(5) جينيبير شارل : المسيحية نشأتها وتطورها، ص 170.

(6) شلبي أحمد : مقارنة الأديان (المسيحية)، ص 84، مكتبة النهضة المصرية، ط 10، 1993

وإذا كانت النشأة الحقيقية للكنيسة ما زالت مجهولة بالنسبة إلى الباحثين، فإنه يمكن القول إن إنشاء صروح الكنائس نتج عن الرغبة في تأكيد وتحقيق نوازع الامتداد والانتشار والاحتواء والاستمرارية، وذلك للعمل على تشجيع استمرار الرسالة المسيحية والدعوة إليها والامتداد بها في الزمان والمكان والحاضر والتاريخ. فقد نشأت فكرة الكنيسة أيضا عندما أراد المسيحيون الانتقال من فلسطين إلى اليونان ومنها إلى ربوع العالم. ومن ثم فإن المسيحيين كانوا مدعوين بالضرورة لتحقيق التطور الذي كانوا يأملونه، وذلك من خلال الانتظام في إطار تنظيمات عملية معينة. والتنظيم هنا يعني الأخذ بقوانين محددة تنظم الشعائر والطقوس، وتحدد المشرفين على ترسيخ وتأصيل البنية التشريعية لهذا الدين، والتي تشمل المظاهر التفكيرية الخاصة والتصورات الاجتماعية والقيم الأخلاقية. وينتهي بعض الباحثين في هذا السياق إلى أن المسيحية في تلك الحقبة كانت مهيأة لمثل هذا التنظيم نظرا للتأثيرات المختلفة التي وجهت الفكر المسيحي نحو هذه الوجهة الخاصة. ومن بين النماذج التي احتذوها تلك الجماعات والاتحادات الدينية التي أنشئت في الإمبراطورية الرومانية، وكان غرضها التعاون في الخير، والحث على التقوى، حيث كان لكل جماعة مديرها المنتخب، وصندوقها الذي تموله الاشتراكات. وهناك من النماذج أيضا التجمعات الدينية التي كان يقيمها يهود المهجر حيثما التقوا، إذ كانوا يتجمعون حول معبد لهم مع الالتزام بتنظيم خاص، وقواعد محددة[7].

ولعل مثل هذه التأثيرات مع التطلع إلى الامتداد في الزمان والمكان كان كفيلا بتوجيه المسيحيين إلى الأخذ بهذا التنظيم نظريا وعمليا. ومن مظاهر التطور في تنظيم الكنيسة في هذا الطور من أطوار التكوين والارتقاء توزيع السلطات والوظائف. وبيان هذا المظهر أن الكنيسة استعارت من الرومان أوضاع رجال الدين، فنظمت نفسها على أسس مشابهة للأسس المتبعة في التنظيم الإداري المدني للدولة الرومانية، ونذكر هنا من بين أهم أنواع الوظائف التي حددت التنظيم الداخلي للكنيسة، الأسقفية والقسية والشماسية. إذ يتواجد بالضرورة في كل كنيسة أسقف واحد، ومشرف عام على الجماعة كلها، وإلى جانبهما مجموعة من الشيوخ يتخصصون في الوظائف الروحية، والخدم الذين يهتمون بالوظائف المادية[8]. ويختلف

(7) جينيبر شارل : المسيحية نشأتها وتطورها ، ص171.

(8) جينيبير شارل : م. ن، ص172-173.

الباحثون حول أصول وظيفة الأسقف، ويرجعها بعضهم إلى وظيفة الحواريين تلاميذ المسيح، بحيث يمثل ويرث الأسقف هذه السلطة الحوارية. ولكي يتسنى له تمثل هذه السلطة يجب أن يكون رجلا مميزا في عمله وفضائله، ويتخذ قدوته من المسيح[9].

وعلى هذا النحو تطورت معالم التنظيم الكنسي، فأصبحت الكنيسة مؤسسة دينية بالغة التنظيم، ولعل هذا العامل هو الذي يفسر النمو السريع لتطور الكنيسة المسيحية. ومنذ ذلك الحين توجه الدين المسيحي إلى أن يصير منجزات عملية تحقق مجموعة من المصالح يستطيع بمقتضاها تحقيق عنصر الاستمرارية، حيث كانت هذه المنجزات موجهة إلى إنجاز غايات معينة من شأنها أن تدفع بالمشروع الكنسي في طريق التواجد والاستمرار.

وهكذا أصبح الشغل الشاغل لأعضاء الكنيسة هو إقامة وتدعيم اتجاهات الكنيسة في تغيير العالم والإنسان، وممارسة الأخلاق الحسنة ومبادئ الدين المسيحي، وذلك بدعوة الناس إلى تقبل دعوتهم والإيمان بعقيدتهم، بل إنهم جعلوا من أقدس الواجبات على كل من تحول إلى المسيحية أن ينشر بين أصدقائه وأقربائه البركة التي تلقاها، وأن ينذرهم بأشد العقاب للرفض الذي يعتبر مخالفة آثمة لإرادة الله[10].

وما يهم هنا هو التأكيد على الدور الفعال الذي قامت به الكنيسة، حيث شكلت هذه المؤسسة الدينية عاملا إيجابيا في الدعوة المسيحية، وذلك بضمان استمرارية الفعالية في الاتصال بمختلف الشعوب والجماعات الإنسانية، فانتشرت الدعوة في مختلف ديار الشرق وآسيا وإفريقيا، ووصلت إلى حدود المغرب. إذ تؤكد الحقائق التاريخية أن الكنيسة لم تتوقف منذ نشأتها عن توسيع وتمديد حدودها، وأنها بعد امتدادها على حوض البحر الأبيض المتوسط استطاعت في المرحلة الثانية من تطورها التي امتدت حتى القرن الثاني عشر الميلادي أن تدخل الشعوب الجرمانية والسلافية إلى دين المسيحية، وتعوض الخسارات التي سببها لها الإسلام[11]، كما أن تطور التبشير في أشكال جديدة استطاع أن يخلق للكنيسة بنيات قوية، ويكسبها موارد مهمة، حيث امتثل المذهبان الدومينيكي

(9) جينيبر شارل : م . ن، ص 175.

(10) طعيمة صابر : التاريخ اليهودي العام، دار الجبل، ط 1975، ص 285.

(11) Francis Rapp : L'Eglise et la vie religieuse en occident à la fin du moyen âge-presses universsitaires de France-Paris ,3ed, 1983, p 163

والفرانسيسكاني للعمل التبشيري بحماس منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر، واستطاعا أن يحققا نتائج مهمة لصالح الدين المسيحي، وبذلك قررت الكنيسة أن تخرج من الفضاء الأوربي إلى العالم[12].

ويمكن القول إن الكنيسة كانت مدعوة بعد فشل الحروب الصليبية في تحقيق مهمتها إلى أن تلعب دورا أكثر فاعلية في نشر الدين المسيحي، لأن المسيحيين رأوا أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدا في وجه انتشار النصرانية، بحيث راهن المسيحيون على مراجعة هذه التحديات لاستمرار مشروعهم. وعندما نستحضر هذه الخلفيات التي رافقت رحلة الكنيسة إلى مختلف بلدان العالم لبناء النموذج الحضاري المسيحي، فإنه يصح لنا التساؤل عن حيثيات وصول المد الكنسي إلى المغرب في سياق مناقشة موضوع تاريخ الكنيسة في المغرب؟ وهل استطاعت الكنيسة أن تنفذ مشروعها في هداية أتباع الإسلام إلى المسيحية؟ وما هي المنجزات التي حققتها؟.

(12) Francis Rapp : L'Eglise de la vie religieuse....., p164

الفصل الأول

أصالة الكنيسة في المغرب

1 - الكنيسة في المغرب قبل الإسلام :

يمثل التأريخ للكنيسة في المغرب أنموذجا لمراحل التطور المفترضة للدعوة المسيحية عبر العصور التاريخية بوجه عام، بحيث يندرج الحضور المسيحي في المغرب ضمن سياق تاريخ الامتداد المسيحي في مختلف أرجاء العالم. وإذا كانت المصادر التاريخية التي تتناول المسيحية القديمة في المغرب قليلة، فإنها تؤكد جميعها على أن أهل المغرب دانوا بدين المسيحية منذ عهود بعيدة قبل مجيء الإسلام. ومن ثم فإنه يعد من قبيل تحصيل الحاصل تواجد الكنائس في هذه الديار، يقول الناصري في ذكر حال البربر قبل الإسلام، وبعض أمصار المغرب القديمة: " قلت: الفرنج اليوم جازمون بأن ملوك الروم الأولى كانوا مستولين على أرض المغرب بأسرها قد ملكوها مدة طويلة من الزمان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بكثير، وأن الأمصار القديمة مثل سبتة وطنجة وسلا وشالة ووليلي ونحوها هي من بنائهم أو بناء القرطاجيين قبلهم. ولما أخذ الروم بدين النصرانية في زمن قسطنطين الملك، وكانت لهم اليد العالية على ما جاورهم من الأمم مثل الحبشة والقبط والفرنج والقوط وغيرهم، حملوهم على الأخذ به، فدانوا به معهم وتلقوه عنهم وبثوه في بلدهم ورعاياهم،وكان الفرنج مجاورين للبربر في المغرب الأدنى، والقوط مجاورين لهم في الأقصى ليس بينهم وبينهم إلا خليج البحر. فحملوا أهل السواحل منهم على الأخذ بذلك الدين، فدانوا به أيضا، ونظر القياصرة يومئذ منسحب عن الجميع، وأمرهم نافذ في الكل، واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالإسلام وأظهره على الدين كله فدانت به البربر على ما نذكره إن شاء الله، فلهذا السبب كان كسيلة الأوربي ويليان الغماري وغيرهما من كبار البربر نصارى"[13].

وانطلاقا من هذا النص نتبين أن المد المسيحي وصل إلى المغرب عن طريق الرومان الذين كانوا يحكمونه، فقد شهدت الحقبة الرومانية ظهور الديانة المسيحية وانتشارها في العالم الروماني على يد الرسل، إلا أن هذا الانتشار لم يستتب إلا بعد مرحلة طويلة من الاضطهاد سببه التناقض بين فكرة التوحيد في هذا الدين والاعتقاد الروماني بتعدد الآلهة. وقد دام هذا الاضطهاد حتى أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة في عهد الملك قسطنطين الذي كان مواليا لها[14]. ويجمع المؤرخون على أن المسيحية وصلت إلى شمال إفريقيا في القرن الثاني الميلادي، وأن إقليم برقة هو أول أقاليم المغرب دخولا في

(13) الناصري أبو العباس : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954، ص 69 - 70.

(14) هنري س. عبودي : معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس - لبنان - ط 2 - 1991، ص432.

المسيحية، حيث كان للمسيحية فيها تاريخ طويل هو جزء من تاريخ المسيحية في مصر. ثم انتشر هذا الدين في إفريقية، وقامت فيها الكنائس وامتدت بصورة سطحية على طول الشريط الساحلي في المغربين الأوسط والأقصى حتى طنجة[15]. وفي هذا السياق ينحو بعض الباحثين إلى التقليل من شأن التغلغل المسيحي في المغرب[16]، فيقول حسين مؤنس، إن" مؤرخي المسيحية بصورة عامة ومؤرخي الدولة البيزنطية بصفة خاصة يبالغون في تصوير مدى انتشار المسيحية في إقليم إفريقية، معتمدين على أن هذه الناحية أطلعت مفكرا من أعظم مفكري المسيحية الأولى وهو القديس أوغسطين صاحب "الاعترافات" ومؤلف كتاب "مدينة الله"، والقديس أوغسطين دون شك من أعلام مفكري العصور الوسطى، ولكنه فرد قائم بذاته في إفريقية، ثم إنه كان أحد أفراد جالية لاتينية في إفريقية، ولم يكن قط من أهل البلاد، وكان يعيش في بيئة مسيحية لاتينية صرفة بعيدا عن البربر وأهل البلاد"[17].

وإلى هذا المنحى من وجهة النظر يذهب عبد الله العروي أيضا إلى القول بأن ما استدل به المؤرخون على عمق إيمان البربر بالمسيحية ليس إلا مجرد انطباع لا سبيل إلى دعمه بالأرقام، إذ ليس هناك وثائق تثبت الوقائع التي سقط فيها العدد الكبير من الشهداء والمتمردين المسيحيين أثناء محن أواسط القرن الثالث وبداية القرن الرابع، والدوافع الروحية والفكرية لطول الصراع بين الكتلكة والدوناتية، والمقاومة البطولية في وجه الاضطهاد الشرس الذي عم الكاثوليكيين تحت الملك حونريش في القرن الخامس م. وأن كل ما يمكن استخلاصه من أخبار الشهداء ومحاضر المجامع الكنسية هو الاستدلال على مكان انتشار الدعوة النصرانية. أما آثار الكنائس الضخمة التي لا يعرف عددها فإنها لا تدل بالضرورة على كثرة وإيمان السكان المسيحيين، بل قد تدل على ثروة من تبرع بتشييدها، والذي ربما كان مستقرا خارج إفريقيا[18].

بينما يذهب باحثون آخرون إلى التأكيد على أهمية الانتشار المسيحي في المغرب، ويمكن رصد هذا الرأي عند إبراهيم حركات، إذ يقول إن المسيحية لم تنتشر في قسم كبير من موريطانيا الطنجية فحسب، بل تعدتها إلى باقي أجزاء المغرب كما تشهد

(15) مؤنس حسين : تاريخ المغرب وحضارته ، الدار السعودية – جدة، ط 1 - 1990، م1 /ص66.

(16) التحديد الجغرافي بالنسبة إلى المؤرخين والجغرافيين يمتد من برقة إلى المحيط الأطلسي.

(17) مؤنس حسين : تاريخ المغرب وحضارته، م1/ ص66.

(18) العروي عبد الله : مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط4 - 1944، ص78-79.

بذلك حروب العرب، ثم الأدارسة مع البربر، على اعتبار أنه كانت هناك بعثات تبشيرية تنطلق من طنجة ووليلي عبر القبائل البربرية، حيث ثبت أن المسيحية بلغت ناحية الحوز عند المحيط الأطلسي[19].

وفي هذا السياق يذهب شارل جوليان charles juliane إلى أن المسيحية وجدت استعدادا طيبا، وسجلت تقدماسريعا في بلاد البربر، بحيث تهيأت الطبقة الأرستقراطية إلى الوجدانية بفضل الفلسفة، وتهيأ الشعب بواسطة الديانة البونيقية التي كان أصحابها يدينون بإله واحد، ويستشهد بقول ترتوليانوسTertulianus سنة 197 : "إنك تلاحظ بنفسك كثرة عددنا، إن الناس يتضجرون من احتلال المدينة، ومن المسيحيين في كل مكان حتى في الحقول والقرى المحصنة والجزر. وإن كل الأسماء مهما كان الجنس والسن والمرتبة أصبحت مسيحية."[20].

ومهما كانت درجة الخلاف وطبيعته بين المؤرخين حول عمق الانتشار المسيحي في المغرب، فإن المفتقد في هذه الحقبة التاريخية هو الحقائق التي تؤكد زمن وكيفية دخول المسيحية إلى المغرب، والظروف التي أحاطت بنشر الدعوة بين السكان، ونظام العبادات الذي كان متبعا لديهم، حيث يفترض أن يكون قد دخل هذا الدين من الموانئ وخاصة من قرطاج ثم انتشر في البلاد، واعتنقه أهل المدن بصفة خاصة[21]. كما يعتقد أن التبشير بالإنجيل بدأ في موريطانيا الطنجية أواسط القرن الثالث الميلادي استنادا إلى البقايا الأثرية. ويجهل كل شيء عن المبشرين الأوائل الذين وصلوا إلى طنجة بما في ذلك الكنيسة والبلد الذي قدموا منه. ويعتبر النص الذي يحكي عن استشهاد سانت كاسيان في طنجة (257 - 259) أول نص مكتوب يؤكد الوجود المسيحي بالمغرب[22]. ويعتقد المؤرخون أيضا أن الدعوة إلى المسيحية بدأت أثناء القرن الثاني داخل جماعات شرقية في المدن الساحلية، ثم نقلها الجنود إلى المدن الداخلية الصغيرة[23]، وأصبحت لها كنائس في المدن المغربية، وأنجبت كثيرا من القديسين أمثال ترتوليان، سابيريان، وسان أكوستان. وانتصرت كنائسهم على الاضطهادات الكثيرة التي تعرضت لها من قبل الكنيسة الرومانية[24]. إذ شهدت

(19) حركات إبراهيم : المغرب عبر التاريخ، دار السلمي، الدار البيضاء، ط1 - 1965، ص68.

(20) جوليان شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، الدار التونسية ط 1983، ص255.

(21) جوليان شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، ص255. وحركات إبراهيم : المغرب عبر التاريخ ، ص 67.

(22) غطيس مصطفى : تمودة ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان (د . ت)، ص74.

(23) العروي عبد الله : مجمل تاريخ المغرب ، ص 59.

(24) السائح حسن : الحضارة المغربية عبر التاريخ، دار الثقافة، ط1 - 1975، ج1/ ص78.

موريطانيا الطنجية اضطهاد المسيحيين كما دلت على ذلك الحفريات بطنجة، حيث تأكد من النقوش الأثرية أن مسيحيا يدعى مارسيل Marssil قتل سنة 298م، وآخر يدعى كاميان Kamian قتل حوالي 305م[25]. كما شكلت تمودة مركزا أسقفيا في القرنين الرابع والخامس، وبلغ عدد الأسقفيات في موريطانيا الطنجية خمسة وعشرين أسقفية، من بينها أسقفية تمودة التي مثلت سنة 411م في مجمع قرطاج عن طريق أسقفها دوناتوس[26] Donatus.

وقد عرفت الكنيسة في المغرب انبثاق عدة تيارات دينية أبرزها حركة لعبت دورا متميزا في تاريخ المسيحية في إفريقية بوجه عام، وهي الحركة الدوناتية نسبة إلى مؤسسها دوناتوس، والتي انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وحاربتها. وقد تسبب هذا الانشقاق في مواجهات دموية سقط بسببها كثير من الشهداء[27]. ويطرح المذهب الدوناتي بالنسبة إلى المؤرخين صعوبة في تقويمه وتفسير أبعاده السياسية والاجتماعية. ذلك أن الدوناتية باعتبارها حركة دينية ناهضت النظام الروماني، وهاجمت الكنائس والأساقفة الكاثوليك، لم تكن تتميز بإيديولوجيا مسيحية معينة، بحيث أن الفوارق العقدية بين الكنيستين كانت شبه منعدمة. إلا أن اضطهاد الحكومة للدوناتية دفع أصحاب هذه الحركة إلى الاعتماد على الفئات الدنيا من المجتمع، ومن بينها فئة الدوارين لتنفيذ ثورتها. وربما كان هذا سببا في إثارة البعد الإجتماعي للحركة الدوناتية، والقول عنها بأنها كنيسة الفقراء. وقد ظلت الكنيسة الدوناتية تناهض من أجل أن تعترف بها الدولة على أنها الكنيسة الكاثوليكية الشرعية[28].

---

(25) حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، ص68.

(26) غطيس مصطفى: تمودة، ص 74.

(27) العروي عبد الله: مجمل تاريخ المغرب، ص59.

وينسب الباحثون سبب انشقاق الدوناتية إلى اضطهاد ديقلديانوس المسيحية، وطعن الأساقفة النوميديين أسقف قرطاج الذي اتقى تعذيب نفسه من قبل المضطهدين باستعمال أساليب منافية لشرف الرئيس الأول للكنيسة، فقام حزب مناوىء في قرطاج اتهم الأسقف الجديد بأنه أساء معاملة المسيحيين السجناء ومنع إخوانهم في الدين من زيارتهم في سجون قرطاج إبان الاضطهاد. عندئذ تم تعيين أسقف منافس له لم يلبث أن قضى نحبه، وخلفه دوناتوس الذي أعطى لقبه للدوناتية. وقد اعتمدت هذه الحركة على طائفة سميت بالدوارين في مواجهة الكنيسة الرسمية. وكان هؤلاء جماعات من الرحل يبحثون عن العمل في الضيعات خلال الغلات الموسمية ويشتغلون في بعض الأحيان عساكر للدوناتية يهاجمون الكنائس والأساقفة الكاثوليك، ويقومون بزيارة أضرحة الشهداء. انظر في هذا الموضوع :

- المبكر محمد : القديس أغسطينوس وقضية العلاقات بين الدوارين والدوناتية، مجلة كلية الآداب – فاس، ع 2 - 1985، ص19.

وجوليان شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، ص296.

(28) المبكر محمد: حركة الدوارين في شمال إفريقيا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. مجلة كلية الآداب، فاس، ع7 - 1983 - 1984، ص 267 - 268.

ويعتبر المذهب الأريوسي[29] أيضا من المذاهب التي ميزت الكنيسة في المغرب، وقد ارتبطت الأريوسية بالدولة الوندالية، وأصبحت مذهب الكنيسة الرسمي في عهدهم. وأقام الوندال حوالي قرنا من الزمان قضوا خلاله على معظم آثار الرومان وحضارتهم في البلاد، وحاربوا الكنيسة الكاثوليكية بشدة سواء في عهد جنسريق، أو في عهد خلفائه، ومارسوا ألوانا من الاضطهاد والقمع إزاء الكاثوليك وأساقفتهم[30]. وقد استعادت الكنيسة مكانتها بعد أن انتقلت سلطة الحكم إلى البيزنطيين الذين قضوا على الوندال. وعرفت الكنيسة في هذه الفترة مذاهب أخرى كالنسطورية واليعقوبية[31]. ويذهب البعض إلى أن المسيحية تراجعت خلال الحكم البيزنطي من دواخل المغربين الأوسط والأقصى، وخاصة في أوائل القرن السابع الميلادي عندما تدهورت أحوال الدولة، فتحرر البربر من سلطان روما، وانصرف أغلبهم عن المسيحية وتضامت صفوف قبائلهم، حيث وجد العرب تلك الجماعات عندما فتحوا البلاد على حالة طيبة من القوة والتنظيم[32].

ومن خلال كل ما سبق نستطيع أن نؤكد حقيقة الحضور المسيحي في المغرب استنادا إلى وثائق المجامع الكنسية والحفريات التي وقف عليها المؤرخون. وإذا كان الباحثون العرب في تاريخ المغرب يقللون من شأن ما توصل إليه المؤرخون وعلماء الآثار الأجانب في هذا المجال وينكرون التسليم المطلق باستنتاجاتهم التاريخية على اعتبار أنها مبالغ فيها، وأن أصحابها رجال مسيحيون يهمهم ذكر أمجاد المسيحية في المغرب. فيمكن القول في هذا السياق إنه إذا كانت هذه المرجعية التاريخية لا ترقى إلى رصد هذا الحضور الديني في تفاصيله وجزئياته، فإنه يمكننا أن نجزم بانتشار المسيحية في المغرب، وبوجود

(29) الآريوسية نحلة دينية نادى بها كاهن إسكندري اسمه آريوس، تزعم أن الكلمة غير مساو للآب في الجوهر، علما بأن الكنيسة الكاثوليكية تعتبر أن الكلمة، أي ابن الله هو الله حقا ومساو للآب. وقد لاقت بدعة آريوس صدى لها في فلسطين وفي الشرق قاطبة، مما دعا الإمبراطور قسطنطين إلى عقد مجمع كنسي في بنيقيا لتحريم آريوس، وأعلن المبادىء المحددة للإيمان المسيحي. عبودي هنري. س: معجم الحضارات السامية، ص 21.

(30) مؤنس حسين : تاريخ المغرب وحضارته ، ج1 /ص 70 وجوليان أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، ص 331 و340.

(31) النسطورية نسبة إلى نسطور الحكيم الذي تصرف في الأناجيل بحكم رأيه، وقال إن الله تعالى واحد، وأقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم. وزعموا أن الابن لم يزل متولدا من الآب، وإنما تجسد واتحد بجسد المسيح حين ولد. والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت، فهو إله وإنسان اتحدا، وهما جوهران، أقنومان، طبيعتان: جوهر قديم، وجوهر محدث، إله تام، وإنسان تام. ولم يبطل الاتحاد قدم القديم. ولا حدوث المحدث لكنهما صارا مسيحا واحدا. وهناك تيار نسطوري يقول إن المسيح ابتدأ من مريم عليها السلام، وإنه عبد صالح مخلوق، إلا أن الله تعالى شرفه وكرمه لطاعته، وسماه ابنا على التبني، لا على الولادة والاتحاد..أما اليعقوبية نسبة إلى يعقوب، قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أنهم قالوا إن الكلمة انقلبت لحما ودما فصار الإله هو المسيح.انظر، الشهرستاني: الملل والنحل، تح، محمد سيد كيلاني- دار المعرفة-بيروت-ط1980-ج1/ ص224-225.

(32) مؤنس حسين : تاريخ المغرب وحضارته، ج1/ص 70-71.

مغاربة مسيحيين في التاريخ القديم. ولعلنا في هذا التأكيد نستند إلى أخبار الفاتحين لأرض المغرب عند مجيء الإسلام، وهي الأخبار التي لا يمكن أن نصفها بالتحيز، والتي تقول بوجود الديانة النصرانية بالمغرب، يقول ابن خلدون في هذا الصدد: "ولما استوثق أمر إدريس وتمت دعوته زحف إلى البرابر الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية، مثل فنداوة وبهلولة ومديونة ومازار وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادلا، وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية، فأسلموا على يديه طوعا وكرها، وهدم معاقلهم وحصونهم."[33]. ثم يقول في هذا السياق أيضا: "محا إدريس الأكبر الناجم بالمغرب من بني حسن ابن الحسن جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل، فكان البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم كما ذكرناه"[34].

ولعل مثل هذه الأخبار لا تستطيع الإجابة عن الإشكالات التي يثيرها التواجد المسيحي بالمغرب مثل طبيعة العبادة المسيحية، ومنشآتها الدينية، وتفاصيل حيثياتها. ولكن رغم ذلك فإن هذا الحضور الديني لا يفقد قيمته، ولا تضيع حقيقته، وتبقى هناك حقيقة نحتاج إلى تأكيدها وهي أن المسيحية لم تكن هي الدين الوحيد للمغاربة، فقد كان هناك أيضا إلى جانبه الدين اليهودي والوثنية التي اتصفت عند المغاربة بعبادة الآلهة والأشجار والحيوانات، رغم أن أكثرهم - كما يقول ابن خلدون - كانوا يدينون باليهودية والنصرانية، مما يدل على أن المغاربة كانوا يميلون إلى التوحيد. ويرجع البعض هذا الميل إلى التأثير الديني للفينيقيين في المغرب، حيث تأثر هؤلاء بعدة ديانات قبل ظهور المسيحية في الشرق، واختلف على بلادهم الأنبياء، وكان طابعهم الديني توحيديا[35]. ولعل خصوصية هذه البيئة التي لم تبتعد عن هدي الأديان هي التي ساهمت في صياغة التوجه الديني للإنسان المغربي القديم، ومن تم يمكن أن نفهم على ضوء هذه الملابسات أن هذه البيئة كانت مهيأة لتقبل الدين المسيحي واستمراره إلى أن تلاشى في صدر الفتح الإسلامي للمغرب.

2 - الكنيسة في المغرب بعد الإسلام:

تبدأ حقبة الفتوح الإسلامية للمغرب مع عقبة بن نافع الفهري سنة 62 هـ، أي في أواخر ق 1هـ، حيث نظم هذا القائد حملة عسكرية كبيرة على بلاد المغرب، وصل بها إلى

(33) ابن خلدون: كتاب العبر، دار الفكر- بيروت، ط2-1988، ج 4/ ص17

(34) ابن خلدون: م. ن، ج16/ ص 140 - 141.

(35) السائح الحسن: الحضارة المغربية عبر التاريخ، ص67.

حدود المحيط الأطلسي بعد أن دخل إلى جميع مناطقه. وبعد استشهاده بسط الأمير كسيلة النصراني سيطرته على المغرب، ووصل إلى حدود القيروان، وقضى عليه بعد مدة زهير بن قيس البلوي سنة 69هـ، ثم قام من بعده حسان بن النعمان الغساني بحملة أخرى على المغرب، قضى فيها على الكاهنة اليهودية التي كان لها نفوذ قوي في المغرب، وكانت قد أشاعت بين المغاربة عند توالي الفتوح على المغرب أن العرب يستهدفون خيراته واستغلاله، فخربت مدائنه وحصونه، وخرج يومئذ كثير من النصارى والأفارقة هربا من اضطهادها، فتفرقوا في الأندلس وسائر الجزر البحرية، ثم تلت هذه الفتوحات حملة موسى بن نصير التي انتهت بها فتوح المغرب، ويقول البكري إنه "في هذا التاريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى"[36].

والحقيقة أن الإسلام لم يستقر وضعه بشكل نهائي بعد حملة موسى بن نصير مباشرة، فقد استمر المغاربة يدينون بالمسيحية واليهودية ومعتقدات أخرى، ويؤكد هذه الحقيقة مجموع الأخبار التاريخية التي وصفت حال المغرب خلال هذه الحقبة، يقول الرهوني في حديثه عن تاريخ مدينة تطوان: "وإنها كانت في الاحتلال الثاني العربي لهذه القارة الإفريقية، مسكونة للنصارى، وإن موسى بن نصير، لما ولي على إفريقية من طرف الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وزحف إليها عام 710 مسيحي، أي عام 92 هـ، كان في جملة ما دخل في مملكته، طنجة وتطاوين، مع قبائل الريف والبربر، وسلسلة الجبال المعروفة الآن بجبالة، وهي زناتة وصنهاجة وكتامة وهوارة، ولما زحفوا إلى أصيلا وطنجة وتطاوين، وجدوا سكانها النصارى هربوا أمامهم إلى إسبانيا، غير أن القوة الحاكمة العربية لم تكن إلا مؤقتة، ثم يتقلص ظلها، لا في غيره من المواقع الأخرى في شمال إفريقيا"[37].

ولعل ضعف الحكم العربي في المغرب إبان هذه الحقبة يمكن أن يكون سببا في استمرار وجود المسيحية وملل أخرى رغم انتشار الإسلام به، إلى أن جاء إدريس الأكبر فوحد القبائل المتفرقة، وقضى على ما كان بالمغرب من أديان ونحل - باتفاق جميع المؤرخين - حيث يمكن الحديث عن اندثار المسيحية بصفة نهائية في هذا الطور من أطوار تاريخ المغرب، ومن تم لم يعد هناك ما يؤشر على نوع من أنواع التواجد الكنسي، لأن

(36) انظر في هذا الصدد كتب التاريخ التي تتناول أخبار الفتوح الإسلامية مثل :
- ابن أعثم : الفتوح، تح.سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط1-1992، (3 أجزاء).
- يحيى بن جابر البلاذري : البلدان وفتوحها وأحكامها، تح.سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ط 1 - 1992، (جزء واحد).
- ابن خلدون : كتاب العبر، ج 2 و3 و4.

(37) الرهوني أبو العباس: عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تح. جعفر ابن الحاج السلمي. منشورات جمعية تطاون أسمير ط1-1998- ج1/ ص164-165.

هذا الأمير قضى على كل متعلقات المسيحية[38] وباقي الملل، لكي تستقيم له أمور بناء دولة إسلامية موحدة .

ومنذ هذه الحقبة لم تتحدث المصادر التاريخية عن أي تواجد مسيحي ما بالمغرب، فبعد انقضاء عهد دولة الأدارسة توالت عدة دول على حكم المغرب، فحكمت إمارات زناتة بلاد المغرب خاضعة للأمويين ومنها إمارات مكناسة، ومغراوة، وبنى مدرار، والبرغواطيين. وبعد حكم هذه الإمارات، حكم المرابطون الذين عرفوا بقوتهم وحروبهم ضد المسيحيين في إسبانيا، وإن كانت بعض الأخبار التاريخية تشير إلى أن تسامح المرابطين مع المسيحيين في الأندلس قد تجسد في احترام الحقوق الدينية والاجتماعية، حيث سمحوا لهم بامتلاك بعض الكنائس، وكان لهم على الصعيد القضائي قضاء خاص، كما ثبتت حرية تعامل المسلمين مع المسيحيين حتى وصل إلى حد مشاركتهم في احتفالاتهم وعاداتهم والزواج منهم. كما سمح هؤلاء الملوك؟ استنادا إلى ما أورده الونشريسي في معياره – للمستعربين المرحلين إلى المغرب ببناء الكنائس في مناطق إقامتهم، شريطة ألا يضربوا النواقيس. كما تقلد هؤلاء المستعربون وظائف عليا في الدولة واستخدموا ضمن الحرس الخاص لعلي بن يوسف[39].

ولا نستطيع أن نجزم بالتواجد الكنسي في المغرب في هذه الحقبة، لأن هذا النوع من التسامح لا يمكن أن ينسحب على جميع ملوك المرابطين، وطيلة فترات حكمهم، ولا في جميع أجزاء الحيز الجغرافي الذي شملته سلطتهم، فإذا سلك بعضهم مبدأ التسامح الديني في الأندلس، فقد كان ذلك تماشيا مع طبيعة الواقع الذي حتم التعايش بين المسلمين والمسيحيين الذين كانوا يشكلون جزءا مهما من المجتمع الأندلسي، أما بالنسبة إلى المغرب فلم يسجل فيه الحضور المسيحي وجودا متميزا ما عدا حضور بعض المستعربين الذين رحلوا إليه من الأندلس. ولا تؤكد المصادر التاريخية – ومنها المسيحية – على بناء الكنائس في المغرب في العهد المرابطي، ويذهب فرانسيسكو ديل بويرتوق Francisco del Puert إلى القول : "إن الفرسان القوط منذ أن خرجوا من إسبانيا، وأتوا إلى المغرب أقاموا به الكنيسة المقدسة منذ السنوات الأولى"[40]. ويرجع حقيقة وجود الكنيسة منذ هذه الحقبة ببعض الدلائل منها " أن المسلمين لم يمنعوا إقامة الكنائس، بحيث عندما سيطروا على إسبانيا، سمحوا للمسيحيين بامتلاك كنائسهم

(38) انظر، ابن خلدون : المقدمة، ج4،/ص 17 وج6/ص140.

(39) بوتشيش إبراهيم : المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، مجلة دراسات أندلسية، ع11-جانفي 1994. انظر من ص 24 إلى 27.

(40) Francisco del Puerto : Mission Historial de Marruecos-Francisco Garay, Sevilla 1708, p86

وأساقفتهم، وإقامة مجمعات دينية إقليمية في الأسر كما ثبت عن جميع المؤرخين القدماء، وخاصة سان إليخيو مارتير San Eligio Martir المؤرخ والعالم بهذه العبودية، كما سمح هؤلاء المسلمون لمذهبنا بإقامة الكنائس والمحافظة عليها إلى يومنا هذا (ق16م) في هذه المملكة، بحيث كان هؤلاء السلاطين أقل بربرية وأكثر سياسة. كما أن هذه العائلات النبيلة المستعربة التي كانت كاثوليكية المذهب، وطال أسرها، كان عددها يتنامى وباقي المسيحيين الآخرين، وفي هذه الحالة لا يمكن الاقتناع بعدم وجود شكل من أشكال الكنيسة، ورهبان يرعون الممارسات الروحية المقدسة، علما بأن الأسرى المسيحيين الذين بقوا في إسبانيا حافظوا على مقدساتهم في ظل الحكم والديانة اللتين وجدتا في المغرب"[41].

ويشير المؤرخ فرانسيسكو ديل بويرتو إلى دليل آخر يعتبره أكثر إيجابية في هذا السياق، ويستنبطه من الرسالة التي أرسلها البابا إينوسينسيو الرابع Inocencio quatro إلى سلطان المغرب سنة 1246، والتي يشير فيها البابا إلى أن المسيحيين الموجودين في المغرب أسروا من قبل أجداد هذا السلطان الذين أتاحوا لهم إقامة كنيسة وخولوا لهم الحرية الدينية[42].

ورغم كل هذه الدلائل فإن المؤرخين المسيحيين لم يستطيعوا أن يؤكدوا حقيقة وجود الكنيسة في هذه الأزمان، صحيح أنهم أكدوا أن هؤلاء المستعربين كانوا يحظون بالمكانة النبيلة لدى ملوك المغرب، حيث وفروا لهم ظهائر الأمان، وخصصوا لهم حيا بنوا فيه قصورا ومنازل لسكناهم، وأنعموا عليهم بامتيازات متفردة[43]. لكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم التزموا الصمت إزاء وجود أي شكل من أشكال الحضور الكنسي بالمغرب. يقول في هذا الصدد المؤرخ فرانسيسكو ديل بويرتو: "ورغم اعتراف هؤلاء الفرسان بالحلم الجميل للسلطان المسلم، فقد حرم العبادة المسيحية المقدسة، وليس هناك أكثر وحشية من الإحساس بالتواجد خارج الوطن الحنون، بعيدا عن الكنيسة الأم المقدسة، ويزيد هذا الإحساس الصائب حدة، عندما نرى عددا كبيرا من المسيحيين الأسرى... لا يملكون في هذه الإمبراطورية البربرية مساعدين إكليروس يرعون الجانب المسيحي والعادات المسيحية والشعائر المقدسة التي تحبب كثيرا في ديانتنا الحقيقية. فإقامة المسيحيين مع هؤلاء البربر المتوحشين تشبه ما حدث للإسرائيليين مع الغجر، وهو مثال خطير تزداد حدته مع الأجيال

(41) Francisco del puerto : Mission Historial de Marruecos, p86

(42) Francisco del puerto : Mission Historial, p87

(43) Francisco del puerto : Mision Historial, p 84

الموالية، والتي بتكاسلها مع توالي الأزمان لن يبق هناك إلا اسم المسيحيين"[44].

ومن خلال كل ما سبق نستشف أنه لم يكن هناك وجود لكنائس شيدت في المغرب من أجل المستعربين، وما سمح به هؤلاء الملوك هو مجمعات دينية فقط. وقد يذهب بعض الدارسين[45] إلى أن المؤرخين المسيحيين يتعمدون نفي ذكر أي شكل من أشكال التسامح الديني، لكي يتهموا المسلمين بالتعصب الديني، واضطهاد المسيحيين وانتهاك حقوقهم. وفي هذا السياق يمكن القول، إنه رغم ما يطبع الكتابات المسيحية من تحيز ولا موضوعية عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الجانب المسلم، فإن هؤلاء المؤرخين لم يغفلوا ذكر ما شيد من كنائس في بلاد الإسلام، لأنها تعكس في نظرهم صورة من صور مجد الديانة المسيحية وانتصارها على الإسلام.

وهكذا تتفق جميع المصادر التاريخية المسيحية على أن أوليات التواجد الكنسي كانت في القرن الثالث عشر ميلادي، أي إبان حقبة الحكم الموحدي. ويوافق هذا التاريخ انطلاق الحركة التبشيرية التي ابتدأت بتأسيس المذهب الفرنسيسكاني على يد فرانسيسكو دي أسيز Francisco de Asis بفرنسا سنة 1208، وتلا ذلك اجتماع ديني سنة 1219، اجتمع فيه مع خمسة آلاف راهب من مذهبه لإرسال البعثات التبشيرية إلى مختلف مناطق العالم. ومن بينها كانت بعثة المغرب التي ائتلفت من خمسة رهبان، تخلف منهم واحد في مملكة أراغون بسبب المرض، ووصل خمسة في السنة نفسها . ولما علم ملك المغرب بتبشيرهم العلني وسط العامة أمر بطردهم من مملكته، فاقتيدوا إلى سبتة، ثم رجعوا ثانية إلى مراكش، وبشروا بالإنجيل وسط العامة، فقتلهم الملك في يناير 1220، واعتبروا نتيجة لذلك شهداء البعثة الأوائل. وقبل هذه البعثة أرسلت بعثة أخرى بقيادة الفرايلي إيليكتو Electo وفراي إيخيديو Igidio، فبقي الثاني في تونس، ودخل الأول إلى المغرب، ومات بعد مدة من الزمن. وفي سنة 1225 وجه الأب أونوريو الثالث Honorio 3 رسالة إلى مذهبي الفرانسيسكانيين والدومينيكيين ليتحملا المسؤولية الروحية تجاه المسيحيين الموجودين في المغرب. ووجه رسالة أخرى إلى عائلتي الرهبان الواعظين، والرهبان الصغار للحفاظ على المسيحية في المغرب. ويعتقد المؤرخون المسيحيون أن ملك المغرب أذن ما بين سنتي 1225 و 1226 ببناء خمس كنائس، إلا أن المؤرخ فرانسيسكو انتهى إلى حقيقة مؤداها أنه تم بناء كنيسة واحدة فقط في مراكش، وأن الأربعة الباقية كانت مجرد ملاجئ أقيمت

(44) Francisco del puerto : Mision Historial , p 84 - 85.

(45) بوتشيش إبراهيم : المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، مجلة دراسات أندلسية، ع 11 - جانفي 1994، ص 24.

في المناطق التي وجد فيها الأسرى. كما سمح الملك للمسيحيين بالاجتماع في هذه المعابد وأداء شعائر عقيدتهم مثل ما تؤدى في كنيسة روما، وحضور الأساقفة فيها لتسيير شؤونها الدينية. وفي سنة 1226 عين البابا أول أسقف للمذهب الفرانسيسكاني بالمغرب هو الفرايلي أخنيلو Agnelo، وأرسل بعده في سنة 1227 مبشرين جددا إلى المغرب وصلوا إلى سبتة وبشروا بالإنجيل علانية، فقتلوا هناك، ولقبوا "بشهداء سبتة"[46].

ومن خلال كل هذه المعطيات التاريخية يمكن القول، إن التأريخ المسيحي للكنيسة في المغرب يبدأ مع بداية الحركة التبشيرية في القرن الثالث عشر الميلادي، بحيث ارتأت أوربا في هذه الحقبة أن لا تعتمد فقط على المواجهة الحربية التي كانت تعتبر قبل ذلك الطريقة الشرعية الوحيدة للقاء مع المسلمين، وأن تحاور أتباع الإسلام لتوصلهم إلى الإيمان المسيحي، ولعل محاولة فرانسيسكو داسيز Francisco de Asis كانت تجري في هذا السياق، وتسعى إلى زرع وتنظيم الكنائس في مثل هذه المناطق لتبعث القوة في الحروب الصليبية وتهيئ لها أسباب الانتصار[47].

لكن هذا الاتجاه لم ينجح أول الأمر في من قبل الملك الموحدي يوسف بن محمد الذي قتل المبشرين الأوائل. واستمرت هذه البعثات التبشيرية، والحث على تحقيق سعيها الذي انتهى بإقامة الكنيسة بمراكش، وإرسال الأساقفة واستقرارهم بمدن المغرب "فمنذ سنة 1225 أرسل الكرسي الحواري البعثات التبشيرية إلى مراكش وفاس، وباقي أقاليمه، لتقيم هناك ممتلكاتها بإذن من أمير المؤمنين، وتتمثل الامتيازات التي منحها الكرسي الحواري لهؤلاء المبشرين في الوعظ بالإنجيل المقدس، وإدارة التعميد المقدس للمهتدين الجدد، ومصالحة المرتدين، ومعاقبة الثوار على الكنيسة الرومانية المقدسة، وعدم السماح لأي مسيحي بإخراج المبشرين من هذه المملكة تحت ضغط التعذيب. والتبشير بشريعة يسوع المسيح ضد ضلالات محمد بدون انتظار إذن من العوام أو من الملوك، ثم الدفاع عن ثوابت الشريعة، والسير في اتجاه توسيع أمجاد الصليب"[48].

(46) يمكن النظر عن أوليات المد التبشيري بالمغرب :

- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos-Tipografia de la Mission catolica-Tanger 1921- p p 1-25
- Lopez José : Memoria sobre la Mission Franciscana-Tipografia Hispano- arabe de la Mission catolica-Tanger 1924. p p 10 -19.
- Lopez José : Memoria del vicariato apostolico Francisco español de Marruecos-Imprenta Hispano-Arabiga de la Mission Catolica - Tanger - 1929 - p p 3 - 16
- Buenaventuraz Diaz : Breve reseña Historica de la mission Franciscana de Marruecos - tip de la mission catolica - tanger - 1920 - p p 5 - 10 .

(47) Francisco del puerto : Mission Historial, p p 83 - 116

(48) Francis Rapp : L'eglise et la vie religieuse... ,p p168 - 169

ونشير هنا إلى أن سماح ملوك المغرب للمسيحيين بإقامة الكنيسة لم يكن بفعل الوباء الذي أصاب المغرب بعد قتل المبشرين الخمسة، وخوف الملك من تجدد النكبات، ومن صخب الشعب الذي طالب بحضور الرهبان، وخضوعه لرغبة الفرسان القوط المستعربين، كما يذهب إلى ذلك المؤرخ المسيحي فرانسيسكو ديل بويرتو، فمثل هذه الافتراضات لا تشكل أساسا معقولا لتحليل تاريخي صحيح. فهناك أسباب سياسية تاريخية ساهمت بشكل مباشر في إقامة الكنيسة، مردها إلى الصراع السياسي بين أمراء الموحدين على الحكم. إذ تتفق المصادر التاريخية العربية على أن المأمون بن المنصور هو أول من سمح ببناء الكنيسة، ذلك أن الموحدين لما "قتلوا العادل، بايعوا أخاه أبو العلا المأمون، وهو يومئذ بإشبيلية، ثم ندموا وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر، ولما سمع أبو العلا بذلك كله أقلقته مبايعة يحيى ابن الناصر، ونكث الناكث عليه من الموحدين، وغدر الغادرين فنظر في الجواز لبر العدوة، وعبر بذلك باطنه رواحه وغدوه، فحشد الحشود ورمم الجنود . وفي سنة ستة وعشرين وستمائة استقر أبو العلا بحضرة مراكش، ولما وصل إليها ونزل عليها خرج إليه ابن أخيه يحيى بن الناصر بمن كان معه من العرب والموحدين وسائر الجنود والحشود وضربت قبته الحمراء على جبل إيجليز واستعد لمقابلته ومحاربته، وكان المأمون قد وصل من الأندلس بنحو خمسمائة فارس من الروم وبمن كان معه من العرب والموحدين والجنود والحشود، فقصد الروم إلى القبة الحمراء فمزقوها ووقعت الهزيمة على عساكر يحيى بن الناصر وهرب فارا بنفسه، لا يعلم يومه من اسمه، وهزمه عمه هزيمة عظيمة قتل فيها من الموحدين وأتباعهم من العرب وأشياعه أمما لا تحصى"[49].

ويختلف التأريخ العربي حول عدد الجنود الروم الذين استعان بهم المأمون في قتال ابن أخيه، إذ يذهب ابن أبى زرع أن المأمون لما كان متوجها إلى مراكش بعد مبايعته، علم بنكث هذه البيعة في الجزيرة الخضراء، ف "بعث من حينه إلى ملك قشتيلية يستنصره على الموحدين، ويسأله أن يبعث إليه جيشا من الروم يجوز بهم العدوة لقتال يحيا ومن معه من الموحدين، فقال له ملك قشتيلية لا أعطيك الجيش إلا على شرط أن تعطيني عشرة حصون مما يلي بلادي اختارها بنفسي. وإذا من الله تعالى ودخلت مراكش تبني للنصارى الذين يسيرون معك كنيسة في وسطها يظهرون بها دينهم ويضربون نواقيسهم في أوقات صلواتهم، وإن أسلم أحد من الروم لا يقبل إسلامه ويرد إلى إخوانه، فيحكمون فيه بحكمهم، ومن تنصر من المسلمين فليس لأحد عليه من سبيل. فأسعفه في جميع ما طلب

(49) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح : إبراهيم الكتاني وجماعة، دار الغرب الإسلامي - بيروت ط 1 - 1985، ص 284.

منه، فبعث إليه جيشا كثيفا من اثني عشر ألف فارس من النصارى برسم الخدمة معه والجواز إلى العدوة، فهو أول من جوز الروم إلى العدوة واستخدمهم بها، فوصله الجيش في شهر رمضان من سنة ست وعشرين وستمائة"[50].

وقد استجاب المأمون حقيقة لمطالب الملك القشتالي. وما يؤكد ذلك أن المأمون عندما ذهب إلى سبتة لمواجهة أخيه السيد عمران، وطالت غيبته هناك "اغتنم يحيا الفرصة فنزل من الجبل (و) دخل مراكش، وهدم كنيسة الروم التي بنيت بها، وقتل كثيرا من اليهود وبني فرخان، وسبا أموالهم"[51]. ولما علم بذلك المأمون وجنده النصارى الذين كانوا عمدته في إصداره وإيراده، وتركوا سبتة وعادوا اضطرارا، وأقسم المأمون أن يطلق جنده في البلاد ثلاثة أيام حتى ينتصفوا لحرق الكنيسة، إلا أنه مات في وادي أم الربيع قبل وصوله إلى مدينة مراكش[52]. ولما تولى الحكم ابنه الرشيد انحل الاتفاق الذي عقده المأمون مع النصارى[53]، وقيل أيضا أن هؤلاء الجند قضى عليهم المرينيون في قتالهم مع الموحدين[54].

وما يمكن أن نستشفه من خلال ما سبق هو أن الكنيسة وجدت في مدينة مراكش، ولا نستبعد في ظل المعطيات التي وجدت بها هذه الكنيسة، وجود معابد مسيحية في مدن مغربية أخرى في هذه الحقبة كما يذهب إلى ذلك المؤرخون المسيحيون. فلقد تضافرت عوامل متعددة هيأت لهذا التحول في موقف ملوك المغرب، منها أن الدولة الموحدية كانت تعيش عصرها الثاني الذي عرف عند المؤرخين بطور الانحلال والتدهور، الذي يبدأ خاصة بعد الهزيمة في معركة العقاب التي كانت حربا صليبية بين جيوش الناصر الموحدي، والجيوش المسيحية التي استجابت إلى دعوة البابا، وجاءت من مختلف دول أوربا لنصرة الأسبان، فانحسرت بسبب هذه الهزيمة دولة الإسلام في الأندلس. ومنها أيضا عوامل الفساد السياسي الذي تمثل في ضعف السلطة المركزية، والصراع على الحكم الذي أدى بالمأمون – على سبيل المثال – إلى تقديم تنازلات كثيرة لصالح الأسبان.

(50) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط، ط 1972 – ص250 - 251. انظر أيضا : الناصري : الاستقصا، ج 2 / 237.

(51) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص 253. وانظر أيضا : ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، ص 298

(52) ابن عذارى : م. ن، ص 298.

(53) ابن عذارى : م. ن، ص 301.

(54) انظر عن هذا الموضوع : ابن عذارى : البيان المغرب ، ص402 - 404.

3 - أطوار الحضور الكنسي :

● **الطـور الأول :**

قسم المؤرخون المسيحيون تاريخ البعثات التبشيرية إلى عدة حقب. وتبتدأ الحقبة الأولى منذ إرسال المبشرين الأوائل وإقامة الكنيسة حيث تمتد طيلة القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر. وقد تميزت هذه الحقبة بإرسال أول مبعوث ديني برتبة أسقف إلى المغرب، وهو الفرايلي أخنيلو Agnelo سنة 1233[55]. ثم أرسلت بعثة أخرى برئاسة أسقف ثان من جنسية إسبانية،وهو الفرايلي لوبي فرنانديز Lupe Fernandez سنة 1243. وقد لعب ثلاثة رهبان من أفراد البعثة دورا في التوفيق بين الملك الموحدي وأحد الثوار المرينيين، ولما نجحوا في تحقيق الصلح منحهم الملك امتيازات أخرى، والإذن بإقامة ملاجئ في فاس ومكناس[56]، ثم تواصل مجيء أساقفة آخرين إلى المغرب. لكن المرجعية التاريخية لم تعد واضحة منذ رجوع الفرايلي لوبي إلى إسبانيا، بحيث لم تذكر المصادر التاريخية أسباب هذا الرجوع، وذكرت فقط أن الأسقف لما استنتج أن تصلب المسلمين لن يتيح له التبشير بالعقيدة المسيحية، قرر العودة الى إشبيلية. وهناك وهب له الأمير دون سانشو Don Sancho أملاكه لكي يعيش فيها هو وخلفاؤه من أساقفه المغرب.

● **الطور الثـــاني :**

تتميز الحقبة الثانية التي تمتد طيلة القرن الرابع عشر بتوقف توافد بعثات المذهب الفرانسيسكاني إلى المغرب، وذلك سنة 1307، بحيث كان الأساقفة المغاربة يقيمون في أملاك الأسقفية في إشبيلية. وفي سنة 1380 استأنف المبشرون من المذهب الفرانسيسكاني ومذاهب أخرى تواجدهم في كنيسة المغرب حتى سنة 1487. ولا تشير المصادر التاريخية إلى حيثيات وأخبار البعثات في هذه الحقبة، وكل ما يقال أنها عرفت توقفات كثيرة بسبب انتقال الحكم إلى ملوك بني مرين، فتغيرت معهم كل الأشياء، وكذا بسبب الانشقاق والحروب التي نشبت بين الدول الأوربية، وبسبب الاضطراب السياسي والتغير المستمر للسلطة الحاكمة[57].

---

(55) - Francisco del puerto : Mission Historial, p 122.
- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, p21
- Lopez José : Memoria sobre la la Mision Franciscana, p17

(56) - Francisco del Puerto : Mision Historial, p131
- BuenaventuraDiaz : Breve reseña historica..., p8
- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 24 - 25
ويذهب فورتوناتو أيضا إلى أن هؤلاء الرهبان لعبوا دور الوساطة بين السلطان الموحدي وأحد الثوار المرينيين.

(57) - Francisco del puerto : mision Historial , p p 138 - 141
- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , 29 - 30

ومما سبق يمكن أن نستشف أن تعثر البعثات بدأ منذ رجوع الأسقف الفرايلي لوبي إلى إسبانيا سنة 1275 وهي الفترة التي عرفت الانهيار الأخير لدولة الموحدين، وانتقال سلطة الحكم إلى بني مرين. فليس تصلب المسلمين هو الذي حذا بهذا الأسقف إلى الرجوع، ولكن هناك عوامل تاريخية شتى غيبتها المصادر المسيحية، وهو أن المرينيين قضوا على جنس النصارى الذي كان بالمغرب في صراعهم مع الموحدين، وألغوا جميع الاتفاقيات التي عقدها المأمون ومن جاء بعده مع الجانب الإسباني، بحيث لم تعد البعثات تحظى بالامتيازات التي حصلت عليها من قبل، بل إنها انحلت وضعفت كما يؤكد ذلك بعض مؤرخي البعثات. ويفسر هذا الوضع الجديد أمر الكرسي الحواري بتخصيص مقر لأسقفية المغرب في إشبيلية، بحيث كان المبشرون الذين يعينهم الكرسي الحواري باسم أساقفة ورهبان كنيسة المغرب يستقرون في إشبيلية، لأنها ربما كانت المدينة الأقرب إلى بلاد المغرب، ليتمكنوا من مراقبة وضعه، والعبور إليه كلما سنحت الفرصة.

- **الطور الثالث :**

لقد استمر تعثر البعثات التبشيرية وانحطاطها طيلة القرن الخامس عشر الميلادي، وهو الطور الثالث من أطوار البعثات في المغرب. وقد عين الكرسي الحواري في هذه الحقبة كثيرا من المبشرين، قيل إن بعضهم وصل إلى كنيسة مراكش، ولكن المؤرخين لا يقدمون أخبارا واضحة عن حيثيات نشاطهم التبشيري ووضعهم هناك. وفي هذا القرن بدأ الاحتلال البرتغالي يزحف على شواطئ المغرب، بحيث احتلت سبتة سنة 1415، وأسس فيها الفرنسيسكان البرتغال ديرا، ولما احتلت طنجة أقاموا فيها ديرا آخر. وعلى هذا فقد تواجد المبشرون الفرنسيسكان في كل المناطق التي احتلها البرتغال مثل أصيلة، وطنجة، وسبتة، وآسفي، وساحل البريجة الذي بنوا فيه حصن مازاكان وأزمور[58].

- **الطور الرابع :**

وموازاة مع استمرار الاحتلال البرتغالي للمدن الساحلية، فقد توقفت البعثات بشكل نهائي داخل المغرب في القرن السادس عشر، ويحاول بعض المؤرخين المسيحيين أن يعللوا هذا التوقف بأسباب تاريخية موضوعية كثيرة، منها قلة النتائج التي حصل عليها المبشرون من خلال نشاطهم التبشيري بسبب عناد المسلمين وتصلبهم، ومنها انشغال العالم المسيحي باكتشاف العالم الجديد الذي كان يحتاج إلى تكريس جهود كبيرة في ميدان التبشير، ومنها أيضا أن احتلال البرتغال للمدن الشاطئية المغربية تسبب في هروب

(58) Lopez José : Memoria sobre la mision..., p 20 - 21

المسيحيين من داخل المغرب إليها، وكذا خروج المسلمين من هذه المدن إلى داخل المغرب. فكانت النتيجة أن تثبتت الديانة المسيحية في هذه المدن، واستقر الرهبان فيها[59].

وبالنظر إلى الغايات التي وجهت البعثات التبشيرية منذ البداية إلى المغرب، فإن هذه الفرضيات لا يمكن أن تكون الأسباب المباشرة لتوقفها. ولعل السبب الأقرب إلى الموضوعية في هذا السياق هو الذي حكى عنه المؤرخ فرانسيسكو ديل بويرتو، وبيانه أن هذه الحقبة صادفت انتقال الحكم في المغرب إلى دولة السعديين، التي سميت بدولة الشرفاء، والتي أعلنت عداوتها ضد البلاد المسيحية، وطردت جميع المسيحيين الأحرار والأساقفة، ولم تسمح بممارسة العبادات في الكنيسة[60]. وما يعلل هذه العداوة هو انشغال السعديين في هذه الحقبة بمحاربة المستعمر البرتغالي والإسباني الذي وسع منطقة نفوذه في المغرب. فقد ارتأى هؤلاء أن الدعوة الدينية، وإعلان عملية الجهاد في جميع أنحاء البلاد هي السبيل الوحيد لدرء خطر المستعمر وعدوانه. وقد حاول في هذه الفترة أساقفة المغرب الذين كانوا يستقرون في إشبيلية إرسال بعض المبعوثين الدينيين إلى المغرب، فأرسلوا الأب كونتريراس Contreras الذي وصل إلى فاس فقط، لأنها لم تكن قد دخلت بعد تحت سيطرة السعديين، ولم يتمكن من الوصول إلى مراكش، ثم ذهب إلى تطوان حيث كان هناك أسرى مسيحيين، ورجع إلى إشبيلية[61]. وقد حاول ملك البرتغال بدوره إرسال الأساقفة لإسعاف الأسرى، حيث دخل ثلاثة منهم إلى تطوان سنة 1548، التي كان عدد الأسرى فيها آنذاك ستمائة أسير وبقوا في هذه المدينة بعض الوقت لأنها لم تكن تحت سلطة السعديين، ورغم ذلك فلم يسمح لهم المغاربة بالبقاء، ورجع واحد منهم إلى البرتغال ليأتي بالمال لفدية الأسرى، ثم رجعوا جميعهم بعد خمس سنوات. وفي سنة 1567 جاء راهبان آخران لفدية الأسرى، فذهب الواحد منهما إلى تطوان، وذهب الآخر إلى مراكش. وبعد مضي بعض الوقت طردا وعادا إلى إسبانيا[62].

ويحاول المؤرخون المسيحيون أن يثبتوا استمرارية الحضور الديني المسيحي في

---

(59) انظر في هذا الموضوع : Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, p p 36 - 38

(60) Francisco del puerto : Mision Historial , p p 150 -154

(61) في كتاب "La vida del Siervo de dios Fernando de Contreras" يشير مؤلفه كابريال دي أراندا Gabriel de Aranda إلى تفاصيل عبور كونتريراس Contreras إلى المغرب من أجل فدية الأسرى، رغم تلقيه تحذيرا من هذا العبور لأنه قام به في وقت قيام دولة الشرفاء السعديين. ويتحدث المؤلف أيضا عن أصل هؤلاء الشرفاء وكيفية استيلائهم على الحكم، وعن الحروب الأخيرة التي دارت بينهم وبين الوطاسيين. ثم يتناول عملية فدية الأب للأسرى في فاس، ورعاية الأسرى في تطوان، وصداقته مع المنظري.

(62) Francisco del Puerto : Mision Historial ,p p 153 - 154

المغرب، وفي هذا السياق يعتبرون الأب فراي طوماس دي خيسوس أول أسقف لكنيسة مراكش بعد توقف البعثات، مع أن هذا الأسقف البرتغالي لم يكن مبعوثا دينيا، ولكنه كان مجرد أسير أسر في حرب وادي المخازن التي دارت بين السعديين والبرتغال سنة 1578، وهزم فيها الملك البرتغالي دون سيباستيان ومات. وقد جاءوا بهذا الأسقف إلى سجن مراكش الذي كان يضم آنذاك ألفي أسير، وقام هناك بأعمال روحية لخدمة الأسرى[63].

والواقع أن ما يمكن استخلاصه هو أن السعديين في هذه الحقبة لم يعقدوا أية معاهدات مع المسيحيين للسماح بحضور البعثات في المغرب، وممارسة العبادات في الكنيسة، وأن الأساقفة الذين يتحدث عنهم المسيحيون باعتبارهم يشكلون حلقة وصل لاستمرارية هذه البعثات كانوا مجرد أسرى أسروا في الحرب، أو ألقوا بأنفسهم في أيدي المسلمين ليأسروا ويتمكنوا من خدمة الأسرى وإسعافهم روحيا، كما هو الحال بالنسبة إلى الفرايلي كونستانسيو ماكنو ConstancioMagno وهو ما يعني أن نشاط الأسقف في هذه الحالة كان جد محدود لا يتعدى حدود موضع الأسر.

• الطور الخامس :

استمر توقف المد التبشيري في بداية القرن السابع عشر، حيث لم تكن المسيحية ممثلة إلا في الأسرى وبعض التجار. لكن هذه الحقبة شهدت إعادة إحياء هذه البعثات وتحديدا منذ سنة 1620، حيث قام الأب الإقليمي سان دييكو الأندلسي خوان دي برادو Juan de prado بإرسال مبعوثين دينيين إلى المغرب لمعاينة حالة الأسرى، ووضع المغرب السياسي، ففي هذه المرحلة كان عدد الأسرى مرتفعا في المغرب، وكانت إسبانيا تحتل عدة ثغور مغربية مثل العرائش والمعمورة ومهدية، وكانت الدولة السعدية تعيش أطوار انحلالها .وهكذا استغلت هذه الظروف مجتمعة، وذهب هذان المبعوثان إلى المغرب من أجل إنجاز أهداف محددة تمثلت في مساعدة ومواساة المسيحيين وخاصة الأسرى، وجمع الأخبار المفصلة عن الحالة السياسية والاقتصادية للمملكة، ودراسة الوسائل الفاعلة للتغلب على الموقف المتصلب للملك المغربي، والحصول على إذن لدخول المبشرين إلى المغرب.

وقد استطاع أحد المبعوثان التسلل إلى داخل المغرب من حصن المحمدية متنكرا في لباس تاجر واتصل بالأسرى، وعاين حالة البلاد، ثم رجع الاثنان إلى إسبانيا دون أن

(63) - Francisco del puerto : Mision Historial ,p p 155 - 156
- Matias de San Francisco : Viage a Marruecos , Impresor del Reyno - Madrid , año 1644. pp 101 - 104

يستطيعا الحصول على إذن لدخول المبشرين. وفي سنة 1630 قرر الأب خوان دي برادو والفرايلي ماتياس Matias والفرايلي كينس Guines الذهاب إلى المغرب بعد حصولهم على مباركة البابا أونوريو الثالث Honorio 3 والمجمع المقدس لقرارهم، وكذا حصولهم على إذن الملك عبد المالك السعدي للدخول إلى المغرب. وعندما وصلوا إلى مراكش وجدوا سلطة الحكم قد انتقلت إلى الملك المولى الوليد ، فأمرهم بالرحيل، ولما رفضوا الامتثال لأمره أمر بسجنهم، وقتل الأب خوان دي برادو سنة 1631، وظل الأبوان ماتياس وكينس في المغرب إلى أن قتل المولى الوليد، وتسلم الحكم المولى محمد الشيخ الذي أبدى ميلا كبيرا نحو الأسرى والمبشرين، فمنحهم نتيجة لذلك إذنا لتأسيس الدير في كنيسة مراكش القديمة، ومجيء الرهبان إليها. وعلى هذا الأساس عين ماتياس نائبا حواريا للبعثة الجديدة، وأرسل مبشرون جدد إلى المغرب حمل واحد منهم اسم السفير لكي لا يشك المغاربة في مجيئهم، وجاءوا بهدية ثمينة إلى الملك الذي استقبلهم بحفاوة كبيرة، وسلم الأب السفير الفرايلي نيكولاس دي فيلاسكو Nicolas de velasco شهادة الحيازة القانونية للكنيسة في آخر ربيع الثاني سنة 1047 الموافق لشتنبر 1637. كما منح للرهبان الفرانسيسكان من إقليم سان دييكو إذنا للدخول والخروج إلى مملكته بحرية[64].

ومنذ هذا التاريخ ظل ملوك الأسبان يساهمون في تمويل نفقات الكنيسة واستخلصوها لأنفسهم. وأدى المسيحيون في هذه الكنيسة ممارساتهم وأعمالهم الروحية، ونظموا المواكب الدينية، وأسسوا جمعيات دينية. وفي هذه الحقبة واجه الملك السعدي محمد الشيخ ثورات كثيرة في مختلف أنحاء المغرب، وخاض مع الثوار كثيرا من الحروب انهزم فيها، فسعى لدى الدول الأجنبية، وخاصة إسبانيا، إلى طلب الموافقة على حمايته واستقباله عند زوال ملكه. وقد قام الأساقفة؟ وخاصة الأب ماتياس - بدور الوساطة في هذا الموضوع بين الملك محمد الشيخ والملك الإسباني فيليبي الرابع Felipe 4 ، ووافقت إسبانيا على طلبه، وكان ذلك سنة 1640[65]. وفي سنة 1639 عين البابا والمجمع المقدس للنشر نائبين حواريين، حيث تقرر انقسام البعثات إلى بعثة مملكة مراكش، وبعثة مملكة فاس. وكلا البعثتين من إقليم سان دييكو

(64) - Matias de san Francisco: Viage a marruecos, p p11- 39y 91- 106
- Francisco del Puerto : Mision Historial , p p173 -425
- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos ,p p 42 - 75
- Buenaventura Diaz : Breve reseña historica..., p 11- 12 - 13

(65) - Matias de San Francisco : Viage a Marruecos ,p p 110 - 111
- Francisco del Puerto : Mision Historial ,p p 446 - 449

الأندلسي[66]. وفي سنة 1644 وصلت إلى مراكش بعثة أخرى برئاسة الأب فراي فرانسيسكو دي لاكونسيبسيون، وقدم الملك محمد الشيخ آنذاك لإسبانيا هبات من القمح واللحوم، ومنح إذنا عاما لجميع الإسبانيين للإقامة في المغرب، وممارسة التجارة فيه بحرية. وأرسل إلى الملك الإسباني هدايا ثمينة، ورسالة يلتمس فيها منه استرجاع الكتب التي أخذتها إسبانيا من المغرب ووضعتها في الأسكوريال[67].

ومجمل القول، فقد استرجعت البعثات في هذه الحقبة نشاطها وقوتها. وما يمكن أن يلاحظ هو أن هذه البعثات كانت جميعها إسبانية، بحيث انفردت إسبانيا،وخاصة إقليم سان دييكو بدعمها وتوجيهها. وقد حظيت بوجه عام في ظل الملك محمد الشيخ بنوع من الاستقرار، وحققت كثيرا من الامتيازات لصالح إسبانيا. ثم إن هذه البعثات كانت تصل إلى مراكش العاصمة تحت غطاء السفارات، لكي لا يشك المغاربة في أغراضها الدينية والتبشيرية.

وبعد موت الملك محمد الشيخ سنة 1655، استمر وجود البعثات على الحالة نفسها مع ابنه أبو العباس الذي لم يدم حكمه إلا أربع سنوات، فقتله خاله عبد الكريم واستولى على عرش مراكش. ووافق هذا الملك في بداية حكمه على بقاء الرهبان في أرضه، إلا أنه أمر بعد مدة بهدم الدير والكنيسة لبناء قلعة مكانهما، وسمح لهم بإقامة دير في حي اليهود، بقي فيه راهبان فقط في هذه الفترة، لأن الحروب الدائرة بين إسبانيا والبرتغال في هذه السنوات، وكذا الحروب الداخلية في المغرب كانت تعيق وصول البعثات. ومع ذلك فقد وصلت بعثة أخرى سنة 1663 برئاسة أنطونيو دي لاكروس Antono de la cruz. وقد نعم الرهبان طيلة فترة حكم عبد الكريم بالهدوء والاستقرار ماعدا بعض الوشايات التي كان يسبب لهم فيها اليهود.

وخلال هذه الحقبة كان العلويون يحاولون توحيد المغرب وبسط سيطرتهم على كافة إماراته وأقاليمه المجزأة. وفي سنة 1668 بسط المولى رشيد سيطرته على مراكش، وقتل حاكمها ابن عبد الكريم بعد أن أخضع أغلب الأقاليم إلى سلطته، واتخذ من فاس عاصمة له. وقد تقدم إليه الرهبان بالتماسهم للبقاء في مملكته، فسمح لهم بذلك، وأذن لهم ببناء دير في مدينة فاس التي كان فيها آنذاك ثلاثمائة أسير، والإتيان بما شاءوا من الرهبان

(66) يشير إلى هذا المعطى التاريخي فرانسيسكو ديل بويرتو فقط من بين كل المؤرخين الذين اهتموا بالتأريخ للبعثات التبشيرية، ولكنه لا يضيف بيانات عن هذين المبعوثين وعن بعثة مملكة فاس، (من الكتاب نفسه، ص 457).

(67) - Francisco del Puerto : Mision Historial , p p 465 - 475

- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , pp 83 - 93

لمنحهم الأمان الملكي. ومن ثم أدى الرهبان ممارستهم الدينية في مدن مراكش وفاس وسلا ومناطق أخرى[68].

وعندما وصل المولى إسماعيل إلى الحكم سنة 1672 قام بترحيل جميع أسرى مراكش إلى فاس. ولما عاين الرهبان القسوة التي يسلكها هذا الملك في معاملاته العامة، التمسوا من صهره الباشا أن يتدخل لهم لديه للحصول على الأمان الملكي والبقاء في مملكته، فمنحهم الإذن بالبقاء في فاس، ووعدهم بالمساعدة وتوفير العيش الآمن. وعلى هذا النحو انتقلت الكنيسة من مراكش إلى فاس، حيث انتهوا من بناء هذه الكنيسة في ساجنة الأسر سنة 1672، وسميت "بكنيسة الولادة الطاهرة". ونشير هنا إلى أنه في هذه المرحلة استقر الرهبان أيضا في مكناس وتطوان، كما أن رهبان فاس قاموا بإنشاء الجمعيات الدينية، وحققوا كثيرا من النتائج الروحية في أوساط الأسرى[69].

غير أن هذا الاستقرار لم يدم طويلا، إذ طرد رهبان المذهب الفرانسيسكاني سنة 1677 وعوضوا برهبان المذهب الثالوثي الذين عينوا من قبل المجمع المقدس، وجاءوا إلى المغرب والتمسوا من السلطة الحاكمة إقامة مستشفيات في فاس وتطوان، وفدية الأسرى، فسلموا لهم كنيسة ودير فاس، ووعد رئيس هذه البعثة المولى إسماعيل بدفع جزية سنوية مبلغها ألف بيسو، وبناء المستشفيات، وجلب الدواء لمعالجة جميع المرضى مجانا سواء كانوا مسلمين أو يهود أو مسيحيين. وهكذا استقر ثلاثة رهبان من هذه البعثة في تطوان "وثلاثة آخرون في فاس، واهتم الثلاثة الباقون بفدية الأسرى، والتجأ الرهبان الفرانسيسكان إلى سبتة، وأقاموا هناك ديرا واستقروا فيه، ولم يمكث الرهبان أصحاب المذهب الثالوثي في المغرب مدة طويلة، فقد رجعوا إلى إسبانيا بعد سنة ونصف حققوا خلالها فدية مائتي أسير[70].

وفي سنة 1686 عادت بعثة فرانسيسكانية إلى المغرب برئاسة الأب خيرونيمو Geronimo. فمنحهم المولى إسماعيل في هذه المرحلة الأمان الملكي، والإذن بالدخول والخروج إلى مملكته بحرية، والإقامة في المكان الذي يناسبهم، وكلف ابنه المولى زيدان، برعايتهم وخصص لهم مكانا في مكناس لبناء الكنيسة والإقامة فيها. ومن ثم وصلت بعثة

(68) - Francisco del Puerto : Mision Historial , pp 595 - 599
- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos ,pp 124 - 127

(69) - Francisco del Puerto : Mision Historial , pp 607 - 610 y 618 - 624
- Fortunato Fernando : los Franciscanos en Marruecos , p p128 - 141

(70) - Francisco del Puerto : Mision Historial , pp 625 - 630
- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos ,pp142 - 149

أخرى سنة 1688، إلا أنه مات الكثير من هؤلاء المبشرين في هذه المرحلة بسبب انتشار الوباء. وفي سنة 1690 أعيد إصلاح ملجأ تطوان، وبني ملجأ آخر للبعثة في سلا[71].

ومن خلال كل ما سبق نستخلص أن البعثات في القرن السابع عشر استطاعت أن تحقق تقدما متميزا، وقد تجسد ذلك في عدد البعثات التي وصلت إلى المغرب، وكذا في عدد الأديرة والملاجئ التي أسست في مدن مغربية مختلفة، وخاصة في عهد المولى إسماعيل الذي تراوحت معاملته للمبشرين بين الشدة واللين، ولكنه خول لهم امتيازات كثيرة بالمقارنة مع الملوك السابقين، ويؤكد هذا عدد الأديرة والمستشفيات التي بنيت في عهده والممارسات الروحية التي قام بها المبشرون في هذه الحقبة. وبإمكاننا أن نستشف هذه العلاقة الطيبة بالرهبان الفرنسيسكان من خلال العدد الكبير من الرسائل والظهائر التي أصدرها هذا الملك لصالح الرهبان في كثير من المناسبات. ونورد فيما يلي بعضا من هذه الرسائل التي تؤكد هذه الحقيقة الأساس[72]، يقول في ظهير وجهه إلى الأب دييكو دي لوس أنخلس Angeles Diego de los "ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا رب غيره ولا معبود سواه، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون. إسماعيل ابن الشريف الحسن أيده الله ونصره، أيد الله أوامره وظفر جنوده وعساكره آمين يا رب العالمين، يستقر هذا الظهير الكريم والأمر الحتم الصميم المتلقى بالإجلال والتعظيم بيد حامله الفرايلي الورديان دياكو دي لوس أنخلس، في وقته يتعرف من يقف عليه أنا أعطيناه الإذن في المقام ببلادنا، هو واثني عشر فرايلي من جنسه الفرنسيسكان من الأندلوسية البروفنسية دي سان دييكو، وأعطيناهم جميعا الإذن في المقام بإيالتنا حرسها الله تعالى بقصد معالجة النصارى الأسارى ومداواتهم ومعافتهم وإذنا لهم أن يعملوا من أحبوا في حاضرة فاس وثغرى تطوان وسلا على يدهم من هذا العدد المذكور ومن شاءوا. ومهما أحبوا الانصراف فهم سيكورو ليبرس، ومعناه بالعربية مأمونون مسرحون، بحيث لا معارض ولا منازع ولا مدافع. وكما عهدنا لهم أن يكونوا في الخدمة والامتثال لما أمرناهم به فالتزموا ذلك، ولو قبلوه. والواقف عليه يوفي لهم بذاك العهد، ويعمل بمقتضى هذا الظهير الشريف ولا بد. والسلام على من اتبع الهدى. وكتب في أوايل ربيع الثاني، عام عشرة ومائة وألف"[73].

---

(71) - Francisco del Puerto : Mision Historial , pp 631 - 633 y 643 - 688

- Fortunato y Romeral : Los Franciscanos en Marruecos, pp 151 - 171

ومن بين الآباء الذين ذهبوا ضحية الوباء سنة 1689 الأب لويس دي سان أكوستان، والأب فرناندو دي سان خوسي، والأب فرناندو دي سان دييكو. وفي هذه السنة تم استرجاع ثغر العرائش.

(72) توجد جميع الظهائر التي أنعم بها الملوك المغاربة على الرهبان في أرشيف البعثة في طنجة، وقد نشرت في كتب تاريخ البعثات، وقام بنشرها أيضا عبد العزيز التمسماني في مجلة دار النيابة.

(73) - Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p424 - 425

وفي هذا الاتجاه نفسه أصدر المولى إسماعيل كثيرا من الظهائر التي ضمنها امتيازات كثيرة بدءا بمنح الرهبان حرية الإقامة والتنقل وممارسة العبادات والأعمال الإنسانية، وانتهاء بإلزام كل من في مملكته باحترام هذه الظهائر، والالتزام بقراراتها. يقول في أمر ملكي آخر: "عام 1111. وتعالى عما يصفون. الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا رب غيره سبحانه. إسماعيل ابن الشريف الحسني رعاه الله. كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره بيد حامله الفرايلي دياكو يتعرف منه أنا أذنا له أن يبعث الفرايليين الإسبانيول الذين يذهبون ويجيئون في سخرتنا، وهم معروفون لخدمتنا. فلا سبيل لأحد من رياس سفننا الفرسان أينما وجدوهم وأينما خرجوا فيهم، فليتركوا سبيلهم ولا يتعرضوا لهم بمكروه ولا يطالبهم بشيء، فهم منا على أمان ماداموا في خدمتنا وسخرتنا. ولما نأمر خدامنا بواد المراسي الذين بإيالتنا الشريفة ألا يبعثوهم، حيث يريدون بقصد حضرتنا العلية بالله، ولا يطالبهم بشيء، ومن تعرض لهم أو فتش صندوقا من صناديقهم أو طالبهم بإعطاء شيء من عقوبتنا. والواقف عليه يعمل به ولابد وبه. كتب في الثالث من ذي الحجة الحرام عام أحد عشر ومائة وألف"[74].

وفي سياق اهتمام المولى إسماعيل بمصالح الرهبان في مملكته وجه رسالة باللغة الإسبانية إلى الملك دون فيليبي عندما اعتلى الحكم هذه ترجمتها،"باسم الله الواحد القادر آمين. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.

إسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله ونصره. المولى إسماعيل ابن الشريف بن علي بحمد الله سلطان مراكش، وفاس، ومكناس، والغرب، وتافيلالت، وسوس، ونوميديا .إلى دون فيليبي الخامس بحمد الله ملك قشتالة وليون وأراكون وسيسيليا وميورقة ومنورقة ونافارا، والأندلسيتين، والهند، وكونت، وأرشيدوق أوستوريا. جاء إلى حضرتنا فراي دييكو دي لوس أنخلس من مذهب الحفاة لسان دييكو، الذي حضر في عاصمتنا بمرافقة بعض الرهبان الآخرين من مذهبه من أجل الصحة الروحية للأسرى المسيحيين حسب ديانته، وقد كان حضوره في عاصمتنا من قبل بأمر وقرار دون كارلوس الثاني صاحب الذكرى المجيدة، وعندما مات دون كارلوس الثاني نقله الله من هذه الحياة وهذا الملك إلى آخر أكثر كمالا، فإن فراي دييكو دي لوس أنخلس ملزم من جديد بتفويض أوامر الخلف الجديد دون فيليبي الخامس حفظه الله، طلب إذننا ورسالة منا ليذهب إلى أداء الطاعة إليكم،

---

(74) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 425

ويمكن الإطلاع على ظهائر أخرى للمولى إسماعيل نشرها خوسي لوبيز في كتابه : Momoria Sobre la Mision Franciscana de Marruecos ومن ص 139 إلى 145 وجميعها تنص على خدمة الرهبان والإعتناء بهم وعدم التعرض لهم بمكروه...

فاستقبلوه بالطيبة التي نعامله بها والتي يستحقها بسبب صراحته الكثيرة، ومذهبه الجيد، وقرروا معه ما يناسبكم من أجل راحة رعاياكم الأسرى "[75].

ومن خلال هذه النماذج من الظهائر والرسائل الملكية التي تعتبر وثائق تاريخية ناطقة بحالة البعثات في المغرب في هذه الحقبة، نستطيع أن نعاين بداية نشاط وامتداد إيجابي بالنسبة إلى البعثة الفرنسيسكانية الإسبانية، تمثل في حصول الرهبان على عدة امتيازات ومكتسبات لصالح البعثة والأسرى والبلد الذي ينتسبون إليه إسبانيا.

• **الطـور السـادس :**

تميز هذا الطور من أطوار الحضور الكنسي في المغرب بازدهار البعثات أيضا، حيث استمر حكم المولى إسماعيل في هذا القرن إلى حدود 1727، وأصبحت البعثة تتوفر على ستة كنائس، وجدت كنيستان في مكناس، والأخريات في مدن تطوان وسلا وفاس الجديد، وفاس القديم، كما أسست أربع مستشفيات في مكناس، وقام الرهبان بجميع الاحتفالات والشعائر والممارسات الدينية التي تؤدى في كنائس البلاد المسيحية. وقد أصدر الملك المولى إسماعيل مزيدا من الظهائر التي تؤكد للرهبان الترخيص بالإقامة في المغرب، وتمنحهم حرية التنقل. وتتبين تجليات العلاقة الجيدة التي كانت تربط الملك بالرهبان في هذا العهد، أن أصبح أحد هؤلاء الرهبان، وهو فراي دييكو دي لوس أنخلس - الذي ورد ذكره في الظهائر السابقة - صديقا للملك وحقق الراهب من خلال هذه الصداقة فدية عدد كبير من الأسرى وربط العلاقات الجيدة بين إسبانيا والمغرب[76].

وقد استمرت هذه العلاقات الجيدة بين الدولتين مع باقي خلفاء المولى إسماعيل، ويذهب المؤرخون المسيحيون إلى أن الرهبان والأسرى عانوا كثيرا من الاضطهاد والمعاملة السيئة من قبل الملك عبد الله الذي حكم ما بين (1729 و 1757)[77]، غير أن الظهائر التي أصدرها هذا الملك في حق الرهبان تبين عكس هذا الحكم، وتثبت محافظته

---

(75) - Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 432
- Lopez Jose : Memoria sobre La Mision F..., p 140

(76) - Francisco del Puerto : Mision Historial ,pp 713 a-717 y 732 - 750
- Juan de La Concepcion : Relacion Veridica .....,pp 1 - 61
- Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos ,pp 172 - 207

(77) نشير هنا إلى أن الملك عبد الله لم يحكم هذه الفترة بشكل متواصل، لأنها كانت فترة صراع على الحكم بين الإخوة أحمد الذهبي وعبد الملك وعبد الله وزين العابدين والمستضيء، ومحمد وأبو الحسن علي الشريف. وقد أنعم كل هؤلاء بظهائر على الرهبان حينما تولوا الحكم، أجازوا لهم فيها الإقامة والتنقل بحرية في المغرب ومعالجة المسيحيين وأداء العبادات المسيحية، وجلب كل احتياجاتهم من البلاد المسيحية بما في ذلك القمح والسلاح.

على سياسة أبيه تجاه الرهبان والتي يمكن أن تتجلى من خلال الظهير التالي: "الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. اليمن والإقبال وبلوغ الآمال، السعد والسرور في جميع الأمور عبد الله بن أمير المؤمنين إسماعيل الحسني الله وليه، وظيفنا القايد مبارك فلان، سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد فنأمرك أن جميع ما يشي حوايج النصارى الفريلية الذين هنا بحضرتنا العالية بالله فلا يفتش فيهم أحد ولا يقربهم من يطلع عليهم ولا صناديق ولا ربايع ولا حوايج ولا حوايجنا التي تمشي من هذا البر والتي تأتي من ذلك البر فلا يبحث فيها أحد ولا يطلع عليها ولا يعرف ما فيها، ومن فتشها أو قربها نقطع له رأسه كائنا من كان، وأنت وكيلهم في ذلك، وتعمل في دارهم التي هناك بمحروسته سلا، وتهل في الفريلية الذين بها وقربهم ولا تترك من يترامى عليها في شيء من الأشياء، فهم عندنا موفدون على وجه الأمان والإحسان والسلام. في أواخر رمضان المعظم عام اثنين وأربعين ومائة وألف" [78].

وجاء في ظهير آخر للملك نفسه "الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عبد الله كان الله له. جددنا لحملته الفرايلة القاطنين بمكناسة على ما بيدهم من الظهائر المتضمنة إبقاءهم على عادتهم الحالية يركبون في أي مرسى شاءوا ذهابا ورجوعا والواقف عليه يعمل به ولا يحيد عن كريم مذهبه ، والسلام. وفي تاسع عشر شعبان عام ثمانية وخمسين ومائة وألف" [79].

ويتجلى من مضمون هذين الظهيرين أن الملك عبد الله خول بدوره للرهبان عددا من الامتيازات المهمة التي سهلت لهم إجراءات التنقل والدخول والخروج من المملكة والإقامة في أمان، وممارسة الشعائر والعبادات. ولهذا فإن ما كان يتعرض له الرهبان في بعض الحوادث الطارئة نتيجة لأسباب مختلفة كان للأسرى فيها دور مباشر في بعض الأحيان لا يمكن اعتباره من قبيل اضطهادات السلطة الحاكمة. وتتأكد هذه الحقيقة في شهادات الرهبان الذين عاشوا في هذه الحقبة واستقروا في المغرب، يقول حارس دير مكناس في رسالة أرسلها إلى مدريد لإخبارهم بحالة البعثات في المغرب: "نظرا لاشتياق الأسرى إلى الحرية فإنهم يتهمون المبشرين بأنهم السبب في بقائهم في هذا الأسر، وأنهم لا يسعون إلى فديتهم، ولا يلتمسون ذلك من ملكهم ومن الرهبان المكلفين بعملية الافتداء كما يحصل في الجزائر وتونس وفي هذه المملكات مع جنسيات أخرى.

(78) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 428

(79) José Lopez : Memoria sobre la Mision F …. , p 149

ونتيجة لذلك ضرب الراهبان المبشران اللذان يستقران في سلا، ونزع منهما الملجأ والكنيسة في [26] غشت وسلما إلى يهودي سجنهم في مراكش. فقدمنا للأمير ستة عشر مسلما، وكلابا، وطيور الكناري، ونسيجا، ومناديلا، والشاي والسكر والحلويات... وأشياء أخرى تحظى بإعجابه. وأطلق سراح المسيحيين، ومنحنا الإذن والأمان بالعيش أحرارا في أراضيه كما في عهد أبيه وجده .."[80].

ومختصر كل القول، فإن الكنيسة في هذا العهد لم تفقد مكتسباتها، وظل تواجدها قائما في كثير من المدن المغربية مثل مكناس وفاس وسلا، ونشير هنا إلى أنه في سنة 1755 وقع زلزال مدمر في المغرب، فانهارت بسببه الكنائس والأديرة التي كانت تملكها البعثات فانتقل الرهبان إلى ملاجئ أخرى و إلى الأماكن التي يقيم فيها الأسرى[81].

وعندما تولى المولى محمد الحكم سنة 1757، حققت البعثات مزيدا من الامتيازات لأن هذا الملك اهتم كثيرا في عهده بربط علاقات الصداقة مع كثير من الدول الأوربية وخاصة مع إسبانيا، واعترف في كثير من الاتفاقيات بحرية ممارسة المسيحيين لدينهم في أرض المغرب وفي هذا السياق لعب الرهبان دورا كبيرا في المفاوضات بين إسبانيا والمغرب، وخاصة الأب بارطولومي كيرون Partolome Guiron الذي اتخذه الملك سفيرا له لأنه كان مطلعا على كثير من الأمور في المغرب بسبب استقراره الطويل في هذه البعثات. كما اعتمدت إسبانيا في تحقيق أهدافها على هؤلاء الرهبان اعتبارا للعلاقة الطيبة التي كانت تربطهم بالدولة الشريفية. وقد تحقق من خلال هذه المفاوضات عقد معاهدات تخص حرية التجارة، واستقرار القناصلة الأسبان في الموانئ الرئيسة في المغرب، ونزع السلاسل للأسرى الأسبان، واتفاقيات أخرى ساهمت في توثيق العلاقة بين الدولتين، فأصبحت العملة المغربية تسك في مدريد، وأهدى الملك محمد عددا من الأسرى إلى إسبانيا، كما قام الراهب خوسي بولتاس Boltas Jose بدور السفير المفاوض في موضوع السلام[82].

---

(80) Madroñal Mateo : Carta escrita al padre procurador en Madrid, Imp / Antonio Sanz , 1755, p 1 - 2

(81) يفصل الأب مدرونيال Madronal الذي كان حارس الدير في مكناس في هذا الوقت حيثيات هذا الزلزال في رسالته المشار إليها سابقا،فقال إنه كان زلزالا قويا ضرب مكناس وفاس وتطوان وطنجة ومراكش وآسفي والعرائش والمعمورة وسبتة وأصيلة وسلا والرباط. ففي مكناس دام هذا الزلزال ثمانية دقائق، فهدم كل شيء، وانهار الدير الملكي والكنيسة والصيدلية ومصالح أخرى، وفقدت كثير من الأشياء، ودفنت في الخراب كالتحف وكل ما يحتاجه الرهبان والأسرى. ووقع الشيء نفسه لدير وكنيسة ومستشفى فاس. فأقام الرهبان بواسطة الخراب مكانا احتفلوا فيه بالقداس وباقي العبادات والأعمال الإلهية، وعالجوا وساعدوا وسهروا على رعاية المسيحيين روحيا في الملاجيء وحيث يقيم الأسرى.

كما خلف الزلزال خسائر كثيرة في المدن الأخرى في البنايات والأرواح، وخاصة في المدن الشاطئية كسلا وآسفي حيث ارتفع علو البحر وأغرق المخازن والشوارع والناس. (ص1 - 7).

(82) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, pp211 - 213

وبعد هذه الحقبة من الاستقرار، انتقلت البعثات إلى طور مؤقت من التوقف دام أربع سنوات في عهد الملك المولى يزيد الذي أعلن الحرب ضد إسبانيا، فقام بحجز الراهبان وأرسلهم إلى تطوان ثم إلى طنجة، حيث ظلوا هناك حتى انتهت الحرب التي انتصرت فيها إسبانيا، فألزموا على الرجوع إلى بلادهم[83].

وعندما قتل هذا الملك في نزاع مع أخيه المولى هشام سنة 1792 شهد المغرب فترة انقسام في السلطة حيث سيطر المولى عبد الرحمن على تافيلالت ودرعة، وحكم المولى هشام مراكش والأقاليم المحيطة بها، ونصب المولى عبد السلام نفسه سلطانا لوزان. ودام هذا الانقسام سنتان إلى أن قام المولى سليمان وسيطر على الحكم واستكمل توحيد البلاد المقسمة سنة 1795. وكانت أول خطوة قام بها هذا الملك هي نشر الأمن، وإعادة إحياء معاهدات السلام والتجارة مع كثير من الدول الأوربية وأمريكا. وفي ظل هذا الوضع الجديد وصل إلى المغرب سنة 1794 ثمانية مبشرين، فاستقر أربعة منهم في آسفي، واستقر الأربعة الآخرون في طنجة، بإذن من المولى سليمان الذي لم يعارض دخولهم إلى المغرب. وفي سنة 1799 عقد هذا الملك مع إسبانيا اتفاقيات السلام والصداقة والملاحة والتجارة والصيد، وفي سياق هذه الاتفاقيات تم الاتفاق أيضا على السماح بحرية العبادة وأداء الشعائر الكاثوليكية بالنسبة إلى رعايا الملك الإسباني في المغرب، بحيث أمكنهم الاحتفال بطقوسهم الخاصة في الملاجئ والكنائس، وكذا اعتبار هذا الاتفاق ساري المفعول حتى في حالة الحرب بين البلدين.

وقد خول هذا الاتفاق للمبشرين أداء مهامهم الحوارية بسهولة وخدمة الأسرى والمرضى في وضعية أفضل، وفي سنة 1795 فتحت أديرة في طنجة وآسفي وملاجئ في العرائش وموكادور، حيث كان المسيحيون يلجأون إلى المبشرين في هذه الملاجئ لمعالجة جميع المشاكل التي تعترضهم والدفاع عنهم وتثبيت حقوقهم ومصالحهم[84].

كما أصدر المولى سليمان بدوره على غرار أسلافه ظهيرا يؤكد فيه توفير الأمان للرهبان بيانه: "الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. سليمان ابن عبد الله حفظه الله وغفر له.

يعلم من هذا السطور الكريمة والخطاب العلي الجسيم أننا جددنا بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته لخدامنا الفرايلة من جنس الإصبنيول حكم ما بأيديهم من ظهائر

(83) Lopez José : Memoria Sobre La Mision F ....., p29

(84) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , pp 215 a 220

أسلافنا الكرام قدسهم الله وظهير مولانا الوالد رحمه الله، وأعاد علينا من بركته رضاه آمين.المتضمنة توقيرهم وإسقاط الكلفة اللازمة في مراسي إيالتنا السعيدة عنهم فيما يأتيهم من بر النصارى من مأكل ومشروب وملبوس. فلا تفتش صناديقهم ولا تمتد الأيدي إليها، كما لا يحال بينهم وبين ما يريدون في إقامة محل أو الخروج عنه إلى غيره من جميع المراسي تطوان وطنجة والعرائش وسلا، فلا تحجز عليهم في شئ من ذلك، ويبقون على ما رسمناه في ( )، وبتاريخ ثالث شعبان من عام 1208هـ"[85].

وبناء على كل ما سبق، فقد حققت الكنيسة - بوجه عام - طيلة هذا القرن ازدهارا مهما، وحصلت على مكاسب متميزة غدا بموجبها الرهبان سفراء الدولة المغربية المحيطين بأسرارها وقضاياها. وما يمكن أن يلاحظ هو أن استقرار هذه البعثات في المغرب كان يتأثر كثيرا بالعلاقات السياسية بين إسبانيا والمغرب، كما أن سياسة الانفتاح التي سلكها المولى محمد والمولى سليمان تجاه الدول الأوروبية كان لها أثر إيجابي على الكنيسة والبعثات.

• الطور السابع :

في هذا الطور من أطوار التواجد الكنسي في المغرب شهدت البعثات تحولا جذريا، إذ أصدر المولى سليمان سنة 1816 قرارا يقضي بإلغاء الأسر، وإطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين، وافتداء باقي الأسرى الذين يوجدون في أيدي قراصنة الأقاليم الثائرة عليه، ثم أضاف إلى هذا قرارا صارما سنة 1817 يمنع القرصنة ويأمر بنزع السلاح للبحرية الحربية. وقد منحه هذا القرار صيتا لدى الدول الأوروبية التي أدت له مبلغا ماليا كبيرا لكي لا يضر القراصنة المغاربة بالتجارة الأوربية.

لقد غير هذان القراران من مظهر البعثات وأهدافها إذ انتهى الأسر ولم يعد للمبشرين ما يعلل تواجدهم في مدن فاس ومراكش ومكناس، ولذلك ارتأوا أن يستقروا في موانئ البلاد التي يلجأ إليها المسيحيون من داخل البلاد وخارجها، بسبب الامتيازات التجارية التي خولها لهم الملك سليمان[86].

ونشير هنا إلى أنه في سنة 1800 انتشر وباء خطير في كافة أنحاء المملكة، فهرب بسبب ذلك أغلب التجار الأوربيين وانتقل المبشرون من مازاكان إلى آسفي لإسعاف مرضى هذه المدينة التي تضررت كثيرا من هذا الوباء، كما انتقلوا من العرائش إلى

(85) Lopez José : Memoria de la mision F ... , p 153

(86) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 221

طنجة، واستقروا هناك إلى أن خف الوباء، ثم أقاموا ملجأ بالرباط لم يمكثوا فيه كثيرا وغادروه سنة 1806، لأن جميع المسيحيين هربوا من هذه المدينة بسبب الظروف البحرية السيئة لمينائها[87].

ورغم جهود الملك سليمان في نشر السلم، فقد عرفت البلاد ثورات متعددة كان لها تأثيرها على البعثات التي اضطرت إلى الانسحاب من الموانئ المغربية والارتكاز في مدينة طنجة في سنة 1812. كما ساءت ظروف البعثات في هذه الحقبة بسبب تدهور الدعم المادي ونشوب حروب نابليون، حيث لم يعد بالإمكان زيادة عدد الرهبان في المغرب، ولجأ أغلبهم إلى أمريكا والفليبين والأرض المقدسة. وازدادت الحالة سوء ا عندما توفي الملك سليمان سنة 1822 وخلفه عبد الرحمن ابن هشام، إذ أرسلت الحكومة الإسبانية أمرا إلى القنصل الإسباني بطنجة يقضي بعودة جميع المبشرين إلى إسبانيا، فتدخل القنصل لدى حكومته لكي تترك ثلاثة رهبان في هذه المدينة لرعاية الجانب الروحي للجالية المسيحية، واستجابت إسبانيا لهذا الطلب وخصصت لهم مبلغ اثني عشر ألف ريال لتمويل مصاريفها. إلا أن البعثة استمرت تدعم حاجتها المادية من خلال التماس الهبات من القناصلة ومن بعض المراكب الكاثوليكية، واضطر الرهبان إلى بيع مختلف التحف المستخدمة في الكنيسة لسد المصاريف الضرورية كالغداء واللباس وأمور أخرى تتعلق بالبعثة، كما تلقى الرهبان ابتداء من سنة 1836 هبات مالية من ملكي فرنسا عندما أصبح الأب الفرنسي ماريا نيكولاس كيون Maria Nicolas Guion أسقف المغرب ن وذلك لدعم مصاريف الكنيسة والمدرسة المجانية التي أقفلت أبوابها سنة 1836 بسبب قلة الموارد المالية[88]. ورغم هذه الظروف المالية الصعبة لم تقفل الكنيسة في المغرب أبوابها نهائيا، فقد غادر المبشرون مدينة طنجة سنة 1844 عندما ضربتها فرنسا بالقنابل، وعادوا إلى كنيستهم بعد مدة قصيرة، حيث كان ذلك الحادث عابرا. وفي سنة 1849 انحسرت البعثة في تواجد مبشرين اثنين، ثم في سنة 1851 بقي مبشر واحد فقط وهو الأب فرانسيسكو بالما[89] Francisco Palma.

ولما تبينت إسبانيا أنها ستفقد الامتيازات والحقوق التاريخية والدينية التي حققتها من خلال البعثات بادرت إلى إنشاء مدرسة لتكوين المبشرين من أجل إرسالهم

(87) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 222

(88) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 223 - 224

وانظر في هذا الموضوع أيضا المراسلات التي قمنا بترجمتها في القسم الثاني، والتي تؤكد حقيقة تراجع البعثات في هذه الحقبة، وتراجع إسبانيا عن تقديم الدعم لها.

(89) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 226

إلى فلسطين وطنجة، فأنشأت المدرسة الأولى في بريبكو Priego سنة 1856، وأنشأت الثانية في إقليم سانتياكو.

وبعد إنشاء مدرسة بريبكو مباشرة استدعي الأب خوسي سباطي Sabate Jose من دمشق لتدريس اللغة العربية للرهبان، واستمر هذا الأب في أداء المهمة حتى سنة 1859، حيث قرر الذهاب إلى المغرب لإعادة إصلاح البعثات بإذن من المجمع المقدس. وكانت المهمة الأولى التي أراد القيام بها عندما وصل إلى طنجة مع مجموعة من المبشرين المتخرجين من المدرسة المذكورة هي إعادة فتح الكنائس المتواجدة في المدن القريبة من طنجة، والتي يستقر فيها المسيحيون. لكن توتر العلاقات بين إسبانيا والمغرب حال دون تحقيق ذلك، إذ سرعان ما نشبت الحرب بين الدولتين في أكتوبر 1859، فاستقر هؤلاء المبشرون في الخزيرات وسبتة لمعالجة الجنود الأسبان الجرحى[90].

وبعد انتصار إسبانيا على المغرب في هذه الحرب وسيطرتها على مدينة تطوان استدعي الأب ساباطي لإلقاء أول خطبة دينية في مسجد قديم من مساجد المدينة بحضور الجنود والقائد العام، وتوفي هذا الأب سنة 1860 متأثرا بوباء الكوليرا[91]. وفي هذه السنة نفسها تم عقد اتفاق سلام بين إسبانيا والمغرب، التزم المغرب بمقتضاه الاستمرار على غرار الملوك الأسلاف في حماية المبشرين الأسبان، والسماح لهم بإقامة ملجأ في فاس والالتزام بجميع الامتيازات التي خولها لهم السابقون في جميع أنحاء البلاد، وأن يتمتعوا بالأمان والاستقرار في جميع الملاجئ والكنائس، إذ نص البند العاشر من هذه المعاهدة على" أن جلالة ملك المغرب جريا على عادة أسلافه الأماجد الذين كانوا يحيطون رجال التبشير الأسبان بحماية فعالة خاصة، يسمح بإنشاء بيت للمبعوثين الأسبان بمدينة فاس، ويقر جميع الامتيازات والإعفاءات التي منحهم إياها ملوك المغرب السابقون، وفي أي جزء من أجزاء الإمبراطورية المغربية يحتل أولئك المبعوثون الأسبان، أو يستقرون به يحق لهم مزاولة خدماتهم المقدسة بكل حرية، كما أن نفوسهم وبيوتهم ومثاويهم تتمتع بالأمان والحماية الضروريتين.

ويقوم جلالة ملك المغرب في الوقت المناسب بإصدار أوامره في هذا الشأن إلى جميع سلطاته وممثليه ليعملوا على الدوام على تنفيذ كل ما هو منصوص عليه في هذه المادة"[92].

(90) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , pp 229 - 242

(91) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 243

وانظر بخصوص إلقاء الأب ساباطي للخطبة الدينية : محمد داوود : تاريخ تطوان، المطبعة المهدية، تطوان، (د . ت).

(92) محمد داوود : تاريخ تطوان ، م / 4 ، ص 290

وجاء أيضا في البند الحادي عشر من هذه المعاهدة أنه " قد اتفق بصفة صريحة على أنه عندما تجلو الجيوش الإسبانية عن تطوان، فإنه سيكون بالإمكان الحصول على قطعة أرض مناسبة بالقرب من القنصلية الإسبانية لتشيد بها كنيسة، حيث يتسنى للقساوسة الأسبان أن يزاولوا شعائرهم الدينية وإقامة صلوات الترحم على أرواح الجنود الأسبان الذين ماتوا في ميادين القتال.

وإن جلالة الملك ليتعهد بالعمل على احترام الكنيسة وبيت القساوسة ومقابر الأسبان، ويقوم بإصدار الأوامر المناسبة في هذا الشأن"[93].

وهكذا خلف الأب بيدرو لوبيز Pedro Lopez الأب ساباطي سنة 1861، وأسس دار البعثة والكنيسة في تطوان، ثم ذهب إلى طنجة مع ثلاثة رهبان، وافتتح الملجأ، وعلق في واجهته العليا أول جرس لاستدعاء المسيحيين لأداء عباداتهم، إذ لم يسمع المسلمون في هذه المدينة دق الأجراس منذ خروج البرتغاليين منها، ثم عالج كل الأمور الاستعجالية المتعلقة بالبعثة مثل بناء منازل خاصة لإقامة الرهبان وغير ذلك[94].

وفي سنة 1869 أعاد الأب سيريزال Cerezal الذي عينه المجمع المقدس حواريا إحياء بعثة مازاكان والاحتفال بالمقدسات في كنيستها بطلب من بعض العائلات المسيحية، ثم فتح منزلا جديدا للبعثة فيها سنة 1871، وفتح منزل البعثة في الدار البيضاء سنة 1868 وأسس إقامة جديدة للرهبان في طنجة، وقام بتوسيع كنيسة سان بيدرو بطنجة أيضا[95].

وبعد وفاة الأب سيريزال سنة 1877 عين الأب لرتشوندي من قبل المجمع المقدس نائبا حواريا، وعينه رئيس المذهب الفرنسيسكاني رئيسا لرهبان بعثة المغرب حيث شهدت البعثات في عهده ازدهارا كبيرا، وكان هذا الراهب قد عمل منذ سنة 1862 مساعدا للأب بيدرو لوبيز ومشرفا على البعثة في غيابه[96].

وأول الأعمال التي سعى الأب لرتشوندي إلى القيام بها هو بناء كنيسة جديدة في طنجة، وقد تيسر له ذلك بعد الحصول على المساعدات من الحكومة الإسبانية، وقام بافتتاحها سنة 1881، وعلق في برجها ساعة عجيبة سنة 1894. وفي سنة 1882 رافق سفارة مغربية إلى

(93) محمد داوود : تاريخ تطوان، م / 4، ص 290

(94) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , pp 250 - 259

(95) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos ,pp 260 - 269

(96) - Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , pp 272 - 273 - Lopez José : El Padre Lerchundi, - Imprenta clasica Glorieta de la Iglesia , Madrid 1927 , p 3

مدريد، ثم قام ببناء كنيسة ومنزل للرهبان في جبل طنجة المعروف عند البرتغاليين بجبل سانخوان، وفي سنة 1883 استدعى خمسة رهبان فرانسيسكان من برشلونة وعهد إليهم بتسيير مدرسة أنشأها في عهده. وفي سنة 1887 أشرف على بناء المستشفى الإسباني، وأسس في مدريد جمعية السيدات المساعدات لدعم المدارس الكاثوليكية في المغرب، وأشرف على بناء ستة وثلاثين منزلا في ضواحي طنجة لتخفيض كلفة الكراء عن الفقراء الأسبان، وأقام معملا للتجارة، ومطبعة إسبانية؟ عربية، ومعملا للتجليد.

ومن بين مجمل أعمال لرتشوندي الكثيرة إعادة تنظيمه لبعثة العرائش سنة 1886، ومرافقته لسفارة مغربية إلى روما لتهنئة البابا ليون الثالث عشر في عيده الأسقفي سنة 1888. وفي سنة 1889 افتتح بعثة آسفي، ثم افتتح بعثة الرباط سنة 1891. وفي سنة 1892 افتتح مدرسة بوينا فينتورا Buena Ventura في طنجة للطور الثاني من التعليم، وفي سنة 1895 قام بإنشاء المطبخ الاقتصادي في طنجة، والذي كانت له فوائد كثيرة بالنسبة إلى البعثة[97].

وعندما توفي الأب لرتشوندي سنة 1896 خلفه الأب سرفيرا Cerveri الذي كان يشغل منصب الكاتب العام للبعثة منذ 1891، وعندما تولى مسؤولية المنصب الجديد قام بزيارة جميع منازل البعثة، وأشرف على أعمال بناء كنيسة في مازاكان افتتحت سنة 1898. وفي سنة 1901 افتتح كنيسة جديدة بالعرائش، ثم قام ببناء كنيسة كبيرة في طنجة سنة 1902، وافتتحها سنة 1904 وسماها كنيسة البرج القديس. وفي سنة 1905 قام بإصلاح وتوسيع كنيسة آسفي، ومنزل الرهبان بها. وفي سنة 1907 رافق بعثة إسبانية وفدت على سلطان المغرب. ثم ابتدأ أعمال بناء كنيسة قلب يسوع في طنجة ومدرسة للأولاد والبنات بجانبها أشرف على إدارتها الراهبات والرهبان الفرنسيسكان[98].

ومختصر كل القول، فقد انتقلت الكنيسة والبعثات التبشيرية خلال هذا القرن من وضعية محددة، وفي مناطق محددة في المغرب إلى وضعية أخرى اتسع فيه تواجدها وتبلور، فكان لهذا الانتقال ظروف وملابسات متعددة، حيث تغيرت مهمة البعثات التي كانت تهدف إلى خدمة قضية الأسرى عند صدور القرار الملكي للمولى سليمان بالإفراج عن جميع الأسرى وإلغاء عمليات الجهاد البحري. وقد استمدت البعثات مشروعية تواجدها على أرض المغرب بعد هذا القرار من استقرار الجالية المسيحية في المدن المغربية

(97) - Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, pp 275 - 282
- Lopez José : El Padre Lerchundi, pp 5-7

(98) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , pp 302 - 318

وتنامي عددها نتيجة لسياسة الانفتاح التي سلكها المغرب في هذه الحقبة تجاه الدول الأوربية، والمعاهدات الاقتصادية والسياسية التي أبرمها معها. ثم تبلورت وازدهرت هذه البعثات في النصف الثاني من هذا القرن، حيث تدعم هذا التبلور في خطواته الأولى بانبثاق معطى جديد تمثل في إنشاء مدارس تعليم المبشرين المرسلين إلى القدس والمغرب، فأصبح هذا المعطى يمثل عنصرا حيويا في إعادة بناء البعثات. كما أن ارتباط المغرب في هذه الحقبة بالاتفاقيات والمعاهدات فتح الباب واسعا أمام توافد الجاليات المسيحية والبعثات الكثيرة، وخاصة بعد معاهدة 1861، حيث كان المغرب بعد الهزيمة في حرب تطوان في وضع غير متكافئ مع الطرف المنازع الذي فرض الاستفادة من امتيازات كثيرة بأسس قانونية. وعند تأمل هذه الوضعية نلاحظ أن البعد السياسي هو الذي وجه النشاط الديني التبشيري في المغرب خلال هذه الحقبة، بحيث انمحت الحدود بين ما هو ديني وما هو سياسي، وأصبحت الدولة المسيحية هي التي تفرض على المغرب ضمان حرية المبشرين وحمايتهم..

ومن ثم ففي ظل الاستناد إلى هذه المرجعية التاريخية يمكن أن نفهم تصاعد قوة المد التبشيري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث أصبح التوجه السياسي هو الذي يحدد بقوة طبيعة التواجد التبشيري والكنسي، وبذلك تسارع زرع الكنائس في كثير من المدن، وأصبحت الكنيسة لا تقتصر على الدير لأداء الشعائر، ومنازل الرهبان، بل أضافت إليها المدارس التعليمية المختلفة والمطبخ باعتبارها مؤسسات تسهل عملية الاتصال بالمجتمع، وهو ما يبعث على السؤال عن الوجه الحقيقي للبعثات في هذه الحقبة.

• الطور الثامن :

في هذا الطور تواصل المد الكنسي في المغرب موازاة مع حلول الاستعمار الإسباني والفرنسي. وعلى هذا الأساس ارتفع عدد البعثات التبشيرية التي كانت ترسل إلى المغرب بمباركة البابا والمجمع المقدس للنشر، من أجل دعم انتشار المسيحية الكاثوليكية فيه، وعين لهذا الغرض رهبان برتبة نواب حواريين ومنحت لهم سلطات وصلاحيات عالية.

وهكذا وصلت إلى المغرب أول بعثة فرانسيسكانية فرنسية إلى المغرب استجابة لرغبة الجنود الفرنسيين في تواجد رجال الدين بجانبهم، رغم وجود القطيعة آنذاك بين السلطة الحكومية والكنسية. وفي سنة 1909 وفدت بعثة أخرى على السلطان المغربي مرافقة لبعثة إسبانية. ثم بعد ذلك تواصل وصول عدة بعثات فرنسية[99].

---

(99) Pons . A : La nouvelle eglise d' Afrique-Libr, Louis Namura, (S. E), p 284), Tunis Musca Imp Grosse Bascone

ولعل المؤسسات الكنائسية في بداية هذا القرن كانت تستأثر بوضع أفضل من حيث الانتشار وأداء ممارساتها، ولذلك تم الاتفاق بين إسبانيا وفرنسا على معاهدة سنة 1912 تقضي باحترام كل من الدولتين حرية عبادة وثقافة وممارسات كلا البعثتين الفرنسية والإسبانية، وأن توقف الهيئات الإكليروسية الإسبانية ممارساتها في منطقة الحماية الفرنسية، وتعهد بمؤسساتها الكنائسية إلى الرهبان الفرنسيين[100].

وفي هذا السياق سعت البعثات الفرنسيسكانية الإسبانية إلى تعزيز مؤسستها الكنائسية في منطقة الحماية الإسبانية، فأسست مدارس ألفونسو الثالث عشر سنة 1910، وأنشأت في دير الروح القدس في طنجة محطة للرصد الجوي سنة 1912، والتي كانت تشتغل بتنسيق مع المرصد المركزي في مدريد. ثم أنشأت سنة 1917 مؤسسة الصليب الأكبر لإيزابيل الكاثوليكية التي ساهم فيها الكاثوليك المقيمون في المغرب وبعض المسلمين واليهود. وفي سنة 1918 فتحت كنائس البعثة في الناظور وأصيلة، وقبلها فتحت كنائس في واد مارتيل والمضيق، وجبل ويشان بالحسيمة، وفي طنجة تم إنشاء المختبر الجرثومي، ومؤسسة الصليب الأحمر، والمدرسة الإسبانية العربية، ثم حولت إقامة السكنى في الشاطئ إلى مدرسة للتعليم الأولي والثانوي أشرف على تسييرها المبشرون، كما أنشئت مؤسستان للراهبات المساعدات، واحدة في جناح البنات في مدارس ألفونسو الثالث عشر، والأخرى في المشتشفى الإسباني. إذ كانت هاته الراهبات يساعدن في التعليم وأداء الأعمال الخيرية.

وقد تركز مجمل نشاط البعثة على ممارسة الشعائر وأداء العبادات والوعظ وإدارة المقدسات، وزيارة المرضى، والأعمال الخيرية مثل توزيع الصدقات، والاهتمام بالمطبخ الاقتصادي والمستعجلات والملابس ثم قضاء أوقات الفراغ في نشر وطبع الأعمال الأدبية.

ومن ثم أضافت البعثة الإسبانية إلى رصيد مؤسساتها الدينية في حدود العشرينات إنشاء ستة عشر كنيسة، ثلاثة منها في طنجة، وواحدة في المدن والقرى التالية: تطوان، الناظور، العرائش، القصر الكبير، أصيلة، الدارالبيضاء، الرباط، آسفي، مازاكان، موكادور، وادي مارتيل، المضيق، وجبل ويشان بالحسيمة[101].

أما في منطقة الحماية الفرنسية فقد تأسست أول كنيسة في مدينة وجدة سنة 1912.

---

(100) Lopez José : Memoria del vicariato apostolico…., p 81 - Pons. A : La nouvelle Eglise d'Afrique, 286

(101) - Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , pp 319 - 329

- Buenaventura Diaz : Breve Reseña Historica , pp 38-52

ومع بداية التوسع العمراني وتنامي الحركة التجارية، وازدياد عدد الجاليات المسيحية، وتضاعف عدد الموظفين في الإدارات أنشئت سنة 1920 ثلاث كنائس في الدار البيضاء وكنيستان في الرباط، واثنان في مازاكان، وواحدة في كل من القنيطرة، وتاوريرت، وفاس، ومكناس، وتازة، ووجدة، وبركان، وسطات، ومراكش، وموكادور، وآسفي. وقد أرسل المجمع المقدس مفوضا حواريا إلى المنطقة الفرنسية هو لوسيان داني الذي يعتبر مؤسس الكنيسة الفرنسية بالمغرب. فقد قام بربط العلاقات بين المبشرين واللائكيين لتنظيم الأوساط الدينية، وأسس المجموعات الدينية، وساهم في تأسيس نصف الكنائس التي بنيت في المنطقة الفرنسية، وأنشأ مجلة "المغرب الكاثوليكي" ومدرسة شارل فوكو، والكثير من المؤسسات الإحسانية.

وعلى هذا النحو وصل عدد أفراد البعثة سنة 1923 إلى ثمانية وعشرين مبعوثا دينيا فرنسيا واثني عشر إسبانيا، ومائة واثنين وعشرين راهبا. كما وصل المد الكنسي في هذه السنوات إلى حدود منطقة سوس في تارودانت، وفي فيكيك، رغم وجود معوقات كانت تحول دون وصول هذا المد في منطقة الريف بسبب قيام الثورات، وخاصة ثورة عبد الكريم الخطابي[102].

وقد لعبت الراهبات دورا كبيرا في خدمة الكنيسة الفرنسية في المغرب، حيث كن يقمن بالتعليم في المدارس، والتربية المسيحية، والإشراف على جمعية أطفال مريم، والقيام بدور الرعاية والاهتمام بملابس الكنيسة والموسيقى، والعناية بالمرضى في المستشفيات. وقد قامت هؤلاء الراهبات بإنشاء كثير من المؤسسات الاستشفائية، ودور الأيتام، ومعامل لصناعة الزرابي. ففي فاس أسسن مستشفى، ومستوصفين، وحضانة، ومؤسسة "قطرة الحليب". وفي مراكش أنشأن في الحي الأوربي دارا للأيتام، وفي المدينة أسسن مؤسسة "قطرة الحليب" ودارا للأيتام. وفي مكناس أنشأن معملا للزرابي، ودارا للأيتام، ومستوصفا ومؤسسة "قطرة الحليب". وفي وجدة أسسن حضانة ودارا للأيتام، وورشة للطرز، ومؤسسة "قطرة الحليب". وفي ميدلت أنشأن كذلك دارا للأيتام، ومعملا للزرابي، ومستوصفا، وكن يزرن القصبات في هذه المدينة ويستقبلن بترحاب شديد، ولذلك أسسن ديرا فيها للتأقلم مع محيطها[103].

وفي مدينة الرباط كانت هؤلاء الراهبات يشرفن على أعمال الأمومة في الحضانات

(102) Pons. A : la nouvelle Eglise d'Afrique, pp 289 - 291

(103) Pons. A : La nouvelle Eglise d'Afrique, p 300

التي أنشأتها زوجة الماريشال ليوطي، ودارا للبنات اليتيمات. وفي الدار البيضاء أنشأن دارا للأيتام في حي أنفا، وأضفن إلى جانبها معملا، وقسما للرعاية، وحضانة للأطفال.

وقد تأسست أيضا ثلاث جمعيات خاصة بالراهبات ساهمت في المجال التعليمي والاجتماعي والصحي، فقامت جمعية الراهبات الفرانسيسكانيات لبرج بيترا بفتح مدرسة للبنات في فاس الجديد سنة 1928، واشتغل قسم من هؤلاء الراهبات بالتمريض في مستشفى الرباط. وقامت جمعية راهبات المنقذ بتأسيس حضانة وإقامة للبنات كما قامت جمعية سيدة الحواريين بتأسيس مدرسة للمسيحيين الكاثوليك في مازاكان[104].

وفي سياق تدعيم وتقوية البنية الكنائسية في المغرب حاول الأسقف ماركاريت فياي أيضا الامتداد والتوسع بالمؤسسة الكنسية، وذلك بإنشاء المزيد من الكنائس الجديدة، وفتح المدارس الحرة، ومؤسسة لاستقبال المبشرين وإقامتهم، وجمعيات للتربية الدينية، ومتحفا يجمع فيه المبشرون الفرانسيسكان كل الأشياء المهمة التي تسعفهم في عروضهم أو في إنجاز دراسات عن اللغة العربية واللهجات البربرية، والتاريخ والأركيولوجيا، والفنون، وإثنوغرافيا وسوسيولوجيا وديانة المغاربة، كما افتتح مؤسسة الدراسات العليا الدينية والمغربية في الرباط، وقام بتنشيط كثير من المحاضرات الدينية[105].

ونستشف من هذا الاستعراض التاريخي السريع أن الحضور الكنسي منذ بداية هذا القرن تحرك بقوة في اتجاه النمو والانتشار. وقد خولت الحمايتين الإسبانية والفرنسية إمكان هذا الامتداد، وأفسحت المجال واسعا أمام تحقيق أقصى درجات التغلغل الكنسي، من حيث مساعدتها للبعثات وإمدادها بجميع الوسائل القوية لتوسيع جدول انتشارها. ومن هذا القبيل توفير التمويل المادي المتواصل للمبشرين، ومساعدتهم على شراء المنازل والأراضي لإقامة الكنائس والمستشفيات وتهيئ كل احتياجاتهم في خدمة المجالات التعليمية والطبية والاجتماعية.

صحيح أن الكنيسة اعتمد عليها الاستعمار في هذه الحقبة باعتبارها أداة لربط المسيحي بالأرض التي يقيم فيها، بحيث أن المبشرين رافقوا القوات العسكرية في كل المناطق التي حلوا بها، وشيدت الكنائس واستقرت البعثات والإرساليات في كل ناحية أقام فيها المسيحيون، لكن أهدافها الحقيقية لم تكن تقف عند هذا الحد، بل كانت تسعى أيضا إلى التفاعل مع الواقع المغربي ورصده في تفاصيله وجزئياته لخدمة الأغراض المتنوعة

(104) Pons. A : La nouvelle Eglise d' Afrique, p 301

(105) Pons. A : La nouvelle Eglise d' Afrique, p 291 - 292

للدولتين المستعمرتين. ومن ثم فإن مدى انتشار الكنائس في المغرب في هذه الحقبة يعد معيارا لتقدير أهمية هذا الحضور. ونزيد الأمر وضوحا إذا تناولنا بعضا من هذه المدن التي تواجدت بها المؤسسات الكنسية، على اعتبار أن هذه المؤسسات لازالت متواجدة حتى يومنا هذا، ولازالت معظمها تمارس نشاطها ومختلف أعمالها مثل ما كانت عليه من قبل، وهذه المدن هي :

- سبتة : شهدت هذه المدينة وجود عدة كنائس منذ الاحتلال البرتغالي، وخلال بداية القرن العشرين كان يقطنها حوالي 24.249 ساكنا بينهم 18235، وقد ضمت ثمانية كنائس[106].
- طنجة : بلغ عدد سكانها في بداية القرن العشرين حوالي 47.000 ساكنا من بينهم اثني عشرة ألف أوربي، وتسعة آلاف منهم فقط يدينون بالمذهب الكاثوليكي، وقد ضمت إلى حدود سنة سبعة كنائس منها : كنيسة "الولادة الطاهرة"، وكنيسة "الروح القدس"، وكنيسة "القلب القديس ليسوع"، وكنيسة "القديسة خوانا دي أركو"[107]
- الرباط : العاصمة الإدارية والعسكرية كانت تضم في حدود 1911 كنيسة واحدة ويقطنها 30.000 ساكنا، من بينهم 110 كاثوليك، ثم أصبحت في حدود 1923 تضم أربعة كنائس هي كنيسة "سان فرانسيسكو" وكنيسة "سان جوسيف" وكنيسة "سان بيير"، وكنيسة "سيدة الملائكة" [108].
- الدار البيضاء : كان يقطنها إلى حدود 1911، 42.000 ساكنا من بينهم 4000 كاثوليكي، وضمت كنيسة واحدة، ثم أصبحت سنة 1918 تضم خمسة كنائس هي، كنيسة "سان بوينا فينتورا"، وكنيسة "القلب القديس"، وكنيسة "السيدة دي لورد"، وكنيسة "سان أنطوان"، وكنيسة "سان فرانسوا"[109].

---

(106) Diaz Don Julian : Memoria sobre la sagrada Eucaristia en Marruecos, Algeciras, Tip de Antonio Roca , (S. A), p 13 - 14

(107) - Diaz Don julian : Memoria sobre la sagrada..., p 15
- Lopez José : Memoria de la mision F..., p 101

(108) - Diaz Don Julian : Memoria sobre la eucaristia..., p 16
- Lopez José : Memoria de la Mision F..., p 101
- Pons. A : La nouvelle Eglise d' Afrique, p 293

(109) - Diaz Don Julian : Memoria sobre la Eucaristia..., p 16 - 17
- lopez José : memoria sobre la mision F..., p 102
- Pons . A : La nouvelle Eglise d' Afrique, p 294

- مازاكان : بلغ عدد سكانها سنة 1911 خمسة وعشرين ألف ساكن، من بينهم أربعمائة كاثوليكي، وضمت كنيسة واحدة، وأصبحت سنة 1917 تضم كنيستان، هما: كنيسة "سان أنطونيو"، وكنيسة "سيدة الولادة"[110].
- تطوان : في سنة 1911 كان يقطنها ثلاثين ألف ساكن من بينهم ثلاثمائة وإحدى عشر كاثوليكيا، وضمت كنيسة واحدة، وأصبحت سنة 1922 تضم كنيستان وهما: كنيسة "سيدة الانتصارات" وكنيسة "سان أنطونيو"[111].
- فاس : أصبحت تضم في شطريها القديم والجديد سنة 1917 كنيستان، وهما: كنيسة "سان ميشال"، وكنيسة "سان فرانسو"[112].
- مراكش : أصبحت في سنة 1918 تضم كنيستان أيضا، وهما كنيسة "سيدة الملائكة"، وكنيسة "جون دي برادو".
- العرائش : كانت في سنة 1911 تضم كنيسة واحدة هي كنيسة "سان خوسي"، وكان عدد سكانها في هذا الوقت عشرة آلاف ساكن من بينهم أربعمائة كاثوليكي، وفي سنة 1931 شيدت بها كنيسة "سيدة البيلار".

وقد أسست البعثات الفرنسية والإسبانية بالإضافة إلى هذه الكنائس المشار إليها كنيسة واحدة في المدن والقرى التالية : أصيلا (كنيسة بارطولومي) - القصر الكبير (كنيسة سانطاكروس) - سلا (كنيسة سانطاأنا) - المحمدية (كنيسة سان جاك) - الصويرة (كنيسة ولادة العذراء القديمة) - آسفي (كنيسة الشهداء الأوائل) - وادزم (كنيسة سان أكوستان) - القنيطرة (كنيسة سان ميشال) - مكناس (كنيسة الولادة الطاهرة) - تازة (كنيسة العائلة القديسة) - تاوريرت (كنيسة سان جون داغك) - وجدة (كنيسة سان لويس دانجو) - بركان (كنيسة روز القديسة) - المضيق (كنيسة سان فرانسيسكو) - مارتيل (كنيسة الولادة الطاهرة) - شفشاون (كنيسة سان أنطونيو) - الناضور (كنيسة

---

(110) - Diaz Don Julian : Memoria sobre la Eucaristia..., p 17
- Lopez José : Memoria de la mision F..., p 102

(111) - Diaz Don Julian : Memoria sobre la Eucaristia..., p 19
- Lopez José : Memoria de la Mision F..., p 102

(112) - Pons . A : la nouvelle Eglise d' Afrique, p 294
- Lopez José : Memoria de la Mision F..., p 102

سانتياكو الحواري) - الفنيدق (كنيسة السيدة ديل كارمين) - بن قريش (كنيسة سيدة البعثات) - تركيست (كنيسة المسيح الملك- جبل ويشان بالحسيمة (كنيسة سان خوسي) - وادلاو (كنيسة قلب يسوع) - سيدي إفني (كنيسة سانطاكروس) - طرفاية (كنيسة سان فرانسيسكو) وشيدت كذلك كنائس في تادلة وميدلت وسطات يجهل اسمها[113].

ومن خلال كل ما سبق نستشف أن حضور الكنيسة في المغرب خلال هذا القرن سار على وتيرة مغايرة، وتوجه نحو اتجاه جديد قام على أساس التزام الكنيسة بخدمة مصالح الدولتين المستعمرتين. فقد تخطت الكنيسة مرحلة الأسرى وخدمة المسيحيين روحيا إلى مرحلة متميزة يمكن القول إنها كانت وليدة الظروف الجديدة التي فرضت على المغرب، ولذلك لم تقتصر الإرساليات والبعثات التبشيرية على إقامة الكنائس المشار إليها فقط، بل أنشأت مؤسسات أخرى كثيرة التنوع اندرجت جميعها تحت الكنيسة لكي تكون مؤهلة للعب دور أكثر إيجابية لصالح الاستعمار.

(113) - Diaz Don Julian : Memoria sobre la Eucaristia..., pp 18 - 21
- Lopez José : Memoria de la Mision F..., p 101 - 102
- Pons. A : La nouvelle Eglise d'Afrique, p 294 - 295

الفصل الثاني

الكنيسة وقضية الأسرى

في تاريخ الكنيسة بالمغرب نقف على معطيات وظواهر بارزة ساهمت في صياغة هذا التاريخ، وطبعته بميزات خاصة. ونقصد هنا ظاهرة الأسرى التي ارتبطت بملابسات هذا التاريخ، وساهمت في صياغة حيثيات التواجد الكنائسي ومجراه، وقد أصبحت قضية الأسرى واقعا مارسه المغرب على الدول المسيحية منذ أن بدأ في بناء مشروعه الحضاري الذي قام على الدين الجديد، وسعى إلى توسيعه والدفاع عنه.

وهكذا ترتبط نشأة الكنيسة في المغرب بقضية المستعربين الأسبان الذين أتى بهم ملوك المغرب أسرى عندما بسطوا سيطرتهم على الأندلس، وظل هؤلاء المستعربون وأسرى مسيحيون آخرون يعيشون في المغرب في حين خصص لهم بمراكش بدون كنائس إلى أن استجاب الملك الموحدي المأمون لطلب بناء الكنيسة في الحي نفسه الذي يعيشون فيه، وامتلاك مساعدين من الديانة المسيحية، والمذهب الكاثوليكي لأداء عبادة الله. وقد تمت هذه الموافقة بمعاهدات تضمن حماية الكنيسة والمسيحيين[114].

ومنذ قيام الكنيسة في المغرب قام الباباوات بإرسال الرهبان إلى هذه الكنيسة، وكانت كل الرسائل الموجهة إليهم تحثهم وتأمرهم بإسعاف الأسرى ورعايتهم روحيا والحفاظ على عقيدتهم المسيحية وتقويتها. ومن ثم فقد سعى الرهبان والمبشرون منذ أوليات هذه الكنيسة إلى الاهتمام بشؤون الأسرى الدينية والدنيوية، والتي تتمثل في تثبيت العادات المسيحية عن طريق الوعظ وإسعاف المرضى بالأدوية الروحية الجسدية، وزيارة الأسرى في جميع السجون والاحتفال معهم بالمقدسات، والتدخل من أجل فديتهم وإطلاق سراحهم. وقد امتد إسعافهم الديني في هذه المرحلة الأولية إلى خارج مراكش وإلى حيثما وجد المسيحي واستدعت الحاجة إلى نجدته[115].

ولما تقلصت هذه البعثات من بداية القرن الرابع عشر إلى بداية القرن السابع عشر حاول المبشرون والأساقفة الذين كانوا يقيمون بمركز الأسقفية في إشبيلية الوصول إلى المغرب من أجل مواساة الأسرى ومعاينة أحوالهم فكان ملوك قشتالة والبرتغال يلتمسون باستمرار من الكرسي الحواري إرسال الرهبان إلى كنيسة المغرب لإسعاف كثير من رعاياهم الأسرى الذين كانوا يرسلون إلى ملوكهم من أجل مساعدتهم وفديتهم[116]. ومن هنا يمكن القول إن عمل الرهبان كان يقوم على أساس أداء مهمتين هما: الرعاية الروحية والإنسانية للأسرى، وعملية افتداء الأسرى.

(114) Francisco del Puerto : Mision Historial, p 84 - 85

(115) Francisco del Puerto : Mision Historial, p 105

(116) - Gabriel de Aranda : Vida del S.F. de contreras, pp 231- 237- 467 - 483.
- Francisco del puerto : Mision Historial , pp 151 - 153

1 - الكنيسة والرعاية الروحية والإنسانية للأسـرى :

لقد ارتفع لدى المغرب خلال أربعة قرون (من ق 13 إلى 17) عدد كبير من الأسرى نتيجة للمواجهات المستمرة مع البرتغال والأسبان، وارتفع عدد هؤلاء الأسرى خاصة عندما نشطت عمليات الجهاد البحري مع الموريسكيين الذين طردوا من إسبانيا في سلا، والرباط، وتطوان، فنظموا أنفسهم داخل هذه المدن، وكونوا أسطولهم البحري عن طريق شراء الأسلحة والسفن، ووجهوا عملياتهم بوجه خاص ضد الشواطئ الإسبانية[117].

وقد واجهت البعثات مراحل توقف غاب خلالها الإسعاف الأسقفي عن الأسرى، بحيث كان الأمر يقتصر على إجراء المفاوضات بين المغرب والدول الأوروبية حول إطلاق سراح أسراها أو فديتهم، ومع ذلك لم تتوقف نهائيا محاولات أساقفة كنيسة المغرب المقيمين في إشبيلية من الوصول إلى المغرب، مثل محاولات الأب كونتريراس الذي تمكن من الوصول إلى فاس من أجل فدية الأسرى، إلا أنه اضطر بعد ذلك إلى التوقف في تطوان بسبب اضطراب الحالة السياسية في المملكة التي كانت تشهد آنذاك صراعا بين المرينيين ودولة الشرفاء السعديين .

وعندما وصل الأب كونتريراس إلى تطوان في نهاية 1539 وبداية 1540 كان في سجون تطوان[311] أسيرا، فرحب به القائد المنظري، وسمح له بزيارة الأسرى المسيحيين. وعند اطلاعه على الظروف المزرية لهذه السجون، تداول مع القائد إمكانية الإقامة مع الأسرى، فمنحه الإذن للاحتفال بالقداس في المنزل الذي كان يعيش فيه، وزيارة الأسرى لتقبل المقدسات والاعتراف والعشاء الرباني.

وفي سنة 1548 وصل إلى تطوان ثلاثة أساقفة برتغاليين هم خوان نونبيس Nunbes Juan ، ولويس كونساليس luis Gonzales وإكناسيو فوكادوكو Ignacio Vocadoco، أرسلوا من قبل ملك البرتغال، وأتوا إلى إشبيلية للالتقاء بالأب كونتريراس الذي أكد في نصحه لهم على الاهتمام بالرعاية الروحية للأسرى المسيحيين، والسلوك معهم طريق النصح والحوارات الخاصة وتشجيعهم وتثبيت إيمانهم، وتحمل مشاق خدمتهم ومواساتهم وتمريضهم، لأن المعاملة السيئة تدفعهم إلى الاستياء من الدين المسيحي. واستقر هؤلاء الأساقفة في مدينة تطوان التي لم تكن قد دخلت تحت سيطرة السعديين، وكان عدد الأسرى في هذه السنة قد ارتفع إلى 1600 أسير، فأسعفوهم روحيا وجسديا خلال خمس سنوات[118].

(117) Gabriel de Aranda : Vida del S. F de Contreras, pp 479 - 481.

(118) Francisco del Puerto : Mision Historial, pp 152 - 154

وفي ظل الاستناد إلى المرجعية التاريخية المسيحية، فإن الرعاية الروحية للأسرى لم تتوقف بشكل تام، ففي الفترات التي عرفت فيها الكنيسة في المغرب توقف الحضور الديني وتوافد الإرساليات وجد بعض الأساقفة في هذا الأسر مثل الأب فراي طوماس دي خيسوس Tomas de Jesus الذي أسر في معركة وادي المخازن سنة 1578، واقتيد إلى مراكش فأشرف على رعاية ألفي أسير، وهدى كثيرا من المرتدين إلى الدين المسيحي وأرسلهم إلى المعاقل المسيحية، ووجد أساقفة آخرون مثل فراي أنطونيو دي سانطاماريا Antonio de Santa Maria، وخوان كابريال دي أورتيكا Juan Gabiel de Ortega وفراي كريستوفال Cristoval، وفراي خوان ديل كوارال Juan del Coral والأسقفان الفرنسيان فراي بيدرو دي ألاسون Pedro de Alason وفراي ميكال Miguel، اللذان أسعفا الأسرى روحيا وجسديا عندما عم في المملكة وباء خطير. وهناك من الأساقفة من ألقى بنفسه في الأسر من أجل أداء هذه الخدمة، مثل الأب كونستانسيو ماكنوق Constancio Maga، وحينما ظل الأسرى المسيحيون بدون أسقف جمعوا فيما بينهم مبلغا ماليا وأرسلوا إلى الجزائر لشراء راهب أسير[119].

وعندما أحيا الفرانسسكانيون الإسبان البعثات سنة 1631 حققت الكنيسة تقدما كبيرا في خدمة قضية الأسرى، وتتحدد الجوانب الأساسية لهذا التقدم في حصول الرهبان على ظهائر الأمان التي خولت لهم الاستقرار الآمن، وممارسة العمل الإنساني تجاه الأسرى ومساعدة السلطات المغربية لهم على تحقيق ذلك بكل الوسائل الممكنة. ذلك أنه منذ حصول الأب دي فيلاسكو De Velasco على ملكية حيازة الكنيسة في مراكش سنة 1637 من قبل الملك محمد الشيخ السعدي سعت البعثات إلى تكريس كافة أعمالها لخدمة الأسرى وتطويرها في شكل منظم. ويصف الأب ماتياس حالة البعثة والأسرى في هذه الحقبة قائلا: "لقد أمر الملك بتغيير سكن الأسرى، وبعد التغلب على بعض الصعوبات سكنوا بفضل الله بالقرب من الدير، حيث بنيت الكنيسة العامة، وعلق فيها القربان المقدس... وقد كان المؤمنون يحضرون الاحتفال باستمرار بالقداس، وكان المعترفون يتقبلون العشاء الرباني باحترام وتواتر. وفي كل سبت عند الساعات الأولى من الليل كانت تغنى لهم الصلاة وتراتيل السيدة مريم... ويعظهم الرهبان بالخطب الروحية، ويفسرون لهم معجزات الدين المسيحي، ويشجعونهم على تحمل العمل في ذلك الأسر الطويل. وقد كانت أكبر تسلية بالنسبة إلى الرهبان هي إسعاف المرضى، ومعالجة أمراضهم بحسب

(119) - Matias de San Francisco : Viage a Marruecos , pp 101 - 104
- Francisco del Puerto : Mision Historial , pp 152 - 172

الإمكانات التي يتيحها فقر البعثة، فكانوا يعاملون هؤلاء الأسرى بإحسان كأنهم أبناؤهم ويشجعونهم ويواسونهم"، كما أن البعثة كانت "تتوفر على مدرسة للصغار وبعض الكبار، حيث كانوا يحضرون جميعهم لتعلم القراءة وبالنسبة إلى "المرضى فلم ينقصهم الإسعاف قط، وقد خصص لذلك راهب خاص، وجمعية مشرفين عليها وراهبين.وكانوا يلتمسون في كل ليلة الصدقات، ويملكون وكالات أخرى لهذا الغرض"[120].

وعلى هذا النحو نظمت الكنيسة في هذه الحقبة أعمالها الدينية والإنسانية لصالح الأسرى، ولعل أبرز مظاهر هذا التنظيم تجلت في تلك الجمعيات الدينية التي أسسها الرهبان بتعاون مع الأسرى، والتي كانت تشرف على القيام بأغلب الأعمال والاحتفالات والمواكب الدينية والإسعافات الطبية، وهي ثلاث جمعيات: الأولى هي جمعية القربان المقدس والمذهب الثالث للأب سان فرانسيسكو San Francisco. والرهبان هم الذين أسسوا هذه الجمعية، وخصصوا هباتها لشراء شمع الكنيسة والزيت لقناديل القديس، والخمر، والطحين للذابح، وأشياء أخرى للعناية بالشعائر الإلهية.

أما الثانية فهي جمعية السبحة المقدسة، وخصصوا هبتها لنفقات الاحتفالات الرئيسة وسط السنة وأعياد الفصح والمواكب الدينية والقداسات.

والثالثة هي جمعية الرحمة التي تدعم النفقة على الأسرة الثمانية الموجودة في المستشفى الصغير الذي هيأه الأب فراي ماتياس داخل الدير، وإسعاف المرضى المساكين، والعناية بالموتى، وأداء بعض القداسات. وهكذا كان دعم الجميع ضروريا من أجل سد كل الحاجيات"[121].

وقد كان الرهبان يحرصون على رعاية الأسرى سواء داخل الساجنة التي تأوي الجزء الأكبر منهم، أو في بعض الأحياء الخاصة بهم في أماكن أخرى. لكن الساجنة كانت أكبر تجمع لهؤلاء، وهي بحسب وصف الأب ماتياس عبارة عن "حظيرة كبيرة تتوفر على أربعة غرف كبيرة مربعة متجاورة، وفي وسطها فناء كبير يمكن أن يتسع لجري الثيران. ويحيط بهذه الغرف الأربعة شارع يفصلها عن سور متسع يمكن المشي فوقه، وهي كبيرة جدا بحيث ينتصب في وسط كل غرفة حائط واسع يقسمها، وفي هذه الغرف وحول الفناء

---

(120) هذا الأرشيف الإيبيري الأمريكي نقلا عن :

Lopez José : La Obra de España Misionera en Marruecos. Artes Graficas, Larache 1940, p 19

(121) - Matias de San Francisco : Viage a Marruecos , p 97 - 98

- Francisco del Puerto : Mision Historial , p 439 - 440

والشارع يقيم الأسرى مساكنهم التي تتألف من سكن علوي وسفلي، وكل سكن يتوفر على باب. أما السور فيتألف من ثلاثة أبواب حديدية مثل الحصن. فداخل هذه الساجنة يملك الأسرى بيوتهم ومساكنهم، وتوجد الكنيسة والدير"[122].

ويبدو أن الأسرى الذين كانوا يعيشون في مراكش في هذه الحقبة كانوا أحسن حالا من أسرى باقي المدن المغربية، لأنهم كانوا يحظون بالرعاية المتواصلة من قبل الرهبان، ويقيمون في مساكن أحسن ظروفا. بينما كان الأسرى في تطوان وسلا وآسفي يفتقرون إلى الإشراف الأسقفي المباشر، ويعيشون فيما يسمى بالمطامر، وهي "عبارة عن كهوف محفورة تحت الأرض. ولتمتين هذا الكهف يقام فيه قوسان من الحجر الخشن يقسمانه إلى ثلاث تجويفات متوازية المساحة، ينزل إليها الأسرى بواسطة درج يدوي يرفع إلى فوق ليلا، ولا يسمح باستعماله إلا نهارا. ويدخل الضوء إلى هذه الحفر من نوافذ ضيقة تغلق بقضيبين حديديين سميكين. ومن هذه النوافذ يلقى الأكل إلى الأسرى وكل ما يحتاجونه بواسطة دلاية. وقد أقام الأسرى في هذه الحفر المذابح وأدوا القداس بدون أن يمنعهم المغاربة من ذلك. لكن الإقامة فيها متعبة، لأن رطوبة التراب تسبب توالد الضفادع والحيات وكل الحشرات التي تضايق جسم الإنسان كالقمل والبراغيث، والبق بعدد وافر، وبعض الحشرات على شكل الزير بأجنحة ملونة تنمو في تجويفات الحيطان وتخرج منها خاصة في الليل وتحط على الأعين، فتزعج الأسرى في النوم. ففي هذا المكان يسجن كل أسرى تطوان في الليل، ماعدا المتزوجون والشيوخ والمعطوبون"[123]. وفي سلا أيضا وجدت "فضلا عن تلك المطامير الصغيرة الواقعة في الجهة الجنوبية، مطمورة كبرى في فندق بالجهة الشمالية يحبس فيها جميع أسرى هذه المدينة. إنها مبنية على شكل كهف فيه صفان من أعمدة الآجر التي تدعمها. وفي هذه المطمورة لا يستطيع المسيحيون عادة أن يضطجعوا على الأرض كما يفعلون في المطامير الأخرى، لأن الماء يغمرها حتى الركبتين تقريبا طوا ل ستة أشهر من السنة، ويضعون بواسطة حبال ومسامير كبيرة شبه فرش معلقة بعضها فوق بعض، بحيث أن الموجودين في الأسفل تكاد ظهورهم تلامس الماء..."[124].

ومن خلال هذا الوصف الذي سجله الأسرى أنفسهم لهذه السجون يمكن القول إن ظروف

---

(122) Matias de san Francisco : Viage a Marruecos, p 30

(123) هذا الوصف لأحد الأسرى الذين عاشوا في المطامر ، نقلا عن :

Fernando de Carranza : La guerra santa por mar, p 127

(124) مويط : رحلة الأسير مويط ، تر : محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية. الريصاني، ط 1990 ، ص 61.

العيش في المطامير كانت أسوأ حالا من الساجنة، ومع ذلك فقد أسعف الرهبان أسرى هذه المطامير، وأقاموا معهم فيها عندما سمح لهم ببناء الأديرة والكنائس في هذه المدن.

وقد ظل الأسرى الذين ينتمون إلى ملكية الملك في مراكش إلى أن أمر المولى رشيد بنقلهم إلى فاس لينضافوا إلى أسرى هذه المدينة بعدما سمح للرهبان ببناء كنيسة بها[125]. إلا أنصهذا الانتقال لم يتحقق فعليا إلا في عهد المولى إسماعيل. يقول الأسير مويط Mouet عندما كان بفاس : "وقبل أن يحرر كريكوار بسنتين (أي في سنة 1672) جاء الرهبان المتأملون من مراكش إلى فاس ليقيموا في حبسنا. وخدمنا أحدهم بمكناس عندما نقلونا إليها. وبقى الأمر هكذا حتى عام 1676 حيث قام مقامهم رهبان الثالوث الأقدس القادمون من مدريد. فعاد المتأملون إلى إسبانيا، واختلوا منذ ذلك العهد في ألمين سبتة. وهكذا منذ قدوم الأب كريكوار إلى وقت انصرافي عام 1681، لم نفتقد قط رهبانا لتقديم الأسرار الدينية"[126].

ولقد تم انتقال الأسرى في عهد المولى إسماعيل من مراكش إلى فاس، ثم من فاس ومن جميع الموانئ المغربية التي يتواجدون فيها إلى مكناس ليشكلوا يدا عاملة استخدمت في مختلف الأعمال. يقول أبو القاسم الزياني : "وكان في سجونه من أسرى الكفار خمسة وعشرون ألف أمير ونيف، كانوا يخدمون في بناء قصوره، منهم الرخامين، والنقاشين، والحجارين، والحدادين، والبنائين، والنجارين، والزواقين، والمهندسين، والمنجمين، والأطباء، ومن كل حرفة، ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير بمال"[127].

وقد حرص المولى إسماعيل على جلب جميع الأسرى إلى مكناس، حيث كان يشتري كل أسير بـ 250 ليرة، فتجمع لديه عدد كبير من الأسرى شكل الأسبان والبرتغال الجزء الأكبر منهم، ثم بعدهم الفرنسيون[128]. وتتضارب الروايات العربية والمسيحية حول عدد الأسرى، فالمؤرخ الزياني يقول بأنهم كانوا 25 ألفا، والمؤرخون الأجانب يحصرونه في ألفين أو في ألف ومائتين.

لقد أقام هؤلاء الأسرى في سجون مختلفة، ولما كثر عددهم اضطر المولى إسماعيل

(125) - Francisco del Puerto : Mision Historial, pp 605 - 606
- Penz Charles : Les captifs Français du Maroc au 17 éme siècle, p 74

(126) مويط : رحلة الأسير مويط ، ص42.

(127) الزيانـي أبو القاسـم : البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف. د.وتح : رشيد الضاوية، مطبعة المعـارف الجديـدة، ط 1-1992، ص 188-189.

(128) Penz Charles : Les Captifs Français , p 279

إلى هدم السجن الواقع بالقرب من جامع الزيتونة وتوفير فضاء فسيح محاط بأسوار عالية، بنى فيه الأسرى بأنفسهم بيوتا صغيرة. وقد كان هذا السجن مقسما إلى أربعة أحياء بحسب جنسية الأسرى الذين يشكلون الأكثرية. فكان هناك حي الأسبان، وحي البرتغاليين، وحي الفرنسيين، وحي الإنجليز. وفي هذا السجن وجدت أيضا الطرق والمخابز وأماكن كالعبادة والمستشفيات التي كان يقيمها الأسرى بدعم من التجار المسيحيين أو قناصلة بلدانهم أو ملوكهم، وقد كان أهم حي في هذا الأسر هو حي الأسبان الذي كان يضم كنيسة ومستشفى كبيرا[129].

وفيما يخص نظام هذا الأسر، فقد كان لكل حي رئيسه الذي يعينه الأسرى من جنسيته، وكان هذا الرئيس وكذلك الأسرى الذين يعملون في المستشفيات يعفون من الخدمة عند الملك. وكان يرأس هذا السجن كله قائد يعينه الملك ليسهر على سلوك الأسرى.

وقد سمح لبعض الأسرى بالعيش خارج هذا السجن وخاصة الذين يقدمون خدمات متميزة إلى الملك أو إلى أحد أفراد حاشيته، وكذلك الأسرى المتزوجون الذين كان يخصص لهم سكن خاص، ويعفون من الخدمة عند الملك. وكانت النساء غير المتزوجات والأطفال يلحقون بالقصر.

أما الأسرى الذين يعملون في خدمة الملك فقد كانوا يقومون بأعمال البناء، وجني الثمار، ومقابلة أفران الآجر...، حيث بنوا في عهد المولى إسماعيل خمسة مساجد، ومدرستين، وقصورا، وقصبات، وإسطبلات، وأحياء سكنية كاملة. وكانوا يتقاضون على عملهم مقدار خمسة فلوس، ويتكفل الملك بإطعامهم ولباسهم[130]. ويتحدث الأسير مويط عن طعام الأسرى ولباسهم قائلا: "كان طعامنا لا يعدو... ملء اليدين من الدقيق الأسود، وأوقية زيت لكل واحد منا في اليوم، سواء الأصحاء والمرضى، الكبار والصغار. وكان لباسنا عبارة عن جلباب من صوف ذي غطاء للرأس، وكمية ككساء راهب .. وقميص مخصر وسراويل مع أربعة أزواج من أخفاف حقيرة تصير بالية تماما ومخروقة بعد ثمانية أيام من الخدمة في الجير والطين"[131].

وبداخل هذا السجن المنظم كان يقيم الرهبان الفرنسيسكان الإسبان في كنيستهم بجانب أسرى جنسيتهم يسعفونهم ويرعون شؤونهم الدينية، ويوزعون لهم الصدقات التي

(129) - Juan de la concepcion : Relacion Veridica..., 24 - 25

(130) - Penz Charles : Les captifs Français du Maroc, pp 281 - 285

(131) مويط : رحلة الأسير مويط، ص 63.

يرسلها لهم ملكهم. وكانوا يهتمون بباقي الأسرى، وخاصة الذين يتبعون المذهب الكاثوليكي، حيث كانوا يعاملونهم معاملة خاصة. وهكذا كان يتقبل ثلثي الأسرى الإسعافات الروحية والشعائر المقدسة التي يقدمها الرهبان الفرنسسكان. وقد كان الأسرى الإسبان أحسن حالا من أسرى باقي الجنسيات، لأن الرهبان الأسبان الفرنسيسكان هم وحدهم من بين باقي المذاهب الذين سمح لهم بالإقامة في المغرب، وكانوا يهتمون بجميع شؤون أسراهم، كما كان ملوك إسبانيا في هذه الحقبة يرسلون إعانات مالية سنويا لدعم البعثة مصاحبة ببيانات ومراسيم تبين للرهبان كيفية التصرف في هذه الإعانات وتوزيعها. وفي كشف عن واحد من هذه المراسيم يمكن أن نتبين كيفية حصول الكنيسة في المغرب على الإعانات المالية، ومدى اهتمام الحكومة الإسبانية بالبعثات وقضية الأسرى في هذه المرحلة، وينص المرسوم على :

1 - أن يحضر في هذه البعثة اثنا عشر راهبا بما فيهم الأسقف أو نائب الأسقف من مذهب سان فرانسيسكو لإقليم سان دييكو في الأندلس ويتضمن هذا العدد الأساقفة والرهبان الخدم، بحيث يجب أن يزيد عدد الأساقفة على عدد الرهبان الخدم لأداء عملية الدعم الروحي التي يحتاج إليها الأسرى في هذه النواحي، وأن يتكلف الرهبان الخدم بإسعاف المرضى والعناية بأغطية المستشفى وأعمال أخرى ضرورية في البعثة.

2 - أن يتم تعيين الرهبان الإثني عشر من قبل الأسقف الرئيس للإقليم، وأن يعين منهم أسقفا يرأسهم، وأن يقدم كشفا عن أسماء الأساقفة، وأسماء الرهبان الخدم.

3 - وإذا نقص راهب نتيجة لحادث ما يجب أن يعين مكانه راهب آخر بالطريقة التي بينا، وفي المهمة نفسها التي كان يقوم بها الغائب. وأما إذا ذهب راهب إلى إسبانيا من أجل قضاء تبعيات البعثة، أو إنجاز مهام لملك مكناس ولقياده، فيعين مكانه الأسقف راهب يشغل مهامه مؤقتا في مدة غيابه. ويجب على الأسقف أن يخبر دائما بتعيين راهب جديد.

4 - يجب أن يكون الرهبان على استعداد كامل لمواجهة الأخطار الكثيرة التي يمكن أن تحدث لهم بين هؤلاء البربر، وإذا تراجع أحد الرهبان عن ذلك، يجب أن لا يتردد الأسقف في إخبار الأسقف الأعلى لتغييره مهما كان ورعه الذي دفعه إلى الذهاب إلى هذا العمل المقدس .

5 - يجب على الرهبان أن يسعفوا الأسرى حيثما كانوا، بحيث يوزع الأسقف أو نائب الأسقف الذي يوجد في البعثة الرهبان في المدن التي يوجد فيها عدد كبير من الأسرى المسيحيين، وإذا علم أن هناك مسيحي يحتاج إلى إسعاف في أي مكان فيجب أن يرسل إليه راهب يشجعه ويبعده عن كل وهم.

6 - تخصيص جلالة الملك 528 بيسوس إسكودوس في كل سنة من أجل دعم لباس وكل حاجيات الرهبان ومصاريف أخرى للبعثة.

7 - تسلم هذه الهبة إلى الأسقف أو نائب الأسقف الذي يحضر في هذه البعثة، والذي يجب عليه العناية باحتياجات الرهبان ولباسهم، وجميع احتياجات البعثة، وأن يوزع ذلك بحكمة من أجل المحافظة عليها.

8 - تسليم الملك لمائة بيسوس إسكودوس في كل سنة لشراء الشمع وقرابين القداسات وأشياء أخرى تستخدم في خدمة العبادة الإلهية. ويتسلم هذه الهبة الأسقف أو نائب الأسقف الذي يحضر في البعثة.

9 - أمر الملك بتسليم ألف بيسوس إسكودوس سنويا لمعالجة رعاياه الأسرى المسيحيين وإسعافهم بكل ما يحتاجونه، ويتسلم هذا المبلغ الأسقف أو نائب الأسقف الذي يحضر في البعثة، ويجب عليه أن يحتفظ بالقسم الفائض من هذه الهبة إذا كان هناك عدد قليل من المرضى، لكي يستخدم هذا الفائض وقت الحاجة أو إذا ارتفع عدد المرضى. ويجب أن لا تصرف هذه الهبة في أشياء أخرى.

10 - إعطاء الملك لستمائة بيسوس إسكودوس سنويا لكي تستخدم في سد حاجيات رعاياه الأسرى من الغداء الذي يجب أن يوزع في كل يوم في جميع السجون، وأن يعتني الرهبان بصفة خاصة بالأطفال، بحيث يطبخوا لهم قدرا حسب عددهم في كل سجن، ويقدموا لهم الخبز الكافي. وأن يتسلم هذه الهبة الأسقف أو نائب الأسقف الذي يحضر في البعثة، وأن لا تصرف في أشياء أخرى، وأن لا يعطى لأسير شيء قليل أو كثير من المال.

11 - يبلغ مجموع هذه الهبات ألفين ومائتين وثمانية وعشرين بيسوس إسكودوس سنويا، وتسلمها أيدي آمنة تحرص على عدم التأخر بها، وقد أمر الملك المذهب الثالث لسان فرانسيسكو في مدريد أن يعتني بتنظيم هذا العمل لخدمة مسعاه الذي يهدف إلى خدمة الرهبان والأسرى المسيحيين، وإتمام ذلك على أحسن وجه، ويشارك الأسقف

أو نائب الأسقف الذي يوجد في البعثة رئيس المذهب في تنظيم هذه الهبات.

12 - يأمر الملك بإرسال كشف يتضمن طريقة توزيع هذه الهبات واستخدامها، وذلك بمصادقة عليها من قبل الأسقف أو نائبه، وراهبين آخرين أو ثلاثة من البعثة، وختمها بطابع البعثة، حيث يوضع في البداية المبلغ الذي يتسلمه الأسقف كل سنة، وما خصصه للرهبان، والتاريخ الذي وزعت فيه، وتمييز الحصص التي خصصت للباس والمصاريف الأخرى، ثم تتبع بالحصص التي خصصت للعبادة الإلهية، ومعالجة المرضى وغداء الأسرى.

13 - يجب إرسال كشف إلى المذهب الثالث عن سداد الحصص المالية التي يرسلها إلى البعثة، ويجب أن يكون هذا الكشف موقعا من قبل الأسقف وراهبين أو ثلاثة، ومختوم بطابع البعثة.

14 - يجب أن تتوفر البعثة على دفتر حساب يسجل فيه كل المبالغ التي يرسلها المذهب الثالث والمواعيد التي تسلموها فيها، والحصص التي صرفت، والنتائج التي حققتها، ثم يرسل هذا الكتاب في كل سنة ليسهل الاطلاع على الحسابات"[132].

ووفقا لما ينص عليه هذا المرسوم ، فإنه يمكن أن يتضح لنا بجلاء أوفى اهتمام الحكومة الإسبانية بقضية الأسرى في هذه الحقبة، ومرد ذلك أن إسبانيا هي الدولة الوحيدة من بين الدول الأوربية التي خول لها المغرب المساهمة في حماية الأسرى. وبناء على هذا فإن الملوك المغاربة لم يسمحوا إلا للمبشرين الفرنسيسكان الإسبان بالإقامة في مملكتهم، وعهدوا إليهم بشؤون الأسرى على مختلف جنسياتهم. وقد شكلت المساعدة المالية السنوية التي كان يسلمها المذهب الثالث لسان فرانسيسكو - نيابة عن الحكومة الإسبانية - إلى الأسقف الرئيس في مكناس دعما حقيقيا لفائدة المبشرين وإسعاف الأسرى من الناحيتين المادية والروحية، ويتمثل ذلك في بناء المستشفيات والمصليات والمساكن، وتوفير الدواء والأكل واللباس وكل احتياجات البعثة.

ومختصر كل القول إن أعمال المبشرين في هذا الأسر كانت تتوزع بين العمل الروحي والعمل الإنساني. فمن الناحية الدينية اهتم المبشرون الفرنسيسكان بتنظيم الحياة الروحية للأسرى عن طريق أداء الصلوات الجماعية والمواكب الدينية، والاحتفالات والأعياد الدينية في مواعيدها المحددة، حيث ينادى الأسرى لأداء الصلاة وخاصة في

(132) ترجمة لمخطوط يوجد في البعثة في طنجة بعنوان " وثائق وإرساليات " "Cedulas y despachos"، مع التصريح بالهبات التي خصصها الملك للبعثة سنة 1698. وقد نشر هذا المخطوط في مجلة موريطانيا - ع 208 - 1 مارس 1945. ص 68 - 69.

المساء عند رجوعهم من العمل، وفي الصباح الباكر قبل الذهاب إليه، ويستمعون إلى الخطب والعظات الروحية التي تشجعهم على الصبر وتقوية إيمانهم، ويغنون المدائح الدينية. كما يحرص الرهبان على جمعهم والاحتفال معهم باحتفالات السنة للسيد المسيح، والسيدة مريم، والحواريين، والحفلات الخاصة بالمذهب، والصيام الكبير، وصيام الميلاد، والقداسات، والأحد الأول من كل شهر.

وقد شكلت المواكب الدينية أبرز مظهر احتفالي اعتنى بتنظيمه الرهبان، حيث كان يحضرها جميع الأسرى سواء الذين يعيشون في الساجنة أو المتزوجون المقيمون خارجها. وقد كانت تقام هذه المواكب في جميع الاحتفالات الرئيسة، وأعياد الفصح. وتجري بالطقوس نفسها كما في كنائس البلاد المسيحية، حيث تشعل الشموع ويمشي الجميع أطفالا ونساء ورجالا بجريد النخيل. وقد كان الأسرى يعفون من العمل، ويؤذن لهم بالاحتفال بأربعة أعياد، وهي عيد رأس السنة، وعيد الفصح، وعيد ميلاد يوحنا المعمدان، وعيد مريم العذراء[133].

بالإضافة إلى هذه الاحتفالات الدينية كان الرهبان يهتمون أيضا بالتعميد والاعتراف وإدارة القرابين المقدسة والعشاءات الربانية ومصالحة المرتدين، وتعليم الأطفال الدين المسيحي، وإدارة كل المقدسات الروحية والجسدية التي خولها لهم الباباوات. ولحرصهم على موت الأسرى على الدين المسيحي، كانوا لا يفارقونهم في حالة مرضهم، ويقدمون لهم الزيت المقدس، ومقدسات أخرى، ويصلون عليهم مع بعض الأسرى، وبعد موتهم يكفنونهم ويدفنونهم في مقبرة الكنيسة التي كانت تقع خارج أسوار المدينة. وقد تعود المغاربة على مشاهدة احتفالات الدفن التي غالبا ما كانت تمر ليلا[134].

وفيما يخص الرعاية الطبية للأسرى، فقد اهتم المبشرون بتأسيس مستوصفات التمريض منذ إصلاح البعثة سنة 1630، حيث اهتم الأب فراي ماتياس مباشرة بعد تسلمه مهام البعثة في هذه الحقبة بتأسيس شكل من أشكال المستوصف الطبي، يضم ستة أو ثمانية أسرة، من أجل رعاية المرضى ومعالجتهم حسب ما سمحت به الظروف المادية آنذاك[135]. وحافظ المبشرون من بعده على وجود هذه المستوصفات، ورفعوا قدرتها

(133) Penz Charles : Les captifs Français....p 302

يقول الأسير مويط : " أما الأيام الأربعة الأخرى التي هي أيامنا أعني عيد الميلاد، وعيد العنصرة، وعيد الفصح، وعيد ميلاد العذراء، فكنا نطلبها لتخصيصها لدعاء الله، وترتيل الزبور والأناشيد الدينية، وكانوا يعطوننا إياها." ص 55.

(134) - Juan de la concepcion : Relacion Veridica ,pp 11-23.

- Fancisco del Puerto : Mision Historial , p 436.

(135) Matias de san Francisco : Viage a Marruecos , 98

الإيوائية بسبب ارتفاع عدد الأسرى المرضى، وتوفر الوسائل الضرورية والموارد المالية.

وفي عهد المولى إسماعيل بنيت أربع مستشفيات في ساجنة الأسرى بمكناس، فكان هناك مستشفى الفرنسيين، ومستشفى البرتغاليين، ومستشفى الإيطاليين، وهذه جميعها كانت مستشفيات صغيرة، وكان دعمها المادي يعتمد على الهبات التي يرسلها التجار الأوربيون المقيمون في الموانئ المغربية، وكان أكبر هذه المستشفيات هو المستشفى الإسباني، إذ كان يحتوي عندما افتتح سنة 1687 على عشرين سريرا. وتطورت قدرته الإيوائية، فتم توسيعه بفضل المساهمة المالية لكارلوس الثاني، وأصبح يحتوي على مائة سرير مجهزة بكل الوسائل الضرورية، ومستلزمات التمريض، كما كان يحتوي أيضا على صيدلية صغيرة، ولذلك كان يتردد على هذا المستشفى المغاربة أيضا. وقد كان الأسرى الذين يعملون في المستشفى يعفون من الخدمة في الأعمال الخاصة بالملك أو أية أعمال أخرى، ويكرسون جميع الوقت لخدمة المرضى أو تنفيذ أوامر الرهبان[136].

ولم يكن يقتصر الإسعاف الطبي في هذه المستشفيات على العلاج الجسدي، بل كان العلاج الروحي أساس أيضا، فحينما كان يدخل المريض إلى المستشفى يقوم الراهب أولا بتعنيفه ليتقبل المقدسات والاعتراف والزاد بخضوع وسلام وهدوء، ثم يهيئ له الطبيب السرير ويفحص مرضه، ويخبر الراهب الممرض والصيدلي والحجام، لكي يرتبوا له نظام الأغذية والدواء بدقة. ونشير هنا إلى أن الطبيب والممرضين كانوا يعيشون جميعا داخل المستشفى الذي يعملون به، حتى يتسنى لهم الإسعاف السريع للمرضى. وكان الآباء يقومون بكل الأعمال الاحتفالية الدينية في المستشفى مثل القداس، والمواكب، حتى يتمكن المرضى والممرضون من القيام بكل الأعمال الدينية[137].

ولقد كانت هذه المستشفيات كافية لإيواء الأسرى المرضى، لكنها كانت تضيق بهم في زمن انتشار الأوبئة، حيث كان المبشرون يتجندون بكل طاقاتهم لإسعافهم، ورغم ذلك فإن حصيلة الموتى كانت مرتفعة، إذ مات عند انتشار وباء الطاعون سنة 1689 ستمائة وثلاثة عشر أسيرا خلال ثلاث سنوات، منهم 355 إسبانيا، وتسعين برتغاليا، وثمانية وسبعين فرنسيا، وتسعة وعشرين نابوليا واثنى عشر جنويا، وإحدى عشر إيطاليا، وتسعة إرلنديين، وخمسة هولنديين، واثنين من جبل طارق، وواحد هندي، وواحد يوناني، واثنان وعشرين من وطن مجهول. وتبين هذه الحصيلة تنوع جنسيات الأسرى في المغرب في هذه الحقبة وكثرة عددهم[138].

(136) Juan de la Concepcion : Relacion Veridica , pp 24 - 31.

(137) Juan de la Concepcion : Relacion Veridica ...p 28 - 29.

(138) Penz Charles : Les Captifs Français du Maroc au 17ème Siècle , p 316.

وفي سياق الرعاية الروحية الإنسانية للأسرى كان المبشرون يقومون بطبخ الأكل والخبز وتوزيعه بينهم.كما كان المبشرون يتحملون حل مشاكل الأسرى في العمل، ويسعفونهم إذا هددوا بالعقاب أو الموت من قبل السلطان أو حراسه وباشاواته[139].

ورغم كل هذه الأعمال التي قام بها المبشرون بعناية ومواظبة، فقد كان الأسرى كثيرا ما يثورون عليهم، ولا يولون لأعمالهم أية قيمة، ويرفضون إقامتهم معهم، على اعتبار أن هذه الإقامة تكرس أسرهم وتطيل أمده، فحتى الأسرى الأسبان الذين كانوا أحسن حالا من باقي الأسرى اتهموا المبشرين الفرنسيسكان الذين كانوا من نفس جنسيتهم بسرقة المال الذي ترسله إليهم الدولة الإسبانية وتبذيره في أشياء لا تعود عليهم بالنفع، ولا تخفف من تعاستهم وألمهم ولذلك كانوا يفضلون أن لا يستقر معهم المبشرون في المدن التي يوجدون فيها أسارى، وأن يقوموا بدور المفاوضة مع الملك لإطلاق سراحهم، واستثمار المال الذي يحصلون عليه من جهات مختلفة لافتدائهم[140].

2 - الكنيسة وعملية افتداء الأسرى :

تعتبر قضية افتداء الأسرى إحدى أهم القضايا التي شغلت اهتمام الكنيسة في المغرب منذ تأسيسها إلا أنها لم تكن في البدايات الأولى غاية في حد ذاتها. إذ غالبا ما كانت تتم بالمفاوضة بين الحكومات، كما كانت مذاهب دينية لا تنتمي إلى هذه الكنيسة تهتم بشراء الأسرى الذين يملكهم الخواص والقراصنة. وقد تحمل المبشرون هذه المهمة عندما استقرت أسقفية المغرب في إشبيلية، حيث قام الأب كونتريراس بدور فاعل في عملية فدية الأسرى في الجزائر والمغرب. ولجأ الأب إلى المغرب من أجل هذا الغرض عندما كان الصراع قائما بين الوطاسيين ودولة الشرفاء السعديين، فوفد على الملك حامد الوطاس المريني في فاس، وتمكن من فدية كل المسيحيين الذين خولهم له المال الذي كان يملك، ثم عاد الأب مرات عديدة إلى تطوان وقام بعمليات افتداء كثيرة[141].

وقد توالى توافد المبشرين والأساقفة بعد الأب كونتريراس، حيث جاء إلى تطوان سنة 1548 ثلاثة أساقفة برتغاليين وعظهم هذا الأب نفسه بكيفية معاملة الأسرى وإسعافهم، وعندما لم يتمكن هؤلاء الأساقفة من الاستقرار طويلا مع الأسرى، افتدوا الكثيرين منهم.

(139) - Francisco del Puerto : Mision Historial, p 563 .
- Juan de la Concepcion : Relacion Veridica, pp 32 - 45

(140) - Francisco del Puerto : Mision Historial, p 564
- Madroñal Mateo : carta escrita al ...., p 1
- Penz Charles : Les captifs Français du Maroc , p 304

(141) Gabriel de Aranda : Vida de S. F. de contreras , pp 352 - 359.

وفي سنة 1567 ذهب راهبان آخران من مذهب "زمرة يسوع" إلى المغرب لفدية الأسرى، حيث لجأ الواحد منهم إلى تطوان، والآخر إلى مراكش، وحققوا نتائج طيبة[142].

وقد بدأت الكنيسة في المغرب تهتم فعليا بهذه القضية بعد إعادة تأسيس البعثة في بداية القرن السابع عشر، حيث استطاع الأب فراي ماتياس الذي قام بدور السفير المفاوض الملك محمد الشيخ السعدي والملك الإسباني دون فيليبي Don Felipe من الحصول على جميع أسرى سلا الذين كان عددهم آنذاك أربعة وعشرون أسيرا بالإضافة إلى عدد آخر كبير من سجن مراكش، فكانوا في المجموع أربعة وتسعون أسيرا[143].

ثم توالت محاولات المبشرين الذين استقروا بهذه الكنيسة لفدية الأسرى. وتتحدث المصادر المسيحية عن التماس الأب السفير فراي دي لاكونسيبسيون De la Concepcion الإفراج عن جميع الأسرى الإسبان، وموافقة الملك على ذلك، إلا أنها لا تؤكد وقوع هذا الإفراج فعليا. ثم حقق بعد ذلك الأب فراي ألونسو في عهد عبد الكريم (من دولة الشبانات) فدية أربع أسيرات من سجن مراكش[144].

ومجمل كل القول فقد كان الأسرى المسيحيون في المغرب يباعون ويشترون في الموانئ التي تحل بها السفن التي اقتادتهم مثل الرباط وسلا وتطوان، وينقلون إلى المدن الداخلية، وهم يعملون إما عند خواص بعد شرائهم، أو لدى السلطان في أعمال مختلفة. وتتم مفاداة الأسرى بنظرائهم من المغاربة أو غيرهم من المسلمين كالأتراك والجزائريين، كما تتم بالمال من هذا الطرف أو ذاك[145]. وقد توقفت عملية افتداء الأسرى في عهد المولى رشيد بفعل أسباب متعددة تعود في مجملها إلى سوء العلاقة مع الدول الأوربية[146]. ثم في عهد المولى إسماعيل اتخذت هذه القضية بعدا آخر، إذ أصبح الأسرى جميعهم في

(142) Francisco del Puerto : Mision Historial , p 154 - 155.

(143) - Matias de San Francisco : Viage a Marruecos, p 109.
-Francisco del Puerto : Mision Historial, pp 448 - 449 y 453.

(144) Francisco del Puerto : Mision Historial, pp 471y 589.

(145) حركات إبراهيم : المغرب عبر التاريخ ، ج3/ص 488.

(146) ويشير الأسير مويط إلى بعض هذه الأسباب ومردها: "أن أهل مدينة تطوان التمسوا من الملك أن يخلص من سجن الأشغال الشاقة بجنوة أحد أشهر قراصنتهم يدعى السيد ابن حدو، فبعث إليهم يهوديا يقترح عليهم استبداله بجميع مواطنيهم الأسرى المعتقلين في مملكته. لكن الجنويين الذين كانوا يعلمون جيدا أنهم كانوا قليلين جدا، طلبوا منه أن يرسل إليهم كلابا مقابل إطلاق سراح القرصان مظهرين بذلك أنهم لا يعتبرون مسلما أكثر من كلب. فأثار هذا التصرف غضب الملك إلى درجة أنه أقسم ألا يحرر أي مسيحي إطلاقا مهما كان الثمن، وبعث في الحين بأمره إلى سكان سلا وتطوان باستئناف غاراتهم البحرية على المسيحيين بأكثر ما يمكن من الحدة والحمية. وأمر بصنع سفينتين لنفس الغرض. كما أمر عاملي هاتين المدينتين بأن يرسلا إليه بفاس جميع رياس السفن وضباطها مع أهم المسافرين والتجار الذين سيأسرونهم حتى يتركهم يموتون في سجونه في فاس في الأشغال التي ينوي استخدامهم فيها". ص 31 - 32.

ملك الدولة، ولا يمكن التفاوض من أجل إطلاق سراحهم إلا مع الملك، ولذلك تحولت قضية الأسرى من قضية خاصة إلى قضية سياسية[147].

ونشير في هذا السياق إلى أن مبشري المذهب الفرنسيسكاني لم يقوموا وحدهم بدور الوسيط في عملية مفاداة الأسرى، بل نجد مبشرين من مذاهب أخرى حاولوا أن يتولوا هذه المهمة. إذ جاءت إلى المغرب ما بين سنة 1677 و1687 بعثات أخرى، ويتعلق الأمر هنا ببعثة الفرنسيسكان الإيطاليين الذين أرسلهم البابا إنوسينسيو 10 Inocencio، ومبشرو مذهب الثالوث الأقدس من إسبانيا الذين أرسلهم المجمع المقدس ليعوضوا الفرنسيسكان الإسبان 148.

وقد أتيح للفرنسيسكان الإيطاليين المقام في المغرب، حيث أقام واحد منهم وهو الأب خياسينتو دي باليرمي Giacento De Palarme في سلا، واتجه النائب الحواري للبلاد البربرية الأب جيفولاموق Jivoularmo، والأب جياكومودو سان ميشالي Sain Micheli Jiacomodo وراهب خادم إلى الداخل، ومنح لهم السلطان في مكناس المنزل والمستشفى اللذان بنيا من قبل مذهب الثالوث الأقدس، وأقاموا في دير فاس الذي أسس سنة 1672 من قبل الفرنسسكان الأسبان. ولم يكن هدف الفرنسيسكان الإيطاليين العناية بالأمور المادية والروحية للأسرى فقط، بل سعوا أيضا إلى تحريرهم دون تمييز بين جنسياتهم.

وقد استطاع الأب بالارمي بعد التفاوض مع السلطان الحصول على موافقة افتداء الأسرى من مختلف الجنسيات مقابل 450 ليبرة لكل أسير. ثم ذهب هذا الأب إلى مدريد ليأتي بمبلغ 150.000 بياستر Piastres لافتداء خمسمائة إسباني، ولكن المغاربة في هذا الوقت كانوا قد قبضوا على أسرى آخرين قبل مجيء السفارة المكلفة بمفاداة الأسرى وشرائهم[149].

وفي سنة 1677 جاء إلى المغرب مبشرو مذهب الثالوث الأقدس ليعوضوا الفرنسيسكان الأسبان، لكنهم طردوا من قبل المولى إسماعيل سنة 1680 بعد أن حققوا فدية مائتي أسير[150].

(147) - Penz Charles : Les captifs Français , p 319.
- Caillé Jaques : Les accords internationaux du sultan sidi Mohamed. Librairie generale de droit,1960, p 134.

(148) - Francisco del Puerto : Mision Historial, p 626 - 627.
- Penz Charles: Les captifs Français du Maroc, p 134.

(149) - Penz Charles : Les captifs Français du Maroc ,p 153. 42.

(150) مويط : رحلة الأسير مويط ، ص 42.
Francisco del Puerto : Mision Historial , p 626

وفي سنة 1683 توجه رهبان مذهب الشكر إلى المغرب من أجل فدية الأسرى الفرنسيين مغتنمين انعقاد اتفاق سلام بين فرنسا والمغرب من أجل تحقيق هذا المسعى، وذلك بشراء الأسرى بمبلغ حدد في 100 إكوس Ecus في البند السابع من المعاهدة. وهكذا توقف راهبان من هذه البعثة في سبتة يحملان مال الفدية، وتوجه الثالث وهو الأب كاستبل لمعرفة التوجهات، إلا أنه فشل في مهمته لأن الملك المولى إسماعيل اشترط بالإضافة إلى المبلغ المتفق عليه في المعاهدة استرداد جميع أسراه المغاربة في فرنسا. فرجع هؤلاء المبشرون إلى فرنسا دون تحقيق الفدية، لأن المولى إسماعيل هدد بالحرب ضد فرنسا إذا لم تستجب إلى طلب تسليم أسراه[151].

وقد حاول أصحاب هذا المذهب مجددا المجيء إلى المغرب، وخاصة ما بين 1704 و1737 في محاولة لفدية الأسرى الفرنسيين. ورفض المولى إسماعيل إقامتهم الدائمة مع الأسرى، وهدد بحرقهم أحياء وأصدر في هذا الشأن ظهيرا بيانه: "الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لا رب غيره، ولا معبود بالحق سواه سبحانه وتعالى عما يصفون. إسماعيل ابن الشريف الحسني رعاه الله.كتابنا هذا اسماه الله تعالى وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه وبدره، يتعرف من يقف عليه أن يوم السبت الخامس عشر من شهر الله شعبان عام ستة عشر ومائة وألف حضروا بين أيدينا جميع الفرايلة الإسبنيول من بروفينسية سان دياكو من جنس فرانسيسكو مع رؤوسهم الذين هم بطاعتنا وتحت كلمتنا العلية بالله، يطلبون منه فدية الأسارى الفرنسيس، ويطلبون منا أيضا جلوس الفرايلة الفرنسيس في طاعتنا لخدمة الأسارى، وقالوا لنا أنا وفيناهم ما طلبوه منا يجلسون بأنفسهم أسارى، فأجبناهم ليس من عادة الفرايلة الفرانسيس يجلسون بطاعتنا، ولا نوافق على ذلك، ورغبنا الفرايلة الإسبنيول المذكورين أصحاب خديمنا الفرايلي دييكو الذي هو عندنا في عين الرضى، وأمرناهم أن يجلسون هنا لخدمة الأسارى أو غيرهم الذين بطاعتنا لكونهم تقدمت لنا معرفة ولنا بهم مخالطة، ويعرفون سيرتنا ولا نقبل في طاعاتنا غيرهم، لأن غيرهم ظهرت فيهم خيانة قبل هذه الساعة، واعتقدنا في أنفسنا لا نخالطهم أبدا، بظهيرنا هذا أسماه الله مكناه بأيديهم يثبت ما وقع بيننا وبينهم من الكلام، وختمناه بخاتم مملكتنا أيدها الله وألقاها، وظفر عساكرها وجنودها بمنة آمين. انتهى وفي التاريخ أعلاه"[152].

---

(151) Penz Charles : Les captifs Français du Maroc, p 126

(152) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p426 - 427

وبناء على هذا قام أصحاب مذهب الشكر برحلات متعددة إلى المغرب، لكن مساعيهم كانت تنتهي بالفشل. ومشكلة هذا المذهب في الإخفاق في عملية التفاوض والمفاداة بحسب ما استنتج أحد الدارسين من رواياتهم التاريخية لهؤلاء المبشرين ترجع إلى عدة عوامل، منها :

1 - الأسرى كانوا في ملكية الملك ويستعملهم في أعماله الخاصة، بحيث كانوا يحققون له مصالح كثيرة بقليل من المصاريف، ولذلك فهو لم يقبل التفاوض إلا على بعض الأسرى الشيوخ أو الذين لم يكن يستفيد منهم. بينما استطاع أصحاب هذا المذهب أن ينجحوا في مساعيهم في الجزائر وتونس، لأن الأسرى كانوا في ملكية الخواص الذين كان يهمهم المال، إذ رغم ما كان يقدمه لهم هؤلاء الأسرى من خدمات، إلا أنهم كانوا يخافون هربهم أو موتهم.

2 - عدم معرفة هؤلاء بطبيعة البلاد التي تأوي أسراهم، فهم لا يعرفون لغتها، ولا كيفية عيش أهلها، ولا عاداتهم وتقاليدهم، ولا كيفية التصرف مع أهلها، وكان الأشخاص الوحيدون الذين يمكنهم الاستعانة بهم هم التجار الفرنسيون المقيمون في سلا، وكان هؤلاء يرافقونهم في هذه الأسفار حتى مكناس، ويشيرون عليهم بالهدايا التي يجب أن يقدموها إلى الملوك، ويوصلونهم إلى الأشخاص الذين لهم علاقة بالملك. وقد كان يوجد من بين هؤلاء التجار من يحتاج إلى تمتين علاقاته مع سلطة البلاد للمحافظة على مصالحه الشخصية، ومثال هذا فقد تفاوض التاجر بيات Pillet مع الملك لإطلاق سراح أسرى البرتغال وهولندا وجنوة، فكلف هذا التفاوض أصحاب هذا المذهب 24.000 ليبرة، بالإضافة إلى هدايا ثمينة اشتملت على الماس والزمرد والأحجار الكريمة لفدية ستة أسرى ليس فيهم إلا الأعرج والشيخ ومقطوعي الأيدي. وعندما تحققوا من فشل مساعيهم وحاولوا التماس المساعدة من زوجتي الملك، غضب الملك وطردهم.

3 - انتشار خبر مجيء البعثة قبل وصولها، بحيث لا يكاد أصحاب هذا المذهب يصلون إلى العاصمة حتى تكون أخبار بعثتهم قد وصلت إلى الملك وأعوانه، فيعلم الجميع أنهم آتون بالمال الكثير لافتداء الأسرى، فيتكالبون على الرهبان من أجل أن يحصلوا منهم على الغنيمة، ويوزع هؤلاء عليهم المال من أجل إرضائهم وهو ما يكلفهم كثيرا من المال من أجل مساعي فاشلة.

4 - عدم إمكانية اغتنام الفرصة المناسبة، وهذا يستحيل على رهبان هذا المذهب الذين يقيمون في باريس، وخاصة في زمن الاضطرابات وتغير الملوك خلال فترة قصيرة. إذ لا يلبث ملك أن يتخذ خطوات إيجابية تجاه الأسرى حتى يأتي ملك آخر ويلغي قراره[153].

ونتيجة لهذه العوامل لم يستطع رهبان مذهب الشكر فدية إلا ثلاثين أسير من سنة 1690 حتى سنة 1725. ولقد استطاع المبشرون الفرنسيسكان المستقرين في المغرب تفادي كل العوائق المشار إليها سابقا، إذ أتاح لهم استقرارهم الطويل في المغرب معرفة عاداته وتقاليده، وكان بعضهم يتكلم العربية، فاستطاعوا نتيجة لذلك أن يعقدوا صداقات كثيرة مع عدد من المسلمين واليهود، ويتحاورون مع الملوك الذين يزورونهم باستمرار، ويستغلون خدمات المرتدين الذين رجعوا عن ارتدادهم، والذين كانوا يعرفون جيدا مزاج الملوك وأولياء عهدهم وتفاصيل مهمة عنهم تفيد الرهبان في أعمال الافتداء. ولذلك كان الرهبان الفرنسيسكان هم المستشارون النزهاء للفادين الفرنسيين ومن مختلف الجنسيات، الذين يتصلون بهم عندما تمنح لهم الفرصة لتحقيق مساعي المفاداة[154].

ويعتبر الأب فراي دييكو - الذي كان صديقا للمولى إسماعيل - من أهم المبشرين الذين اعتمدت عليهم إسبانيا في قضية افتداء الأسرى. ويحتفظ أرشيف البعثة في طنجة بكثير من البيانات التاريخية عن الجهود التي قام بها المبشرون الفرنسيسكان بصفة عامة في المغرب في هذه القضية، وعن جهود هذا المبشر بوجه خاص. ونورد في هذا السياق المراسلات التي تمت بين ملك إسبانيا وفراي دييكو وملك وأمراء المغرب، لنستنتج منها مستوى النجاح الذي حققه هذا المبشر في فدية الأسرى.

في 30 أبريل سنة 1699 أرسل ملك إسبانيا كارلوس الثاني عن طريق فراي دييكو دي لوس أنخلس رسالة جوابية إلى الملك المولى إسماعيل الذي أرسل إليه عن طريق هذا المبشر ستة أسرى مسيحيين، واثنين إلى كونت بينافينتي Benavente، ودوق ديل إنفانتادوDel Infantado. وموازاة مع هذه الهدية أرسل له دون كارلوس مع فراي دييكو درعين جيدين من مستودع أسلحته.

في 20 أكتوبر من سنة 1699 أجاب مجددا كارلوس الثاني عن طريق فراي دييكو على رسالة كتبها له المولى إسماعيل وأرسل له معها أربعين أسيرا والقائد أنطونيو لوبيز Antono Lopez

(153) Garcia Garcia Antonio : La redencion de los cautivos en los comienzos del siglo 18, Mauritania n° 146 - Enero 1940, pp 15 - 17

(154) Garcia Antonio : La redencion de los cautivos, ...Mauritania n° 147 - 1, Febrero, 1940, p 56 - 57

وزوجته وأبناءه الذين كانوا أسرى، فأرسل كارلوس الثاني الشكر العميق إلى السلطان.

في 20 نوفمبر 1699 وجه الأمير المولى زيدان إلى فراي دييكو رسالة يبين له فيها أنه أطلق له سراح أسير يسمى دانييل، وقد كان محكوما عليه بالموت.

وفي التاريخ نفسه كتبت الملكة دونيا ماريانا Dona Mariana إلى ملكة فاس وسوس وأرسلت هدية من ستة خيول صغيرة وعربة صغيرة جوابا على الهدية التي وجهتها عن طريق فراي دييكو، والتي تألفت من أسيرة وطفلين ابني أحد القواد.

في 27 غشت سنة 1700 أجاب الملك دون كارلوس على الرسالة التي تلقاها من المولى إسماعيل عن طريق فراي دييكو ومعها إحدى عشر إسبانيا.

وفي مناسبة كان فيها فراي دييكو في إسبانيا أرسل له الملك المولى إسماعيل في 9 نوفمبر 1702 رسالة يحمله فيها التدخل لافتداء بحارة من المراكب الحربية المغربية أسروا في إسبانيا، ووعده أن يقدم مقابل كل واحد منهم المكافأة والجائزة.

في 30 أبريل سنة 1703 كتبت ملكة إسبانيا إلى الملك المولى إسماعيل جوابا على تهنئتها على توليها شؤون الدولة وهدية من عشرين أسير مسيحي أرسلهم لها عن طريق فراي دييكو. فأرسلت له هي عن طريق المبشر نفسه أربعين أسيرا مغربيا. وبما أن المولى إسماعيل اقترح في رسالته لها أنه يأمل ويسعى إلى استمرار علاقات الصداقة والاتفاق في ترتيب تبادل الأسرى، فقد فوضت الملكة للأب دييكو مهمة التفاوض مع السلطان في هذه القضية.

وفي التاريخ نفسه كتبت دونيا ماريا لويزا Dona Maria Luisa عن طريق فراي دييكو رسالة أخرى إلى ملكة مراكش وفاس وسوس عائشة مباركة جوابا لها على تهنئتها على تسلم الحكم وعلى زواجها، وشكرتها في الموقت نفسه على إرسالها لها أسيرة مسيحية. وتعبيرا عن علاقة الصداقة أرسلت الملكة عن طريق فراي دييكو عشرة أسرى مسلمين، وأنهت رسالتها بحث ملكة المغرب (زوجة المولى إسماعيل) على التدخل بتأثيرها لكي تسهل بين الدولتين تبادل الأسرى المسيحيين والمسلمين.

وفي السنة نفسها وفي 11 ماي جاء فراي دييكو من الكاردينال بوتوكارييو Potocarrio برسالة إلى المولى سليمان جوابا على رسالته وتسعة عشر أسيرا مسيحيا أرسلهم مع فراي دييكو.

وفي شتنبر من سنة 1703 وجه المولى إسماعيل مجددا إلى الملكة دونيا ماريا لويزا رسالة يشكرها فيها على أربعين أسيرا مسلما الذين أرسلتهم مع فراي دييكو، وورد في رسالته أنه سلم لفراي دييكو وفراي خوان دي لامادري دي ديوسJuan de la Madre de Dios ستة موظفين في مليلية أسرهم القائد، وأن الرهبان سيخبروها بالشكل الذي عاقب به هذا القائد عندما أتى له بهؤلاء الموظفين، ثم أخبرها أنه بعد إنهاء بناء قصر واسع سيتفق على إطلاق جميع الأسرى أو نصفهم أو ثلثهم أو الذين ترغب فيهم الملكة، فيحسب خلال تلك المدة على الراهب الأسرى الهاربون، ويحسب على الملك الأسرى الموتى، وأنه استجابة لالتماسها قرر إطلاق سراح اثنين وأربعين أسيرا، وأنه لاحقا سيكون أمر آخر.

وقد أرسلت الملكة دونيا لويزا عشرة أسرى مسلمين هدية إلى ملكة مكناس عن طريق فراي دييكو وفراي خوان دي لامادري دي ديوس. وكتبت ملكة مكناس في شتنبر سنة 1703 رسالة أرسلتها لها مع الأسير فرانسيسكو روكا Francisco Roca، وبينت لها أنها ستتعاون مع الملك زوجها من أجل تحقيق إطلاق سراح جميع الأسرى الإسبان.

في 4 يناير سنة 1704 وجه الملك المولى إسماعيل رسالة أخرى إلى فراي دييكو جاء فيها: "تعرف أنه وصلت إلى أيدينا رسالتك، وقد أدركنا منها رغبتك وآمالك في المفاوضات التي انشغلت بها، والتي كانت تخصنا... وهكذا سأرسل أربعة مسيحيين، وسأضيف إليهم اثنين التمستهما مني عندما كنت في حضرتي .. وفدية هؤلاء سأتركه إلى تفكيركم، إذ تعرف الأشياء التي تعجبني..".

في 12 فبراير 1705 أدى المذهب الثالث في مدريد 12.127 ريالا لفدية اثني عشر أسيرا.

وفي 25 مارس من السنة نفسها سلم المذهب الثالث إلى نائب البعثات فراي خوان دي لامادري دي ديوس 80.482 ريالا لافتداء واحد وثلاثين أسيرا.

وفي 12 يوليوز و25 غشت تسلم الراهب نفسه من أجل الغرض نفسه 39.000 و5505 ريالا.

وفي شهر يونيو سنة 1708 تسلم فراي دييكو على حساب دونيا لورينسا دي كارديناس Dona Lorenza de Cardinaz وبيدرو كارسيا دي أورينسي Garcia de Orenze Pedro مائة وسبعة أسيرا كلفوهما 564.421 ريالا.

وفي سنة 1712 رجع فراي دييكو إلى المغرب، وحصل على عشرين أسيرا، وفي هذا الافتداء ساهم المذهب الثالث مؤديا جزءا من المصاريف، والجزء الآخر دفعه الملك.

وفي سنة 1713 رجع مجددا إلى البلاد البربرية فراي دييكو، وحقق من خلال مساعيه فدية واحد وأربعين أسيرا على حساب المذهب الثالث. وقد كان المبشر قد التمس فدية 170 أسيرا.

وعن طريق المبشر نفسه افتدى المذهب الثالث عشرة أسرى كلفوه 41.374 ريال.

وفي شهر يناير 1722 تم تبادل ثلاثين أسيرا مسيحيا بثمانية وعشرين أسيرا مسلما بتدخل الأب.

وفي 10 غشت 1722 تم تبادل خمسة مسيحيين بخمسة أسرى مسلمين بتدخل الأب أنطونيو سبييانو Antono Sevilano .

وفي سنة 1724 فوض المذهب الثالث من جديد الأب فراي دييكو لكي يقوم بمساعي مفاداة جديدة، فذهب إلى مكناس، وحقق فدية ثلاثين أسير دفع المذهب الثالث مقابلهم 213.337 ريالا.

وفي 29 يوليوز سنة 1733 رجع الأب فراي فرانسسكو دي سان سيباستيان Francisco de San Sebastian حارس دير مكناس إلى المغرب بإحدى عشر أسير مسلم.

وفي 1735 تدخل بشكل ما أحد المبشرين لكي يطلق سراح الأسير ما ييستيرو خوان Maestro Juan. وفي سنة 1737 تدخل المبشرون من أجل فدية سيباستيان ديل كامبو Sebastian del Campo.[155]

وفي سنة 1737 عندما اعتلى عرش المغرب الملك المولى محمد (ابن إسماعيل) سنحت للمبشرين فرصة مناسبة لافتداء جميع الأسرى، إذ علموا أن هذا الملك يحتاج إلى المال لأنه منح 400 قنطار من الفضة إلى جيش العبيد الذين بايعوه، وأن خزينة المال كانت خالية نتيجة للتغيير السريع للملوك، فتفاوض الرهبان على ما تبقى من مجموع الأسرى الأسبان الذين كان عددهم تسعين أسيرا، وحصلوا على فديتهم جميعهم، ثم أخبر هؤلاء الرهبان الفادين الفرنسيين بهذه المناسبة، فحاولت فرنسا فدية جميع أسراها، لكن كاتب الدولة كومدى دي ماوبيراس Comedi de Mauveras انتقد النفقات الهائلة التي صرفها المبشرون الفرنسيون طيلة أعوام كثيرة، ولم يحققوا نتائج جيدة. ولم يطمئن إلى قدرة الآباء الفادين في المفاوضة، فقرر أن يحملها الماركيز دي أنتان De Antan ، الذي ذهب

(155) جميع المراسلات التي وردت في هذا السياق توجد في أرشيف البعثة في طنجة، ونشرت في الأرشيف الإيبيري - الأمريكي. ونقلها عن: Garcia Antonio : La redencion de los cautivos...Mauritania, n° 147-Febrero 1940 -p57

إلى قادس بأربعة سفن حربية، ورتب مهمته هناك مع الأب لاكاسي Lagaci ، ثم ذهب إلى المغرب، حيث كلف شيخ اليهود بالتفاوض على هذه القضية التي انتهت بعقد اتفاق مع الملك على فدية جميع الأسرى الفرنسيين[156].

ومن ثم فقد تحقق من سنة 1692 إلى سنة 1724 فدية خمسمائة وثمانيين إسبانيا مسيحيا بنفقة المذهب الثالث، من بينهم رهبان من مختلف المذاهب، وأساقفة، وأطفال، وطلبة، وتمت فدية آخرين كثيرين بمساهمة هبات أخرى، وثلاثين أسير من الجنود الذين أسروا في العرائش عند استرجاعها على نفقة المذهب الثالث أيضا.

وعلى هذا النحو استطاعت الكنيسة في المغرب أن تحقق فدية مئات الأسرى المسيحيين، غير أن المصادر التاريخية الأجنبية لم تعد تتحدث عن قضية مفاداة الأسرى أو تشير إلى حيثياتها منذ سنة 1739، وهو التاريخ الذي حقق فيه المبشرون افتداء كافة الأسرى الأسبان والمسيحيين. لكن هذه المصادر تشير إلى استمرار وجود الأسرى في المغرب بعد هذا التاريخ، وكذلك وجود المبشرين في خدمتهم. ولعله من المستبعد أن تكون الكنيسة قد تخلت عن تحرير الأسرى المسيحيين بعدما لعبت دورا إيجابيا في إنجاز هذه المهمة.

ومن خلال المصادر التاريخية العربية نتأكد أن عملية تبادل الأسرى قد استمرت في هذه الحقبة، إذ يقول الزياني عن حيثيات هذه القضية في عهد المولى عبد الله : "وفي ربيع الأول من عام 1165 (1752) قدم باشدور الإسبنيول بمائة ألف ريال دورو وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك بقصد فكاك أسرى جنسه. وقدم معه أهل تطوان بهدية فيها ثلاثون ألف مثقال، فقبض المال وقال للباشدور: "حتى يأتي أسرى المسلمين"، وأعطى للعبيد من ذلك المال ريالتين للواحد، ولنسائهم كذلك، وكانوا ألفين ومائتين"[157].

ثم يتحدث الزياني أيضا عن توسط السلطان سيدي محمد في فكاك الأسرى بين الأسبان والترك:"وفي هذا العام كتب طاغية الإسبنيول للسلطان أنه لم يبق ببلادهم أحد من أسرى المسلمين أهل المغرب، وما بقي عندهم إلا أسارى أهل الجزائر، وعند أهل الجزائر الإسبنيول، ويطلب منه أن يتوسط لهم في فداء أسراهم من الجزائر ويدفعون لأهل الجزائر أسراهم، وتكون هذه المفاداة عديدة: الرئيس بالرئيس، والبلوط بالبلوط، والياكنجي بالياكنجي، والجندي بالجندي، والبحري بالبحري. ومن فضل عنده فضل من

(156) Garcia Antonio : La redencion de los cautivos... ;Mauritania, n° 147- 1 Febrero , 1940, p57.

(157) الزياني : البستان الظريف، ص 328.

البحرية، فخمسمائة ريال للرأس، والرئيس ألف ريال.

فلم يسع السلطان إلا إجابتهم لما طلبوا وما أمكنه إلا السعي في إنقاذ المسلمين من أيدي الكافرين، ابتغاء مرضاة الله وثوابه.

وكان قبل ذلك كتب لهم فيمن تحت يدهم من أسارى المسلمين، فوجهوا له أهل المغرب، واعتذروا بأن أسارى أهل الجزائر يفكون بهم أسراهم الذين بالجزائر، فامتنع أهل الجزائر من الفداء، ولم يبالوا بمن عند الكفار من إخوانهم ..."[158].

وتؤكد هذه الإشارات التاريخية استمرار عملية تبادل الأسرى طيلة هذه الحقبة، ونستشف كذلك أنه في عهد المولى محمد بن عبد الله تم تحرير جميع الأسرى المغاربة الذين كانوا في إسبانيا. إلا أن قضية الأسرى اتخذت أبعادا خاصة ومغايرة في عهد هذا الملك الذي سلك سياسة الانفتاح على أوربا، حيث تنوولت هذه القضية في جميع اتفاقياته تقريبا مع الجانب الأوربي، وتقيدت بشروط خاصة. وقد نصت جميع اتفاقيات الصداقة والسلام والتجارة على وضع حد لمرحلة الحروب المفتوحة، وحرية الإبحار، والرسو، والمساعدة بين البحارة، وحماية المسافرين. وصرحت كثير من هذه الاتفاقيات بنهاية الأسر، وخاصة فيما يتعلق برعايا الدول المتعاهدة[159]. وتناولت اتفاقيات أخرى شروط وكيفيات تبادل وشراء الأسرى مثل الاتفاق مع هولندا والسويد وفرنسا على "تبادل الأسرى رأسا برأس بدون أداء مالي، وإذا كان أحد هذه الدول لا تملك أسرى لكي تقايض بهم فإنها تشتري أسراها بثمن مائة ريال مهما كان مستواهم المادي وحالتهم. وأن أي أسير يملكه مغربي خاص يحرر بالشروط نفسها، وأن عملية شراء الأسرى تتم في بداية كل سنة، وبهذا فإن أي أسير لن يدوم في الأسر أكثر من سنة"[160].

وقد افترض المولى محمد أن تشكل هذه الاتفاقيات نظاما عاما في علاقاته مع جميع الدول المسيحية لذلك تحقق إطلاق سراح كثير من الأسرى المسيحيين والمغاربة بناء على الاتفاقيات المشار إليها. ومع ذلك فإنه لا يمكن تغييب الدور الذي لعبه المبشرون في المغرب في عهد هذا الملك، وخاصة الأب بارطولومي كيرون Bartolome Guiron. إذ

---

(158) الزياني : م. ن، ص 404.

(159) عقد المغرب هذه الاتفاقية مع بريطانيا والبندقية والدانمارك، فاتفاقية 1760 مع بريطانيا تنص على أنه "لا أحد من جلالة الملك البريطاني يباع ويشترى أو يقبض أسيرا". انظر :

Jacques caillé : Les accords internationaux du sultan sidi Mohamed, p 79

(160) Jacques caillé : Les accords internationaux du sultan… p 79.

أرسل المولى محمد في إطار تمتين علاقاته بإسبانيا مبشرين محملين بالهدايا إلى ملك إسبانيا لكي يلتمسوا منه إطلاق سراح كثير من الأسرى المغاربة، فقبل الملك الإسباني هذا الالتماس واشترط أن يفعل السلطان الشيء نفسه مع الأسرى الأسبان. وفي إطار هذه العملية أرسل الملك المغربي خمسة وتسعين أسيرا أسبانيا، وأطلق الملك الإسباني سراح ما تبقى لديه من الأسرى المغاربة[161].

والذي نستخلصه من كل ما سبق أن قضية افتداء الأسرى ظلت قضية شديدة الصلة بالكنيسة في المغرب طيلة تواجد بواعثها ومسبباتها. حيث استمر تواجد الأسرى في المغرب بسبب استمرار عمليات الجهاد البحري، واسترداد الثغور المغربية. واستمر تواجد المبشرين الذين ارتقت مكانتهم إلى مستوى التمثيل الدبلوماسي للمغرب، إلى أن أصدر الملك المولى سليمان بن محمد قرارا نص فيه على إلغاء الأسر، وإطلاق سراح جميع الأسرى، وإيقاف جميع عمليات الجهاد البحري وتحريمها، وبيع جميع البواخر إلى الجزائر وطرابلس. ونتيجة لهذا القرار تغيرت الظروف التي ساهمت في تحديد أهداف الكنيسة وخصوصية تواجدها، إذ يمكن القول إن العلاقة بين الكنيسة والأسرى منذ 1630 كان قوامها السببية، لأن قضية الأسرى هي السبب الأهم الذي وجه خطا المبشرين إلى المغرب من جديد لإعادة تأسيس الكنيسة، وإحياء البعثات.

(161) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, p 213

الفصل الثالث

الكنيسة وقضية التبشير

الحديث عن التبشير من زاوية حضور الكنيسة في المغرب على امتداد قرون كثيرة حديث له ما يسوغه من حيث إن الكنيسة مؤسسة دينية هدفها تثبيت وجود الدين المسيحي والتبشير به للامتداد في الزمان والمكان. ومن خلال هذه الفرضية ينبثق السؤال الذي وجه الباحث في هذه الدراسة منذ البداية، وبيانه، هل استطاعت الكنيسة أن تحقق دعوتها التبشيرية، وتتحرك في إطار التطور الذي كانت تأمله، وهو ترسيخ الدين المسيحي في أرض المغرب؟.

لعل الهدف الذي وجه المبشرين الأوائل من إيطاليا إلى المغرب بعد الاجتماع التأسيسي لمذهب سان فرانسسكو هو التبشير بالدين المسيحي ومناهضة الدين الإسلامي. لكن مساعي سان فرانسيسكو دي أسيز لم تتحقق غايتها منذ البداية، إذ قتل المبشرون الأوائل في مراكش وسبتة في سنتي 1220 و1221 بسبب تبشيرهم العلني بالإنجيل. ومنذ آنذاك غيرت الكنيسة بعض الشيء اتجاه مشروعها، فلم يعد التبشير هو غايتها الوحيدة، وقرر الباباوات إرسال الرهبان إلى المغرب من أجل الرعاية الروحية للأسرى والحفاظ على عقيدتهم. ومن جملة الأمور التي أمر بها الكرسي الحواري هؤلاء الرهبان هي "الوعظ إطلاقا بالإنجيل المقدس، وإدارة التعميد للمهتدين الجدد، ومصالحة المرتدين وذلك بإدخالهم في سر الاعتراف، ومعاقبة الثوار على الكنيسة المقدسة الرومانية، وعدم السماح لأي مسيحي بإخراج المبشرين من هذه المملكة تحت ضغط التعذيبات، ثم التبشير بشريعة يسوع المسيح بدون انتظار إذن من العوام أو من الملوك، والدفاع عن ثوابت هذه الشريعة في اتجاه توسيع أمجاد الصليب"[162].

ويقول أونوريو الثالث في رسالة وجهها إلى أسقف طوليدو في 20 فبراير 1226 : "نظرا للمسؤولية الكبيرة التي نحمل على عاتقنا تجاه العارفين والجاهلين، والمؤمنين، والكفار، نأمركم أخانا على اعتبار ما تتمتعون به من سلطة أن ترسلوا إلى مملكة أمير المؤمنين بعض الرجال الحكماء من مذهب الرهبان الواعظين والصغار، إذ يقال أنه يوجد فيها كثير من الأسرى المسيحيين الذين ارتدوا عن العقيدة خوفا من التعذيب والموت، وآخرون كثيرون جبناء مترددون وهم في خطر لكي يتخلوا عن دينهم. فليعمل الرهبان على هداية الكفار بمساعدة الفضل الإلهي، عن طريق العظات وممارسة الأعمال المثالية، لإعانة المنهارين، وتقوية المترددين، وتثبيت الأقوياء . وعينوا كذلك ؟ باعتبار سلطتكم الحوارية؟ أسقفا لهؤلاء الرهبان لكي يمارس في هذه الأماكن الرئاسة الأسقفية التي تنقص المؤمنين هناك منذ الزمن القديم.

(162) Francisco del Puerto : Mision Historial , p 104

وعلى اعتبار أنكم الابن الوفي للكنيسة ستعملون على التنفيذ الكامل لأوامر الكرسي الحواري شاكرين لكم فضلكم، وسيتلقى مسيحيو هذه المنطقة هذا العمل بفرح كبير، وكأن شهابا وإشعاعات متألقة ظهرت لهم من جديد. فعن طريق الأسقف والرهبان ومساعدة الفضل الإلهي سيحققون نتائج روحية مفيدة للمؤمنين والكفار.

ومع ذلك فإن الحاجة تبدو ملحة بالنسبة إلى المسيحيين الذين يتواجدون جد مشتتين في أماكن عديدة ومتباعدة في هذه المملكة المترامية الأطراف، ولا يمكن أن يزورهم أسقف واحد وقليل من المبشرين، ولذلك يجب أن تقوموا بالمساعي المناسبة"[163].

ومن خلال هذه الإشارات يمكن أن نستشف ونستحضر الأسباب والبواعث والهواجس التي كانت تدعو المسيحيين إلى إقامة الكنيسة في المغرب والحفاظ عليها. ومن ثم نلاحظ أن أهداف التبشير لم تعد تحظى بالأولوية، وتكاد تغيب في سياق تنظيم البعثات وتكليف المبشرين والأساقفة بالمهام التي تحقق لهم التواصل الصحيح، وجني أقل ما يمكن من الفوائد، والتي تتمثل في إنقاذ المسيحيين المتواجدين في أرض الإسلام من الارتداد عن الدين المسيحي.

غير أن هذا لا يعني أن الكنيسة لم تحاول أن تحقق مسعاها التبشيري بكيفيات مباشرة وغير مباشرة. ويمكن أن نلاحظ ذلك بداية في الشروط التي أجاز بها الملك السعدي المأمون إقامة الكنيسة في المغرب، والتي تتمثل في السماح للمسيحيين بممارسة ديانتهم بحرية، ومنع المسيحي من اعتناق الإسلام، وإرساله إلى البلاد المسيحية في حالة إقدامه على ذلك ليعاقب بأحكامهم، وعدم منع المسلم من اعتناق المسيحية.

لكن الكنيسة لم تستطع تفعيل هذه الشروط في الواقع المغربي لتحقق مقاصدها التبشيرية نتيجة لعوامل سياسية واجتماعية مختلفة. وقد اعترف المبشرون والمؤرخون المسيحيون بالصد والتصلب من الجانب المسلم، وأن الشيء الوحيد الذي استطاعوا تحقيقه هو خدمة الجانب الروحي والإنساني للأسرى المسيحيين، ولم يتجاوزوا ذلك إلى التبشير بالعقيدة المسيحية من أجل الحفاظ على استمرار البعثات. غير أن هذا الحكم لا ينفي بالنسبة إلى الباحث الحاجة إلى التساؤل عما إذا كانت الكنيسة قد وفقت في تحقيق أهداف التبشير بكيفية غير مباشرة، وذلك من خلال خدمة قضايا الأسرى. وسنحاول في هذا السياق بلورة إجابة عن هذا التساؤل من خلال الكشف عن حيثيات الأعمال التي قام بها المبشرون في المغرب في إطار خدمة الأسرى ومساعدة باقي المسيحيين.

(163) Lopez José : La obra de España Misionera…p 14-15.

1 - العمل الإنساني والاجتماعي:

لعل هذا العمل هو الذي شكل جوهر المجهود الذي قامت به الكنيسة في المغرب منذ الماضي البعيد، وقوامه خدمة الإنسان المسيحي وإسعافه من الناحيتين الروحية والجسدية.وقد اضطلع المبشرون خلال جميع فترات تواجدهم بالمغرب بشتى أنواع الخدمة الإنسانية، ملتزمين بتوصيات فرانسيسكو دي أسيز عندما أرسلهم إلى المغرب سنة 1219، والتي بيانها : "أبنائي الأعزاء اسعوا لكي يكون بينكم السلام والوئام، وشدوا على روابط الإحسان المتينة، واجتنبوا الحسد الذي هو أساس الضياع، وعانوا في الشدائد، وكونوا متواضعين في أوقات الرخاء وحاكوا يسوع المسيح في الفقر والخضوع والعفة، واحملوا معكم كتاب الصلوات وصلوا بتهذيب "[164].

وقد ابتدأ العمل الإنساني للمبشرين بخدمة الأسرى حينما رخص لهم أغلب الملوك المغاربة الإقامة بين الأسرى، على أن لا تتجاوز ممارساتهم البعد الإنساني والمنفعة المباشرة للأسرى. وهذا ما وقع التصريح به في مختلف الظهائر الملكية التي نصت على السماح للمبشرين بالاستقرار في المغرب. فسخر هؤلاء كل الوسائل المتاحة لهم حسب الظروف، وتزودوا في ممارسة أعمالهم بالتضحية والتحدي لكل مواقف المعاناة ونكران الذات من أجل الحفاظ على الإنسان المسيحي وعلى عقيدته، ومنعه من الانحلال في المجتمع الإسلامي. وهذا ما شهد به بعض المغاربة الذين عايشوا الرهبان وعاينوا ما كانوا يقومون به من مهام تجاه الأسرى، ونورد في هذا السياق شهادة لأحد حراس الكنيسة في مكناس مؤرخة في 30 يونيو 1719، يقول فيها : "باسم الواحد القادر، أقول أنا عبد الرحمن بن حامد بن علي بن عبد الله، بما أنني كنت في دير الرهبان في مكناس أربعة عشر سنة، وخلال اثني عشر سنة كنت كاتبا عموميا لكل المهام والتكليفات التي يقوم بها راهب إسبانيا الكبير، والأشياء التي يأتي بها من إسبانيا من أجل خدمة أسرى سيدي مولاي إسماعيل حفظه الله الذين يملكهم في مملكته. وقضيت سنتين في الحراسة وإدارة ومساعدة الرهبان والمسيحيين. أشهد وأصدق مقسما بالله أن الرهبان الذين يحضرون في مملكة سيدي مولاي إسماعيل لا يقومون بأي شيء ضد شريعتنا المقدسة وعاداتنا الصالحة، وأن الهدف الذي دفعهم للمجيء إلى مملكتكم هو خدمة شخصكم الملكي والمنزل، حاملين معهم من إسبانيا الأدوية وأحسن ما يوجد من الأشياء، لكي يعالجوا من يوجد في منزلكم الملكي، ومسلمين آخرين، وأسراكم ويسعفونهم بكل ما هو ضروري وتتطلبه أمراضهم.

(164) Landauer Ignacio : La Mision Franciscana...., p 31

ويعين حارس الدير راهبا على رأس كل ثمانية أيام لكي يكون حاضرا بصفة دائمة في مستوصف الأسرى، ويهتم بعناية باحتياجات الأسرى المرضى. وبالإضافة إلى هذا، ففي مساء كل يوم يذهب الحارس مع جميع الرهبان إلى إعداد الأسرة بحنو كبير، ويمنح الرهبان في كل صباح للأسرى الذين يعملون لدى سيدي مولاي إسماعيل حفظه الله نصف خبز لكل أسير، إذ يهيئون أكثر من أربعمائة خبز في كل يوم. ولتأكيد ما رويته فإني أقسم بالله مرة أخرى أن هؤلاء الرهبان لا يقومون في هذه الأرض بشيء ضد شريعتنا المقدسة، ولكن يمارسون فقط ما رويته، ويعملون في خدمة سيدي مولاي إسماعيل حفظه الله بمروءة وإخلاص وأمانة في مملكته مهتمين بمعالجة رعاياه. ويعمل الأسرى الذين هم في خدمة سيدي بإخلاص، ويعتنون دائما بأمور سيدي مولاي إسماعيل حفظه الله. ولكي تثبت صحة هذا الكلام دائما أدلي بهذه الشهادة. وقعتها بيدي في 12 شعبان 1131 عبد الرحمن بن حامد بن علي عبد الله (توقيعه)"[165].

وشهد حفيد المولى إسماعيل عبد الكريم في أخلاق الرهبان بما يلي: "الحمد لله شهوده الموضوعة أسماؤهم عقبه يعرفون جملة من كان بالحضرة المولوية الإسماعيلية مدينة مكناسة حرسها الله تعالى بمنه. من النصارى الفرايلة معرفة توجب الشهادة لهم وعليهم، ومع ذلك يشهدون بأنهم منذ عقلوا الأشياء وميزوها بأذهانهم وهم ملازمون لحالة الذمة، واقفون عندما حد لهم من شرائطها، موقرون للمسلمين، ولم يتشبهوا بهم في شيء من ملابسهم، ولا كلامهم، ولاقط سمعوا عنهم غايلة ولا خاينة ولا تجسيسا على هذا الدين الشريف المحمدي، ويعطون الأدوية للمسلمين التي لم يحدث فيها لأحد علموه من الناس مضرة بدن ولا عقل، ويبذلونها لمن طلبها منهم مجانا من غير ثمن، ويتحرون في إعطائها جهدهم حتى إن لم يظهر لهم بدليل نظرهم أنه لا ينتفع بها لم يمكنوه من شيء منها. على هذه الحالة عرفوهم واختبروهم، وبها لم يزل من كان منهم موجودا بهذه الحضرة إلى الآن، وقيد بذلك شهادتهم مسولة منهم في منسلخ صفر الخير عام ستة وسبعين ومائة وألف. الشريف الأجل الأفضل مولاي عبد الكريم بن الشريف الأكمل المبجل سيدي محمد بن مولانا الإمام العلوي الهمام السلطان الجليل مولانا إسماعيل قدس الله روحه وأسكنه من الجنان فسيحه آمين. الشريف سيدي محمد بن مولاي عبد الرحمن الجوطي، الشريف مولاي العربي بن مولاي حم النسب. الفقيه السيد عبد القادر بناصر اليازغي، الأبر الحاج محمد بن المكرم أحمد أبانا. المكرم علي بن الحاج محمد أبانا .السيد محمد بن الطالب

(165) Lopez José : La Orden Franciscana en…,p 34.

أحمد بنونة. المكرم قاسم بن السيد محمد بنونة. المكرم الحاج سعيد الزموري. الفقيه السيد محمد بن حسين اليوسفي. الطالب السيد قاسم بن عبد السلام بن موموا. الفقيه السيد العياشي حميش. الأبر السيد الهادي بن سيد محمد بوحد. الأبر السيد الحاج بوحد. الفقيه السيد الشافعي بن السين عبد الله باد. شهدوا لدى من قدم لذلك فتبث"[166].

ونستطيع أن نستشف من هذه الشهادات أن الرهبان كانوا يحظون بالمعاملة الحسنة في الوسط المغربي، وأن الملوك كانوا حريصين على معاينة ممارسات هؤلاء الرهبان وسلوكهم وطبيعة أعمالهم حرصا على صيانة الذات المغربية وقيمها الروحية من الغزو التبشيري. لكن المبشرين كانوا أحرص على توصيل دعوتهم، وذلك من خلال فعلهم وسلوكهم في علاقاتهم وتعاملاتهم مع مختلف شرائح المجتمع المغربي، وهي الإمكانات التي أتيحت لهم آنذاك، " مادام التبشير العلني بالإنجيل محرم في هذا البلد البربري".

وهكذا سعى المبشرون إلى تعميم المعاملة الحسنة، فكانوا يوزعون كثيرا من صدقات الخبز، ويساعدون المرضى بالأدوية التي يتوفرون عليها،" ليس فقط للأسرى، ولكن حتى الكفار الذين كانوا يأتون إلى الدير يطلبون الصدقة، وتقدم لهم دون النظر لجحودهم وكفرهم، ولكن ينظر إليهم على أنهم أبناء إله ذو قدرة لانهائية "[167]. كما كان المبشرون يستقبلون في أديرتهم الأطفال، فيقدمون لهم الأكل، ويخيطون لهم من ثوب تنوراتهم الأقمصة التي تناسب لباس المسلمين، ويعمدونهم سرا بدعوى علاجهم بالأدوية. كما كانوا يهيئون كثيرا من الصدقات في أوقات الحاجة العسيرة (القحط- الوباء). ويهبوها لكثير من المحتاجين.

ولقد كان الرهبان أيضا يعتمدون أساسا على المظهر المتواضع واللباس الصوفي الخشن والمرقع والعمل المتواصل، والصبر على الإساءات " ليثيروا اهتمام المسلمين، ويتساءلوا عن حقيقة الديانة المسيحية، ويجيبهم المبشرون محاولين إقناعهم واستمالتهم بدون تشويه للشريعة الإسلامية، حتى لا يشكوا فيما يؤمنون به، وذلك عن طريق المراوغة في الكلام وإثبات حقيقة الدين المسيحي، وبطلان باقي الشرائع"[168].

وكل هذه الاتجاهات السلوكية هي حركة موضوعية في سياق محاولة استكمال العمل التبشيرى وترسيخه. فالمعادلة عند المبشر هي المسيحي / الكافر. لكن ما يمكن أن

(166) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos , p 429 - 430.

(167) Francisco del Puerto : La Mision Historial, p 482 - 483.

(168) Francisco del Puerto : La Mision Historial, p 441.

نلاحظه من خلال البيانات التاريخية التي يقدمها المؤرخون المسيحيون القدماء، هو أن هذا الاتجاه التبشيري لم يحقق نجاحا ملموسا. ويدل على ذلك قلة عدد المتصرين الذين استمالهم المبشرون بشكل ما، حيث يتحدث المؤرخ فرانسيسكو ديل بويرتو عن تنصير عشرين مسلما عمدوا وأرسلوا إلى المعاقل المسيحية لكي لا يرجعوا إلى دينهم، وكذلك يتحدث عن تنصير إحدى عشر يهوديا، بالإضافة إلى عدد من المسيحيين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام"[169].

ورغم قلة عدد المنتصرين، إلا أن هذا يدل على أن التبشير كان هدف المبشرين الذين كانوا مدعوين إلى تداول مختلف الوسائل التي يمكن بها إقناع المسلمين بالعدول عن دينهم. إلا أن محاولاتهم غالبا ما كانت تواجه بالرفض والعقاب. وقد حصل المبشرون لمدة بعض السنوات على ترخيص من الملك وعلمائه يسمح لهم بتبشير اليهود، ثم منع هذا الإذن لاحقا خوفا من أبعاده السلبية في الوسط المسلم. وعلى هذا فإن تبشير المسلمين كان يتم بتستر شديد حتى لا يدخلوا في منازعات مع السلطة الحاكمة والمسلمين، وينتهي بمقتضاها وجود البعثات التي أمرت الكنيسة المقدسة بالحفاظ عليها من أجل الخدمة الروحية للأسرى، ومن ثم فإن تنصر المسلمين الذين تحدث عنهم المؤرخ لا يعكس فاعلية الاتصال بين المسلم المغربي والمبشر، وذلك بالنظر إلى عدد هؤلاء المنتصرين، وكيفية تنصيرهم، والظروف التي أرغموا فيها على قبول التعميد. والذين تحدث عن تنصيرهم ديل بويرتو بتفصيل هم قلة، فالأول شاب مريض كان يأمل الشفاء على يد الراهب، والثاني طفل عمد بخفية من والديه، أما الثالث فرجل في الستين من عمره[170].

ومجمل كل القول فقد شكل العمل الإنساني مرتكزا أساسا استند إليه المبشرون في التواصل مع المجتمع المغربي. ولذلك اعتبر المستشفى في التصور المسيحي التبشيري:"القناع والدرع الذي يسند ويحجب البعثة وأعمالها، لأن أغلب المغاربة اقتنعوا أن هؤلاء المبشرين جاءوا إلى هذه المملكة المتسعة من أجل مواساة ومعالجة إخوانهم المسيحيين الأسرى. ومن ثم فقد مثل هذا المستشفى بالنسبة إليهم أمرا جديدا، بالنظر لما أثاره من ارتباك وحيرة، فهي أمور أثارت إعجابهم الكبير لأنها لا تمارس عندهم، ولذلك اعتقدوا أن الرهبان جاءوا لممارسة الأعمال الإحسانية فقط دون تحقيق أية أهداف أخرى، وخاصة عندما رأوا قيام الأسرى بأعمال شاقة وكثيرة بمحض إرادتهم

(169) Francisco del Puerto : La Mision Historial, p 442.
(170) Francisco del Puerto : Mision Historial, p 483.

كالسهر على الأسرة، وتوفير الأكل بغزارة، والقيام بأعمال التمريض، مثل معالجة الجروح المتعفنة وأمراض أخرى مثيرة للاشمئزاز، وكل هذا مع الالتزام بدقة بالمواعيد في ممارسة مهامهم المتعبة"[171].

ورغم تحفظ بعض المغاربة على وجود مثل هذه المؤسسة في أرض المسلمين، بسبب ما يمكن أن تنطوي عليه من أهداف سلبية تضر بالجانب العقائدي للمسلمين، إلا أنه يمكن القول إن الكنيسة بسبب هذه الأعمال الإنسانية استطاعت أن تحقق بشكل تدريجي نوعا من التعايش بين الرهبان وكافة شرائح المجتمع المغربي، " فقد أصبح القياد يعاملون الرهبان معاملة طيبة وعائلية، إذ أصبحوا ملزمين بتقديرهم لأن الملك متعاطف معهم، ولذا فقد كانوا يأتون مرارا إلى الدير يقضون المساء في مناقشات متحضرة. وكان الرهبان يبادلونهم هذه الزيارات مرات عديدة، بحيث إذا ذهبوا مع أحدهم إلى بستانه للتخفيف من سجنهم المتواصل يشتكي الباقي من عدم الاستجابة لطلبهم. وهكذا حظي الرهبان بمعاملة كريمة من قبل هؤلاء المغاربة المهمين، ولاقوا منهم أفعالا نبيلة تعد من مكرمات الأمراء"[172].

ومن مظاهر هذا التعايش أيضا إقبال المغاربة على المشاركة في بناء الكنيسة برغبة منقطعة النظير، "دون أن يتبادر إلى تفكيرهم ارتياب فيما يقومون به، بل إنهم كانوا يعملون بكثير من المواظبة والإصرار الذي لا يحرصون عليه في أعمالهم الخاصة بهم". كما ساهم آخرون بمواد البناء مثل الحجر والكلس والطوب والخشب، "فالجميع ساهم في بناء هذه الكنيسة إما بالمشاركة في العمل أو منح الهبات"[173]. وفي هذا الاتجاه أيضا ساهم الملك وقياده والأمراء ومرتدون عن الدين المسيحي ويهود بصدقات مختلفة تضمنت المال والقمح الشعير والمواشي[174].

وتبين مجمل هذه الحقائق أن المبشرين استطاعوا أن يخلقوا منحى جديدا في العلاقة بين الكنيسة والمجتمع المغربي بفعل العمل الإنساني. ولقد وعى المبشرون أهمية المستشفى باعتباره وسيلة فاعلة لتعزيز استقرار البعثات، وتوفير فرص واسعة للتواصل مع جميع شرائح المجتمع. ولذلك ظل المستشفى يشكل في جميع مراحل تواجد الكنيسة في المغرب أحد المقتضيات الضرورية التي تستند إليها البعثة في مجمل أعمالها. وقد ازداد دور المستشفى في المرحلة الحديثة من التواجد الكنسي، واتسع حضوره، حيث انتشرت

(171) Juan de la Concepcion : Relacion veridica, p 26 - 27.

(172) Juan de la Concepcion : Relacion veridica, p 46 - 47.

(173) Juan de la concepcion : Relacion veridica, p 8

(174) Juan de la concepcion : Relacion veridica , p 49-50.

المستشفيات في مختلف المدن المغربية كمراكش وفاس ومكناس وطنجة وتطوان وسلا.

وجميع المستشفيات التي أقامتها البعثات في المرحلة الحديثة سارت على نظام واحد أساسه الإسعاف الطبي لجميع الناس دون تمييز بين المسيحي واليهودي والمسلم، ولا بين الجنسيات. ويعتمد المبشرون في طلب احتياجات المستشفى على البعثة، ويتم إسعاف المريض على عجل بالإمكانات الموجودة.صوإذا حصلت الحاجة إلى شيء آخر يتم طلبه ويقوم رئيس منزل البعثة مع بعض الأفراد بتفقد المستشفى، والنظر إلى احتياجات الفقراء. ويساهم في هذا العمل الإحساني اليهود والمسلمون والمسيحيون بواسطة الإعانات المالية في الاشتراك السنوي في شهر دجنبر. ورغم ذلك تتكفل البعثة بتوفير كل الاحتياجات النافعة للفقراء، ويعهد توزيع ما تم الحصول عليه إلى أشخاص نز هاء[175].

ويتوفر المستشفى على صالات للعلاج المجاني، وعلى صالات للعلاج بالأداء. كما يوجد فيه مصلى صغير لأداء أعمال العبادة الكاثوليكية. وتتم مصاريف المستشفى على حساب الدولة. ويعمل على أداء أعمال المستشفى الراهبات الفرانسيسكانيات والمبشرون[176].

ويتدعم المستشفى بمؤسسات خيرية مثل مؤسسة "قطرة الحليب" ومؤسسة "دار المهد" التي تعتني بإيواء وتربية الأطفال المتخلى عنهم . وتعهد إدارة المستشفى العامة إلى الأب المبشر، ويعهد الجانب التقني إلى الطبيب[177]. أما الخدمة الطبية فهي مجانية بالنسبة إلى المساكين لأن هذه الخدمة هي "الإحسان المسيحي الذي نادى به يسوع لكي يتذكر الأغنياء المساكين، فهي صوت الضمير الذي يحرك ويحث للإشفاق على المحتاجين". ولذلك يفتح المستشفى أبوابه للجميع بدون النظر إلى الهوية، لأن الإحسان المسيحي لا يملك حدودا معينة، ولأن الرهبان هم عمال الأخوة العالمية[178].

وبالنظر إلى عدد المرضى الذين استقبلهم المستشفى، ندرك أهمية التواصل الذي حققه المستشفى مع المجتمع المغربي. فقد استقبل المستشفى الإسباني في طنجة منذ 1888 إلى 1933، 51.899 مريضا. وقد تصاعدت هذه النسبة مع تنامي عدد السكان، فوصل عدد المرضى الزائرين للمستشفى مثلا سنة 1954 إلى 3511 مريضا[179].

(175) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, p 336

(176) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, p 338.

(177) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, p 338 - 339.

(178) Rey Alfonso : Actividades parroquiales, Mauritania-n° 333 - Agosto1955, p177.

(179) - Rey Alonso : Las R.F en el Hospital Español de Tanger, Mauritania - n° 281-Abril 1951 , p87.
- Rey Alonso : Actividades Parroquiales, Mauritania Agosto 1955, p 176.

وفي سياق تدعيم العمل الإسباني الاجتماعي أسست البعثة التبشيرية في الحقبة الحديثة عدة مؤسسات اجتماعية تابعة للكنيسة، تعتني باحتياجات الفقراء مثل مؤسسة "سيدات الإحسان"، التي توفرت على مطبخ اقتصادي، وقاعة للأكل، وخزانة لملابس الفقراء. ويعمل المطبخ وقاعة الأكل في آن واحد، ويسمح للمساكين أن يحملوا معهم حصتهم من الأكل إلى منازلهم، ويشرف على إدارة مختلف شؤون هذه المؤسسة الراهبات الفرنسيسكانيات اللاتي يكرسن عملهن لهذا الغرض. ولكي يتمكن الفقراء من هذا العمل الخيري يتم تزويدهم بقسيمة تعطى لهم مجانا من قبل السيدات المشتركات اللاتي يحصلن شهريا على عدد من القسيمات التي توازي مبالغ الاشتراك والمداخيل. وتوزع هذه القسيمات على الفقراء دون اعتبار لهويتهم أو ديانتهم[180].

أما بالنسبة إلى خزانة الملابس، فهي مؤسسة أخرى تهتم بإلباس المسكين العاري. وتقوم أمينة هذه الخزانة بأخذ بيانات عن الشخص المحتاج واسم السيدة التي ستساعده. حيث يتم تحقيق كثير من المساعدات والإعانات على هذا النحو. وتوزع أكبر حصة من الملابس عند دخول فصل الشتاء، وفي الأيام الاحتفالية مثل عيد ميلاد المسيح، والأسبوع المقدس دون تمييز بين هوية المسعفين أو ديانتهم[181].

وتلحق بالمؤسسات السابقة مؤسسة صندوق المستعجلات التي تهدف إلى إسعاف الفقراء المتسولين. وتقدم قروضا وسلفات بدون فوائد، ودون مراعاة جنس وديانة المستفيد. وما يهم هو إعانة المحتاج ومساعدته على تجاوز حالة العسر التي يعيش فيها[182].

وفي سياق العمل الاجتماعي أنشأت البعثة كثيرا من دور الأيتام التي تستقبل الأطفال المتخلى عنهم، ودورا لإقامة البنات، وورشات للطرز والخياطة ومعاملا للزرابي في مختلف المدن المغربية.

هذه هي مجمل المؤسسات الخيرية والاجتماعية التي استطاعت أن تصل بواسطتها الكنيسة إلى قلب المجتمع المغربي وتتفاعل مع مختلف شرائحه. ويتضح مما تقدم أن الكنيسة الحديثة استطاعت أن توسع مجال ممارساتها الإنسانية، حيث وافقت هذه المرحلة عهد الحماية، فتمكنت الكنيسة في ظل هذا الوضع من بلورة هذه المؤسسات الإسبانية المتعددة، لتصبح أكثر ارتباطا بالواقع الاجتماعي. فالعمل الإنساني من هذا

(180) Fortunato Fernandez : Los Franciscanos en Marruecos, p 332 - 333.

(181) Fortunato Fernandez : Los F. en Marruecos, p 334.

(182) Fortunato Fernandez : Los F. en Marruecos, p 334 - 335.

المنظور استطاع أن يخدم القضية التبشيرية من حيث قدرته على التفاعل مع الذات المغربية المسلمة من خلال مساعدة الفقير في الأكل واللباس، وتمريضه، أي أن الكنيسة استطاعت الاقتراب من الجانب المهم في الحياة الإنسانية.

2 - العمل السياسي والدبلوماسي:

لم يقف عمل المبشرين عند حدود الممارسات الإنسانية فحسب، بل اهتموا بكل ما خوله لهم هذا الموقع المتميز من أعمال ترفد العملية التبشييرية، وتخدم أهدافها المتنوعة. ويتجسد جانب من هذه الأعمال في العمل الدبلوماسي الذي لعب دورا موفقا في تحقيق كثير من القضايا لصالح حاضر المبشر واتجاه الدولة المسيحية التي مثلها دبلوماسيا ودينيا.

وقد تحمل المبشرون هذا التفويض الدبلوماسي منذ إعادة إحياء البعثات سنة 1637 حيث أرسلت البعثة التبشيرية إلى المغرب تحت غطاء السفارة "لكي لا يشك المغاربة في مجيء المبشرين. واستقبل الأب نيكولاس دي فيلاسكو من قبل الملك محمد الشيخ باعتباره سفيرا ممثلا لدولة إسبانيا. وكان الموضوع الأساس من سفارته هو الحصول على الحيازة القانونية للكنيسة والاهتمام بالأسرى والحصول على رفات الأب خوان دي برادو، وتأسيس البعثات التبشيرية على قاعدة آمنة[183].

ثم قام الأب ماتياس خلال الحقبة نفسها بدور السفير المفوض من قبل المغرب وإسبانيا معا، وحقق مساعي دبلوماسية مختلفة ومعاهدات تجارية، حيث أرسله الملك المغربي للتفاوض مع إسبانيا على إمكانية حمايته واستقباله في حالة زوال ملكه. وحصل الأب السفير بهذه المناسبة على "كمية كبيرة من القمح وخيول وملح البارود كانت تحتاجهم إسبانيا بسبب الجفاف الذي عرفته في تلك السنوات"، كما حصل على إطلاق سراح أربعة وعشرين أسيرا من سجن سلا. ورجع الأب السفير في هذه المهمة من إسبانيا محملا ببعض الهدايا وبموافقة الملك الإسباني على ربط العلاقات السياسية مع الملك المغربي، والاستجابة لطلبه. ثم عاد الأب فراي ماتياس إلى إسبانيا بصفة مستشار للسفير المغربي. وعندما تراجع السفير المغربي عن مهمته قام الأب بتسليم السفارة المغربية إلى الملك الإسباني. وقد حصل الأب في هذه المناسبة على خمسة وخمسين أسيرا إسبانيا[184].

(183) - Matias de San F : Viage de Marruecos , pp 95 - 97.
- Francisco del Puerto : Mision Historial, pp 418 - 425.

(184) - Matias de San F. : Viage de Marruecos , pp 109 - 111.
- Francisco del puerto : Mision Historial, pp 446 - 450.

ثم جاء إلى المغرب بعد الأب فراي ماتياس الأب فرانسيسكو دي لاكونسيبسيون Francisco de la Concepcion سفيرا مرسلا من قبل الملك الإسباني فيليبي الرابع الذي حمله برسائل إلى الملك المغربي وكلفه بمهام دبلوماسية تهم العلاقات بين المغرب وإسبانيا. "ولم يذهب الأب السفير باسم الملك فقط، ولكن أيضا باسم البابا السامي إنوسينسيو العاشر الذي منحه خوان نابوليس كل اختصاصه، وباسم كل الإقليم الذي منحه جميع السلطات للقيام بكل ما هو ضروري".

واستقبل هذا الأب السفير في المغرب باحتفالات ومواكب عظيمة إشهارا بمجيئه، وخصص له الملك مقابلة عامة في قصره مع رجال الدولة. وحقق هذا السفير كثيرا من المكتسبات لصالح البعثات ولصالح الدولة الإسبانية. حيث منح الملك محمد الشيخ للرعايا الإسبانيين حرية الإقامة وحيازة الممتلكات، وهدد بمعاقبة كل من يمنعهم أو يضايقهم، وفرض عليهم أداء الجزية على الأعشار فقط، واستأجر موانئه لليهود واشترط عليهم أن يبيع ويشتري فيها الإسبانيون. كما تعاقد على تموين إسبانيا في سنتي 1648 و1649 بكمية كبيرة من القمح والدجاج والخرفان. وأفرج على كل الأسرى الإسبانيين الذين تواجدوا في سجونه[185].

كما قام الملك محمد الشيخ بإرسال الراهبان فراي بيدرو دي ألكانتارا de Alcantara Pedro، وفراي مارتين دي لونا Martin de luna للتفاوض مع الملك الإسباني على استرداد الكتب التي سرقت من عرض البحر ووضعتها إسبانيا في الإسكوريال[186].

وقد تجاوز المبشرون هذا الدور الدبلوماسي المحدود نسبيا إلى دور أكثر فاعلية، وذلك ابتداء من عهد المولى إسماعيل، حيث قام الرهبان بأعمال دبلوماسية مهمة، وحققوا مكتسبات سياسية واقتصادية كثيرة. ولعل ما حققه الأب فراي دييكو الذي استطاع أن يكتسب صداقة وعطف الملك المولى إسماعيل يمكن أن يكون شاهدا على هذا الدور الفاعل، إذ تمكن هذا الراهب من إحياء العلاقات السياسية بين إسبانيا والمغرب، وربط علاقات الصداقة بينهما من خلال كثير من المساعي الدبلوماسية التي كان يقوم خلالها بنقل الرسائل والهدايا لكلا الطرفين. كما اضطلع في هذه الحقبة بمهمة سياسية رئيسة وهي التفاوض على فدية الأسرى، إذ اجتمع الدارسون على أن قضية الأسرى في عهد المولى إسماعيل أصبحت عملة لتبادل المصالح السياسية، لأنها اتخذت طابعا سياسيا،

(185) Francisco del Puerto : Mision Historial, pp 465 - 472.

(186) F. del Puerto : Mision Historial , p 494.

ولذلك كانت تتطلب مفاوضات كثيرة بين المغرب والدول المعنية بأسراها. هذه المفاوضات التي فشل فيها كثير من المفاوضين مثل الفرنسيين، ونجح فيها المبشرون الأسبان، وخاصة المبشر فراي دييكو الذي تمكن من تحقيق فدية وإطلاق سراح كثير من الأسرى الأسبان. ولعل الظهائر المشار إليها سابقا تؤكد هذه المكانة المهمة التي كان يحظى بها الراهب دييكو لدى المولى إسماعيل. فقد اتخذه هذا الملك مستشارا له في العلاقات بين المغرب وإسبانيا، ونتيجة لذلك قام الأب بسفارات كثيرة بين الدولتين. وفي 1729 رفض المولى عبد الله فدية الأسرى، وقال " لو كان طلب الأب دييكو دي لوس أنخلس، الذي كان يتعامل مع أبيه في هذه القضايا لاستجاب له بإرادة كبيرة، لكنه لن يفعل ذلك مع غيره". ومجمل القول قد استطاع الأب أن يحقق بفضل هذه المكانة عدة امتيازات لصالح الكنيسة منها، حصول الرهبان على حرية التنقل، وإعفاؤهم من التفتيش في الموانئ ، ومنع القراصنة من إيذائهم وخدمة الأسرى في أحسن الظروف والأحوال[187].

وفي سياق التمثيل الدبلوماسي للمبشرين، أرسل الأمير المولى زيدان في عهد المولى إسماعيل الراهب فراي جاكومي دي سان أنطونيو سفيرا إلى أمير جنوة من أجل تنفيذ مهمة سياسية. كما قام الراهب فراي كامياركونساليس بدور المفاوضات بين الجيش الإسباني في العرائش وقائد جيش المولى إسماعيل في نوفمبر سنة 1695[188].

واستمر هذا الدور السياسي الفاعل للمبشرين مع خلفاء المولى إسماعيل، حيث بدا دور الأب بارطولومي كيرون مهما في عهد الملك محمد بن عبد الله، وقد استقر هذا الأب في بعثات المغرب سنوات كثيرة، فكلفه الملك الإسباني كارلوس الثالث بمهمة التفاوض مع الملك المغربي لعقد اتفاقية السلام والتجارة بين المغرب وإسبانيا. وكانت نتيجة هذه المفاوضات إرسال الملك محمد بن عبد الله لسفارة إلى إسبانيا رافقها الأب كيرون، وتكونت من أبو التيالي عمارة بن موسى، وأبو عبد الله محمد بن الناصر، وأبو العباس أحمد الغزال للسلام على الملك الإسباني والشروع في تهيئ البنود التمهيدية للمعاهدة التي تم توقيعها في 28 مايو 1767. وقد كانت هذه المعاهدة هي الأساس لعقد كثير من المعاهدات اللاحقة، ومجمل ما نصت عليه بنودها هو الاتفاق على سلام دائم بين الدولتين، وحرية التجارة بين المغاربة

(187) - Fortunato. F : Los Franciscanos en Marruecos , p 195-197.
- Lopez José : La obra de España Misionera, p35
- Lopez José : La orden F. en la asistencia de los cautivos, p54.

(188) Lopez José : La orden F. en la asistencia de los cautivos, p53.

والإسبانيين، والترخيص لإسبانيا باستقرار القناصلة ونوابهم في أهم المدن المغربية لكي يهتموا بمصالح مواطنيهم[189].

وهكذا منذ بدء المفاوضات حتى انتهائها لم يفارق الآباء الفرنسيسكان سفارات السلطان إلى إسبانيا، إذ كانوا هم الأشخاص المؤتمن إليهم. كما أن إسبانيا استغلت هذه العلاقة الطيبة التي كانت تربط الرهبان بالعاصمة الشريفية، لتمتين العلاقات بين الدولتين، حيث أرسل كارلوس الثالث إلى المغرب السفير خورخي خوان مرافقا بالأب كيرون ومبشر آخر. فرجعوا في 27 غشت 1767 إلى ميناء قادس بهدية إلى الملك تضمنت ثلاثين أسيرا، وثلاثين هاربا من الجندية من سبتة[190].

ولما تراجع الملك محمد بن عبد الله عن اتفاقياته مع إسبانيا، وخاصة ما يتعلق باستقرار المسيحيين في الموانئ المغربية، توترت العلاقات بين الدولتين إلى حد أن أعلنت إسبانيا الحرب سنة 1774، فافترضتا الدخول في مفاوضات ساهم فيها الأب خوسي بولطاس Jose Boltas، وقام بدور الوساطة بينهما. فقد كلفته إسبانيا أن يستخدم مكانته ونفوذه لكي يستميل إرادة الملك المغربي ووزراءه لصالح إسبانيا، وفي الوقت نفسه أن يحيط بلاده علما بكل ما يقال ويتداول في عاصمة الملك فيما يخص العلاقات مع إسبانيا. وكانت حصيلة هذه الجهود أن عقدت المعاهدة بين إسبانيا والمغرب في أرانخويس Aranjuez في 30 مايو 1780. وكافأت إسبانيا هذا الأب مقابل الخدمات السياسية والدبلوماسية التي قدمها لها بأن عينته أسقف أورخيل وأمير أندورا[191].

وطرد المبشرون من المغرب في عهد المولى يزيد بعد نشوب الحرب مع إسبانيا، ثم عادوا إليه في عهد المولى سليمان، واستعادوا دورهم الدبلوماسي مع هذا الملك الذي سلك سياسة الانفتاح على أوربا. ومن ثم اعتمدت إسبانيا على المبشرين في التوصل إلى عقد معاهدات مهمة مع المغرب في هذه الحقبة، من بينها توقيع معاهدة في مكناس في 1 مارس حول الصداقة والتجارة والصيد البحرى، وأشرف على هذه المعاهدة القنصل الأب خوان مانويل سالمون Juan Manuel Salmon والأب فراي بارطولومي دي لوس ريوس Bartolome de los Rios باسم الملك كارلوس الرابع Carlos 4، ومحمد بن عثمان المكناسي باسم المولى سليمان[192]. وأهم

(189) Buenaventura Diaz : España y Los F. en Marruecos, p 7.

(190) - Fortunato F. : Los F. en Marruecos, p 212-213.
- Lopez José : La orden F. en la asistencia de los cautivos..., p54.

(191) Lopez José : La orden F. en la asistencia de los cautivos, p 55.

(192) Buenaventura Diaz : España y los F. en Marruecos, p7

ما نصت عليه هذه المعاهدة لصالح المبشرين هو السماح بحرية العبادة الكاثوليكية لكل رعايا الملك الإسباني في أرض المغرب، وبيانها أنه "يسمح بحرية استعمال الديانة الكاثوليكية لكل رعايا ملك إسبانيا في دولة جلالة الملك المغربي، ويمكنهم أن يحتفلوا بالأعمال الخاصة بها في منازل وملاجئ الآباء المبشرين التي ظلت محروسة لمدة طويلة في هذه المملكة السعيدة من قبل ملوك المغرب. فقد تمتع هؤلاء المبشرون في ملاجئهم المحترمة بالأمان وامتيازات مختلفة منحها لهم الملوك السابقون للمغرب، ويمنحها لهم الملك الحالي. ونشير هنا إلى أن نشاط هؤلاء المبشرين وأعمالهم لا تسبب سوء ا للمغاربة، بل إن معارفهم التطبيقية في الطب ومعاملتهم الإنسانية التي يتعاملون بها مفيدة لهم. ولذلك يسمح لهم جلالة الملك أن يستمروا في مملكته، ويحافظوا على منشآتهم بالشكل الذي كانوا عليه مع الملوك السابقين، حتى في حالة توقف الاتفاق الطيب بين الأمتين (وهذا ما لا يتمنى)، أو نشوب حرب بين الدولتين"[193].

وقد وصل الدور الدبلوماسي والسياسي للمبشرين مداه مع الأب لرتشوندي الذي يعتبره المؤرخون المسيحيون نموذجا فريدا في تاريخ البعثات التبشيرية، وشخصية وطنية خدمت كثيرا من القضايا السياسية لإسبانيا في المغرب. ولعل عوامل كثيرة ساعدته على تحقيق هذه القضايا، منها موسوعية ثقافته، ومعرفته باللغة العربية، والمكانة التي كان يحظى بها لدى الملك الحسن الأول وأعيان البلاد.

ويستنتج من مجمل الأعمال السياسية التي قام بها الأب لرتشوندي أن نشاطه في هذا الاتجاه انصب على دعم العلاقات الواسعة بين المغاربة والأجانب في المغرب، والقيام بالتوجيه والإشارة على الحكومتين المغربية والإسبانية في القضايا التي بينهما، ومصاحبة السفارات.

ففيما يخص النشاط الدبلوماسي قام الأب لرتشوندي بمرافقة الكثير من السفارات المغربية والإسبانية، ومن ذلك مرافقته لوزير إسبانيا خوسي ديوسدادو Diocedado Jose إلى المغرب سنة 1882 بصفة مترجم ومستشار. ثم مرافقته لسفارة مغربية أرسلها الحسن الأول على مدريد في السنة نفسها بصفة مترجم ومستشار أيضا. ثم مرافقته لسفارة مغربية أخرى بالصفة نفسها سنة 1885 عند موت الملك ألفونسو 12، وذهابه مع سفارة أخرى أرسلتها الملكة ماريا ريخينتي Maria Rejente إلى الرباط سنة 1887[194].

(193) Lopez José : La obra de España Misionera en M., p 34.

(194) - Fortunato F. : Los Franciscanos en Marruecos, p 286-287.
- Buenaventura D. : España y los F. en Marruecos, p 20-21.

وأهم السفارات التي قام بها هذا الأب بالنسبة إلى المسيحيين، هي مصاحبته للسفارة المغربية إلى روما، إذ أشار الأب على الملك الحسن الأول بإرسال سفارة إلى البابا ليون الثالث عشر Leon 13 لتهنئته في عيده الأسقفي، فاستجاب لطلبه وأرسل هذه السفارة التي تكونت من وزير الشؤون الخارجية محمد الطريس، وكاتبه، والأب لرتشوندي، وفراي دومينكو كارسيا Domingo Garcia، وشخصيات أخرى، وحملهم برسالة إلى البابا نوردها في هذا السياق لأنها تجسد بوضوح دور الراهب في دبلوماسية المغرب وسياسته الخارجية في هذه الحقبة، وبيانها : "إلى المحب الأعظم المحترم المفخم، رئيس أساقفة الملة النصرانية، الجالس على كرسي الحوارية، لقضاء الدعاوى الدينية، الذي اشتهر علمه وانتشر، البابا ليون الثالث عشر. أما بعد حمد الله الذي لا إله إلا هو العلي العظيم، فمن المعلوم عند الناس، والخاص والعام من الأجناس، أن أسلافنا المقدسين ملوك المغرب كان بينهم وبين الرهبان البابا ليون رؤساء الرهبنة الفرنسيسكانية مزيد المحبة، والمودة والصحبة، حتى أنهم كانوا أعطوهم الحرية وإباحة السكنى حيث النصارى، وكانوا يعاملونهم، ويعينوهم على أمور دينهم. ونحن بحول الله على آثار أسلافنا رحمهم الله في معاملتهم بذلك، واقتضى نظرنا الشريف إعلامكم أيها المحب بهذا كما ينهى من محاسنكم وفضلكم إلينا، ويتلى من شهرة وصفكم بالخير والحق والعلم لدينا وبمزيد محبتكم، وبمزيد صحبتكم في المحبة المفخمة سلطانه دولة إسبانيا المعظمة وأن نعطوكم إمارة ودليلا على محبتنا ومودتنا، ونوجه لكم سفيرا من شريف حضرتنا، كما يوجه سائر ملوك الدول سفراءهم لعندكم برومة ليحضروا عيدكم، ويهنوا جنابكم بما من به الله القادر عليكم من بلوغ فقاهتكم إلى خمسين سنة، فاخترنا لذلك خديمنا الأرضى الأنجد الأصح القائد عبد الصادق بن أحمد الريفي وعززناه بكاتبنا الأرضي الأنبل الطالب أحمد الكردودي، وعينا لمرافقتهما الأساقفي البدري خوسي لرجونادي كبير الرهبان الصبنيوليين الذي هو عزيز عندنا لأنه رافق غير مرة سفراءنا للدولة الصبليونية المحبة، ونحن على يقين من أنكم تقابلون سفيرنا المذكور ومن معه بمثل ما تقابل به مجادتكم سفراء الأجناس المحبين من الاعتناء والبرور في الورود والصدور، وتصدقونه فيما يذكره لكم عنا في المحبة والمودة، ودمتم في سرور وهناء ملحوظين بعين الاعتبار والاعتناء وختم في 12 من ربيع الثاني عام 1305"[195].

ومن هنا نستشف اتجاها آخر سلكته الدبلوماسية المغربية تجاه الدول المسيحية، بحيث كانت هذه السفارة هي الأولى التي أرسلها ملوك المغرب إلى الرئيس الأعلى الممثل

(195) ابن زيدان عبد الرحمن : إتحاف أعلام الناس، مطابع إديال – الدار البيضاء – ط2 1990، ص 367.

للديانة المسيحية. ولذلك اهتم بها المسيحيون كثيرا بالنظر إلى أبعادها السياسية والدينية، إذ لم يسبق في تاريخ المغرب أن توجهت سفارة من أمير المؤمنين لتقديم السلام والتهاني ومشاركة البابا احتفالاته الأسقفية[196].

بالإضافة إلى النشاط المتميز الذي قام به الأب لرتشوندي، تحمل رهبان آخرون مهام دبلوماسية في هذه الحقبة، ففي سنة 1884 رافق الآباء خوليان ألكورتا Julian Alcorta، وخوان روسيندي Juan Rusende، وفراي ميكال أندلوس Miguel Andalus سفارة إلى المغرب ترأسها الجنرال مارتينس كامبوس Martinez Campos، وفي 14 أبريل 1900 رافق النائب الحواري سفارة إلى مراكش برئاسة إيميليو أوخيدا Emilio Ojeda . وفوضت الحكومة الإسبانية الأبوين خوان روسيندي Juan Rocende وبيدرو ساريونانديا Pedro Sarionandia في مؤتمر الخزيرات الذي انعقد في 13 يناير 1903 لمناقشة الدخول السلمي لإسبانيا إلى المغرب. وفي 1907 توجهت سفارة إلى الرباط رافقها الأبوان سيرفيرا Servera وروسيندي Rocende. وفي سنة 1909 توجهت سفارة أخرى إلى فاس للسلام على المولى الحفيظ عند اعتلائه العرش، ورافق هذه السفارة الأبوان خوان روسيندي وخوسي فرنانديز ... Jose Fernandez [197].

وملخص ما يتعلق بالاتجاه التبشيرى من خلال العمل السياسي والدبلوماسي هو أن الكنيسة في المغرب نجحت في تحقيق الأهداف والمصالح السياسية والدبلوماسية للدول المسيحية، وهذا هو الجانب الإيجابي الآخر للكنيسة من حيث إنها شكلت الإطار المرجعي الذي اعتمدت عليه إسبانيا في تحديد توجهاتها السياسية تجاه المغرب، وذلك من خلال مجموعة من الوظائف التي يؤديها الراهب المبشر، وتتجسد في تلك التقارير التي حرصت البعثة على إرسالها باستمرار وانتظام، وسجلت فيها بكيفية تفصيلية كل مظاهر الحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي، بما في ذلك تفاصيل عن الزراعة والتجارة، والملاحة البحرية، والأحوال العسكرية والسياسية، والثورات والصراعات القائمة على السلطة، والكشف عن الطرف الغالب والمغلوب. ولذلك فإن الرهبان لم يتحملوا المهام الدبلوماسية باعتبارهم ممثلين لدولتهم فحسب، بل لأنهم أشخاص متميزون خول لهم وضعهم الخاص الاستفادة من إمكانات متنوعة لتحقيق أهداف ومصالح معينة لصالح دولتهم، ومن هذه الإمكانات التقرب من السلطة،

(196) - Fortunato F. : Los Franciscanos en Marruecos , p 287.
- Buenaventura. D : España u los F. en Marruecos , p 20

(197) Buenaventura D : España y Los F. en Marruecos , p 21.

واكتساب صداقتها وإرادتها، والمعرفة العميقة بالواقع المغربي.

3 - العمل التعليمي والثقافي :

إن الفهم الأعمق والأشمل للعملية التبشيرية في المغرب لا يمكن أن يفهم إلا من خلال العمل التعليمي والثقافي باعتباره عملا مترابطا ومتكاملا مع باقي الأعمال التي تستهدف تحقيق أداء وظيفي إيجابي للمشروع الكنسي في المغرب.

ويتحدث المؤرخون المسيحيون عن اهتمام الكنيسة بالجانب التعليمي منذ القديم، بحيث أقام الرهبان مدارس في منازل البعثة نفسها واهتموا بتعليم الكبار والصغار القراءة والكتابة وعلم الحساب، وهذا ما نستشفه من قول الأب ماتياس، "نملك مدرسة للصغار، ويحضر إليها بعض الرجال أيضا، حيث يتعلم الجميع"[198].

لكن الوضع التاريخي والاجتماعي آنذاك لم يخول للبعثات أن تقيم مؤسسة تعليمية واضحة المعالم، ولذلك لا يمكن التحدث عن الجانب التعليمي لتاريخ الكنيسة في المغرب بشكل أوضح إلا في المرحلة المتأخرة، وتحديدا منذ 1794، حيث أقيمت مدرسة للتعليم المجاني في طنجة، ودعم المبشرون نفقاتها من خلال الهبات التي تبرع بها عليهم المحسنون. لكن البعثة اضطرت بسبب تخلف أحوالها المادية أن تغلق أبوابها سنة 1836، ثم عادت إلى افتتاحها سنة 1841 بمساعدة الهبات الملكية الفرنسية التي أرسلها أسقف المغرب الفرنسي إلى المبشرين. وبرغم هذا ظل النشاط التعليمي في هذه المدرسة متراجعا، وخاصة عندما بقي مبشران فقط في البعثة[199].

وبعد إعادة إصلاح البعثة سنة 1860 تم إحياء هذه المدرسة وبناء مدارس أخرى بسبب تزايد عدد المسيحيين المستقرين في المغرب، وقد كانت هذه المدارس تستقبل مجانا أبناء المسيحيين وأبناء المغاربة على حد سواء. ومع التزايد الكبير لعدد التلاميذ أسست البعثة مدارس أخرى مجانية للبنات سنة 1883، ثم اضطرت البعثة سنة 1888 إلى البحث عن أماكن واسعة لبناء مراكز تعليمية أخرى تستجيب للحاجيات المتزايدة. ثم في سنة 1892 أضيفت مدارس للتعليم الثانوي قام بالتدريس فيها أيضا المبشرون[200].

ولدعم الاحتياجات المادية لهذه المدارس أسس الأب لرتشوندي سنة 1887 "جمعية السيدات الكاثوليكيات"، لكي تهتم هذه الجمعية بتوسيع ونشر المدارس في مختلف أنحاء

(198) نقلا عن : Buenaventura Diaz : LaMision catolica de Marruecos, p29

(199) انظر المراسلات بين الأسقف الفرنسي والراهبان الإسبانيان، والتي قمنا بترجمتها في القسم الأول، ص.

(200) Fortunato F. : Los Franciscanos en Marruecos, p 342.

المغرب، وتعمل على تحصيل المال وتحويله إلى الأب الأعلى للبعثات الكاثوليكية في المغرب، وقد ترأست هذه الجمعية ملكة إسبانيا ماريا كريستينا Maria Cristina، وساهم فيها سيدات المجتمع الإسباني[201].

ومجمل القول، فقد اهتمت البعثات بالتعليم باعتباره أحد أهم المرتكزات التي أصبحت تستند إليها في مشروعها التبشيري في المرحلة الحديثة، ولهذا انتشرت المراكز التعليمية في كل المناطق التي تواجدت فيها الكنائس والملاجئ ومنازل البعثة، غير أن أشهر هذه المراكز التعليمية الإسبانية كانت هي مدارس ألفونسو الثالث عشر في طنجة، ومدارس قلب يسوع في طنجة أيضا، والمدارس التخريجية في تطوان. وقد ظلت هذه المدارس لمدة سنوات عديدة المدارس الأوربية الوحيدة في المغرب، قبل أن تؤسس الحماية الفرنسية سنة 1923 مدارس شارل فوكو، ومدارس أخرى خاصة في مختلف مناطق تواجدها[202].

تأسست مدارس ألفونسو الثالث عشر سنة 1913 لتحديث المراكز التعليمية القديمة بمساهمة مالية مهمة من قبل الملك ألفونسو الثالث عشر. وتكونت هذه المدارس من جناحين واحد لتعليم الأولاد، وآخر لتعليم البنات. وكان نظامها التعليمي دوريا، وتضمنت أربعة أقسام دراسية هي التحضيري والأساسي والمتوسط والعالي بالنسبة إلى التعليم الأولي، وأقسام الباكالوريا بالنسبة إلى التعليم الثانوي، وقد تحمل مهمة التدريس فيها الراهبات والرهبان الفرنسيسكان.

وأهم ما اشتملت عليه هذه المدارس هي المطاعم التي كانت توفر حصص الأكل للتلاميذ، وخاصة أبناء العائلات الفقيرة، والتلاميذ القاطنين في ضواحي المدينة، حيث ساعدهم هذا النظام على اختصار قطع المسافات الطويلة، والتمكن من متابعة كل الحصص الدراسية، وعلى هذا فإن التلاميذ كانوا يظلون في المدرسة من الثامنة صباحا إلى الخامسة مساء. وقد كانت الدولة الإسبانية هي التي تدعم الحصص الغذائية عن طريق إرسال مساهمة مالية سنوية إلى البعثة[203].

أما بخصوص الأقسام التعليمية الأولى، فقد انقسم فيها التعليم الأولي إلى تعليم

(201) - Fortunato F . : Los F. en Marruecos , p 331 .
- Lopez José : El Padre Lerchundi, p 6.

(202) - Buenaventura. D : La Mision Catolica de Marruecos , p 274.
- Pons. A : La nouvelle Eglise d'Afrique, p 290.

(203) Fortunato F. : Los Franciscanos en Marruecos, p 350- 351.

مجاني استفاد منه الفقراء، وتعليم بالأداء للعائلات الغنية. وجميع التلاميذ كان يسهل لهم اقتناء الأدوات والكتب المدرسية بتخفيض في قيمتها. كما كانت تمنح بعض الأدوات الضرورية للتلاميذ الفقراء. وقد استقبلت هذه المدارس نسبة مهمة من المسيحيين، لكن أغلب التلاميذ كانوا مسلمين ويهود، ومن بين هؤلاء التلاميذ المسلمين من كان يقضي اليوم منشغلا بأعمال مختلفة أو تعلم القرآن، ثم يأتي في الليل إلى المدارس الإسبانية لتعلم القراءة والكتابة والنحو والرياضيات، والتاريخ والجغرافيا، وتاريخ إسبانيا. كما تضمن البرنامج التعليمي لهذه المدارس تدريس اللغات بالأداء كالفرنسية والألمانية والعربية والإنجليزية. وكانت البنات يتلقين بالإضافة إلى هذه المواد دروسا في الخياطة والطرز والرسم. وكانت الراهبات تخصصن بعض الأوقات مثل الأحد مساء لتعليم البنات اللاتي لم تتح لهن فرص التعليم في المدارس، فكن يلقنونهن القراءة والكتابة، والحساب، والدين، وبعض الأعمال النسائية[204].

وقد كانت الدراسة تتم في جميع أيام الأسبوع ماعدا أيام الأحد والسبت مساء وعطل أعياد الميلاد والأسبوع المقدس، وكانت السنة الدراسية تمتد من 1 شتنبر حتى النصف الأخير من شهر يونيو.

أما بالنسبة إلى التعليم الثانوي الذي يتضمن قسم الباكالوريا، فكانت الدراسة تبتدأ فيه في 1 أكتوبر، وكان المسيرون يحرصون على حضور التلاميذ في أوقات الدراسة دون تأخر أو تغيب، إلا في الحالات الضرورية كالمرض. وكان التلاميذ يقضون أوقات الفراغ التي تفصل بين درس وآخر في صالة خاصة في مراجعة دروسهم، ولا يسمح لأحدهم بالخروج إلا بإذن الراهب المسؤول. وقد اشتمل البرنامج التعليمي لهذا المستوى على التكوين الجسماني الذي تضمن التمارين الرياضية والألعاب والرياضات المهمة، وكذا التكوين العقلي الذي شمل كل العلوم الضرورية التي تؤهل هؤلاء المتخرجين لكي يتحملوا مهام كبيرة في البنوك والشركات والبريد ...[205]

ومختصر كل القول إن هذا النظام الذي كان يميز البرنامجين الإداري والتربوي لمدارس ألفونسو 13 هو تقريبا نفسه الذي كانت تنهجه باقي المدارس التي انتشرت بكثرة في مختلف المدن المغربية التي وجدت فيها مؤسسات البعثة، بما في ذلك مدارس البعثات الفرنسية. إذ

(204) - Fortunato.F. : Los Franciscanos en Marruecos, p 354... 364.
- José de Unzueta : Escuelas.E. de Alfonso 13, p130.

(205) - Fortunato.F. : Los Franciscanos en Marruecos, p357.
- Buenaventura.D. : La Mision catolica de Marruecos, p 257.
- José de Unzueta : Escuelas.E. de Alfonso 13, p 131 - 132.

نتبين من مجمل ما سبق أن العملية التعليمية كانت تتصل مباشرة بنشاط الرهبان المبشرين، وتسير بإشرافهم، لذلك فهي لا تخلو من بعد تبشيري واضح. وهذه الصلة بين التعليم والتبشير تستند إلى دور التعليم في تحقيق التواصل في إيصال الثقافة المسيحية إلى المتعلم من خلال كثير من العلوم التي يتلقاها، وليس غريبا أن تؤثر فيه هذه الثقافة، وأن تثير فيه اهتماما بها. صحيح أن الدروس الدينية كانت إجبارية فقط بالنسبة إلى المسيحيين، لكنها كانت أيضا اختيارية بالنسبة إلى باقي التلاميذ، ولذلك تحقق تنصير عدد مهم منهم، فبحسب إحصائيات التأريخ المسيحي تنصر ثمانية وستون تلميذا من سنة 1896 إلى سنة 1922[206].

ومن تم فإن الذي يستوجب التأكيد هذا هو الإمكانات التي وفرها العمل التعليمي للمبشرين. ومن الجلي أن نجاح المشروع التبشيري من خلال هذا العمل ارتبط ارتباطا وثيقا بما تميز به البرنامجان الإداري والتربوي اللذان أشرف عليهما الرهبان أنفسهم. فالتبشير قد تحصن جيدا في البرنامج الإداري من خلال مجانية التعليم للفقراء ومساعدتهم بالأدوات المدرسية، وحصص الأكل في المطاعم المدرسية. وتحصن كذلك في البرنامج التربوي من خلال تلقين كثير من العلوم التي تمتزج بالثقافة الأخرى، والتي تعلمهم بحسب رأي المبشرين "كيفية حب إسبانيا التي تعلمهم مجانا عن طريق آباء البعثة الكاثوليكية".

ومن الركائز التي استندت إليها البعثة في مختلف مراحل التواجد الكنسي بالمغرب، العمل الثقافي الذي شكل عاملا مساعدا للمبشرين في تدعيم وتوجيه أهدافهم التبشيرية. وقد تميز هذا الاتجاه الثقافي للكنيسة بالاهتمام بتعلم اللغة العربية وتأليف مجموعة من الدراسات التي انصبت على رصد خصائص اللغة العربية واللهجات المحلية المغربية، وتسجيل أحداث تاريخ المغرب، ومعاينة حيثيات واقعه الاجتماعي والحضاري، وهو ما أعان الكنيسة على النفاذ إلى عمق هذا المجتمع، وتحقيق أهدافها العامة.

لقد اهتم المبشرون بالعمل الثقافي أو التأليفي منذ القديم، إذ لم يكن يتم هذا العمل بمعزل عن مجموع الوظائف المتداخلة التي يؤديها المبشر، ولذلك كانت حصيلة هذا العمل رصيد مهم من التآليف المتنوعة، يمكن تقسيمها حسب موضوعاتها إلى أعمال تاريخية، وأعمال تثقيفية، وأخرى تعليمية.

فمن الأعمال التاريخية هناك: كتاب "محاولة للترجمة للمؤرخين والجغرافيين العرب والإسبان" لفرانسيسكو بونس Francisco Bones، "والمكتبة العربية الإسبانية" لفرانسيسكو كوديرا Francisco Codera وخوليان ريفيرا Julian Rivera، "ويوميات

(206) Lopez José : Memoria de la M. F de Marruecos, p 98.

لشاهد على حرب إفريقيا"، و"تاريخ البعثة إلى المغرب" لفرانسيسكو ديل بويرتو Puerto Francisco del، و"تاريخ المغرب" لمانويل كاستيانوس Manuel Casteanos، و"رحلة إلى المغرب" للأب ماتياس Matias ، و"بيانات عن تاريخ ساحة مازاكان" لمبشر مجهول.....

ومن الأعمال التثقيفية هناك: "وصف عام لإفريقيا" للويس ديل مارمول del Marmol Luis، و"ذكريات مغربية" لخوسي ديل موركا Jose del Morga، و"أسفار إلى المغرب" لفرانسيسكو أوريستاراكو Fransisco Orestarago، و"سفري لوسط إفريقيا " لكريستوبال بنيتس Cristoval Benites.

أما الأعمال التعليمية فهي كثيرة، ونذكر منها: "المعجم القشتالي - العربي" لبيدرو دي ألكالاو Pedro de Alcalao ومونحي خيرونيمو Monhe Geronimo، و"موجز نحوي لتعلم اللغة العربية" لبوكاس ميرينو Bocas Mereno، و"نحو العربية الفصحى" لكليمنتي سردبيرا Clemente Serdevera، و"موضوعات جغرافية" لريخيتا لدورويس Ledorues Rijita ونحو العربية الفصحى لرافاييل كونساليس Rafael Gonzales، و"النحو الريفي" لساريوناندیا Sarionandia، و"جغرافية المغرب" لرافاييل أرافيلو Rafael Arafelo. وهناك دراسات أخرى عن أماكن محددة في المغرب مثل "الجغرافية التاريخية الإحصائية لقبيلة بني سيكار" لإيميليو فييكاسImilio Viegas، ودراسات حول "قبيلة الفحص" و"قبيلة عنييرا" و"قبيلة وادراس " لريكاردو رويس[207] Ricardo Rues.

وكان أكثر المبشرين إنتاجا في هذا الاتجاه هو الأب لرتشوندي الذي ألف في نحو الدارجة المغربية والعربية الكتب التالية، "مبادئ العربية العامية المغربية" "والنحو العربي" و"المعجم العربي الإسباني" الذي يتناول العامية المغربية أيضا، وكتاب "منتخبات عربية إسبانية"، وهو عبارة عن مجموعة من القطع التاريخية والجغرافية والأدبية التي تتصل بإسبانيا في مرحلة الحكم الإسلامي[208].

ولتعميق الدور الثقافي للكنيسة اهتمت البعثة حديثا بالصحافة وسعت إلى تأسيس عدة مجلات وجرائد، ومن هذه المجلات كان هناك "صدى تطوان"، و"إفريقيا" و"إسبانيا وإفريقيا"، و"موريطانيا"، و"سبتة"، و" في سبيل الوطن"، و"المغرب" ... .ومن الجرائد كان هناك "المستقبل"، و"تلغراف الريف"، و"مناد مليلية"، و"المدافع عن سبتة"..[209].

---

(207) Diaz : España y los F. en Marruecos, pp 13 - 24.

(208) - Fortunato F. : Los Franciscanos en Marruecos, p 291 - 292.

- Lopez José : El padre Lerchundi, p 44 - 45.

ومن خلال هذا العرض الموجز لبعض التآليف والصحف التي أنجزتها البعثة يمكننا أن نستقرئ حقيقة واضحة، مفادها أن العمل الثقافي للكنيسة كان ينطوي على نوع من العمل الجمعي الذي شارك فيه كل المبشرين من أجل الوصول إلى تحقيق وأداء أعمال محددة. إذ تناولت مختلف هذه التآليف والمجلات والجرائد مواضيع حول الجغرافيا والتاريخ، والخرائط، والإتنوغرافيا، والفيلولوجيا، والبيبليوغرافيا، وكل الدراسات التي تساعد على الكشف عن طبيعة المجتمع المغربي، واستنباط ملامحه الاجتماعية والروحية والأخلاقية، ومعرفة أساليبه في العيش واحتفالاته وشعائره، وجميع عناصره الطبيعية والسياسية. فنجد دراسات عن ملابس المغاربة وأحذيتهم وزخرفة بيوتهم وأثاثها، وأعمال النجارة والمعادن، والأسلحة، والحلي، والخزف والآلات الموسيقية...[210]

ومن هنا تبدو طبيعة الدراسات التي اهتمت بها البعثة، ولهذا عندما أتى الأب لرتشوندي إلى المغرب، فإن أول ما قام به هو تقديم التماس إلى رئيس الهيئة الكنسية للقيام بسفر استكشافي لمدن المملكة. وفي هذا الالتماس عبر الأب صراحة عن أهمية مساعدة البعثة له لمعرفة هذه المدن والنواحي المغربية التي تحافظ على رفات الأسبان المسلمين، وإمكانية الاطلاع على المخطوطات القيمة، لأن هذا الاستكشاف سيمنح في نهاية الأمر للأسبان أخبارا ومعارف تغني دراستهم الإسلامية والإسبانية، ومن ثم اقترح طواف مدن المغرب لدراسة طوبوغرافيتها وعادات وتقاليد سكانها، والعثور إذا أمكن على الآثار التي توفر للدولة الإسبانية معرفة المغرب الذي تملك فيه نصيبا شرعيا..[211].

وقد توجت هذه الجهود التأليفية بتأسيس مطبعة البعثة التي ساعدت الكنيسة على نشر العديد من الكتب والمطبوعات. وقد أسس لرتشوندي أول وأقدم مطبعة إسبانية عربية في طنجة سنة 1888 لنشر كتبه حول النحو والدارجة المغربية، هذه الكتب التي أعانت المبشرين وغيرهم من الأسبان على ربط العلاقات الاجتماعية والسياسية والتجارة مع سكان المغرب.

---

(209) Buenaventura.D. : España y los F. en Marruecos, p 12

(195) انظر مثلا :

Lopez José : Memoria del Vicariato Apostolico..., pp 162 -175

(211) Lopez José : El padre Lerchundi, p48-49.

القسم الثاني

ترجمة الوثائق الإسبانية عن تاريخ التواجد الكنسي بالمغرب

الفصل الأول

تأسيس الكنيسة في المغرب

مصدر البعثة التبشيرية والمبشرون الأوائل[212]

● **قدم الكنيسة في المغرب وأوليات البعثة :**

بعد محنة فقدان إسبانيا إبان حكم البائس دون رودريكو آخر ملوك القوط القدماء في سنتي 714 و 715، وبعد أن استكمل المسلمون بسط سيطرتهم الكاملة على إفريقيا التي دخلها البربر بعد ذلك معلنين انتصاراتهم في أراضينا تحت رايات الملك الذي نسميه بـ: "أوليت" أو "سيف الله"، ويسميه الآخرون أمير المؤمنين، وكذلك على يد قائده طريف.وفي ظل هذا الوضع ظل بعض المسيحيين الأسبان يعيشون في المناطق الخاضعة لحكم المسلمين يدفعون لهم الجزية، ويطيعونهم كأنهم أسيادهم الأصليين، بينما انضم الغيورون على المسيحية إلى كتائب الدفاع العسكري، واقتيدوا إلى أنحاء إفريقيا أسرى مع عائلاتهم، وعاش أغلبهم في المغرب خاضعين لسلطانه.

ومن بين الذين ذهبوا إلى المغرب بعض الفرسان الأسبان الذين سماهم العامة المستعربون، وسموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يتقنون اللغة العربية، فمستعرب : تعني الإنسان العربي، ويقول الآخرون "المستعرب" هو الرجل المختلط بالعربي لسنوات كثيرة. وبما أن هؤلاء الفرسان الأسبان عاشوا مختلطين بالعرب في المغرب، فإننا نسميهم المستعربين، لكن المسلمين يسمونهم الفرصانين Farsanes ويسمون اليوم بفرصاني القوط، لأنهم ينحدرون من قوط إسبانيا القدماء .

(212) هذا الفصل هو ترجمة للقسم الثاني من كتاب"Mision Historial de Marruecos" لفرانسيسكو ديل بويرتو، ويتضمن هذا القسم 89 صفحة من ص 83 إلى 172، ويتألف من 22 محورا .

عاشت هذه العائلات النبيلة في المغرب منذ الفقدان التعيس لإسبانيا، إلى أن أرجعهم إلى وطنهم المتحسر عليه الملك النبيل دون خوان الأول في سنة 1390. وقد كانت هذه البادرة سببا في موته، ذلك أنه عندما رجع هؤلاء الفرسان إلى إسبانيا (كانوا في المجمل خمسين عائلة)، ذهبوا لتقبيل يد سيدهم الحقيقي المفضال في قلعة إيناريس، وخلال القيام هناك ببعض الممارسات العسكرية الهامة في هذه القرون، طارد الملك رمح طائش، فتعثر فرسه وسقط من فوقه ومات في السنة نفسها (1390)، بعد أن منح لهؤلاء الفرسان عدة امتيازات احتفظ بها في أرشيف فرصاني قوط إسبانيا.

لنرجع إلى الموضوع، قلت،كان سلطان المغرب وخلفاؤه يحترمون كثيرا هذه العائلات النبيلة، حيث كان يوفر لهم الملك الأمان بفضل شجاعته ونبله الشريف، ويمدهم بالسلاح والخيول .وقد خصص لهم حيا في مدينة مراكش سمي "حي بورا"، بنى لهم فيه قصورا ومنازل لسكناهم، وسمح لباقي المسيحيين الأسرى بالإقامة في هذا الحي حيث كونوا فيما بينهم موقعا سمي فيما بعد السجينة. ولقد كان سلوك هؤلاء الفرسان شريفا لذلك استطاعوا أن يكتسبوا امتيازات متفردة لدى هذا الأمير البربري رغم سياساته الغليظة .ورغم اعتراف هؤلاء الفرسان بالحلم الجميل للسلطان المسلم، فإنه كان يؤثر الاعتبارات الدنيوية على المنافع الروحية، فقد حرم العبادة المقدسة لمنقذنا يسوع، وليس هناك أكثر وحشية من الإحساس بالتواجد خارج الوطن الحنون بعيدا عن الكنيسة الأم المقدسة. ويزداد هذا الإحساس الصائب حدة عندما نرى عددا من المسيحيين المكبلين بالسلاسل الجارفة يبكون على كنائسهم الضائعة، ولا يملكون في هذه الإمبراطورية البربرية مساعدين إكليروس يرعون الجانب الروحي والعادات المسيحية والشعائر المقدسة التي تحبب كثيرا في ديانتنا الحقيقية، فإقامة المسيحيين مع هؤلاء البربر المتوحشين تشبه ما حدث للإسرائيليين مع الغجر، وهو مثال خطير تزداد حدته مع الأجيال اللاحقة، التي بتكاسلها مع توالي الأزمان لن يبقى هناك إلا اسم المسيحيين .

ونتيجة لهذه الحقيقة الكاثوليكية ارتأوا أنه من الواجب بناء شكل ما من أشكال الكنيسة يكون بمثابة الحظيرة المقدسة التي تلجأ إليها النعيجات المسكينة الموسومة بالدم الإلهي لكي لا تتعرض لخطر مكيدة الذئاب الشرهة .لكن الحصول على إذن للبناء في هذه الأرض الجاحدة صعب لدى هؤلاء القوم الذين يكرهون تواجد المسيحي بينهم، ولا يسمحون ببناء كنيسة كاثوليكية. ومع ذلك فإن هذه الشكوك الحذرة ستتلاشى إذا استجاب الملك لطلب إقامة بيت لعبادة الله، ولذلك انتظروا المناسبة التي يحصلون فيها على خدمة

ملكية إيجابية، وقد استطاعوا أن يحصلوا على الفرصة الملائمة، عندما قام الملك بأعمال بطولية، فالتمسوا بالحجج تشييد كنيسة للأسرى المسيحيين في الحي نفسه الذي يعيشون فيه، وامتلاك مساعدين من الديانة المسيحية والمذهب الكاثوليكي لأداء عبادة الله، علما بأنه لا يوجد عند جميع جنسيات العالم قانون يحرم عبادة الإله الحقيقي .

سمع الملك بحلمه السامي الالتماس، ووافق عليه، فسمح ببناء الكنيسة في المكان الذي أخبر به، وإقامة راهب فيها، وقد تمت هذه الموافقة بمعاهدات تضمن حماية الكنيسة والمسيحيين، وأن لا يخالف المسلمون والفقهاء هذا الاتفاق وذلك احتراما لقرار الملك، وهو احترام استمر مع خلفه .

وهكذا تم الحصول على إذن يسمح بالبناء فقط، وبمذابح متواضعة تحرق فيها القلوب الكاثوليكية التي تذهب ضحية احترامهم، ولم يسمح لهم بوضع التصاميم البارعة، لكي لا يضاهوا المسلمين .

• تجربة الكنيسة منذ هذه العصور :

لعله من أعماق القدم تأتي الأصالة النقية التي أثبتت مفاخرها عند أولئك الأجداد الشرفاء، ونعني هنا الكنيسة المقدسة التي شكلت لمدة قرون عديدة أم بعثاتنا التبشيرية وقامت بإنجازات تدعو إلى التقدير، ولذلك أريد أن أكشف عن المفاخر المجيدة لهاته الكنيسة، مع تأكيد ذلك ببعض الحقائق من مصدرها القديم . لقد امتدت الكنائس الكاثوليكية وتزايد عددها في أقاليم إفريقيا منذ العصور العريقة في القدم، وبدون انقطاع منذ الحواري وأمير الكنيسة سان بيدرو الذي بشر هناك بالشريعة، ولا أستطيع أن أؤكد كل حقائق العصر القديم، وهذا ليس جحودا للجميل، ولكن لكي أتفادى الوقوع في الخطأ .

أغلب الأخبار التي رويتها، استقيتها من مصدر لدون لويس ديل مارمول في وصفه العام لإفريقيا، وهو كاتب عالم ومطلع على الأخبار . حيث عاش أسيرا لمدة طويلة في هذه الأجزاء من إفريقيا، وقد اشتغل ناظرا للجيوش في الحصون المسيحية المتواجدة في حدود المغرب، وكان يتقن الحديث والكتابة باللغة العربية، ولذلك كان أمينا في ما رآه بأرض البربر، وقد افترضت أن تكون الأخبار المتضمنة في عمله صائبة، لأنه أخضعها للفحص والتحقيق بمقارنتها ببعض الكتابات، والأوراق الأصلية لكي يثبت صحتها، لكنه لم يستطع أن يجزم بالسنوات التي بنيت فيها هذه الكنيسة، ويمكنني القول إن الفرسان القوط منذ أن خرجوا من إسبانيا وأتوا إلى المغرب، أقاموا به الكنيسة منذ السنوات الأولى .

وهناك بعض الدلائل التي تقنع بحقيقة وجود الكنيسة منذ هذه السنوات، ذلك أن المسلمين لم يمنعوا إقامة الكنائس، فلما سيطروا على إسبانيا، سمحوا للمسيحيين بامتلاك كنائسهم وأساقفتهم، وإقامة مجمعات دينية إقليمية في الأسر، كما ثبت عن جميع مؤرخينا القدماء، وخاصة سان إلوخيو مارتير المؤرخ والعالم بهذه العبودية. كما سمح هؤلاء المسلمون لمذهبنا بإقامة الكنائس والمحافظة عليها إلى يومنا هذا في هذه المملكة، بحيث كان هؤلاء السلاطين أقل بربرية وأكثر سياسة،كما مثل هؤلاء الفرسان المستعربون عاملا إيجابيا في هذا الاتجاه، لذلك لم يكن من المستحيل الحصول على هذا الفضل .

وهناك تطابقات أخرى تفيد أن هذه العائلات النبيلة التي كانت كاثوليكية المذهب، قد طال أسرها، وكان عددها يتنامى وباقي المسيحيين الآخرين. وفي هذه الحالة لا يمكن أن نقتنع بعدم وجود شكل من أشكال الكنيسة، ورهبان يرعون الممارسات الروحية المقدسة، علما بأن الأسرى المسيحيين الذين بقوا في إسبانيا حافظوا على مقدساتهم في ظل الحكم والديانة نفسيهما اللتان وجدتا في المغرب .

وقد أثارتني في هذا السياق شهادة إيجابية تؤكد هذا الحكم، ويتعلق الأمر بالرسالة المستنهضة التي أرسلها البابا العظيم إينوسينسيو الرابع إلى الأسقف فراي لوبي لينصح بها سلطان المغرب أمير المؤمنين، ويستنهضه باعتباره راعيا عالميا لثوابت العقيدة الكاثوليكية متوسلا إليه بالإصغاء إلى الأسقف السعيد ومبشريه . وقد أرسل إليه هذه الرسالة في السنة الرابعة من بابويته في شهر دجنبر من سنة 1246 ونورد منها ما يلي : "نقدر كثيرا سيركم على آثار أسلافكم الذين حصنوا الكنيسة في المغرب بكثير من امتيازات الحرية، وأنعموا عليها بكثير من الأشياء الجميلة، إذ لم يدافعوا عنها فقط من غارات الأشرار وأعداء العقيدة المسيحية بل أنعموا على المسيحيين الذين أدخلوهم إلى المغرب بالملاطفة والإكرام وخولوا لهم مننا مناسبة".

نستخلص من هذا البند شيئين بوضوح، الأول أن العدد الكبير من المسيحيين الموجود في المغرب أسر من قبل أجداد السلطان أمير المؤمنين، وقد أتاح هذا الملك إقامة كنيسة هي التي روى عنها البابا . والشيء الثاني هو أن الكنيسة في المغرب وجدت قديما في عهد أجداد هذا السلطان الذين خولوا الحرية للمسيحيين. ومن كل هذا نستنتج شيئا إيجابيا، وهو أنه وجدت كنيسة قبل موت شهدائنا الخمسة في المغرب على عهد هذا السلطان . إلا أن شكا واحدا يمكن أن يعترضنا في هذا السياق، وهي أن إينوسينسيو الرابع أرسل نشرته

البابوية إلى سلطان المغرب بعد ست وعشرين سنة من موت شهدائنا الخمسة، لكي يتوسط لدى سلاطين آخرين بعد السلطان الذي قتل هؤلاء القديسين وأتاح إقامة الكنائس الخمسة (كما سأتناوله لاحقا). ويؤكد السلاطين الذين توسط لديهم قوله (سلفك). ومن خلال هذا الافتراض يمكن أن نثبت أن الكنيسة وجدت منذ عهد أمير المؤمنين وليس من قبل.

لكن هذا الشك يتلاشى بسهولة حينما نعرف أن السلطان الذي كان يحكم المغرب عندما وجه إليه إينوسينسيو الرابع رسالته البابوية، كما تذكره التواريخ الجديدة لمذهبنا، وإذا كان المسلمون يعرفون بعدم الثبات وقلة الوفاء لملوكهم، فإن السلطان حكم لمدة أربع وثلاثين سنة .بالإضافة إلى ذلك يقول دون ألفونسو نونييس أن أمير المؤمنين الحالي حكم المغرب في حياة القديس الملك دون فرناندو في سنة 1248، وهذا يعني أن أمير المؤمنين كان موجودا سنتين بعد وصول النشرة البابوية .يذكر بينيدا في كتابه "الملكية الإكليروسية" تروي سنويا أعمال هذا الملك الذي تسميه يعقوب أبو يوسف أمير المؤمنين، وتقول بأنه اعتلى الملك سنة 1212، وحكم أكثر من خمسين سنة، وهذا يعني أن إينوسينسيو الرابع أرسل نشرته البابوية إلى السلطان أمير المؤمنين الذي كان يحكم المغرب آنذاك .كما يتأكد من هذا كله أن الكنيسة في المغرب كانت موجودة قديما في عهد أجداد هذا السلطان، وقبل موت شهدائنا القديسين، فالبابا لا يمكن أن يتحدث عن كنيسة غير موجودة.

ويذهب مؤرخونا إلى أنه بعد موت شهدائنا الخمسة أجاز أمير المؤمنين بناء خمسة كنائس في عهده (كما سنرى من بعد)، لكنهم لا ينفون وجود كنيسة من قبل. صحيح أنهم لا يحاولون إثبات حقيقة وجودها، إما لعدم إدراكهم، أو لتغاضيهم عن ذلك، وبالنسبة إلي فإنه من المهم إدراك هذه الحقيقة لأنها تجسد أصالة وبقاء هذه الكنيسة التي لجأ إليها مبشرونا خلال سنوات كثيرة من أجل توضيح ثوابت الشريعة للأسرى الكاثوليكيين، ولإرشاد الضالين الذين لم يحبوا قط مذابحهم المقدسة . وهكذا تكسب ديانتنا الملائكية كثيرا من المجد بإقامة أول كنيسة في هذه الأجزاء البربرية كما تم في جميع أجزاء العالم، كما تتشرف بإسناد وتوسيع تسع كنائس انتفع بها مبشرونا (كما سأذكره في موضعه). لقد اصطفى الله أبانا سان فرانسيسكو وأبناءه للحفاظ والدفاع عن الكنيسة التي أسسها سان بيدرو وحواريون آخرون في هذه الأجزاء من إفريقيا .

- **مصدر البعثة الملائكية في مملكة المغرب :**

من الطبيعي أن تنعطف النار إلى الأرض بعد خروجها منها، لكي تريحها من الخشونة،

حيث تتحول الأرض إلى طبيعة محترقة تغلي بدون حزن لينتفع بذلك الفلك الأعلى. ويعتبر سان فرانسيسكو الموصوف بالملائكي من بين المحبين للمذابح المقدسة للكنيسة الكاثوليكية، وهو حواري أراد أن يحرق العالم لكي ينقيه كله من أصغر قسم في الأرض تطير فيه النسور إلى القسم الأعلى من الجنة، معتبرا أن القسم الأكثر ثقلا وإسفافا، هو الذي عاثت فيه شريعة محمد بفظاظات وحشية ومستنكرة. لقد أراد سان فرانسيسكو بالثوابت الواضحة لعقيدتنا المقدسة والتعميد المقدس أن يريح هؤلاء الكفار الأشقياء من حيرتهم، ويتيح لهم الصعود إلى الفلك الأعلى حيث توجد السعادة الإلهية .كان المغرب إذن (المملكة المحكومة من قبل أمير المؤمنين) الأرض التي تحتاج إلى التهذيب لاحتوائها عددا كبيرا من الكفار، وذلك بأن تخترقها سكة الإنجيل وتزرع فيها الكلمة الإلهية زرعها النقي، ويسقيها الحواريون بدمهم إكراما للشريعة. لم أعرف كيف مال الروح الحواري إلى هذه البلدان البربرية وسعى إليها بحماسة كبيرة . وقد ورث عنه هذه الإرادة الشجاعة والشعلة المضيئة في هذه البعثات التبشيرية أبناؤه القديسون، فربما يكون هذا الميل قد نتج عن إلهام أوحاه الله لهم ليردوا هؤلاء العميان عن إسلامهم و يقيموا لهم الكنيسة، ويبينوا لهم العقيدة الصحيحة ليسوع.

وهكذا استجاب البطريك القديس لرغبته المقدسة، وقرر أن يذهب إلى المغرب، فأتى من إيطاليا إلى إسبانيا يبحث عن ميناء للعبور .لم يكن حماسه الحواري باطلا، فقد أتى لأداء التبشير الإنجيلي الذي جنت منه أوربا فوائد كثيرة ونتج عنه حصول اهتداءات نادرة. وهكذا استمر سير البطريك مع البعثة إلى حدود كاليسيا، فركب السفينة ووصل إلى سان سيباستيان، وهناك ظل ينتظر المناسبة لسفره إلى إفريقيا .

لكن البطريك أصيب بمرض شديد ذهب معه جسده من جراء الألم، والإرادة من أجل الاستشهاد، و إدراك الضلالات التي تعاني منها كثير من الأرواح التي أضاعها محمد. عرف القديس أن الحادثة كانت الرسالة التي نبهه الله بها بأنه لن يهبه الشهادة السعيدة التي سعى إليها في هذه الأنحاء. بالإضافة إلى هذا تكلم معه الملك وأمره بالرجوع إلى إيطاليا بسبب تبعيات مذهبه الذي يحتاج كثيرا إلى شخصه، فخضع القديس إلى مشيئة الله مضحيا بجسده وروحه وعقله وإرادته. فحينما يكون الاستعداد من أجل التضحية لا تنفذ الضربات، وإذا كان السيف يقتل مرة واحدة، فإن الآمال تعذب دائما .

تعافى القديس من الحادثة المعذبة، ورجع إلى إيطاليا استجابة للأمر الإلهي من أجل

مواساة أبنائه وإسعاف مذهبه. لقد كان بمثابة أم كبيرة على الرغم من صغر سنه وحاجته إلى التعليم، وعند وصوله إلى إيطاليا عقد اجتماعات استشارية وعين على إثرها بطريكا مقدسا لجميع المذهب. وبعد الانتخابات وتأسيس الحكومة الرهبانية، تعهد القائد القديس أن يوزع على أبنائه مهام رسولية في المنصب العالي الإنجيلي من أجل إفادة الأقرباء وتحقيق الكرامة العليا للإله . إذ أن إخفاء الخصال التي يهبها الله لرهبانه بدعوى الفرار من تصفيقات العالم هو سرقة لأرواح نافعة للجماعة، ولذلك فاعتذار هؤلاء يعني الضعف والإهمال، وعقابهم يوجد في الإنجيل.

كان سان فرانسيسكو أب الجميع من المشرق إلى المغرب، النجم الساطع وشمس العدالة المشرقة، كرس حياته للعمل المتواصل خضوعا للأمر الإلهي الذي وصى به يسوع تلاميذه، وذلك بوعظ جميع الناس. وهكذا قسم بين أبنائه جميع المناطق وأمرهم بالإقتداء بيسوع والعمل على التبشير. وقد سجل هذا التوزيع في باب الاجتماعات الاستشارية، حيث أرسل المذهب إلى مملكة المغرب مبشرين، وهناك تمجد القديسون الأوائل بدم الاستشهاد .

وهكذا عين القائد المقدس في البعثات التبشيرية للمغرب فراي إيليكتو وفراي إخيديو، ويسمى فراي خيل فارسين لبعض الرجال الحواريين الآخرين (كما سأذكر لاحقا). وبعد شهرين من خروج هؤلاء عين ستة آخرين ذوو فضائل مثالية وهم: فراي بيراردو دي كاربيو، وفراي بيدرو دي سانتو خيمينيانو، وفراي أوطون، والراهبين فراي أديوتو، وفراي أكورسيون، ثم فراي فيطال وهو رجل معروف بحكمته، وكان مضلعا في اللغة العربية، ولذلك عينه القائد المقدس أسقفا للخمسة الآخرين ليدخلهم بتوجيهه في هذه الأقاليم الغريبة جدا . كما فوض له السلطة لتعيين أسقف من هؤلاء الخمسة في حالة غيابه في هذا الحج الإنجيلي، وتعرضه إلى حادثة ما .

وعلى النحو الذي هيأهم عليه القائد المقدس، وصل هؤلاء المبشرين جميعهم إلى أراغون، و هناك مرض المبارك فراي فيطال، فسبب لمرافقيه القديسين الذين يحبونه بصفته أبا لهم نكبة محيرة. وكان أكثر وحشية هو الحزن الذي نزل بالأسقف من جراء هذا المرض الذي سبب له الآلام، و أخره كثيرا عن مواصلة إراقة دمه من أجل العقيدة ومن أجل الله. ولما استيقن أن مرضه سيطول، و أن إرادة الله ستحول دون ذهابه إلى إفريقيا، أمر مرافقيه بمواصلة مهمتهم، وانتظروه لبعض الأيام أملا في تحسن حاله، لأنهم كانوا

حريصين على مرافقته الأبوية. لكنه ازداد سوءا، ففوض سلطته الكاملة للمبارك بيراردو الذي كان بدوره يتقن اللغة العربية، ثم أمرهم بعدم الانتظار، ومنحهم جميعهم بركته، ومد إليهم يديه الحنونتين المبللتين بدموعه المتحسرة.

لقد اهتمت تواريخنا الجديدة للسيد المجيد فراي فرانسيسكو داميان كورنيخو ولبعض الكتاب الآخرين بجهود هؤلاء المبشرين واستشهاداتهم ومعجزاتهم، واستحسنت هذه البطولات المجيدة، والمتذوق العاقل هو الذي يدرك الأبعاد الدلالية لهاته الأخبار. ومن هنا، فإنه لا يمكنني في هذا السياق أن أدحض ؟على الأقل؟ الأخبار التي تحكي عن استشهادهم، وواجبي هنا أن أورد الأخبار الموضحة والحوادث المتعاقبة التي حدثت لبعثتنا التبشيرية وشهدائنا القديسين الحامين فرساننا الأوائل الذين أراقوا دمهم لفتح هذه الطرق الحوارية ووضع الأسس الأولى للعمل التبشيري.

واصل المبشرون الطريق بعد توديع الأسقف المريض واتجهوا إلى مملكة البرتغال التي كان يحكمها دون ألونسو الثاني وزوجته دونيا أوراكا، وهناك عقدوا معهما عدة محاضرات وعظية، ثم قدموا للملكة رفات الموتى الذي نقلوه من إفريقيا إلى البرتغال، مؤكدين لها على أن الله هو الذي أوحى لهؤلاء بالاستشهاد في المغرب، غير أن الملكة تقبلت هذا التكهن بنوع من الالتباس. وبهذا عرف القديسون وخاصة منهم فراي بيراردو أن المغرب هو المسرح المناسب لإثبات أمجاده الكبيرة. ورغم ذلك فقد عزموا على الذهاب إلى إشبيلية عاصمة أبو العلا كما يقول ماريانا أو ابن العلا كما يقول بليدة، يبتغون هناك التبشير ووعظ جميع المسلمين الذين يحتلون هذه المدينة الكبيرة، وذلك لتحقيق بعض النتائج الإيجابية التي سيزينون بها تاج المجد الذي وعدوا به في مملكة المغرب.

لقد كان من غير الممكن الدخول إلى إشبيلية بالتنورة الرمادية لأنها كانت لباسا غريبا ومثيرا للنظر، وعائقا في سبيل مهمتهم، ولذلك تقنع الرهبان الإنجيليون بلباس التجار العالميين، ودخلوا إلى المدينة ينتظرون الفرصة المناسبة ليكشفوا عن غنى ثيابهم الرخيصة التي تزيل كل أوهام المغترين. لقد كان هذا المظهر أمرا جديدا بالنسبة إلى هؤلاء الجيران الذين لم يستطيعوا أن يكتشفوا من هم الرهبان، إذ يبدو من خلال مظهرهم أنهم مجرد فلاحين، غير أنه يكتشف فيهم أكثر مما كان يفترضه الخيال، وذلك بسبب تواضعهم، وصبرهم ووداعتهم، وقولهم، وعملهم.

ومن ثم عندما وجدوا الفرصة أكثر مناسبة دخلوا إلى المسجد الكبير للتبشير بعقيدة

يسوع المسيح ضد بذاءات القرآن، فاضطرب الكثير من الناس وهاجوا حتى لم يعد بالإمكان أن يخرج المبشرون من وسطهم، وحال دونهم العلماء والمتصوفة وعوام المسلمين الذين أرادوا قتلهم جميعهم في المكان نفسه، وذهبوا بهم إلى الملك ليحكم في ما حدث، فأمر بدون تريث أن يثأر منهم نتيجة الإهانات التي وجهوها ضد شريعته. ثم ارتأى ضرورة وعظ كل من وافق على عقيدة يسوع المسيح، وأمر بصبر نافذ بسجن المبشرين و دفنهم في غياهب البرج الذي يقع في الجانب الأيسر من باب القصر الذي يسمونه لامونتيرا وهذا البرج - كما وصفه كاتب إشبيلي حديثا ؟ هو عبارة عن تكعيب مغلق من جميع الجهات، ومفتوح فقط من الأعلى بفوهة مختومة بحجرة كبيرة، يقع على ضفاف الوادي الكبير ويسمى اليوم برج الببغاء. وفي هذا البرج عانى هؤلاء الجنود الأقوياء ليسوع المسيح اضطهادات وحشية هزلت بسببها أجسادهم، لكنها زادت من قوة روحهم الحريصة على تحمل المشقات الكبرى.

لقد وعظوا الملك أيضا وحاولوا إقناعه بالعقيدة الكاثوليكية، ومقت المسلمين الضالين. وأصروا على التمسك بالثوابت والتبشير بها في السجن عبر شرفات الاستحكام ولذلك لم يعف عنهم الملك، وأمر بقتلهم.

لقد كان المغرب هو الميدان الذي وعدهم به الله لتحقيق انتصاراتهم الكبيرة، لذلك نجاهم من الموت في إشبيلية على يد ابن هذا الملك الذي يميل بطبعه إلى الفضائل التي يملكها القديسون، ويحمل ودا لفراي بيراردو. وقد تدخل هذا الابن لدى أبيه من أجل توقيف الحكم لبعض الأيام، وخلال هذه المدة حاول الأمير كثيرا إقناع أبيه بعدم الانتقام من المبشرين الذين أهانوا شريعته، وأن يكتفي بما عاقبهم به في السجون الخشنة وما نالوه على يد رجال متغطرسين وغير عاقلين، وأن يبعدهم عن مملكته. وبهذا الإقناع قرر الملك إبعاد القديسين. فذهبوا في سفينة إلى المغرب تحمل أمتعة بعض التجار، وكان فيها فارس قشتالي يسمى دون فرناندو دي كاسترو ضمن حاشية أمير البرتغال دون بيدرو الذي كان قائدا أعلى لجيوش أمير المؤمنين في إفريقيا. ولما رأى هذا الفارس الطيب القديسين، استقبلهم في سيره، وعاملهم بالنبل المسيحي والوقار الكاثوليكي.

- **دخول القديسين إلى المغرب للتبشير بالعقيدة واستشهادهم المجيد :**

بعد أن أبعد القديسون (مثلما أبعد الإنجيلي خوان وكثير من المبشرين من الكنيسة الأولية) ركبوا السفينة التي قادتهم إلى البلد الذي كانوا يعرفون أنهم سيحصلون فيه على

كثير من الأوقات السعيدة كما تمنوها، فشكروا الله كثيرا على اقترابهم من الميناء، حيث سيأخذون الطريق اليابس، ويطأون الأرض التي ستمنحهم الفوز بالجنة. وفي هذا الزمن كان يوجد في المغرب الأمير البرتغالي دون بيدرو أخ الملك ألفونسو الثاني الذي خرج من البرتغال مع عدة أشخاص من أجل أغراض سياسية، فاستقبله السلطان البربري بأدب، ولما علم بشجاعته البارعة، ومعرفته بإدارة الجند عينه قائدا أعلى لجيوشه، لقيادة الحروب ضد بعض المسلمين الثائرين الذين اغتصبوا أجزاء كثيرة من أقاليم مملكته. ولهذا الاعتبار بقي الأمير البرتغالي مع الأمير المسلم الذي كان يكن له الاحترام والوفاء طيلة حضوره في مملكته. وأظن أنه بسبب توجهه الكاثوليكي، فقد حرص الأمير البرتغالي على عدم إدارة الحرب ضد المسيحيين.

وحينما جاء القديسون مبحرين إلى المغرب، ساعدهم الفارس القشتالي، وقدم لهم خدمات مسيحية كبيرة، فأخبروه بكل ما جرى لهم في إشبيلية، وآواهم وعاملهم بلطف كبير.وعرف الأمير الكاثوليكي من الرهبان الكاثوليك أنهم عازمون ومستعدون للتضحية بحياتهم من أجل نشر العقيدة، وهداية الوثنية الموجودة هناك. فخاف أن يحدث معهم في المغرب مثلما حدث لهم في إشبيلية، وشك في نجاح هذا المسعى، فسعى بأسباب طيبة لإقناع القديسين بالعدول عن قصدهم الحواري. لكن جميع الإقناعات لم تصرف هؤلاء عن عزمهم، لأنهم كانوا لا يعيرون اهتماما لأي أحد، وكانوا يسعون فقط إلى النهاية الإنجيلية التي اختارهم الله من أجلها وأداء واجبهم اللازم باعتبارهم رسل الإله.

لم يمنع الأمير الرهبان ؟الذي داروه؟ من البحث عن الفرصة لدعوة الناس إلى عقيدتهم، فحصلوا على ما أرادوا، وبشروا بإشهار كبير في تلك العاصمة بعقيدتنا الطاهرة المستنكرة لأكاذيب القرآن. فهاج العوام، وحقق القديسون مبتغاهم في محاولاتهم الأولى، ونالوا كثيرا من الإهانات والضربات. ثم أخبر المسلمون الملك الذي غضب وأمر بإحضارهم إلى سبتة، لكي يرحلوا من هناك إلى أوروبا. لقد رفض الملك إذن معاقبة القديسين احتراما للأمير، لكنهم عزموا خلال الطريق على مخادعة الحراس و فك القيود للرجوع إلى المغرب.

إن الإهانات السابقة التي تلقاها القديسون لم تخمد الشعلة المحبوبة التي اشتعلت في قلوبهم، فلم يأبهوا بالتعذيب، لأنهم كانوا يدركون حلاوة المعاناة من أجل الإله، و لذلك رجعوا من جديد للتبشير، فغضب الملك بشدة، ووضعهم في سجن قذر مظلم و لا إنساني،

ومنع المغاربة والمسيحيين من تقديم الأكل لهم، و بقوا على تلك الحال عشرين يوما حتى خارت قواهم. ومنذ يوم سجنهم انتشر في هذه المنطقة وباء كبير، تأذى منه الجميع، عاقب به الله هؤلاء المسلمين بسبب المعاملة القاسية التي عامل بها الملك هؤلاء الرهبان المساكين، فانتشر الخبر ووصل إلى الملك الذي خشي تمردا من العوام، ومن المسيحيين الذين كان عددهم كبيرا، فمنح للقديسين حريتهم و أمرهم بالخروج من أراضيه، وقد شاءت إرادة الله أن ينطفئ الوباء، عندما خرج الرهبان من السجن.

أبعد القديسون للمرة الثانية من هذه المنطقة الجاحدة، لكنهم عندما تخلصوا من المراقبين القساة، رجعوا من جديد إلى الأحياء المزدحمة لتبشير أفواج من الناس لا يحصى عددها. ولما علم الأمير بذلك جاء بهم إلى بيته و أحسن استقبالهم وأبقاهم عنده مثل السجناء منتظرا الفرصة ليرسلهم بعناية إلى أوروبا، و هو فعل لم يستلطفه الرهبان الشجعان. وفي هذا الوقت خرج الأمير بالجيوش لمواجهة بعض المسلمين المتمردين في الحدود، ولضمان النصر على هؤلاء رافقه الرهبان لأنه كان يقدرهم باعتبارهم قديسين، ولأنه خاف أيضا أن يقدموا على الاستشهاد في غيابه. و قد جازاه الله على عقيدته الصالحة بالنصر على الثوار، وبحادث معجز، ربما أراد الله أن يظهر به صلاح عباده الرهبان.

سارت الجيوش في طرق وعرة ومجدبة لا توجد فيها وديان ولا جداول ولا عيون، وكان الفصل حارا وزادهم المشي الكثير عطشا شديدا، وظل العساكر المشاة، والفرسان يقاومون العطش مدة ثلاثة أيام، حيث كانت هذه المقاومة أشد عسرا من مواجهة الأعداء. عمل الأمير الطيب كل ما في وسعه لمعالجة الأمر، فلم يجد حلا أكثر فعالية من صلاح الرهبان، لذلك وضح لهم الحاجة الشديدة التي يعانيها جيشه، وطلب منهم أن يسمعوه صلواتهم. لقد اعتبر القديسون أن هؤلاء الجاحدين يستحقون عقابا مشابها لعقاب الإسرائيليين بسبب قساوتهم واستهانتهم بالرحمة الإلهية، لكن فراي بيراردو (واستجابة لدعوى الله) أخذ مسمارا وثقب به صخرة (مثلما فعل موسى) بفعل السحر العجيب للتثليث المحبوب، فتفجر منها ماء غزير حلو، وهدأ كل من كان في الميدان، فشرب الرجال والدواب، وأخذوا ما يحتاجون إليه في باقي سيرهم. لقد كان تفجر الماء في هذه الناحية التي لم يوجد فيها الماء قط أمرا عجيبا جدا، ولذلك تلاشت العين بعد قضاء حاجتهم.

بعد دخول الأمير بانتصاره الشهير إلى مراكش كانت المهمة الأولى التي قام بها لحماية

القديسين هي عزلهم وتوكيل حراستهم إلى خدامه، وذلك بعدم السماح لهم للخروج إلى العامة من أجل وعظهم، لأنهم كانوا يملكون القدرة على تليين الصخر بفضل صلاحهم. وهكذا دخلوا في طور الصراع الأخير عندما رآهم الحراس المسيحيون في الميدان يبشرون بشريعة يسوع المسيح ضد ضلالات محمد بشجاعة نادرة. لقد نسي هؤلاء الوثنيون الجاحدون استفادتهم من معجزة العين المتفجرة، وقالوا إنها من عمل السحرة، ونسوا أيضا عقاب الله لهم بوباء الطاعون المبيد، و هكذا التمسوا من الملك معاقبة هؤلاء القديسين، فوضعهم في سجن مظلم كان عبارة عن برج لا إنساني (سنصفه في مكان آخر)، و هو البرج الذي سجن فيه بعد سنوات الأبوان المحترمان فراي ماتياس دي سان فرانسسكو، وفراي خينس دي أوكانيا، وهما من المبشرين الأوائل لإقليمنا. وبقي القديسون في هذا السجن ثلاثة أيام يعانون من مظالم كثيرة، ثم أخرجوهم للذهاب بهم إلى حضرة الملك، فمروا في الشوارع المكتظة بالسكان، وكانت أيديهم مربوطة إلى الوراء، ويرافقهم عدد كبير من الجنود، وعدد لا يحصى من الغوغاء الذين يشهرون قتلهم بأصوات عالية. لقد ارتأى الملك أن يأخذ هؤلاء القديسين بالليونة واللطف بدلا من الخشونة والوعيد، وهكذا وعدهم بمكافآت خاصة وإيجابية مثل التي يبتهج بها الدنيويون إذا ارتدوا عن الشريعة المسيحية، وقبلوا شريعة محمد، واستغفروا لكفرهم السابق.

اندفع القديسون عندما سمعوا الأمر الظالم بترك العقيدة المقدسة ليسوع المسيح من أجل الشريعة البغيضة لمحمد مثلما يندفع الماء المخزون بقوة عندما تطلق سدوده، وبدءوا بالتبشير بحماس من جديد، حيث كان فراي بيراردو يبشر باللغة العربية الصحيحة، وكان الآخرون يعظون بالألفاظ القليلة التي تعلموها معوضين نقصهم بالإشارات والأصوات، رغم أن الجميع كان يعتمد دائما على فراي بيراردو في الإجابة وإصدار القرارات العالية. وهكذا عددوا المنافع الكثيرة والخلود المؤكد في الجنة الذي سينالونه من خلال الديانة المسيحية، والهلاك الأبدي المحقق الذي سيجازى به كل من تبع العقيدة الخاطئة لمحمد. فغضب الملك و أمر بطردهم من حضرته، وتجريدهم من الثياب، وجلدهم بقسوة. ولم يكن من اللازم أن يوصي الملك هؤلاء الجلادين بأن يقوموا بالمهمة كما أراد، حيث جلدوا هؤلاء القديسين بوحشية كبيرة حتى بقيت ظهورهم المباركة مشوهة ويتقاطر الدم منها بكثرة، فأمر السلطان الطاغية المستبد في هذه المجزرة المحزنة أن يحنطوهم بالخل والملح والزيت المخلوط بالصمغ المذوب، ثم يربطونهم من أرجلهم بأحبال قاسية، ويجرونهم مجردين من الثياب في الأرض المزروعة بالعوسج والنبات الشائك، وفي الأماكن المليئة

بحطام الزجاج والقرميد، حتى ظلوا شبه أموات.

أقبل الليل وأراد الملك أن يراهم في عذاب أكبر، فأمر السجانين بحراستهم جيدا، لكي لا يحاول المسيحيون أن يقوموا برد فعل ما. وفي هذه الليلة أضيء السجن المظلم كله بأضواء سماوية، وسمعت ألحان غنتها الصلاة الإنجيلية بمناسبة انتصار الأبطال المجيدين. سمح الله للحراس أن يشهدوا المعجزة، حيث رأوا القديسين مجردين من السلاسل وكيف أن أجسادهم علت في الهواء، ولما خافوا من هروبهم أخبروا الملك بكل ما حدث ونسبوا المعجزة السماوية إلى الفتنة الشيطانية، فقرروا القضاء عليهم. ذهبوا بهم مجردين من الثياب إلى أمير المؤمنين مثقلين بالسلاسل وسط إشهار كبير حتى يعلم الجميع مدى الدفاع عن رسولهم الخاطئ، فضربهم هؤلاء بالأحجار الكثيرة. واحتار الملك عندما رآهم يحتفظون بقوتهم رغم التعذيب الذي نالوه، وعاد إلى نصحهم بعدم المجازفة بحياتهم، وهددهم بنيل قسط آخر من التعذيب أشد قسوة، لكن القديسين عادوا بدورهم إلى وعظ الملك ومحاولة إقناعه بأخطائه للإيمان بالعقيدة الوحيدة والصحيحة ليسوع المسيح. فأدرك الملك أنه لم يكن يجني إلا ازدراءات للقرآن في كل الوقت الذي أضاعه، وعرى سيفه البربري متباهيا، وفصل بنفسه رؤوس القديسين الخمسة.

أمر الملك خدامه بجر الأجساد المباركة في الشوارع، ثم رميها في النار لتتحول إلى رماد. فنفذوا ذلك و لم يعلموا أن شراهة النار ستصيبهم، حيث وقعت عدة معجزات، منها تدخل خدام الأمير المسيحيين لصد النار عن رفات القديسين، حيث كان من الممكن أن ينتج عن هذا الإجراء عدة ضحايا. وقد مات واحد من هؤلاء الفرسان المسيحيين هناك يسمى فرناندو دي كاسترو، وهو الذي أتى بالقديسين الشهداء من إشبيلية، فكانوا سائقيه إلى الجنة.

أخبر أمير المؤمنين في الغد بكل ما حدث، فغضب مما فعله المسيحيون، وأمر بإحراق رفات القديسين من جديد، لكن النار الشرهة لم تحرق رفاتهم، وقد حاولوا رمي إحدى الرؤوس السليمة، أو المصابة بعض الشيء في النار عدة مرات لكنها كانت تحيد عنها، حيث لم يحترق الشعر من تاج الإكليل. ونتيجة لهذا الحادث اختلفت آراء المغاربة تجاه هذه المعجزة، رغم أنهم أناس مصدقون للخرافات. ولكي يحول الأمير دون هلاك المسيحيين المحتجزين، التمس من بعض المسلمين سحب الرفات المقدس بحذر وتجنب الخطر، و ذلك بإرشائهم ليكتموا الأمر، ولما استلمه منهم أمر بوضعه بعناية في صندوق، وعهد به إلى خوان روبيرتو، وهو كاهن قانوني و قسيس خاص لسانتا كروس

دي كويمبرا. وعندما خرج الأمير بعد أشهر هاربا من المغرب، وكان قد أنجز الصلح مع أخيه الملك دون ألفونسو، ذهب بالرفات معه إلى البرتغال، وهناك سلمه للمجيد سان أنطونيو دي يادوا. وقد أورد هذا الخبر في التواريخ الجديدة لمذهبنا صاحب السيادة المحترم السيد دون فراي داميان كورنيخو، أسقف كنيسة أورينتي، وفي هذه المصادر التاريخية يؤكد مذهبنا السعيد أن رفات المبشرين الأوائل كان حافزا لذهاب القديس سان أنطونيو إلى البعثة المقدسة.

لقد وقع الاستشهاد المجيد لهؤلاء القديسين الخمسة في 26 يناير من سنة 1220، أي في السنة الخامسة من جلوس البابا أونوريو الثالث على كرسي البابوية، وبخمس سنوات قبل وفاة الأب الأول المجيد، هذا الأب الذي قدر له أن يمنح في حياته وسام المجد لأبنائه الخمسة القديسين، حيث رضي بانتصارهم وأرسلهم بحنو إلى السماء، ثم قال: الآن يمكن أن أقول أني أملك خمسة أبناء حقيقيين وخمسة رهائن وجنودا ماتوا من أجل العقيدة. وأرسل ببركاته إلى دير النكير المقدس، الذي انطلق منه هؤلاء الرهبان المساكين إلى بلاد المسلمين وهم في زي التجار الأغنياء. وفي هذا الدير المقدس الذي لم يغب عنه قط راهب ورع وضع البابا سيكستو الرابع هؤلاء الرهبان الخمسة في سجل القديسين في يوم 16 يناير من سنة 1481، واعتبر يوم 16 يناير و هو اليوم الذي حدث فيه موتهم المجيد يوما من أجل الصلاة والذكرى.

إن ما يؤكده مذهبنا هو أن هؤلاء الخمسة كانوا هم الآباء الأوائل ورؤساء بعثاتنا إلى المغرب، وهم الذين اكتشفوا هذه المنطقة البربرية، وبقي علينا نحن واجب غزوها.

- **عقاب الله لمملكة المغرب ولأمير المؤمنين من أجل موت القديسين وبناء خمس كنائس في عهده :**

رغم أننا لا نعلم شيئا عن الإرادة الإلهية في مجازاة عباده، إلا أن الله يعاقب بعدالته الصارمة الذنوب، ويسامح برحمته الخطايا، حيث يغفر للمذنبين برأفته ورعايته ولطفه فحشهم. ولا يستحق المسلمون العميان الرحمة الإلهية، لأنهم جاحدون ولم يعيروا أذنا صاغية للتبشير الإنجيلي لهؤلاء الرهبان الخمسة. فعاقب الله جحودهم بعدله الصارم، ثم أمطر عليهم رحمته لأنهم كانوا سببا في استحقاق هؤلاء المستشهدين للجنة.

عاش المغرب الجاحد منذ الموت المؤلم للقديسين عقابا دام خمس سنوات، نتج عنه جذب في جميع المحاصيل، فكان ذلك سببا في انتشار المجاعة والفقر والوباء، ومات عدد

كبير من الرجال والماشية. لقد كانت مدة العقاب وملابساته موازية لعدد الرجال الحواريين الذين قتلوا. وفي السنة نفسها أصيب الملك بالعجز في جانبه، وفي اليد التي أشهر بها سيفه وقطع بها الرؤوس الخمسة المباركة حتى أسفل رجله.

ظل جانب الملك مشلولا، ورغم ذلك كان يعاني من الآلام الصعبة التي لم يجد لها الأطباء علاجا ولا مسكنات لتخفيفها. وبالإضافة إلى كل هذه الهموم، أثار المتمردون الفتن في حدود الجبال، أما المسالمون الذين لم يتمردوا، فقد كرهوا الملك الذي كان لا ينام من شدة التعب. اندهش الجميع من هذه الفوضى التي عمت في المغرب، ونودي في العامة، أن الفقر والحاجة التي يعانون منها، هي عقاب عادل يستحقونه نتيجة للأفعال السيئة التي عاملوا بها القساوسة، وقتل الملك لهم رغم كونهم رجالا فضلاء وقديسين. فاهتز العوام بسهولة وانقسموا إلى طوائف، و أعلن البعض منهم أنهم بريئين من الذين قتلوا السيئين، وأعلن الطرف الآخر الذي كان يمثل الأغلبية أن أولئك القديسين كانوا طاهرين. ولما علم الملك بما وقع بين أفرادِ شعبه، خاف أن يؤدي ذلك إلى تمرد ما، أو إلى اتهامه في وعيه الخاص. فهو في رأي العامة كثير الأخطاء، رغم أنه يتراجع عنها.

لقد عانى الشعب كثيرا من هذه النكبة، التي اعتقدوا أنها عقاب من الله نتيجة للمظالم المنفذة في حق القديسين، على الرغم من أن عميهم لم يسمح لهم بالاقتناع بأخطائهم. وقد عرفوا بطريقة ما أن الله قد أراد منهم أن يصلحوا ظلمهم الذي ارتكبوه، فذهبوا بأفواج كثيرة العدد إلى الأماكن التي عانى فيها القديسون، وهناك صرخوا بصيحات غامضة، وتأوهات متحسرة يطلبون من الله الرحمة، ويتوسلون بالشهداء الذين يعتبرونهم مقدسين رغم اختلاف الديانة.

استجابت المشيئة الإلهية لتوسلاتهم، لكي يعرفوا سبب عقابهم، ويقتنعوا بأخطائهم، ويدركوا أن الذين تدخلوا من أجل إيقاف هذا العقاب كانوا قديسين. ومنذ تلك اللحظة التي توسلوا فيها إلى الله جادت السماء بأمطار هادئة سقت الحقول واستبشرت بها الأرض، وهدأت الريح، وقل الوباء إلى أن باد كليا. وهكذا صدقوا جميعا أن العقاب كان نتيجة للتعذيب الوحشي الذي ناله القديسون الطيبون، فاجتمعوا في حشر كثير العدد، وذهبوا إلى القصبة، والتمسوا من الملك أن يعرف أن عقاب الله و رحمته التي ذاقوها، هي من أجل هؤلاء الرهبان الذين يجب أن يسعى إليهم بنوع من الرضى، لكي يرفع الله عقابه عنهم وتستمر شفقته عليهم.

ارتبك الملك من سماعه هذه الأمور، وغدا خائفا مما كان قد رآه بنفسه وأكده شعبه بهذا الالتماس. وبذلك قال وسط العامة أنه يجيز بناء معابد أو كنائس عامة في مملكته، بحيث يمكن للمسيحيين أن يجتمعوا فيها ليعبدوا الله و يؤدوا شعائر عقيدتهم على غرار مذاهب كنيسة روما، ويشرف عليهم أسقف أو مطران من نفس مذهب الرهبان الذين قتلهم. وقد بنيت خمس أديرة تبعا لعدد الذين قتلوا وعدد أعوام النكبة. وهكذا رضي المسيحيون الموجودون والرهبان بهذه المعابد التي أمكن لهم أن يحتفلوا فيها بمقدساتهم وأعيادهم، حيث منحهم الملك الأمان، ونفذ هذا القرار. لقد أراد الله أن يكفر الملك بنفسه عن الحادثة، لكي يستمر خوفه من عقابات مشابهة، ويؤكد هذا سماحه بإقامة هذه الكنيسة المقدسة.

يتفق مؤرخونا على أن الملك أجاز إقامة خمس كنائس، ولم يذكروا الرأي المغاير الموجود. لقد اكتشفت أنه رغم إذن الملك، فإنه لم تقم خمس أديرة، و لكن كان هناك دير واحد وأربع ملاجئ أو معابد في مناطق مختلفة كان يوجد فيها الأسرى والمسيحيون، الذين اعترفوا أنهم كانوا يملكون حقا مذابح، وراهبا يدير المقدسات كما يحدث عندنا اليوم. لقد شكل هذا الدير إذن رأس البعثة والشكل الوحيد للجماعة، ووجدت معابد في أماكن أخرى وملاجئ في مدن مختلفة، وخاصة في الأماكن التي وجد فيها الأسرى.

وهكذا يتبين حقا أنه لم يبق من ذكر هذه الكنائس الخمسة إلا كنيسة واحدة هي التي وجدها مبشرو إقليمنا في هذه المنطقة من بعد، وحافظوا عليها لعدة سنوات. أما الكنائس الأربعة الأخرى فلم نعثر لها على أثر لا عند المسيحيين، ولا المسلمين، ولا اليهود. وفي هذا المعبد عثر المبشرون القدماء على كثير من الآثار التي تدل على حضور أساقفة المذهب بعد الخمسة الشهداء الأوائل، حيث كانت هناك عدة صلبان مصبوغة معلقة على حيطان الكنيسة. ومازال رهبان إقليمنا يجدون بعض الزينات الأسقفية كالعباءة وأشياء أخرى تركها المسيحيون والأساقفة الأوائل، ويدل قدمها على الزمن الذي استعملت فيه.

و يضاف إلى كل هذا ما ورد النشرة البابوية التي وجهها إنوسينسيو الرابع إلى فراي لوبو الأسقف الثاني للمغرب، وإلى جميع المسيحيين المتواجدين في هذه المملكة في سنة 1246، أي في السنة الرابعة لبابويته، و يبدأ بقوله: "إلى الفاضل السامي" ثم يختم بقوله: "أقدس الكنيسة المنفردة والمنتصبة وحيدة في هذه الأنحاء، وهي ابنة الكنيسة الرومانية الراعية الخاصة لها". ومن هذا كله يستنتج أنه لم تكن هناك أكثر من كنيسة واحدة تمتلك

شكل دير وجماعة، وهي هذه الكنيسة العريقة في القدم التي أقامها المسيحيون القوط في ميدان صغير مجاور للقصر، وهو المكان الذي شهد موت الشهداء الخمسة الأوائل. أما الكنائس الأربعة الأخرى، فلم يوجد عنها أي خبر، رغم أنه ليس مهما في سياق التثبت من عدد الكنائس أن نملك الهيئة الشكلية للكنائس الحوارية أو الأديرة، إذ يكفي أن نعثر على مصليات كانت تؤدى فيها الشعائر المقدسة.

ذكر دون لويس دي مارمول في وصفه العام لإفريقيا أن الفرسان القوط المسمون بالمستعربين أثر فيهم كثيرا التصرف الوحشي الذي عامل به الملك هؤلاء القديسين. ورغم أن الأسرى لم يكن في مقدورهم التعبير عن شكواهم، فإنهم استغلوا الفرصة حينما كان الملك خائفا من الأحزان التي مرت به، ومن التمرد الذي كان يمكن أن تقوم به هذه العائلات النبيلة، وأعلنوا له عن طلبهم الذي وافق عليه. وفي هذا الصدد، طلبوا منه الإذن للإتيان برهبان من مذهبهم يعيشون معهم، ويديرون كنيستهم وديرهم، ويحتفلون معهم بالشعائر وباقي المسيحيين التابعين لمذهبهم. وهكذا أتى الرهبان متجملين بالتنورات المقدسة التي كان يلبسها الشهداء، و قد كانت المرة الأولى التي رأوا فيها ذلك، فكتبوا إلى المذهب يطلبون إرسال العمال. ومنذ ذلك الحين، ظل الرجال المقدسون يأتون لوقت طويل إلى هذه الكنيسة العريقة في القدم، حيث كان يوجد ديرهم ومسكنهم، ومن بين الذين أتوا إليها القديس دانييل ومرافقيه الذين استشهدوا فيما بعد في سبتة.

ويتفق تحليلنا التاريخي مع رواية هذا المؤرخ، والتي لا تتعارض مع بعضها البعض، بحيث أن كل ما أشرنا إليه سابقا ممكن حدوثه، كالتماس الفرسان المستعربين تأسيس الكنيسة، وقلق الملك من النكبات، ومن صخب الشعب، وأمره العالي بحضور الرهبان، وإقامة الكنائس الخمسة. إذ أنه جد محتمل أن يخضع لرغبة الفرسان القوط للعيش في هذه المنطقة على عادة الأقليات، وذلك بمنح الحرية للرهبان في مملكته، وإقامة خمسة منازل عامة تبعا لعدد القتلى وعدد سنوات النكبة. وبما أن هؤلاء القوم يصدقون الخرافات، فإنهم اعتقدوا الحظ في رقم خمسة، فإذا أكلوا فإن الصحون تكون خمسة، وكذا الشأن بالنسبة إلى أشياء أخرى. لقد عهد الملك إلى هذه الفرسان بأن يكتبوا إلى المذهب لاستدعاء الأساقفة، ومن المؤكد أن بعضهم قد أرسل هذا الطلب، ولم يرسله المسلمون، ولا الأمير دون بيدرو الذي كان الشخصية المؤهلة لذلك. لأن أمير المؤمنين منح الإذن بوجود الكنيسة بعد موت الشهداء بخمس سنوات، وتؤكد جميع الأخبار التاريخية أن الأمير خرج من المغرب بعد موت الشهداء مباشرة، وذهب إلى أوربا

بالرفات المقدس، وأنه منذ ذلك الوقت شب في المغرب وباء الطاعون الذي طال خمس سنوات. ومن هنا نستنتج صحة خبر دي مارمول الذي يفيد أن المستعربين هم الذين كتبوا للمذهب للمساهمة في تأسيس الكنيسة.

وإذا كان حقا ما قدمه المذهب من فضل لهاته العائلات، فإنه من الواجب أن نقر بالامتنان لفاعليه الطيبين. لقد كان في مملكة طليطلة ستة كنائس تنسب للمستعربين، وكان يحتفل فيها القوط القدماء لإسبانيا بالقداس والعمل الإلهي حسب ما أمر به القديس إزيدورو. وبعد استرجاع إسبانيا من يد المسلمين وتحولها إلى بلاد مسيحية رومانية تنوسي مذهب المستعربين، ولم يعد يستذكره إلا الفرسان القوط المستعربين. لكن السيد السامي د. فر. فرانسيسكو سيسنيروس راهب مذهبنا ورئيس الأساقفة ارتأى أن ذاكرة هؤلاء الفرسان يجب أن تبقى حية في هذه الاحتفالات القوطية، ولذلك بنى ؟كما يقول مارمول؟ في هذه الكاتدرائية المقدسة مصلى سمي باسم السيد سيسنيروس، حتى يستمر فيه ذكر هؤلاء النبلاء المستعربين الذين طلبوا تأسيس الكنيسة المقدسة بالمغرب.

- **ذهاب مبشرين جدد من مذهبنا إلى المغرب بإذن أمير المؤمنين :**

بعد الاستشهاد المجيد لشهدائنا الرهبان الأوائل، وبعد سماح أمير المؤمنين بإقامة الكنيسة في المغرب، ونظرا لحاجة الأسرى هناك إلى الرهبان، قرر البابا السامي أونوريو الثالث-باعتباره راعيا عالميا؟ إرسال العمال إلى المغرب لإسعاف العدد الكبير من الأسرى، من أجل رعايتهم الروحية والحفاظ على العقيدة. وهكذا وفي سنة 1224 عين راهبين مبشرين، واحد من العائلة الشريفة للمبشرين يسمى فراي دومينيكو أو فراي دومنكو، وآخر من مذهب الصغار يسمى فراي مارتين. ولم أستطع التحقق من ذهاب هذين الراهبين إلى المغرب، لأن المؤرخ اكتفى بذكر تعيين البابا لهما، ولم يضف إلى ذلك أي شيء. فمما لا شك فيه أنهما انشغلا ببعض الأعمال أو ماتا في الطريق.

وفي سنة 1225، أي في السنة العاشرة من بابويته، عين أونوريو الثالث رهبانا جددا لإسعاف الأسرى في هذه المنطقة، ووجه رسالة بابوية بقوله في هذا الشأن وجهها إلى عائلتي البطريكين المقدسين دومينكو و فرانسسكو اللذين كلفهما بهذه المهمة الصعبة لكي يفوز بالجزاء الجميل الذي يتمناه من خلال هذه المهمة الروحية. إذ تبين من بعد أن هاتين العائلتين كانتا تستحقان رضى الأب الأعلى للكنيسة.

ومن ثم فمنذ سنة 1225 أرسل الكرسي الحواري البعثات التبشيرية إلى مراكش وفاس

وباقي أقاليمه، لتقيم هناك ممتلكاتها بإذن من أمير المؤمنين. وتتمثل الامتيازات التي منحها الكرسي الحواري لهؤلاء المبشرين في: الوعظ إطلاقا بالإنجيل المقدس، وإدارة التعميد المقدس للمهتدين الجدد، ومصالحة المرتدين وذلك بإدخالهم في سر الاعتراف، ومعاقبة الثوار على الكنيسة المقدسة الرومانية، وعدم السماح لأي مسيحي بإخراج المبشرين من هذه المملكة تحت ضغط التعذيبات.

ووضح البابا في النشرة البابوية نفسها الأهداف الأساسية التي أرسل من أجلها الرهبان إلى هذه المناطق، وهي التبشير بشريعة يسوع المسيح ضد ضلالات محمد بدون انتظار إذن من العوام أو من الملوك، ثم الدفاع عن ثوابت الشريعة، والسير في اتجاه توسيع أمجاد الصليب. وأملك خاتمة هذه النشرة التي سأوردها عندما تأتي المناسبة، ويقول فيها: "يرسل الكرسي الحواري إلى مملكة أمير المؤمنين الحواريين الإنجيليين لكي يقوموا باسم المسيح بمهمة هداية الكفار وتوجيه العاصين ومساعدة الضعفاء ومواساتهم وتشجيعهم".

لقد وعى هؤلاء الرهبان المهمة الروحية التي كلفهم بها الكرسي الرسولي وذهبوا إلى عاصمة أمير المؤمنين، وهناك استقبلوا من قبل الأسرى المكتئبين ومسيحيين آخرين استقبال الرسل، لأن هؤلاء الرهبان بفقرهم وعريهم وتواضعهم وحماستهم ومجموع فضائلهم يشبهون المعلمين الأوائل للعقيدة. وهكذا حصلوا على حيازة هذه الكنيسة القديمة باسم الكرسي الرسولي للمذهب الملائكي وسموها باسم مريم القديسة. ولست متأكدا ما إذا كانت الكنيسة قد سميت من قبل بهذا اللقب المجيد، ولكني أعرف أنها سميت به قديما في الفترة التي وجد بها المسيحيون الأوائل كما ينقل المؤرخ عن الدروس الثانية لعمل الشهداء القديسين لسبتة، فقد ورد فيها أنهم أحضروا رفات هؤلاء القديسين في هذه الفترة إلى مراكش، ووضعوه في كنيسة مريم القديسة.

ولا أملك في هذا السياق خبرا شخصيا عن كثير من النتائج الروحية التي حققها الرهبان. ولكن نستطيع أن نستنتج من خلال الإطراءات التي تفضل بها الباباوات على الرهبان الأوائل، والذين تبعوهم في هذه الأنحاء، أنهم حققوا نتائج إيجابية لصالح الكنيسة. فقد هدوا كثيرا من المسلمين والمرتدين، وأصلحوا كثيرا من العادات السيئة التي دخلت إلى هذا الأسر بسبب الجهل، كما يتبين من خلال ممارساتهم في الحياة الاجتماعية، وأسعفوا المرضى بالأدوية الروحية والجسدية. فكانوا يزورون الأسرى في

السجون البربرية المظلمة ويسلونهم و يحتفلون معهم بالمقدسات، وفي كثير من الأحيان يتدخلون من أجل فديتهم وإطلاق سراحهم. وقد امتد إسعافهم الديني خارج مراكش، وذلك حيثما وجد المسيحي، واستدعت الحاجة إلى نجدته، وهكذا كانت حياتهم عملا رسوليا وحماسيا مستمرا.

ولكي يتمكن الرهبان من إنجاز مهامهم المقدسة وجب عليهم الالتزام بثلاثة أشياء ضرورية وهي :

أولا : تهذيب لحية عريضة لملاءمة عادة أهل هذه الأرض، ولو أن اللحية ليست عنصرا أساسا لممارسة التبشير، فإنها ضرورية، لأن غير الملتحي لا يحظى باحترام المسلمين من جهة، ومن جهة أخرى فإن اللحية تسعف الرهبان في حالة تنكرهم في أزياء المسلمين أو الأسرى لتحقيق بعض الإسعافات أو بعض الأهداف الروحية.

ثانيا : استعمال اللباس الدنيوي بدلا من بدلة الرهبنة، من أجل قضاء كثير من الحاجات.

ثالثا : استعمال النقود في مجال الرعاية الإنسانية. فرغم أن مذهبنا يحرم علينا هذا الاستعمال، فإن ظروف تواجدنا بين الأعداء تلزمه ذلك. ومن أجل تفادي الشكوك حول هذه المسألة، فإنهم أرسلوا إلى البابا السامي أونوريو الثالث يستفتونه باعتباره المشرع الأعلى والمطلق. وهكذا تكرم قداسته بإرسال رسالته البابوية المختومة التي أعفاهم فيها من الالتجاء إلى الكرسي الحواري لاستشارته في مثل هذه الحالات التي تفرضها الظروف الصعبة في هذه الأرض. وقد وجه هذه الرسالة في 1226 في السنة العاشرة من بابويته، وبما أنها تسعف في معالجة كثير من الأمور فإنني أوردها في هذا السياق كما أتى بها مؤرخنا: "من جانبنا نقترح في حضوركم أن تتحملوا تطوعيا ما يكلفكم به الكرسي الحواري لصالح إنقاذ الكثيرين. ولهذا الغرض غيروا لباسكم، وربوا لحيتكم، لا لتخيفوا الناس بشراسة مثل الأزمان السابقة. فساعدوا المسيحيين وقوموا بزيارتهم في السجن وأنقذوهم في أنحاء أخرى، لكي تقودوهم إلى التوبة، ورحبوا بهم كثيرا، وبينوا لهم المقدسات الإكليروسية. وبما أنكم في هذه الأرض لا يمكن أن تلاقوا أشياء سارة، فإنكم لن تكتفوا بالخبز بل ستلجأون إلى المال لإعانة الفقراء، وستدفعكم الحاجة الكبيرة إلى تلقي الإعانات. وإذا كان المال أو توزيع الطعام يمكن أن يكون ضد مذهبكم، فإنه يجوز لكم الاعتذار بسبب ضغط الحاجة التي لا مناص منها، وأيضا بسبب

الإيجابيات البينة لهذه الوسائل. ومع ذلك فعندما تخشون من أعمالنا هذه اطلبوا بتواضع حكم القاضي، وأبلغوا ذلك إلى الكرسي الحواري بأمانة وصراحة. إذن منذ قضية دافيد في حضور الملك أبو مليش تقرأ كما هي العادة عقيدة الإشارة للحواريين الذين ذهبوا إلى إيماوس، فوقع في نصيبهم الخبز الذي كان حلالا عليهم أكله ما دام استنكر على الفريسيين لأنهم يأكلون الخبز وأيديهم غير نظيفة.

نحن نثني على عملكم منتظرين إنجاز الواجب المعروض عليكم، فميلوا إلى التماساتنا في هذه الأنحاء. كما أدعوكم إلى فائدة بياناتنا، وإلى التشبث بالورع طالما لا يتدخل بينكم الاحتيال والخداع. وأملنا في نزاهتكم."

- **تفرد مذهبنا بإقامة هذا الدير الأول بين الكفار، وعدم ذهاب رهبان المذاهب الأخرى إلى المغرب :**

لعله ليس من الخطأ أن يفرط المؤرخ في تقويم الحقائق التاريخية، بل من واجبه أن يقوم بهذا العمل، وإذا لم يصل إلى تحقيق النتائج الموجودة، فاجتهاده يحمد له. وأملي هنا أن أستقصي بعض الحقائق التي شككت في صحتها. وعلى الرغم من أنني لا أستطيع الجزم بمعالجتها، فإنني لا أتركها للآخرين، وإذا لم أصل إلى تحقيق الهدف، فهذا لا يعني إغفالا مني، ولكن لأن هذا العمل اشتغلت به في مدينة تطوان، حيث لم تتح لي الفرصة للاستشهاد بمؤرخين أكثر، ويكفيني هنا أن يوصلني مجهودي المتواضع إلى الموعود، وهو الطاعة، أما استقصاء الحقيقة التاريخية بشكل مؤكد، فإنني لا يمكن أن أعد به.

هناك واقعتان تاريخيتان مشبوهتان لم يعالجهما مؤرخونا، وحفزاني لصياغة هذا الفصل، تتعلق الواقعة الأولى ببعثاتنا التبشيرية التي أهتم بها كثيرا، ولذلك لا أحب أن أتهم في التأريخ لها بأي إهمال. وهكذا تؤكد جميع الأخبار التاريخية أن مذهبنا أقام الكنيسة في مراكش في سنتي 1225 و 1226، وقد ذهب الأب سان فرانسيسكو وأبناؤه في بعثات مختلفة إلى إسبانيا التي كان الجزء الأكبر منها آنذاك محتلا من قبل المسلمين، وإلى مصر، وسوريا، وفلسطين، والأرض المقدسة، وفي كل هذه الأقاليم التي كان يحكمها المسلمون أقامت البعثات كثيرا من الأديرة، ولا تشير هذه الأخبار ما إذا كان دير مراكش هو أول دير أقامه المذهب في أراضي الكفر. رغم أن الأهم في هذا السياق هو أن يؤدي المذهب عبادته باسم المسيحيين بين الأعداء القاتلين، وهذا يعد مأثرة كبرى تشرف الدير أينما وجد.

وسنسجل هنا المجهودات السنوية التي قام بها مذهبنا والأديرة الأولى التي أقامها.

وقد عثرت على دير واحد أقيم بخمس أو ست سنوات قبل دير مراكش في منطقة أنطاكيا، والذي يمكن عن طريق الخطأ أن يذهب بالمجد القديم لبعثاتنا. وبما أن هذه الأقاليم كانت محتلة من قبل المسلمين، فيمكن أن نشك ما إذا كان هذا التأسيس الذي أقامه الأب في سنة 1220 كان في هذه الأرض، ولكي نستقصي ذلك بوضوح سنروي الحدث.

في منطقة أنطاكيا التي توجد في حدود سيليسيا وسوريا، هناك جبل يسمى اليوم الجبل الأسود، ويسمى قديما عمان، وقد وجد في هذا الجبل دير للمذهب المجيد لسان بينيتو، يعيش فيه كثير من الرهبان حياة مثالية، ويشرف عليهم رئيس ورع قديس، نادى قبل وفاته جميع رهبانه، وقال لهم بروح رسولية : بعد أيام من وفاتي سيأتي إلى أبواب هذا الدير رجل متواضع فقير وحقير في أعين العالم، لكنه محبوب ومحترم عند الله، لأنه يتحلى بفضائل متفردة، جدير بكل تقدير، وأب لعائلة واسعة أنتجت كثيرا من القديسين. ومات الرئيس القديس، وبقي الرهبان يأملون رؤية الرسول القديس.

حان الوقت الذي ذهب فيه بطريكنا لزيارة الأماكن المقدسة، ووعظ مسلمي مصر ودمشق بالشريعة والكلمة المهذبة، ومر خلال رجوعه من هذه البعثات بالجبل الأسود واقتاده الإلهام السماوي إلى هذا الدير. وعندما رآه هؤلاء الرهبان القديسون عرفوه من خلال هيئته الفقيرة وتواضعه وباقي فضائله المعروفة. واستقبلوه بموكب وفرح شديد. واتبع كل من في الدير عبادة مذهبنا، ووقع كل هذا في سنة 1220 أي خمس سنوات قبل قيام دير المغرب.

وأقف عند هذه النقطة لأقول بكل وضوح: رغم أن المسلمين في هذه الفترة كانوا يحتلون كثيرا من الأقاليم المجاورة لسوريا، لكنهم لم يحتلوا المنطقة التي كان يوجد فيها الجبل الأسود التي كانت تحت سيطرة المسيحيين، ولم تنتزع منهم إلا بعد واحد وستين سنة من الغزو. فلقد غزا عمر؟ و هو القائد الثاني من بين الأربعة الذين عينهم محمد؟ جميع هذه الأقاليم المسيحية المنكوبة في سنة 643؟ كما جاء في الكتاب الأول؟ وظل المسلمون يسيطرون عليها حتى سنة 999م، وهي السنة التي استعاد فيها المسيحيون كثيرا من هذه الأراضي، التي كان من بينها هذا الإقليم السوري أنطاكيا، بحيث سيطروا عليه من سنة 999 إلى 1291، ثم انتزعه منهم في هذه السنة السلطان الكبير سيراف الذي غلب ملك قبرص إينريكي ودحره إلى المدينة المشهورة بطوليما في فلسطين بواسطة جيش قوي تكون من مائة وسبعين ألفا من المشاة وستين ألفا من الفرسان. ومن هنا نستنتج أنه إذا

كان المسيحيون امتلكوا هذا الإقليم من سنة 999 إلى 1291، والدير الذي أقامه البطريك القديس كان في سنة 1220، فهذا يعني أن هذا التأسيس لم يكن في أرض الكفار، رغم سبقه لدير المغرب بخمس سنوات، هذا الدير الذي يحتفظ بفضل السبق والمجد باعتباره أول دير أقامه المذهب في قلب بلاد الكفر، حيث رفع به الحواريون الفرنسسكان راية الصليب وبشروا بشريعة يسوع المسيح، وضحوا من أجل الإله، وأدوا الشعائر الكنسية الرومانية المقدسة .

التحفظ الآخر أثاره حبي الكبير الذي أكنه لبطريكنا المجيد وأبينا القديس دومينكو الذي أجد في مذهبه الحواري المجد والقانون والقدرة. لقد عين أونوريو الثالث في سنة 1225 رهبانا مبشرين للذهاب إلى المغرب من عائلة الواعظين وعائلة الصغار، وأريد أن أعرف في هذا السياق ما إذا ذهب أبناء الأب القديس دومينكو مع هؤلاء الرهبان. إذ يستشهد مؤرخونا بهذه النشرة البابوية لكنهم لا يؤكدون ذهابهم أو عدمه، ولا يشيرون إلى مهامهم الفاضلة في حالة ذهابهم. وأريد أن أستقصي هذه النقطة من أجل المجد الذي حققته بعثاتنا ورهباننا، ولذلك استشهدت في سياق هذا المسعى ببعض المؤرخين الذين ظننت أنهم سيحيطون بالموضوع، لكنهم لم يفعلوا، ومن ثم سأذكر الأخبار التي وجدتها، وسأترك القرار لأكثرها دلالة.

جاء في التاريخ العام للمبشرين أن الأب المعلم فراي فرناندو كاستيو راهب أبينا سان دومينكو عين بعثة كبيرة مؤلفة من العائلتين. ومقارنة مع حماس الحواريين المقدسين، فإنهم انتشروا في عدة مناطق، وتقول الرسالة ما يلي: "بهذه الروح ذهب الرهبان القديسون إلى المغرب لهدايتهم إلى العقيدة، ودخلوا إلى الأندلس، وإفريقيا، وماتوا في سبيل الدعوة. وبهذه الروح نفسها ذهب أبناء سانطو دومينكو لهداية الأرواح الوثنية، فقاموا بكثير من الأسفار، وحققوا كثيرا من الأعمال والمفاخر المشهورة، واستشهد الكثير منهم" . ثم يضيف الكاتب بعد ذلك، أنهم انتشروا في اليونان، وهنغاريا، وفنزويلا، وأثيوبيا، وسوريا، وبلاد التتر، وكثير من المناطق التي يوجد فيها البربر والكفار. ولا يذكر ما إذا دخلت البعثات إلى المغرب في هذه الفترة أم لا . ثم يقول أيضا : وهكذا ذهب الرهبان الصغار واستشهدوا هناك. ومن هنا فإني لا أعرف ما إذا كان المؤرخ قد أغفل ذكر المغرب، وهو العالم المتضلع والمؤرخ لمذهبه، ولو كانت البعثة ذهبت إلى المغرب لذكر ذلك، لأنها لم تكن أقل مجدا من الأخريات.

ويورد في الفصل نفسه رسالة لسان رامون أو رايهوندو دي بينيافورت إلى قائد مذهب المبشرين، يقول فيها القديس : "انتشر رهبان المذهب بالتبشير في أرض إسبانيا التي كان القسم الأكبر منها محتلا من قبل المسلمين، وفي شواطئ إفريقيا، وحققوا هناك كثيرا من الفوائد لصالح المسلمين والمرتدين والأسرى، ولذلك فإنهم عانوا كثيرا من القتل".

ويذيل المؤرخ رسالة القديس بقوله : "لقد عانى كثير من الرهبان المبشرين من القتل في مختلف مناطق الكفار مثل اليونان والأرض المقدسة، وتونس وأماكن أخرى من إفريقيا". ولم يذكر موضوع البعثات والمستشهدين في المغرب، مع أنه ذكر المنطقة القريبة منها تونس، وأشار إلى استشهاد فر. أنطونيو دي ريبوليس فيها وإلى جميع أنحائها، وكذا إلى القديسين والمستشهدين الذين ماتوا فيها.

حقيقة أن الوصف في رسالة أونوريو الثالث المؤرخة سنة 1226 يقول فيها مايلي:"يأمركم الكرسي الحواري أيها الأخوة المبشرون بالاستقرار في هذه المملكة". وفي هذه الرسالة فرض على رهبان هاتين العائلتين الذهاب إلى هذه المملكة. ولكن لا نستطيع أن نستنتج من هذا فقط أنهم ذهبوا إلى المغرب. ولكي نؤكد (على كلمة استقرار)، فيكفي أنهم وجدوا في تونس وأماكن أخرى من إفريقيا كانت تابعة لسلطة المغرب، ويجزم بهذا التواجد الأب كاستيو. كما يقال في تواريخنا أنه وجد راهب للأب سانتو دومنكو في سبتة في الفترة التي قتل فيها الشهداء القديسون، و قد كانت سبتة آنذاك تابعة لمملكة المغرب.

لقد توخيت أن أمنح لبعثاتنا شرف إرسال كثير من القساوسة إلى هذه الكنيسة المقدسة، لكنني لم أستطع، ولا أريد أن أورد هنا إلا الموثوق به. وحسبي أنني قمت بهذه الاجتهادات المتواضعة، التي تعبر أكثر عن هذا المجد.

- **ذهاب القديس دانييل ومرافقيه في بعثة المغرب وموتهم مستشهدين في سبتة :**

ثار بين المؤلفين القدماء جدال كبير حول السنة واليوم الذي استشهد فيه القديسون. ويروي المؤرخ فادينكو عن اثني عشر كاتبا ذوو مرجعية أن هؤلاء القديسين ماتوا في سنة 1221، حيث عين البطريك القديس فراي إلياس للمرة الثانية نائبا رسوليا عاما للمذهب، إذ تقول الدروس الثانية لعمل هؤلاء القديسين إنه عمل أبا خلال مدة ظرفية على الرغم من أنه سمي في هذه الدروس نفسها أسقفا رئيسا. وذهب كتاب آخرون ليسوا أقل مرجعية إلى أن هؤلاء القديسين قتلوا في سنة 1227، أي بعد سنة من موت الأب فراي إلياس الذي كان يدير المذهب باعتباره الأسقف الرئيس المطلق، ونعثر على هذا الرأي نفسه في كتاب

صلوات القساوسة للمذهب الذي نتداوله اليوم وفي عقائد الدروس الثانية. ورغم أن مؤرخنا يعتمد على الرأي الأول، فيجب علي أن أتبع الرأي الذي يحفظ تناسق التواريخ.

لقد حقق ديننا الملائكي نتائج جيدة من خلال استشهاد أبنائه الأوائل، وكان المغرب بالنسبة إليهم منطقة مهمة من أجل تثبيت راية الصليب، ومواساة الأسرى المسيحيين، وتقوية الجنود الشجعان من الناحية الروحية، واستمرار العقيدة. إذ لما أعلن المذهب قراره، كرس كثير من الرجال الحواريين حياتهم للتضحية. وكان فراي إلياس هو الذي يدير كل المذهب، واختار من بين أولئك الذين استعدوا للتضحية سبعة رجال ذوو فضائل حسنة، وهم: فراي أنخيلو، وصامويل، ودنولو، وليون، وهوكولينو، ونيكولاس، وفراي دانيال دي كالابريا الأسقف الإقليمي الذي كان قائدا لهؤلاء الجنود التائبين الذين ارتدوا لباس التقشف، ولم يبالوا بالحيل الإنسانية.

وبعد أداء فروض الطاعة لقائدهم، ذهبوا إلى إسبانيا، وهناك ركبوا السفينة التي أبحرت بهم إلى المغرب. وعند وصولهم إلى طراكونة، ارتأوا أن يتجهوا إلى سبتة لأنها هي الميناء الأول لإفريقيا، وباعتبار موقعها الاستراتيجي في المغرب وقربها من شواطئ إسبانيا، فهي مزدحمة بالتجار الأفارقة والأوربيين، ولذلك كانت منطقة مناسبة لمعاملاتهم. وكان يحكم سبتة آنذاك مسلم متوحش يسمى أربالدو، ويسميه فادينكو حاكما، إلا أنه كان نائبا لأمير المؤمنين ملك المغرب. وأريد هنا التأكيد أنه رغم استشهاد هؤلاء القديسين السبعة في سبتة، فقد كانوا رهبانا مبشرين أرسلهم أسقفهم الأعلى لمواجهة هذا القضاء، لأن سبتة كانت آنذاك تحت سيادة المغرب، وقد توسعت البعثات آنذاك في مختلف مناطقه. ويتأكد ذلك في الرسالة التي أرسلها نونو كريكوريو إلى أمير المؤمنين عن طريق فراي أنخليو، والذي يسميه فيها أسقف فاس. وفي رسالة أخرى وجهها لهذا الأسقف إنوسينسيو الرابع بمناسبة ترقيته، يسميه أيضا أسقف مراكش. ومن ثم يستنتج أن البعثات توسعت في جميع أراضي المغرب التي كانت سبتة تابعة لها. ويبقى علينا في هذا السياق أن نثبت انتماء هؤلاء الرهبان السبعة إلى بعثاتنا التبشيرية.

لقد كان يشتغل بالتجارة في سبتة مسيحيون أوربيون من فرنسا وجنوة والبرتغال، ويعيشون في حي واحد يسمى ألهونديكا أو ألفونديكا. وعند وصول هؤلاء الرهبان الجدد آووهم وأكرموهم، رغم تخوفهم مما قد يلحق بمصالحهم من ضرر. وتأخر ثلاثة مرافقين في طراكونة، كانوا ربما منشغلين ببعض المغامرات الروحية. وعند مجيئهم قاموا بوعظ

هؤلاء التجار المسيحيين الذين ابتعدوا عن العادات الروحية الجيدة نتيجة لانشغالهم بمصالحهم التجارية، وتأثرهم بفساد الأرض التي يعيشون فيها، رغم أنهم كانوا يملكون قسيسا وراهبا لأبينا سانطو دومينكو، وراهبا آخر من مذهبنا لكن هؤلاء لم يحسنوا التصرف، وهداية هؤلاء المسيحيين.

اجتمع جميع المبشرين بعد وصول مرافقيهم للتباحث حول أهداف البعثة، واتفقوا على أن حماستهم التي دفعتهم للمجيء إلى المغرب لن تنسيهم الوصول إلى النتيجة التي وصل إليها أساقفتهم الأوائل وهي الموت في هذه الأرض، والتبشير بالشريعة، مادامت المناسبة ملائمة. فوعظهم الأسقف فراي دانييل بخطبة مشجعة، وأصروا على استعدادهم لمواجهة المخاطر والصعوبات. وعرض عليهم أيضا الجنة باعتبارها الجزاء الذي سيناله من عند الله المكللون بالإيمان والزاهدون والمنقذون للأرواح، وهكذا شجع الجميع بقوة لمواجهة ما ينتظرهم من نفي وتعذيبات .

وعند نهاية هذه الخطبة تأكد الأسقف من اقتناع أبطاله، وامتلائهم بالحماس، ورباطة الجأش، والجرأة من أجل المواجهة الدموية التي تهيئوا لها بأعمال روحية. ففي ليلة الخميس تصافح الرهبان، وقام الأسقف بغسل أرجل بعضهم، وفعلوا جميعهم الشيء نفسه، ووضعوا الشفاه في الأرجل، وهم يبكون بدموع غزيرة تصاحبها تنهدات حارة، يقلدون بهذا الفعل مثال الإله الذي تعذب في ليلة مشابهة من قبل، وتلامذته الذين قاموا من بعده بهذا النموذج التعليمي.

وهكذا قضوا كل وقتهم من هذه الليلة إلى يوم السبت في عزلة تامة يصلون ويبتهلون إلى الله ويتضرعون إلى مريم القديسة من أجل حمايتهم وتقويتهم. وفي يوم السبت ليلا رجع إليهم الأسقف يشجعهم و ينبههم إلى القتال القريب لأنه قرر في صباح يوم الأحد أن يهجم على الشيطان المتمثل في هذه الأرواح الضالة. وهكذا قضوا تلك الليلة في التفكير، وفي الفجر تناول القساوسة والرهبان القربان المقدس، وتصافحوا، وغطوا رؤوسهم بالرماد، وخرجوا على غفلة من التجار المسيحيين لمنازلة العدو.

وفي الساحة الكبرى حيث يجتمع كثير من المسلمين، أقاموا منبرا من بعض الأحجار، ووعظوا المسلمين بأصوات مؤثرة مستنكرين عليهم ما يعيشون فيه من ضلال، وقد أنعم عليهم الله بالعقل ليميزوا به أضواء شريعة يسوع المسيح التي تتعارض مع ضلالات محمد. وما أن سمع المسلمون هذه العظات حتى اندفعوا مهاجمين المبشرين القديسين، وحكموا

عدالة قضائهم القاسية التي سعت إلى قتلهم في تلك الساحة. وهكذا خرج المبشرون من هذا القتال الأول بكسب كثير من القوانين الكنائسية التي تؤكد قيمة هؤلاء الجنود القديسين ووحشية الأعداء الخبثاء.

جاءوا بالمبشرين في حالة مزرية إلى حضرة الحاكم الذي أخفى غضبه من الإهانات التي وجهوها لشريعته، وحاول اجتذابهم إلى شريعته وذلك بعرض بعض العروض الإيجابية لامتحان ثباتهم، متأملا لباس الصوف الخشن الذي يرتدونه. وفي هذه المناسبة بالضبط نادى فقهاءه (كما يقول القديس دانييل نفسه في الرسالة التي وجهها من السجن إلى الرهبان الذين كانوا مع التجار) لكي يقنعوا المبشرين بالعدول عن شريعتهم، فحاولوا إقناعهم بمنافع القرآن الآنية و الأخروية. وعين الرهبان أسقفهم دانييل للإجابة باسمهم جميعا على هؤلاء الفقهاء، فوعظهم بعلم قوي وشجاعة بالمميزات الإيجابية للعقيدة الكاثوليكية الصادرة عن الإله يسوع المسيح والمؤكدة بكثير من المعجزات، والتي بشر بها الحواريون المقدسون. ثم عدد بعد ذلك بشجاعة الآثار السيئة والكاذبة لشريعة محمد التي لا تملك إلا الحريات التي تستجيب للشهوات.

ظل الحاكم البربري يكبح غضبه أملا في أن يردهم التهديد والعقاب إلى الصواب، فأمر بوضعهم في سجن خشن وربطهم بأغلال ضيقة، فسمعوا الإهانات في حق رسولهم وبقوا هناك ثمانية أيام يعانون من التعذيب. وقد تمكن القديس دانييل من توجيه رسالة من السجن إلى الرهبان الذين كانوا مع التجار، ينبههم فيها إلى ما يمكن أن يطرأ على تجارة بعض التجار المسيحيين من تأثير سلبي، نتيجة لجرأة المبشرين المقدسة التي أثارت الاستغراب، كما شرح لهم الدوافع المسيحية العليا التي دفعتهم إلى تحمل هذه المهام، رغم أنهم غير ملزمين بذلك، ولذلك تحمل القديس دانييل مهمة الرهبنة الحوارية، وسعى إليه جميع الرهبان الإنجيليين. ومن يريد أن يطلع على الرسالة كلها فسيجدها في التواريخ الجديدة.

عانى السجناء القديسون في السجن؟ مثل ما أراد المسلمون؟، وغنوا أغاني عذبة ومطربة مع الملائكة، مؤدين الشكر لله، أملا في الحصول على شفقته في نهاية حياتهم مقابل ما لاقوه من لذة في عذاب الصليب. وامتلأ السجن بأنوار مضيئة، فاستيقظ الحراس، ورأوا الأعجوبة، وبلغوا نائب الملك الذي لم يصدقها، معتبرا إياها سحرا وفتنة شيطانية. ولأنه رأى القديسين يمشون مجردين من الأغلال بين الأضواء، خاف أن يهربوا، فقرر القضاء عليهم بصفة نهائية.

أمر الحاكم بإحضارهم إلى قصره وسط حشد كبير من المسلمين، وحاول من جديد إقناعهم بليونة بترك شريعة يسوع المسيح، واتباع محمد كما فعل كثير من المسيحيين، ليحصلوا على عطاءات كثيرة مثل النساء الجميلات و أشياء أخرى. بدأ القديس دانييل يصلي ويحمد المسيح الإله ابن الإله الحقيقي محتقرا شريعة محمد، ومصمما أن لا يعظ إلا بالشريعة الكاثوليكية المحبوبة النقية للإله الحقيقي التي بها يمكن إنقاذ الرجال، وأن الأخرى التي تسمى شرائع ما هي إلا رجس من الشيطان.

وضع المستبد يديه في أذنيه، كأنه سمع سبا لكي لا يسمع الحجج المقنعة، ثم أمر حراسه بإبعاد الكلاب الجسورين الحمقى وقطع رؤوسهم. وعندما سمع القديسون الحكم الأخير تبادلوا فيما بينهم القسيمات الأخيرة، وودعوا بعضهم البعض للالتقاء في السماء. ثم أخرجوهم من القصر إلى ساحة مزدحمة بالمسلمين الذين حضروا ليثأروا لمحمد، فعذبوهم، وضربوهم بالأحجار، ورموهم بالبصقات حتى أنهكوا قواهم، ثم قطعوا رؤوسهم. فتعالت صيحات الناس الجهنمية، وسلموا أجسادهم المقطوعة للصبيان للعب بها وتشويهها.

بعد ساعات من موتهم المجيد، عرف التجار المسيحيون والقساوسة الذين كانوا معهم أن الصبيان يلعبون بالرفات المقدس، فاقتنوه من المغاربة ببعض الهبات، وعندما وجدوا الفرصة المناسبة نقلوه إلى دير مريم القديسة في مراكش باعتباره رأس البعثة. ومن هنا يبدو أن رهباننا عاشوا في مراكش، وأنه وجد هناك دير سمي باسم مريم القديسة، الذي وجد فيه خلال بعض السنوات بعض التقييدات التي تتحدث عن هذا الرفات المقدس. ونظرا لورع ملكي البرتغال فقد جاءوا بهذا الرفات المقدس إلى مملكتهم، ويؤكد ذلك مؤرخون هامون، ودروس العمل الإلهي.

بقي هؤلاء القديسون ما يقرب ثلاثة قرون بدون عبادة كنائسية، رغم أن الجميع كان يقدرهم، إلى أن قام المذهب ببناء المذابح، وقرر الأسقف السامي نيون العاشر في سنة 1516 تخصيص يوم التاسع من أكتوبر لعبادتهم و الاحتفال بهم. وحول هذا اليوم بأمر حواري إلى يوم الثالث عشر، و هو اليوم الذي نصليه اليوم. لقد استشهد القديسون حسب درس ابريفياريو فرانسيسكانو الذي اتبعناه في يوم 9 أكتوبر من سنة 1226، وهي السنة التي كان فيها فراي إلياس رئيسا عاما بعد وفاة أبينا سان فرانسيسكو بسنة.

• الاستشهاد المجيد للقديس فراي إليكتو والإثبات على أنه ليس الشهيد الأول للمذهب :

يصفون الزمن بالغدر عندما لا تتحقق فيه الأماني، يوصف بالسعيد عندما تصير فيه الآمال حقيقة سعيدة. لقد التمس فراي إليكتو قديما الحصول على تاج الاستشهاد، ولم يسعفه الزمن و أراد الله أن يجني مزيدا من الصبر، ليزين به هذا التاج الثمين.

كان فراي إليكتو واحدا من الرجال القديسين، تربى في كنف البابا المقدس، ونظرا لفضائله النادرة فقد حصل على استحقاقات كبيرة بسبب فضائله، وحمل على عاتقه منذ صغر سنه صليب التعذيب. فلبس التنورة الرمادية لمذهب الصغار، وعاش متقشفا، وسعى دائما إلى جني الحب الصحيح.

كان الأب سان فرانسيسكو يعامله معاملة أبوية خاصة، لذلك أرسله إلى أنحاء المغرب لينشر أمجاد العقيدة الكاثوليكية. حضر إليكتو الاجتماع الاستشاري الذي قسم فيه البابا أقاليم العالم بين أبنائه، من أجل الغزو الروحي. ويقول المحلل التاريخي أنه أرسل إلى أنحاء إفريقيا، وإلى سلطان المغرب قبل موت الشهداء الخمسة الأوائل للمذهب بشهر أو شهرين قائدا لهؤلاء النجوم الخمسة لإضاءة هذه المنطقة البربرية.

كان فراي إليكتو راهبا خادما، ولكنه قائدا لموكب الجنود الشجعان، خرج ليخضع العالم لمنطق الشريعة. لقد تطوع الكثير لهذه المهمة، لكن الأب عين أكثرهم حماسة مثل فراي إليكتو، وفراي إخيديو، وفراي خيل، لقيادة باقي المبشرين، والبحث عن القتال.

اتجهوا إلى إفريقيا ووصلوا إلى تونس التي كانت تابعة لسلطة المغرب، وترددوا بين البقاء هناك أو الذهاب إلى المغرب. فدخل فراي إليكتو إلى المغرب مع واحد من مرافقيه يلتمس وعظ الكفار بحقائق الشريعة، وبقي فراي خيل مع مرافقين آخرين في تونس يعظون بحماس وصرامة وتواضع و تقشف، فحدثت لهم بعض المصادمات. وفي هذه المناطق الوثنية عاش مستعرب مدة طويلة في كهف منعزلا عن الناس كأنه متوحش، وكان يقوم ببعض السلوكات الشاذة التي جعلت هؤلاء العوام الجهلة يقدسونه، ولما علم بمجيء الحواريين الغرباء للتبشير بشريعة يسوع ضد قرآن محمد، خرج من كهفه إلى الأماكن العامة، وبدأ يلوم الناس على سماحهم للمبشرين بالدخول، ومنحهم الحرية للتكلم ضد رسوله المقدس، ومن ثم أمر بنفيهم من البلد تفاديا لعقاب الله.

اقتنع المسلمون بكلام هذا المتوحش، فهاجوا، وثاروا ضد المسيحيين الموجودين في

تونس، حتى التجار منهم، لأنهم أكرموا الرهبان الإنجيليين واستقبلوهم. ولما علم التجار بالخطر الذي يتهدد حياتهم و أملاكهم قرروا إيواء هؤلاء الرهبان بعناية في فندق معزول، كان بمثابة سجن محترم لهم، لكي لا يخرجوا إلى العامة.

جهزوا لهم السفينة، وحذروا سائقيها من الرياح لكي تصل بهم إلى الشواطئ المسيحية الآمنة، وأقام القديسون منبرا من شجر الصنوبر، ووعظوا بشجاعة جميع من داس رمل تلك البحار، فزاد المجدفون من قوتهم لكي يبتعدوا بهم عن الشواطئ، وكلما مالوا من اليابسة رفع المبشرون أصواتهم أكثر لكي يثبتوا الحجة على جحود هؤلاء البحارة الوحوش الذين يعيشون في هذه الأوساط الرملية. وهكذا وصلوا بهم إلى الأراضي المسيحية، حيث رجع كل واحد من هؤلاء المبشرين إلى بلده.

أما القديس فراي إليكتو، فقد كان مشغولا بدخوله إلى المغرب، ولم يصادف الرماح التي صادفها مرافقوه في تونس. ولم يعرف شيء عن جهود أعماله ونتائج بعثته، ولكن ثبت أنه قضى بعض الأعوام في هذه الأقاليم، وبشر بالعقيدة المسيحية متحمسا وصابرا ومثابرا. ولما رأى المسلمون ثباته في استنكار بهتان قرآنهم قتلوه. لقد كان يتطلع منذ صغر سنه للحصول على تاج الاستشهاد، فأدركه. جثم على ركبتيه وأخذ بيديه الكتاب المقدس لمذهب الصغار الذي أحضره معه وقال لرفيقه: أخي العزيز، أعترف أمام الله صاحب الحكم المطلق أنني مذنب لأنني ارتكبت مجموعة من النقائص ضد شريعة الله، وضد هذه المسطرة المقدسة التي أحترفها، وأنا أجعلك شاهدا على الألم الحاد الذي يحزنني لأنني لم أقدر أن أحقق ما يوصل إلى الكمال الديني. ولم يكد ينهي هذا الاعتراف المختصر حتى اخترقت السيوف صدره العاري، وحصل بذلك على تاج الاستشهاد.

هذه هي خلاصة ما يرويه دون فراي دامبان كورنيخو في التواريخ الجديدة لمذهبنا، وفادينكو في تحاليله عن هذا الاستشهاد، ولا يزيد كبار المؤرخين على هذه الأخبار أي شيء. ولا أحد منهم يذكر السنة التي استشهد فيها إليكتو، ويكتفون بذكر السنة التي أرسله فيها الأب سان فرانسسكو إلى إفريقيا. وفي الجزء الأول لمصادر تاريخ المذهب لقب فراي إليكتو بلقب الشهيد الأول للجند الملائكي، وأعترف أن فضله وعزمه يستحقان المدح، ولكن اختلاس هذا اللقب المجيد لشهدائنا الخمسة الأوائل يؤسفني كثيرا، وهو ما يجعلني أستشهد ببعض الشواهد التي تثبت أن هؤلاء الخمسة كانوا هم الشهداء الأوائل من العائلة الملائكية الذين ضحوا بأنفسهم من أجل العقيدة.

يقول المحلل فادينكو إن البابا قال بعد الاجتماع الاستشاري الذي عقد في شهر مايو

سنة 1219 إنه أرسل القديس فراي إليكتو إلى المغرب قبل الشهداء الخمسة بشهرين: "انتهت حياة الرئيس إلياس بالاستشهاد". وفي تاريخ محللنا، في الباب الذي يسمى الشهيد الأول للتبصر الملائكي، يشير المؤرخ إلى أن الأب سان فرانسيسكو أرسله في سنة 1219، ويقول في الخاتمة: بقي فراي إليكتو وحده مع مرافق واحد في إفريقيا بعد ذلك بأعوام قليلة، وبشر بالعقيدة.

وفي الباب العام الذي يتضمن الاجتماعات التي عقدت من أجل إرسال البعثات، يتفق فيه جميع المؤرخين على أن فراي إليكتو عين في شهر مايو من عام 1219، وأن الشهداء الخمسة ماتوا في المغرب في يناير 1220، أي بعد ثمانية أشهر من خروجهم. فإذا خرج إذن فراي إليكتو، وهؤلاء الشهداء الخمسة في سنة 1219، ومات هؤلاء الشهداء بعد ثمانية أشهر، ومات فراي إليكتو بعد أن بشر، فكيف يمكن أن يكون الشهيد الأول للمذهب، وقد ظل موجودا بعض السنوات بعد موت الشهداء الخمسة.

حقيقة أن فادينكو يؤكد استشهاد إليكتو سنة 1219، عندما يقول: إنه خرج إلى إفريقيا شهرا أو شهرين قبل القديسين الخمسة، لكنه لا يصرح بتاريخ استشهاده ويشير فقط إلى ما بعد التبشير. وبما أننا لا نعرف السنة الحقيقية لموته، فلماذا نفترض استشهاده في السنة نفسها التي خرج فيها إلى البعثات، خاصة وأننا نعرف أنه دخل إلى إفريقيا بعد بعض السنوات من خروجه.

وفي هذا السياق هناك رأي آخر يلح علي بقوة موجود في تاريخ المذهب أيضا، يقول بأن القديس إليكتو مات وعوضه القائد إلياس. لكن فراي إلياس لم يكن قائدا أعلى للمذهب إلا في سنة 1227، حيث عين في محضر عام عقد في روما ترأسه الأسقف السامي كريكوريو نونو الذي اعتلى كرسي البابا بعد موت الأب سان فرانسيسكو. وفي هذه الحالة إذا كان أكيدا أن فراي إلياس عين رئيسا أعلى للمذهب بعد موت فراي إليكتو، فهذا يعني بوضوح أنه لم يمت قبل القديسين الخمسة، فهؤلاء ماتوا عندما كان سان فرانسيسكو مازال على قيد الحياة، و قبل أن يصبح فراي إلياس رئيسا للمذهب بسبع سنوات، لكن هذا الرأي يمكن أن يضلل ويترك المجال للشك، عندما نعرف أن فراي إلياس شغل منصب القيادة العامة للمذهب مرتين، حيث شغله في المرة الأولى منذ سنة 1219 إلى 1220 عندما ذهب الأسقف القديس للتبشير في سوريا. وفي ظل هذا الوضع لا يمكن أن يكون فراي إليكتو قد مات قبل الشهداء الخمسة، لأنه قيل إنه خرج في هذه السنة نفسها إلى البعثات ومات بعد التبشير. وعندما مات القديسون الخمسة بعد ثمانية أشهر ربما كان فراي إلياس

لم يتسلم منصب الإدارة بعد، أو أنه تسلمه حديثا. أما المرة الثانية فقد شغل هذا المنصب في سنة 1221، عندما رجع الأسقف القديس من بعثاته، وعندما مات القديس فراي بيدرو كاتانيو الذي كان نائبا عاما للمذهب عوضه فراي إلياس، وإذا كان فراي إليكتو قد مات في هذه السنة، فإن القديسين الخمسة ماتوا في يناير 1220 أي بسنة من قبل. من هنا يكون حريا بنا أن نتبع هذا التأكيد.

ولعل ما يزكي هذا الرأي ما يجمع عليه الكتاب الذين اطلعت على كتاباتهم ومؤرخون آخرون، على أن القديسين الخمسة كانوا هم الشهداء الأوائل الذين ضحوا بأنفسهم من أجل التبشير بالعقيدة المسيحية، وفي أخبار الشهداء والقديسين الفرنسيسكانيين الذي يتبعه المذهب اليوم من أجل الصلاة يقال أيضا: "الشهداء الأوائل لمذهب الصغار الذين حصلوا على تاج الموت".

وبالإضافة إلى هذه الشواهد التي تدعم هذا الرأي، هناك ما عبر عنه الأب سان فرانسيسكو من فرحة عندما أخبر باستشهاد القديسين الخمسة و ذلك بقوله: "الآن يمكن أن أقول أنني أملك خمسة رهبان صغار"، وقوله " الآن "يؤكد أنه لم يكن أحد قد مات قبلهم شهيدا، ولو مات فراي إليكتو في أيامه، لعبر عن هذا الرضى نفسه، ويمكن القول هنا أنه لم يعلم بخبر استشهاده، إلا أنه من الصعب الاعتقاد أنه علم بخبر استشهاد القديسين الخمسة في المغرب، ولم يعلم بخبر موت فراي إليكتو في تونس كما يحكي التاريخ، أو موته من قبل في مدينة أخرى من هذا الإقليم كما يؤكد الرأي الآخر، حيث كانت هناك تجارة كبيرة لتجار أوربا.

وقد عبر عن هذه الفرحة نفسها بمناسبة استشهاد القديسين الخمسة الأب سانطو دومينكو عندما أخبر بوفاتهم خلال انعقاد محضر عام ببولونيا فقام يستنهض أبناءه لمحاكاة هؤلاء الشهداء الخمسة الذين وهبوا المجد لمذهب سان فرانسيسكو.. وأقول إنه حتى لو ثبت أن السنة التي مات فيها فراي إليكتو هي قبل القديسين الخمسة، فإنني أكرس صفة السبق في الاستشهاد لهؤلاء الخمسة.

- **موت بعض المبشرين على يد المسلمين، ومنح كريكوريو لفراي أنخيلو بعض الامتيازات والإذن بالذهاب إلى البعثات:**

في سنة 1232 كان قد مر على اعتلاء البابا كريكوريو نونو ست سنوات، وخلال هذه المدة عاين الخدمات التي حققها الرهبان الصغار للكنيسة، فكلف المذهب بأعمال جديدة،

ومنح تفويضات مختلفة للمبعوثين. كما حدث أيضا الاتحاد بين الكنيستين اليونانية واللاتينية حيث يعمل المفوضون الإكليروس باجتهاد مستمر. وقد مات كثير من المبشرين الذين ذهبوا إلى المغرب، بحيث رغم لجوئهم إلى التخفي في عملهم، وقعت لهم مواجهات مع الكفار في مناسبات كثيرة.

ولا يعرف من هؤلاء المبشرين الذين ماتوا إلا خمسة، وتجهل أسماء اثنين منهم، أما الثلاثة الآخرون فهم : فراي ليون، وفراي هوكو، وفراي دومينكو. وقد مات هؤلاء الخمسة على يد المسلمين، لكن المؤرخ لم يبين إذا ما ماتوا في مواجهة مع بعض المسلمين أو بأمر من الملك. وقد استنتجت أن هؤلاء المبشرين خرجوا لأداء المهام الحوارية في الجبال والمناطق المجاورة، حيث كان هناك بعض الأسرى الذين يحتاجون إلى رعاية روحية، وقتلهم هؤلاء المسلمون، رغم حصول هؤلاء المبشرين على إذن لحيازة الكنيسة، ووعظ الأسرى بالشريعة المسيحية. ويقول المؤرخون أن المسلمين كانوا يغضبون لرؤية الحوارات الكثيرة التي يقوم بها المبشرون، ولذلك يقتلونهم. وقد حقق هؤلاء المبشرون كثيرا من النتائج من خلال مصالحة بعض المرتدين، و هداية بعض المسلمين واليهود، فلم يهتموا بالأمر الملكي، وسعوا إلى الثأر من هذه الإهانة.

ومع ذلك يمكن القول إن هذه الاضطهادات الوحشية المنفذة ضد هؤلاء المبشرين كانت بتزكية من الملك أمير المؤمنين. ولعل هذا الملك وشعبه قد تناسوا العقاب الذي نالوه بسبب قتل الشهداء الخمسة، وقد اعترفوا بأخطائهم آنذاك، وقبل الملك بمجيء رهبان آخرين من المذهب نفسه والآن يعلن مع باقي العوام عن تنكيلهم، و قتلهم لهؤلاء المبشرين.

والجحود هو سمة مشتركة بين جميع الناس، حيث تغلب عليهم طبيعة النسيان وعدم الثبات على العهود. فيتعهدون بالاعتبار والندامة والتواضع عندما يتهددهم العقاب، وعندما يزول هذا التهديد يتناسوا هذه العهود. ويبرز هذا الخلق بصفة خاصة في المسلمين حيث يتميزون كثيرا بالتقلب، ولا يوفون بالعهود وينقضونها بسرعة. وقد حدثت كثير من الوقائع، ذاقوا فيها عقاب الله على أفعالهم السيئة التي عاملوا بها الإنجيليين الأساقفة، فاعترفوا بقداستهم، وتسببوا لهم في الوقت نفسه في كثير من المهالك كما سنرى في موضعه. هذا الطبع المتقلب كان مشتركا بينهم، ولذلك فليس هناك شك في أن هذا الملك قتل هؤلاء الرهبان الخمسة، وهذا ما وقع للمسيح عندما استقبلوه في القدس باحتفال، وبعد ذلك وضعوه في الصليب وقتلوه بوحشية.

لما رأى البابا السامي خدمة الرهبان الصغار للكنيسة بين المسلمين منح لهم كل الصلاحيات القديمة وأخرى جديدة في رسالتين أرسلهما لهم في هذه الحقبة، أرسل الواحدة في سنة 1233 في السنة السابعة لبابويته، وقد استشهد بهما المؤرخ معا، وسأوردهما في موضع آخر.

في السنة نفسها أرسل كريكوريو نونو راهبين إلى سلطان دمشق ليقنعه بالعقيدة المسيحية، ويبشر المسلمين في هذه المنطقة. كما أرسل فراي جاكوبو روسانو مع رهبان آخرين من مذهبنا إلى ملك جورجيا، وهي بلاد تقع في الأنحاء البعيدة لآسيا. وقد أرسل هذا الملك مع فراي جاكوبو رسائل إلى البابا يطلب فيها منه عمالا إنجيليين لنصرة العقيدة المسيحية. كما أرسل أيضا مبشرين إلى خليفة بغداد التي تقع في بابل. وعندما علم البابا بوجود عدد كبير من المسيحيين في سجون مراكش وفاس والنتائج الروحية الكثيرة التي جناها المبشرون هناك، عين أسقفا جديدا للذهاب إلى هذه الأنحاء، وهو فراي أخنيلو، راهب من مذهبنا. وقد عمل بحماس وبشكل إيجابي في هذه البعثات.

وفراي أخنيلو هذا الذي ذهب إلى بعثات المغرب ليس هو أخنيلو دي بيسا الذي عينه البابا أسقفا في إنجلترا خلال توزيع هذه البعثات.

ففراي أخنيلو واحد من الذين أتوا بالبعثات إلى إسبانيا، عندما ذهب الشهداء الخمسة الأوائل إلى المغرب. وعندما أرسله كريكوريو إلى مراكش، لقبه في الرسالة البابوية التي سلمها لأمير المؤمنين بأسقف فاس، معتبرا أن منطقتي فاس ومراكش يحكمهما ملك واحد، وعلى اعتبار أيضا أن فاس يتواجد فيها عدد كبير من الأسرى يحتاجون إلى مساعدته، بحيث ترك للأسقف حرية تأسيس الكاتدرائية في المكان الذي يحتاج إلى مساعدة استعجالية. وفي الرسالة البابوية التي أرسل بها إنوسينسيو الرابع لاحقا الأسقف الموالي، لقب فراي أخنيلو بأسقف مراكش لأن عدد المسيحيين كان متناميا فيها، فأسس كاتدرائية في هذه المدينة وأقام فيها، بحيث يتأكد أن كريكوريو نونو منح للأسقف حرية اختيار المكان لتأسيس الكنيسة، وأن البعثات شملت منطقتي فاس ومراكش، كما يحدث اليوم، وقد وقفت على ذلك في استشهاد قديسي سبتة.

وفي تاريخ إشبيلية يقال إن فراي أخنيلو عين في بعثات المغرب نائبا حواريا سنة 1237، أي بعد أربع سنوات من السنة التي أشار إليها مؤرخنا. وهذا التاريخ لا يمكن أن يكون أكيدا، لأن كريكوريو نونو أرسل رسالته البابوية إلى أمير المؤمنين، ورسائل أخرى إلى

المسيحيين في السنة السابعة من بابويته، أي في سنة 1234، وكان قد انتخب بابا ساميا سنة 1227. وإذا حذفنا سنة واحدة من السبع لم يستكمل فيها جلوسه على كرسي البابا يكون إرساله لهاته الرسائل قد تم في 1233، وهي السنة التي يقول بها فادينكو، وبهذا فإن المؤرخين (الأسبان) غير متأكدين من هذا التاريخ.

وإذا رجعنا إلى الموضوع نقول إن البابا السامي أراد أن يكرم هذه الكنيسة التي ظلت أسيرة لعدة أعوام، فأرسل إليها فراي أخنيلو، وهو رجل ورع ذو حماس حواري، وتجربة كبيرة في المهام التبشيرية رغم كبر سنه. إذ كان الأسقف الأول الذي ذهب إلى المغرب بعد مقتل الرهبان الأوائل الذين منحوا لمذهبنا مجدا وتشريفا. وهكذا تم في المغرب قيام الدير الأول لأداء الشعائر المسيحية، وتم فيه أيضا استشهاد الرهبان الأوائل، وحضور الأسقف. وبهذه الأشياء يتأكد للمذهب فضل السبق إلى إرسال البعثات التبشيرية إلى المغرب.

ذهب الأسقف أخنيلو إلى إفريقيا مع كثير من المبشرين الذين كانوا يعاملونه مثل أب لهم، وكان هو يعاملهم بالود نفسه. وبما أن المذهب كان في بدايته ولم تكن قد اعترضته بعد العوائق فقد منحوا للأسقف السلطة لإدارة المبشرين وتوجيههم، دون اللجوء إلى طرف آخر. أي أن التنظيم في هذه البعثة كان مغايرا لبعثة فراي إليكتو، وبعثة الشهداء الخمسة الأوائل، وبعثة رهبان سبتة، وبعثات أخرى كثيرة، بحيث كان الأسقف أخنيلو بمثابة نائب حواري موجه لهذه البعثة التبشيرية.

وهكذا تواجد الأسقف في الكنيسة الأسيرة التي كانت لا تزال تواجه استبداد هؤلاء الأعداء وتقلب مزاجهم رغم الحصول في هذه الحقبة على الإذن بوجودها وممارسة الشعائر فيها. وقد عمل هذا الأسقف بجد وحماس لمساعدة الأسرى وإسعافهم روحيا والتخفيف من فقرهم مع أداء كل الالتزامات التبشيرية التي حمله بها المذهب في أوربا. ولهذا كان يراه المسيحيون أسقفا محترما، وراهبا بالنظر إلى حياته المثالية والفقيرة، وصديقا بما يقدمه من مواساة ومساعدة، وعلى هذا كانوا يطيعونه بصفته أسقفا، ويسعفونه باعتباره مبشرا، ويحبونه كأخ لهم.

وهكذا ظل فراي أخنيلو اثني عشر سنة في هذه الكنيسة يعمل أسقفا وأبا، ونائبا حواريا، في خدمة الأسرى وباقي المسيحيين الذين كانوا في هذه الأقاليم. وقد أدى بحماس التزاماته الكثيرة، وعاش أسيرا في هذه الأرض البربرية، ومات في سن مبكرة، وبكى الجميع فضائله، وكان ذلك سنة 1243.

• تعيين إنوسينسيو الرابع لفراي لوبي فرنانديز أسقفا بعد موت فراي أنخيلو :

فراي لوبي فرنانديز داين رجل عالم وقديس استطاع أن يدرك الفضل الكهنوتي والعلمي، وعرف عند العامة بفراي لوبو، أو فراي لوبو. ينتسب إلى أسرة نبيلة وثرية، إلا أنه اعتبر الثروة عائقا لبلوغه إلى الجنة، فلجأ إلى الرهبنة، حيث لبس ثوب الرهبان في سرقسطة، وعاش حياة مثالية، وقام بكل الأعمال الصعبة التي كلفه بها الإقليم، وأرسله أساقفته إلى الهيئة القضائية الخاصة في روما لقضاء بعض التبعيات.

وهكذا بقي بعض السنوات في روما، فحظي بتقدير البابا السامي والمدرسة الحوارية بسبب فضائله السامية، وحصل على دعوة لزيارة الأماكن المقدسة، فمنحه البابا الإذن بالذهاب، وقال له: "أنا أمنحك الإذن الذي طلبته مني، لكي تكون خروفا وذئبا في الوقت نفسه". ومنذ ذلك الحين بدأوا ينادونه فراي أكنو أو الخروف، وتنوسي اسمه القديم.

وبينما كان فراي لوبي يتهيأ للذهاب إلى أداء حجه، وصل إلى روما خبر موت الأسقف فراي أخنيلو مرفوقا بالتماس الأسرى لحضور أسقف جديد، ومن تم قرر البابا السامي إنوسينسيو الرابع أن يتداول الملتمس ويتدبر هذا الأمر من أجل الإسعاف الروحي للأسرى والعناية بهذه الكنيسة الفقيرة.

وعلى هذا تقدم كثير من الكاردينالات لتحمل هذه المسؤولية المقدسة، إلا أن البابا السامي قرر أن يرسل فراي لوبي ليكون راعيا للقطيع المسيحي وحارسا له من المسلمين الذئاب في المغرب. فخضع الجميع لهذا القرار لأنهم يعرفون خصاله العالية التي أهلته لهذه الوظيفة. وقد التمس فراي لوبي إعفاءه من هذا التكريم بدعوى عدم استحقاقه له، لكن البابا ألزمه بالخضوع، فقبل باكيا وخاضعا.

أرسل إنوسينسيو الرابع إلى المذهب لكي يمنح للأسقف الجديد كل المبشرين الذين يحتاجهم، إذ كان قد بقي عدد قليل منهم في المغرب بفعل ظروف متعددة. فذهب معه كثير من المبشرين المؤهلين لهذا الأمر، وأرسل معه البابا السامي رسالة بابوية ليسلمها إلى أمير المؤمنين يستنهضه فيها لمعرفة حقيقة العقيدة المسيحية، وترك ضلالات الدين المحمدي. يقول له فيها: "لقد أرسلت إليكم فراي لوبي أسقف المغرب مع رهبان آخرين من المذهب نفسه، لكي تعتنوا بهم بصفتهم رسلا إلهية إنجيلية، وتصغوا إلى شريعتهم. ورجائي أن تحيطوا الأسقف الفاضل والرهبان والكنيسة بكل الحماية الضرورية، وهذا سيكون من فضلكم". ولا أورد هنا هذه الرسالة البابوية كاملة لأنها طويلة، ويمكن الاطلاع

عليها عند المؤرخ فادينكو. كما أعطى البابا رسالة أخرى للأسقف الجديد لتسليمها إلى نائب الملك في تونس، حيث يلتمس فيها منه أن يستقبل الرهبان الصغار الذين يدخلون إلى أراضيه بترحيب طيب باعتبارهم رجالا قديسين وأن يسمح لهم بالإقامة في سلام.

كما أرسل البابا مع الأسقف رسالة لملك أراغون، ورسالة أخرى للمذهب العسكري لسانتياكو لتسليمها إلى رئيس الرهبانية الحربية، والتي تتضمن العفو عن خطايا المبشرين لكي يهيئوا لهم كل ما يحتاجونه للعبور إلى المغرب. كما أعطاه رسائل مختصرة إلى أساقفة ناربونا، ومارسيليا، وطراكونة، وبالينسيا، ولثمانية آخرين، وللمجمعات الديرانية، حيث استحثهم في هذه الرسائل على مساعدة الأسقف ومرافقيه كما أعطاه رسالة أخرى وجهها إلى جميع قياد الموانئ وعمال البحرية المسيحيين لنقل الأسقف والمبشرين. فلقد تكرم البابا بعباراته الجميلة على الجميع من أجل إنجاح هذه البعثة.

لقد منح البابا إنوسينسيو الرابع الأسقفية لفراي لوبي في سنة 1246، أي في السنة الرابعة لبابويته، وفي هذه السنة أرسل رسالة إلى جميع المسيحيين الموجودين في مملكة المغرب.

- **ذهاب فراي لوبي بالبعثة إلى المغرب، و ما حدث فيها :**

سعى فراي لوبي إلى أداء مهمته الحوارية مع مرافقيه الشجعان، فأبحر من ميناء الأندلس باعتباره الأقرب إلى إفريقيا، وإلى المملكة البربرية بصفة خاصة، ولأن الموانئ الرئيسية كانت مازالت في هذه الحقبة تحت سيطرة المسلمين.

حقق المبشرون كثيرا من الأعمال الروحية في الطريق، وعندما وصلوا إلى إسبانيا التقوا بالملك دون فرناندو الشهير الذي كان يحب الرهبان. وقد تعرف عليهم من قبل عندما أتى إلى إسبانيا فراي خوان بارينتي مع المبشرين، وقد أمر أن يدفنوه بالتنورة الرهبانية بسبب حبه الشديد لها. وهكذا بقي الأسقف الإفريقي والمبشرون مع هذا الملك بعض الأيام، وخلال ذلك اتصل الأسقف مع الأمير دون سانشو ابن الملك وسلمه رسائل البابا كما يقول مؤرخو إشبيلية، ولا يؤكد هذه الحقيقة مؤرخونا. وإذا كان حقيقة أن رسائل البابا سلمت إلى الأمير، فإن ذلك تم في نظري بعد أن رجع الأسقف من المغرب، كما سأذكر في موضعه.

و يقال إنه عندما غزا الملك إشبيلية، كان الأسقف فراي لوبي موجودا هناك. إلا أن هذا الغزو كان في 23 نوفمبر سنة 1248، وفراي لوبي كان حاضرا في كنيسة المغرب في سنة 1246. ويتأكد هذا من خلال رسالتين أرسلهما البابا إلى الأسقف جوابا على بعض

الاستشارات التي أرسلها الأسقف من المغرب، بحيث أرسلت الأولى في شهر مارس من سنة 1247، والثانية في شهر أبريل من السنة نفسها. و لقد وصلت إلى حقيقة مفادها أن الأسقف كان موجودا مع الملك في مكان آخر عندما كان يجهز جيوشه لغزو إشبيلية، وقد سار معه بعض الوقت في الطريق، لذلك قيل أنه تواجد معه في هذا الغزو.

وصل الأسقف إلى المغرب بعد أن تحقق له العبور السليم، حيث أخذ حيازة الكنيسة واستقبل بفرح من قبل جميع المسيحيين. ولا شك أنه أرسل بعض المبشرين بالرسائل التي أرسلها البابا إلى ملك تونس من أجل المواساة الروحية للأسرى في هذه المنطقة. وقد كان يعامل الرهبان بتواضع، وكان بعضهم يقومون بتعليم الشريعة والوعظ ونظافة المذابح، ولذلك التمس لهم بعض الفضائل من البابا، فأرسل لهم في هذا الشأن رسالة بابوية في شهر أبريل 1247، غفر فيها لجميع من حضر في البعثة ذنوبهم، وحثهم على زيارة الأماكن المقدسة في القدس.

عندما كان هذا الأسقف في المغرب استطاع الرهبان أن يوفقوا بين أمير المؤمنين وعدوه الأكبر الذي كان يحاربه. وكان هذا العدو ملك يحكم الأقاليم المجاورة لمراكش ويملك في جيشه عددا كبيرا من المسيحيين القوط لإسبانيا وعددا آخر كبيرا من الأسرى. وقد تأسف الأسقف لرؤية المسيحيين يقتلون بعضهم البعض من أجل مصلحة الكفار. ولما كان ملك المغرب يريد الصلح لأن قواته الحربية لم تكن كافية، وكان الآخر لا يريد الصلح لأنه في موقع قوة، ارتأى الأسقف أن يتدخل بينهما ليجنب المسيحيين ذلك الوضع المؤسف واقترح على السلطان مخطط صلح لا يضر بشرفه، فقبله.

ومن ثم أرسل الأسقف ثلاثة رهبان من البعثة لتنفيذ الصلح بين العدوين، فخرجوا مرفوقين ببعض المسلمين لحراستهم ومساعدتهم في اللغة، إلا أن عددهم لم يكن كافيا، للدفاع عنهم، فتعرضوا للاعتداء من قبل قطاع الطرق.

وهكذا سار هؤلاء الإنجيليون بدون متاع ولا زاد، وقبل الوصول إلى موقع الكمين خرج عليهم أسد منفوش أرغم جميع من كان في القافلة على الهروب، وخاف الرهبان الثلاثة ولم ينجحوا في الفرار فأعطوه شيئا مما تركه المسلمون، وتقبله بإشارة الشكر، إلا أنه رفض مفارقتهم، ومن ثم عندما لاحظوا وداعته قرروا أن يصحبوه معهم في الطريق.

تابعوا سيرهم مع القافلة نفسها، ولما وصلوا إلى مكان الكمين خرج عليهم اللصوص فضربوا الحراس وقتلوهم، لكن الأسد المرسل من السماء شحذ مخالبه، وذهب تجاه هؤلاء

اللصوص مزمجرا فولوا خائفين وتبعهم حتى خرجوا إلى الأرض الجرداء.

اقترب الرهبان إلى الخيام مرفوقين بحارسهم، وخاف من بقي من حراسهم لأن المكان كان مسلحا، فتقدم الأسد أمامهم ومروا وسط الأعداء. ولقد أعجب الملك الشرير بهذه المعجزة، فاستقبل السفراء بأدب ووافق على مقترحاتهم. ورجعوا إلى مراكش موفقين ومصحوبين دائما بذلك الحيوان الشهم الذي ودعهم بود في المكان الذي خرج عليهم منه أول مرة، واستقبلوا بتقدير كبير من قبل أمير المؤمنين نظرا للخدمة التي أدوها له.

- **ذهاب الأسقف إلى إسبانيا و روما، و زيارته للأماكن المقدسة و موته في ديره :**

قضى الأسقف لوبي بعض السنوات في المغرب، واستنتج أن تصلب المسلمين لن يتيح له الفرصة لإشهار العقيدة المسيحية، فقرر الرجوع. فقد كان السبيل الوحيد لكي يحافظ الرهبان على البعثات واستمرارها في هذه الأرض هو أداء مهمتهم تجاه الأسرى وعدم تجاوزها إلى الوعظ بالعقيدة وهكذا تحمل الأسقف هذا الألم الروحي من أجل مصلحة الأسرى المسيحيين، والتزم أيضا بتوصيات الباباوات التي تحث على التزام الحذر وتجنب العنف، واتباع الرصانة لإسعاف المسيحيين، وإدارة المقدسات، ووعظ الكفار، والموت في سبيل ذلك بطواعية بدون إعاقة استمرار البعثات.

ونتيجة لهاته الاعتبارات خشي الأسقف أن لا يحافظ على هدوء هذه البعثات بسبب حماسه المندفع، فقرر العودة وسلم إدارة هذه الكنيسة المقدسة إلى راهب فرانسيسكاني من البعثة عينه البابا من قبل مساعدا للأسقف في بعض التبعيات، مثل الذهاب إلى بعض المناطق البربرية التي لا يمكن أن يذهب إليها الأسقف. ويستشف من الرسالة البابوية أن هذا الراهب اقترح أن يكون أسقفا في هذه المملكة.

وهكذا ترك الأسقف الكنيسة للراهب فراي بيرناردو بصفته مفوضا حواريا وقائدا للبعثة، ثم ذهب إلى إسبانيا وبقي بعض الوقت في إشبيلية. وخلال مقامه بهذه المدينة، وقبل الذهاب إلى روما توصل برسائل من البابا ليسلمها إلى الأمير دون سانشو، يوصيه فيها بإكرام الأسقف. وقد ثبت في المصادر التاريخية أن البابا كتب إلى الأمير أيضا بمناسبة تعيينه نائبا لأسقف طوليدو.

ظل الأسقف فراي لوبي في ضيافة الأمير، فأكرمه وأحسن إليه، و أهداه هبات عريضة في المنطقة التي توجد على ضفتي الوادي الكبير، وهو المكان الذي توجد فيه اليوم المدرسة الإكليريكية لسان تيلمو، ودير سان دييكو. ففي هذا المكان كان الأسقف

يمارس عمله، ويملك منازله ومزرعة جيدة من الأملاك الخاصة بالأمير تقع في المكان المسمى البرج، وفي هذا المكان عاش الأسقف فراي لوبي وخلفاؤه حتى هذا اليوم.

ولعله من الواجب علي في هذه المناسبة أن أتحدث عن برج الذهب سان تيلمو، وديرنا سان دييكو الذي هو عنوان إقليمنا، واللذان يقعان على مقربة من مدينة إشبيلية، وعلى الضفاف الجميلة لوادي بيتس ذو المياه الغزيرة. ففي برج الذهب سجن الشهداء الخمسة الأوائل الذين أوصلوا البعثات إلى المغرب. وفي سان تيلمو وجدت الثروة الأولى للأساقفة، حيث كانت هناك منازلهم وأملاكهم التي دعموا بها البعثات وحافظوا عليها، ومنحوا لدير سان دييكو الذي أسس في هذه المنطقة صفة رسولية، حيث كان كل شيء مسخرا من أجل توسيع هذه البعثات واستمرارها. وقد تكلف الإقليم كثيرا من التضحيات في سبيل بعثات المغرب حيث مات هناك الشهداء الأوائل والمبشرون، بالإضافة إلى الهبات الكبيرة التي أرسلوها باستمرار من أجل الوفاء بالتزاماته تجاه المذهب.

إذا رجعنا إلى موضوع الهبة التي أهداها الأمير من ممتلكاته إلى الأسقف فراي لوبي، فقد أخبر البابا بهذه الهبة التي كانت تقع في المناطق الإسبانية، فأمر الملكين بالخضوع إلى الكرامة الأسقفية، ودام خضوع ملوك إسبانيا لهذا التاج الأسقفي منذ موت فراي لوبي حتى عهد انتهاء هذه الأسقفية. وفي هذه الممتلكات الأسقفية مارس أساقفة المغرب عملهم بصفتهم مساعدين لهذه الكنيسة المقدسة.

وبعد قضاء فراي لوبي بعض السنوات في إشبيلية، ذهب إلى روما لتقبيل رجل البابا وإخباره بجهود البعثات. فانشغل بعض الوقت ببعض التزامات الكرسي الحواري في الهيئة القضائية. ثم ذهب لزيارة الأرض المقدسة بعد طلب الإذن من البابا، وقد مشى حافيا رغم وعورة الطريق مستطيبا معاناة المشقات مثلما عاناها المسيح من قبل. ثم رجع بعد ذلك إلى سرقسطة، وجاء معه بالرفات الكبير وعلقه في ديره، الذي عاش فيه بعض السنوات، ومات بعد قضاء حياة مليئة بالفضائل، ثم نقل بعد موته إلى الدير الجديد.

- **ذهاب الحواري فراي كونرادو دي ميليانو والنتائج الجيدة التي حققها للبعثات :**

فراي كونرادو دي ميلانو هو الذي استطاع أن يفك القيود عن بعثات المغرب، ولذلك فهو يستحق لقب الحواري الجديد في هذه الأقاليم بسبب حماسه اللامحدود في أداء الأعمال الإنجيلية وإنقاذ كثير من الأرواح من الوثنية. ولد في أسكولي من أبوين ساميين، وأحب منذ صغره أداء الأعمال الفاضلة، وأنهى مسيرته الدراسية بنيل درجة الدكتوراه من

جامعة باريس. إلا أنه فضل التواضع على غرور الدنيا، فأخذ لباس الرهبنة لمذهب الصغار في دير أسيز. ثم خرج من بعد إلى ممارسة الوعظ الحواري، الذي حقق من خلاله هداية بعض الأرواح القليلة. لقد كانت موهبته طموحة في عمل أداء جميع الفضائل، إذ كتب المؤرخون عن أعماله في تاريخ المذهب، وسأروي هنا أعماله في البعثات.

كان رئيس المذهب الجديد هو فراي خيرونيمو دي أسكولي، وكان يحب فراي كونرادو لأنه كان صديقه، وقد تنبأ كونرادو لخيروينمو منذ صغره بالجلوس في كرسي سان بيدرو. وذلك ما حدث فعلا، حيث أصبح من بعد بابا باسم نيكولاو الرابع. وقد طلبا لباس الرهبان الصغار معا، فمارسا الرهبنة معا، ودرسا معا، وكان كلاهما يحب الآخر كثيرا. ومنذ أن لبس فراي كونرادو لباس سان فرانسيسكو الفقير، ظل يتمنى أن يضحي بحياته لهداية الكفار مثلما فعل الشهداء القديسون في المغرب. ولم يتحقق أمله لأن المذهب كلفه ببعض المهام الأخرى. وعندما انتخب صديقه رئيسا للمذهب التمس منه أن يتكرم عليه بالإذن للذهاب إلى بعثات المغرب لإنقاذ الأرواح من ضلالها، والتي كان يحس تجاهها بألم مستمر.

تفهم الرئيس هذا الالتماس واحتار بين عدم السماح له بالذهاب لأهميته في المذهب، وبين إرساله لكي تستفيد من حماسه الحواري ومنافعه هذه الأقاليم البربرية. غير أن الرئيس كان أسقفا قديسا، ففضل المصلحة العامة على الخاصة ومنح لفراي كونرادو الإذن لتنفيذ هذا الغرض الديني، وأرسل معه مساعدين فاضلين هما فراي بينتو دي يوديو، وفراي ديونسيو دي سانطو أوميرو.

وهكذا أبحر الثلاثة جماعة في سفينة، ووصلوا إلى موانئ إفريقيا بدون مواجهة أية عوائق. ولا تكشف الحقائق التاريخية عن مكان وجهتهم، غير أني اكتشفت أنهم وصلوا إلى المغرب، لأن البعثات في هذه الحقبة كانت قد امتدت في كافة أرجاء إفريقيا كما يستشف من الرسائل البابوية المرسلة إلى الأساقفة، وقد حضر في المغرب العدد الأكبر من المبشرين مع المفوض الحواري الذي تتبعه جميع البعثات. وعندما أراد رئيس المذهب استدعاء كونرادو للذهاب إلى فرنسا، أرسل إلى دير مراكش يستفسرهم عن المكان الذي يتواجد فيه، إذ يبدو أن كونرادو كان متوغلا داخل هذه المناطق.

وهكذا تحقق أمل كونرادو بالتواجد في هذه المنطقة، فشكر الله وطلب منه أن يتكرم عليه بالموت بين الأعداء، وهداية الوثنيين، فأجيب له الطلب الثاني، ولم يتحقق له الطلب

الأول. فقد دخل مع مساعديه إلى هذه المناطق المجهولة والجبلية بدون وجهة محددة، وكان زاده هو العقيدة والعناية الإلهية.. فتفجر حماسه الديني، ووعظ بحقائق العقيدة المسيحية بإخلاص وإقناع، فاستطاع وحده خلال ثلاث سنوات أن يحقق هداية ستة آلاف وأربعة وثمانية وستين من البربر، وعلمهم أصول الدين المسيحي و عمدهم. وموازاة مع هذا الإنجاز، فقد حقق مساعدوه أيضا هداية كثير من الناس، ولا يعرف عددهم ولا عدد الاهتداءات التي حققها المبشرون الآخرون.

وإلى جانب هذه الاهتداءات التي حققها الأسقف ساعده الله بكثير من المعجزات تأكيدا لفضيلته. فقد هدى الأسقف اثنين في حضور كثير من المسلمين، فصارا من بعد داعيين ومبشرين بالدين المسيحي. وقد عانى الأسقف في هذه المهمة الحوارية أعمالا صعبة، لأنه دخل في المناطق النائية لإفريقيا ووصل حتى ليبيا، حيث لم يتواصل إلا مع البربر، وقطع جبالا وعرة، لا توجد فيها إلا السباع والنمور ووحوش أخرى. وعندما نجا من هذه الأخطار، التقى مع بربر متوحشين أرادوا قتله مرات عديدة. كان فراي كونرادو رجلا أبيض اللون وأشقر الشعر، وممتلئ الوجه جميلا، وبسبب كثرة الأعمال وقساوتها، تغير وجهه، وصار ملفوحا بفعل العوامل الطبيعية الصعبة. لقد تعرض الأسقف لكثير من الأخطار حيث أراد كثير من البربر أن يقتلوه، إلا أن الله لم يتم سعيهم. كما تعرض لأخطار متعددة كان الله ينقذه منها دائما.

وخلال أداء الأسقف لمهامه التبشيرية نشبت حروب بين مملكتي فرنسا وإسبانيا. فعين البابا السامي الواحد والعشرون رئيس المذهب فراي خيرونيمو دي أسكولي نائبا عنه لإخمادها، وفي هذه المناسبة قرر الرئيس أن يرافقه صديقه كونرادو، على اعتبار أن إيقاف الحرب التي تهدد البلاد المسيحية ليست أقل أهمية من المهام التبشيرية، ولذلك أرسل إلى رهبان المغرب لاستدعائه، فرجع في وقت وجيز، وهذا ما يؤكد أن الأسقف كان على علاقة برهبان كنيسة المغرب.

كان فراي كونرادو يتمنى التضحية بحياته، وعندما وصله الأمر من رئيسه أطاعه وذهب مع مرافقيه إلى باريس حيث كان ينتظره، كما أحضر معه بعض المهتدين الجدد الذين أكدوا أعماله الفاضلة التي أنجزها. قام فراي كونرادو من بعد بأعمال أخرى في البلاد المسيحية، وعندما جلس فراي خيرونيمو في كرسي البابا، استدعاه لهيئته المقدسة وعينه كاردينالا في خدمته. ومات في وطنه الذي ولد فيه. وقد تأثر البابا بموته، وعبر عن

ذلك في اجتماع للمدرسة الحوارية قائلا للسامين أنهم فقدوا أخا قديسا، وأن الكنيسة فقدت عاملا كبيرا وشجاعا. ثم أمر أن يدفن بموكب عظيم، وأن يخصص له قبر تشريفي، يكتب عليه: كان كونرادو صديق نيكولاو الرابع. مات هذا المبشر والحواري الجديد لإفريقيا في 19 أبريل سنة 1289.

- **تواجد أساقفة آخرين في المغرب، والموت المجيد لأمير البرتغال دون فرناندو:**

لعله من المحزن أن تدفن بين طيات الزمن المنسي ما قام به رجال أبطال من أعمال مجيدة وبطولات تعد مثالات تعليمية للأجيال المستقبلية. ويحكي لنا التاريخ أنه وجد رجال ذوو خصال فاضلة في البعثات، ولا يضيف إلى ذلك أية أخبار أخرى عنهم. ففي تاريخ إشبيلية، ومصادر تاريخية أخرى، تشير الأخبار إلى ذهاب بعض الأساقفة إلى كنيسة المغرب، ولكنها لا تكشف عن مذهبهم الذي ينتمون إليه، ولا عن أعمالهم، ولا عن النتائج الروحية التي حققوها. وقد حاولت أن أكشف بعض الشيء هذا الغموض التاريخي عن هؤلاء الأساقفة، من خلال مجموعة من الرسائل البابوية التي لا تفصح عن الحقائق التاريخية كليا، ولكن ترشدني فقط إلى بعض منها.

لقد استطعت أن أكتشف أن الأسقف الذي خلف فراي لوبي مباشرة هو فراي بلانكو، وهو راهب من مذهب سان فرانسيسكو، عينه إنوسينسيو الرابع سنة 1247 مفوضا رسوليا لإنجاز بعض المهام في أبنيون. وبعد ذلك عينه أليخاندرو الرابع مكان فراي لوبي أسقفا لكنيسة المغرب ونائبا حواريا لكل إفريقيا كما ثبت من رسالة بابوية لنيكولاو الرابع أرسلها إلى الأسقف الموالي، ولا توجد أخبار أخرى عن هذا الأسقف، إلا ما يمكن أن نفترضه من تميزه بخصال عالية أهلته لكي يكلفه الكرسي الحواري بالمهام الخطيرة في البلاد المسيحية وبالأسقفية في إفريقيا.

وقد خلف فراي بلانكو فراي رودريكو، وهو أيضا راهب من مذهبنا عينه البابا نيكولاو الرابع أسقفا في كنيسة المغرب. وفي الرسالة البابوية يقول إنه منحه منصب الأسقفية بطلب من ملوك قشتالة، باعتبار اهتمامهم بهذا الموضوع، ومن ملكي البرتغال، اللذان طلبا من الكرسي الحواري إرسال راع لكنيسة المغرب بسبب وجود كثير من رعاياهم الأسرى الذين يرسلون إلى ملكهم باستمرار من أجل مساعدتهم. كما عين البابا هذا الأسقف نائبا حواريا لجميع إفريقيا. وفي رسالة التفويض الموجهة إلى جميع المسيحيين الموجودين في هذه المناطق، قال نيكولاو الرابع، إنه سار على نهج سلفه ألخاندرو الرابع الذي عين فراي

بلانكو مفوضا رسوليا، فعين فراي رودريكو نائبا حواريا لكل هذه المملكة. وقد أعطى هذه الرسالة في 1290 أي في السنة الثانية من بابويته.

ذهب هذا الأسقف إلى المغرب، وبقي في الكنيسة بعض السنوات يؤدي مهامه الحوارية، وأرسل مبشرين إلى مختلف أنحاء إفريقيا، فحققوا كثيرا من الفوائد الروحية بالنسبة للمسيحيين، وهداية بعض المرتدين والكفار، واستشهد البعض منهم في سبيل ذلك، ولا تعرف أشياء أخرى عنهم. ثم بعد ذلك رجع فراي رودريكو إلى إشبيلية حيث توجد أملاكه، وحصل على كثير من الامتيازات الأخرى من ملكي إسبانيا، دون ألونسو إيل سابيو، ودون سانشو، كما ثبت في أرشيف كنيسة إشبيلية، والذي يشير أيضا إلى أن فراي رودريكو منح امتيازا آخر من قبل رئيس الأساقفة دون بيدرو ألفاريس ألبورنوس، ويذكر المؤرخ أن ذلك حدث في 1370، الأمر الذي يسمح بأن نفترض أن الذي يتحدث عنه المؤرخ شخص آخر وليس فراي رودريكو أسقف المغرب، أو أنه ربما وقع خطأ مطبعي فكتبوا 1370 عوض 1337.

بالإضافة إلى هؤلاء الأساقفة أقام أسقف آخر في كنيسة المغرب من مذهب سان فرانسسكو أيضا، ويسمى فراي مارتين دي كارديناس، حيث شغل صفة مبشر خاص في هذه البعثات لعدة سنوات. وبسبب غياب الأسقف، فقد كان يقوم بمهام المفوض الحواري لكل البعثة. ثم رقاه إلى مرتبة الأسقف البابا السامي مارتينو الخامس سنة 1419 في السنة الثانية من بابويته. وقد خلف هذا الأسقف أساقفة آخرون من مذاهب أخرى. وهكذا استمر ذهاب الأساقفة حتى 1566. حيث سلم البابا بييو الخامس جميع أملاك الأسقفية إلى المحكمة المقدسة لإشبيلية بطلب من رئيس أساقفة إشبيلية والقاضي المحقق دون فرناندو دي فارديس، ومنذ هذه السنة توقف الوجود الأسقفي في كنيسة المغرب.

في هذه الحقبة عندما كان أساقفة المذهب الفرنسيسكاني يشرفون على إدارة البعثات، ويقومون بمهامهم الحوارية في مختلف مناطق الإمبراطورية البربرية، حقق المبشرون الذين حضروا في العاصمة فاس نتائج روحية مهمة لصالح عدد كبير من الأسرى، وأسعفوا كذلك الأمير البرتغالي دون فرناندو ابن الملك دون خوان الأول، وأخ الملك دون دووارتي، في موته المجيد. فقد أرسل ملك البرتغال أخاه الأمير على رأس جيش إلى شواطئ إفريقيا لانتزاع الأرض من المسلمين، فوصل إلى طنجة لينازل العدو من هناك. وفي هذه الحقبة كان قد اعتلى عرش البلاد ملك جديد من المرينيين جعل من فاس عاصمة له. ولما علم بوجود الجيوش البرتغالية في أراضيه، استنفر العامة للقيام "بغزوة"

و هي تشبه عندنا الحرب الصليبية، ومن ثم جمع جيشا كبيرا وجاء بنفسه للقتال ضد الكاثوليك. لقد كان الأمير أضعف قوة من الملك، لذلك انسحب من الميدان ومن الشواطئ. ومع ذلك قاتله الملك وانتصر عليه حيث حوصر الأمير مع جيشه الذي مات عدد كبير منه، وانتهت المؤونة، واستحال عليه الهروب من الخطر، فطلب عقد معاهدة، وقبلها الملك المغربي، لأن ذلك ما كان يبتغيه من حصاره للجيش المسيحي، واشترط أن ينسحب الأمير وجيشه أحرارا إلى سبتة التي كانت تحت سيطرة الحكم البرتغالي، وأنه إذا لم يوافق على اقتراحه سيقضي عليهم بسيوفه.

قبل الأمير الموافقة على هذا الشرط لإنقاذ أرواح الجنود المهزومة التي لم تعد تملك النفس من أجل القتال. وقد قرر قبول هذا الاقتراح بنية عدم إتمامه، ويتحمل هو مسؤولية هذه المحنة. فطلب من الملك أن يكتب إلى أخيه الملك البرتغالي في هذا الموضوع، لكي يشارك في المعاهدة، وأن يذهب جنوده أحرارا، ويبقى هو مع يعض الأفراد رهائنا. فقبل الملك المغربي الاقتراح، وكتب الأمير إلى أخيه رسالة يخبره بالحادث الذي أدى به إلى المعاهدة، والتمس منه ألا يقبلها. إذ لم يكن في نيته أن يدخله الملك المسلم في الحصن الذي يعتبر مقود البلاد البربرية والواقع أمام الشواطئ المسيحية، والذي كلف المسيحيين كثيرا من الدم الكاثوليكي من أجل كسبه والمحافظة عليه. ثم أبدى استعداده للتضحية وتحمل العقاب الذي ينفذه فيه المسلمون.

أتى الملك البربري بالأمير الكاثوليكي إلى فاس، وعامله في البداية معاملة طيبة، لكنه كان يمشي دائما محروسا بمجموعة كبيرة من الحراس. وكان يستعد للطارئ السيئ بتلقي القربان المقدس باستمرار، والاعتراف عندما يصادف الرهبان. وهكذا عندما رأى الملك البربري أن الساحة لم تسلم له، نسب ذلك إلى خداع الأمير، وأمر أن يوضع في سجن فاس. وكان هذا السجن محاطا بأربعة حيطان، وله بابان قويان في المدخل، وفي أحد جوانبه كان هناك كهف مخفي بارد ومظلم، بحيث لا يوجد فيه شق واحد يدخل منه الضوء. وبين هذه الحيطان الأربعة يوجد اليوم ديرنا في فاس. وقد رأيت هذا الكهف مرات كثيرة، وعرفت مدى القسوة التي عاناها هذا الأمير، حيث بقي في هذا السجن عدة أيام، ومنعوا عنه كل شيء حتى الماء، فمات بسبب قلة الطعام وكثرة التعذيب. ولما علم السلطان بموت الأمير خابت آماله على اعتبار أنه كان يملك رهينة مهمة. وأمر أن توضع جثته في صندوق وتعلق في الباب المسماة "باب السهوة" على سور المدينة، وبقيت هناك عدة سنوات -حسب رواية مارمول؟ حتى أبادتها

عوامل الزمن، واليوم تشاهد بقايا بعض الهراوات في الباب والسور نفسيهما، ويقولون أنه كان هناك معلقا.

وقد أراد الله أن يؤكد الصبر المجيد للأمير بمعجزة، حيث كان في فاس مسلم أعمى يصلي صلوات الاستسقاء، فاكتسب بذلك صفة القديس، وطلب بدافع الفضول أن يأتوا به إلى حيث يوجد الأمير معلقا، وكان لا زال الدم يقطر من جثته، فسقطت بعض القطرات من هذا الدم في عيني الأعمى، عندما رفع وجهه تجاه الجثة، واسترد بصره الذي فقده منذ مدة طويلة. فأعجب الجميع بهذه المعجزة، وصاح المسلم المعافى أنه يريد أن يموت مسيحيا. ففزع المسلمون من تقلبه، فحسبوه قد جن، وسجنوه، وسعوا إلى استمالته وتضليله. إلا أنه ثبت على عزمه، و يئس القضاة من رده عن قراره، فأخرجوه إلى العامة، وظل الأطفال يرمون عليه الحجارة و هو يصيح أنه مسيحي حتى فلق رأسه ومات. فجاء أبواه بجثته وأشاعوا بين العامة أنه لم يكن عاقلا، لأنه كان من قبل قديسا طيبا. وهكذا اعتبره الجميع قديسا، وبنوا له ضريحا، وإن لم يكن فخما مثل باقي الأضرحة، وأدوا له العبادات العامة، وسموه سيدي الكافر، وقد شاهدت مصلاه من بعيد، ولكني لم أتمكن من الوصول إليه.

- **الاستشهاد المجيد لآخر مبشر في بعثاتنا، الراهب الصغير الأب فراي أندريس دي إسبوليتو :**

بعد أن مات فراي مارتين دي كارديناس أسقف كنيسة المغرب، استمرت البعثات وعرفت بعض التوقفات المحزنة، لأن سلطة الحكم في هذه المملكة انتقلت إلى ملوك جدد يسمون بنو مرين، وبذلك تغيرت معهم كل الأشياء. وفي هذه الحقبة عين راهب من مذهبنا بصفة نائب حواري للإشراف على هذه البعثات يسمى فراي أندريس دي إسيوليتو.

ولد في مدينة إيطالية قريبة من إسيوليتو التي تلقب باسمها. وقبل أن يأخذ لباس الرهبنة كان أسقفا، ولكن لم يكن موفقا في أداء التزاماته المقدسة. فأخذ لباس الرهبان الصغار، حيث عاش حياته تائبا ومثاليا، وأصبح واعظا جيدا. ومنذ ذلك الحين سعى إلى تكريس حياته من أجل العقيدة، ومساعدة الأسرى للتكفير عن ذنوبه. وقد ساد في هذه الحقبة وباء خطير في كورسيكا، فذهب بإذن أساقفته لإسعاف المرضى في المستشفيات روحيا وجسديا، وقد حفظه الله من الوباء من أجل تشريفه بمهام مقدسة لاحقا.

لقد تعثرت البعثات في هذه الحقبة بتغير ملوك المغرب. وأراد فراي أندريس الذهاب

إلى إفريقيا فطلب الإذن من الرئيس، وأبحر في سفينة جنوية، وواجه عواصف شديدة منعته من الوصول إلى الميناء البربري. ووصل إلى قادس، ومنها توجه إلى سبتة، حيث استقبل بترحاب من قبل آباء كنيسة المدينة. وهناك بقي بعض الأيام ثم غادرها عندما سنحت له الفرصة. وكانت مملكة المغرب آنذاك مقسمة إلى قسمين، وكان ملك فاس المولى محمد المريني، وصهره القائد المولى إبراهيم ذوا خلق طيب.

كان في فاس كثير من الأسرى المسيحيين، وخاصة البرتغاليون، وكان من بينهم فارس نبيل يسمى دون فرناندو دي مينسيس، ابن دون دوارتي دي مينسيس حاكم طنجة. وقد استقبل هذا الفارس الأسير الأسقف الحواري، وأكرمه في منزله. وتأثر الأسقف كثيرا لرؤيته معاناة هؤلاء الأسرى وابتعادهم عن دينهم، وكانت له حوارات مع كثير من اليهود برهن لهم فيها عن مجيء المسيح المخلص، والمدة التي استغرقتها شريعة الطقوس التي أنزلها الله في الجبل، وشريعة الغفران التي أبطلتها. حيث اقتنع هؤلاء الرجال بقوة الحقيقة، رغم أنهم رفضوا التنازل عن موقفهم المتصلب، وأخبروا علماء المسلمين بالحوار الذي أثاره الراهب معهم، وأضافوا إلى ذلك أنه دنس الرسول القديس محمد بالسب.

وهكذا غضب المسلمون بسماعهم لهذا الخبر، ونادوا المتهم البريء لاستفساره عن الاتهام الكاذب. فأجاب بأنه لم يحاور أولئك التعساء إلا في دفاعهم المتصلب عن اليهودية، ولكنه في تلك المرافعة دافع عن المسيحية باعتبارها الشريعة الحقيقية، وأن المسيح هو ابن الإله، والإله الحقيقي، الذي جاء بديانة الغفران الكاثوليكية المنقذة لجميع الناس، وأن الذين يدينون بديانات أخرى سيعاقبون بالهلاك الأبدي. فاليهود حافظوا على ديانة فرضت عليهم عقابا لجحودهم ولإذلال تشامخهم حتى جاء المسيح ليخلصهم من هذه العبودية، إلا أنهم لم يؤمنوا به، بل صلبوه، وفضلوا شريعتهم الباطلة. أما المسلمون فيتبعون خليطا من الهراءات الباطلة، والأضداد التي يتألف منها هذا الدين، وهو ما سيؤدي بهم إلى الإدانة بالعقاب الأبدي.

وقد استطاع الراهب أن يفحم المسلمين بدحضه للضلالات التي يؤمنون بها، فلم يعاملوه بسوء آنذاك، وأخبروا الملك بما جرى لكي يعاقبه على تجرئه. إلا أن الملك لم يكن ذا طبع مستبد، وخاصة في تعامله مع المسيحيين، فناداه إلى حضرته، وعاتبه على ما قاله في حق محمد. فتشجع الأسقف ووعظ الملك بالحقائق الإنجيلية، حتى حيره وشككه في القرآن نفسه. فأمره أن يخرج من مملكته، لكن الأسقف خرج عبر الشوارع العامة يبشر

بالمسيحية، ويسب شريعة محمد. فأتوا به ثانية إلى الملك الذي أراد إقناعه، وأمر الولاة والمثقفين أن يحضروا في مجلسه، ويناقشوا حقائق الأديان، ويحددوا الخاطئة منها.

حضر كثير من المسلمين للدفاع بحججهم التي ليس فيها إلا النار والمصارعة. وكشف العلماء عن افتراضاتهم المبتذلة التي أجاب عليها القديس بحقائق مناسبة ومقنعة، بحيث حار بعضهم، وقال الآخرون المغترون إن المسيحيين يدعون أن قديسيهم حققوا المعجزات. فأجابهم الأسقف بأن الله وحده هو الذي يتكرم بهذه المعجزات، ويهبها بعنايته للقديسين لكي يثبت بها حقائق الديانة المسيحية. فالمبشر يطلب من الله إعانته على أمره، ومن ثم يستطيع أن يقود الضالين إلى طريق النجاة، فيخضعون له بقدرة الإله يسوع المسيح، ويعترفون بصحة الدين المسيحي الذي ينجي المؤمن به من عذاب النار. ثم التمس من الملك إذا لم يرضيه ما وعظه به أن يشعل نارا في وسط الساحة ليلقي بنفسه فيها، ويكون ذلك شهادة حقيقية عند الله على ما بشر به.

اندهش المسلمون من كلام الراهب، وأمر الملك أن يخرجوه إلى الساحة لمصارعة الأسد. فقبل الراهب، وحضر كثير من الناس للفرجة. لكن الملك تراجع عن قراره إما عطفا على الراهب، وإما خوفا من حصول معجزة تؤثر في العامة فيؤمنوا بالمسيحية، ثم أمره بالرحيل من مملكته.

حقيقة أن القديس كان يأمل هداية جميع أولئك الكفار، ولذلك ذهب إلى الملك وحاول إقناعه مرة أخرى بالدين المسيحي، وأفصح له عن تأثره بقرار طرده، وألح عليه بقبول التماسه بالاحتراق في النار، بحيث لم يستطع أن يخفي جذوة حماسه الكاثوليكي متمثلا في ذلك بقديسي الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة الأب الذي بشر بالعقيدة المسيحية لسلطان مصر. ثم ألح عليه أن يشعل النار لكي يحرق نفسه فيها، بالرغم من رفض الملك لهذا الطلب. وخلاصة القول يتبين من كل هذا أن الله هو الذي يلهم الشجاعة لهؤلاء المبشرين عندما يتعلق الأمر بموضوع إلهي.

لقد أمهل الملك فراي أندريس ثلاثة أيام من أجل تنفيذ القرار الأخير. وهكذا قضى الأب هذه المدة في صلاة مسترسلة التمس فيها من الله أن يتغاضى عن جحوده وأن يعتبر احتراقه في النار عدلا. أما المسيحيون الذين كانوا في الأسر فلم يسمح لهم ضعفهم أن يتقبلوا المعجزة، وبكوا كثيرا، وكان هذا الحادث بالنسبة إليهم هذا محنة كبيرة. لكنه بالنسبة إلى المبشر الكاثوليكي لم يكن يهمه إلا الانتصار، لكي لا تضعف قوة الإيمان عند

هؤلاء المسيحيين. في حين شكل الحادث بالنسبة إلى المسلمين أمرا ممتعا.

جاء المساء المحدد لتنفيذ القرار، وحضر كثير من المسلمين، وأمر الملك رجاله أن يشعلوا النار، فكوموا كومة من الحطب المزفت لكي يشتعل بسرعة ويوضع القديس فوقه. وهكذا ودع الأب جميع المسيحيين الذين حضروا إلى المكان، وشجعهم على التشبث بعقيدتهم، فخلع لباسه وبقي فقط بلباس الحشمة، وانحنى على ركبتيه فوق ذلك الحطب، فحاول الجلادون إشعال النار، فلم يستطيعوا، ووضعوا ثلاث مرات كمية كبيرة من الجمر مع نسالة الحبل، فكانت تنطفأ. حار الملك ويئس رجاله، وتشجع المسيحيون، وخاطبهم المبشرون من فوق الحطب، أن يتعظوا بهذه المعجزة التي حالت دون إشعال النار في الحطب، وأن يستدلوا على حقيقة الدين المسيحي. ومن أجل أن لا يقال أن الأب هو الذي أمر النار بالاشتعال، أشار بعلامة الصليب، فاشتعلت النار فجأة، فاندهش المسلمون، وبكى المسيحيون من شدة الفرح، وخاصة عندما رأوا الأب جالسا على ركبتيه يغني الأناشيد الإلهية باللاتينية بدون أن تتجرأ النار على مسه. فاحترق الحطب، وبقي الأب في وضعه يعظ بصحة شريعة المسيح، فجاءوا ببرميل من البارود ورموه في النار حيث اشتعلت بشدة وصعد منها دخان كثيف وخلال كل هذا بقي الأب على حاله بدون أن يمسه أدنى أذى، بل شكلت النار عرشا من الأضواء جلس في وسطه.

ومن ثم يئس الملك ورجاله من احتراق الأب، فذهبوا مفزوعين ومذهولين. وارتبك العلماء المسلمون، وخاف اليهود، وفرح المسيحيون. ولما خرج القديس من هذه النار منتصرا، جاء أحد الجلادين من شدة غيضه من هذا الانتصار، وضربه بعصا فلقت رأسه الكريم، وسقط بدون حراك. فهاجت العامة ورموه بالأحجار وضربوه كثيرا حتى تقطع جسده إلى قطع، مدعين أن عدم احتراقه كان بفعل السحر. ولم يبق من رفاته المقدس إلا رجله التي ذهبوا بها إلى ملكة البرتغال. ويقول الأب فراي ماركوس عن رفاته أنه لم يتعفن. مات هذا القديس الذي يعد آخر مبشر في بعثاتنا يوم الجمعة من يناير 1532.

- **انقلاب الأحوال في إفريقيا و توقف البعثات والتماس الأسرى لإرسال بعض الرهبان:**

لقد حدثت في هذه الحقبة تقلبات كبيرة في إفريقيا، فقبل استشهاد فراي أندريس دي إسيوليتو بسنوات قليلة، انحسر حكم المولى بوشنتوف على ميدان محدود لا يتجاوز العاصمة، وتجزأت باقي أقاليم المملكة ليحكمها كثير من الملوك. وبعد ذلك ظهرت طائفة سميت في التاريخ الإفريقي بالشرفاء. وكان رجال هذه الطائفة هم الأكثر عداوة

للمسيحيين في بلاد الكفر. إذ كانوا علماء في شريعتهم، ومنافقين كبارا، لكنهم كانوا رجالا ذوي ذكاء فائق. وكانوا ثلاثة إخوة من أب ساحر كبير، واستطاعوا بمساعدته أن يكتسبوا بين المسلمين صفة القداسة، حيث صدق العامة أنهم شرفاء وأحفاد شرعيون لمحمد. وقد أشهروا ذلك من أجل محاربة المسيحيين، ونزع الأراضي التي يبسطون سيطرتهم عليها. وهكذا وثق بهم المسلمون وسلموهم حكم البلاد، واستطاعوا أن يكسبوا ميل الجيش إليهم. فذهب كبير الإخوة الذي يسمى عبد الله الكبير إلى مراكش، وقضى على ذلك الملك داخل القصبة. وبعد جلوسه على العرش سيطر على كل الأراضي المجاورة، وقسم الأقاليم بينه وبين أخويه، رغم أنهم تخاصموا فيما بعد، وانقضى أمرهم.

كان ملك فاس آنذاك هو المولى محمد المريني ابن الملك الذي قتل فراي أندريس، وكان شابا تنقصه الخصال الجيدة والتجربة، لكي يواجه هذا العدو الخائن الذي أصبح ملكا في جهة مراكش، وجهز جيشا وزحف به إلى فاس، وانتصر على الملك الغافل. فأصبح منذ سنة 1544 يسمى السيد المطلق لكل إفريقيا، حيث بسط سيطرته على كل المملكات المتجزئة، معتبرا أن هؤلاء لا يستحقون الحكم لأنهم يميلون إلى المسيحيين و يمنحونهم الإذن بالتواجد في أراضي المسلمين بحرية.

ولعل هذه هي الحجة التي ادعاها لتحقيق طموحه الخبيث، وأول ما ابتدأ به حكمه هو طرد جميع المسيحيين من أراضيه، والذين كانوا قد حصلوا على وعد بالأمان من أسلافه. ولا نصادف في تاريخنا على السنوات التي تركت فيها البعثات الرهبان في هذه الأنحاء، حيث يظل زمن توقف البعثات عند المؤرخين مبهما، ويشيرون فقط إلى أن فراي أندريس دي إسبوليتو هو آخر مبشر، وأنه منذ حكم ذلك الطاغية ضعفت البعثات لأنه أعلن عداوته ضد البلاد المسيحية، فكان نتيجة ذلك طرد جميع المسيحيين الأحرار والأساقفة، ولم يسمح بممارسة العبادات في الكنيسة. وهكذا تراجع إرسال مبشرين ذوو صفة حوارية، ولعل انتقال الحكم إلى هذا الملك الطاغية يرجع احتمال توقف البعثات نهائيا سنة 1544، هذه البعثات التي استمرت 324 سنة منذ 1220، رغم ما اعتراها من تغيرات.

وهكذا بقي هؤلاء الأسرى المساكين بدون مواساة روحية، وبقيت الكنيسة بدون عبادة إلهية. وفي هذه الحقبة ذهب الأسقف الكبير والحواري الأب فرناندو دي كونتريراس إلى المغرب، حيث كان أسقف مراكش آنذاك هو دون سيباستيان الذي كان يتواجد في إشبيلية ومساعداه السيد مانريكي والسيد لووايسا. وارتأى هذا الأسقف أن يرسل الأب

كونتريراس إلى المغرب لمواساة ومساعدة الأسرى. فقبل الأب المكرم، وقرر العبور، رغم أنه لم يمكنه الوصول إلى مراكش التي كان يحكمها الشريف، وكانت كلها مسلحة. فوصل إلى فاس التي لم تكن قد دخلت بعد تحت سيطرة الشرفاء. وهناك وفي تطوان حقق نتائج روحية مهمة لفائدة الأسرى، ثم رجع إلى إشبيلية ومات فيها ولقب بالقديس.

لقد سعى هذا الأب من خلال هذا العبور إلى المغرب مواساة الأسرى وإنقاذهم من الضياع الروحي في المقام الأول، حيث كان هناك عدد كبير من الأسرى البرتغاليين. وقد علم ملك البرتغال عن طريق حاكم سبتة دون ألفونسو نورونيا بحاجة رعاياه إلى الرعاية الروحية، فأرسل إليهم رجال الدين لإنقاذ وضعهم. وكان الرئيس في هذه المناسبة "لفرقة يسوع" الأب سيمون رودريكز، الذي كان رجلا ذا خصال عالية، ولم يكن قد مر على تأسيس مذهبه الجديد إلا ثمانية أعوام، حينما طلب منه الملك إرسال الأساقفة إلى الأسرى. ورغم أنه لم يكن هناك كثير من الأساقفة في البرتغال، فقد أرسل ثلاثة كبارا هم خوان نونبيس باريتو الذي أصبح من بعد أسقفا في الحبشة، ولويس كونساليس دي لاكامارا الذي كان قد انتهى من مهمة رئيس مدرسة "إيبورا"، والمساعد إكناسيو فوكادو كووادخوتور. وقد أرسل الأب الرئيس هؤلاء الثلاثة لمساعدة الأسرى بحسب ما تسمح لهم به الظروف. وبما أن الأب كونتريراس كان هو المحرك الأول لهذا العبور، وكان خبر قداسته قد شاع خارج حدود إسبانيا، فقد أتى هؤلاء الأساقفة إلى إشبيلية يبحثون عليه، ليتداولوا معه الأمر ويخبرهم بتجربته في معاملة المسلمين، ووضعية الأسرى. فاعترف لهم الأب كونتريراس أنه يجب على المبشرين أن يذهبوا بنية تبشير المسلمين بشجاعة، وإدارة المقدسات للأسرى. وقدم لهم كثيرا من النصائح للنجاح في مهمتهم في هذه البلاد، وقال لهم في رسالة وجهها إليهم: إنه رغم إمكان تعرضهم لخطر الموت على يد أعداء المسيح، فإنه يجب أن يدركوا الأمل الذي يعانيه الأسرى المسيحيون بسبب عدم وجود رعاية روحية، وأن مهمتهم الأساسية يجب أن تتركز على تعليم الشريعة للأسرى المسيحيين، أكثر من التبشير بالدين المسيحي للمسلمين، لأن ذلك لن يسمح لهم به، وإذا سمعهم المسلمون يتكلمون بسوء عن دين محمد سيقتلونهم، لذلك فالأحسن أن يسلكوا معهم طريق النصح والحوارات الخاصة. وبالإضافة إلى هذا يجب أن يتحملوا مشاق خدمة الأسرى ومواساتهم وتمريضهم، لأن المعاملة السيئة تجعلهم يستاءون من الدين المسيحي، ويفضلون دين المسلمين. ولذلك وجب عليهم نصحهم وتشجيعهم ليثبتوا إيمانهم.

وهكذا ودع كونتريراس الآباء الثلاثة، الذين دخلوا إلى تطوان سنة 1548، واستقبلوا بفرح كبير من قبل الأسرى الذين كان عددهم 1600 أسير. حيث بقوا في هذه المدينة التي لم يكن يحكمها الشرفاء، وأسعفوا هؤلاء الأسرى روحيا وجسديا وأصلحوا أحوالهم. وقد استقبل المسلمون في البداية هؤلاء الآباء بترحاب، وعندما لم يحصلوا على منافع منهم، مثل الهدايا وفدية الأسرى، بدأوا يسببون لهم في المتاعب لطردهم. وقد اعترف الأب خوان نونبيس أنه يستحيل البقاء بين المسلمين دون تقديم منفعة ما لهم، فقرر افتداء بعض الأسرى لكي يستطيعوا البقاء.

ومن ثم أرسل الأب لويس دي كامارا إلى البرتغال لكي يلتمس من الملك وباقي الأسياد بعض الصدقات من أجل فدية الأسرى. ونتيجة لهاته المساعي أنقذوا الكثيرين من هذا الأسر الذي بقي فيه هؤلاء الآباء خمس سنوات لإسعافه. وفي سنة 1576، ذهب راهبان آخران من هذا المذهب المقدس، وحملوا معهم بعض الأموال لفدية الأسرى، حيث ذهب الواحد منهما وهو كاسيار لوبيز إلى تطوان، وذهب الأب كابريال ديل بويرتو إلى مراكش. وقد حقق هذان الراهبان نتائج طيبة لصالح الأسرى، كما ثبت من خلال التاريخ المخطوط في أرشيف إقليم "زمرة يسوع" في الأندلس. وبعد مضي بعض الوقت، أمر الملك البربري بطرد هذين الأسقفين، فرجعا إلى إسبانيا متألمين من وضعية الأسرى الذين بقوا بدون رعاية روحية.

- **ذهاب الأب فراي طوماس دي خيسوس بصفته أول أسقف لكنيسة مراكش بعد توقف البعثات :**

لقد حافظ الله باستمرار على كنيسة مراكش بعنايته، فأمال قلوب الأعداء لكي يسمحوا بممارسة العبادة فيها، وهيأ لها أساقفة كراما خدموها، ولكن صادفتهم أحوال سيئة أيضا، لأن الله يحب عباده بعد أن يمتحنهم بالمحن، فعرفت هذه الكنيسة فترات هدوء وقلق، وفترات توقف فيها الحضور الديني. لكن الله شاء أن لا يتوقف إرسال الأساقفة بصفة نهائية، فكان يصل باستمرار أسقف ما إلى مذابحه.

وهكذا لم يعدم حضور الأساقفة في هذه الكنيسة، رغم أن أغلبهم لا نملك إلا أخبارا عن وجودهم هناك، أواستشهاد البعض منهم من أجل العقيدة، أوموت آخرين بسبب الأشغال الشاقة، أوتحقيق آخرين الحرية للأسرى. ومنذ سنة 1532 التي مات فيها فراي أندريس دي إسبوليتو، حتى سنة 1578، التي جاء فيها لإدارة هذه الكنيسة الأب فراي

طوماس دي خيسوس، ليس هناك أخبار عن الأساقفة الذين عملوا في هذه الكنيسة، فكان هناك فقط المقبرة المكرمة التي دفن فيها هؤلاء الأساقفة الذين عاشوا في هذه الكنيسة، وبقيت على قبورهم بعض الكتابات التي نقشها الأسرى تكريما لهم، تكشف عن إيوائها لرفات بعض الأساقفة القديسين. وقد استدل آباء إقليمنا بهذه الآثار الضعيفة على أخبار بعض الأساقفة الذين حضروا هنا منذ الأب فراي طوماس دي خيسوس حتى دخلت بعثات إقليمنا إلى هذه الكنيسة. وهؤلاء الآباء هم فراي ماتياس دي سان فرانسسكو، وهو أحد المبشرين الأوائل لإقليمنا، وفراي فرانسسكو دي لاكونسيبسيون الذي كان أبا رئيسا للإقليم مرتين، ونائبا حواريا للبعثات، وسفيرا لفيليبي الرابع في مملكة المغرب. وسأورد في هذه المناسبة الأخبار التي توصل إليها آباء إقليمنا عن هؤلاء الأساقفة من أجل الحفاظ على التسلسل الزمني للحضور الديني في هذه الكنيسة، وجهود البعثات وتعثراتها، منذ أولياتها حتى وقتنا الحاضر.

كان الأب الكبير فراي طوماس دي خيسوس، ينتمي إلى مذهب كنيسة سان أكوستان، وينحدر أصله النبيل من عائلة كونتات ليناريس. نشأ في البرتغال، ورافق الملك دون سيباستيان عندما ذهب بجيشه لغزو أراضي إفريقيا التي يستبد بها المسلمون، حيث ذهب أيضا بعض الآباء من مذهب زمرة يسوع. وهزم الملك في هذا الغزو، ومات في المعركة التي كانت سنة. وكان الأب فراي خيسوس من بين الأسرى الذين بقوا في سجن مراكش. وقد حاول نبلاء البرتغال والسفير أن يردوه إلى وطنه، لكنه لم يقبل وفضل البقاء مع الأسرى لرعايتهم على أن يكون أسيرا بين النبلاء. وقد سعى بشدة أبواه اللذان كانا يملكان ثروة كبيرة إلى إخراجه من هذا الأسر، لكنه رفض وقرر الاستمرار فيه حتى الموت.

وكان في هذا الأسر ألفي أسير، أسعفهم هذا الأب بحماس كبير، وحقق نتائج كثيرة من خلال رعايته، حيث هدى كثيرا من المرتدين وأرسلهم برسائله إلى المعاقل المسيحية، وعقد كثيرا من المحاورات مع حاخامات اليهود حول ألوهية المسيح، ومجيئه، فأجاب ودحض عبر كتابة كثيرا من الكراسات في هذا الموضوع وأرسلها إليهم. فكانت خصاله كثيرة استحق بموجبها لقب القديس حتى بين الكفار أنفسهم.

كان في مراكش زاهد منافق يحسد هذا الأب الأسير على ما يتصف به من فضل، في حين لم يستطع هو عن طريق سلوكاته الشاذة أن يكتسب هذا الفضل. فذهب إلى الملك والتمس منه أن يبيع له ذلك الراهب لكي يضطهده و يحاول قتله، فسلمه له الملك

مقابل ثمن كبير، وذهب به إلى بيته، فصب عليه نار غضبه لكي يثأر من قداسته التي لم يستطع أن يدركها. فوضعه في سجن مظلم، وبقي هناك سنوات كثيرة يتغذى بطعام قليل، ولم يسمح له برؤية ضوء الشمس، ولا الاتصال بأي أحد، فعانى الأب في هذا المكان اضطهادا وحشيا، وكتب هناك عمله الذي عنونه "أعمال يسوع" بمساعدة بعض أشعة الضوء التي كانت تنفذ من بعض الشقوق، ووطأ هذا الكتاب بملخص عن حياته المثالية نائب أسقف براكا السيد دون فراي ألونسو مينسيس. وقد مات الأب فراي دي خيسوس سنة 1582 بعد قضاء ما يقرب من أربع سنوات في هذا الأسر، في اليوم الثاني لعيد القيامة، وقد تنبأ بموته قبل موعدها بثلاثة أيام، وحضر دفنه جميع نبلاء البرتغال مع باقي الأسرى الذين بكوه كثيرا.

- **الأسقف الثاني و الحواري فراي كونستانسيو ماكنو من مذهب الواعظين :**

الحواري فراي كونستانسيو ماكنو اسم دل منذ النشأة على معاني القداسة والفضل والتشريف الديني. فلقد كان هذا الأسقف مواظبا في أعماله، وحماسه الديني، وعظيما بفضائله ومعاناته وحنوه في مهامه الحوارية.

فراي كونستانسيو من جنسية كولومبية، وراهب من مذهب الواعظين، ابن الأب سانطو دومينكو دي كوزمان. كان يأمل الذهاب منذ صغر سنه إلى مملكة المغرب من أجل التبشير وإسعاف الأسرى. وعندما حصل على الأهلية الحوارية جاء إلى حصن مازاكان للعبور من هناك إلى مراكش التي كان يوجد فيها عدد كبير من الأسرى، ويعيشون بدون أسقف يواسيهم ويسعفهم روحيا. ولما أوقفوه في هذا المعقل ولم يسمحوا له بالعبور، قرر الهرب، وسلم نفسه إلى المسلمين لأسره.

وبعد أن دخل إلى الأسر، قام بأعمال كثيرة لخدمة الأسرى، فوعظ، وصحح، وهدى. بحيث كانت حياته مثالية ومليئة بمعاني الفضائل السامية. فطيلة تواجده في هذا الأسر، كان ينام فقط على مصطبة عارية أو متكئا على ركبتيه في الأرض الباردة. وكان يتغذى فقط ببعض الأعشاب والماء. وقام أيضا بأعمال قاسية ودموية، ووزع الصدقات التي حصل عليها بين الفقراء، وحتى الكفار منهم. وهذه الفضائل هي التي أكسبته صفة القديس حتى بين المسلمين واليهود.

ورغم أن الكفار اعترفوا بفضائله، فقد وجد بعض المسيحيين السيئين الذين تسببوا له في الموت. بحيث كان هناك بعض الأسرى الذين كانت لهم صداقة خاصة مع بعض

المرتدين الفاسدين، فخشي الأسقف على هؤلاء الأسرى من أن تنعكس هذه العلاقة الفاسدة على دينهم وعاداتهم، فوعظهم وعاتبهم وحاول هدايتهم، فلم يستسيغوا هذا التصحيح، وقرروا أن ينتقموا منه ظلما، وذهبوا مع أصدقائهم المرتدين إلى الملك، واتهموا الأسقف بأنه يرغم أبناء المرتدين على اعتناق المسيحية وينصح الأسرى المسيحيين بأن لا يتبعوا دين الإسلام، وذلك بالحديث عن الرسول القديس محمد بسوء. وأن الصدقات التي يحصل عليها يخبأها لنفسه، ويوزع على الفقراء قطع الخبز التي لا يحب أن يأكلها. ولما رأى الملك أن متهمي الأسقف كانوا مسيحيين، أي أن اتهامهم في هذه الحالة يفترض أن يكون صادقا، أمر بوضع المتهم في سجن اليهود، احتقارا لمكانته الأسقفية، وكان هذا السجن مليئا بالمنحرفين الذين كانت لهم مع الأسقف عدة محاورات عن مجيء المخلص الموعود.

تحمل الأسقف هذا العقاب بصبر، وكان يدعو الله أن يهدي من اتهمه، لأنهم لا يعرفون خطورة جرمهم. ورغم ثقل السلاسل التي كانت تقيده في هذا السجن، فإنه لم يتوان عن القيام بعباداته المنتظمة، حيث كان ينعزل بنفسه في مكان مخفي عندما ينام باقي السجناء، وينزع لباسه ويجثو على الأرض عاريا، ثم يخرج صورة يسوع القديس المخبأة عنده، وينظر إلى إلهه المصلوب الذي ظلمه اليهود الجاحدون.

افتضح أمر الأسقف عندما رآه في أحد الأيام أحد أولئك الجاحدين اليهود يناجي صورة الصليب ويبكيها بأنين. فعاين المكان الذي يخبأ فيه الصورة وسرقها منه، ولما أراد الأسقف كعادته عبادة الصورة لم يجدها، فتألم كثيرا، وبحث عنها في جميع أنحاء السجن وسأل الحراس، وظل يبكي، إلى أن أتى الرئيس المسلم ليتفقد السجن، فلاحظ بكاءه وسأل عن السبب، ولم يكن هناك في السجن منحرفين غير اليهود، فضربهم كثيرا حتى اعترف السارق بجريمته.

ولما ردت إليه الصورة قبلها كثيرا وبكى من جديد أمام اليهود والمسلمين. لقد عانى في هذا السجن عذابا كثيرا وعبادات قاسية، فلم يتحمل جسده هذه المشاق ومرض مرضا شديدا، فعلم بذلك بعض المسيحيين الطيبين، والتمسوا من الملك معالجته، ودافع عنه كثير من المسلمين. لقد قام الأسقف بكثير من المعجزات في السجن، ومارس كثيرا من الأعمال الفاضلة، ووزع كثيرا من الصدقات، فأخبر بعض المسلمين الرئيسين واليهود الملك بمزاياه وسمح له بالخروج إلى الساجنة للعلاج. لكن الله كافأه على أعماله، فمات بعد إخراجه من السجن بساعات، ودفنوه في المقبرة التي تضم قبور كثير من القديسين.

• عن أساقفة آخرين في هذه الكنيسة المقدسة :

بعد موت فراي كونستانسيو ماكنو، بقيت الكنيسة والسجن بدون أسقف. ولعله كان عقابا لهؤلاء الذين تسببوا للأب في هذه المحنة. وهكذا قرر المسيحيون البحث عن أسقف لمواساتهم الروحية، فعرفوا أن هناك راهب أسير عند مسلم في الجزائر، وجمعوا بعض المال وافتدوه، وأتوا به إلى مراكش، حيث أشرف من بعد على هذه الكنيسة المقدسة.

كان هذا الراهب ينتسب إلى عائلة الرهبان الكبوشيين للأب سان فرانسيسكو، ويجهل اسم هذا الراهب، ووطنه، وفضائله، ويعرف فقط باسم الأب بابيستير، وأنه عاش بعض السنوات في الأسر، وقد وقعت في تلك الحقبة فدية الأسرى، فكان من بين المفتدين، فلم يقبل هذه الحرية، وفضل البقاء لرعاية الأسرى والكنيسة، ولما مات دفن في المقبرة الجماعية التي تضم باقي الأساقفة.

ثم جاء بعد هذا الراهب، أسقف من كاناريـاس، ولا يعرف عنه إلا أنه تسلم إدارة هذه الكنيسة عندما كان في الأسر، وقد زينها ببعض التحف، وأدار جميع المقدسات مثلما يديرها أسقف خاص، وحقق كثيرا من النتائج الروحية، وبعد ذلك حصل على الحرية بواسطة الافتداء.

بعد مرور بعض الأيام أسر راهب كبير من مذهب الأب سانطو دومينكو يسمى فراي أنطونيو دي سانطا ماريا من جنسية إرلندية وذا خصال عالية، وكان قد أسره الأتراك عندما كان يمشي بلباس الرهبنة الذي كان ارتداؤه ممنوعا، وباعوه في ميناء آسفي، وقدموه إلى الملك باللباس نفسه، وحاول في البداية إخفاء صفته الأسقفية، ليسهل افتداءه، ويكون ثمن فديته أقل، لكنه أعلنها عندما عاين حاجة الأسرى إلى الرعاية الروحية. ولم يقبله الأسرى، لأنه لم يكن يملك ما يؤكد قدرته الأسقفية، فقد سلبوه كل شيء في الأسر، ولذلك كتب إلى لشبونة التي خرج منها، وأرسل له الأب رئيس هذا الدير شهادة تثبت أهليته، حيث سلموه بذلك إدارة هذه الكنيسة، وحقق هذا الراهب الكبير نتائج روحية، فعلم العادات المقدسة للجميع، وأسس لهم جمعية السبحة المقدسة، وقد استمرت هذه الجمعية الدينية وقتا طويلا حتى خرج الرهبان من المغرب.

ومن بين المزايا الجيدة التي تميز بها هذا الأب، هو إتقانه الكتابة بالريشة، ومعرفته التامة باللاتينية. ولما علم بذلك الملك المولى زيدان، طلب منه ترجمة بعض الكتب إلى اللغة القشتالية، لكي يترجمها بعض المرتدين الأسبان إلى اللغة العربية. وأمر في هذه المناسبة أن تنزع عنه السلاسل التي كان يمشي بها جميع الأسرى في هذا الوقت، ووعده

بالحرية. وقد حصل الأسقف على كثير من فرص الحصول على الحرية، إلا أنه رفضها، وفضل البقاء في الأسر لرعاية الأسرى والكنيسة، خاصة وأنه لم يكن هناك أساقفة آخرون يقومون بهذه المهمة. وبعد أن جاء إلى الأسر أسقف آخر أسير التمس الحرية والتحق بوطنه. ومن ثم فإنه لم يخرج من هذا الأسر بدون استحقاق كما يقول الأب فراي ماتياس دي سان فرانسسكو في كتابه "رحلة إلى المغرب"، ولكن خرج بألف لقب كما يقول فرانسيسكو روكي عند كتابته عن الشهيد خوان دي برادو.

أما الأسقف الأسير الذي جاء إلى المغرب قبل أن يذهب الأب فراي دي سانطا ماريا فهو د. خوان كابريال دي أورتيكا كورا، وقد تابع ممارسة المهام الروحية التي أسسها الأب السابق بمثالية إلى أن حصل على حريته، وظل هذا الأسر بدون أسقف.

- **أساقفة آخرون من مذهب سان فرانسيسكو تواجدوا بهذه الكنيسة :**

بعد بقاء الأسر بعض الأشهر بدون أسقف، جاء الأب فراي كريستوفال دي فلوريس، راهب من مذهب سان فرانسيسكو، كان مقررا في إقليم إسبانيا الجديدة، وأسر مع رفيقه الأسقف فراي ميلتشور دي لوس رييس وأهدوهما إلى الملك المولى زيدان. وبعد أن تواجد الأب فراي كريستوفال في تلك الكنيسة حاول إحياء الجذوة القديمة للمذهب، فقد كان ذا خصال دينية، أهلته للقيام برعاية روحية جيدة للأسرى، حيث سموه بالحواري الجديد. وبعد أن علم المذهب بأسره التمس بكثير من الطرق إطلاق سراحه، لحاجته إليه، لكن الملك لم يقبل ذلك بسبب ميله إليه، وأطلق سراح رفيقه فقط.

عرف هذا الملك البربري جيدا بعلم فراي كريستوفال، فكانت تعجبه محاوراته لأن خطابه كان معتدلا وحكيما. وقد عرف عن هذا الملك أنه كان يشك في دينه ويعجب بجدال المذاهب في شريعتنا. فكان يحاوره الأسقف عن جميع المواضيع التي يشك فيها. وكان يجيبه بحجج مؤكدة على أن الشريعة المسيحية هي الصحيحة. ولما كان الأسقف متأكدا من الحصول على الأمان لدى الملك، فقد تحدث معه بحرية عن رسوله محمد. ومع ذلك فإن هذا الملك لم يقتنع، واستمر في محاورته لهذا الأسقف. وعندما منحه الحرية شهد له بالنبوغ واعترف بأنه يحسده عليه، وأنه استطاع أن يجعل من المسيحيين أناسا طيبين، بحيث نجح في مهمته معهم ومعه. وهكذا شهد هذا الملك في خصال هذا الأسقف بشهادة قيمة. ولهذا السبب عامله باحترام، ولم يسمح له بالذهاب، وعاش الأسقف بعض السنوات في هذه الكنيسة، يدير فيها المقدسات، إلى أن مات وبكاه الجميع وتأثر الملك نفسه ولم يصدق موته، بحيث ظل يسأل أياما عنه إذا كان حقا قد مات.

جاء بعد هذا الأسقف راهب آخر من مذهب سان فرانسيسكو أيضا يسمى فراي سيريبيانو دي لاكونسيسون ذو جنسية برتغالية، وكان حارسا لأحد الأديرة في البرازيل، وجاء أسيرا إلى إسبانيا، وذهبوا به إلى مراكش. وبعد أن علم المذهب وأبويه بأسره، سعوا إلى افتدائه، وقبل الملك، إلا أن الأسقف فضل رعاية هذه الكنيسة التي تعد مهد كثير من الشهداء القديسين، فكتب إلى والديه لكي لا يقلقوا من أدائه لمهمته المقدسة. كما كتب إلى أساقفة مذهبه، يلتمس منهم الإذن بالبقاء في هذا الأسر لخدمة الشريعة. كان أسقفا حواريا جيدا، وقد مات وهو يؤدي أعماله الروحية، ولم يحقق درجة الشهادة التي كان يطمح إلى إدراكها. استسمح جميع الأسرى في ساعة موته عن تقصيره في خدمتهم، وأن يدفنوه في باب الكنيسة، لكي يدوس عليه كل من دخل إلى المعبد المقدس. وحقق الأسرى رغبته لأنهم كانوا يحبونه كثيرا، بحيث عندما دخل الرهبان اللاحقون كان العامة لازالوا يتحدثون عن فضائله.

جاء بعد هذا الأسقف راهب آخر من مذهبنا، ويجهل اسمه لأنه عاش قليلا من الزمن، ويقال فقط أنه أتى من جزر الكناري، وأنهم أسروه، وباشر في هذا الأسر أعمالا مثالية، لكنه مات بعد أيام قليلة من أسره.

وبعد مرور بعض الأشهر عم في المملكة وباء خطير، فجاء أسقفان أسعفا هؤلاء الأسرى روحيا وجسديا. وكان هذان الراهبان من عائلة الرهبان الكبوشيين، يسمى الواحد فراي بيدرو دي ألاسون ذو نسب نبيل، وعالم لاهوت كبير، وواعظ ممتاز. والآخر يسمى فراي ميكال، والإثنان فرنسيان. وقد عملا في هذا الأسر بمثالية كبيرة، إلا أنهما ماتا متأثرين بهذا الوباء.

- **الشهيد فراي خوان ديل كورال آخر أسقف في هذه الكنيسة :**

مهما صمم الإنسان على المكر والجحود فإنه قد يكتب له في نهاية الأمر أن يخضع إلى مشيئة الغفران فيتحول من عاص إلى تائب، دون أن يتجرأ على التساؤل عن الحكمة من ذلك. فقد التمس سان أنطونيو وقديسون آخرون الاستشهاد في سبيل سان فرانسيسكو ولم يكتبه الله لهم، وهيأه لكثير آخرين لم يبحثوا عنه رغم عصيانهم وجحودهم. وهذا ما وقع للأب الشهيد فراي خوان ديل كورال، حيث قدر له أن يمحو كل أخطاء شبابه بدموعه التائبة، فذهب مكره وحصل على الغفران بفضل الله ومساعدته وشفقته.

نشأ الشهيد المكرم فراي خوان ديل كورال في قشتالة القديمة، وعمل في الإقليم نفسه

راهبا لمذهب دكتور الكنيسة الأب الكبير سان أكوستان. وقد قال عنه الأب الشهيد فراي فرانسيسكو دي لاكونسيبسيون عندما رجع من سفارته إلى المغرب، إنه راهب مهم. أسر فراي ديل كورال عندما ذهب إلى روما بدون إذن من أساقفته، هذا الإذن الذي يلتمسه الرهبان الأكثر مكانة منه في الحالات المشابهة. بحيث خرج هاربا وأبحر سرا دون أن يخلع عنه لباس الرهبنة، لكن البحر هاج كثيرا وأوشكت السفينة على الغرق، فخاف من الغرق في أعماق البحر. وعرف الهارب العاصي أنه أخطأ عندما هرب من وجه الإله وخالف قرار أساقفته، والتمس العفو من الله نادما، فاستجاب له بشفقته وهدأت المياه والرياح لأنها عرفت ما قررته المشيئة الإلهية التي أرادت أن يكون هذا الراهب واعظا في مدينة أخرى متمادية في غيها، بحيث أسره القراصنة وجاءوا به إلى موانئ إفريقيا.

لقد كان هذا الأب هو التحفة القيمة التي قدمها القرصان إلى الملك المولى عبد الملك ابن الملك السابق المولى زيدان. ولما وجد نفسه مكبلا بالقيود الصلبة قبلها باكيا وراجيا من الله التوبة عن أخطائه، فكتب إلى أساقفته يستسمحهم عن طيشه، ويلتمس منهم بتواضع أن يشفقوا عليه ويقبلوه في المذهب ونقابة الكنيسة الأم، مقرا بتصحيح أخطائه. فقبله الأساقفة ابنا لهم وأشفقوا على تعاسته، وقدموا له كل المساعدة لمواساة روحه وإراحة جسده، محاولين إنقاذه من عبوديته.

أراد الله بصفته أبا أن تتحقق توبة عبده، فكتب له أن يصبح أسقفا، فسلمه الأسرى إدارة الكنيسة، وقبلها ساجدا على ركبتيه، واعترف أنه غير مستحق ليكون أسقف الإله في مذابحه. فاعتنى كثيرا بهذه الكنيسة وبنظافتها، وشكل بيديه كل ما كان ناقصا. وقام بوعظ الأسرى وأرشدهم إلى الطريق الصحيح دون أن يغضب منهم. وقام أيضا بإصلاح العادات المسيحية، فكانوا يعتبرونه قديسا، ويحبونه مثل أبيهم.

ظل فراي ديل كورال في أسره، وخلال ذلك أراد الملك المولى عبد المالك أن يسترد ساحة المعمورة بالقوة فأرسل جيشه بقيادة متصوف يسمى الرايس، على اعتبار أنه يتصف بصفات الشجاعة والقداسة والقدرة على تحقيق الانتصار، لكن المسيحيين هزموا العدو وأرغموه على القيام من الميدان والهروب بعجل وارتباك. فتأثر الملك البربري كثيرا، وعزم على الثأر لهذه الهزيمة والانتقام من الشجاعة التي حارب بها المسيحيون، فقرر الذهاب بنفسه ليسترد الساحة. وقد مهده لانتصاره بتقديم هدية غالية إلى الشيطان، وذلك بإكراه

مائة من الكاثوليك الأبرياء على الارتداد ومنهم الأسقف المكرم. وعندما علم الأسرى بهذا الخبر حزنوا كثيرا على الأسقف الذي لم يملك الشجاعة لكي يستسلم للسيف قبل أن يرتد، وهو يملك عدة أطفال أسرى يتهدد هم الخطر الحقيقي، بسبب صغر سنهم.

جاء قياد الملك بصخب إلى الساجنة ينادون الأسرى للامتثال أمام الملك وأولهم الأب المكرم الذي افترضوا أنه سيجيبهم مطيعا، لكنه أجابهم بخوف مقلدا بدايات موت المسيح معلمنا الإلهي، إذ عز عليه بقاء قطيع الأسرى المسكين بدون راع يواجه الخطر الذي يهدده، ثم دخل إلى الكنيسة وجثا على الأرض واستغاث بالله باكيا، وقال: "إلهي أعرف أن جحودي أخمد شجاعتي، لكني أتضرع إليكم أن تشفقوا علي رغم أني أستحق جهنم، لأني أعرف بتجربتي أنكم أبا مشفقا وغافرا لذنوب أكبر من ذنوبي. لقد أخطأت حقا سيدي بميلي الدنيء، ولهذا يمكن أن تضيئوني برأفتكم، وإذا سامحتموني ستكسبون أرواحا كثيرة تبحثون عن توبتها، وأعرف أنكم تسمحون لأكبر العصاة. لقد أحزنتني ذنوبي في الوقت المناسب، ولكنها لا تيئسني في ثقتي الأكيدة في حنوكم وعفوكم، وهذا ما أعهده في طبعكم المحبوب.

ومن هنا يا سيدي فإني أراهن على شفقتكم ورأفتكم وكرمكم. لقد كاد هذا العدو المشترك لاسمكم المقدس أن يستبد بأرواح هذا الأسر، ويسرقها منكم الشيطان، ويضعها في عبوديته، فمحا عنهم ذلك الأثر النبيل للتعميد المقدس. فكثير يا إلهي يوجدون في هذا الأسر يمكن أن يسقطوا في هوة تعيسة، ويعذبهم هذا الكافر بوحشية. ومن ثم يا يسوعي هناك واحدة من الاثنين، إما أن تمنح المساعدة الفاعلة للجميع لكي يقاوم الموت في سبيل غفرانكم، أو أن تصرف البربري عن محاولته. وبما أني أسقف فإني أطلب منكم أن تساعدوني للموت في سبيل شريعتكم. ويكفي ما قلته لكم، وألتمس أن تمنحوني ما طلبته بكرمكم وفضلكم ورأفتكم".

لقد قام فراي ديل كورال بهذا الالتماس حقيقة كما شهد بذلك الجميع. وقد تحقق هذا الالتماس، إذ توقف عنده العقاب، ولم يعنف هذا الملك باقي المسيحيين الذين ذهبوا جميعهم إلى القصبة، وظلوا هناك ينتظرون القرار الأخير من سيدهم المتوحش طوال النهار. وخلال ذلك لم يهدأ حماسه الحواري، إذ كان يشجع أولئك الأبرياء الذين كانوا يتألمون من طول الانتظار ومن الجوع، ويحثهم على الموت في سبيل الصليب وعدم

الاستجابة إلى تهديدات قياد الملك وتضليلاتهم. فوعدوه بالثبات، واستراح قلبه الحزين.

خرج الملك بعد ذلك غاضبا يهدد بالثأر، لكي يخيف الصابرين، فكان الأطفال والأب المكرم هم الأوائل الذين اختارهم ليقدمهم إلى مذابح الارتداد. ثم أشار على الأب المكرم لكي يرافقه في تحرير المعمورة ليستفيد من حكمته، ويحقق بذلك آماله في الانتصار، فعينه قائدا لجيوشه مقابل أن يسلم ويتخلى عن دينه.

لكن الأسقف أجاب بأنه لا يلائم إدارة الجيش بسبب ضعفه، وأنه لم يتعود على مثل هذه المهام. فألح عليه الملك كثيرا مبينا له أن قدرته ستؤهله للتكيف مع هذا التشريف، وأن المسؤولية الجديدة لن تكون قاسية عليه، ثم أعطاه خنجرا مزينا بأحجار كريمة إشارة لتعيينه قائدا. فرفض الأسقف هذه الملاطفة الشيطانية، واحتقر طلب الملك قائلا له إنه لن يسمح لنفسه أن يعصي إلهه، وباعتباره مسيحيا سيهدي نفسه إلى سيف الملك ليموت في سبيل الإله وابنه الوحيد يسوع المسيح. ثم حاول إقناع الملك بقبول الشريعة المسيحية الحقيقية، وترك شريعة المسلمين باعتبارها مؤامرة سيئة من الأكاذيب تؤدي إلى جهنم.

اندهش الملك بهذا القرار الشجاع، ثم قال له :"تهين أفضالي، وتسب رسولي المقدس، وتريد أن تموت من أجل هذا المسيح، ولا تعيش مسلما"، فرد عليه الأسقف أنه لا يستحق سعادة الموت في سبيل الإله إلا إذا أراد أن يتكرم عليه بحبه. فقال له البربري:"بدون أن يشفق عليك إلهك سأمنحك هذه السعادة"، وأخرج خنجره وطعنه بضربات قاتلة.فسقط القديس على ركبتيه وجمع يديه ورفع عينيه إلى السماء، واستعان بالاسم الحلو لمريم القديسة وغنى أبيات نشيد "انظر إلي"، وعندما رفع الأمير المستبد يده ليقطع رأسه كانت الكلمة الأخيرة التي نطق بها هي: "هذه هي ساعتي احمني يا أبي سان أكوستان"، فطارت روحه إلى السماء، وأدرك الاستشهاد. وهكذا استجاب الله لدعائه، ولم يحاول الملك الغاضب أن يستميل باقي الأسرى المسيحيين الذين بكوا كثيرا عندما رأوا ما فعله الملك الوحش بالأسقف القديس، فأمرهم بالذهاب جميعا.

أمر الملك أسيرا بستانيا لديه أن يجر جسد القديس لكي تأكله الطيور، لكن الأسير باعتباره مسيحيا قبل الرفات المقدس كثيرا ودفنه في قبر لائق. وعلم الملك بذلك، فناداه غاضبا، وطعنه بسيفه عقابا له على عدم طاعته، ولكنه لم يقتله على أساس أن يخرج الدفين ويعرضه للطيور الآكلة. فتظاهر المسيحي بالخضوع، وقرر

الموت على أن يترك جسد القديس معرضا للإهانة.

ولما علم الملك للمرة الثانية أن الأسير لم ينفذ أمره، أمر أن تربط رجليه ويديه في حضوره، لكي يخضعه بسيفه، لكن القياد الحاضرين دافعوا عنه، فعفا عنه الملك على أن يشهد بعض المسلمين والمرتدين تنفيذه للأمر الملكي. فرشا المسكين هؤلاء ببعض المال لكي يبقى الرفات محفوظا ومصانا، وأكدوا للملك أنهم أطاعوا أمره، فزال الخطر عن الأسير المسيحي الطيب. وكافأ الله عبده الأسقف حيث بقي رفاته مدفونا حتى أخرجه مع رفات الشهيد فراي خوان دي برادو الأب فراي ماتياس دي سان فرانسيسكو. وقد وضع رفات الأبوان في دير سان دييكو في إشبيلية. وعوقب الملك البربري على فعله السيئ، حيث شلت يده اليمنى، وظل على تلك الحال حتى اقترب أجله، وقتل على يد بعض المرتدين بتحريض أخيه المولى الغالي الذي تسلم الحكم بعده.

الفصل الثاني

مرحلة انبعاث الكنيسة بعد ركودها ونشاط البعثة التبشيرية في هذه المرحلة والمكاسب التي حصلت عليها

تأسيس دير مراكش وإرسال البعثات ونتائجها وتغيراتها وطرد الرهبان[213]

- **قرار الإقليم تأسيس الدير وإرسال المبشرين إلى إفريقيا:**

لعل معاناة العمل الشاق والقتال الدموي هما اللذان يؤديان إلى تحقيق الانتصار، وتحويل المرارات إلى لحظات حلوة. وقد سعى إقليمنا إلى تحقيق هذه الغاية، بعد أن أرسل أبطاله الثلاثة من أجل الدفاع عن حقائق الشريعة المسيحية، وإحياء البعثات الضائعة، ودعم الجانب الروحي للأسرى المساكين، فتعرضوا للقتل الوحشي من قبل العدو، وتوجوا الشريعة بأكاليل النصر .

بعد أن توصل الأب الإقليمي بالرسائل التي تتضمن الإذن الكريم الذي منحه ملك المغرب للرهبان -والذي يخول لهم العيش بحرية، وإسعاف الأسرى واسترجاع كنيستهم القديمة- أخبر الإقليم بهذا الخبر المفرح، الذي أنساهم الأحزان التي عاناها أبناؤه الأبطال. فتم الإجماع - اعترافا بالواجب المقدس - على إحياء الحماسات الأولى للأب الملائكي الذي طالما تمنى أن يطأ أبناؤه هذه الأراضي المحمدية. وهكذا قرروا إرسال عمال أكفاء يقومون مقام الشهداء الأوائل للمذهب، ويدافعون بدمهم عن الشريعة، ويسعفون الأسرى ويؤدون العمل الإلهي في هذه الكنيسة المقدسة التي شهدت حضور أساقفة قديسين .

لما علم السيد نونسيو بالخبر، ذهب إلى السدة البابوية التي منحته كل ما يلزم لإرسال البعثة التي ترأسها فراي ماتياس. كما كتب الإقليم إلى الأب المحترم فراي خوان باوتيستا كامبانا الذي كان قائدا عاما بذل جهودا مقدسة لصالح المذهب، وذلك لإعلامه بهذا الخبر

(213) هذا الفصل هو ترجمة للقسم الخامس من كتاب "Mision Historial de Marruecos" لفرانسيسكو ديل بويرتو. ويتضمن هذا القسم 46 محورا، ويتألف من 219 صفحة، من ص 411 إلى ص 630.

لكي يحقق الامتيازات المأمولة ويجني البركة باسم الأب الملائكي لكل المبشرين الذين ذهبوا إلى هذه الأنحاء الخارجة عن سيطرتنا . وبما أن فقرنا لم يسمح بتدبير جميع الضروريات، وكان من اللازم أن نبادل الملك المغربي هذا المسعى الودي الذي قام به تجاهنا. فقد التجأنا إلى حماية الدوق دون كاسبار الذي قبل مساعدتنا بفضل ورعه وحنوه الذي ورثه عن أبيه

وبعد الحصول على مساعدة هذا الأمير السامي أرسل البابا الإقليمي إلى جميع الأديرة إذنا لإعلان خبر تشكيل البعثة الجديدة ليتطوع الجنود الشجعان للذهاب إلى بلدان لا يملكون فيها الأمان على حياتهم.فتطوع اثنان وعشرون راهبا قدموا أنفسهم للمذابح من أجل الاستشهاد والانتصار المجيد للشريعة المسيحية. وقد أيقن الإقليم أن جميع المتطوعين قادرون على كسب ما هم عازمون عليه، غير أن الكرسي الحواري لم يوافق إلا على إرسال أربعة مبشرين فقط، حتى لا تكون كثرة عددهم سببا في رفض الملك والمغاربة لهم، من حيث إن هؤلاء لم يتعودوا كثيرا على اللباس الرهباني. والمبشرون المرسلون هم فراي نيكولاس دي فيلاسكو، وفراي خوليان باستور، وفراي بارطولومي دي سان برنردينو، وفراي طوماس دي سانتا ماريا، وجميعهم رهبان مشهود لهم بالورع والخصال العجيبة .

لقد اعتبر الإقليم أن إرسال الرهبان المبشرين إلى أرض البربر المتوحشين عملا مهما يحتاج إلى مراعاة اعتمادات عقيدتنا المقدسة مثل الوقار الأسقفي، والهيئة الرهبانية، والرأي المسيحي الصالح، لكي يكونوا قدوة للبربر وللأسرى الذين يعتمد عليهم في المحافظة على الدين. وقد روعيت اعتبارات كثيرة في اختيار الرهبان الأربعة حتى لا يتم الوقوع في أخطاء، وتم إصدار قرار بالاكتفاء فقط بالمبشرين الذين عينهم المجمع المقدس للنشر، كما أنهم عهدوا للإله مطلقا أمر اختيار المبشرين المتوجهين إلى إفريقيا وذلك على النحو التالي:

عندما قرر المبشرون الجدد الذهاب إلى المغرب أعلم الأسقف الإقليمي جميع الأديرة بالرخصة التي منحها الكرسي الحواري لهؤلاء الأربعة، لكي يقوموا ببعض الممارسات المقدسة. وقد التمسوا من السيد الإله اختيارهم بعنايته ليحققوا هذا العبور، ويتحرروا من أسر الإسرائيليين. وبعد ذلك احتفلوا بالقداس الذي حضره جميع الإقليم، ثم قاموا بكتابة اسم كل مبشر في ورقات وضعت في كأس. وبعد الانتهاء من القربان المقدس، وترتيل النشيد الذي بيته (ائت إلينا أيها الروح الخالق)، وصلاة السيدة مريم، وصلاة الأب سان

فرانسيسكو، قام الأسقف الإقليمي بنفسه بحضور الجميع باختيار عدد من القصاصات التي تحمل أسماء الرهبان الذين يتعين عليهم الذهاب، دون أن يجرؤ على تغيير أحد من هؤلاء الذين اختارتهم السماء بهذا الطريقة، حيث ارتبك المحظوظون بهذا الاختيار، وتواضع الآخرون وخضعوا للأمر الإلهي معتبرين أن تقاعسهم لا يستوجب هذه المنة .

عينت المدرسة المقدسة اثنين: الأول مبشر حواري، والثاني مساعد للحواريين المقدسين لنشر الشريعة المسيحية عبر العالم وهما يوسف وماتياس. ورغم أن السماء صرحت أن ماتياس هو الأقوى، وصرح الروح القديس أن يوسف هو الصالح، إلا أن ماتياس لم يكتب له أن يكون مبشرا حواريا لكي لا يكون قديسا بسبب حكمة إلهية مجهولة. لقد وجد هذا الاحتفال منذ الأزمان الأولى، ولم يكن هناك سبب لتغييره، وظل الأساقفة إلى اليوم يستشيرون الله في المبشرين المرسلين، لأنهم يعرفون جيدا أهمية المسؤولية الملقاة على عاتقهم .

عين الإقليم الرهبان الأربعة، وعندما حان وقت ذهابهم قرر السيد دوق المدينة أن يحمل واحد منهم اسم السفير، لكي لا يشك المغاربة في مجيئهم، وأعطى لفخامته كل النفقات الضرورية لكي تكون السفارة في اسمه . وهكذا عين الأب فراي نيكولاس دي فيلاسكو من قبل الإقليم والدوق ليحمل هذه الصفة. ثم زودوه بالتعليمات التي يجب أن ينفذها، والتي تتمثل في القيام بكل الإجراءات التي تبدو له صالحة استنادا إلى ما تخوله له السلطة الحوارية التي يتمتع بها، والإتيان بالخبر اليقين عن الاستشهاد المجيد للقديس فراي خوان دي برادو وإحضار رفاته، وهو الموضوع الأساس من سفارته. وبعد هذا تقرر أن يذهب الحواري فراي خوليان مع السفير، ويقيم معه الأب فراي ماتياس الذي كان في مراكش يعانى كثيرا من الوحدة، ويبقى الراهبان الآخران في قلعة مازاكان، ليكونا جاهزين للعبور إلى مراكش من أجل تعويض أحد الاثنين إذا مات أو حدث له طارئ ما . وظل هذان الراهبان ينتظران لبعض الوقت في مازاكان، ولما بدا لهما أن الله لن يفتح لهما الطريق، وأنه لن يوجد سبب لدخولهما إلى هذه المناطق البربرية، رجعا خاضعين للقرار الإلهي عندما ناداهما الإقليم.

- **خروج السفير والمبشرين الجدد ووصولهم إلى مازاكان وأزمور :**

أعد الإقليم كل المستلزمات وهيأ السيد الدوق سفينة آمنة من أجل السفر وزودها بالمؤونة اللازمة والناس الطيبين . وأعطيت الرسائل للأب فراي نيكولاس ليسلمها إلى

ملك المغرب. وودع الجميع باحتفالات مقدسة ثم أقلعوا من سان لوكار يوم السبت 26 يونيو سنة 1637، وخرجت مراكب تجارية أخرى للحراسة من قادس في يوم الخميس على واجهة شيشبونية في الثامنة صباحا، ودخلوا في البحر العظيم واثقين من رضى الله عنهم، لأنهم لم يبحروا من أجل جمع اللؤلؤ، وإنما قصدوا البحث عن الأرواح الضائعة في الكفر. وخلال الإبحار هبت ريح مواتية فوصلوا إلى شواطئ مازاكان يوم السبت رابع يوليوز في الساعة السادسة مساء . وعند الرسو أطلقوا في الساحة طلقات السلام، ثم ذهب القائد مع الكونت دي نوفو الذي يحمل الرسائل التي أحضرها من لدن السيد الدوق، ليخبر الرهبان بمحاولاته وبالسفارة التي جاء بها الأب فراي نيكولاس دي فيلاسكو .

أعلن الدوق الاحتفالات بوصول المبشرين إلى مينائه، وتم الأمر بإرساء المركب الملكي الذي يحمل نائب الهيئة الإكليروسية وقاضي الحصن وفرسان آخرين رافقوا القديس فراي كينس وفرانسسكو روكي، بحيث أرسلهم الدوق لكي يقودوا السفير إلى اليابسة، وقد كان هؤلاء الرهبان نبلاء ومهذبون ويحترمون كثيرا فراي كينس. وهكذا وطئوا الرمال المبللة لهذه الشواطئ، حيث كان ينتظرهم فخامة الكونت والفرسان والجنود والرهبان السابقين الذين فرحوا واحتفلوا بمجئ المبشرين الجدد، وقد عبر الكونت الكاثوليكي للرؤساء الحواريين عن تقديره وإذعانه لهم، ورافقهم بكل حاشيته حتى مصلى سان خوان، حيث هيأ لهم هناك مأوى رائقا لضيافتهم، وزودهم بالمؤونة في جميع أيام إقامتهم.

ارتاحوا في هذه القلعة وتشاوروا فيما بينهم عن كيفية العبور إلى أزمور. وهيأ القائد لفرانسسكو روكي فرصة الذهاب بالرسالة إلى الملك المغربي وإخباره بمجيء الأب السفير ملتمسا منه الإذن للدخول إلى مملكته بالشريعة الحقيقية التي قبلها كثير من الأشخاص. خرج فرانسسكو وعلم أن الملك موجود في تلك الأرض لكي يخمد بعض الثورات التي سببها بعض الثوار، فسلم له الرسائل، وشكر الملك هذا المسعى وأمر أن ينتظر السفير في مازاكان حتى يعطي أمره الجديد، لأنه كان عليه الذهاب إلى سلا الثائرة ويخضعها إلى طاعته. ثم ذهب فرانسيسكو من جديد برسالة إلى موسى بلياشي كاتب الملك المضطلع باللغات الأجنبية لكي يعطي الإذن للسفير بالدخول إلى مراكش، فقام اليهودي بكل المساعي لتحقيق هذه المهمة .

بعد أن أنهى الملك تبعياته في تلك الأرض، قرر أن يستقبل السفير في عاصمته وليس

في الخيمة التي كان نازلا بها لكي يكون استقباله عظيما. وهكذا ذهب بكل من كان في الميدان إلى مراكش، وأرسل قائدا خاصا لمرافقة السفير، وفرسا مسرجا ومزينا بشكيمة من ذهب وغطاء من نسيج ناعم وطقم من فضة في رأسه، ورباط من حرير، وأرسل خادما أسودا لخدمة الفرس. وعلى هذا النحو وصلوا إلى مازاكان في الخامس عشر من غشت، واستراح القائد ثلاثة أيام، وأمده فرسان تلك الساحة بكل ما يحتاجه، وذلك احتراما لقيمة اللقب الذي يحمله. ولم يعبأ كثيرا بالاحتفالات التي خصصت له، وبما أنه كان مدركا لطبع المغاربة، فقد أهدى لهم ثيابا من نسيج رقيق، ومن نسيج القطن، وقلنسوات من الصنف الرفيع لشكرهم على الإعانات التي قدموها للرهبان في الحوادث التي كان يمكن أن يتعرضوا لها خارج البلد الذي ذهبا إليه، بحيث وزع عليهم هذه الهدايا بحسب قيمة إعانة كل واحد منهم. وقبل أيام من ذلك كان الملك قد أرسل إليه، اعتبارا للصداقة التي ربطت بينهما، فرسين إفريقيين بطقميهما الغنيين. وشكر القائد هذه الهدية، واعتبر ذلك مناسبة ملائمة ليكون دخول المبشرين إلى تلك البلاد أكثر وقعا، وبما أن المصلحة هي التي تحظى بالتقدير الأول فقد هيأ هدية مناسبة، رغم أن الوقت والمكان لم يسمحا بذلك، إذ كانت جميلة وكفيلة بأن تشبع طمع الملك.

وهكذا تم تعيين فارسين لمساعدة الأب السفير حتى الوصول إلى مراكش، الأول عارف باللغة العربية، والآخر اسمه دون ألباريس بانيا فارس بثوب راهب رافق السفير حتى خروجه من أزمور إلى مراكش. وقد أعطى هذا الفارس لهؤلاء البربر مثالا للتقدير الذي يكنه المسيحيون لأساقفتهم، ذلك أنه عندما يتكلم مع الأب السفير يأخذ القبعة في يده، ويهيأ له الركاب عند الصعود، ويقبل رجله عدة مرات عندما يكلمه. وهو أمر يعجب له هؤلاء الكفار ويلزمهم باحترام الرهبان، وخاصة عندما يرون الفارس يفضل لباس الصوف المرقع على الحرير. وقد أعدت السيدة الكونتيسة للرهبان الزاد الذي احتاجوه في الطريق القاحل، وأهدت لهم هبة من فضة رفضها السفير، لأن الأمير الذي أرسله كان قد أمده بكميات وافرة .

أعدوا كل شيء للخروج جميعا يوم 18 غشت إلى أزمور، ورافقت فخامته كتيبة من الفرسان حتى نصف الطريق، وودعوهم هناك. وعند الوصول إلى أزمور وجدوا هناك خادما أسودا يحرس متاع الملك وخيمته والقطائف والحصائر. بالإضافة إلى ثلاثين من خيوله محملة بالبنادق أرسلها للحراسة في الطرق. والتمس القائد ثلاثين فارسا مزودين بالرماح زيادة في الاحتياط وتوفير الأمان. ومن ثم خرجوا من أزمور في صباح يوم 21

غشت، وعلى الرغم من توفر الحراسة الجيدة فإنهم توجسوا من تحريض الثوار لقطاع الطرق لمهاجمة قافلتهم. وفي يوم 23 منه وقفوا للاستراحة في ضفاف وادي تانسيفت الذي أخصب الأراضي المجاورة له .

أرسل قائد هذه الكتيبة بريدا إلى الملك أخبره فيه بمجيء السفير، فأرسل الملك الأمر مع موسى بلياشي للترحيب به. وخلال ذلك علم الأسرى المساكين بالخبر، فلم يمنعهم سجنهم من الخروج حتى الضفة مع كثير من المغاربة والتجار الكاثوليك فرحين بمقدم الأساقفة الجدد. كما خرج الأب فراي ماتياس الذي بقي وحيدا في كنيسة مراكش، وكان جد مسرور لرؤية هذا التدبير الجيد لإعادة إحياء البعثات. ولم تكن فرحة المبشرين الجدد أقل من ذلك، عندما رأوا الأب القديس الشيخ وحده متعبا بكثرة الأشغال، فعانقوه بحرارة حتى دمعت أعينهم، وأدوا جميعا صلاة الشكر لله على وصولهم إلى هذه الأرض الوعرة بسلام. وهناك مكثوا بعض الساعات حتى هيئوا الموكب ليكون الدخول أكثر بهاء.

- **دخول السفير إلى مراكش وتسليم السفارة إلى الملك :**

تم تهيئ مأوى الضيافة وكل ما يلزم لاستقبال السفير وحاشيته، وأعطي الأمر بالدخول. فوصلت الأثقال وأسلحة الكونت دي كاستيل نوفو مغطاة بأغطية مطرزة ومحروسة بفارسين مسلمين. ثم تبع ذلك المرافقون، وتلاهم الرهبان محاطين بالقائد ومجموعة من المغاربة النبلاء، وبقي في مؤخرة الجيش كتيبة جميلة من الفرسان. وبعد أن شاع خبر مجيء السفير والدوق بين المغاربة، خرج جميع سكان المدينة الآهلة لرؤيتهما رغم وعورة الطرق، كما أتى الملك وأمه متخفيين إلى برج لرؤية الحفل العظيم، حيث أتى أمامهم الفرسان يلعبون بالبارود والرماح ويصيحون ويناوشون، حتى بدا أنه قتال حقيقي.

أعد مقر الإقامة في منزل واسع بحي اليهود، وجهز بسرادقات وكراسي عالية وأسرة وستائر من حرير ومخيطات من ذهب. ورغم أن الأب السفير يرفض استعمال مثل هذه المظاهر الغنية، إلا أنه قبل هذا التكريم الذي حظي به تقديرا لمكانة الأمير الذي جاء باسمه . وبعد هذا أرسل الملك قائدا لتهنئته على وصوله، كما أمر لكل حاشية السفير بصرف أربع مثقالات من الذهب في كل يوم والتي تساوي أكثر من ثمانية بيسو إسبانية، وهو قدر كبير للمساعدة وهين بالنسبة إلى جميع كرماء هذه البلاد. وفي هذا اليوم نفسه قدم الكونت هدية إلى الملك، فشكره هذا الأخير كثيرا، ثم قرر تخصيص يوم آخر لمقابلة عامة مع السفير بدون مرافقيه، ويبدو أن الملك خصص ذلك لإظهار عظمته - وذلك

بالنظر إلى مظاهر الاستقبال التي خصصها - فقد اصطف أكثر من ثمانمائة جندي مسلح من الأبواب الأولى للقصر الملكي حتى حدود ساحة المدخل الداخلي الأول. وكانت الساحة الأولى مليئة بكثير من النباتات المحاطة بالسرو والمسقية بماء غزير. وقد ائتلفت الفرقة الملكية من أربعين آلة موسيقية مختلفة، وارتدى الحجاب لباسا قرمزيا. ولما خرج القائد مرافق السفراء المرتد جؤدر ليخبرهم بترتيبات الاستقبال أبدى السفير بعض الملاحظات حولها، وذلك أنها لا تتفق مع عظمة الملك الذي أرسله، وأن تنفيذها سيلحق ضررا بسيادة السيد الدوق، ولأن آداب المعاملة تقضي أن تسلم الرسائل للملك وحده لكي يرد عليها. ولما أخبروا الملك بهذه المخاوف استجاب لهم بحلم متنازلا عن سلطته التي اعتاد عليها مع السفراء الآخرين ليوافق سياسة إسبانيا.

وبعد تسوية هذا الخلاف دخل السفير مع المرافق اليهودي الترجمان ورئيس التشريفات، وكان العرش الملكي قد أعد في أحد الممرات مسندا إلى الرخامات التي جلد عليها الشهيد المكرم فراي خوان دي برادو ومرافقوه، ففي المكان نفسه الذي أهينت فيه التنورة الرهبانية من قبل حصل احترامها وتقديرها. ثم جلس السفير في كرسي أكثر انحناء عن باقي الكراسي ولكنه جميل وفاخر، ولبس قفطانا على طريقة لباس القساوسة بأزرار مذهبة عربية كبيرة، وأكمام هرمية، وغطى كل شيء وهو جالس. كما تأزر بدثار ملكي من نسيج رقيق، وأخذ في يده اليسرى خنجرا محدبا شد بالإزار، وكانت قبضته مزينة بأحجار كريمة تلمع عند تحريكه. واصطف القياد والمخصيون من الدرجة الأولى في صفين منذ الباب الأول للعرش حتى جانبي السفير، ووقف بجانب الكرسي مخصي يحمل مطرقة رأسها من ذهب ومزينة بريشات ملونة، وحمل أربعة مخصيين آخرين مروحات لتلطيف الجو وتنعيمه.

دخل السفير وتأدب مع الملك على عاداتنا، فجلسا وتحادثا، وكان الملك لطيفا معه، فسأله عن صحة الدوق وتمنى له الازدهار الكبير، وأجاب السفير بكل التعبيرات المهذبة التي أسعفته ليؤكد له أن المرتدي للملابس الصوفية الفقيرة يعرف جيدا مجالسة الملوك والأمراء. وسأل الملك أيضا السيد الكونت دي كاستيل نوفو عن حاله، وطلب من دون فرانسيسكو تيليز أن يكون خادمه مؤكدا الصدااقة الجيدة التي ستجمعهما. ثم طلب السفير الإذن من الملك لكي يبقى مرافقه خوليان باستور في المغرب، فأذن له، وخاطب الراهب ملتمسا منه أن يبقى مع صديقه السفير ويعتني به كما في وطنه. واستغرقت المقابلة نصف ساعة، وودعه بالتشريفات نفسها، ثم ذهب السفير إلى مأواه.

دفع الأب السفير بعض الكميات من الفضة من أجل اقتناء قلنسوات لجميع المغاربة الذين أتوا لاستقباله على طول الطريق حتى مراكش. وعندما شاع خبر هاته الهبة حضر كثير من المخصيين، وخدم الملك يطلبون عطاءه كما تعودوا أن يفعلوا مع جميع السفراء، وخرجوا بأصوات صاخبة قائلين: الله ينصر دوق المدينة، وهو ما يعني القول: الله يمجد ويعطي الحياة لدوق المدينة، ففي اعتقاد هؤلاء الناس أن من يمتلك يدا عريضة، تكون حياته طويلة. ولم يخرج السفير من مأواه إلا عندما ناداه الملك ليشاركه احتفالا دينيا، وأقام معه داخل القصر، حيث سحب نساءه من بعض الغرف التي تسمى البديعة ليقيم فيها السفير. وأستطيع أن أسجل هنا باقي ما يوجد في القصر وهي الشوارع، وأقفاص الأسود، والمخازن، والغابات، والحدائق . وفي اليوم الأخير من غشت سقط السفير مريضا بالحمى الثلاثية، وحزن الجميع لهذا الحادث مما أدى بالملك إلى إرسال أطبائه وأدويته لإسعافه، وقد شفاه الله بسرعة .

- **إدخال السفير لرفات الأب المكرم فراي خوان دي برادو وحصوله على الحيازة القانونية للكنيسة :**

بعد إتمام جميع ترتيبات تسليم السفارة بقي الأمر الروحي الأساس وهو تأسيس البعثات التبشيرية على قاعدة آمنة، والاهتمام بالأسرى، والحصول على الرفات المقدس. وهكذا التمس السفير من القائد رؤية الأسرى في الساجنة والتحدث معهم لإخبار آبائهم بأحوالهم. فأمر الملك أن يعلن 8 شتنبر يوم عطلة، وفي الصباح فتحت السجون، وكان السفير وحده مع مرافقيه، فغنوا القداس واحتفلوا بالقربان، ووعظوهم بعظات روحية حتى بكى الجميع متأثرين بحقائق الشريعة الكاثوليكية المقدسة ولما يعانونه من الأعمال الشاقة، ولتلك الرابطة الأخوية التي جمعت بينهم رغم اختلاف جنسياتهم .

بعد تكريم الرفات المقدس الذي كانوا يبحثون عنه، خاف بعض الأسرى من فقدانه، وهو الشيء العزيز الذي يواسيهم، لكن السفير أصر على الحصول عليه. فجاء الثلاثة الذين يملكون مفاتيح الصندوق، وفتحوه وسقوه بدموعهم، وخاصة الأب السفير الذي لم يتمالك نفسه عندما رأى العظام المحروقة لرئيس الإقليم الذي طالما تعامل معه. فقبلوا بحرارة هذه الرمادات الباردة، وميزوا بوضوح بين رماد القديس برادو ورماد الأب الشهيد فراي خوان ديل الكورال. ثم ألبسوا هذا الرفات ثوبا طاهرا وختموه بأشرطة مختلفة، فحصلوا بذلك على شهادة قديمة تثبت جحود المسلمين. وأتوا مع العظام بالسوط الذي جلد به جسم القديس، وكتاب الصلوات الذي كان يصلي به، ومعطفه الذي غطى به عريه الحواري.

وخلال استراحتهم لبعض الوقت عددوا بخفية الفضائل المتفردة والمعجزات الناذرة والاستشهاد المجيد لفراي خوان دي برادو الذي تعذب كثيرا، وهو ما لمسوه عيانا.

لقد تشكل هذا الأسر من عدة جنسيات كاثوليكية مختلفة بسبب الحروب، وقد انعكس هذا الاختلاف سلبا على إدارة الكنيسة المقدسة حيث كان هناك أسقفان أسيران من جنسيتين مختلفتين، وكل واحد منهما يريد أن يستأثر بالرئاسة، ليجمع صدقات القداس ومكوس الكنيسة لأميره الخاص ويحقق من خلال ذلك نجاحه الإكليروسي. وقد حاول جميع الملوك الذين لديهم أسرى في هذا الأسر أن يصلحوا هذا الاختلاف فلم يستطيعوا. وتغافل الأسرى عن دينهم، حيث كانوا يطيعون هذين الأسقفين اللذين كانا يهيئان ساعة القرابين المقدسة والعبادة الإلهية ويحددان لكل مهمة زمنها كما يبدو لهما، كما طلبوا من أسقف الكنيسة أن يلغي وقاره وجميع امتيازاته وأوامره.

وقد حاول بحق الأب فراي ماتياس الذي كان حاضرا في ذلك الوقت في الكنيسة أن يصلح كثيرا من الفوضى، ويقوم كثيرا من القوانين الكنائسية الفاسدة، ويعيد للكرامة الأسقفية اعتبارها إلا أنه لم يستطع أن يقضي على جميع السلبيات التي نتجت عن جسارة هذان الرجلان السيئان في أرض لا يوجد فيها قانون ما عدا أسقف فطن وقادر على إقناعهما. وقد أدرك الأب السفير كل هذه الأمور، وأدرك أيضا أنه رغم قدرته على مصالحتهما إلا أن ذلك لن يمنعهما عن التغافل بعد ذلك. لذلك ارتأى حلا موضوعيا لا يمس بأي جنسية. وبيان هذا الحل أن يتفرد الإقليم بهذا الاختصاص الإكليروسي، ولأن شعائره تتناسب مع شعائر إسبانيا. خاصة وأن البابا السامي أعطى السلطة لمبشرين من هذا الإقليم، وخول لهما إدارة جميع المقدسات الخورنية وهما الأبوان فراي خوان دي برادو، وفراي ماتياس دي سان فرانسسكو مع الاعتماد على قساوسة خدم للقيام بكل العبادات المقدسة مع الأسرى. ويضاف إلى هذا اعتبار آخر يتعلق بملكية إسبانيا لهذه الكنيسة منذ القدم، حيث أجاز الملوك المغاربة القدماء للفرسان المستعربين الإسبانيين تأسيسها، وقدم ملوك إسبانيا دائما أسقفا لهاته الكنيسة وتحملوا نفقاتها. وقد تبين ذلك من بعد عندما التمس ماركيز دي ريباس دون أنطونيو دي أوبيا كاتب المراسلات العالمية للملوك الكاثوليك من جمعية الشعائر أن تقرر ما إذا وجب على المبشرين الذين يتواجدون في هذه الكنيسة المقدسة أن يصلوا لقديسي إسبانيا. وتداولت الجمعية المقدسة هذا الأمر وردته إلى الرئيس العام فراي لويس دي لاطوري الذي كان آنذاك في روما. فأجاب أنه ليس من الضروري انتظار رسالة بابوية جديدة أو تصريحا في هذا الشأن، وأنه تجب

الصلاة بالشعائر الإسبانية في الاحتفالات.

كل هذه الأسباب وأخرى دفعت الأب السفير إلى تأسيس الدير باسم الكرسي الحواري و باسم المذهب الملائكي لإقليمنا، وإلزام الجميع بشعائر إسبانيا، ورد تبرعات الحفلات للأمراء الأسبان لكي تنتهي مطلقا جميع التجاوزات. ولم يكشف الأب السفير للأسرى عن هذا الموضوع إلا عندما سنحت له الفرصة المناسبة، وذلك عندما أهداه الملك بعض المنن، فالتمس منه حيازة كنيسة المسيحيين التي كانت في الساجنة، وكان الجميع يعرف أنها تنتمي إلى مذهبه وإقليمه ولا يستطيع أحد أن يحرمه من هذه الحيازة. كما التمس السفير أيضا إضافة بناء بعض الحجرات للمكاتب، وغرف أخرى للأسرى المجاورين للكنيسة، وقطعة أرض لبناء بيت للرهبان الذين أتوا من الإقليم، والحصول على حيازة الدير بالحقوق نفسها التي يملكون بها أديرتهم في إسبانيا، لأنه منح من قبل الحيازة للأب فراي ماتياس لكنها لم تكن بإذن قانوني، وبالسعة التي أرادها السفير. وهكذا استجاب الملك لهذا الالتماس وأمر كتابه وعدوله بإعطاء الحيازة التي يطلبها السفير، ومنحه شهادة بالختم الملكي لكي لا يستطيع أحد صغيرا كان أو كبيرا، حرا أو أسيرا، ولا خلفاؤه أن يطردوهم منها. وخصص يوم للاحتفال بهذه الحيازة الملكية، وذلك بحضور الأسرى الذين كانوا يعتبرون الحصول على هذه الملكية من قبيل الخيال. وفيما يالي هذه الشهادة القديمة :

• **شهادة حيازة الكنيسة :**

أشهد أنا الحواري مانويل ألفاريس نوطاريو أنني كنت في ساجنة مدينة مراكش في 22 شتنبر سنة 1637، وأن الأب فراي نيكولاس دي فيلاسكو صرح أمامي أن سيباستيان راميرس المشرف على أسرى الملك هو الشخص المكلف بتوزيع الغرف وإدارة الساجنة، بأمر من جلالة الملك المولى محمد. وكتبت هذه الشهادة بالعربية وختمت بالختم الملكي، وفحواها :

الإسلامي الخليفي المحمدي الشيخي الحسني الناصر لدين الله أيده الله تعالى بعزيز نصره واسمه بحوله ويسره وخلد شريف ذكره وفخره. صرفنا بحول الله وقوته على القسيس نيكولاس دي فيلاسكو القشتيلي جميع البيتين المعروفين للنصارى بحضرتنا العلية المراكشية يسكنها بنفسه أو يسكن بها من شاء على نظره من غير معارض ولا مدافع، وكذلك الكنيسة التي بالسجن وفيها مصلاهم قصرنا أمرها عليه وجعلناها بيده ويخلف عليها من ظهر له في مغيبه وحضوره ولا يزاحمه أحد من القسيسين في شيء من ذلك، والواقف عليه يعمل به ولا يتعداه. وفي أواخر ربيع الثاني 1047 الموافق لشتنبر 1637.

والتمس فراي نيكولاس دي فيلاسكو من أراييس أن يطيع الأمر الملكي ويضعه على

رأسه ويقول أنه يطيعه. وهكذا أخذ الأب فراي نيكولاس بفضل هذه العطية السعيدة ملكية الكنيسة باسم البابا الروماني والكرسي الحواري المقدس، وباسم مذهب السيد سان فرانسيسكو، وباسم إقليم سان دييكو الأندلسي. بحيث تفتح أبواب هذه الكنيسة وتغلق، وتقام الخطبة في المذبح، وتقام الاحتفالات الدينية في مختلف المناسبات على العادة الجارية في البلاد المسيحية.كما أخذ ملكية قاعة التراتيل، وخزانة الأشياء المقدسة للكنيسة، والمقبرة التي كانت أمام بابها، وهي فضاء مبني بالطوب حوالي ست سبائك في الطول وخمسة في العرض، وقد دفن به بعض المسيحيين.كما أخذ ملكية غرفتين بمعبر ومطبخ يصعد إليهما بدرج ويقعان في الجانب الأيسر من الكنيسة، حيث أقام رهبان مذهبه وإقليمه. وقد منحه جلالة الملك السامي المولى محمد كل هذا لكي يقيم راهبان من مذهبه بصفة دائمة في هذه المدينة والساجنة، فيسكنا الغرف ويديرا الكنيسة. وبعد حصول الأب فراي نيكولاس على هذه الملكية ترك الأب فراي ماتياس دي سان فرانسسكو مكانه، وهو راهب من مذهبه وابن إقليمه سان دييكو، وأمر أن يعوضه في حالة غيابه الأب فراي خوليان راعي واعظ وابن الإقليم نفسه، إذ كان من الممكن أن يبقى أي راهب من نفس المذهب والإقليم. وقد بقي الراهبان مقيمان في الغرفتين لحراستهما بشكل جيد وممارسة الحياة الكنائسية. وأمر الأب فراي دي فيلاسكو أن تسمى الكنيسة باسم الحمل الفرانسيسكاني، لكي يكون للكنيسة لقب حمل سيدتنا، ولقب المذهب الذي تنتمي إليه. والشهود الذين شهدوا على أخذ هذه الملكية هم: فراي ماتياس دي سان فرانسسكو، فراي خوليان باستور، فرانسسكو تيليز وهو فارس بلباس راهب، خوان كاتالان فرانسسكو سراكوسا، مارتين دي فيكيراس، كونسالو دي أراخو، ملشور دي لوس رييس، مانويل دي كامبوس، أنطونيو بيريز، أنطونيو فرناناديز. وجميعهم وقعوا في ذلك اليوم السعيد نفسه. وقد وجدت أنا حاضرا عند أخذ ملكية كل الأشياء التي رويتها هنا باعتباري الموثق الشرعي، ورأيت توقيع الشهادات، ووقعت أنا أيضا قبل الموثق الحواري مانويل ألفاريس .

- **خروج السفير من المغرب ووصوله إلى إسبانيا بالرفات المقدس :**

إن كل ما قدم للسفير عن طيب خاطر هو خديعة وقحة، فهم يقدمون الأشياء عن طواعية، ويعاقبون عليها. فإذا كان الحصول على ملكية الكنيسة أمر جيد، فإن المخاوف على ضياعها تبقى قائمة. إن كل ما ابتغاه الأب السفير ومرافقوه هو الحصول على الرفات، واستقرار البعثات التي ذهبوا متلهفين من أجلها ولقد اعتبروا كل المغازلات والاحتفالات الكاذبة التي خلت من مظاهر الكره هي مراسيم ضرورية لابد أن يتظاهر فيها المبشرون

بالاستمتاع للحصول على مقاصدهم . ولذلك عندما تم الانتهاء من تسليم السفارة، طلب الأب السفير إذنا من الملك للذهاب إلى دوق المدينة لإخباره بالفضائل الكثيرة التي حصل عليها وذلك اعترافا بالجميل، كما التمس منه تهيئ طريق سليم للإبحار من مينائه. فاستجاب الملك لطلبه ومنحه إذنا بالذهاب والإياب وقت ما شاء، مؤكدا له أنه سيستقبل بالتقدير نفسه. كما منح الإذن لكل راهب من مذهبه وإقليمه بالذهاب والرجوع إلى مملكته بدون عائق. وقد استغرق هذا الحوار الودي أكثر من ساعة عبر له فيها عن تأثره بغيابه، وودعه، ثم عاد إلى مناداته قبل الخروج من قاعة الاستقبال ليسأله عن حاجته، وأجابه السفير بأنه يريد أن يرجع فقط لرؤية أحبائه .

عند الوداع جاء القائد جؤدر مرسلا من قبل سيده بهدية تتضمن ثلاثة خيول، فشكر السفير ذلك ورفض قبولها لأن حالته لا تسمح له بأخذ أي شيء، ولكنه قبل أن يؤمن له الملك طريق سفره. فرجع القائد مرة ثانية بكمية كبيرة من الذهب وألح عليه بقبولها لكنه رفض أيضا، وأجاب بأنه قبل الكمية اليومية التي أمر له بها الملك لكي يقال في أرضه أنه كان على نفقة أمير كبير. ولما أحس الملك أن الأب السفير لن يقبل الرهن أرسل له حلية ذات قيمة عالية ليعلقها على صدره، فأجاب أن هذه الأحجار اللامعة لا تناسب رماد لباسه الصوفي. ومن ثم ارتأى هذا الكافر الحليم أن يهدي له لباسا أرسله مع موسى بلياشي، فأجابه أنه لا يمكنه أن يلبس غير هذه التنورات وأنه تعرى من كل ما هو غال إراديا، وأن السيد الدوق لن يسمح له بالمجيء إلا بهذا اللباس الفقير. فأعجب الملك بوجود رجال بهذه الخصال بينما يوجد رجال آخرون يتهافتون للحصول على الأكثر. وللتخفيف من هذا الإحساس الذي عذبه منح لأفراد حاشية السفير كميات من المال وأقمشة من نسيج رقيق، وأرسل شخصا لتوديعه وأعد له كل ما يلزمه. وقد اتفق الأب السفير والسفير المغربي المتجه إلى إنجلترا أن يخرجا سويا ويبحرا من ميناء آسفي، فكان الخروج أكثر بهاء من الدخول، إذ كانت هناك أربعة آلاف من الجمال تحمل الأثقال، فبدت القافلة كأنها جيش منظم.

ترك الأب فراي نيكولاس في الدير الجديد فراي ماتياس وفراي خوليان، واصطحب فراي كينيس الذي كان قد رافقه من مازاكان إلى مراكش، وحذره من أن يسجل الحراس المتغافلون في أزمور صندوق الرفات مع باقي الأحمال لأنهم لا يميزون بين الأشخاص، ولذلك نصحه أن يطلب من الملك عدم تسجيله قبل الذهاب. فأرسل الملك إلى قائد أزمور أمره بعدم تسجيل الصندوق والاعتناء به كثيرا . وعند وصولهم إلى أزمور، استقبلوا بحفاوة من قبل هذا القائد وظل معهم حتى آمنوا الرفات .

خرجوا من أزمور إلى مازاكان في 27 شتنبر، ووصلوا في اليوم نفسه، ومشى أمامهم خادم الكونت لإلقاء البشرى. وبعد أن وصل الخبر قرعت الأجراس، وخرج الحاكم بالفرسان والمشاة وسار حتى التقى بالسفير، فأطلقت البنادق دفعة واحدة وتصافح الإثنان. وهناك اصطف المشاة في كتيبة وأشهروا الرايات للرفات المقدس في ثلاثة أحمال مقفولة. وقد أراد الجنرال أن يقيم هناك بعض الاحتفالات، إلا أنه خشي أن تقع بعض الحوادث بسبب وجود كثير من المسلمين في الساحة، فأرجأ هذا الاحتفال إلى يوم عيد الأب سان فرانسيسكو. وعلى هذا النحو أقيمت حفلات كبرى ومسابقات شارك فيها الكونت وبين فيها عن خفة حركته الكبيرة، وقدمت السيدة الكونديسة عدة هدايا. وقد كان الرفات خلال هذه الأيام موضوعا بعناية في قصر الجنرال، بحيث غطت الكونديسة الصندوق من الداخل والخارج بغطاء ثمين من الحرير.

أعد الكونت المخلص كل احتياجات السفر، وبعد أيام من الاستراحة أبحروا ووصلوا إلى سان لوكار خلال يومين، فقد خرجوا من سان لوكار في 27 من يونيو، ورجعوا إليها في 14 أكتوبر. وفرح الدوق كثيرا عندما علم بمجيء السفينة التي تحمل ذلك الكنز الثمين وذهب لاستقباله، وأراد أن ينزل الرفات باحتفالية، لكنه عدل عن ذلك احتراما للقرارات البابوية التي لا تجيز ذلك لكي لا يعامل الرفات بكثير من العبادة. وهكذا ذهبوا في سيارته، وسحبت المدافع والبنادق التي أتوا بها إلا من أنين متألم على الهالك المحبوب. وجاء كل سكان المدينة إلى السفينة وعبروا عن فرحتهم بصخب، ودقت الأجراس في كل الصوامع، ووصلت السيارة الفاخرة إلى باب حديقة القصر، حيث اصطف اثنا عشر خادما حملوا الشموع، فأخرجوا الصندوق الذي استقبله الدوق جاثيا على ركبتيه ووضعه على رأسه، ثم قبله. وبعد ذلك أتوا به إلى منبره الذي يشبه منبر الكنيسة الكبرى للمدينة، حيث علقوه بخشوع، ولم يفتحوه حتى حضر الأب الإقليمي الذي يتميز بالتقدير المسيحي، ولم ينتظروا الأسقف الإكليروسي الذي ترجع إليه ملكية هذا الكنز الثمين.

وهكذا تخلصوا بسرعة من التبعيات الجماعية للإقليم، وأتوا إلى سان لوكار وشكروا السيد الدوق على رعايته، وقرروا ترك جميع الرفات في حماية فخامته، بحيث هيأ من بعد محرابا في المنبر الخاص الذي علق فيه الصندوق مقفولا بالمفاتيح، ومغطى بغطاء أسود من حرير. وأخذ الأب الإقليمي المفتاحين الخارجيين وبقي المفتاحان الداخليان مع فخامة الدوق، وهناك مكثوا بعض الأيام إلى أن سنحت لهم الفرصة المناسبة للذهاب إلى منزل صلوات سان دييكو في إشبيلية، حيث يرقد فيه هذا الرفات بدون أن تؤدى له العبادات،

وانتظروا الكرسي الحواري المقدس أن يأذن لهم بإقامة المذابح، فأخبرهم الوكيل من روما بإمكانية الاحتفال بالجهود المقدسة للشهيد، وصوت بالموافقة كل الأسياد المحترمين.

اطلع الإقليم على النجاح الكبير الذي حققه الحواريون الكادحون، فقرروا أنه من الأجدى أن يكونوا في الكنيسة المقدسة لمواساة الأسرى المساكين، فقرروا منح امتياز لكل من حقق كثيرا من المنافع والنتائج الجيدة لصالح البعثات المقدسة. وعلى هذا النحو ارتأى الإقليم مكافأة فراي نيكولاس دي فيلاسكو على ما حققه بخصوص حيازة الدير، فعقد اجتماعا استشاريا عينوه على إثره حارسا، ولم يحظ بلقب الرئيس الحارس أو المطلق باعتبار العدد القليل من الرهبان الذين أشرف عليهم. وقد انتخب الأب فراي ماتياس دي سان فرانسسكو أسقفا أولا ورئيسا مطلقا لأنه قام بإصلاح البعثات، وأسس الدير ووعظ وعانى كثيرا من أجل الأسرى. رغم أن كل ذلك كان نتيجة أنضجها استشهاد الأب فراي خوان دي برادو. ومنذ سنة 1637 ساهم في إدارة الكنيسة قداسة السيد أوربانو الثامن، والسيد فيليبي الرابع ممثلا عن إسبانيا، وفراي خوان بوتيستا كامبانيا ممثلا للمذهب، والأب فراي خوان بويليس ممثلا للإقليم .

- **بناء الدير وما وقع من حوادث :**

بعد ذهاب الأب فراي نيكولاس ظل الراهبان يخططان هندسة لبناء الدير الجديد، مبتغيان السرعة في إنجازه، لأن التهاون يفقد كثيرا من المحاولات الجادة. فتشاوروا في مقومات هذا البناء التي رغم أنها في هذا البلد غير مكلفة، إلا أن مجمع رهبانياتنا لم يكن يتوفر إلا على إمكانيات فقيرة. ومن ثم أعطاهم الإقليم بعض الهبات المتواضعة اشتروا بها خرابات بعض المنازل القديمة التي استعانوا بها في عملهم. وشاءت العناية الإلهية إنقاذهم عند الحاجة، إذ تكلف الملكان فيليبي الرابع وزوجته الأولى دونيا إيزابيل دي بوربون - بصفتهما مالكين لهذا الدير - بكل النفقات التي احتاجوها في إنجاز هذا العمل.

لقد وجد في الأسر بعض الأسرى الفنانين، إلا أنهم لم يتمكنوا من الحضور في بناء الدير لأنهم كانوا مقيدين ببناء أعمال الملك. وحضر بعض الأسرى الآخرين للمساعدة رغم ارتباطهم بهذه الأعمال نفسها، حيث كانوا يأتون في الليل بعد الانتهاء منها. فتقدموا في هذا البناء بفضل حماسهم المسيحي مقتدين بالرهبان المقدسين الذين حملوا بدورهم زنابيل المواد وسطل الخلط، حيث حمل القديس العجوز فراي ماتياس الذي قارب عمره الستين ومرافقوه الأحجار الكبيرة، رغم وجود الشباب المساعد، وذلك لبعث النشاط في

الأسرى المتعبين. وكانوا يستغلون فترات الاستراحة لرواية قصص القديسين وخاصة قصة الأم الحنون التي خصص لها هذا المنزل. وبهذه المهارة أنهوا عملهم في وقت وجيز مراعين كل الصفات والترتيبات اللازمة.

لقد استطاعوا أن يوفروا للكنيسة جسدا كافيا رغم ضيق المساحة، فكان هناك المصلى الأكبر وحامل الصليب، وشباك من خشب يفصل المصلى عن جسد الكنيسة مثل هندسة الأديرة في إقليمنا. وفي قسم من حامل الصليب كان هناك الحوض المقدس الذي يعمد فيه الأطفال ويغسلونهم من العبودية لكي لا يرثوها عن آبائهم في هذا الأسر المؤقت. وفي الذراع المقابل كان هناك في الأعلى قاعة التراتيل بمصعد قصير ينزل إلى أرضية المصلى، وزينت كلها بزليج جميل، وفي كلا الجانبين أقيم صفان من شبابيك ملونة بلون أضفى عليها صبغة تجلب الأنظار. وفي قاعة التراتيل هناك باب تطابق غرفة النوم، ومنها يتم الدخول إلى مكان العبادة الإلهية، بحيث تظهر منها قاعة التراتيل كأنها سماء مزينة بكثير من الفواكه المصبوغة، وأصيص الورود التي تشكل عرشا سماويا. فقد كان كل شيء متناغما ونظيفا في المصلى.كما بني أيضا تمثال الأسبوع المقدس، وأقيم مذبح متنقل لحمله إلى المخزن.

في أسفل قاعة التراتيل كانت هناك خزانة الأشياء المقدسة بأدراج مخفية لصيانة الأكواب المقدسة وثياب العبادة الإلهية، وذلك احتياطا من تقلب هؤلاء الكفار وحماية هذه الأشياء من إهاناتهم. أما المضجع فقد تكون من ست غرف صغيرة تبدو مثل مقابر جماعية تأوي هؤلاء الرجال المنعزلين، وكان لهذه الغرف سلالم وسطح لنشر ثياب الرهبان. كما وجدت أيضا صالة لاستقبال المغاربة العاديين لكي لا يدخلوا إلى داخل المنزل، وغرفة لتمريض وإسعاف المسيحيين المساكين الذين أتى بهم حظهم البائس لإعطائهم القرابين المقدسة، وهي تحتوي على ثمانية أسرة. أما النفقات التي تصرف في هذا المجال فهي متواضعة جدا من عمل الأسرى أنفسهم، بحيث أسسوا من أجل هذا الغرض جمعية الشفقة. ومع ذلك فقد كان يموت الكثير منهم في الأرض العارية والمفتقدة إلى النظافة، إلى أن ساعد الأمراء الكاثوليك ببعض الهبات لسد الحاجة . كما كانت هناك قاعة للأكل ترغب في الثناء على الله، وتخل بشهية الأكل بسبب قلة الزاد. ومثل هذا كانت باقي المرافق التي كانت قدرتها مطابقة لإمكاناتنا الفقيرة. وهكذا انتهى العمل بعزيمة المبشرين والأسرى على الرغم من أنه لم يبن كل ما روي، ولكن بني فيما بعد عندما ذهب الأب المكرم فراي ماتياس إلى إسبانيا، وقبل أيدي الملكين اللذين منحاه بعض الهبات

لإتمام البناء وعدم تقسيمه إلى مراحل مختلفة.

أخبروا الإقليم بما أنجز في العمل حتى ذلك الوقت، وأنه يتم برعاية الملكين الكاثوليكيين والرهبان المتواجدين في هذه الناحية والتابعين للتاج الإسباني. وقد رأى الإقليم أنه كان عدلا وضع هذا العمل تحت حماية السيد فيليبي الرابع وخلفائه. ولما سمع الأمير الكاثوليكي بهذا البيان أراد ـ باعتبار النفقات التي تبرع بها ـ أن يستخلص هذا الدير لنفسه وللملكة دونيا إزابيل دي بوربون، وأن يتوارث هذا الحق خلفاؤه، كما هي باقي الأديرة الملكية الأخرى. وعلى هذا الأساس فقد زين الملك هذا الدير بتحف مختلفة وجهزه بكثير من الأدوات. وكتب في هذا الموضوع رسائل إلى ملك المغرب سأورد هنا واحدة منها، وسأحتفظ بالأخرى عندما تستدعي الحاجة إليها، يقول : "قد عرفتم أننا أنا والملكة التي في السماء والرهبان الفرانسيسكان الحفاة لهذه المدينة أسسنا دير سيدة الحمل، وإني أطلب منكم أن ترعوا رهبانه وتحسنوا إليهم، ولا تسمحوا بإهانة أحد منهم. وبما أننا ساهمنا في بناء جزء من هذا الدير، فإنه من واجبنا الحفاظ عليه، وأحب أن أبدي لكم عن تقديري لرعايتكم وحمايتكم للرهبان كما فعلتم حتى الآن، وأنا في غاية الرضى والشكر، وأحب أن تواصلوا رضاكم وعنايتكم وتعهدكم.

مدريد 20 دجنبر 1653. أنا الملك".

لقد أكد جلالة الملكين الكاثوليكيين ملكيتهما لهذا البناء مهما كانت الحوادث والعوائق، وفي حالة تقلب الملوك المغاربة. ولذلك أسعفا الرهبان دائما بهبات كثيرة، وخصصا لهم حصصا سنوية من بيت المال الملكي من أجل الحفاظ على البعثات في هذا الدير. وعلى هذا أمر الإقليم أن يوضع في واجهة المصلى الكبير السيف الملكي للملكين الكاثوليكيين، لكي يكون علامة ملكية تدل على ملكيتهما الخاصة لهذا البناء، ولكي يعرف الأسرى من باقي الجنسيات الأخرى أن الملكين يملكان أديرة في بلدان أكثر عداوة للمسيحية. كما أنه يعد فألا سعيدا وجود الرايات الملكية لإسبانيا في هذه المملكة البربرية، ووجود أديرة يسوع المسيح في حرية من استبداد وظلم الكفار. وقد اعتاد المغاربة أن يقمع ملك إسباني استبدادهم الذي يمارسوه في هذا القسم الثالث من العالم، وهو ما سمعته من بعض كتابهم وليس من شفاه الكاثوليك.

ولا يتصف هذا الدير المقدس بهذه القيمة الملكية فقط، وإلا فيمكن أن يوصف بالعجيب، وذلك بالنظر إلى الملابسات التي أحاطت ببنائه، فرغم أن الملك أذن به إلا أنه

لا يمكن الوثوق بمزاجه المتقلب، وفي مناسبة بنائه كان منشغلا بحرب شرسة في القسم الأكبر من المملكة، وشاء الله أن يساهم الجميع في هذا البناء، فساعد بالعمل بعض منهم، وساهم البعض الآخر ببعض المواد وذهب آخرون لرؤيته، دون أن يتجرأ أحد على عصيان الكنيسة، ولن أروي هنا جميع الحوادث لأنها تتفق على مضمون واحد رغم اختلافها، وسأكتفي برواية حادثة واحدة.

بعد أشهر من إنجاز البناء وتشكيله وقعت سرقة في القصر الملكي، وبعد البحث كثيرا لم يتمكنوا من اكتشاف السارق، فافترضوا أن يكون مسيحيا، وأمر الملك بإرسال كتيبة سرا إلى منازل المسيحيين لعلها تجد دليلا ما، وهدد هؤلاء بالقتل في حالة إهمال الأمر. وهكذا سجلوا جميع المنازل ساعيا كل واحد منهم أن يكون هو المكتشف للسارق لكي يظفر برضى أميره ومكافأته. ورغم كثير من الحيل لم يتمكنوا من اكتشاف السارق، وعند خروجهم من الساجنة وقف القائد المأمور عند باب الدير وبدا له أنه سيجد أسيرا مخبأ في الكنيسة، فأمر الأب فراي ماتياس أن يعطيه المفاتيح أو يفتح الأبواب. وقد فاجأ هذا الأمر الأب الذي لم يكن يعلم بمن في الدير، بحيث كان يوم احتفال زينت فيه الكنيسة ووضع في المذبح الكبير صورة المجيد سان أنطونيو، وفي الجانب الآخر صورة المجيد سان سيباستيان. ووضعت بعض صناديق رفات القديسين، وباقات الزهور حتى غدا المذبح حديقة جميلة.

وبما أن الأسقف المقدس لم يكن مستعدا لمثل هذا الحادث، فإنه رفض أن يفتح الأبواب، واستعد للموت لكي لا يسمح بإهانة أحد في مذابح الإله، وهو فعل أثار شك القائد فاندفع بقوة وغضب مع مرافقيه وفتح الأبواب، وما أن خطا خطوتين ووقعت أعينهم على صورة امبراطورة المجد حتى وقفوا بدون حراك مندهشين، فنكسوا رؤوسهم احتراما للصورة وخرجوا صامتين دون أن يسألوا، وقد قالوا فيما بعد إن صوامع المسيحيين تقلق إحساس المسلمين، وهم لا يحبون الدخول إليها لأنها تفزعهم من الموت.

وهكذا أوقف الله هذا الغضب الهائج، وألزم هؤلاء الأعداء المتعجرفين على الخضوع تكريما لديره ولمريم الطاهرة. وقد وقعت حوادث أخرى كثيرة مختلفة ستروى في أماكنها.

• الممارسات والأعمال الروحية التي يمارسها المسيحيون في هذا الدير:

ليس مهما في المنزل الديني شكله المادي، والقصور وحدها هي التي تفاخر بالبناءات العالية. وعلى هذا فإن ما يميز منزل الإله عن المدنسات هو الشكل الروحي المنتظم. وهذا

هو الهدف الذي سعى إلى تحقيقه الراهبان القديسان المتواجدان في هذا الدير. فرغم أن وجودهما وحيدين أعفاهما من الالتزام بالنظام الدقيق المتبع في الأديرة، إلا أنهما حرصا كثيرا على ترتيب كل شيء بدقة. والخطوة الأولى التي حققوها هو حراسة الدير، إذ قضوا أربعة أشهر لم يخرجا فيها من هذا السجن الإرادي، ولم يتصلا بالمغاربة إلا عند الحاجة لكي لا يتجرءوا على إهانتهما.

وقسم الراهبان ساعات العمل الإلهي بعناية، بحيث كانت تؤدى الشعائر خلال اليوم في الوقت نفسه الذي يؤدي فيه المغاربة صلاتهم القذرة في مساجدهم، إذ بمجرد ما يصيح صوت المؤذن البربري من برجه لاستدعاء الجمهور الشارد، يسرع أساقفة يسوع المسيح لدق الجرس لمعارضة صوت هؤلاء الكاذبين الذين يؤدون عبادتهم للشيطان، بينما يؤدي المسيحيون عبادتهم لله في مذابحهم الطاهرة. فعند صياح الصوت الأول في بداية اليوم يقوم الراهبان باحتفال رهيب يغنون فيه المدائح بتناوب مع الأسرى. وبعد ذلك تؤدى الصلاة الذهنية التي تحصل بالصمت الذي يعين على تحققه المكان المنعزل ومناسبة الوقت الذي يكون قبل الإصباح. وبعد الاستمتاع بساعة التأمل يذهبون عبر الأبواب بجرس صغير لمناداة الجميع لحضور القداس، وعند الانتهاء يسحبون كل زيناتهم المقدسة ويقفلون أبواب الدير ليذهبوا إلى أعمالهم.

بعد صياح الصوت الثاني يقوم الراهبان الإنجيليان لأداء العبادة الثالثة والسادسة، ويكون يوما احتفاليا يغنون فيه أولا، ويؤدون الصلاة بورع كبير مع وقفة طويلة جدا. ثم يصيح الصوت الثالث بين الواحدة والثانية مساء فيؤدون ساعة المغرب. وبعد ثلاث ساعات يوجهون درسا من كتاب ديني يتناول موضوعا روحيا، ثم يؤدون نصف الصلاة الذهنية. ومن الساعة الثالثة إلى الرابعة يصيح الصوت الرابع، وفي هذا الوقت يؤدون "البدايات" التي كانت تغنى في الحفلات الكلاسيكية، ويحضرها الأسرى. ثم بعد ذلك يقوم أحدهما بشرح نص من الكتابات المقدسة لكي يكونوا مستعدين دائما للإجابة على الأسئلة الملقاة عليهم في مناسبات مختلفة. وفي بعض الأحيان يتناولون موضوعا أخلاقيا لمعرفة مواجهة الأحداث. وتخصص ثلاثة أيام من الأسبوع لتعلم اللغة العربية للدفاع عن الشريعة في محاوراتهم مع المسلمين.

وخلال هذه الممارسات يقضون الجانب الأكبر من المساء في مشاهدة النجوم الأولى، وهي الساعة التي توافق في البلاد المسيحية طائر مريم. وعندما يأوي جميع الأسرى إلى

الساجنة وتغلق الأبواب يصيح المسلم للمرة الخامسة، وآنذاك يذهب الرهبان لأداء الشكر لله على فضائله وشفقته التي تكرم بها عليهم خلال اليوم، ويصلون النهايات، وتكون هذه الساعة الأخيرة سعيدة، حيث يأتي كل الأسرى إلى الكنيسة عند سماع دق الجرس، فيغنون الأناشيد التي يمدحون فيها الأم الورعة، ويبكون حتى تسمع جلبة السلاسل التي يجروها. وفي أيام السبت تغنى التراتيل ومدائح ملكة السماوات مكان الصلاة. وبعدها مباشرة يؤدون بعض الصلوات على الأرواح المباركة وبعض الأدعية من أجل ازدهار الكنيسة الكاثوليكية والملكين الكاثوليكيين، ومن أجل السلام بين الأمراء المسيحيين، وحرية الأسرى المساكين. وفي جميع أيام الاثنين والأربعاء وأيام الجمعة يكون الصيام بصفة دائمة، وفي الصيام الكبير يحضر كثير من الأسرى ويبقى بعضهم حتى ساعة متأخرة لأداء الصلاة. ثم بعد ذلك يقرأ عن الصبر المؤلم للصليب، ويريدون بذلك البقاء في الكنيسة حتى يقضون الصلاة الذهنية في الساعة الأخيرة. وتنتهي الممارسات المقدسة عند صياح الصوت السادس بين الثامنة والتاسعة ليلا، ثم يذهبون إلى الساجنة.

وعند صياح الصوت السابع والأخير في نصف الليل يترك الراهبان سريريهما بعد وقت قليل من الراحة، ويأتيان إلى قاعة التراتيل يرافقهم الملائكة بدون شك لأداء صلاة الفجر، وفي بعض الأحيان يتناوب الاثنان على ذلك. وإلى جانب هذا العمل الكبير، يقومان في كل يوم بالعمل الصغير للسيدة مريم، وفي كل الأشهر بالعمل للموتى .

يخبر الراهبان الأسرى بالصيام الكبير وصيام الميلاد وكثير من احتفالات السنة للسيد المسيح، والسيدة مريم، والحواريين، والحفلات الخاصة بالمذهب. وجميع قداسات هذه الاحتفالات تكون مغناة، وأيضا صلوات الفجر للميلاد، حيث يأتي الأسرى ببعض الأدوات الموسيقية التي يحتفظون بها ليستعينوا بها في الغناء، فيجمعون المعزف والقانون والكمانات والنفير وأدوات أخرى كما تعودوا على ذلك في البلاد المسيحية.

يؤدي الراهبان كل الأعمال التي يقوم بها الأساقفة في البلاد المسيحية، فهما يتمتعان بامتيازات بابوية خولت لهما إدارة كل المقدسات الروحية والجسدية. كما كانا يقومان بإسعاف المسيحيين الذين يعيشون خارج الساجنة في حالة مرضهم فلا يفارقانهم، ويديران لهم الزيت المقدس، وبعد موتهم يتكفلان بتكفينهم إذا كانوا فقراء، ويدفناهم في مقبرة الكنيسة، لأن المغاربة لايسمحون بدفن الموتى في الأماكن المأهولة، وبما أن الساجنة تقع خارج أسوار المدينة، فإنهم يعتبرونها حقلا رغم مجاورتها للقصبة. ويشرف

الراهبان أيضا على عقد الزواج، وإذا أعاقهما عائق يتبعان ما أمرتهما به السدة البابوية، حيث يعظان بثلاث خطب ناصحة يهيأها المجلس الديني المقدس، ثم يعلن القداس بحضور كل الأسرى الموجودين. ولعله يعد مناسبة لشكر الله على رؤية الاحتفال بالقداس في أرض مدنسة يسمحون فيها لكل رجل أن يمتلك كثيرا من النساء .

ويقوم الأسقف بتعميد الأطفال، وفي هذه المناسبة يحتفل فيه بالقداس، حيث يأتون بالطفل إلى الدير بكثير من سلال الورد وكعك من الخبز الأبيض لإهدائه إلى الأساقفة.إذ رغم تناول هؤلاء الأسرى للخبز الأسود طوال السنة، فإنهم يتوسلون بالخبز الأبيض فتح أبواب السماء في وجه أطفالهم، فهو يعني النقاوة التي تستقبلها هذه الأرواح البريئة. وعندما يكبر الأطفال تخصص لهم ساعات محددة لتعليمهم الشريعة المسيحية في الدير.

وعلى هذا النحو سعى المبشران إلى تنفيذ كل هذه الأعمال بنظام دقيق للحصول على نتائج جيدة. وعندما أتى فيما بعد الأب الإقليمي فراي فرانسيسكو دي لاكوسيبسيون عالم اللاهوت والمفوض الرسولي للبعثات، وسفير فيليبي الرابع، خول للمبشرين سلطة كافية لقضاء باقي الأعمال الزائدة، وبقيت الأعمال الدينية تسير على هذا النظام حتى طرد الرهبان من هذا الدير الملكي، وبعد رجوعهم إليه اختلف نظام هذه الأعمال شكليا فقط ولم يختلف في الجوهر وذلك بسبب وجود ظروف أخرى مغايرة.

- **المواكب الدينية التي أقامها دير المغرب وجمعيات الأسرى الدينية :**

صحيح أن نصف الاحتفالات ذات المظاهر الغنية بالفخمة، لكن ما يهم كثيرا في الاحتفالات بالشعائر الدينية هو الورع. ومن هنا فإنه لا يمكن أن ننفي تمجيد أعمال الشريعة والمواكب والجمعيات الدينية التي يحتفل بها في هذا الدير الخورني رغم عدم اتسامها بالغنى. وتقام هذه الأعمال في حضور بعض المغاربة، وما من شك أنه إذا تعرض شيء من هذه المقدسات إلى التدنيس، فإن المسيحيين يتقدمون كلهم إلى الموت من أجل الدفاع عنها. ويأتي للحضور في هذه الأعمال بعض الأسرى التعساء، ورغم شدة تعبهم من كثرة العمل طوال اليوم، فإنهم يقومون بهذه الوظائف الدينية ليلا بورع وحماس كبيرين، وهو عبرة بالنسبة إلى المغاربة الذين كانوا يأتون متنكرين إلى بعض أصدقائهم من الأسرى لرؤيتهم. صحيح أنه في البداية كان الأسرى يهربون من دير مراكش ومن دير مكناس، إلا أنهم بعد ذلك كانوا يحضرون في جميع الأعمال الدينية ويحتفلون بها، بحيث أن الذين رأوهم من بعد قالوا : إذا كان المسيحيون يمارسون مقدساتهم بهذه الدقة والاحترام فإنهم

أحسن منا، ورهبانهم القديسون أحسن من قديسينا .

لقد توفر الدير على أدوات المواكب، إذ كانت هناك الصلبان،والرايات، والأعلام، ومظلة جميلة من حرير أبيض يتم بها إخراج القربان المقدس، وأعمدتها التي يحملها الأسرى. أما بالنسبة إلى الجمعيات الدينية، فقد كان لها رؤساؤها الذين يديرونها. وفي الحفلات الرئيسة تزين الكنيسة، فيلبسون الحيطان بستائر حريرية مزركشة، وتفرش الأرض ببساط من نبات عطر وورود كثيرة. ثم يجتمع كل الأسرى ويأتي المتزوجون الذين يعيشون خارج الساجنة في الليل مع أطفالهم ونسائهم، ويعرف في الصباح كل الذين سيتناولون العشاء الرباني في اليوم الموالي. ولكي تمر هذه الاحتفالات المقدسة بدون إزعاج يطلبون من حارس الأسرى أو ما يسمى "بالرايس" أن يغلق أبواب الحديد الثلاثة، ويدفعون إلى الحراس بعض المال ليتغاضوا عن تأخر الأسرى عن الذهاب إلى أعمالهم .

يقام موكب رئيس لجسد المسيح وهو أعجوبة كما يقال، حيث كان يسعى كل واحد لحضوره لأداء الشكر والمديح لهذا السيد الإلهي. ومن أجل هذا اليوم تزين حيطان مدخل الساجنة الذي يمر منه الموكب بالقصب الأخضر وعقود من النباتات والورود، وصخور قديمة، للتعبير عن جلالة القداس، ويمشي كل الأسرى والأسيرات في الموكب حاملين الشموع. ويحمل الأسقف جلالته في وعاء من فضة، وأمامه أسقف آخر يحمل المبخرة التي تبعث الروائح، ويغني الجميع تسبيحات هذا اليوم، حيث يختلط ضجيج السلاسل بصوت الموسيقى الفرحة، وتغنى أيضا أغاني الميلاد، وفي بعض الأحيان تؤدى أعمال مقدسة أخرى.

وتقام المواكب في كل أعياد الفصح والأعياد الرئيسة للسيد المسيح والسيدة مريم، وفي الأحد الأول من كل شهر. وتجري هذه المواكب بالطقوس نفسها التي يجري بها الموكب الرئيس. كما تقوم الجمعية الدينية بموكب ورع يوم الاحتفال. وتراعى كثيرا في أعمال الأسبوع المقدس ومواكبه القوانين الكنائسية الرومانية، حيث يشعلون ما يقارب ألفا من الشمع الأبيض لكي تحترق أمام تمثال جلالته.

ويقام أيضا موكب أحد راموس، حيث يأتي الرجال والنساء والأطفال بكثير من الجريد، يرمزون به إلى الانتصار الذي دخل به منقذنا إلى القدس الجاحدة ليعلن للناس حريته، وعلى هذا فهم يبكون حريته المفقودة. ويقام أيضا موكب آخر في يوم طهارة ملكة الملائكة، حيث يحمل الجميع أضواء، وتحمل الأسيرات سعافا صغيرة إلى النفساء الإلهية

لكي يهديها الأسقف إلى طفله الإلهي. وآنذاك يلتمس منه بدموع غزيرة أن يطلق سراح الأسيرات من هذه العبودية الثقيلة، إذ تعرف السيدة مريم باعتبارها أما ما تعانيه هذه الأسيرات من أجل أبنائهن وتوقهن إلى حريتهم.

وتتحمل ثلاث جمعيات كل النفقات التي تصرف في هذه الأعمال. الأولى هي جمعية القربان المقدس والمذهب الثالث للأب سان فرانسيسكو، والرهبان هم الذين أسسوا هذه الجمعية، ومن هباتها يشترى الشمع، والزيت لقناديل القديس، والخمر، والطحين للذبائح وأشياء أخرى للعناية بالشعائر الإلهية. أما الثانية فهي جمعية السبحة المقدسة لملكة السماء، وتخصص هبتها لنفقات الاحتفالات الرئيسة وسط السنة وأعياد الفصح، والمواكب الدينية والقداسات. والثالثة هي جمعية الشفقة حيث تخصص هبتها للنفقة على الأسرة الثمانية الموجودة في المستشفى الصغير الذي هيأه الأب فراي ماتياس داخل الدير، وإسعاف المرضى المساكين، والموتى، وأداء بعض القداسات. وهكذا فقد كانت مساهمة الجميع ضرورية من أجل سد كل هذه الحاجيات .

وعلى هذا النحو سار نظام الوظائف في هذا الدير المقدس، وقد رويت كل ما أقيم ونفذ من أعمال لكي يعرف ما حدث حتى دخلنا إلى مكناس .

● النتائج الروحية التي حققتها البعثة في هذا الزمن :

يكد الفلاح كثيرا ويتعب من أجل الحصول على غلة مرضية. وعندما يتحقق له ذلك ينسى تعبه ويشكر العناية الإلهية التي هيأت له أسباب ذلك النجاح، فأمدته بالسحاب والمطر الذي أينع هذا الإنتاج، رغم ما كان يمكن أن يعترضه من عراقيل مثل أعاصير البرد والثلج أو الجذب. وهكذا الأمر بالنسبة إلى الرهبان في هذه الأرض العقيمة الكافرة، فقد تناسوا كل ما عانوه من عذاب عندما جنوا بعض السنابل الذهبية، وحققوا بعض النتائج الروحية التي استحسنوها رغم عدم إدراكهم لكل ما كانوا يصبون إليه.

بعد تشكيل الجمعيات وإجراء المواكب الدينية تباحث المبشرون فيما بينهم عن الوسائل التي يستطيعون بها إقناع المسلمين بالعدول عن ضلالهم. ورغم أنهم يحبون شريعتهم الخاطئة، إلا أنه يوجد بينهم من يملك إدراكا واضحا للاقتناع بما يعتبرونه حلالا. ولقد عرف المبشرون طبيعة البلد، لكن التبشير مباشرة وسط العامة يعني نقض كل ما ترتب والدخول في منازعات تنتهي بسببها البعثات التي وجب الحفاظ عليها بأمر من الكنيسة المقدسة لتحقيق الفوائد الروحية للأسرى. وعلى هذا النحو تصارعت هذه

المخاوف مع الآمال المتحمسة لإنقاذ بعض الأرواح الكافرة. وعندما قدروا ما يمكن أن يترتب عن هذه الخطوة من سلبيات، ارتأوا أن القرار الأمثل هو ترك تدبير هذا الأمر للزمن وللقرار الإلهي. وهكذا فقد كان يأتي بعض المغاربة المعجبين باحتفالاتنا المقدسة وبأخلاق الرهبان إلى الدير، وكان المبشرون يسعون دائما إلى أن يكونوا سياسيين في معاملتهم لهم ليحملوا هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون الصلاح على معرفة فضائلهم.

كما أن مظهر الرهبان المتواضع ولباسهم الصوفي الخشن والمرقع، وحفي أرجلهم، ودقة آرائهم، ومعاناتهم في العمل، وصبرهم على الإساءات كان يثير اهتمام المغاربة فيذهبون للسؤال عن شعائرنا المقدسة، والاستفسار عن بداياتها ونهاياتها ومستقبلها، ويجيب المبشرون عن هذه الأسئلة بحذر وبدون تشويه ولا دحض. لأنهم إذا حاولوا إقناعهم بفظاظات شريعتهم، فلن يستطيعوا استمالتهم إلى حلاوات الشريعة المسيحية، لأنهم متعودون على هذه الأخطاء طوال حياتهم ولا يمكن تغييرهم بالقول لهم إنهم مخادعون وكاذبون ومدنسون. ولهذا فإنه من الصعب إقناع هؤلاء الذين نشأوا عميا في الظلام ولم يخبروهم من قبل أن هناك نورا جميلا، ولذلك لم تكن هناك أسس لإقناعهم.

وبهذه الرصانة تصرف هؤلاء المبشرون وأجابوا على الأسئلة الموجهة لهم. وبما أن شريعتنا المقدسة واحتفالاتنا وسلطاتنا الدينية تقوم على أسس منطقية، فإنها تستميل بعضهم بسهولة، فتثير لديهم بعض الشكوك حول أخطائهم، ولا يقال لهم مطلقا أن شريعة محمد ملعونة، بل يراوغونهم في الكلام ويقولون لهم أن شريعتنا هي وحدها الحقيقية، وأن باقي الشرائع الأخرى هي من كذب الشيطان. ويدحضون بوجه عام كل المنتسبين إلى الرسول المنتحل محمد. وعلى هذا النحو حققوا إقناع بعضهم وتركوا الآخرين في شك قاتل معجبين وحائرين .

وقد اهتدى في زمن فراي ماتياس وفراي خوليان أكثر من عشرين مسلما، وقدمت لهم كل المستلزمات الضرورية، حيث عمدوا بالمياه المقدسة، وأدخلوا من الأبواب الآمنة للكنيسة الكاثوليكية، وعينت لهم الساعة التي يأتون فيها إلى الدير ليتعلموا الشريعة المسيحية. وبعد تعليمهم جيدا أرسلوا إلى الحصون المسيحية في شواطئ هذه البلاد حاملين معهم بطاقات لكي يستقبلهم حكام هذه المعاقل ويعمدونهم. وقد رفضوا أن يمنحوا للبعض منهم التعميد المقدس في بلادهم لأنهم خافوا من أنهم إذا بقوا فيها يمكن أن يحنوا إلى شريعتهم ويرتدوا، وحصول هذا الأمر يعد سلبيا. وقد عمد بعضهم الآخر في

الدير بعد أن تأكدوا من اقتناعهم في مناسبات عديدة.

أما بالنسبة إلى المرتدين فقد سلك معهم المبشرون طريقة أخرى لإقناعهم، حيث حاولوا جلبهم بعطف أبوي وحنان، وإقناعهم بالتوبة عكس المسلمين الذين أدخلوهم في شريعتهم بالقوة. ولذلك فإنه عند اقتناع هؤلاء المرتدين بأخطائهم يعترفون بالآمال اليائسة التي أغواهم بها الشيطان ليرتدوا عن دينهم، وهم قليلا ما يجزمون بسوء الشريعة المسيحية التي تركوها، لأن رغبتهم في مباشرة الرذيلة بحرية هي التي أدت بهم إلى الارتداد، وكثير من الذين اقتنعوا بسوء أخطائهم بكوا بشدة عندما رأوا القساوسة. وفي سياق تشجيع هؤلاء المرتدين على التوبة يذكرونهم بالموت، والوضع السيئ الذي ستؤول إليه أرواحهم، وهلاكهم الأبدي المحقق، وفرصة الإصلاح التي يهديها لهم الله باعتباره أبا حنونا سخر لهم أساقفة في الأرض نفسها التي عرفوا فيها ضياعهم، لكي يحققوا توبتهم بسهولة. وقد تحققت نتائج طيبة بالنسبة إلى هؤلاء المرتدين، حيث أكد الأب فراي خوليان أنهم في هذا الزمن برؤوا أربعين مرتدا، وأرسلوهم للتصالح مع الكنيسة الأم المقدسة. إذ كانوا يسعون دائما إلى إرسال هؤلاء المرتدين التائبين إلى البلاد المسيحية ببطاقات لكي يستقبلهم المفتشون بعد التأكد من توبتهم. ويقول فراي خوليان في أحد المخطوطات، أنه من أجل هذا الغرض وجدت في إسبانيا في مراحل مختلفة ما سمي آنذاك بأسياد المحكمة المقدسة الذين كان يصرح لهم هؤلاء المرسلون بالبطاقات ويعترفوا لهم بتوبتهم. وكانت النتائج الروحية التي جنوها جيدة.

لقد حصلت كثير من الأمور العجيبة في حوارات الأساقفة مع هؤلاء المرتدين، وسأورد هنا واحدا منها. ففي يوم من الأيام التقى الأب فراي خوليان باستور مع مسلم مهذب كان تاجرا غنيا يضرب بقوافله الكثيرة في مختلف أنحاء الأرض، ويصل إلى مناطقها النائية. فحكا له عن ما عاينه من اختلاف بين الأشخاص وما شاهده من أرواح حزينة تعيش في الجبال والرمال النائية، ثم تنهد بحرارة متأسفا على هذه الأرواح التي تعيش في عبودية الشيطان وبإمكانها أن تكون كلها صالحة بشريعة يسوع المسيح. عرف الأب المكرم أن التاجر كان مرتدا فعانقه وبدأ يلاطفه، وبكى الاثنان الأب من المتعة والمرتد من إحساسه بالتوبة. قال هذا الرجل للأب إنه خلال الأسفار التي قام بها التقى بطفل في الرابعة عشر من عمره ولد في مالقة ويعيش بين البربر في الجبال المتاخمة لغينيا وهو مكان بعيد لا يصل إليه التجار ولا المسيحيون، وقد جاء به إلى هذا المكان مسلم ربما سرقه وتركه في

هذا المكان البعيد لا يعرف الرجوع إلى موطنه، وقد ألبسوا هذا الطفل المسيحي المسكين لباس المسلمين واعتقدوا أنه صار مسلما، ولكنه لم يرتد قط. فخشي الأب القديس أن تضيع هذه النعيجة في هذه الأنحاء حيث لا يوجد هناك مسيحي آخر، وبكى كثيرا لهذا الأمر، إلى أن أتى التاجر التائب وقرر أن يسافر للإتيان به. وهكذا تحقق مجيء هذا الطفل رغم ما لاقاه من مخاطر في الطريق ووصل إلى الدير واستقبله الأب مثلما استقبل يعقوب ابنه يوسف، وأدوا الشكر لله جميعا على إعانتهم لتحقيق المستحيل. وبعد أن ارتاحوا في الدير لبعض الأيام هيأوا لهما الفرار من أحد المعاقل المسيحية وذهبا إلى إسبانيا شاكرين الأسقف، الواحد يبكي أخطاءه وتوبة روحه، والآخر فرحا بنجاته.

وحقق الرهبان نتائج أخرى حسنة من خلال تعميد بعض الأطفال الأبرياء أبناء الكفار، رغم أن هؤلاء لم يملكوا بعد إدراكا عاقلا لتمييز كفر آبائهم. وقد كان عدد المعمدين متناميا خاصة في زمن الأوبئة الكبرى. أما المرتدين الذين تابوا فهم خمسة أو ستة حافظوا على توبتهم حتى النهاية. وهكذا كان الرهبان يدخلون إلى بيوت المسلمين من معارفهم لإسعاف أطفالهم المرضى فيعمدونهم ويتابعون حالتهم حتى النهاية. وفي أحيان أخرى كانوا يعمدون هؤلاء الأطفال باسم تطبيق دواء ما فيحضرون الماء معهم في قرعة أو زجاجة صغيرة أو كشتبان أو في كويرات الحبل كأنه دواء، وبدون مخادعة الآباء يقولون لهم أنهم أتوا بدواء فاعل ينفع مستقبل أطفالهم. وعلى هذا النحو يقول الأب فراي ماتياس أنهم عمدوا كثيرا من هؤلاء الأبرياء الذين كانوا جد محظوظين، بحيث لم يعش إلا واحد منهم لأنهم لا يغسلونهم بهذه المياه المقدسة إلا عند النفس الأخير، وعندما يسمح الله بحكمته الخفية.

ورغم ما حققه هؤلاء الأساقفة من مستحيل عن طريق الأعمال الإحسانية فإنهم أرادوا أن يباشروا الصعاب أكثر لإرضاء حبهم المقدس لدينهم. لقد حدث أن أخذ الملك المولى محمد المرتدات إلى قصره ليملكهن، إذ رغم تواضعه في البداية إلا أنه سمح لنفسه أن يأخذ بهذا الفعل السيئ الذي تحلله شريعته. وقد خضعن للارتداد بإكراه لأنهن لا يمتلكن شجاعة الموت. وهكذا ارتأى الأساقفة من أجل مساعدتهن الروحية التي كانت شبه مستحيلة أن يرسلوا لهن بعض الرسائل عن طريق بعض الأسيرات المسيحيات يشجعونهن فيها وينبهوهن إلى أخطائهن، وإلى تعميد أطفالهن. وقد كن يجبن في كثير من الأحيان على هذه الرسائل ويؤكدن فيها ما يعانينه من ألم وتعاسة، ويطلبن منهم أن يلتمسوا من الله إنقاذهن. وقد أكد الأسيرات أن بعض المرتدات كن يبكين بنكد عندما

يتكلمن عن الرهبان. وهكذا فإنه يمكن القول إن هذا الفعل الشجاع الذي حققه الأب فراي ماتياس هو من إلهام الله وأمره.

شاعت الأخبار عن فضائل وممارسات المبشرين ووصلت إلى مدينة إليكاس التي توجد في أرض غينيا على بعد ثلاثين ميل من المملكة، وعلى بعد أكثر من خمسة وخمسين ميل من مراكش. ولم يكن للأسرى الذين يعيشون هناك أسقف يواسي حزنهم، فأرسلوا إلى الرهبان عن طريق بعض القوافل رسالة يشرحون فيها وضعهم السيئ. وكتب لهم الأب فراي خوليان كثيرا من الرسائل البابوية التي أرسلها مع تلميذ روحي له نشأ في إشبيلية وأسير في مدينة إليكاس نفسها. وقد تضمنت هذه الرسائل تشجيعهم على الصبر على المعاناة، والخضوع للإرادة الإلهية، والحفاظ على إيمانهم بدينهم. وقد كان هؤلاء الأسرى يقدرون كثيرا هذه الرسائل التي فعلت فيهم فعل الواعظ الحواري. كما أرسل لهم الأب برنامجا بكل حفلات السنة، وكتابا لسان بيدرو دي ألكانتارا لقراءته عندما يجتمعون في سجونهم، وقد حققوا بهذه الوسيلة ما لا يمكن أن يتحقق عن طريق التواصل الشخصي.

● **إرسال الأب فراي ماتياس إلى إسبانيا من قبل الملك ورجوعه إلى المغرب :**

رغم ما لقيه الأب الملك محمد الشيخ من مبايعة كلية عند توليه الملك، فقد كانت له حروب كثيرة مع المتمردين في مختلف أقاليم مملكته. ومن بين هؤلاء كان هناك متصوف ساحر يدعي شرف النسب إلى البيت الملكي، واستطاع أن يستميل إلى صفه كثيرا من الناس والجنود بسلوكاته الغريبة. فخرج الملك مع جيشه للقضاء على حركته المتمردة، إلا أن الحظ لم يحالفه حيث انهزم في هذه المواجهة وسارع إلى الهروب مع ما تبقى من جنده الذي مات القسم الأكبر منه، وأخذت أثقاله وذخيرته.

وبعد هذه الحادثة سعى الملك إلى إعادة تشكيل جيشه، فاحتاج إلى بعض الأقمشة والقبعات ليكافأ بها جنوده، وبدأ يشجعهم بالرواتب التي لم يكن يدفعها لهم من قبل لكي يطيعوه ويدافعوا عنه ضد عدوه. وجاء في هذا الوقت إلى العاصمة مراكش مفوض إنجلترا "روبير توبلاك" ليقوم ببعض المفاوضات، ولما علم هذا أن الملك يسعى للحصول على هذه الأقمشة بأثمان مناسبة وعده أنه سيبلغ ملكه بهذا الطلب ويعمل على إنجازه. فاستشار الملك مع عاملين وفيين له في هذا الأمر، وهما مرتدان إسبانيان محمد وجؤدر، وبما أنه كان يقدرهما فقد نصحاه بأن ينجز هذا العمل في مملكة إسبانيا لقربها من المغرب عن إنجلترا، ولأن الملكين الإسبانيين ميسوران وكريمان وسيقضيان هذه الحاجة بدون أية مصلحة. وأن يرسل فراي ماتياس لإنجاز هذه المهمة لأنهم في إسبانيا يحبون القساوسة

كثيرا، ولذلك فهم سيستجيبون لمقترحات هذا الأب باعتباره أسقف المسيحيين.

ولعل الحصول على هذه البضاعة لم يكن هو الأمر الأساس الذي يسعى إليه الملك، فهذا كان من أجل إشاعته بين العامة. أما المؤكد الذي تداولوه في مجلسه بسرية فهو محاولة الحصول على موافقة طرف أجنبي ما لحمايته واستقباله في حالة زوال ملكه، وقد أشار عليه مستشاروه بالملكين الإسبانيين الكاثوليكيين بسبب قربهم ورأفتهم، ويضاف إلى هذا أن الملك كان حفيدا للإسبانيين، ومستشاراه كانا إسبانيين.

وفي إحدى الليالي استدعي الأب فراي ماتياس في الساعة الحادية عشر، وأدخله إلى القصر من بابه السري مجموعة من المرتدين أمناء سر الملك، لكي لا تلاحظ تأخر الساعة التي أتى فيها، وأخبروه أن الملك يريد إقامة علاقات الصداقة مع جلالة الملك الكاثوليكي، وبما أن الوقت لا يناسب لإرسال سفير مغربي إلى إسبانيا، فإنه يسعى إلى إرساله على اعتبار أن القساوسة يحظون بتقدير كبير بين المسيحيين.

لم يلق هذا الطلب استجابة لدى الأب الذي خرج من البلاد المسيحية بنية أن لا يطأها ثانية لتحقيق رغبته المقدسة في خدمة الأسرى والموت من أجل الشريعة، واعتذر بتواضع متعللا أنه لا يصلح لهذه المهمة التي تحتاج إلى رجل ذو خصال مغايرة لما يتميز به القسيس رغم ما يحظى به هذا الأخير من تقدير بين المسيحيين. وهكذا أشار عليه بالاستعانة بدوق المدينة باعتباره رجلا محيطا بكل المواضيع السياسية، والأكثر مناسبة لتسليم السفارة للملك الكاثوليكي.

ولقد استجابوا لهذه الفتوى رغبة في إقامة علاقة صداقة مع الدوق وليس لعدم جدارة الأب كما ادعى. فتداولوا معه كل بنود الاتفاق التي لم يكشف عنها وقال فقط فراي ماتياس في روايته التاريخية أنها كانت ملائمة جدا للتاج الإسباني. ولعله لهذا السبب أرسلوا هبة تتضمن كمية كبيرة من القمح بسبب الجفاف الذي عرفته إسبانيا في هذه السنوات، وخيولا وملحا للبارود. ويبدو أن الإسبانيين حققوا هذا الالتماس، حيث أرسل الملك كل عائلته وكنوزه إلى ميناء آسفي للإبحار منه، وقد ذهب معهم كل المرتدين والمرتدات فأنقذوا بهذه الوسيلة أرواحهم الضائعة.

التمس الأب فراي ماتياس من الملك تسليمه بعض الأسرى لينجز الدوق هذه المهمة، فأطلق سراح البعض منهم، بالإضافة إلى الطبيب دون أندريس كاميلو ومقدم المسيحيين مانويل ألفاريس. وقد ذكر فرانسيسكو روكي في رواية تاريخية كتبها عن هذا السفر الذي

كان حاضرا فيه حتى رجوعه إلى مراكش أن الملك في هذه المناسبة أطلق سراح كل أسرى سلا الذين كان عددهم أربعة وعشرين أسيرا كما جاء في رواية أخرى.

سافر الأب ماتياس إلى سان لوكار حيث التقى بفخامة الدوق وتداول معه كل مواضيع السفارة وفي الوقت نفسه أخبروا بها الملك الإسباني ومستشاريه. وأكد المستشار الملكي أن جلالة الملك يؤيد هذه العلاقات السياسة مع الملك البربري، لكن التردد والبطء أخر تنفيذ هذه السفارة، واكتفوا بإرسال إجابة طيبة تؤكد الاستجابة للمطلب الملكي المغربي.

جمع الأب بعض الهدايا من بعض النبلاء ومن الدوق، وحملها إلى الملك البربري لشكره على ما قدمه من فضائل وعلى الأسرى الذين أطلق سراحهم. وتتضمن الهدية فرسا ثمينا بطقمه الفضي، وكل ما يلزم سلاح الأمير من سيف ورمح ومسدسات. وأرسل الدوق مع الأب فراي ماتياس فارسا خادما لديه يسمى دون خوان دي مونتيانو، وحمله برسائل الشكر، وأقلعا من سان لوكار ووصلا إلى مازاكان، حيث سلما الرسائل إلى الحاكم الذي أخبر الملك بوصول الأب ماتياس ومرافقه ومبشر آخر. فأشهر الملك بدوره خبر الوصول وأرسل موكبا من الجنود المسلحين لدرء الأخطار التي يمكن أن تعترضهم في الطريق. ووصلوا إلى مراكش حيث استقبلوا من قبل الملك وكذا من جميع سكان العاصمة، وكان هذا سنة 1640 حيث جاء مع الأب المبشر الأب جوسيب دي أستوركا، الذي كان راهبا قديما وذو خصال عالية وعمل قبل ذلك حاكما للإقليم، ومات سنة 1644 في أربعاء الرماد.

- **إرسال السفير المغربي إلى إسبانيا مع الأب فراي ماتياس وموت هذا الأخير في قرطبة :**

لقد أشاع المتمردون عن الملك أخبارا سيئة من أجل الثورة عليه، ومنها أن الملك يدين بالمسيحية سرا لأن أمه مسيحية، وأنه لهذا السبب أطلق سراح عدد كبير من الأسرى، وأسند إلى المرتدين المناصب العليا وجعلهم مساعدين له في إدارة الحكم، وأنه الآن يلتمس إقامة علاقات الصداقة مع ملك إسبانيا. وقد انتهوا إلى أن هذه العلاقات ستمكن الجيوش الإسبانية من الدخول إلى البلاد وإعلان المسيحية بالقوة وسيكون من الصعب إخراجهم، أو ستمكنهم على الأقل من الحصول على كثير من الفوائد بدعوى المساعدة. وبمثل هذه الأخبار استطاع المتصوف أن يجمع حوله كثيرا من الناس ويشعل نار الثورة، فأتى إلى حقول أزمور عندما علم بمجيء الأب فراي ماتياس ومرافقه واتجاههما إلى مراكش، إذ كان يهدف إلى اعتراض سبيلهما للحصول على الرسائل التي أتيا بها من

إسبانيا ومعرفة فحواها، وإشاعته بين الناس ليهيجهم، ويسفك دم الملك. لكنه عند وصوله إلى أزمور كان الراهبان قد وصلا إلى العاصمة، ومع ذلك وزع جواسيسه لكي يعترضاهما عند رجوعهما أو عند رجوع خادم الدوق على الأقل.

لقد قام هذا الخائن بالاعتداء على الكونت البريء دي كاستيل نوفو مفترضا أنه هو الذي يقوم بهذه المساعي بين ملك إسبانيا وملك المغرب، معللا افتراضه بتلك المعاملات الطيبة التي قام بها الملك المغربي تجاه الكونت عندما اعتلى الحكم. وهكذا أراد هذا الخائن أن يثأر لغضبه، وقد استشار لاشك مع الشيطان لأنه كان ساحرا كبيرا، فأمده بخطة الثأر، ولو أني لم أستطع كشفها. إذ وحده فراي ماتياس قال إن هذا الثأر كان خداعا من الشيطان، لأنه من المستحيل خداع فارس ذو ذكاء وتبصر كبير بمكر المسلمين. ولكن لا الأب فراي ماتياس، ولا أحد آخر استطاع أن يكشف عن كيفية استدراجه، والمؤكد أن هذا الخائن تمكن من سجن الكونت وقتله مع مائة وستين من فرسانه، وكان من بينهم ابن لفرانسيسكو روكي.

لقد ترك موت هذا الكونت وقعا كبيرا في مازاكان وفي إسبانيا وخسارة كبيرة في الحرس، لأنه كان جنديا كبيرا ورئيسا حاميا وقائدا شجاعا ومطيعا أمينا لملكينا. وقد بكى ملك المغرب لهذه الحادثة لأنه كان صديقه والملاذ الآمن الذي يلجأ إليه في حال اضطراب مملكته. ولذلك سعى الملك إلى مواجهة المتصوف، وقبل أن يقدم على ذلك حاول استمالة الناس إلى جهته، وذلك عن طريق تكذيب الإشاعات السيئة، فبين لهم أن التماس الصداقة مع إسبانيا هو أمر يقوم على أساس تبادل المصالح المختلفة، ومن بينها المنافع التجارية وقد شملت هذه العلاقات السياسية دولا أجنبية أخرى لكي يظل المغرب في مركز حضاري مرموق، وذلك بإرسال السفراء إلى إنجلترا وأنحاء أخرى. ولذلك كان ضروريا إرسال سفير أيضا إلى إسبانيا. وأنه من أجل إنجاز هذا الأمر وإتمام الالتزام مع ملوك إسبانيا ارتأى أن يرسل قسيس المسيحيين.

وقد كشف الملك عن أمور أخرى من أجل تهدئة الثائرين وتحميسهم للثأر من المتصوف الذي أثار هذه الفتنة. ومن ثم خرج بجيش كبير لمواجهته وهزمه وألزمه على الهروب والاختفاء في الجبال. ولقد كان هذا الحادث سببا في تأخير رجوع خادم الدوق أربعة أشهر، وبقي في العاصمة مكرما. وبعد أن انتهى الملك من المواجهة سعى إلى إرسال الفارس مع السفير حميد النبيلي، وهو الباشا الرئيس والمقرب من الملك، فحمله برسائل ليسلمها إلى

الملك الكاثوليكي بين له فيها مرافقة الأب فراي ماتياس للسفير،وشكر قبوله لهداياه.

عندما عاد الأب فراي ماتياس إلى مراكش التمس من الملك أن يتركه يهدأ في ديره، لأنه كان شيخا ولم يعد خفيف الحركة لتحمل السير في الطرق البعيدة. ورغم وعد الملك له بذلك إلا أنه ارتأى من الضروري أن يرافق السفير ليكون مستشاره في الأمور التي يمكن أن تطرأ. ولم يستطع الأب أن يعتذر، فتقرر السفر وهيأ لهم الملك كل ما يلزمهم، وأرسل للدوق عربة بديعة تجرها أربعة خيول، كان قد أرسلها له ملك إنجلترا، وتبلغ قيمتها كما يقول صانعها خمسة وثلاثون ألف ريال، وأرسل له أيضا جمالا صغيرة، وكاد أن يفكر في إرسال أشياء أخرى لولا استعجال الفارس الخادم للرجوع.

في هذه المناسبة كان في الأسر إحدى عشر طفلا وطفلة مسيحيين مع أمهاتهم. وقد سعى الرهبان دائما إلى فك أسرهم منذ عهد المولى الغالي ولم يوفقوا في ذلك. ولذلك التمس الأب فراي ماتياس من الدوق أن يتدخل بسلطته مع هذا الملك، ويهتم بهذا الموضوع في رسائله المبعوثة إليه.

ورغم هذه الصعوبات في الإفراج عن الأسرى فقد حصل الأب فراي ماتياس على أربعة وعشرين أسيرا من سجن سلا، واثني عشر آخرين أرسلهم إلى الدوق، وآخرين كثيرون منحهم الحرية أيضا استجابة لالتماس الدوق ولفراي ماتياس الذي قال له عند تقديم هذا الالتماس، إن الإفراج عن بعض الأسرى سيكون له وقع كبير في قلب الملكة دونيا إيزابيل دي بوربون، وخاصة أولئك الأطفال الذين تملكهم في خدمتك، إذ يقدر الملكان كثيرا إطلاق سراحهم ويثمنون هذا الكرم. وهكذا تنازل الملك إكراما لملكي إسبانيا بإيعاز من الدوق واستجابة لفراي ماتياس، فأفرج عن إحدى عشر طفلا وطفلة، وأربعة وأربعون أسيرا، فكان مجموعهم خمسة وخمسون أسيرا. فكانت هذه الهدية هي الأثمن التي حصل عليها الأمراء الكاثوليك.

وهكذا أقلعوا من ميناء آسفي لأن ميناء مازاكان لم يكن آمنا بعد، ووصلوا إلى سانلوكار في شهر شتنبر سنة 1640 بدون مواجهة مخاطر في البحر. واستقبلهم الدوق بتقدير كبير، واستقبل السفير المغربي بحفاوة وسعى إلى تسليته ليشغله عن البعد عن بلده، إلا أن السفير مرض وطلب من الدوق الرجوع مكتفيا بتسليم الرسائل إلى فخامته. وتداول الدوق هذا الموضوع مع مستشاريه، وقرروا إخبار الملك الذي عقد بدوره اجتماعا في الأمر. فرفضوا الموافقة على رجوع السفير، لأنه ليس في مقدور المملكة المنشغلة بالحرب ضد

البرتغال دفع مصاريف لمرافقة الأجانب. وهكذا أمر الملك الكاثوليكي الدوق أن يقنع السفير بليونة بالتوجه إلى مدريد مع مرافقيه ومع الأب فراي ماتياس لتسليم الرسائل والسفارة إليه وبأنه سيحسن استقباله. وقد سعى الدوق إلى إقناعه في حضور حاشيته ليشهدوا على قراره الشخصي الذي اتخذه من تلقاء نفسه. وغضب مرافقوه لرفضه متابعة السفر، وحكوا للملك جبنه وقلة همته، فأحس بالإهانة وقطع رأسه. وكتب الدوق للملك يعده برجوع الأب فراي ماتياس إلى المغرب بالإجابات، لأنه ذهب إلى مدريد بالهدية والسفارة متحملا هذا الالتزام، وقد رضي الملك المسلم بتسليم هذه السفارة.

جاء الأب فراي ماتياس إلى مدريد يرافقه فرانسسكو روكي، وقدم الأطفال إلى السيدة الملكة التي شكرت العطية الثمينة. ثم قدم الرسائل للملك الذي أحالها بدوره إلى المجلس الاستشاري، وكشف له عن كل الأسرار التي تداولها مع الملك المغربي، والتي كانت ذات أهمية في هذه المناسبة التي أعلنت فيها إسبانيا الحرب ضد البرتغال. وانتهى المجلس الاستشاري إلى أنه من الإيجابي المحافظة على العلاقات السياسية مع الملك المغربي للحفاظ على الرهبان والدير، ومساعدة الأسرى، وأمور أخرى. وهكذا أصدر الملك أمرا يقضي بتقديم أربعة عشر ألف بيسو للأب فراي ماتيياس، وهدية للملك يحملها معه عندما يرجع، وأن يرافقه دون خوان باوتيستا خادم الملك إلى قرطبة ليأخذ من الإسطبل الملكي فرسين بطقمين جميلين يقدمهما مع الهدية الأخرى للملك المغربي.

ورغم إصدار الملك لهذا الأمر، إلا أنه لم ينفذ نتيجة لكثرة المصاريف التي خصصت للحرب، وهكذا مرت حوالي أربع سنوات ظل خلالها الأب فراي ماتياس في العاصمة، فألف ـ استجابة للسيد نونسيو حواري دون سيسار فاكيندي ونائب أسقف داميانا ـ كتابا يروي فيه ما عاناه القديس خوان دي برادو خلال استشهاده، عنونه ب "رحلة إلى المغرب". وبعد تسعة اجتماعات استشارية وتسعة قرارات شاء الله أن يتقرر إرسال فراي ماتياس في الاجتماع الأخير. فقبل يد الملكة، وأعطاه الملك تحفا ثمينة لتزيين الكنيسة والدير، وصورة ليسوع المسيح من أجل العبادة الإلهية وبيتا للقربان المقدس، وكرسيا ثمينا، وأثوابا مثل ثيابه. وحمله بتوصية ليبلغها إلى الرهبان الذين يعيشون في البلاد البربرية، ويعملون بحماس في هذا الدير الملكي، ثم منحاه جلالتهما الأربعة عشر ألف بيسو لكي تصرف في إتمام العمل وكل الاحتياجات.

أتى الأب فراي ماتياس إلى قرطبة بكل الإرساليات المهمة، وأخبر الإقليم بالسفر لكي

يتجهز المبشرون للذهاب معه. إلا أنه مرض في قرطبة ومات بسبب ذلك لتنال روحه الجزاء السعيد على ما عاناه في سبيل تكريم الإنجيل وتثبيت الوضع الروحي الجيد للأجيال اللاحقة، وعلى ما قدمه من أعمال تبشيرية لصالح الكنيسة والمذهب والإقليم. وكما هو معروف فإن الكنيسة لا تمنح لقب الشهيد فقط للقديسين الذين يموتون مستشهدين، بل تمنحه أيضا للذين يموتون مضطهدين من قبل المستبدين، أو مسجونين في السجون، أو لاجئين في الجبال، أو متابعين للاستشهاد، ولذلك يصح حسب الشعائر القانونية الكنسية أن يحتفل به شهيدا. وقد مات في 14 مايو سنة 1644 في السنة الستين من عمره، حيث قضى ستة وأربعين سنة في الرهبانية، وأكثر من ثلاثة عشر سنة في بعثات المغرب، وأكثر من هذه المدة في الفيلبين، وقضى خمس سنوات وأربعة أشهر في السجون عانى خلالها كثيرا من التعذيب. ودفن في قرطبة في الدير الملكي لسان بيدرو، حيث منحته هذه الجمعية الدينية قبرا تكريما له باعتباره رجلا صالحا. وقيل إن قبره فتح ست مرات بعد موته فوجدوا الجسد غير متعفن.

- **التماس بعض الأقاليم الدخول في البعثات التبشيرية بعد موت الأب فراي ماتياس، وتعيين الملك للأب الإقليمي سفيرا له:**

الطيبة شيء جميل يستميل الجميع، وحتى العمي الذين لم يروا من قبل جمالها فإنهم يلتمسون الاستمتاع بها بعد تجريبها. ولذلك فإن من كان ينظر إلى البعثات في البداية على أنها ليست ذات أهمية وعقيمة ولا يهتم بالمحافظة عليها، أصبح يلتمسها ويتطلع إليها. لقد خلف موت الأب فراي ماتياس في الإقليم إحساسا بالتحسر، لأنه كان يتميز بكثير من الخصال الدينية التي تفتقد في هذا الزمن، فقد وهب جسده للبعثات وأحدث تغييرات إيجابية في كثير من الأشياء.

في سنة 1636 سعى أب قارئ محال على المعاش للذهاب إلى بعثة المغرب ليضحي بحياته في سبيل العقيدة، وينافس الاستشهاد المجيد للقديس برادو الذي كان صديقه المخلص. ورغم ما منحه السيد أوكتافو من قدرات حوارية، إلا أن ذهابه لم يتحقق إلا بعد قرابة ثلاث سنوات عندما عين الأب فراي ماتياس نائبا حواريا للبعثات السعيدة من قبل قداسة أوربانو أوكتافو، وأخذ الأب فراي نيكولاس دي فيلاسكو الحيازة القانونية للكنيسة الملكية في المغرب. وعين السيد أوكتافو في جمعيته المقدسة للنشر اثنان وعشرون مبشرا حواريا للمساعدة في هذه البعثات. فرغم ما يستحقه إقليمنا من حق لكي ينفرد

وحده بإتمام هذه المهمات التبشيرية بسبب ما عاناه أبناؤه، وما تركه الآباء من إرث ثمين، إلا أن القانون يحتم علينا أن نلتمس بخضوع من الكرسي الحواري - باعتباره المشرع الأعلى والمطلق - التصريح بإتمام هذه المهمات الحوارية.

وهكذا عينت الجمعية المقدسة نائبين حواريين من نفس البعثات، والإثنان معا عينا من قبل بابا واحد حيث تقرر في اجتماع عقد في 19 غشت سنة 1639 انقسام البعثات إلى قسمين، قسم في مملكة مراكش، والقسم الآخر في مملكة فاس، وكلاهما في حيازة إقليم-نا. وأرسلا إلى رئيسنا الأعلى بصفته محيطا بتبعيات المذهب أن ينظر في الموضوع ويعلن عن الحكم الأصلح، وقد كان هذا المكرم مدركا لحقنا، فبإذنه ذهب الأب فراي نيكولاس مع باقي المبشرين وأخذ الحيازة القانونية للدير. ويضاف إلى هذا اعتبار إقليمنا الأكثر قربا إلى الشواطئ الإفريقية، ولذلك فهو الأسرع لمساعدة البعثات، وهو ما يشكل عائقا بالنسبة إلى الأقاليم الأخرى التي لا تملك ؟على الأقل- أديرة في موانئ الأندلس تسهل لها الاتصال بإفريقيا. ونتيجة لهذه الأسباب وأخرى كثيرة انفرد إقليمنا بحق الإشراف على جميع بعثات مراكش وفاس دون منافسة الأقاليم الأخرى.

أرسل هذا القرار إلى الكرسي الحواري للنظر فيه، فعقد اجتماعا في 11 مارس 1641 تأكد فيه قرار مقدس يقضي بأن يتفرد إقليم سان دييكو الأندلسي بكل هذه البعثات. فأطاعت الأقاليم هذا القرار. ولم يقصد إقليمنا بهذا أن ينفرد بالاحترام دون الأقاليم الأخرى، ولكنه سعى إلى تنافس مقدس يحمس أبناءه لتقديم خدمات جديدة إلى الكنيسة وتكريس عطائهم بالانتشار في الأجزاء النائية.

فبموت الأب فراي ماتياس إذن جددت الأقاليم التماسها للمشاركة في هذه البعثات التي ظنوا أنها ستضيع بسبب غياب هذا الأب، ولم يعرفوا أن العناية الإلهية هي التي تحافظ عليها. وبما أن الملك الكاثوليكي كان قد كلف الأب ماتياس بتبليغ الشكر إلى ملك المغرب على المنن التي تلقاها منه الرهبان، وعلى إطلاق سراح أكثر من أربعة وتسعين أسيرا، فقد التمست بعض الأقاليم من مذاهب أخرى أن تتكلف بهذا الالتزام . ونحن لا ننفي الغايات المقدسة التي يتطلع إلى إدراكها هؤلاء الآباء المكرمون، ولكنه كان من الطبيعي أن نتأثر للحرمان من شيء طيب طالما ذقنا حلاوته، حيث إن حيازة البعثات كلفتنا دما وجهدا كبيرين، ويمكن الإطلاع على ذلك في كتب التاريخ السابقة.

وصل خبر هذه المساعي التي تقوم بها المذاهب الأخرى في العاصمة إلى إقليمنا

الذي كان رئيسه وأسقفه الأعلى فراي فرانسيسكو دي لاكونسيبسيون، قارئ اللاهوت والمؤهل من قبل المحكمة المقدسة للشريعة، والأب الإقليمي الذي مارس الرهبانية بعد أن انفصل الإقليم عن الإقليم المقدس سان كابرييل. ومن أجل الأسباب المذكورة سابقا قرر العناية بهذا الموضوع فذهب إلى مدريد لتقبيل يد الملك، إلا أنه لم يجده، وذهب إلى سرقسطة حيث عانى سفرا طويلا وصعبا بسبب كثرة المياه والثلوج، وبسبب تقدم سنه الذي لم يعد يعينه على تحمل التعب. وعند وصوله حرر طلبا دينيا وسلمه للملك وقبل يده، فأمر جلالته أن يسجل مضمون ذلك الطلب، ثم عين له يوما آخر لمقابلته والتباحث في الموضوع، حيث تقرر بعد الحديث عن حالة البعثات أن يعهد إليه بكل التبعيات التي تحملها الميت القديس.

أرسل الملك الموضوع إلى المجلس الاستشاري الملكي الذي ارتأى تنفيذ ما قرره الملك. ثم عين الملك الأب سفيرا له مكلفا بأعمال إفريقيا، ومنحه المجلس تعليمات بكل الموضوعات التي يجب أن يتداولها والمساعي التي يجب أن يقوم بها .ولهذا الغرض عينوا دون خوان باوتيستا مرافقا له (وهو الذي كان سيرافق فراي ماتياس من قبل)، إلا أنه وقعت بعض الحوادث فعين من بعد دون ميكال إسكوديرو ماركينا، وذهب معه. إن الأمل الذي كان يلح على هذا الأب الإقليمي دائما هو البقاء في هذه البعثات مبشرا، لأنه كان جزءا منها كما صرح بذلك السيد نونسيو دي إسبانيا في رسالته البابوية.

رجع الأب الإقليمي إلى إشبيلية حيث عقد مجلس استشاري لإنهاء وظيفته في الإقليم، فانتخب الأب فراي بيدرو ديل إسبيريتو سانطو للمرة الثانية أبا إقليميا، وانتخب الأب فراي فرانسسكو دي لاكونسبسيون مقررا أولا في 29 أكتوبر سنة 1644. وبعد أن تسلم السفير الوظيفة الجديدة سجد على ركبتيه باكيا، وأعلن في حضور جميع المجلس تنازله عنها ورغبته في البقاء في البعثات. لكن المجلس لم يقبل تنازله لكي لا يحرم الإقليم منه بصفته أبا فاضلا متميزا بخصال متدينة، وأخبروا الملك بهذا الخبر، حيث فرح برجوعه إلى إسبانيا.

بعد الانتهاء من تعيين جميع الوظائف المحضرية، ومن تبعيات أخرى، التمس الأب السفير من الإقليم تعيين المبشرين الذين سيذهبون معه لإتمام العمل المبدوء. وقد اختار الإقليم من بين اثني عشر راهبا خمسة توجهوا إلى هذه الأنحاء، وجميعهم مبشرون حواريون من الجمعية المقدسة. حيث رافق فراي كينس الأب السفير وبقي الأربعة الآخرون

في مراكش وهم :فراي أنطونيو دي لاكروس، وفراي بيدرو دي ألكانتارا، وفراي مارتين دي لونا، والراهب الخادم فراي فرانسسكو دي لاس ياكاس. وجميعهم من أبناء الإقليم وذوو خصال مثالية كما ثبت من أخبارهم. وهكذا حمل المرسلون تعليمات المجلس الاستشاري، ورسائل الملك الكاثوليكي إلى الملك المغربي، وسأورد هذه الرسائل هنا، وسأرجئ رد الملك المسلم عليها إلى مكان آخر. يقول عنوان الظرف : "إلى الشريف والممجد بين المسلمين المولى محمد، ملك مراكش وفاس وسوس.

دون فليببي ـ بفضل الله ـ ملك إسبانيا، والصقيليتين، والقدس. أرشيدوق أوستورياس. ودوق بوركونيا وبرابنتي وميلان. وكونت أسيورك وفلانديس وتيرول. إليكم الشريف والممجد بين المسلمين المولى محمد ملك مراكش وفاس وسوس الذي يمجده الجميع، نتمنى له الصحة والازدهار. لقد تلقيت رسالتكم من يد فراي ماتياس دي سان فرانسسكو الذي كان حارسا لدير مدينة مراكش، وذلك بمناسبة إطلاق سراح بعض العائلات من رعايانا كانت أسيرة في مملكتكم بالتماس من دوق مدينة سيدونيا . ولقد مات السعيد فراي ماتياس ويأتي مكانه فراي فرانسيسكو دي لاكونسبسيون، وهو رجل طيب، أتمنى أن ينجز التزامه بكل رصانة. وقد ذهب أيضا لمساعدته بأمري خوان باوتيستا بانسيري، وبهذه المناسبة أحب أن يأتي الإثنان برسالتكم المجيبة، وإنني أقدر استجابتكم لالتماس الدوق لتحرير الأسرى، ومظاهر أخرى من العطف التي تبينت في الكلمات المؤثرة في رسالتكم، وما تأملونه من ربط العلاقات الجيدة معي، وأقول لكم إني آمل أن أقيم معكم هذه العلاقة الطيبة. ويمكن أن نهيأ لذلك بما يحدث بمشيئتكم ورضاكم، وأتمنى أن تتبادلوا معي الصراحة نفسها لينتج عن ذلك كثير من المصالح لرعايانا .الشريف والممجد بين المسلمين حفظكم الله ووهبكم الازدهار".

- **خروج المبشرين من قادس ووصولهم إلى ميناء البرير :**

اجتمع جميع المبشرين في إشبيلية وكأنهم جنود جدد متجهون إلى اكتشاف الأقاليم المتوحشة، ثم سافروا إلى قادس وهناك التقى الأب مع دوق مدينة سالي والقائد الأعلى للبحر المحيط الذي كتب له جلالته رسالة يأمره فيها أن يرتب سفر الأب ويخبره بمواضيع أخرى لصالح إتمام المهمة الملكية. كما أرسل الملك أمره لكونت فريخيليانا وحاكم قادس ليساعدهم ويمدهم بكل ما هو ضروري. وأمر دون خوان دي أوطانييس فارس مذهب سانتياكو والناظر العام للحربية، أن يجهز لهم السفينة الآمنة للإبحار. وأمر دون أندريس أورتادو دي كوركيرا ناظر التجارة والتهريب أن يمنحهم اثني عشر ألف ريال للاستعانة بها

في دفع أجرة السفينة التي كانت في ميناء سانطا ماريا، وأجرة الجنود المرافقين لها، والمدفعية الكافية من أجل تحقيق الأمان الأكبر لكل الطاقم الذي كان عدده وافرا.

نفذ هؤلاء الفرسان جميع الأمور لتأمين سفر الجنود الروحانيين المحاربين من أجل راية الصليب، ونظم موكب في دير قادس، كما هي العادة عندما يسعى المبشرون للإبحار، ثم بعد ذلك أخذ الجميع بركة القربان المقدس واعدين بالذهاب إلى الدير والتضحية من أجل مريم القديسة والأب سان فرانسيسكو والشجعان الأوائل الذين أحيوا بعثات المغرب. ثم رنم الأب السفير مع الرئيس الإقليمي النشيد الديني، وتابعهم المبشرون الجدد، إذ كانت الموسيقى منسجمة مع أحاسيسهم ومع أعينهم الباكية.

وهكذا خرج الموكب الكبير عبر الشوارع ليودعهم أهل هذه المدينة المسيحية، والذين تبعوهم حتى الرمال المبللة المتصلة بباب البحر. ولعل الأب السفير لم يخرج باسم الملك فقط، ولكن أيضا باسم قداسة البابا السامي إنوسينسيو العاشر الذي منحه مهمة نائب حواري لهاته البعثات، وباسم المذهب الذي منحه رئيسه فراي خوان دي نابوليس كل اختصاصه، وباسم كل الإقليم الذي منحه كل السلطة لفعل كل ما هو ضروري، معتبرا إياه أنه ليس فقط سفيرا مرسلا من قبل الملك ولكنه أسقف وقائد لجنود الجلالة الإلهية. وهكذا ألقى الأب خطبة دينية وجهها إلى المبشرين ليستنهضهم ويحمسهم للقتال والقيام بكل الأعمال التي يمكن أن يلاقوها. وأن يكونوا جاهزين للاستشهاد إذا تيسر ذلك، وأن يسعفوا الفقراء التعساء والأسرى بشفقة لا تملك وطنا باعتبارهم إخوانا وأصدقاء لا آباء، لكي يثبت سعيهم إلى التضحية. وقد كانت هذه العظة فاعلة ومؤثرة في الجميع.

وبعد الانتهاء من إلقاء الخطبة الاستنهاضية نظر إلى رئيسه الإقليمي واعترف له بأنه أسقفه الشرعي، ثم جثا على ركبتيه في الأرض والتمس منه باكيا أن يمنحه البركة باسم الأب سان فرانسيسكو للإبحار. ثم عانقهم الأسقف وباركهم باسم الثالوث المقدس والأب الملائكي مثلما فعل يعقوب من قبل، وودعهم الناظر العام وفرسان آخرون تبعوهم حتى ركبوا في السفينة. وفي يوم 18 يونيو عام 1646 هبت ريح مواتية ساعدتهم على الوصول بأمان إلى قرب مازاكان في يوم التعميد الكبير، ولما شوهدت الشراع من الساحة أطلقت المدفعية طلقاتها، فأجابوهم، واقتربوا من ميناء أيير في الرابعة مساء .

وعند الاقتراب من المرسى علقوا في السارية راية الأصدقاء، وأطلقوا النار بدون رصاص لتحية القلعة، وأجابوهم بالشيء نفسه تأكيدا للأمان في الرسو. ثم جهزوا مجاديف السفينة الثمانية، وبعض الجنود المسلحين. فأمر الأب السفير مرافقه فراي

كينس باعتباره عارفا بهذا البلد البربري أن يلتمس الدخول ويتصل بحاكم هذا الميناء الإفريقي. ثم أشهر عكازا يحمل منديلا تعبيرا عن السلام. ولما اقتربوا من الجسر رأوا القائد آت ومعه كثير من الفرسان المسلحين، وعندما اقترب منهم طلب منه فراي كينس الأمان، فجزم به، وخرج كينس من المركب، وقبل أن يطأ الرمال تعرفا على بعضهما، إذ كان القائد المسلم مرتدا فرنسيا وصديقا مخلصا لفراي كينس وذو خصال حسنة لولا ارتداده.

وبعد التحية طلب فراي كينس من القائد أن ينسحب حراسه من حوله لكي يتحدث معه ببعض الأمور المهمة، فأخبره عن خصال السفير الذي أتى باسم الملك، وعن غرض مجيئه، وهدية الشكر التي كان سيأتي بها الأب المتوفى فراي ماتياس من قبل. وبما أن المسلمين متملقون بطبعهم، ويسعى كل واحد منهم أن يكون سباقا إلى إيصال الأخبار إلى الملك، فقد ابتهج القائد كثيرا عند سماع هذه الأخبار التي أحيت آماله، خاصة وأنه هو الذي أقنع الملك بربط العلاقات السياسية مع إسبانيا، ولما تأخر الأب فراي ماتياس حوالي أربع سنوات ظنوا أن المحاولة فشلت. وبعد ذلك طلب فراي كينس من القائد أن يوفر لهم رسوا آمنا، فأكد القائد ذلك بأنه في اليوم الموالي عندما توضع راية بيضاء فوق القلعة وتطلق المدفعية، آنذاك ترفع المراسي، وسيكون القائد مع بحارة الميناء في زورق ليدخلوا السفينة. فتم كل شيء كما تقرر وأرسل لهم قائد المرسى ليرشدهم عند الرسو الذي كان خطيرا لوجود الصخور تحت الماء وأكوام الرمل. وبهذا هيأ لهم القائد الدخول السعيد، إذ خرج مع بحريته ودنا بمركبه من السفينة ودخل إليها لتحية الأب السفير ومرافقه. وهناك تداولوا المواضيع الأولى والسفر الموفق، وإبلاغ الملك بكل هذه الأخبار كما هي العادة. وخلال ذلك كان عليهم أن ينتظروا الجواب، فأمر الأب السفير بإعطاء قبعة لكل خدم القائد والبحارة، ليبدأ بذلك دخوله المنتصر، لأنه ليس هناك أكثر عظمة من مدح من أعطاهم ما يستعملونه كثيرا.

بعد أن خرج القائد من السفينة أرسل بقرة إلى جميع ركاب السفينة، وأكلا رائعا إلى السفير ومرافقه خلال جميع أيام إقامتهم هناك. وأخذ محمد بن عبد الله الباشا الكبير للمملكة الرسائل وأدخلها للملك، وأشهر خبر مجيء سفير إسبانيا الجديد والذي كان مفرحا بالنسبة إلى المسيحيين، ومرض جدا أيضا بالنسبة إلى المسلمين كما تجسد ذلك في حفلاتهم. فأمر الملك بعد ذلك أن يخرج قائدان بموكب كبير من الفرسان ليهنئوا السفير على وصوله، ويرافقونه في الطريق. وأرسل خيمة من خيامه الخاصة للسفير

ومرافقه، وخيمتين للعائلة، كما أرسل فرسين من الخيول التي يركبها إلى الشخصين، وخيولا إلى باقي الحاشية، وأكثر من أربعين بغلة محملة لإقامة وحدات الجيش، وأمر كذلك أن تنجز كل طلبات السفير. وخلال فترة انتظار الجواب أطلعوا السفير على طبائع أهل البلاد، فعرف طمعهم الجشع، وهيأ كل الأشياء التي يحتاجها في الطريق وفي المداخل، مراعيا رتبة كل واحد منهم كما فعل مع القائد مراد حيث قدم له هدية ثمينة، وكذلك الشأن مع باقي المسلمين الذين قاموا بخدمته.

وجاء الجواب خلال خمسة عشر يوما يعطي الإذن لكل المسيحيين المرافقين للسفير بالدخول معه. وعند وصول القائدين إلى الميناء أطلقت المدفعية طلقات السلام من خمسة مدافع، فنصبوا خيامهم في نفس الميناء على مرأى من المركب ليحرسوا أمتعتهم. ولما سكن الجميع، بعث السفير خدمه بالشكر للقائدين على حسن الترحيب، وإخبارهما بأنه مستعد للذهاب إليهما شخصيا، فشكر القائدان هذا التهذيب وردا باللطف والترحيب. لقد امتلأ الميناء بالخيام حتى بدا المنظر مثل حملة عسكرية. ونصبت بالقرب من القلعة خيمتي القائدين، وخيمة الملك التي يقيم فيها السفير، وخيمتين للعائلة بالقرب من البحر، وتتابعت الأخريات في تنظيم محكم.

وعند إطلاق مدفع القلعة، خرج القائدان معا من خيمتيهما مع جميع المرافقين، وخرج الأب السفير، ومرافق السفينة مع كل طاقمه. وكانت هناك خيول كافية لركوب الجميع أتوا بها من مراكش، ورجل أسود يمشي في مقدمة السفير ومرافقه، وخرج صاحب البوق في الأمام على فرسه، وتبعه المشاة راكبين، والسفير في وسط المرافقين وقائد السفينة، وفي المؤخرة البحارة المسلحون راكبون جميعهم. وأعلن النفير إشارة المشي، وأطلقت المدفعية في القلعة والميناء طلقات السلام الملكية، فترجلوا بتساو وحيوا بمراسيم واحتفالات ربما أفادهم بها المرتدون، لأنهم أناس يجهلون هذه المراسيم ولا يصرفون وقتهم فيها. وقد تقرر يوم وساعة السفر بحسب الأمر الملكي الذي أرسل إليهم، ثم ودعوهم وأرسلوا لهم بعد ذلك أكلا غزيرا وبقرتين وثورين ومائة دجاجة.

- **دخول السفير إلى مراكش والاستقبال الذي حظي به :**

بعد قضاء فترة الاستراحة قام القائد الرئيس بترتيب السفر، حيث جهز القافلة بكل المرافقين، وأتى السفير مع جميع المشاة الإسبانيين والجزء الأكبر من البحارة المسلحين وقائد السفينة، وبينهم مشى أربعة مبشرين باللباس الدنيوي لأن البربر ليسوا متعودين على

لباس الرهبنة. ولما أعلن النفير إشارة المشي خرج الجميع بتنظيم جيد، وعند الوصول إلى الدواوير التي هي عبارة عن قرى كان البوق يعزف، فيخرج البربر عند سماع صوته. وبالنسبة إلينا فقد كنا نندهش لرؤية هؤلاء الناس السود الفقراء الحفاة الذين كان أغلبهم يمشي عاريا. وخلال أربعة أيام من المشي لم يلاحظوا شيئا آخر غير الفقر الكثير، حيث كان السفر صعبا بسبب وعورة الطريق والحرارة المفرطة وقلة المياه.

وعندما أشرفوا على مراكش فرحوا جميعا، رغم أن المبشرين بكوا لرؤية مدينة جد عامرة تعيش تحت وطأة الكفر والجهل والفحش. فأقاموا الخيام على الضفاف المنعشة لوادي تانسيفت وانتظروا أمر الملك بالدخول. وكان القائد قد أخبره عن طريق البريد بالوصول. وبعد ساعات قليلة أتى الأسقف المبشر فراي خوليان الذي بقي وحيدا بعد رجوع فراي ماتياس إلى إسبانيا وموت المقرر فراي جوسيب دي أستوركا الذي ظل معه سنتين فقط. لقد كان جميع رأسه مغطى بالشيب وشاحبا وهزيلا ويلبس ثوبا فقيرا ومرقعا، بحيث لم يكادوا يعرفوه. وجاء فراي خوليان يجري بيديه المبسوطتين مثل الصليب عندما رأى أسقفه من مسافة بعيدة، وخرج السفير مع مرافقيه وعانقوه وبكوا من فرحة اللقاء. وبعد أن هدءوا ومسحوا دموعهم أخبرهم فراي خوليان بحالة البعثات والفضائل التي منحه الله إياها رغم شعوره بقسوة الوحدة لمدة سنتين، وذلك ليس لعدم قدرته على مساعدة جميع الأسرى، ولكن لعدم وجود أسقف في صحبته يدير معه القرابين المقدسة إذا أعجزه المرض.ولا أشك في معاناته للحزن والعذاب لبقائه وحيدا بين هؤلاء الكفار، وقد أدرك السفير عمل هذا القديس وكده الذي وجب على المبشرين الذين أتوا معه أن يتابعوه. وعندما بدا للأب خوليان أنه حان وقت دخولهم التمس من السفير اللقاء بالأسرى لتسليتهم، إذ لم يسمحوا لهم بالخروج إلى رؤيته.

جمعوا الخيام وسارت القافلة إلى المدينة، وقبل الوصول إلى أبوابها أمرهم الملك أن يدخلوا إلى بساتينه التي توجد خارج الأسوار وينتظروا أمرا آخر. وفي وسط النهار أرسل الملك كثيرا من المسلمين يحملون موائد الأكل على رؤوسهم، وقد شكل ذلك بالنسبة إلى المسيحيين أمرا جديدا، حيث قدمت لهم أطباق الأكل بدون سكاكين ولا ملاعق ولا مناديل ولا سماطات السفرة. وقد احتوت الموائد الخمسة الأولى على عشرة خرفان كاملة مشوية ومحشوة، وفي الموائد الخمسة الثانية أتوا بخمسين خبزة كبيرة، واحتوت الموائد الأخرى على التمر والتين والحمص المقلي بالزبيب. وفي الساعة

الخامسة مساء جاء أمر الملك بالدخول، فقد كان هذا أكثر الناس ابتهاجا بمجيء السفير الإسباني وتقديرا للملك الكاثوليكي.

هيأ القائد ورئيس حرس الملك المراسيم ألفا من المشاة وخمسمائة فرس ونظمهم في شكل جميل. ومشى أمامهم نفيرنا على الفرس، وأعجب البرير كثيرا بعزفه. وبعده جاءت ستة وثلاثون بغلة مع المشرف عليها. وتبعهم الفرسان بالهدية ومشى بجانبهم مسلمان لبسا لباسا فاخرا. وبعد ذلك اصطف ألف مسلم في صفين لبسوا لباس البوابين، وأثاروا كثيرا من الغبار ببنادقهم . ثم أتت النوبة، أي الفرقة الموسيقية الملكية المؤلفة من خمسين أداة موسيقية، ورغم خشونة هؤلاء فقد عزفوا ببعض التجانس. وبعد ذلك جاء رجلان أسودان بضفائر شعر طويلة وقاما ببعض الحركات الفظة والمضحكة. وقد منعوا مرور أي شيء أمام فرس الأب السفير، وذلك تحاشيا لأي خطر. ثم جاء السفير وسط دون ميكيل إيسكوديرو وخوان ماريان قائد السفينة، وأحيط الثلاثة بقائدين. وبعدهم جاء المبشرون بلباس الرهبنة. ثم تبعهم جميع المشاة المسيحيين راكبين، ورجال البحرية. وفي الأخير رافقهم جميع الفرسان المسلمين لحمايتهم، وعدد كبير من العامة، وجميعهم أثاروا ضجيجا.

وهكذا وصلوا إلى القصر الملكي، حيث أعد مأوى السفير في القصر الذي يتربى فيه أبناء الملك، والذي يقع في نهاية القصبة. وقد حاكوا في تزيينه الطريقة الأوربية، وتبين ذلك في إعداد الأسرة والخزانات والمكاتب والكراسي العالية من الحرير والقطيفة. ففي جناح متسع كانت هناك ثلاثة غرف للنوم، حيث كانت غرفة السفير في الوسط وفي جانبيها غرفة القائد وغرفة المرافق. وفي صالة أخرى جميلة آووا المبشرين. وفي صالات أخرى آووا كل الحاشية الإسبانية. وقد قام بهذا الترتيب اليهودي بلياشي، الذي كان عارفا بطرق المعاملات السياسية، ولذلك حمله الملك بمهمة خدمة السفير.

وضعوا الحراس في الأبواب وكلفوا قائدين أن يمنعوا دخول أي أحد ليلا ونهارا بدون إذن ورغبة من السفير. وما أن دخل هذا الأخير إلى غرفته حتى جاء قائد مرتد من مستشاري الملك للترحيب به باسم الملك والسؤال عن صحته، وتقديم كل ما يرغب فيه. وعندما خرج دخل آخر مع كثير من المرافقين وخدم الملك حاملين على رؤوسهم موائد الأكل التي تحتوي على كثير من أصناف اللحوم المقدمة في الخزف الصيني. وقد كانوا يأتون بهذا الأكل نفسه في الصباح والمساء. وكان السفير يعطي لكل واحد من الخدم أربع ريالات من الفضة، وفي اليوم الأخير كان يعطيهم من ريال إلى ثمانية، لأن إماء الملكة كن يأتين بالأكل بأدب خاص. وفي جميع الأيام كان يأتي قائد في الصباح باسم الملك للسؤال عن صحة السفير وأخذه إلى

حدائق القصر ليروح عن نفسه. لكن السفير صرح للقائد أن ما يريحه هو رؤية الملك على اعتبار أن اللقاء به هو الذي أتى به من وطنه. وقد حظي طلبه بموافقة الملك.

• تسليم السفير لسفارته العامة والشكل الذي سلمت به :

بعد مرور ثلاثة أيام من الاستراحة قرر الملك أن يخصص للسفير مقابلة عامة، فزينت قاعة الاستقبال بستائر حريرية مطرزة بالذهب والفضة، وفرشت الأرض بالقطيفة والحرير وأصناف مختلفة من الورد شكلت تنوعا جميلا من الألوان. وفي واجهة الباب كان هناك العرش الملكي المؤلف من ستة صفوف من المخدات ذات النسيج الحريري المشجر القطيفة والحرير القرمزي، حيث وضعت الواحدة فوق الأخرى وغطيت بستار من فضة يشف عن لمعان كبير. وعلى جانبي هذه الصفوف وضعوا صفين آخرين، فشكل ذلك لوحة جميلة. وفي جانبي العرش كان هناك سريران عاليان -كما في أوروبا- علقا فيهما ستائر فاخرة ووضعا فقط للزينة.

جلس الملك في عرشه على هيئة خاصة، بحيث لا يرى إلا نصف جسده، وكان يلبس بذلة فاخرة جدا ويحمل في يده خنجرا، وهو بمثابة صولجان ملكي مرصع بالماس والأحجار الكريمة التي تعكس بريقا كثيرا، وهذا الوسام هو الذي يخرج به في الاحتفالات العامة. وفي جانب وقف مرتد مخصي يحمل ملطاسا من الريش لتلطيف الجو، وفي جانب قريب من الملك وبجانب المخدات جلس القاضي الأعلى للمملكة. وفي الجانب الآخر جلس قائد شيخ ومقرب من الملك، وهو مفتيه الذي يحظى بالتقدير والحصانة الدينية مثل التي يتميز بها السيد الأسقف.

بعد أن جلسوا جميعهم أمر الملك مرافق السفراء أن يأتي بسفيرنا، وأخبروه بالمراسيم التي يجب أن يؤديها عند الدخول والجلوس. وبعد كثير من الملاحظات التي أبداها سفيرنا حول هذه المراسيم والتي كانت تمس بمبدأ سيادة الملك الذي أرسله، أنهى كلامه قائلا: إن الملك لا يحق له أن يتمدد، وأن لا يجلس أحد من الحضور عندما أتناول الكلمة من جهة ملك إسبانيا، وإذا جلس السلطان فإنه يحق لي الجلوس. فطمأنوه أنهم سيقفون جميعهم. وعلى هذا الأساس خرج السفير من مأواه مع مرافقيه الإسبانيين ومروا عبر مداخل وصالات كثيرة، وبقي الموكب في المؤخرة، ودخل فقط السفير ومرافقه. وعند الاقتراب من الملك أدى التحية، وذلك بوضع اليد في الصدر وحني الرأس قليلا والوقوف وسط القائدين اللذين خرجا من جانبي العرش. وبعد سؤال الملك له عن حاله في العاصمة وعن حاجته، أجابه بتقديم السفارة بتواضع وجلالة دينية للتعبير عن عظمة ملكه وهيئته

الدينية، ثم قبل الرسالة الملكية وأعطاها إلى يد الملك مباشرة. فقرءوها باللغة الإسبانية وترجموها في الوقت نفسه إلى اللغة العربية، ورضي الملك عند سماع محتواها. وبعد ذلك ودعه بالترتيبات نفسها رغم الحرج الذي أحس به السفير لأن المراسيم المتعاهد عليها لم تحترم، حيث جلس المفتي والقاضي على الأرض، ثم قدم له الملك بعض الملاطفة وعبر له عن تقديره للعلاقات مع الملك الكاثوليكي. وبعد ذلك ذهب به كثير من الشخصيات الكبيرة إلى قاعة الانتظار. ثم أمر الملك أن يدخل الأفراد الأوائل من حاشيته، فدخل الرهبان والقائد وخادماه، وأربعة جنود، وعازف البوق وجميعهم لبسوا البذلة الملكية التي قدمها لهم السفير، فعاملهم السلطان بإحسان وودعهم شاكرا إياهم، ثم رافقوا السفير وعزف البوق أمامهم حتى قاعة الانتظار.

أمر السفير الأب فراي كينس أن يرتب الهدية بشكل جيد حتى تبدو جميلة، وأتى بها اثنان وستون شخصا مسلمين وأسرى، ومن بينهم أتى غلامان متشابهان يلبسان لباسا جيدا ويجران بيمينهما فرسين أنيقين في طقميهما الغنيين وخصلات شعرهما وذيليهما وفي مشيتهما. فقد كان لجاماهما وركابهما من الفضة الجميلة، أما سطح الكرسيين فقد كان من الفضة والصدف المنقوشين بشكل جميل. ويتبع الفرسان خادم دون ميكيل إيسكوديرو يرتدي لباس صياد بقفاز ويحمل كيسا للقنص مطرزا كله بالذهب ومملوءا بالعنبر، وبندقية بمفتاح خاص طبع في ماسورته اسم الملك الكاثوليكي فيليبي الرابع. وبعد ذلك تبعهم بنظام صندوق فاخر من الصدف وآخر من العاج، وثلاث قطع من بدرة القرمز، وثلاثة من القطيفة، وستة من الحرير، وأربعة مهاميز، واثنان من العنبر، وثلاثة من النسيج، وواحدة من قماش الدمقس. ثم بعد كل هذا وصل اثنان وعشرون قطعة من النسيج من مختلف الألوان من صنع سيكوفيا الجيد، وستة قطع من النسيج الغليظ من سيكوفيا أيضا، وستة من طوليدو، وواحدة من الشق الرقيق، وثمانية قطع من قماش قرطبة، وثمانية صناديق تحتوي كل واحدة أربعة وعشرين قبعة، وكمية من العطر، وثمان سلال من فخار الصين، وأربعة صناديق من الزجاج البلوري من فينيسيا.

وجميع هذه الهدايا أتوا بها عارية على رؤوسهم وأدخلوها بأمر القهرمان الكبير الذي يتحمل مهمة استقبالها ونظر إليها الملك ببعض الرضى. ولعل كل هذه الهدايا التي قدمها الملك الكاثوليكي هي في مقابل الأسرى الستة الذين أرسلوا إليه. ويعرف هذا الملك البربري أن الملك المسيحي يستطيع أن يقدم الكثير من أجل فدية روح واحدة. وهكذا أمر الملك أن توضع كل هذه الهدايا في مكان منعزل حتى تراها الملكة مع نساء أخريات

وخادمات مساعدات، ثم أقام عشاء ملكيا في تلك الليلة للتعبير عن شكره.

جاء الباشا الكبير في اليوم الموالي إلى الملك، وبعد تحيته قدم له شكوى عن مخالفة القاضي والمفتي لما تعاهدوا عليه مع السفير، فأرضاه بقوله له أن هذين الشيخين يتمتعان بسلطة عليا، وأنهما لا يعلمان بالسياسة التي تمارس بين المسيحيين، وأنه سينبههما لتفادي هذه المساوئ. وفي هذا اليوم صدر إذن عام يسمح للخدم بالسير عبر شوارع المدينة بأسلحتهم يتبعون الطائفة الملكية، ثم أتت بعد ذلك الفرقة الموسيقية الملكية، فعزفوا في الباب بعض الوقت، وأمر السفير بإعطاء قبعتين لكل واحد من رئيسي الفرقة وقبعة واحدة إلى الآخرين ومائة ريال من الفضة للجميع. ثم أمر بعد ذلك بإعطاء الهدايا للقياد حسب درجاتهم، وإلى خدم الملك الذين فرحوا بها ودعوا بالمجد للملك الكاثوليكي. وبعد ذلك أرسل الملك الترجمان اليهودي إلى السفير ليبين له عن كل الأمور التي يرغب فيها الملك الكاثوليكي لكي يتداول ذلك في المجلس الاستشاري. ومع أن السفير فضل أن يترك ذلك لكرم الملك، لأن الهدية لم تكن إلا ردا على هداياه السابقة. إلا أنه استجاب لإلحاح اليهودي، وقال إن ملكه يقدر كثيرا تحرير كل الأسرى الموجودين في هذا الأسر. فوعده اليهودي بفعل ما يرضيه من دون أن تكون هذا الرغبة مؤكدة التحقيق، لأن تحقيقها سيكون مبادرة من اليهودي، ولذلك أكثر السفير من العطاء له باعتباره مستشار الملك الرئيس. وقد خصص الملك راتبا يوميا للسفير مقداره مائة ريال، كما ثبت أن السفير أمر بتخصيص مائدة من الأكل في كل يوم لجميع الأسرى على اختلاف جنسياتهم، كما أمر أن تعطى الصدقات لكثير من المسلمين والمرتدين الذين يطلبون الصدقة. وقد جنى من خلالها كثيرا من الفوائد الروحية وخاصة بالنسبة إلى المرتدين الذين اهتدى البعض منهم. وقد أشار فرانسسكو روكي في رواية تاريخية مخطوطة إلى أن الملك خصص راتب مائة بيسو، ولكن هذا لم يذكر في الرواية التي طبعها فراي كينس، لأنه ربما لم يقبل السفير هذا المبلغ.

بعد مرور بعض الأيام قرر الملك أن يقابل السفير وحاشيته ثانية لإنجاز بعض أمور السفارة، فذهبوا إلى القصر ومروا من قاعة الانتظار الأولى، حيث كان هناك كثير من القياد جالسون على القطيفة، وبقي هناك كل الموكب ودخل السفير ومرافقه واليهودي وقائدان إلى قاعة الملك الذي كان جالسا في عرش كله سرادق من ذهب، ويرتدي لباسا أفخم من لباس المقابلة الأولى ويجلس على كرسي ثمين جدا يمكن اعتباره تحفة لأمير عظيم. وفي هذه المناسبة أدى السفير المراسيم السابقة نفسها ولاحظ جلوس مسلمين في الأرض، ولما

سأله الملك عن حاله رفض الإجابة، ونبهه اليهودي إلى أنه يجب أن يجيب، فأجابه السفير أنه لا يود الإجابة لأنه لم تنجز له المجاملات المتفق عليها، وأنه إذا لم يقف المسلمان سيخرج أو يجلس مثلهما، فاندهش اليهودي وقال له إن وقوف المسلمين ليس عادة متعارف عليها، وأن جلوسه هو الأقل حرجا. فتقرر أن يجلس السفير مثل الإثنين، وأجاب الملك بهدوء كبير أنه جد مسرور في أرضه، وأنه يشكره كثيرا على فضائله، بحيث يأمل أن يصل إلى وطنه لكي يروي عن الكرم الملكي الذي عومل به. لقد شاء الله أن يهدأ من حاله وتمكن من التعبير بهدوء وثقة، في الوقت الذي كان ينتظر منهم تغييرا في موقفهم تجاهه، لأن قرار الجلوس أثر كثيرا على مزاج السلطان والحاشية. فأعجب الجميع بهذا الإصرار وهذه الإجابة اللطيفة، ولاطفه الملك من جديد وشكره، ووعده السفير أنه سيوصلها إلى ملك إسبانيا، ثم ودعه بنفس الاحتفال. وعند الخروج أمر السفير بإعطاء كمية من المال لجميع البوابين، ولما أتى إلى مكان في القصر وجد مجموعة من المسلمين تتدافع نحوه، بحيث لا يستطيع الحراس أن يفتحوا الطريق بالهراوات، فأمر فراي كينس أن يعطيهم صدقة، وبما أن إعطاء كل واحد منهم كان مستحيلا فقد رمى لهم في المداخل على الأرض ألفا وستمائة قطعة نقدية من الفضة والتي تساوي أربع ونصف إسبانية. فقال هؤلاء التعساء إن سفير إسبانيا يزرع الفضة، وعبروا عن شكرهم بالأدعية نفسها التي يسعون بها إلى ملوكهم، بقولهم "الله ينصر سلطان إسبانيا"، والتي تعني أن يمنح الله الحياة والمجد لملك إسبانيا. فربما بقيت هذه الأصوات مخبأة في هذه الحيطان لتتكرر أصداؤها عندما يدخل خلفاء فيليبي الرابع ليخضعوا هذه القصور إلى الحكومة الكاثوليكية. وفي يوم آخر أمر الملك قائده أن يطلع السفير على كل القصر بحدائقه وينابيعه، وحتى البيوت الداخلية للنساء، حيث كان يمشي وسط كثير من التصفيق من قبل العامة.

- **ذهاب السفير إلى الساجنة، ووضع القربان المقدس في الدير واختياره للحارس وتوديعه للملك :**

التمس الأب السفير من الملك الإذن لكي يبقى مرافقوه الأربعة في العاصمة وأكد له في الوقت نفسه المنن التي قدمت لهم بمنح ميدان لإقامة الكنيسة والإذن بتأسيسها وانتمائها فقط إلى مذهبه وإقليمه، بالإضافة إلى منن أخرى مثل الإعفاء من أداء بعض الحقوق على أمور البيع والشراء كما يؤديها الجميع. وبصفة عامة فقد كنا أحرارا كما في البلاد المسيحية . ثم أخبر السفير الملك أنه يريد الذهاب إلى الساجنة لرؤية الرهبان والأسرى، فأمر أن يرافقه جميع القياد ولا يدخل أحد منهم إلى الداخل، وأنه يتم إعفاء

الأسرى خلال أيام حضور السفير من العمل لكي يحتفلوا بمجيئه إلى الساجنة. وبقي جميع مرافقية عند الباب، ودخل مع المسيحيين فهب لاستقباله جميع الرهبان والأسرى. وبعد أن غنوا القداس ألقى الأب السفير خطبة وعظية، ثم هيأ الجميع للاعتراف في اليوم الموالي، وذلك من أجل أن يتقبلوا القربان المقدس من يده، ويفوزوا بالعيد الخمسيني للأب الملائكي. وفي هذا اليوم الذي احتفلوا فيه بالقداس وضعوا الإله في القربان المقدس الجديد الذي وهبته الملكة الكاثوليكية، لأنه منذ تأسيس الدير لم يكن قد وضع بعد في بيت القربان. وبعد إتمام الخطبة أمر السفير بتزيين المذبح، وكان هو أول من نزع عباءته وساعد في وضع التحف وتزيين الكنيسة، فكان مثالا للجميع بتواضعه الكبير.

وضع بيت القربان المقدس المصاغ من الذهب وفوقه مقعد من نسيج حريري مزين بالذهب وهبته الملكة دونيا إيزابيلا، وفيه وضعت صورة القديس الزافر التي يبلغ عرضها أكثر من خمسة أشبار. وفي جانب هذا المقعد وضعوا صورة ليسوع الطفل يرتدي لباسا جميلا، وفي الجانب الآخر صورة للولادة الطاهرة. ثم وزعوا تحفا أخرى وباقات الزهور وبينها كثير من الشمع، حيث كان كل شيء نظيفا ورائقا ومهيأ لليوم الموالي ليقدس الإله ويوضع في بيت القربان.

في صباح يوم 2 غشت جاء السفير مع مرافقيه وأغلقت الأبواب وبدأ الاحتفال. فخرج السفير مغطى مع الرهبان والأسرى في شكل جماعة حاملين الشموع المضيئة، يرنمون النشيد بأصوات ترن في السماء، لأنهم كانوا متأثرين برؤية الإله السامي المحبوب رغم أقليتهم بين الأعداء. وبكوا جميعهم وخاصة الأب السفير الذي اعتبر نفسه غير مستحق لأن يكون أسقفا ساميا لهؤلاء الرجال المؤمنين. ثم وضع الإله السامي في العرش واحتفل بالقداس، وفي الأخير وضع في بيت القربان المقدس الجديد ليكون سيد هذا المنزل الواسع.

وعند الانتهاء من هذا العمل المقدس قرر السفير اختيار حارس للدير ليعوض فراي ماتياس المتوفى، فاستدعى الجماعة الصغيرة وألقى عليهم خطبة، وارتأى أن يتم اختيار الأسقف عن طريق الاقتراع ليختاروا هم أنفسهم من يلائمهم لخدمة الإله. فانتخب الأب فراي خوليان باستور بصفته رجلا صالحا وحواريا يستحق أن يتحمل وظيفة الأسقف ليحافظ دائما على روح تلك الأهداف الأولى التي أتت بهم إلى بلاد الكفر. وقد تراجع المنتخب الجديد عن هذه المسؤولية، ليس هروبا من التعب والمعاناة ولكن لتواضعه واعتقاده بأنه ليس أهلا لقيادة الآخرين. ولم يقبل الأب السفير هذا التنازل لأنه يعرف

صلاحه من قبل أن ينتخبه المجلس. ثم تداول السفير كل مواضيع البعثة والأمور التي يمكن أن تطرأ عليها، والحالة التي يجب أن تكون عليها، فصادق على طريقة حياتهم بدساتير وقوانين هذا الدير، وتمم بعض الأشياء التي لم يكن الرهبان متأكدون منها.

انتهى الأب السفير من هذه التبعيات، وانتظر أن يناديه الملك لينهي معه مناقشة بعض المواضيع ويودعه. وبعد أيام استقبله في مكان مغاير ولم يكن معه المفتي القاضي وكان القياد واقفون على أرجلهم، فجامله كثيرا ثم ودعه ومنحه الإذن للذهاب. وفي الحادية عشر ليلا أرسل له سائقا يقوده، وإذنا عاما لكل التابعين إلى العرش الإسباني يسمح لهم بأن يتعاقدوا مع مملكتهم أحرارا في أنفسهم وممتلكاتهم، ويعاقب الذين يمنعونهم أو يضايقونهم، ويؤدون فقط الجزية على الأعشار. وعلى هذا استأجر الملك موانئه لليهود بشرط أن يتاجر فيها الأسبان وحدهم، وكان هذا أمرا إيجابيا في صالح مملكتنا الكاثوليكية. كما أعطى الملك أمرا لتموين إسبانيا باللحم والقمح في سنتي 1648 و 1649 بحيث تم إرسال مائة ألف فنيقة من القمح، وكميات لا تحصى من الدجاج بسبب ما خلفه الوباء السيئ من حاجة واسعة في إسبانيا.

كما أرسل ملك مراكش إلى ملك إسبانيا هدية تتألف من ستة أمهر جيدة، وبرسن من حرير ومحاك بذهب رقيق، وفرسين بطقمين فاخرين، بحيث أن رباطات مقوديهما من الحرير وجميع إبزيماتهما من الذهب وركابيهما منقوشان، ودروعهما من القرمز الرطب وأغطيتهما من الحرير الصيني المبطن بالحرير الأصفر والوردي. وثلاثة خناجر بأطراف وأقراط وحواجز من ذهب. ومنح لدون ميكيل إسكوديرو مائتي مثقال من الذهب في كيس جميل مطرز، علما بأنه كان يعرف أننا لا نقبل مثل هذه الهبات. كما منح للأب السفير أسيرين، واحد طباخ والآخر عمل في خدمة الدير ست سنوات. كما أفرج عن جميع الأسرى الإسبانيين الذين كان عددهم أربعة عشر، إذ لم يكن ذلك الوقت منكوبا مثل اليوم رغم أنه بعد ذلك أسر آخرون. وبالإضافة إلى هؤلاء الأسرى افتدى السفير أسيرين آخرين على نفقة الملك الكاثوليكي ولم أعرف جنسيتهما، فكان عدد الأسرى المطلق سراحهم جميعا ثمانية عشر أسيرا .أما الرسالة التي أرسلها الملك المسلم إلى الملك الإسباني فكانت عبارة عن جلد بقري طويل في كيس من القطيفة القرمزية مختوم بالشمع ويغطي الطابع صفيحة من ذهب. وسأورد هذه الرسالة فيما يلي، يقول عنوان الظرف :

إلى الملك ابن الملك دون فليبي دي أوستريا ملك إسبانيا وممالكات أخرى :

الحمد لله وحده. من الملك الكريم المنحدر من الرسول الشريف محمد الشيخ المدافع عن شريعة الله والحاكم بأمر الرسول السامي الشريف، والذي يطيعه أمراء المسلمين ويتمنى بركته الآخرون من أقطاب العرب، ويخضع لحكمه ملوك غينيا وأقطابها. إلى القوي في حكمه الكريم الحكيم البشوش الذي يملك بين أمراء شريعة المخلصين القدرة الكبيرة، والأمر المطلق والتقدير والعظمة والقيمة الملك دون فيلبي ملك إسبانيا والصقليتين، أرشيدوق أوستريا، دوق بركونيا وبربانتي وميلان ودول أخرى أدام الله حكمكم. بعد شكر الله يجب أن آمر أمراء الأرض من مختلف الأديان أن يتوافقوا فيما بينهم ويعقدوا العلاقات الجيدة بين حكومات دولهم عن طريق الرسائل والسفارات من أجل منفعة وطمأنينة شعوبهم، وتحقيق العلاقات الحسنة بينهم وبين رعاياهم، ونحمد الله نحن دولتنا الشريفة الملكية وجلالتكم على هدوء شعبينا وطاعتهم لنا. وقد جاء إلى موانئنا السامية سفير جلالتكم الأمين والحكيم فراي فرانسيسكو دي لاكونسيبسيون ومرافقه دون ميكال إسكوديرو اللذين جاءا برسالتكم والهدية إلى دولتنا السامية، وقد خصصنا لهم استقبالا رائعا وأثنينا عليهم بالحمد والشكر، وفهمنا من مضمون الرسالة السعيدة حب جلالتكم الخالص لما أهديناه بإرادتنا إلى مملكتكم، وبالشكل نفسه ما أهدي إلى مملكتنا بدون أية صعوبة ولا اختلاف.وقد بقي خدم جلالتكم السعداء في عاصمتنا من أجل الاستراحة ومددناهم بكل ما هو ضروري، وبعد ذلك التمسوا الانصراف فودعناهم مع تسليمهم جميع الأسرى المسيحيين رعايا جلالتكم رغم أن السفير لم يطلب ذلك، ولو وجد أكثر من أولئك الأسرى لمنحناهم الحرية احتراما لجلالتكم، إذ تفهمنا من الراهب السعيد الحب الذي تكنوه جلالتكم لنا بحيث لا يبدو لنا أي شيء كبيرا من أجل إرضائكم.

تعرفون جلالتكم أنه فيما مضى شحن أبونا الملك أسكنه الله جنته سفينة فرنسي في ميناء آسفي بكثير من الأشياء النفيسة، ومن بينها كمية من الكتب لكي تذهب إلى سانطا كروس. لكن الفرنسي غدر به وشاء الله أن يعاقبه بأن أخذ رعاياكم هذه السفينة بكل ما كان فيها. ونحن لا نطلب الأشياء النفيسة بل نطلب فقط الكتب ونأمل من جلالتكم أن تأمروا بإرجاعها، ولأننا نعرف أن الملوك لا يعجزهم أي شيء لتحقيق الأمور، وبما أننا متأكدون من إرادة جلالتكم في هذا الشأن، فإننا نحمل الحكيم والكريم فراي فرانسيسكو دي لاكونسيبسيون بهذا الطلب. التاريخ الهجري 1056، وبحسب تاريخنا 13 غشت 1646.

- **رجوع السفير و مرافقيه إلى إسبانيا و معاناتهم لكثير من الأخطار في البحر :**

بعد توديع الملك ذهب السفير إلى الدير، وشجع إخوانه الرهبان على تحمل مشاق

العمل والصبر على المعاناة، إذ رغم بقائهم في جو آمن، فإنه قد لا يدوم إلا قليلا بالنظر إلى طبيعة هؤلاء الناس المتقلبين. ثم ودع الجميع (مثل سان بابلو)، وتسمر على ركبتيه في الكنيسة وأخذ البركة من القربان المقدس، ووضع يده في عنق كل واحد وبكى كثيرا. وقد أرسل الملك قائدا مهما من قصره ليرتب سفر السفير، حيث جهز جميع الخيول بالكراسي، وحمل البغال بالأثقال. وكان الملك من قبل قد منح فرسين إلى السفير ومرافقه. ثم ركبوا جميعهم وأعطى عازف البوق إشارة المشي، وخرجت القافلة بالهيئة نفسها التي دخلت بها. وبعد أربعة أيام من السير وصلوا إلى ميناء أيير، وقد خافوا كثيرا في الطريق من زحف اللصوص الذين لم يتجرءوا عليهم رغم وجودهم في الجبال. ثم أرسل القائد لاستدعاء "الطالب" أو كاتب الملك الذي كان في آسفي ليتكلف بمهمة تهيئ المؤونة، حيث قدم الطعام الضروري والغزير لكل الناس والخيول. وعندما كان السفير في مراكش شاع الخبر في كافة المملكة عن كرمه و الكنز الذي يملك، فاستعدت سفينتان في سلا لقرصنته. وقد دخل أحد القراصنة إلى سفينة السفير، واطلع على مدفعيتها وركابها وهيئتها وكل قوتها، ثم أقلعوا قبل إقلاع السفير بيومين لكي يختفوا عن الأنظار حسب ما أخبر به قائد الميناء الذي ربما عرف أحدهم.

وفي اليوم الأخير من غشت داهمهم القراصنة، ولم يتبينوهم بسبب الرياح القوية إلا في الثانية صباحا على ضوء القمر. وقد كانوا في هذه الساعة يقتربون من السفينة للقبض على مؤخرتها، إلا أن الرياح لم تمكنهم. واستمروا في مطاردتهم حتى رجعوا إلى الميناء من جديد في الصباح، وكان قائد الميناء قد أخبر بالخطر الذي يتهدد السفير، فأرسل دورية من الحراس للنجدة، وانسحب القراصنة عند رؤيتها. وعندما اقترب الليل بقيت إحدى سفينتي القرصنة في البحر، وجاءت الأخرى إلى الشاطئ. ولما هدأت الريح أقلعت السفينة رغم تعرضها للخطر لتبحر طوال الليل لعلها تكون قد قطعت عند الإصباح عشر أو اثنا عشر فرسخا، إلا أن العدو اكتشف الاتجاه نفسه حيث أمكنهم أن يلحقوا بهم في نفس الميناء، رغم أنهم خافوا من المدفعية المضادة.

وظلوا في هذا الميناء طوال اليوم، وعندما غدا الجو ملائما أبحروا عند اقتراب الليل، وفي اليوم الموالي على الساعة العاشرة اكتشفوا أن إحدى السفينتين تتبعهم، فتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على القتال، فجهزوا المدفعية والجنود، وتهيأ الرهبان للأعمال الروحية. إلا أن القراصنة غيروا الاتجاه عندما عرفوا أن السفينة تحمل كثيرا من الأشخاص، وأنه في حالة الدنو يمكن أن يتعرضوا للخطر. وهكذا تابعوا الإبحار يومين،

وفي إحدى الليالي بعد الانتهاء من غناء التراتيل اكتشفوا أن سفينة القراصنة تقترب منهم جدا، ورغم الظلام الحالك فقد رأوا كل معداتها الحربية بوضوح فصعد الحراس إلى السواري العليا، وتوسل الأب السفير بمريم القديسة، وشجع الناس وطمأنهم، واستعدوا للقتال، إلا أن السفينة لم تهاجمهم واكتفت بمتابعتهم.

لقد قضى الأب السفير تلك الليلة في الأعمال الروحية حيث عرف وبرأ كل الناس الموجودين في السفينة، ثم حمل في يده تمثال المسيح القديس والراية الملكية التي تلوح بإشارة النصر. وعندما أصبح الصباح كان العدو قد ابتعد عنهم كثيرا، إلا أنه في المساء عند غروب الشمس لحق بهم ورماهم، فاختفت قطعة من مؤخرة السفينة رغم أنها لم تكن ذات فعل مؤثر، وأعلن النفير عن بداية القتال، وسار الأب السفير بالصورة المقدسة للصليب مشجعا الناس، ومحذرا إياهم من الخطر، فالتمسوا منه الانسحاب إلى ظهر المركب حيث وضع الصليب الذي يمكن أن يوقف الشمس ويهزم العدو مثل ما فعل موسى من قبل. وهكذا أطلق المدفع من مقدمة السفينة طلقة أصابت العدو، ورد عليها هو بأخرى دخلت من مؤخرة السفينة، لكنها لم تؤذ أحدا من الناس.

وقاوم الجنود الشجعان بالبنادق فأصابوا القراصنة الذين سقطت كثير من أجسادهم في المياه. وحاول العدو الاقتراب ثانية فسقطت شراعات سفينته من الساري الأمامي، وبدون شك فقد قتل أغلب القراصنة، لأنه انسحب وهرب. وقد أراد الجنود أن يتعقبوه، لكن الأب السفير ارتأى أنه يكفي هروبه مهزوما، وعدم موت أو جرح أحد من ركاب السفينة. ولعل حمد الإله وأمه القديسة مريم هو الذي ساعد على الانتصار. وهكذا تابعوا الإبحار فوجدوا أنفسهم بعد يومين بين المعمورة والعرائش. وفي العاشرة ليلا هبت عاصفة قوية جدا عصفت بهم لم يشهدها من قبل القائد والبحارة القدماء، ومالوا إلى الاستسلام، حيث كان الموج عاليا، والظلمة حالكة لا تسمح حتى بتواصل الواحد مع الآخر، وفقدوا الاتجاه. و بما أنهم تيقنوا من حتمية الموت، فقد تمنوا لو أنهم ماتوا في أرض كافرة أو على يد القراصنة.

ولم يبق من أسباب الخلاص إلا الاستعانة بمريم القديسة لتهدئة البحر وإخضاع العاصفة، فوعدوا بالذهاب جماعة إلى زيارة صورتها المقدسة وصورة سان أنطونيو دي بادوا. ثم دخل القائد مرتبكا إلى غرفة مؤخرة السفينة حيث كان هناك الرهبان ودون ميكال إسكوديرو، وأخبر المسافرين المنكوبين أنهم يوجدون بجانب سفالة ريح قادس بمائتي ميل، ثم غطت موجة عالية كل السفينة، حيث دخل الماء بكثرة من العنبر الأمامي

لمؤخرة السفينة، فضعفت الآمال في النجاة. ثم دخل القائد حزينا مرة أخرى وأخبرهم، أنهم يوجدون أمام موضع في جزيرة قادس يسمى سانكتي بيتري. وظن الرهبان أن ما يقوله القائد من قبيل المواساة فقط، إلا أن أسيرا من الأسرى الذين أطلق سراحهم كان بحارا جيدا، صعد السارية العليا، وما أن تأكد من الاقتراب من اليابسة، حتى بدأ يصيح الأرض الأرض، جزيرة قادس! سانطا كاتالينا ! فبعثت هذه الكلمات أرواح أولئك الموتى الشجعان. إذ لم تمض إلا ربع ساعة بين قول الأسير هذا، و بين إخبار قائد السفينة ببعدهم عن الجزيرة بمائتي ميل، فكان هذا الأمر بمثابة معجزة بالنسبة إليهم، وقرروا الذهاب أمام السيدة مريم، التي أنجتهم من هذا الإعصار المدمر، إذ لم تكن لتتركهم يهلكون عند أبواب مذابحها.

دمرت كل مقدمة السفينة ودخل كثير من الماء حيث قضوا الليل كله في إفراغه، دون أن يقدروا على استنفاذه. وفي اليوم الموالي صفا الطقس، فغنوا نشيد النجاة وهدأت أنفسهم. وعند الوصول أدوا الشكر الواجب في المذابح، وتناول الأب السفير وفراي كينس ودون ميكال إسكوديرو العشاء في المعبد. ثم ذهب السفير إلى إخبار دوق مدينة سالي الذي فرح بالمعجزة. وقد كان الدوق في سان لوكار، وأمر قائد الميناء أن تدخل السفينة التي رست بدون خطر، وذهب الأسرى وبقية الركاب لأداء صلاة الشكر وغنوا القداس وتناولوا العشاء. ثم أخبروا جلالة الملك بوصولهم، فأرسل أمره باستقبال الأب المكرم الذي ذهب لتقبيل يدي جلالته، وقص عليه كل ما جرى خلال تسليم السفارة، وأخبره بكل المعاهدات. فقام جلالة الملك بكتابة رسالة إلى الإقليم يشكر فيها جهود الأب السفير ويقدرها. وأورد فيما يلي هذه الرسالة ليعرف الامتنان الملكي للخدمات التي أداها رعاياه.

من الملك

إلى الأب الإقليمي المكرم. لقد عمل إقليمكم سان دييكو منذ سنوات على حماية كنيسة مذهبكم في مدينة مراكش لمساعدة الأسرى المسيحيين وإدارة المقدسات، ويعد فراي فرانسسكو دي لاكونسيسيون واحدا من الذين اهتموا بهذا العمل، ولهذا فقد كان جيدا تعيينه في السنة الماضية مبعوثا إلى ملك مراكش، موازاة مع ما قام به هذا الملك تجاه العدد الكبير من الأسرى المسيحيين الذين أطلق سراحهم و أرسلهم إلى الملكة التي في السماء. وقد تعرض في السفر مع مرافقه لكثير من الأخطار في البحر، ومن قبل الأعداء، وأتى إلينا عند رجوعه وقص علينا حصيلة هذا التكليف الذي تحمله والحالة الجيدة الذي ترك عليها هذا الدير. وأريد أن أحيطكم علما بهذا الراهب لكي تقدموا له

باسمي الشكر الذي يستحقه، وللإقليم أيضا لما يقوم به للحفاظ على دير مراكش من مساعدة لرهبانه، ومواساة روحية لأسراه وسهر عليهم. وبهذا أتمنى أن تعملوا ما أوجبته عليكم بحماسكم وعطفكم الذي تخدمونني به.

مدريد 19 يوليوز 1647

أنا الملك

بأمر من الملك سيدنا

أنطونيو ألوسا رودارسي

● **الاهتداءات و النتائج التي حققتها البعثة في هذه الأزمان :**

الوعاظ الفاعلون هم الذين يملكون القدرة على التأثير بأعمالهم، لأن العمل أكثر إقناعا من الكلمات الواعظة، ولأن ما تراه العين ينطبع في الذهن أكثر مما تسمعه الأذن. وهذه الحقيقة عرفها جيدا الرهبان الذين بقوا في دير المغرب، حيث سعوا بحياتهم المتدينة إلى نشر الطيب وهداية الخاطئين الذين لا يمكن إقناعهم بواسطة الكلمة، لأن التبشير العلني بالإنجيل محرم في هذا البلد البربري. لقد أثار الثوار فتنا كثيرة في هذه المملكة استحال إخمادها، فبعد أن مات الباشا الكبير (وهو مرتد إسباني) الذي كان يتصدى لكل الأحداث السيئة ترك ثلاثين ولدا، فاختير ابنه الأكبر قائدا للجيش. وبما أنه كان مازال شابا، لم يكن يملك التجربة الكافية والفطنة والاحتراس اللازمين، فقد جر المملكة إلى فتن مستمرة، وازدادت الحالة سوءا عندما عمت الحاجة في البلاد بسبب النقص الذي أصاب إنتاج الحبوب التي تعتبر الغذاء الأساس للسكان، وقد أعد الرهبان في هذه المناسبة كثيرا من الصدقات لكثير من الفقراء ووهبوها وقت الحاجة العسيرة.

وهكذا عمم المبشرون معاملتهم الحسنة، فكانوا يوزعون كثيرا من صدقات الخبز ويساعدون المرضى بمجهودهم وبالأدوية التي يملكون ليس فقط الأسرى، ولكن حتى الكفار الذين كانوا يأتون إلى الدير يطلبون الصدقة، وتقدم لهم دون نظر إلى جحودهم وكفرهم، ولكن ينظر إليهم على أنهم أبناء إله ذو قدرة لانهائية. ورغم أن هذه الهبات كانت كريمة، فإن الأهم كان هو تحسين حالهم وإنقاذهم من مختلف الحوادث، فكثيرا ما كان الرهبان يبكون على التعاسة المحزنة لهؤلاء المسلمين وحاجتهم الكبيرة وأبدية كفرهم. أما المرضى فقد كانوا يسعفونهم بشفقة كبيرة ويقدمون لهم كل ما يحتاجونه من أدوية.

وبهذه الأصوات الحية كان الرهبان الوعاظ يقنعون المغتربين، فكانوا يحذرونهم من

الكفر المخيف لشريعتهم، ويعرفوهم بشريعتنا الحقيقية التي لا يمكن أن تكون سيئة بالنظر إلى أعمالها الحسنة، ولكنهم لا يتجرأون على إقناعهم بسلبيات دينهم، وقد استطاعوا هداية كثير من الضالين عن طريق الحجج المقنعة. ولا يقل أهمية عن هؤلاء الأطفال الصغار الذين يذهبون إليهم في حالة احتضارهم بدعوى تقديم الأدوية لهم، وقد عمدوا ثلاثة أطفال في النفس الأخير وكلهم أبناء رجل مرتد. كما حققوا هداية ثلاثة مسلمين نشأوا وعاشوا في أخطاء دينهم بدون أن يكونوا في أرض المسيحيين، أو يرغمهم أحد على ذلك. كان الواحد رجلا مهما في الدولة يبلغ عمره أكثر من ستين سنة، والآخران غلامين، وكانت هدايتهم على الشكل التالي.

مرض شاب مسلم يبلغ من العمر ستة عشر سنة، وقد سعى أبواه إلى علاجه فنادوا الرهبان لما سمعوه عن معاملتهم الحسنة ومساعدتهم للجميع حتى من غير المسيحيين. ولما عرف الرهبان أن المريض صغير السن ذهبوا بحماس، لأنه في مثل هذه الحالة يسهل عليهم شفاء روحه. فدخل أحدهم المنزل ونظر إليه المريض بعينين آملتين في الشفاء وبدأ يبكي، ولم يسمح له بالانصراف رغم أن الراهب ظن أن لباس الطبيب سيكون غريبا بالنسبة إليه. وقد كرر زيارته لهذا المريض، وعندما كان ينفرد به حذره من الهلاك الأبدي الذي سيناله إذا مات مسلما، ووعده بالتعميد والفوز بمتعة الإله إذا مات مسيحيا. ومن ثم قبل الغلام بعض قطع الخبز ومال إلى الرهبان رغم أنه لا يعرفهم، ثم أجاب أنه يرغب في الموت على الدين المسيحي، وأنه إذا قدرت له الحياة فسيذهب إلى الدير ليتعلم كل شيء عن هذا الدين. وألح المريض على الراهب أن يعمده ماداما على انفراد، إذ قد لا تتهيأ لهما هذه الفرصة لاحقا، لأنه كان متيقنا من سوء حالته. كما أن الراهب عرف بخبرته أن الله أراد هذه الخليقة له، فعمده وسماه فراي بيدرو دي ألكانتارا على اسم الأسقف فراي بيدرو دي ألكانتارا، ثم مات خلال ساعات قليلة بعد مواساة روحية كبيرة من قبل الراهب. وهنا نرى الحكمة الإلهية، حين يلين البعض للاقتناع بسهولة بينما يتصلب آخرون رغم كثير من العظات المقنعة.

مرض مسلم آخر صغير السن من ثمان أو تسع سنوات مرضا شديدا، وكان يعرف المسيحيين لأنه كان يأتي في بعض الأحيان لأخذ الصدقة من الدير. ولذلك طلب من والديه باكيا الإتيان براهب إلى البيت. فذهب راهب عارف باللغة، وداعبه وأعطاه بعض الحلوى، ثم طلب من الأب بعض الماء لكي يبلل فم الطفل، وأن يخرج من الغرفة بعد أن يأتى به. فطلب الطفل من الراهب أن يعمده بذلك الماء قبل أن يأتي أبوه لأنه يريد أن يموت

مسيحيا ويذهب عند الملائكة، فعمده الراهب خفية لكي يلاحظ بلله، وسماه بوين أبنتورا، لأن حظه كان طيبا، ومات خلال نصف ساعة ليتمتع بالجنة التي قدرها له الله.

حققوا في هذا الزمن أيضا هداية إحدى عشر يهودي بسبب معاملة الرهبان الطيبة. حيث سأل هؤلاء اليهود بخفية عن أشياء في الدين المسيحي كانوا يشكون فيها، فأجابهم الرهبان بوضوح وإقناع. ولم يقبل الأسقف أن يستقبلهم في نقابة الكنيسة الكاثوليكية حتى يتأكد من اقتناعهم، وهكذا علموهم أصول الدين المسيحي وكشفوا لهم عن فضائله، وعمدوا باحتفالية ما يقرب من عائلتين، ومن بينهم طفل سموه خوان دي برادو إحياء لذاكرة شهيدنا الذي حزنت عليه السيدة مريم.

ومثل هذه الاهتداءات شجعت المبشرين على المواظبة في عملهم التبشيري. وقد شكا اليهود هذا الحادث إلى الملك، فغضب على اعتبار أن الرهبان الذين استطاعوا أن يحولوا اليهود إلى مسيحيين، بإمكانهم أن يقنعوا المسلمين بالتحول عن دينهم إلى المسيحية. فاستدعاهم ليدافعوا عن الاتهام، وأجابوا بأنهم لم يرغموا أحدا على التحول عن دينه. وقد عمدوا الأطفال بطلب من آبائهم الذين يملكون الحق الطبيعي أن يدين أبناؤهم بالدين الذي يتبعونه، وأن هؤلاء اليهود قاموا بمساعي كثيرة لاعتناق الدين الجديد الذي وجههم إليه أمر الله، وهذا ما لا تنفيه أي ديانة، ولذلك أتم الرهبان التزامهم، وهم جاهزون للموت في سبيل ذلك. وهكذا قررت المحكمة أن تسأل هؤلاء المهتدين إذا كانوا قد اعتنقوا المسيحية برغبتهم الحرة أو بإرغام الرهبان لهم. فأكدوا جميعهم أنهم اهتدوا بإرادتهم، وأنهم عزموا على ذلك منذ مدة طويلة بمشيئة الله الذي هداهم إلى هذا الدين. وبهذه الشهادة الصحيحة، أمروهم أن يخرجوا من حي اليهود للذهاب إلى العيش مع الأسرى المسيحيين. وقد اعتبر العبريون هذا القرار إهانة لهم، وعقدوا عدة اجتماعات سرية للقضاء على الرهبان.

وهكذا عادوا إلى مناشدة العدالة لاتخاذ موقف ضد الرهبان محتجين بأن لا شيء يرغمهم على السكوت عندما يقفون على قيام المسيحيين بالتبشير بدينهم السيئ في مملكة أجنبية، مع أن الملك لم يسمح لهم إلا بإسعاف أسراهم، وأن اليهود هم رعايا هذه المملكة أكثر من المسلمين أنفسهم. وهكذا ألزم هذا الوضع الملك بعقد اجتماع خاص مع علمائه حول هذا الموضوع حضر فيه المفتي و القاضي، وقرروا أن هداية اليهود إلى شريعة المسيحيين لا تخالف القرآن، لأنهم كفار مع كفار. ولهذا أخبروا الرهبان بإمكانية تبشير اليهود بالدين المسيحي، ومن رغب منهم في ذلك. وأنهم سيعاقبون

بصرامة إذا بشروا المسلمين.

دام هذا الإذن بعض السنوات حققوا خلالها هداية بعضهم، إلا أن اليهود لم يتقبلوا هذه الإهانة وسببوا للرهبان كثيرا من العذاب. وهكذا راهنوا على المواجهة، فالتمسوا من الملك عدم السماح ليهودي بالدخول في الشريعة المسيحية، وأن الأجدر إذا أراد أن يترك شريعة اليهود أن يدين بشريعة محمد، إذ تعتبر إهانة ضمنية للملك أن يترك اليهودي دين محمد ويتبع المسيحية في أرض الإسلام، وأنهم سيكونون سعداء إذا أصبح اليهود مسلمين وليس مسيحيين. وبهذا الالتماس وعن طريق إرشاء الملك وقياده، أمر الملك بعد سنوات أنه لا يمكن لأي شخص أن يبشر بالمسيحية، وأنه إذا قرر أحد أن يترك دينه فلن يتبع إلا الإسلام، وأبلغ الرهبان بهذا الأمر. ورغم ذلك فقد عملوا بحذر على تحقيق هداية كثير من الناس.

عندما جاء المهتدون الجدد إلى الساجنة فرح جميع الأسرى لرؤية تحول هؤلاء العبريين إلى مسيحيين. وقد كان من بين هؤلاء المهتدين بعض العذارى الكبيرات في السن، فخافوا عليهن من خطر البغاء أو الارتداد عن الدين، وسعوا إلى تزويجهن من أسرى يتكافأون مع سنهن، وقد كان جميعهم يحضرون في احتفالات كنيستنا لسماع القداس في جميع الأيام، وتناول العشاء، وحضور دروس شرح الشريعة المسيحية باستمرار. وبعد أيام ارتد واحد من الفتيان إلى اليهودية بإلحاح من عمه الذي أتى من إسبانيا هاربا من محكمة التفتيش، ومن ثم اعتبر الرهبان أن بقاءه مع أقرانه المهتدين الجدد مفيدا ليتراجع عن خطأه. ثم قرروا أن يرسلوهم إلى البلاد المسيحية ليعمدوهم بدون مخاوف. وبقي في هذا الأسر أربعة من عائلة واحدة، هم ثلاث بنات وطفل من أم متزوجة من أسير برتغالي، وقد التمس فراي خوليان باستور فك أسرهم وإرسالهم لتفادي الخطر الذي يهدد الأولاد الصغار مع أبويهم.

وكان حاكم مازاكان في هذا الوقت دون أليخاندرو دي سوسافريرا يملك ستين أسيرا مسلما ليقايضهم بأسرى أزمور، ولذلك كتب له الأب فراي خوليان يلتمس منه إخراج هؤلاء الأسرى من هذه الأرض من أجل الحفاظ على وضعهم الروحي الجيد، وحذره من أن يعترض يهود أزمور سبيل الأطفال عند خروجهم من مراكش لأن فيهم أجدادا لهم، ولذلك طلب منه أن يتدخل بسلطته، بحيث لا يسمح القائد المكلف لأي يهودي أن يتكلم معهم ولا المسلمون، حتى يدخلوا إلى مازاكان. فأنجز الفارس الكاثوليكي كل هذا العمل

بدقة و جاء بهم فراي خوليان، وأرسلوهم إلى لشبونة حيث عاشوا مسيحيين سعداء بشهادة الراعي القديس.

حقق الرهبان هداية أربعة عشر مرتدا، هرب ثلاثة عشر منهم إلى الأراضي المسيحية بعد أن برأوهم وتصالحوا معهم، ومات الآخر بعد أن برأ أيضا. لقد مرض هذا المرتد ولم ينذره مرضه الشديد بالتوبة، وأتى إلى الدير لطلب الدواء، وحاول معه الأب بليونة ليميل به إلى التوبة محذرا إياه من الهلاك الأبدي، فرفض التخلي عن شريعة محمد. ولم يضغط عليه الأسقف، بل ودعه بحنو وأعطاه بعض الأدوية، وعهد إلى الله أن يهديه.

وبينما كان المريض نائما في منزله وحيدا رأى دخول رجل أسود من الباب، فظن أنه حلم، إلا أنه تأكد من بعد أنه حقيقة، إذ أتى إليه وخنقه بيديه آمرا إليه بالخضوع لعبوديته وخداعاته، فبدأ يئن ويستغيث بالناس، لكن القوى الإنسانية لا يمكن أن تقاوم مثل هذه الحالات، فحضرت لإسعافه أم الواعظين مريم القديسة، واختفى الوحش الضخم. وفي اليوم الموالي أتى إلى الدير شاحب اللون، باكيا وخائفا، وما يؤكد هذه المعجزة أنه كانت في نحره عشرة جروح غارقة وممزقة، فطلب تبرئة ذنوبه واعترف بكل زلات حياته للأب الحارس فراي بيدرو دي ألكانتارا الذي أمر أن يخصص سرير للمريض في صومعته لكي يعرفه و يبرئه. ونادوا الرهبان وستة أسرى ومرتد، وحكى المريض الحادث في حضور الجميع، وطلب تبرئة كفره، وأعلن نبذه لشريعة محمد، واعترف باكيا بكل أخطائه، وطلب ثوب المذهب الثالث للأب سان فرانسسكو. فبرأه الأسقف، وتقبل القرابين المقدسة دون أن يتوقف عن البكاء، ومات وهو يلبس ثوب المذهب، ودفنه الرهبان بذلك الثوب نفسه.

- **حوادث معجزة وقعت للمبشرين مع موريسكيين :**

لقد كان الرهبان سعداء بما حققوه من نتائج روحية في ديرهم، وقد اكتشفوا في حواراتهم المقدسة أن السيد الإله يمكن أن يسمح بشفقته لأحد منهم أن يموت دفاعا عن الشريعة المقدسة، إلا أنهم أدركوا أن عدم معرفة اللغة العربية يشكل لهم عائقا من أجل تحقيق هذه السعادة، فالترجمان الذي يستعينون به في إنجاز مهامهم قد لا يبلغ ما يقولونه، أو ربما يبلغ أشياء معارضة للحقيقة الكاثوليكية. ورغم أن الله يمكن أن يختص هؤلاء الرهبان بمعجزة الإدراك الواضح لهذه اللغة بدون تعلم، مثل ما خص به الحواريين والقديسين السابقين، إلا أنهم قرروا البحث عن وسائل إنسانية لمواجهة هذا الإشكال.

ولهذا الاعتبار أمر الإقليم رهبانه بالبحث عن معلم يعلمهم اللغة بشكل جيد، وقد كان

في مراكش رجل يسمى إبراهيم تيو يبلغ عمره أكثر من ثمانين سنة، موريسكي طرد من إسبانيا، ولد في أورناتشوس وهو مكان في لاإستريمادورا. لذلك كان مقتدرا في اللغتين، يكتب بهما معا بإتقان جيد، فكان بالنسبة إلى الرهبان معلما جيدا، وبالنسبة إلى المغاربة عالما كبيرا لأنه كان في شبابه يشرح القرآن ويعلم اللاهوت العربي في المسجد. وعندما طلب منه الأسقف تعليمهم اللغة العربية قبل ذلك لأنه كان عادة يأتي إلى الدير، ويملك إحساسا طيبا تجاه الرهبان لأنهم إسبان، وهو يملك حنينا كبيرا إلى بلد إسبانيا الذي نشأ فيه، رغم أنه كان سيكون أكثر سعادة لو كان مسيحيا. وهكذا مضى في تعليم المبشرين اللغة العربية، وكان فراي بيدرو دي ألكانتارا أكثر ذكاءا فتقدم كثيرا في تعليمه، ومال إليه هذا الموريسكي بعطف خاص، وتأسف أن لا يكون مسلما بهذا التواضع والخصال الجيدة.

فكر في هذا الافتراض العجيب والطريقة التي يمكن أن يستميله بها إلى الإسلام، لكنه لم يتجرأ على النزاع العلني خوفا من أن يهينه بالإجابات التي يرد بها عليه، أو أن يجرحه بعدم وجود الحجج التي يدافع بها عن الإسلام. وهكذا قرر الموريسكي أن يكتب كراسا يسب فيه ويدنس ألوهية الإله قائلا أن المسيح كان فقط إنسانا خالصا رغم أنه قديس ورسول كبير ومرسل من عند الله، وأنه لا يملك من الألوهية أي شيء، وما يدل على ذلك أن الله يعلم كل شيء، بينما يجهل المسيح كل شيء، ويدل على ذلك أنه عندما سأله تلاميذه عن موعد يوم المحاكمة، أجابهم أنه ابن للإنسان ولا يمكنه أن يعرف موعد ذلك اليوم، ولا الملائكة أيضا. وأن الجميع يعرف عدم قدرته عندما طلبوا منه الإتيان بفاكهة التين خارج موسمها، وفيما يخص سؤالهم له عن بعث الأعمى. وهكذا مضى الموريسكي في معارضة المذهب الكاثوليكي بأدلة سيئة من القرآن، قائلا إن الإسلام هو الدين الأكثر ملاءمة للطبيعة الإنسانية والذي يخول للإنسان في هذه الحياة، والحياة الأخرى كثيرا من الملذات، مؤكدا هذه الأخطاء بكثير من المعجزات المفترضة التي تنسب إلى محمد.

ولعلي أفترض هنا أن الذي منح هؤلاء مثل هذه الأخبار الكثيرة عن شريعتنا الحقيقية هم المرتدون، الذين استغلوا القدرات الفلسفية التي تعلموها عندما كانوا مسيحيين ليتخذوا موقفا معارضا من المقدسات الإنجيلية. وبهذا ظن هذا الموريسكي أنه سيحقق تأثيرا ما من أجل تصديق هذه السفسطات التي يروجها المتصوفة والعلماء بين المسلمين. ولعل هؤلاء المرتدين يسبون المعجزات التي قام بها المسيح عندما عاش في هذا العالم من أجل مصالحة محمد، مؤكدين أن هذه الأخبار والمعجزات توجد في كثير من الكتب العربية لكتاب قدماء في الاسكوريال وأنحاء أخرى من إسبانيا. وقد التمسوا رؤية بعض

هذه الكتب عن طريق مترجمين لكي تسعفهم في إدراك مضامين القرآن، ولذلك رفض المسيحيون أن يسلموها للمسلمين لأنها تتضمن أخبارا مهمة. وقد وقفت على كتاب ألفه مرتد منذ عدة سنوات مازال حيا، وهو الوالي الأول في هذه المملكة، حيث ضمنه كثيرا من السب والسفاهات المماثلة.

كتب المسلم كراسته وأتى بها إلى ديرنا، و بعد إلقاء درسه التعليمي أعطاها إلى فراي بيدرو دي ألكانتارا مغلقة، والتمس منه بكثير من الليونة أن يقرأها بتفكير، وبين له أنه سيشكره بكل تأكيد بعد قراءته. وبعد ذهاب الموريسكي فتح الراهب الكراس، ولم يكن يتوقع وجود هذه المدنسات التي يتضمنها. وعندما قرأه استشاط غضبا، وأراد أن يذهب إليه وينتقم منه. لكن الحارس فراي خوليان باستور لم يسمح له بذلك وفضل معالجة المسألة بشيء من الحكمة، إذ لم يكن مسموحا للمبشرين أن يصغوا إلى كل هذيان يتكلم به هؤلاء الكفار، لأن التزامهم الأساس هو المحافظة على الوضع الروحي الجيد للأسرى. لكنه في الوقت نفسه سمح له أن يجيب بتواضع على كل الموضوعات التي طرحها البربري، الذي لم يتصور أنه بتلك البراهين الأربعة الجاهلة أثبت صدق الشريعة المسيحية، ودحض بشدة أخطاء محمد.

وهكذا مضى الراهب في إثبات قداسة الشريعة المسيحية وصحتها ومطابقتها للعقل الطبيعي، منتهيا إلى دحض أخطاء دين الإسلام وعميه وخداعه، شارحا له النصوص الإنجيلية التي تبرهن على أصالة الدين المسيحي، وعلى أن يسوع المسيح هو الإله الحقيقي والرجل الحقيقي المنقذ لجميع العالم، ثم وقع باسمه في نهاية الكراس لكي يثبت في أي محاكمة. وعندما أتى الموريسكي في يوم آخر سلم له الكراسين معا، ثم أفصح له عن تقديره لكراسته، وأنه قرأها بتفكير، ولذلك فهو يلتمس منه أن يتفحص ما يعطيه لأنه سيجد فيه إضاءات كافية لأشياء جد مهمة.

ذهب المتصوف إلى بيته مغترا بنفسه، وعندما اطلع على الإجابة المسيحية لم يرجع إلى الدير مثلما توقع الرهبان، ومرت عدة أيام فظنوا أنه مات ولم يعلموا أنه ذهب إلى حضور ولاة المسلمين، وترجم لهم كراسة الراهب وقرأها بصوت مستفز للانتقام. فحضر القاضي والمفتي لينظرا في المسألة على ضوء القرآن. وكان من المؤكد أن يخبرا الملك ليتدخل بسلطته، وينفذ العقاب الذي يفترض أن يحكم به، إلا أنهما لم يفعلا ذلك بسبب ميل الملك إلى الرهبان وعدم تحمسه للقرآن، فقرروا أن يخفوا الأمر حتى يجدوا الفرصة

المناسبة لكي يفجروا هذا اللغم.

جاء رمضان الذي هو صومهم الكبير، وبما أنهم لا يأكلون طوال النهار، فإنهم يتلهون في هذا التعذيب بالقراءة، وشرح أصول دينهم بحماس وورع متكلف. وفي يوم الجمعة الذي هو يوم عيدهم، حضر كالعادة القاضي إلى جانب الملك لإقامة الصلاة، وبعد أن ألقى الخطبة وشرح القرآن مذكرا إياهم بالالتزام الذي يملكه الجميع وبصفة خاصة السلاطين للدفاع عن القرآن بالدم والنار، أخرج الكراس عندما أحس بتحمس الملك وباقي الحاضرين مبينا وقاحة القسيس الذي وضع فيها اسمه، وسب القرآن الكريم، وتجرأ بإعطائها إلى مسلم عالم، فكان فعله هذا مثل الوعظ العلني لأنه كان يعلم أن هذا المسلم سيعطي الكراس إلى علمائه وقضاته. وكان على الملك أن ينتقم لحماية انتمائه، لأن ترك الأمر بدون تأديب سيدفع محمدا إلى عقاب جميع المملكة لسماحهم بصدور هذه الإهانة عن أناس ملعونين في أرضهم، إذ بهذه الحجة أغضبوا هؤلاء البربر ضدنا. وهكذا أخذ الملك الكراس وأعطاه لمرتد فرنسي من بطانته، لكي يترجمه إلى العربية حرفيا، ويتبين جميع مضمونه.

عرف الملك من نهاية الكراس أنها إجابات على أسئلة، بالإضافة إلى أنه بدأ كل فقرة بقوله "فيما يتعلق بما قلت وسألت". ورغم ذلك أرسل رسالة إلى الرهبان الذين لم يعلموا بالحادث، فسألهم عن الهدف الذي أتى بهم إلى أرضه، فيما إذا كان معالجة الأسرى أو التبشير، أو النزاع مع المسلمين حول الأديان ؟. فأدرك الأب الحارس مغزى السؤال، وأجاب بتواضع وجرأة أن الرهبان لم يخادعوه عندما دخلوا إلى مملكته من أجل إسعاف الأسرى، وأنهم لا يسعون إلى التخاصم في الشرائع إلا إذا استفزهم المسلمون، ومن واجبهم الدفاع عن شريعتهم والموت من أجلها إذا اقتضى الأمر ذلك، وأنهم لا يخرجون من ديرهم ولا يبحثون عن نزاعات.

وهكذا تأكد الملك من خلال هذه الإجابة صحة ما استخلصه من الكراس، ونادى القاضي في حضور القياد، وأخبرهم بأن المسلمين هم الذين استفزوا المسيحيين الذين اضطروا إلى الإجابة بهذه الهراءات، فالمسلم هو الذي يستحق العقاب على استفزازه. واطلع القاضي على ترجمة الكراس وعرف أنها كانت إجابات، لأن الموريسكي لم يخبرهم بالحقيقة، وأعفى الرهبان من العقاب، وأمر المسلمين أن لا يتدخلوا معهم في نزاع، وإذا قبل الرهبان الدخول معهم فسيطردون.

وبعد هذا الحادث بقليل من الزمن جاء إلى الدير رجل موريسكي أيضا يسمى محمد غرناطة، وكان متعودا على المجيء في كثير من الأحيان، وتصادف أن جاء في يوم الأربعاء المقدس، حيث كان الرهبان يهيئون التمثال المسكين لاستيداعه أربعة وعشرين ساعة. فعرف الموريسكي على اعتبار أنه نشأ في البلاد المسيحية أن الرهبان مشغولون في وضع التمثال، وسأل الراهب البواب عن باقي الرهبان، فمنعه من الدخول لأنهم كانوا منشغلين. ثم سأل عن موعد إخراج التمثال الذي كان يوم الجمعة، وبدأ يسب السيدة مريم، ونعتها بالسيئة والعاهرة، فرد عليه فراي فرانسسكو دي لاس ياكاس مدافعا بحماس عن ملكة التائبين، وتوعده بنيل الهلاك الأبدي في جهنم، ثم قفل الباب.

ذهب الموريسكي مغتاظا إلى بيته، وفي صباح يوم الجمعة المقدس توفي فجأة ودفنوه في الميدان في قبر يملك قبوا على شكل مصلى. وفي اليوم الثالث ذهب إلى القبر ابنه مع أقارب آخرين له، لأنهم يقولون أنه خلال هذه الأيام الثلاثة تحكي الروح للإله أعمالها في القبر نفسه، ويتكلف بذلك ملكان، واحد حسن يسمى عربيش والآخر قبيح يسمى ماروت. وتقول الحكاية أنهم أجلسوه على عقبيه، وذلك بالشكل الذي يجلسون به هم طوال حياتهم، لكي لا يتعب من الحكي، وإذا كانت حصيلة أعماله جيدة فإن الملك الحسن يمدده في القبر مثلما وضعوه، وإذا كان سيئا يبقى جالسا على عقبيه. وبما أنهم لم يجدوا أحدا في هذا الوضع الأخير فإنه لم يذهب أحد منهم إلى جهنم، لأنهم جميعهم أعمالهم حسنة.

ذهب في ذلك اليوم أبوا الموريسكي الميت ووجدا القبر مفتوحا، ولا يوجد فيه الجسد، ولا يوجد أي دليل لأكله من قبل الحيوانات المتوحشة أو سرقته. وبسبب غرابة الحادث حكم المسلمون أنفسهم أن الشياطين فتحوا القبر وأخرجوا الجسد، وانتشر هذا الخبر فمات ابنه من الحزن بعد يومين. وبهذه المعجزة عاقب الله هذا الشقي، فهو رغم كفره إلا أنه عاش في الأراضي المسيحية، ويعرف قداسة التائبة مريم.

- **إرسال الملك لراهبين إلى إسبانيا، ووقوع حادث مع يهودي وعقاب الله له :**

لعل الإرادة الإنسانية هي أشبه بالزجاج السريع الانكسار، على اعتبار أن ما يوجه سياسة تعاملها هو المصالح والاحتياجات. وبهذا يمكن أن نصف سياسة الملك محمد الشيخ تجاه إسبانيا، إذ آلت علاقاته الطيبة مع إسبانيا إلى الفتور عندما لم يحقق له الملك الكاثوليكي رغبته في استرداد كتب أبيه الموجودة في الاسكوريال. وقد ألح على هذا الطلب عندما أتى إلى السفارة فراي فرانسسكو دي لاكونسبسيون، ومرت سنوات ولم يجبه الملك

الإسباني على طلبه، فاستاء كثيرا. ونادى الرهبان ليرسل منهم راهبا برسالته الجديدة المكتوبة من قبل الباشا الكبير إلى الأب فراي فرانسسكو، بحيث وبخه فيها على المنن الممنوحة من قبل الملك إليه وإلى رهبان آخرين، وذكر له المطالب الكبرى الكفيلة باستمرار العلاقات الحضارية مع التاج الإسباني. وأنه في حالة الرفض فإنه يتوعد بالانتقام، وسيقوم بإلغاء الاتفاق الذي يسمح بإقامة الرهبان في هذه المملكة.

تسلم هذه الرسائل فراي بيدرو دي ألكانتارا وفراي مارتين دي لونا، وأبحرا من آسفي إلى إسبانيا وسلماها مع بيانات أخرى إلى النائب الحواري فراي فرانسسكو ليقدمها للمجلس الاستشاري الملكي الذي نظر إلى الموضوع برصانة، وقرر عدم الاستجابة إلى طلب الملك، والاكتفاء بأن يرسل له الملك الإسباني رسالة سياسية يوصيه فيها بالرهبان دون التعبير عن الخوف من التهديد والمضايقة. لأن ذلك الدير كان في الحماية الخاصة للجلالة الكاثوليكية، وكان يدعمه بنفقاته من أجل الحفاظ على الوضع الروحي الجيد لرعاياه. وقد وردت هذه الرسالة في باب تأسيس الدير.

وبما أن إسبانيا كانت منشغلة بالحروب مع البرتغال، فقد تأخر النظر في هذا الموضوع. ومرت سنتان وعقد الإقليم اجتماعا عين فيه فراي فرانسسكو أبا إقليميا للمرة الثانية، وعين فراي خوليان باستور أسقفا، وعين فراي بيدرو دي ألكانتارا حارسا، وتسلم هذا الأخير رخصته والرسالة الملكية ثم أبحر. وقد ذهب مجددا إلى هذه البعثة فراي خوان دي سان دييكو، والأخ ألونسو، ودونادو للمساعدة. ووصلوا جميعا إلى أزمور في شهر يناير سنة 1652، حيث كان الملك في هذا الوقت خارج العاصمة لمواجهة بعض الثوار. ونتيجة لذلك كانت الطرق مليئة باللصوص، فرافقوا قافلة مسلحة بالبنادق، ومع ذلك ساروا عبر الجبال المليئة بالأسود، وسقطت في بعض الأحيان أمطار غزيرة، حيث دام هذا السفر العسير ثمانية أيام. وعندما وصلوا إلى مراكش أرسل الأب الحارس رغم مرضه بريدا إلى الملك يطلب رؤيته لكي يسلمه رسالة الملك الإسباني. فتخلص الملك من جميع انشغالاته العسكرية ورجع إلى العاصمة. وذهب الحارس إلى رؤيته، فحمل معه بعض الصناديق التي تحتوي على بعض الأشياء النادرة التي جمعها من بعض المؤمنين في إسبانيا، بالإضافة إلى بعض منتوجات الأرض. فاستقبله بامتنان لكن بأريحية أقل، إذ تغيرت معاملته النبيلة بسبب عدم استجابة إسبانيا إلى طلب استرجاع الكتب. وعلى هذا عانى الرهبان كثيرا من التعذيب وصبروا على ذلك. وقد تجسد موقفه في اليوم الموالي،

حيث أرسل إلى الحارس يطلب منه ثلاثة براميل من الخمر أتى بها الرهبان من إسبانيا للاستعانة بها في القداسات، وهددهم بأن ينزع منهم في حالة رفضهم كل الخدمات الدينية، وقد استجاب الحارس لطلبه.

بالإضافة إلى ذلك قام رجال الملك بإدخال امرأة مسيحية أسيرة شابة تسمى لاكاماتشا إلى القصبة، وحاولوا ردها عن دينها لكي يتزوج بها الملك، فقاومت متشبثة بإيمانها الكاثوليكي. لكنهم لم يتوقفوا عن مضايقتها، فأخذت في أحد الأيام قدرا من الماء المغلى وسكبته كله على صدرها، فسبب لها الاحتراق قرحة عانت منها عدة أيام. وخاف الملك من عزيمتها وإيمانها المسيحي، فطردها وعالجها الرهبان بالدواء وزوجوها بمسيحي، وبقيت في الأسر أكثر من أربعين سنة.

وكان لهذه الأسيرة حفيد يسمى فرانسسكو أتى به الرهبان إلى الدير بعدما ارتد أبوه إلى اليهودية في ليورنة و ارتدت أمه في مراكش. فعلموه القراءة والكتابة ومبادئ الشريعة وغناء القداسات، واشتغل مغنيا في الدير، ولما أمر الملك أن يأتوا به ويردوه عن دينه إلى الإسلام أخذوه إلى بلاد أخرى خارج مراكش لكي يبتعد عن الرهبان وعن خطر الرجوع إلى الدين المسيحي. ولقد بكى المبشرون بسبب هذا الحادث المحزن، وسعوا إلى تقديم شكوى إلى الملك عندما علموا من أخبار شائعة أن الحادث وقع بدون أمره. إلا أنهم تبينوا بعد أن شكوه أن ذلك تم بأمره ونفذ ذلك قائد المرتدين. ولعل هذا مظهر آخر من مظاهر الثأر للكتب غير المستردة.

عندما ذهب فراي بيدرو دي ألكانتارا إلى إسبانيا التقى في آسفي بيعقوب أراري، وهو يهودي ارتد عن المسيحية التي نشأ عليها في مدريد، ولم يمنحه أبواه النسب لسبب ما، ففضل أن يعيش في المغرب حرا ولا يعيش في إسبانيا عبدا. وقد درس هذا اليهودي شيئا من العلوم الدينية المسيحية، وخلال هذا اللقاء تناقش مع فراي بيدرو حول بعض المواضيع في الشريعتين، وانتهوا إلى الحب الذي يكنه المسيحيون للصليب المقدس، فوصف اليهودي المسيحيين بالوثنيين لأنهم يعبدون العصا، و أن جميع الأمم غير المسيحية تراه مجرد عبادة شنيعة للعصا. فأجابه المبشر برصانة وتواضع، وعلل هذه العبادة بحجج فاعلة من الكتب المقدسة. وحار المرتد ولم يجد ما يرد به، بل أطلق لسانه بالسب ضد الرهبان ووصفهم بأنهم المخادعون من بين المسيحيين، وأنهم يعملون ضد الشجرة الإلهية المقدسة. فتقبل الراهب الشتائم بصبر، وطلب من الله ردع لسانه المدنس.

وبعد أن رجع الراهب من إسبانيا، تقابل مع اليهودي في مراكش، وبدون أن يتكلم معه توعده اليهودي بأنه سيحكي شركه إلى الله في المحكمة الإلهية، وأن الحجج التي استشهد بها من الكتب المقدسة خاطئة، وأن الأكثر خطأ هو عبادة هراوة يابسة تصلح فقط لعقاب اللصوص أو حرقها في النار. وقبل الراهب استدعاءه للمثول أمام المحكمة الإلهية. وبعد وقت قصير مرض اليهودي عندما كان الحارس يهيئ للاحتفال الأكبر بعيد اختلاق الصليب، حيث وعظ الأب فراي خوان دي سان دييكو عظائم الصليب المقدس، والعبادة العميقة التي يجب أن تؤدى له، وغنى الرهبان صلاة الليل "البدايات" وأنتيفونة المسيح المخلص. أما اليهودي فقد سقط لسانه وغدا أهزل من العصا، فكانوا يوخزونه بالمفصد فلا تخرج منه قطرة دم.

استمرت معاناة اليهودي لآلام شديدة مثل شدة الاستهانة بالصليب المقدس، ولم ينفع معه الدواء، حيث أضحى لسانه مثل عصا محروقة، وكان يحس بحرارة شديدة. وفي يوم عيد الصليب المقدس عندما كان الرهبان يغنون القداس، مات وذهبت روحه الملعونة إلى الشياطين. وبما أنه حدد موعدا مع الراهب في المحكمة الإلهية، وعلى حد قول سان بابلو، فإن المسيح الذي يوجد على يمين أبيه باعتباره قاضيا عالميا سينادي الروح الشقية لهذا اليهودي ليحكم عليها بالعقاب الأبدي الذي يستحقه لسانه المدنس.

- **هداية الأب فراي بيدرو دي ألكانتارا لمستشار في البحرية في آسفي في حادث عجيب:**

تسلم الأب فراي بيدرو دي ألكانتارا الرسائل من الملك المغربي ليذهب بها إلى إسبانيا، وكان من الضروري أن يبحر من ميناء آسفي الذي جاء إليه في ذلك اليوم قنصل فرنسا، وهو رجل كاثوليكي ومؤمن بمذهبنا يسمى بارتولومي سيبولنخ، وكان قد استقبل الرهبان عندما عبروا هذا الميناء وآواهم في منزله ومنح لهم بعض الهبات.

أتى القنصل إلى الميناء بكل متاعه وخدمه ليذهب إلى مارسيليا بسبب انتهاء عمله في مراكش، وفي هذه المناسبة التقى القنصل بالراهب، واتفقا أن يبحرا معا، على أن تتوقف السفينة في قادس لنزول الرهبان ثم تتابع إبحارها إلى مارسيليا. وفي الوقت الذي عزموا فيه على الإبحار مرض القنصل وأصيب بحمى شديدة أنهكت قواه، فالتمس من قائد السفينة تأجيل السفر إلى يوم آخر، لكن هذا الأخير رفض ذلك، على اعتبار أنه رتب سفره ويريد أن يستغل صفاء الجو. وعندما رأى القنصل تصلب القائد قرر أن يبقى في آسفي حتى يشفى، وأن يرسل متاعه وخدمه في السفينة.

أما الأب فراي بيدرو فقد بقي حائرا بين اغتنام الفرصة المواتية للإبحار، وبين ترك الرجل الطيب وحده يعاني الخطر في أرض لا يوجد فيها أسقف. وهكذا قرر أن يبحر مرافقه فراي مارتين دي لونا بالرسائل، ووصى قائد السفينة أن يتوقف به في قادس. فرفعوا الشراع في المساء نفسه، وانسحبت السفينة من الميناء لكنها لم تقو على التقدم رغم أن الرياح كانت مواتية.

تفاقم مرض القنصل وظل إلى جانبه الأب فراي بيدرو وحده يسعفه روحيا وجسديا، فاعترف له القنصل بوجه عام بكل حياته، وخلال أربعة أيام تصالح معه مرات كثيرة، ومات مسيحيا كاثوليكيا. فخلع الأب حلته وكفن بها القنصل الميت ودفنه في بيته، ثم ذهب إلى الميناء وطلب من القائد المسلم أن يجهز له زورقا ليلحق بالسفينة التي كانت مازالت قريبة. وما أن ركب الأب فيها حتى هبت ريح ملائمة، بحيث وصلوا بسرعة إلى قادس، وعندما نزلوا إلى اليابسة أدوا الشكر لله على ما يتكرم به على مساكينه المسيحيين، إذ لو تأخر الرهبان عن المجيء إلى آسفي نصف يوم، كان القنصل سيبحر ويموت في البحر بدون اعتراف. كما أن الله كافأ إسعاف الأسقف، حيث هدأت الريح لكي لا تتقدم السفينة طوال مدة إسعافه، وأتم السفر بسرعة بعد إنهاء مهمته.

وفي السفر الثاني الذي قام به فراي بيدرو إلى إسبانيا، كان من الضروري أن يعبر من حصن مازاكان البرتغالي بسبب وجود الحرب في قشتالة، وهناك التقى بمستشار برتغالي للبحرية كانت له تبعيات في هذا الحصن مرض مرضا خطيرا، وقال الأطباء عنه إنه مميت، فنصحوه بالاعتراف وتهيئ أموره الروحية، لكنه رفض الإنصات. وقد سبب مرضه حزنا للجميع، وخاصة لحاكم الحصن الذي خاف أن لا يكشف له المريض عن حالة مسؤولياته المهمة التي يتكلف بها.

عذب الشيطان المريض وأوهمه بأن إكليروس هذه الساحة جهلاء، ولا يعرفون كيفية التخفيف من عذابه، وأنه بالنظر إلى تبعياته وممارساته سيحتاج إلى أسقف محنك قادر على تغيير حاله وتعريفه بأخطائه. كما أوهمه الشيطان بأن القساوسة أعداؤه ولا يمكن أن يجد لديهم المواساة، فبدأ عقله يهذي رغم أنه يعرف أن خليفة الإله لا يمكن أن يكون عدوا، وأنه لا يمكن أن يفقد التوبة، إذ عندما كانوا يعاتبونه للاعتراف بأخطائه، كان يقول أن الأب سان فرانسسكو سيأتي له بمعرف، ولذلك أشفق الله عليه وتغاضى عن جسارته.

هذه هي الحالة التي وجد فيها فراي بيدرو المريض، وعندما اطلع الحاكم على حالته الخطيرة أمر الأسقف أن يذهب إليه لأنه كان يحتضر. وهكذا اتجه بسرعة إلى منزله دون

أن يستريح، إذ كان المريض قد وصل إلى مرحلة حرجة، وتكلم معه الأب ببعض الكلمات أحيت روحه وبدأ يبكي بشدة، فاعترف وطلب العفو عن أخطائه، وتقبل كل المقدسات، ثم لفظ أنفاسه. ولم يسترح المعرف ولم يأكل طوال إسعافه للمريض، لأنه رأى نفسه مسؤولا على إصلاح هذه الروح التي أتلفها الشيطان. فقد كشف الأطباء أنه عاش بمعجزة يومين إضافيين، ولكن الله أمد له الحياة بشفقته حتى يأتي المعرف الذي يعرفه بأخطائه.

- **هداية المسيح والسيدة مريم لمسلم إلى المسيحية :**

يقول سان باولو إن الله هو الذي يختار أحباءه، لكي يبحث الإنسان العالم دائما عن الأسرار الإلهية اللامفهومة. لقد وجد الحواري عندما كان ساولو تائها في ظلام الأخطاء، وكان باولو في هوة السر الإلهي. إذ لا يمكن للإنسان أن يدرك وحده أسرار الفضل الإلهي. هذا الفضل هو الذي شمل به الإله مسلما يبلغ من العمر ستين سنة، يسمى المنصور الشيخ. عاش في ظلام دين محمد مثل آبائه وأجداده وكل البربر التعساء في هذه المملكة.

في أوائل يونيو سنة 1652 أتى إلى الدير هذا المسلم السعيد، وقال لفراي فرانسسكو إنه يريد أن يذهب إلى البلاد المسيحية ليعمد هناك، حيث كان الرهبان يمنحون بطاقات تسهل قضاء مطالب المتوجهين إلى هناك. فأتى به البواب إلى الأب الحارس فراي بيدرو، حيث سأله بحذر عن الأسباب التي دفعته إلى ترك الدين الذي نشأ وعاش عليه مع آبائه، فأجاب بأنه مال إلى الدين المسيحي لما لاحظه من معاملة طيبة يعامل بها الرهبان جميع الناس، بما فيهم أكبر أعدائهم الذين يسيئون إليهم. ذلك أنه في سنوات المجاعة كان الرهبان يقدمون الصدقات للفقراء والأيتام الذين يأتون إلى باب الملجأ ويؤوونهم، ويهيئون لهم أكلا خاصا بهم ويرقعون أثوابهم بقطع من تنوراتهم. وكان الشيخ ذا مكانة مهمة يأتي أحيانا إلى الدير ويلاحظ هذه الأعمال التي يقوم بها الرهبان، ولا يقوم بها المسلمون الذين يتسمون بالتعاسة والسرقة والاستبداد، وأكد هذا الشيخ أنه نفسه لا يستطيع أن يعطي قطعة خبز لفقير، والسبب في ذلك أنه مسلم، ولذلك مال إلى المسيحية وأراد أن يصبح مسيحيا. وبما أن الرهبان جربوا خبث المسلمين، فإنهم شكوا في مسعى هذا الشيخ وظنوا أنه يدعي ذلك بإيعاز من الملك أو القاضي ليجدا سببا للثأر من الرهبان على رفض إرجاع الكتب. ولذلك فرغم أن شهادة هذا الشيخ دلت على أفضلية الشريعة المسيحية، إلا أنهم رفضوا تعميده على اعتبار أن تغيير دين بآخر ليس أمرا سهلا.

ذهب المسلم حزينا ورجع في يوم آخر مسرورا، والتمس من الأب تعميده، لأن مريم القديسة أمرته بذلك. وقد حاول الأب أن يتأكد من صدقه من خلال تفحص كلامه،

خاصة وأن المسلم كان يخلط في حديثه بين اللغة الإسبانية أو القشتالية الخشنة والعربية. وقد احتفظ بكلامه كما رواه شفويا في أرشيف الإقليم، ولذلك سأروي مضمونه بلغة أقل خشونة.

كنت نائما في سريري ليلا، فرأيت سلطانة جميلة تنبثق من شعرها أشعة الشمس الذهبية، ومن عينيها أضواء إلهية، أما لباسها فلم أتمكن من تمييزه لأنه كان مطرزا بالأضواء، ونظرت إليها بدهشة وإعجاب، وبدا لي أنه ليس هناك جمال مشابه له في العالم. وأتى معها شاب يقبض في يدها رائع الجمال وجليل يدعو بحنان، وكان لباسه من قرمز رقيق ومخضب بالدم، وواسعا ينحدر من عنقه حتى رجله، ولا يحمل في رأسه قبعة أو عمامة. وجاءت السيدة وأعطتني ضربة إلى قلبي، فأحسست برهبة وحلاوة ولم أعرف لا الحياة ولا الموت، وقالت لي انهض يا رجل واتبع الاثنين. ثم بعد ذلك وجدت نفسي في حديقة بهيجة ومعطرة انطبعت في ذاكرتي، لكني لا أستطيع أن أصفها كما رأيتها. وكان هناك كثير من الأشجار المورقة المسقية بسواقي بلورية، ويغني فيها كثير من الطيور المختلفة. وتبعت السيد والسيدة حتى وصلنا إلى شجرة مثمرة وكنت خلفهما، فقطفت ثمرة وأخفيتها، إذ حسبت أنه لم يحس بي أحد، فقالت لي السيدة: تقول شريعة المسيحيين لا تسرق، فخجلت وتركت الفاكهة في شجرتها. وأخيرا يمكن القول بأن هذا المكان فردوس، حيث كانت القصبة من الذهب الرقيق، وللوصول إلى أبوابها كانت هناك مرفأة من فضة أردت الدخول منها مع السيدة والشاب الجميل، لكن السيدة قالت لي، على الرغم من أنه لا يمكنك الوصول إلى هذه الدرجة الأولى، إلا أنه بإمكانك الدخول إلى قصر الذهب إذا صرت مسيحيا، واعلم أنني مريم أم المنقذ الحقيقي للعالم، ولا تخف، فأنا سأساعدك في كل شيء. وعند هذه الكلمات أعطتني ثلاث ضربات قوية ولطيفة لا أستطيع أن أعبر عن حلاوتها. ونظرت إلى وجه الشاب الجميل الذي لم يتكلم معي، ثم دخل الاثنان. وعندما استيقظت وجدت نفسي في سريري كما نمت، والآن أريد أن أصير في الحال مسيحيا لأن الشاب الجميل كان غاضبا مني، وأنا لا أريد أن أراه مرة أخرى على هذا النحو، وأنا مازلت مسلما. وبالإضافة إلى ذلك إذا أتيحت لي هذه الزيارة السامية ثانية، فإني أريد أن أدخل إلى قصبة الذهب، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بأن أكون مسيحيا.

وهكذا عملت السيدة الإلهية والوجيه الإلهي على إحياء الأمل في نفس المسلم السعيد بهذا الإلهام الذي أكد له أنه كان يعيش في اعتقاد قذر. لكن الأسقف اشترط تعميده إلا

بعد أن يتعلم أصول ووصايا الدين المسيحي.

ومن أجل هذا الغرض عين فراي أنطونيو دي لاكروس ليعلم الشيخ بالعربية ما لا يستطيع إدراكه بالقشتالية. وكان الأسقف يحضر بنفسه في أحيان كثيرة لأنه يعرف العربية أكثر من الجميع. ورفض الحارس أن يمنحه الإذن التام للدخول في المسيحية على اعتبار أن ما رآه مجرد حلم، فأصر الشيخ على حقيقة ما رآه، وأن السيدة هي أم الإله. وهكذا مضى في تعلمه مواظبا، ومدد الرهبان موعد تعميده حتى يتأكدوا من حقيقة رؤيته المتخيلة.

وفي اليوم الخامس من يونيو جاء إلى الدير باكرا، وتوجه إلى الحارس ملتمسا منه أنه لن يغادر الدير إلا إذا صار مسيحيا لأنه يخاف من إبليس، فسأله عن السبب، وحكى له أنه رأى في الليلة الفارطة في غرفته السيدة مريم والوجيه الذي كان بلحية غير كثيفة وفي الثلاثين من عمره، وكان لباسه مثل المرة السابقة ولكنه ملطخ أكثر بالدم، ويحمل في رأسه شيئا موسوما بالدم ليس قبعة ولا قلنسوة، ويحمل في يديه خشبا ثقيلا وكبيرا ضربه به في قلبه، وقال له غاضبا بأنه جاحد وليس مسيحيا من كنيسته، وأجاب الشيخ : بأنه مسيحي لأنه يعرف الأب ومريم. ثم أمره الوجيه أن ينهض ويأتي معه.

فتبعه قلبه حتى وصلوا إلى واد حزين ومجدب، حيث كان هناك منزل كبير جدا، وفي الوسط كان قدر من الذرة أكبر من مراكش ألف مرة، وفيه مياه سوداء وذات رائحة قبيحة لا تحتمل، تغلي على نار منتنة تقتل بدخانها كل من يقترب منها، ويحيط بها عدة أشخاص بأيدي مربوطة إلى الوراء بالأفاعي. وكان هناك أيضا رجل قبيح وطويل جدا مثل برج الكتبية في مراكش (وهو يشبه البرج الذي يوجد في إشبيلية)، ويحمل في يده ملعقة كبيرة جدا يخرج بها من القدر هذا الزفت المذوب وينثره فوق رؤوس هؤلاء التعساء الذين لا يملكون سلوة إلا التأوهات التي لا عزاء لها. ولما رآه فتح مغارة فمه يهدده ويريد أن يحطمه فيها، وكانت أسنانه تتألف من عشرين ذراعا وتخرج منها نار محرقة. في هذا الوضع المخيف جدا حاول الشيخ الهرب، لكن أخمص قدماه لم تتحرك، ولم تسعفه نفسه الخائفة وخارت قواه، فجاء الشاب الجميل الذي أخذ بيده وطمأنه بحنو، وأمره بأن يأخذ العبرة من هذه الصورة المخيفة، فرد عليه الشيخ بالإيجاب. وهكذا أتى به النور المخضب بالدم إلى قصبة جميلة لا توصف، كانت أبوابها من أحجار مطعمة بنقوش من ذهب، وأمره بأن تفتح ففتحت، ورأى نساء جميلات جدا، يلبسن ثيابا مختلفة ويحمل بعضهن كتبا في أيديهن، وتعزف الأخريات بأدوات الغناء ويغنين عن الإله، فزال خوفه وأراد الدخول ليستمع بتلك الأصوات الحلوة، لكن الشاب أوقفه ومنعه من الدخول لأنه ليس مسيحيا، وبين له أنه أوقفه

على هذا الاختلاف الكبير بين منزل الإله ومنزل إبليس لكي يلح على القسيس بإدخاله في الكنيسة. ولما حاول أن يجيبه وجد نفسه في بيته بدون أن يقدر على إدراك كيفية ما جرى له. وهكذا مضى الشيخ يلح على الأب بيدرو أن يعمده، لأنه يحس في نفسه صراعا بين أناشيد الإله والمناظر المخيفة مثل فم العملاق وملعقته التي يحرق بها الملعونين.

تداول الرهبان فيما بينهم هذه الرؤى، وعلى الرغم من ميلهم إلى تصديقها، فإنهم مددوا موعد التعميد، واشترطوا معرفة الشيخ بكل قواعد الشريعة المسيحية، لأنه كان مازال مبتدئا، ولكنه كان يمكن أن يقبل في نقابة الكنيسة المقدسة حسب حكم الرهبان. وهكذا ظل يلتمس بتواضع إنهاء تعليمه، وقد أعجب الرهبان بظرافة الإسبانية المحرفة التي روى بها رؤيا جهنم، والتي ظلت صورها منطبعة في ذهنه. هذه الصور التي كان الرهبان يخيفونه بها لأنها كانت ترعبه.

في يوم 11 يونيو أتى الشيخ إلى الدير مسرورا، وقال للرهبان أنه قضى ليلة جميلة في الكنيسة مع رهبان أكثر جمالا وبهاء رغم أنهم يلبسون الثياب نفسها. وبأمر الحارس حكى الشيخ ما رآه، وقال إنه عندما كان في سريره يأمل أن يتعلم جيدا الشريعة المسيحية دخل إلى بيته الشاب الجميل بلباسه الملطخ فأفزعه وسأله عن سبب تأخره في اعتناق المسيحية، فأجابه بأن الآباء رفضوا تعميده رغم إخبارهم بأن الشاب هو الذي أمر بذلك. ثم أمر الشاب الشيخ أن يأتي معه، فتبعه حتى وصلا إلى الدير وفتحت أبوابه الثلاثة ودخلا حتى وصلا إلى جانب المذبح وأعطاه صليبا ثقيلا وأمره أن يتفحص وزنه، ثم وضع فوق رأسه ثلاثة أحجار ثمينة بدت له أنها من السبحة. وخلال ذلك أتى خمسة رهبان لم ير مثلهم، يشع من لباسهم النور، ويحملون على رؤوسهم أشياء ثمينة، وفي أيديهم سعاف بيضاء يتأدبون بها مع الفتى الجميل، فشرحوا للشيخ أمورا كثيرة عن الإله مثل الأشياء التي تعلمها، وبعد ذلك قال له الشاب أنه يسوع النصري الذي ضحى من أجله الرجال، وأنه بحث عنه بدون أن يستحق ذلك، وأمره أن يقول للقسيس ما رآه، وأن لا يلتمس منه التحول إلى المسيحية لأنه سيشرح له ما رآه.

دهش الرهبان جميعهم لما تكلفه المسيح للبحث عن هذا الشيخ وسط الكفر. فامتحنوا تعليمه الذي أخذه عن الرهبان الخمسة، وتأكدوا من إتقانه لجميع قواعد الدين المسيحي. وعرفوا أن هؤلاء الرهبان الخمسة كانوا هم الشهداء الخمسة للمذهب الذين أتوا إلى هذه المملكة وقتلوا من أجل الدفاع عن الشريعة، وبلغوا إلى هذا النصر المجيد، حيث كانت هذه السعاف البيضاء رمزا لانتصارهم، أما الأحجار الثلاثة فترمز إلى التثليث

الجميل. وبناء على هذا قرر الرهبان أن لا يأخروا الشفقة الإلهية على هذا الشيخ.

• **منح التعميد للشيخ في ظروف معجزة، وتسميته فرانسسكو دي سانطا ماريا :**

قد يمكن اعتبار هذه الرؤى مجرد إيحاءات وهمية أو خيالات شيطانية، إلا أنها لا يمكن أن تكون كذلك، فالشيطان لا يمكن أن يسمح بهذه النهاية التي يريد أن يصل إليها طالب العماد، لأن مصلحته أن يظل هذا الشيخ على الكفر الفاحش. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الرؤى لم تكن مثل الأحلام التي لا تصدق. ولقد ثبت في الكتب المقدسة عدد لا يحصى من الأحلام التي ظهرت فيها الرعاية الإلهية، بحيث أراد الله أن يبين في الأحلام- على سبيل المثال- قراراته لفرعون ومساعديه في البحر والتماثيل والدقيق.

وأنا لا أزكي رؤى الشيخ لأن ذلك ليس من اختصاصي، ولكن أتركها كما هي قابلة للتصديق بسرعة. فالرهبان بصفتهم عباد الله الصالحين يتصفون بمزايا تخول لهم أن يتخذوا من الرؤى أساسا لإسعاف روح وقبولها في نقابة الكنيسة الأم. وليس مهما أن تتوفر كثير من البراهين، بل يكفي برهان واحد طبيعي ومعرفة عاقلة لهذا الرجل الذي يريد أن يكون مسيحيا، ومع ذلك فقد امتحنوه خوفا من أن يكون كل ذلك مجرد خداع شيطاني، وفحصوا الرؤى، وتبين لهم أنها حقيقية، وقرروا أن يعمدوه استجابة للأمر الإلهي الذي صدر عن إرادته الرحيمة. ومن ثم سأل الرهبان الشيخ عن أعماله الخيرة، فأجاب أنه لم يقم بأية أعمال من هذا القبيل، لأنه بالإضافة إلى إسلامه اشتغل خادما للملوك السابقين واقترف كثيرا من الرذائل.

لكنه اعترف من خلال محاورته أنه أنقذ أسيرا مسيحيا كان قد هرب من السجن ودخل إلى الحقول هاربا وباكيا. ولما سأل الشيخ الأسير عن سبب معاناته، فأجابه أنه قضى سنوات كثيرة في هذا الأسر ومازالت تنتظره أخرى طويلة، وقد ترك زوجته وأطفاله فقراء بدون عائل يعيلهم، وأنه مر زمن طويل لم يكتب إليهم ولم يتوصل برسائلهم، ولا شك أنهم ماتوا من الجوع وأنهم باعوا ملابسهم ليستعينوا بها، وهذا ما يحزنه كثيرا، ولا تقدر العقيدة التي يؤمن بها أن تصلح حاله.

أشفق المسلم كثيرا على تعاسة هذا المسيحي، وعندما تبين له أن يأسه سيؤدي به إلى الارتداد أمره بمواساة نفسه بالآمال المفرحة لكي لا يتخلى عن دينه وينقذه الله من هذه السلاسل. واتفق معه أن يهرب خارج أسوار المدينة، فهيأ له بعض المؤونة اللازمة للطريق وأخذ أسلحته وفرسه بدون أن يكشف وجهته إلى شخص ما، والتقى بالأسير خفية وسار معه عبر الجبال الصعبة لكي لا يكشفا، ووصلا بعد هذه الرحلة المتعبة قرب موكادور

حصن البرتغال، وأشعلوا نارا باسم الصليب المقدس، فخرجت مجموعة من الفرسان من الحصن عندما رأوها، وأقسم المسلم للأسير أنه لم يقم بهذا العمل إلا شفقة عليه لكي لا يرتد عن دينه، وأنه لم يقم بهذا العمل من قبل ولن يقوم به من بعد.

ومن هذا استنبط الرهبان أن السبب الذي أدى بالمسلم إلى التعرض للخطر هو إنقاذ المسيحي من الارتداد عن دينه. فالله بشفقته وعدله أراد أن يمنح الحرية لهذه الروح وهي مؤمنة بالعقيدة الحقيقية. وفي مساء 12 يونيو عيد سان أنطونيو دي بادووا، كلف الأب فراي أنطونيو لكي يهيأ الشيخ للتعميد بالمياه المقدسة. ولكي يسهل عليه الأمر شرح له المبشر باللغة العربية خلق العالم، وسقوط الملائكة السيئين، وعصيان الآباء الأوائل. وبما أن المسيح مات وهو بصدد تأسيس الكنيسة الكاثوليكية، فقد أقيم التعميد المقدس للتخلص من الذنوب الأولى، وقد كرم الله هذا الشيخ، فأخره إلى هذه السن ليمحو أخطاءه التي كانت ستؤدي به إلى الهلاك الأبدي. ثم واصل المبشر شرح حقيقة أصل محمد وإدانته مع أتباعه، وأنه لذلك وجب على الشيخ الارتداد عن هذا الدين الكاذب المستنكر.

وقد قضى المبشر اليوم كله يتلقى هذا التلقين، وخلال ذلك زينت الكنيسة بالستائر والورود وباقات الزهور، وغدت كأنها جنة بهيجة. ووضع حوض العماد في مكانه، كما وضع شمع كثير في المذابح وفي قاعة التراتيل. أما الشيخ فقد غسلوا جسده لكي يكون نظيفا، حيث غسل له المبشر فراي خوان دي سان دييكو رجليه ومسحاهما، وأتى الأسقف لتقبيله، ليأخذ العبرة من هذا التواضع الكبير، فسحب رجليه بخجل قائلا أنه ليس ملكا، بل هو رجل سيئ، ولا يستحق أن يقبله القسيس. وقد كان هذا هو الفعل الأول لمحاورة الشيخ، ففي الوقت الذي يعتقد فيه المسلمون أنه يجب على المسيحيين تقبيل الأرض التي يطأونها، فإن هذا التائب يعترف بأنه جاحد.

نادى الأب أسيرين أمينين أفشى لهما السر، ولبس الأسقف القميص والملحفة وعباءة من حرير أبيض ومطرز بالذهب. ثم وضعوا الشيخ في باب الكنيسة حيث رقوه على غرار طقوس مانويل رومانو، وطلبوا منه الاعتراف بشريعة الكنيسة الرومانية، والتنصل من أخطائه القديمة. وفعل كل ما طلب منه بحماس شديد، حيث غسل كثيرا من القاذورات القديمة بهذه المياه المقدسة، وبعد كل هذه الطقوس سموه بفرانسسكو دي سانطا ماريا. إذ تدل فرانسسكو على الآمال التي كانت تراود هذا الأب لهداية هذه المملكة، وهي الآمال نفسها التي جاءت بهذا التائب إلى هذا الدير. ومريم القديسة هو اسم هذه الكنيسة القديمة التي

استمرت أسيرة بين هؤلاء البربر، كما أن هذه الأم هي التي ظهرت له في الرؤية الأولى في قصر الجنة الجميل، وهي الأولى التي عاتبته لكي يكون مسيحيا، ومن شفاهها الإلهية سمع لأول مرة الشريعة المقدسة عندما قطف الرمانة الجميلة رمز الفعل الخير الذي فعله مع الأسير، ولكي لا يفسد باقي الثمار المسيحية قالت له إن شريعة المسيحيين تقول "لا تسرق".

عندما أعلن القديس شكل القداس وأن التائب أصبح مسيحيا، دخل من نافذة صغيرة في قاعة التراتيل ريح عاصفة أقفلت كل الأبواب، وأطفأت جميع الشموع، ولم يحس أحد بهذا الإعصار لا في المدينة ولا في الدير. ولعله كان إنذارا للمعمد الجديد لكي يكون منضبطا. وما أن نطق باسمي يسوع ومريم حتى هدأت الريح وذعر الجميع، وقال فرانسيسكو مسرورا أن الشيطان قد هرب عندما سمع يسوع ومريم.

عانقه الجميع ووضع له الراهب صليبا بصورة المسيح في عنقه، وبدأ فرانسيسكو يحاور هذا الصليب الذي وصفه بأنه رمز يسوع الذي أدخله بشفقته إلى هذه الكنيسة المقدسة، كما دعا السيدة مريم أن تأتي إليه لأنه استبدل سلسلة الكفر بالحلية الثمينة، وأنه سمر نفسه بثلاثة مسامير صلبة، ولكنها حلوة بالنسبة إليه، لأن إلهه لاقى في قساوتها مرارة كبيرة. وأن الصليب المبارك هو حمايته، لأنه بقي بين أعداء مريم جنديا صغيرا لكنها نصرته.

ولعل هذه العبارات التي لم يدخل عليها تعديل ما هي نابعة من حقيقة إيمانه، ذلك أنه يعرف جيدا جميع أخبار الخلاص. فقد أخذ الشريعة عن الشهداء الخمسة وانتهى بأخذ العماد المقدس. ويتبين أنه ليس صعبا أن يعبر عن ذلك بالعبارات الرائعة رغم ما يتخللها من نقص طبيعي في اللغة، حيث بدا كمبشر أبكى الجميع وحمس الأسيرين. كان فرانسيسكو سكرانا بخمر الحب الإلهي وعظائم الصليب المبارك، وقد أراد أن يخرج بهذا الصليب إلى الشارع ليبشر به، لكن الرهبان منعوه بالنظر إلى السلبيات الناتجة عن ذلك، ولقنوه السلوك الذي يناسب مسؤوليته، بحيث أنهم أرادوا أن يزيلوا له الصليب خوفا من حماس غير مستقيم، وألزموه بطاعة أوامر المعرف. وأكد الشيخ أنه مستعد لمواجهة التعذيب إذا تجرأ أحد من المسلمين على الصليب المبارك.

- **تسلم فرانسيسكو للباس المذهب الثالث، وأعماله الحماسية في حياته حتى موته:**

رغم أن المبشرين ارتابوا في حقيقة رؤى فرانسيسكو إلا أنهم كانوا متأكدين من أفعاله. فهذا الشيخ أصبح ابنا للكنيسة الكاثوليكية التي تمنح له المجد، لذلك وجب عليه

القيام بأعمال زائدة من أجل الحصول على التوبة إلى مذهب الأب سان فرانسيسكو. وقد أعلمه المذهب الثالث أنه من أجل تمام الدين الذي دخله أن يلتحق بالرهبانية، لأنه كان مستعدا لإدراك كل أمور الشريعة.

وهكذا تحمس فرانسيسكو ليمنحه الرهبان ثوب التوبة الرمادي ليستبدل به الثياب الفاخرة. وقد حاول أن يلبس هذا اللباس المسيحي ويخرمه بحبل ويخرج عبر الشوارع ليشهر حياته الجديدة، لكن الرهبان رأوا أن ذلك سيكون سببا في إنهاء البعثات التبشيرية التي أمرهم المجمع المقدس بالمحافظة عليها للحصول على المزيد من النتائج، والمحافظة على العقيدة لدى الأسرى. بحيث سيقول المسلمون بأن الرهبان هم الذين أضلوا الشيخ، وأن مثل هذه الأهداف هي التي أتت بهم إلى هذه الأرض. فرغم حصولهم على الأمان الملكي، إلا أنهم ملزمون بعدم التبشير بالمسيحية للمسلمين. ونتيجة لوقوع أي حادث يمكن أن يقتل جميع المبشرين وتتعرض الكؤوس المقدسة والرفات والكنيسة للتدنيس، وتنتهي البعثات، ويبقى الأسرى بدون دعم روحي، وتحرم الكنيسة من النتائج التي تطمح إليها.

وبناء على مجموع هذه السلبيات، فقد وصوا فرانسيسكو بتكلف المداراة، وإذا اكتشف أمره بحادث ما وسأله القاضي آنذاك يعلن مسيحيته ويدافع عنها حتى الموت. ومن ثم لم يلبس اللباس المسيحي مكشوفا، بل ستره بلباسه الإسلامي القديم. وطلب الشيخ بعد ذلك إشارة الاعتراف لكي لا يتعرض إلى أي خطر، مؤكدا المبادئ التي تعلمها. وكان يتردد باستمرار لأداء المقدسات في نهاية كل أسبوع على الأقل، لأنه أعجب كثيرا بهذه المتعة الروحية، وقد تجهز لتناول العشاء الرباني بتواضع كبير ودموع غزيرة، إذ كان مؤمنا ومطيعا لكل ما يأمر به معرفه، وعاش منضبطا حتى مات، ولم يفقد الفضل الذي تلقاه في التعميد.

كان الصليب مطبوعا في روحه، بحيث كانت الأخبار التي عرفها عن صبره المؤلم تبكيه. فقد خرج في مساء يوم الجمعة من الدير يمشي في الطريق المقدس مع معرفه. وبينما هو يفكر في جحود اليهود بصلب سيده والوحشية التي قتلوه بها، التقى في الشارع العمومي ببعض اليهود، فتحمس لمهاجمتهم والثأر منهم، لأنهم ينتسبون إلى أسلافهم الجاحدين، وقد أراد أن يتراجع عن ذلك استجابة لما وصاه به معرفه بأن لا يهين أحدا لكي لا يشك فيه المسلمون المارون من هناك أو يفضحه اليهود أنفسهم، إلا أنه لم يستطع أن يكبح غضبه، وتوجه إلى هؤلاء وسألهم عن سبب قتلهم لسيده يسوع المسيح ووضعه بدون

شفقة معرى في الصليب، مع أنه كان يسعى إلى تقديم الخير لهم.

خاف اليهود منه ولم يعرفوا حقيقة ديانته، وأجابوه مرتبكين أنهم ليسوا مسؤولين عن هذا الموت الذي حدث منذ عدة سنوات لكي يرثوا هذه النكبة والبؤس الذي يتبعهم. وجاء فرانسسكو في الحال إلى الدير يروي ما حدث، ويسأل ما إذا كان ما قام به فعلا جيدا. لكن المعرف وبخه بشدة لأنه لم تكن هناك حاجة لذلك لكي لا يشك فيه مسلم أو يفضحه اليهود، فأجاب خاضعا للتعنيف أنه متحمس لإقناع المسلمين واليهود بكذبهم وغدرهم، وأنه عندما يسكت بناء على أمره، فإنه يكاد يختنق.

وكان هذا الشيخ أرملا، وأبا لطفلين الواحدة تبلغ ست سنوات، والآخر بين السابعة والثامنة. وعندما تعمد سعى إلى أن يصبح هذان الطفلان مسيحيان، إلا أن الرهبان رفضوا ذلك، لأنهم خافوا من أن يكشف أمرهما، خاصة أن بقاءهما في هذه الأرض كان أكيدا، وأنه إذا مات أبوهما سيبقى الطفلان بدون تلقين، لأنهما يعيشان مع أقارب مسلمين، مما يعني أنهما سيظلا مسلمين بعد تعميدهما، وهو وضع سيئ، ولذلك أجلوا تعميدهما حتى يصبحا قادرين، أو يجدوا لهما طريقة للذهاب بهما إلى البلاد المسيحية. وهذا الأمر سبب للشيخ ألما، ومع ذلك فإنه كان يلقن ولديه كل ما يأخذه من الدير لكي يميلا إلى المسيحية.

وكان فرانسيسكو يأمل هداية الجميع إلى المسيحية، بحيث تجسدت هذه الإرادة في مناسبات مختلفة. فقد وبخ صديقه المرتد الذي كان قائدا مقربا من الملك ويبلغ من العمر أكثر من 38 سنة، فسأله المرتد عن كيفية اهتدائه المسيحية، وحكى له قصته وسعادته بكونه من أبناء الكنيسة الكاثوليكية، ومع ذلك شك المرتد في صدق كلامه، ذلك أن المرتدون هم أسوء الناس ضد المسيحيين.

وهكذا دعاه فرانسيسكو ليأتي معه إلى الدير، وفي حضور الرهبان أشار برمز الشريعة المسيحية محتقرا شريعة محمد. واستغل الرهبان هذه المناسبة لتنبيه المرتد إلى أخطائه، فاعترف بأن صديقه حقق له هذه الفرصة السعيدة ليعترف بأنه ليست هناك شريعة حقيقية مثل شريعة الكنيسة الرومانية، إلا أنه متورط في الرذائل ولا يستطيع أن يخرج من حالته السيئة إلا إذا ذهب إلى البلاد المسيحية، لأنه في المغرب يملك كثيرا من النساء والأطفال الذين تربطه بهم علاقات الحب. وشجعه فرانسيسكو على الموت والذهاب معه إلى الملك ليكشفا له الأمر و يموتا معا. فكان أشجع من هذا المرتد رغم أنه لم يمر على عيشه في الكنيسة إلا شهران. وقد تصالح في هذه الحقبة كثير من المرتدين،

ولست متأكدا من اهتداء هذا المرتد إلا أنه كان يتردد إلى الدير ليطلب من الرهبان أن يدعوا لله ليصلح روحه.

في اليوم الأول من عيد المسلمين عند نهاية رمضان كان فرانسيسكو جالسا في باب الدير يقبل الصليب الذي في عنقه، فمر من قربه مرتد ولد في إشبيلية وتعجب من ارتدائه لباس المسلمين وحمله الصليب في عنقه في آن واحد، فأجابه فرانسيسكو بحماس أنه مسيحي بفضل سيده يسوع المسيح، ووبخه على إسلامه لأن محمدا القديس الذي يدين به المرتد لا يملك أي فضل، بل بسببه ذهب آباء فرانسيسكو إلى جهنم، لذلك فهو لا يريد أن يمشي في طريق القدر والشيطان والمرارة الأبدية. وروى الشيخ الحادث للرهبان فخافوا من النتائج السلبية لهذا الحماس، وقالوا لمعرفه أن يزيلوا له الصليب بطريقة لا تحزنه.

ولم يقف فرانسيسكو عند هذا الحد، فقد خرج في يوم من الدير بعد سماع القداس والتقى بصديقه القائد المرتد الذي عرف أنه مسيحي، فظلا يتحدثان عن معجزات الشريعة المسيحية وعجائب المسيح، ولم يشعرا بمسلم سمع حوارهما، فعلا صوته باتهامهما باعتناق المسيحية، وتجمع عليهم كثير من الناس ومن بينهم خادما المرتد، فأخذوا فرانسسكو والمسلم المدع ليمثلا أمام العدالة، ولم يتجرأوا على أخذ المرتد لأنه كان رجلا مميزا، ورغم ذلك خاف على نفسه وصديقه، فأمر خادماه أن يتبعاه ويبذلا المستحيل لإنقاذه. ودخل الجماعة إلى المحكمة، وسأل القاضي فرانسيسكو إذا كان مسلما أو مسيحيا، وأزالوا له القبعة والحايك بصفتهما الشهادة الظاهرية على الإسلام، فصاح بأعلى صوته أنه مسيحي ويسمى فرانسيسكو دي سانطا ماريا، وأبدى استعداده للموت واضعا رأسه على ركبتي أحد القضاة لقطعه. وفكر الخادمان في مخرج لهذه الحادثة، وشاء الله أن يكون المدع شاربا في ذلك اليوم ماء الحياة، فصاح أحدهما أن اتهام الشيخ غير عادل لأن المدع سكران ولا يعرف ماذا يقول، وبينما القضاة يشمونه ليتأكدوا من سكره، والناس منشغلون بذلك، أخرج الخادم الآخر فرانسيسكو وأغلق فمه لكي لا يستمر في صياحه.

فكر الرهبان بقلق في قضية إسعاف فرانسيسكو في موته الذي كان قريبا بسبب كبر سنه، ذلك أنه كان يعيش داخل المدينة مع أقاربه، وكان الملك في هذا الوقت غاضبا من الرهبان بسبب رفض إسبانيا إرجاع كتب الإسكوريال، واهتداء بعض اليهود إلى المسيحية، بحيث أصدر أمرا بأن لا يتدخل الرهبان في نزاعات المسلمين، و أن لا يتجولوا داخل المدينة، ويمشون فقط في محيطها. ورغم هذا القرار فقد كان الرهبان على استعداد

لإسعاف فرانسيسكو لكي يكونوا شاهدين على نهاية سعيدة لهذه المعجزة.

لكن الله أخرجهم من هذا المأزق وهيأ موت فرانسيسكو بليونة. فقد أحس الشيخ في نفسه بعض البواعث بقرب موته، فانزوى عن الناس وزاد في تعذيب نفسه بالصيام والتوبة، وتردد في كل الأيام على الدير لحضور المقدسات، وطلب من الأب فراي بيدرو أن يكون معرفه الذي يعطيه شهادة المذهب الثالث، وأن يعفيه من شهرين بقيا من السنة لأنه أحس بضعف كبير في قواه. كما اعترف فرانسيسكو في كل الوقت بأنه مسيحي متحسرا على عدم إيمانه بهذا الدين طوال حياته، ثم ودع الرهبان الذين شجعوه كثيرا لساعة الموت. وغاب عن الدير أربعة أيام، فظنوا أنه كان مريضا، وقرر الأب رؤيته بدعوى إعطائه بعض الأدوية مخافة أن يكون قد ارتد، إلا أن ابنه الأكبر سبق الأب إلى الدير حاملا الصليب الذي كان أبوه يحمله في عنقه، فأخبرهم بموته، وأنه خلال الأيام الثلاثة الأخيرة لم ينطق إلا بكلمات يسوع ومريم، وأنه ناداه وأخته وعاتبهما ليكونا مسيحيين، لأن دين المسلمين سيئ ويؤدي إلى النار، وأوصى ابنه أن يذهب بالصليب بعد موته إلى الدير، وأن لا يكشفوا رفاته للمسلمين، وأنه يقول للرهبان أنه مات كاثوليكيا وهو يغني بعض القداسات. وهكذا أخذ الأب هذا الصليب الذي اعتبره شعارا لهذه الروح المتحمسة، وقد طمأنه حديث هذا الابن البريء رغم ما رواه من شكوك بسبب موت فرانسيسكو بدون أسقف.

مات الأخ فرانسسكو دي سانطا ماريا بعد تعميده بعشرة أشهر في الثانية والستين من عمره. ولما بلغ ابنه الأكبر السادسة عشرة من عمره مرض مرضا خطيرا، فنادى راهبا وطلب منه التعميد ليموت مسيحيا مثل أبيه الذي تعلم منه جيدا مبادئ الدين المسيحي. ومات بعد التعميد بست ساعات. أما البنت الصغرى فلا نعرف عنها أي خبر.

- **فرض الملك غرامة لاثني عشر ليبرة من الذهب على الرهبان وجلدهم بوحشية:**

ليس هناك شيء أكثر تقلبا من الطبيعة الإنسانية التي تتأثر بطبيعة الحياة المتغيرة، إلا أن هذا التغير وعدم الثبات يبلغ حده الأقصى في هذه الأرض، حيث عامل الملك المولى محمد في البداية الرهبان معاملة طيبة وسلك سياسة حسنة تجاه إسبانيا، إلا أنه تراجع عن ذلك وسلك سياسة أسلافه المستبدة، رمز الملكية البربرية، فقتل كثيرا من المسلمين، وطال هذا الاستبداد الأسرى المساكين أيضا، حيث أوقف كل معاملاته الحسنة التي عاملهم بها في البداية. فالذين أحبوا فضائله من قبل كرهوه عندما تحول إلى رجل سيئ وجاحد.

بعد أن اعترف المسلم المدع أنه شرب ماء الحياة أمرت العدالة بجلده مائتي جلدة مع دفعه للغرامة، أما فرانسسكو فقد اعتبروه مجنونا، وانتهت هذه المحاكمة العادلة، وجاء

فرانسيسكو إلى الدير يطلب الصليب لأنه لو كان معه لثبتت مسيحيته، فأكد له الرهبان أن الله لم يهيأه بعد ليموت. وأعطوه الصليب بناء على إلحاحه الشديد تاركين الحوادث تجري بقدر الله، وشاء الله أن يدفن هذا الحادث، ولو أن آثاره ظهرت بعد موت فرانسيسكو.

وقد بدأ تعامله يتغير مع الرهبان منذ أن رفضت إسبانيا إرجاع كتب الإسكوريال. كما نتجت أفعاله الجاحدة التي حرضه عليها بعض أعداء الرهبان عن مجونه أيضا، حيث كان الملك يسكر باستمرار، وكان الذي يمده بالخمر أسير مارق أصبح من بطانته، وينفذ له الملك كل ما يطلبه منه، ولكي يتحرر من سلاسل العبودية، ويترقى إلى مستشاره حرضه على الرهبان الذين كان عدوا لهم، لأنهم كانوا يحاولون هدايته، وينصحون بعض الكاثوليك بتغيير عاداتهم السيئة، فقال للملك أنهم وثنيون ومخادعون ويعبدون صورا وهراوات عارية.

ومازال المارق يحرض الملك حتى تحققت له الفرصة المناسبة لتنفيذ نواياه الخبيثة، ففي عام 1653 عمت المجاعة وانسحب الحراس تاركين الطرق بغير حراسة، فهرب أربعة أسرى إسبان، ولم يتجرأ أحد على إخبار الملك لكي لا يعاقبهم على تفريطهم في مهمتهم، و بما أن المارق المقدم كان رئيسا للأسرى، فإنه قام بالمهمة.

وهكذا أخبر المارق الملك بهروب الأسرى المسيحيين عندما كان سكرانا، وأن هذا الهروب تم بإيعاز من الرهبان ومساعدتهم، لأنهم أتوا إلى هذه الأرض فقط من أجل هذا الغرض، ويسمون أنفسهم قديسين ليتمكنوا من خداع الجميع، وهم أسوأ الناس. إذ يعظون بناء على القسم الذي يؤدونه في الكنيسة المسيحية بمباركة رجل يسمونه بابا وقديسا. وأضاف أن الرهبان اتفقوا على تهريب هؤلاء الأسرى لأنهم كانوا خمارين ويملكون كثيرا من المال، وأنه لا شك أن الرهبان خادعوهم ليستولوا على كل هذا المال الذي لا يستطيعوا أن يحملوه معهم إلى إسبانيا، ولذلك فإنه أخبر الملك في هذه اللحظة ليرسل في البحث عنهم، لأنهم لم يبتعدوا كثيرا، أو ليلتمس قيمتهم من الرهبان، والتي قدر أنها تساوي ثلاث ليبرات لكل أسير، لكي يستفيد من ذلك الملك وبعض الرجال الجاحدين.

وهكذا نفذ الملك هذه المؤامرة الخبيثة، وأمر الرهبان أن يدفعوا الإثنى عشر ليبرة، بحيث تبلغ قيمة كل ليبرة 1640 بيسو إسبانية، وأمر رجاله أن يعاقبوهم إذا رفضوا دفعها. وقد عين الملك لتنفيذ الأمر مسلما ورافقه هذا المارق وغوغاء آخرون، فدخلوا إلى الدير بأصوات صاخبة بدون إلقاء التحية، وسألوا عن الرهبان محطمين كل شيء، ولما رآهم المأمور طلب منهم أداء اثني عشر ليبرة من الذهب بناء على طلب الملك، فدافع الرهبان

عن براءتهم، وصاح المارق متهما إياهم، فرفض الرئيس دفاعهم لأنه مكلف بتنفيذ أمر الملك. والتمس الرهبان أن يمهلوهم بعض الوقت لأنه لم تكن لديهم كل الكمية، فمد المأمور يده ولطم الأب في وجهه حتى سقط على الأرض، وأمر أن يجلدوه أربعمائة جلدة، فعروه من لباسه الفقير وتركوه بلباس الحشمة فقط، وربطوا يديه إلى رجليه أمام صدره بحبال غليظة، ووضعوا وجهه في الأرض لكي يبقى ظهره عاليا، وجلده اثنان بأسواط جلدية، ولما تعبوا دخل اثنان آخران لإتمام هذا العقاب حتى ظل الأسقف شبه ميت، ولم يرجع إلى وعيه لأيام كثيرة، بل إنه ظل يعاني آلاما كثيرة لأكثر من عشرين سنة. ثم عاقبوا الرهبان الآخرين بوحشية ليكشفوا لهم عن صندوق المال، فالتمسوا منهم أن يمهلوهم ساعتين ليدبروا ما تبقى من المال لإتمام الغرامة، وسمحوا فقط للأسقف بالخروج إلى الساجنة لجمع بقية المال من الأسرى. وخلال ذلك عذبوا الأب فراي خوليان باستور بالشكل نفسه، لكي لا يتحمل جسده الضعيف شدة السوط ويعترف لهم بموضع الكنز، وبعدما تلقى جسده مائة جلدة تعرت عظامه وجرح رأسه وجسده، حتى غدا شبه ميت، وتألم الرهبان الآخرون لرؤية هذا التعذيب الوحشي.

رجع الحارس إلى الدير، دون أن يقدر على جمع نصف كمية الغرامة من الأسرى الذين أرادوا الثأر من هؤلاء المتوحشين لبراءة الرهبان. ولما رأى المأمور أن الأب رجع بدون الكمية، أمر بجلده ثانية بالشكل نفسه، وتركه عاريا على الأرض، وكذلك الشأن بالنسبة إلى القديس فراي خوليان وفراي أنطونيو دي لاكروس، والرهبان الآخرين الذين خافوا أن يعيد الجلادون جلد القديسين الممرغين في الدم، فالتمسوا من المأمور أن يقبل الكمية القليلة التي جمعت من الأسرى والتي أضافوا إليها كمية أخرى كانوا يحتفظون بها للأوقات التعيسة، وأن يبيعوهم عبيدا مقابل أن لا يقتلوا أخويهم والأسقف. وهكذا أوقفوا العقاب، وظل العراة مكبلين، وأطلق سراح الآخرين لكي يأتوا بالمال. وعلى هذا النحو مر اليوم كله، وفي العاشرة ليلا، أعطوهم الكمية القليلة التي دبرت، والتمسوا من القائد أن يبلغ الملك بأن يمهلهم بعض الوقت للبحث عن باقي المبلغ، واستجاب الملك للطلب، ولكنه اشترط عليهم الاستعداد للعقاب إذا لم ينفذوا الوعد.

لبس الرهبان جميعهم لباسهم الفقير، وبكوا كثيرا، ثم ذهبوا ثانية لمحاولة الحصول على سلفة الكمية الباقية. وقد كان الحصول على المال من إسبانيا في هذه الفترة صعبا جدا، وهكذا خرج الأسقف إلى بعض التجار الذين تبقوا في هذه السنوات العصيبة لرهن التحف التي بقيت في الدير، أو يباع الرهبان عبيدا لليهود لكي يفدي بعضهم حياة الآخرين. وكان كل

واحد منهم ينازع الآخرين ليكون هو العبد المباع. إلا أن الله أكرمهم وشاء أن يقرضهم كل المال الباقي تاجر إنجليزي بروتستانتي يعيش في هذه المدينة يسمى خوان رند.

وخلال خروج الأسقف للبحث عن القرض جاء الوحش الجلاد بأمر من الملك بكثير من السلاسل ليكبلهم ويذهب بهم إلى سجون مختلفة بعد أن يحصل على بقية الغرامة. وسأل عن الأسقف فأخبروه بخروجه للبحث عن المال. وفي تلك اللحظة حرضه المارق بإلحاح على تدنيس الكنيسة وتحطيم الصور المقدسة، فأمر بربط الرهبان، ودخلوا إلى داخل الكنيسة بخناجر عارية، ودمروا المذابح، ورموا كل شيء في الأرض، ودنسوا المعبد المقدس الذي تؤدى فيه العبادة الطاهرة لله، وجروا صورة يسوع المسيح ووطأوها بأقدامهم القذرة، فحطموا وجهه ويديه وساقيه، وهو الشيء الذي لم يفعله اليهود في يسوع نفسه عندما وضعوه في الصليب، بل إنهم فعلوا ذلك استجابة لمارق يقول إنه مسيحي ويحب المسيح.

وإذا كان اليهود الجاحدون قد آذوا يسوع بوحشية، فإنهم لم يؤذوا أمه مريم القديسة. لقد امتدت أيدي هؤلاء المستبدين إلى صورة مريم التي كانت اسما لهذه الكنيسة المقدسة، فجروها في الأرض الوسخة، وحطموا شفتيها وخديها. كما حطموا صورتين الواحدة لأنطونيو دي بادووا، والأخرى لسان سيباستيان وضربوا بالخنجر الطفل يسوع الذي يحمله أنطونيو بين يديه، فقطعوا رأسه في النصف.

وبعد كل هذا ذهبوا إلى بيت القربان المقدس، وكان الرهبان قد استعدوا لمثل هذه الطوارئ، فأودعوا القربان المقدس، وخبأوا الكؤوس المقدسة، وكل الأشياء الأخرى تحت الأرض، لكي لا تبلغ لها أيدي هؤلاء المدنسين. وجاء الأسقف الذي لم يعرف في ذلك الوقت ماذا حدث لأنهم كانوا ينتظرونه في الباب، رغم أن المأمور كان يوزع كثيرا من تحف الدير على خدمه، ودفع الأب الإثنى عشر ليبرة من الذهب غرامة للملك، ومائتين وأربعين ريالا للقائد على تنفيذ مهمته وأربعة وعشرين ريالا للجلادين السود، وخمسين بيسو للخدم الآخرين الذين كانوا هناك ليبلغوا أمر الملك بعدم تكبيل الرهبان بالسلاسل، لأنهم قبضوا على الأسرى الأربعة الهاربين. وهكذا أخذوا كل المال، وأطلقوا سراح الرهبان الذين كانوا مكبلين خارج الدير، والذين عرفوا الضرر الذي أصاب الكنيسة من خلال الجلبة التي كانت في الداخل.

وعندما رأى الرهبان هذا التدنيس بكوا كثيرا وبأصوات عالية، فتجمع عليهم كثير

من المسلمين الذين ظنوا أن أحدا من الرهبان مات بسبب التعذيب. لقد رأى الرهبان صور إلههم المعبود محطمة في الأرض وأمه الطاهرة، والقديسون الحقيقيون، ولم يتجرأ المسلمون طوال قرون كثيرة على اغتصاب هذه الكنيسة المقدسة، إلى أن استطاع ذلك المارق أن ينفذ هذا التدنيس. وهكذا وضع الرهبان الرفات المقدس في صندوق، وجمعوا القطع المتبقية من الصور للذهاب بها إلى إسبانيا، حيث حملها الأب الحارس في أول مناسبة أتيحت له، فتم إصلاح صورة المسيح التي وهبتها من قبل الملكة دونيا إيزابيل دي بوربون، ونقشوها بأحسن زينة. وتكرم هذه الصورة اليوم في دير سان دييكو، حيث يؤدي لها الرهبان الشكر، وقد وضعوها في خزانة الأشياء المقدسة. أما صورتا يسوع الطفل والسيدة مريم، فلم يتمكنوا من إصلاحهما، واحتفظ بهما في بيت القربان المقدس في الخزانة نفسها.

لم يسعف الحظ الأسرى الأربعة الهاربين، حيث أمسكوا بهم قرب معقل مازاكان، واعترفوا في حضرة الملك ببراءة الرهبان بعدما عرفوا ما نالوه من جلد بسببهم، وأقسموا على أنهم هربوا رغبة في الحصول على الحرية وبدون استشارة أحد. وبهذا الاعتراف أمر الملك بجلدهم بوحشية، فخاف الحارس أن يرتدوا بسبب هذا العذاب الذي جرب قسوته، والتمس من الملك أن يطلق سراحهم وأن يرسلهم إلى إسبانيا مادام الرهبان قد اشتروهم بتكلفة عالية، فرفض الملك بحجة أن الغرامة أديت على هربهم، وقبل القبض عليهم، وأنها كانت ستؤدى حتى لو قبض عليهم في البحر. وهكذا بقي الأسرى الأربعة في الأسر، وأدوا مبالغ مالية كبيرة، وجلدوا بوحشية، وظلوا على هذا الحال التعيس.

- **ذهاب المبشرين إلى إسبانيا، وبقاء فراي خوليان مع مرافق واحد :**

لعل المعاناة مع الصبر هي السمة الحقيقية للإنسان المتواضع، وما فعله الجلادون بوجه المعلم الإلهي طبعنا بأحسن قواعد الصبر، ولكن في بعض الأحيان يكون مناسبا الهروب من مواجهة هذه الممارسات المستبدة لكي لا يضيع هذا الصبر. ولم يستأ المبشرون مما لاقوه من آلام، وذلك لخدمة الغاية النبيلة التي تحقق مجد الشريعة، والتي تتمثل في مواساة هؤلاء الأسرى المساكين للحفاظ على وضعهم الروحي الجيد، والمحافظة على البعثات لاكتساب مزيد من الفوائد للكنيسة، وهي التي تحظى بالاعتبار الأول، إلا أنه كان مستحيلا عقليا الحفاظ على هذا الأسر، إذا كرر الملك هذه الاعتداءات كلما هرب أسير، ومثل هذه الحوادث لا تتوقف، لأن السعي إلى الحصول على الحرية من قبل الأسرى يظل قائما .وهكذا قرر المبشرون الذهاب إلى إسبانيا ليس هربا من العذاب، ولكن لتجنب معاملات مشابهة، إذ

لم يكن سهلا دفع هذه الكميات إذا تعود الملك على فرضها. وبالإضافة إلى ذلك فلعل الملك يلين طبعه بهذا القرار أو يصحح سياسته بعد فترة من الزمن.

اتفق المبشرون على هذا الأمر، وجمعوا ما تبقى من تحف العبادة الإلهية، وطلبوا الإذن من الملك للذهاب إلى إسبانيا، وحصلوا عليه بسرعة، ثم هيأوا سفرهم الذي شاع خبره بين الأسرى فبكوا كثيرا، وكان ذلك أحزن يوم مر بهم، والتمسوا من الرهبان البقاء معهم، إلا أن الأب أخبرهم بظروف ذهابهم وأنه سيبقى معهم أسقف ليخدمهم. وهكذا تقرر أن يبقى الأب فراي خوليان باستور نظرا لكبره وفضائله وتجربته الكبيرة في هذه الأرض، وتعوده على الوحدة، وبقي معه فراي فرانسسكو الذي يتميز بفضائل مثالية. وذهب الأب الحارس وأسقفان آخران والأخ النقابي ألفونسو دونادو.

وفرح المارق عندما رأى استعداد الرهبان للذهاب لأنه حقق هدف مكره، وفتر بعض الشيء عندما علم ببقاء فراي خوليان. وقد حاول في مناسبات مختلفة أن يتسبب في طرده من المملكة، لكن الله لم يتمم سعيه، وإن كان الأب قد عانى بعض التعذيب من خلال تحريضات هذا المارق.

اهتدت يهودية في نقابة الكنيسة الكاثوليكية، وبعد تعميدها أتت لتعيش مع المسيحيين، وتتعلم الدين من الرهبان. ولكي لا تستمر عازبة قررت التزوج ببروتستانتي واستشارت مع فراي خوليان فأذن لها بالزواج، واشترط عليها أن لا يعيقها هذا الزواج عن الخضوع للكنيسة الرومانية واتباع مذهبها الكاثوليكي. وهكذا تزوجت وتابعت ترددها على الكنيسة لحضور المقدسات. واغتنم المارق هذه الفرصة، فحرض زوجها ليرغمها على اتباع بدعه، وحاول الأب أن يشجعها وينصحها بعدم الخوف، إلا أن إلحاح المارق على تحريضه، دفع بزوجها إلى تهديدها بالقتل، فظلت على هذه الحال حتى *اتبعت اعتقاده الخاطئ.*

وصل الرهبان إلى لشبونة لأنهم لم يجدوا سفينة تنقلهم إلى إسبانيا، وقد عانوا كثيرا بسبب الحروب الدائرة بين البرتغال وإسبانيا، حيث سجنوا بتهمة التجسس، ولما تأكدوا من براءتهم أطلق سراحهم وأرسلوا إلى إسبانيا. وبعد أن عرف الإقليم الحادث التي تسبب في رجوعهم حزنوا كثيرا، لأنهم كانوا يقدرون أن استمرار الملك الإسباني في هذه الحروب مثل أجداده سيكلفه نفقات كثيرة، وأن هذا الوضع سيعيق البعثات، وسيحرم هؤلاء الأسرى من المواساة الروحية. ومع ذلك فقد ظلت هناك نية لاستمرار واجب الحفاظ على هذه الكنيسة

المقدسة، فعهد الإقليم إلى الملك أن يضغط على الملك المغربي لكي لا تستمر مثل تلك النفقات. وهكذا بدأ الإقليم يبحث عن الهبات لجمع الكمية التي استلفوها، ولإصلاح أمور أخرى في الدير الذي نهب. وعلم الملك بكل ما جرى للمبشرين وللدير ولرعاياه الأسرى، وبما أنه يعرف أهمية البعثات ويعتبر هذه الكنيسة تحفة ثمينة كتب رسالة في هذا الموضوع إلى دوق المدينة سالي يقول فيها: "دوق المدينة سالي، ابن العم، القائد العام للبحر الأطلنتي وشواطئ الأندلس. لقد تلقيت رسائلكم في التاسع عشر من الشهر الماضي، والتي تتناول ما حدث لفراي بيدرو دي ألكانتارا حارس كنيسة الرهبان الفرنسيسكان بمراكش مع حكومة الملك في هذه المملكة، وما وقع من المعاملات السيئة التي لاقاها الرهبان مما أرغمهم على مغادرة هذا الدير، وأنهم استنفذوا القربان المقدس الذي كان فيه. كما علمت السبب الذي دفع هذا الملك لإرغام الرهبان على أداء اثني عشر ليبرة ذهبية، وجلدهم بكثير من الفظاظة، والنتائج التي حققتها هذه الكنيسة بين البربر، كالتعميد السري للبعض، وإدارة المقدسات للأسرى المسيحيين. وأقول لكم إن هذا الدير أسسناه أنا والملكة التي في السماء، وساعدنا ببعض التحف من أجل صيانة العبادة الإلهية فيه، والتي استمرت حتى الآن بكثير من العمل وسط أكبر أعداء الكنيسة، ولهذا يتبين أنه يستلزم علي مساعدة وإكرام الجميع عندما يكون ممكنا للمحافظة عليه. وفي نهاية هذا الأمر، أمنح ألفين وستمائة وأربعين ريالا، لكي يؤدي الرهبان الإثني عشر ليبرة التي فرضها ملك المغرب عليهم، وسأكرم هذا الدير كما فعلت حتى الآن. وأنا راض وممتن بعملهم. كما إني أحملكم أن تواسوا وتشجعوا فراي بيدرو دي ألكانتارا لكي يرجع إلى ديره، ومن المؤكد أني سأكون دائما على استعداد لرعاية كل المطالب المشابهة لأنها تخدم مصالحنا، وأن تقدموا للسعيد فراي بيدرو، وباقي الرهبان الذين أتوا معه كل الإسعاف والمساعدة الواجبة، لكي يتمكنوا من الرجوع لمساعدة الراهبين الآخرين اللذين بقيا في هذا الدير، وكذا مساعدة الذين اهتدوا إلى شريعتنا المقدسة، وقدموا المساعدة لفراي فرانسسكو دي لاكونسيبسيون، واعملوا بحماس ما أطلبه وما تعودتم عليه في خدمتي. من مدريد 26 نوفمبر 1653.

أنا الملك دون فرناندو رويس دي كونسيبسيون".

ولا يستطيع الأب الإقليمي المتحمس ولا المؤرخ الأكثر لياقة أن يكتب رسالة مثل الوثيقة الملكية التي ضمنها مساعدة الرهبان في هذه الأنحاء للحفاظ على المهتدين الجدد للكنيسة الكاثوليكية، وذلك عن طريق تلقينهم العقيدة الإنجيلية. ولم يتمكن الرهبان من الحصول على المبلغ المسلم من قبل الملك الكاثوليكي لدفع الغرامة التي فرضها الملك

المغربي، وذلك بسبب موت دون خوان كلاروس القائد الأكبر لقادس، الذي كان مكلفا بالمهمة، واستلموا فقط ألفا وخمسمائة بيسو التي كان في استطاعة الملك أن يدفعها، رغم أنهم من بعد استلموا الكمية المتبقية التي حددت من أجل إعادة بناء الدير في مكان آخر. وهكذا حث الإقليم المؤمنين على المساهمة بالهبات لإتمام بقية الكمية الواجبة. وقد تحمس الجميع لاختيار فرانسسكو دي لاكونسبسيون أبا لهذه البعثات، باعتباره نائبا حواريا، وأنه عمل على حماية البعثات في المغرب بتجربته الفاعلة والواسعة. وفي هذا يقول شاعر إسباني، لكي تكون قائدا عاما مشفقا يجب أن تجرب تعاسة جندي.

إلا أن الإقليم لم يتمكن من إرسال المبشرين، حيث كان الأب فراي فرانسسكو دي لاكونسيبسيون في أيامه الأخيرة، لذلك التمس من الأب الإقليمي الجديد الذي كان آنذاك الأب فراي خوان دي سانطا لوسيا أن يرسل الرهبان بالسرعة الممكنة. وعقد اجتماع عين فيه الأب فراي خوليان باستور للمرة الثانية، وأعفي الأب فراي بيدرو دي ألكانتارا من مهمته لضعف صحته بسبب التعذيب الذي عاناه، وعينوا مبشرين جددا، وهم الأب فراي طوماس دي سانطا ماريا وهو راهب كبير عمل مقررا ومرافقا لفراي نيكولاس دي فيلاسكو عندما ذهب إلى المغرب مرسلا من قبل دوق مدينة سيدونيا. وبقي في مازاكان، ورجع منها. وفي هذا الاجتماع أعفي من مهمته أبا لدير قادس ليترأس المبشرين الذاهبين معه، والذين هم فراي ألفونسو دي خيسوس ماريا، وفراي فرانسسكو دي سان بوينا فينتورا يتخلل رأسهما بعض الشيب، ويتميزان بعقل ناضج، وفضائل حسنة رغم قلة السنوات التي قضياها في تعلم علم اللاهوت. وهناك أيضا الأب الكبير فراي طوماس، والذي رغم سنه المبكرة، فقد تأهل لخدمة البعثات بسبب مرتبته التشريفية، وقد كان واعيا بالتزاماته الكبيرة لخدمة الإله والحصول على جائزة الشرف.

خرجوا من قادس في 10 أبريل سنة 1654، وكان السفر شاقا بسبب العواصف السيئة وبعض الحوادث على الأرض، ووصلوا إلى مراكش يوم 6 مايو، واستقبلهم الأسرى والرهبان بفرح كبير، لأنهم لم يعلموا بقرار مجيئهم. ثم ذهبوا إلى الملك بهدية تتألف من بعض منتوجات الأرض التي جمعها الرهبان من بعض المؤمنين في إسبانيا، واستقبلهم ببعض التقدير دون أن يمس الحادث السابق. وقد تبين لهم أن الملك كان نادما، وذلك من خلال إشاراته في حديثه عن براءة الرهبان، وأنه لو كان يعلم بتنفيذ قرار ذهابهم، لما أعطاهم الإذن. وبهذا عرف الرهبان أن ذهابهم كان موقفا صائبا لكي يحد الملك من إعادة تنفيذ مثل ذلك العقاب، وهكذا أدوا مستحقات الكمية المستدانة، ومنحوا بعض الهدايا للقياد

ليحققوا بها هدوءهم. وقد أحضروا معهم بعض الثياب للاستعانة بها في تشكيل أغطية للمستوصف، وصنع منها الرهبان كثيرا من القمصان التي خاطوها بأيديهم ووزعوها على الأسرى المحتاجين.

- **اختيار فراي فرانسسكو دي سان بوينا فينتوراس حارسا لدير المغرب، والحوادث التي وقعت له وموته المبكر:**

رتب الرهبان أشياءهم في الدير وعاشوا في هدوء رغم أنهم عانوا من الحاجة الكبيرة التي تسببت فيها سنوات المجاعة، وتسبب فيها سلوك الملك المستبد الذي لم يعد يعرف إلا السكر، حيث كان يرسل باستمرار في طلب زجاجات الخمر من الرهبان الذين كانوا يلتمسونها بشتى الطرق ويقدمونها له لكي يتجنبوا قذفا آخر من سكره. وهكذا عانت جميع المملكة من التعاسة والاستبداد، ولم يسلم من ذلك مسلم ولا مسيحي ولا يهودي. وهناك حوادث كثيرة جسدت هذا الوضع، منها أن قائدا مسلما رهن بعض الرهائن عند تاجر إنجليزي مقابل استدانة كمية من المال لأداء غرامة كبيرة إلى الملك، وبعد أن مر الوقت المتفق عليه لإرجاع المال طلب التاجر من المستدين ماله لكي يرد له رهائنه، فغضب كثيرا وأقسم أن لا يرد المال وأن يثأر منه. وفي أحد الأيام خرج التاجر يتجول في ميدان المدينة -وكان القائد قد هيأ له المكيدة- فاعترضت سبيله عجوز سوداء تطلب صدقة، عندما خرج فجأة فوج من الحرس، فبدأت تصرخ لكي يعطيها المال الذي اتفقا عليه مقابل الدعارة، وبدون أن يدافع التاجر عن نفسه ضربوه وحكموا عليه بالارتداد والزواج من العجوز المخيفة. فلم يرد التاجر المسكين حلا آخر إلا أن يعطي للقائد رهائنه، ويتنازل له عن المال لكي لا يفقد حياته، أو يسقط في تلك الفضيحة. ولما عرف الملك بالحادث نادى الاثنان، فأمر أن يعاقب التاجر وأن يدفع غرامة جديدة، ثم أمر أن تزال للقائد كل رهائنه، وأن يدفع غرامة مضاعفة. ومثل هذا الحادث ؟وحوادث أخرى؟ يدل بوضوح على حالة فقدان العدالة وانتشار التسيب الذي كان سائدا في هذا العصر، رغم أن مثل هذا يسود اليوم بدون اختلاف.

لقد تخوف الرهبان من مثل هذا الوضع، لكن مشيئة الله قضت أن لا يتعثروا في حوادث أخرى، وقد عانوا خلال ثلاث سنوات من الفقر الكبير. وفي سنة 1656 ذهب فراي خوليان إلى إشبيلية، ليصوت على مذهب السامين، وعقد الإقليم اجتماعا أعفي فيه هذا الأب من مهمته بسبب ضعف قوته، وعين فيه فراي فرانسيسكو دي لامادري دي ديوس أبا للإقليم، وفراي فرانسسكو دي سان بوينا فينتورا الذي كان في البعثات حارسا لدير

مراكش، وهو راهب ذو فضائل منفردة كما ثبت من التاريخ المكتوب للإقليم. وقد حضر إلى جانبه في هذه الكنيسة الأب فراي طوماس دي سانطا ماريا، وهو رجل متدين ذو خصال نزيهة حمله الإقليم وظيفة الأسقف في كثير من الأديرة الرئيسة، وقضى سبع سنوات في الرهبنة وحضر في البعثات، ولذلك اختاروه حارسا أعلى على الجميع.

لقد تحمل بوينا فينتورا مسؤولية خدمة المذهب في ريعان شبابه، وقضى في ذلك ثمانية عشر سنة بدون تعب وفي ممارسة الفضائل والبحث عن كيفية تحبيبها إلى الإنسان.وعلى هذا يمكن القول إن الإدارة الجيدة لا تستند إلى كبر السن، لأن الزمن لا يمكن أن يجعل من شجرة بلوط شجرة تفاح عطرة. لقد كان دانييل فتى عندما اختاروه قاضيا، واختار يسوع المسيح الإنجيلي خوان حواريا وهو مازال صغير السن، وعهد إليه بأمه القديسة، وهو الذي أرخ تاريخ يسوع المقدس. ومن ثم فإن النبوغ لا يقاس بعدد السنين، إذ أن سيبون الإفريقي كان غلاما عندما كلف برعاية الأعمال العمومية الإلهية في روما. واختير أوكتافيو أوكوستو إمبراطورا في الثانية والعشرين من عمره، وحقق باولو إيميليو في سن العشرين انتصارات مجيدة على أنتيوكو، وهناك أمثلة كثيرة تؤكد هذه الحقيقة.

لقد أراد الحارس أن يتنازل عن مهمته، حيث تبين له بسبب تواضعه أنه لن يكون قادرا على هذه الإدارة، لكن الأساقفة لم يتقبلوا منه ذلك. ومن ثم عمل مواظبا، واستطاع أن يكسب كل التقدير الذي يحظى به الأسقف. لقد كان يسعف الأسرى في جميع الأمور، حيث كان يصلح بينهم في النزاعات، ويسعى إلى معرفة ما يسيئهم، ويعجن لهم الخبز بنفسه، ويرقع لهم ثيابهم الممزقة، ويسهر في كثير من الأحيان على إعداد قدر الغذاء، ويوزعه بينهم بيديه. وقد حدث له حادث مع قائد من أكبر المقربين إلى الملك يسمى ابن عسكر يمكن أن نستشف منه تكريم الله لأساقفته.

جاء هذا القائد إلى الكنيسة مع مجموعة من الخدم عندما انتهى الحارس من أداء القداس الذي تأخر في ذلك اليوم ؟على غير العادة؟ ولم يتم في الوقت الجماعي. ولما أحس الحارس بالضوضاء خشي أن يتسببوا في إهانة ما للكنيسة، فأسرع ليغلق الباب الوحيد الذي كان مفتوحا، فقاومه القائد وتغلب عليه لأنه كان قويا، وخرج الحارس لكي يوقف تهجمه بأدب وليونة، إلا أن المسلم الغاضب بصق في خده الأيمن وضربه برجله الأيسر ثلاث أو أربع ضربات. ولم يتكلم الأسقف بل انحنى برأسه على ركبتيه، وكشف له عن خده الآخر ليبصق عليه، فارتبك البربري بهذه الحركة المتواضعة، وحقق الحارس

بهذا متعتين، حيث تجنب إساءة المسلم للكنيسة، وقلد في ذلك صبر المسيح في معاناته لفظاظات مشابهة.

وبعد أيام رجع القائد إلى الدير دون أن يتجرأ على الدخول، ونادى من الخارج أسيرا يعرفه، وأخبره أنه يشهد بالحياة الطيبة للرهبان وبتواضعهم، وأنه اقتنع بأن إهانتهم لا تنتهي بخير كما ثبت من خلال كثير من الحوادث التي يحفل بها التاريخ. ورغم أنه يعارض دينهم فإن هذا لا ينفي هذا الاقتناع. ثم أعطاه دجاجا ليسلمه إلى الرهبان تكفيرا عن خطئه، وكشف له عن أسباب ندمه التي مردها إلى أنه في اليوم نفسه الذي أهان فيه الراهب، هجم عليه في باب الكنيسة كلب هائج وعضه من رجله اليسرى، وجره في الشارع، ولم ينتبه إليه الخدم المرافقون له، وبعد ذلك حملوه إلى سريره للعلاج. وناداه الملك في الليلة نفسها، وقطع الجانب الأيمن من وجهه حيث ظل الأثر بارزا فيه، وهو بهذا يطابق البصق على وجه الراهب.

وقد اقتنع المسلم أن الله هو الذي قدر له هذه الأحداث، لكي يصحح الخطأ والإهانة التي قام بها تجاه قساوسة سيده عيسى. ثم أدخل الخادم الدجاجات ونبهه المسلم أنه لن يذهب إلا إذا سامحه الرهبان، وإلا فلن يقع له شيء طيب. وبعدما أخبر الخادم الحارس خرج مع باقي الرهبان وأدخلوه إلى داخل الدير وأكرموه. وحكى للناس ما جرى له وحوادث أخرى سمعها عن آبائه لعقاب شديد لاقاه مسلمون آخرون بسبب إهانتهم للأساقفة. وظل منذ ذلك الحين محبا للرهبان، ولم يوافق على التدخل في حوادث لتنفيذ العقاب ضدهم، حيث كان يتهرب من مثل تلك الأوامر لأن الملك كان لا يرغمه على الأعمال التي لا يريدها.

لقد قضى الحارس سنتين في عمله المقدس، إلا أن العمل الشاق والمتواصل انعكس على صحته، حيث كان يفترش الأرض العارية ليريح جسده النحيل، ويتوسد الحجر البارد، ويلبس الثوب الخشن، ويقضي وقت الفراغ في الالتزامات الدينية الجماعية في التأمل العميق وعبادة الله، ولعل هذا ما أنهك قواه وأدى به إلى المرض. وبالتماس الرهبان وتوبيخ معرفه فراي طوماس، صنعوا له سريرا من بعض الألواح، وعانى بصبر كبير، وتلقى الأسرار المقدسة بدموع تائبة عندما أحس بنهاية حياته، وشارك في بعض العبادات الجماعية، وقبل الصليب، ولفظ أنفاسه مثل موسى، فبكاه الرهبان والأسرى، ودفن في دير الكنيسة في يوم 10 مايو 1658، بعدما قضى أربع سنوات في البعثة، وعشر سنوات في الرهبنة.

ولد هذا الأسقف في سان بانتاليون مكان أسقفية بوركوس. وقد أتى إلى مدينة

إشبيلية عندما عم الوباء جميع الأندلس، وأسعف المرضى بحماس في مستشفاها المشهور، حيث سموه القديس. ومرض بسبب الوباء وأنقذ الله حياته لكي يحقق آماله ويكون ابنا للأب سان فرانسسكو. وبعد انحسار المرض أمر كل الفتيان الذين كانوا في المستشفيات أن يخرجوا إلى المدينة ليشاهدوا الكرماء الذين أسعفوهم، وبذلك منحوا لفرانسيسكو راية الملازم الثاني، والتمسوا منه البقاء، لكنه رفض وذهب إلى دير سان دييكو، فالتمس جاثيا على ركبتيه من الأب الإقليمي أن يقبله جنديا في حرس الصليب. وهكذا أخذ لباس الرهبنة، وبدأ يمارسها في 22 شتنبر 1650، ودرس الفنون، وعلم اللاهوت، والآداب وقد حصل كثيرا من الفوائد قبل أن يذهب إلى البعثات، إذ نتيجة لخصاله وفضائله منحوه امتياز المبشر، وأعفوه لبعض الوقت من دراسته. جاء مع الأب فراي طوماس الذي عرفه، ومدحه للإقليم عندما أرسل لهم خبر موته المبكر.

- **موت الملك المولى محمد والتقلبات التي حدثت في المملكة :**

لعل وقوع حوادث عادية مثل الموت هو أمر طبيعي، إلا أن الله بقدرته يجعل منه أمرا معجزا، فكذلك موت المولى محمد هو حادث طبيعي، إلا أنه بالنظر إلى حيثيات وقوعه يمكن القول إنه عقاب من الله. فمنذ أن بدأ بشرب الخمر، وأهان الرهبان، وتعسف على مقدسات الدير ضايقته الأحزان، فعاش سنتين فقط بعد نكبة الرهبان قضاها في الحروب المقلقة. فقد قامت ثورات في تطوان وفي جميع الناحية الغربية من البلاد، فخرج بنفسه لكي يخضعهم إلى طاعته، واستقر بجيشه لبعض الأيام في مرتفع خال من السكان بين القصر الكبير وتطوان، وفي أحد الأيام شرب كثيرا من الخمر، وذهب يتجول وحده في تلك الأودية الواسعة دون أن يتجرأ أحد من حرسه على تعقبه، ولما وصل إلى وهد لنبع غزير اتكأ على العشب المبلل ونام، فجاء بعض البربر لأخذ الماء، وعرفوا أنه الملك، وانهالوا بحجر كثير على رأسه حتى قتلوه، ومات الملك منكوبا بسبب استبداده وإهانته للأساقفة. ويقال في أخبار المبشرين في هذه الحقبة أنه مات فقط. لكن هذه الملابسات دفعتني لكي أسأل بعض الرجال المسلمين الذين يعرفون أفضل الأخبار، فأكد لي بعضهم هذه القصة، وذهب البعض الآخر إلى أنه مات في مراكش موتا طبيعيا من فرط شرب الخمر. فقد مات في 3 يناير 1655، وحكم المغرب تسعة عشر سنة.

وبعد موته اعتلى الحكم ابنه الوحيد المولى العباس إذ لم يكن له أبناء آخرون رغم كثرة النساء التي كان يملك. فبايع العامة الملك الجديد في ١ فبراير من السنة نفسها لأنه كان ذا خصال محبوبة. غير أن هذه الصفة لا يمكن أن تكون مقياسا، لأن الملوك عند

الاستعداد للحكم يظهرون الطيبة والبشاشة، ويتناسون كل شيء عندما يتمكنون من الحكم. والأكيد هو أن هذا الملك تلقى مبايعة تامة، لذلك ساد السلام في أغلب أنحاء المملكة. وقد أكد بالكلام للرهبان أنهم سيجدون الحماية الأكيدة لديه، وأنه سيحافظ على كل الامتيازات التي منحها لهم أبوه، حيث كان يتظاهر دائما بالميل إلى المسيحيين. وفي سنة 1657، أي بعد سنتين من حكمه، قام نزاع بينه وبين خاله الذي كان يشغل مهمة باشا، وتحول ذلك إلى حروب شرسة تضررت منها المملكة.

وهكذا انقسم الناس إلى أتباع الملك وأتباع خاله، فسبب هذا التحزب ضررا للملكة، فكانت الخصومة بينهم أكثر حدة من خصومتهم مع الأعداء الغرباء. ومن ثم تخلفت التجارة، وتراجعت العدالة، إذ لم يعد هناك قانون يحكم غير الحرية، وامتلأت الطرق باللصوص، ولم يعد ممكنا وصول البريد على الأرجل، فأصيب الرهبان بعذاب كبير، حيث انقطعت الصلة بينهم وبين الإقليم، ولم يمكنهم الاستعانة بأزمور للتزود ببعض الأشياء للنجدة. بل إن هذه الفوضى سادت العاصمة أيضا، إذ كان الناس مسلحون ويملكون حرية فعل كل شيء، فقد جاء الجنود إلى الدير، وأخذوا الزاد القليل الذي كان يستعين به الرهبان، ولم يتجرأوا على منعهم أو تقديم شكوى إلى الملك الذي كان لا يستطيع أن يعاقبهم، لأنه يستعين بهم.

جهز الخال ضد ابن أخته جيشا قويا وأتى إلى مراكش لدخولها، وتحصن الملك داخل أسوار المدينة لأنه لا يملك قوة مماثلة له لكي ينازله. ولما رأت أم الملك أن ابنها في خطر تبين لها أن أفضل سبيل للنجاة هو أن يذهب الملك بنفسه عند خاله ويلتمس وده لكي يكسب رضاه وخضوعه. فذهب الملك واثقا من نصيحة أمه، وخرج الخال لاستقباله بخضوع ظاهري وتحادث معه بحنو أبوي وعقدا اتفاق سلام احتفل به في حفلات شعبية. ومرت بعض الأيام كان الخال يقوم فيها بزيارات مستمرة خولت له أن ينزع من الملك الطابع الملكي وينفذ به كثيرا من الامتيازات والتعيينات لكبار الدولة في المدن والأقاليم التي لا تدين له بالخضوع. وبعد أن تسلم عماله أماكنهم، جاء الملك في مساء يوم من الأيام لزيارته، فقتله، ومات التعيس في ريعان شبابه، بعد أربعة أعوام فقط من الحكم.

وهكذا بعد أن غدر الخال بالملك أمر أن ترفع الخيام وتعزف الحربية وتمشي مع أتباعه إلى داخل العاصمة للإعلان عن ملكيته بدون معارضة أحد، ولم يصدق العامة ما رأوه حيث لم يتوقعوا هذه التراجيديا المحزنة. وقد اعتلى الحكم في 24 نوفمبر 1659، ويسمى المولى عبد الكريم أبو بكر، وكان رجلا ذكيا، وذا عقل عملي، رغم أنه كان يتميز

ببعض النقائص التي تسمح له بالحرية السياسية، واستخدام الحجة البربرية في الحكم.

• الأب فراي طوماس دي سانطا ماريا وتحاوره في الطريق مع أسير عاصي :

الأب فراي طوماس من أفضل رجال هذا القرن، ولد في مدينة سيدونيا من أبوين نبيلين غنيين، وتدرب منذ صغر سنه في الهيئة الإكليروسية، فأحب الأسقفية وتدرب عليها في سن مقتدرة، وعاش منعزلا عن العالم في هذه الهيئة. ومات أبواه فورث مالا كبيرا خاف أن يبعده عن الوصول إلى النهاية الحسنة فوزعه بين الفقراء، وزوج اليتامى، وأسعف الأرامل، وقدم صدقات كثيرة إلى الكنائس، ثم طلب لباس الرهبنة من الإقليم، وكان الأب الإقليمي الذي منحه الإذن هو الشهيد فراي خوان دي برادو، فعمل راهبا في دير أركوس الذي كان حارسه الأب فراي مارسيليو دي بلاسينسيا، وكان معلم التلاميذ الأب لورينسو دي سان فرانسسكو مؤلف كتاب "الكنز السماوي" الذي يتحدث فيه عن الغفران وإعانات النفوس. ومن هنا تتبين الأمثلة الفاضلة التي تعلم منها التلميذ.

وقد تضمن تاريخ الإقليم كل الأخبار عن معجزاته وأعماله، وأكتفي بالقول هنا، إن هذا الأب كان يأمل دائما أن يضحي بحياته من أجل شريعته بدون أن يذهب إلى البعثات، وقد شغل أعمالا مختلفة مثل معلم للرهبان الجدد، ومقرر في حراسات كثيرة.

وقد أنهى حراسته لدير قادس وحضر الاجتماع الاستشاري الذي عقده الإقليم في إشبيلية بعد التدنيس الذي شهدته الكنيسة في مراكش، والتعذيب الذي عاناه المبشرون، فتحمس فراي طوماس لشرف الإله وأمه الطاهرة اللذان أهينت صورهما، وتمنى لو كان جلد عوض إخوانه، فترك الاجتماع وقام بسرعة ونزل درجا مظلما وضيقا إلى البستان وعانق الصليب الذي كان في الوسط على قاعدة عالية، ولم ينتبه إليه أحد، فناداه الأب الاقليمي، ونزل في الحين وجثا على ركبتيه يستسمحه.

وهكذا ألح فراي طوماس على طلبه للذهاب إلى البعثات، فقرر السامون إرساله من حيث إن فضائله أهلته لذلك. ومارس في كنيسة مراكش كثيرا من الأعمال، فعلم الأسرى الشريعة المسيحية، وأسعف المرضى، وغسل الكؤوس، وتدبر جميع شؤون أسرهم، بحيث كان الجميع يناديه القديس. وقد مات وهو يأمل هداية هؤلاء المسلمين إلى الدين المسيحي، بحيث كان في كثير من الأحيان يريد أن يخرج للتبشير في الشوارع، إلا أن أوامر الأساقفة كانت تعوقه، وحماسه المتزايد هو الذي دفع الحارس للكتابة إلى الإقليم لاستدعائه.

بعد موت فراي بوينا فينتوراس، وفي السنة الأولى من اعتلاء المولى عباس العرش

ذهب فراي طوماس إلى الإقليم، وبقي في البعثة فقط فراي ألونسو دي خيسوس ماريا ومرافقه فراي فرانسسكو دي لاس ياكاس، فتأثر الأسرى جميعهم بذهابه لأنهم يحبونه. ففي الوقت الذي يراه البعض قديسا، يهرب منه الآخرون لأنهم يرون في فضائله توبيخا لهم كما يستشف من الحادث التالي:

عندما خرج من مراكش مر من أرض مملوءة بالقصب، ووجد هناك أسيرا جريحا نتيجة لحادث مميت، وما أن رآه الجريح حتى بدأ يرتعش مذعورا، فواساه الأب ليسكن خوفه، ولم يتابع سيره لأنه عرف خطورة الأمر، واضطراره إلى البقاء لرعاية روح الجريح وجسده. فجهز له الأكل، وصنع له سريرا من العشب، ثم اهتم بمعالجة روحه، فعاتبه لكي يعرفه، وأقنعه أن الله أشفق عليه بأن أوجد له أسقفا في هذه المملكة الواسعة للكفار.

غير أن الجريح كان صلبا ويائسا، ورفض الاستماع إلى الحقائق الصحية، فألح الأب في إقناعه بالعتاب والتواضع موضحا له أن شفقة الله لانهائية. وبذلك أجابه الجريح أنه مدان لأن أخطاءه لانهائية، وهذا يتبين من خلال أحزانه، وتعذيبات الشيطان المرئية التي يعانيها، وأنه بدأ يحس بعذاب جهنم من الآلام التي تعصف به، لذلك إنه لا يمكن أن يوقف غضب العدالة، وأنه إذا اعترف فلن يقول إلا فضائح، وأنه لن يستطيع أن يبكي من أجل الأم القديسة.

وفي هذا الوضع جثا الأب في الأرض، وأخذ يدي المريض اليائس وقبلهما، وقبل رجليه وبكى كثيرا، ثم شجعه على التشبث بالشفقة الإلهية التي تمحو كل الأخطاء، وأن هذا اليأس الذي يحس به هو بإيعاز من الشيطان ليقطع عليه طريق التوبة، وأن الله جاء به إلى هذا المكان لينقذه، وأنه فقط يجب أن يعترف لكي يسامحه. وعدد له الأب حججا أخرى، وكل ما يقوله الرهبان لقديس عندما يموت، إذ لم يكن يملك علاجا آخر.

قام الأسقف للصلاة؟ مثل موسى؟ ومناجاة الله حول هذه الروح لكي لا تضيع، ملتمسا منه إعانته باسم عذابات الصليب، ولما أتم الصلاة رجع إلى معاتبة المريض الذي لم يستجب له مستمرا في تصلبه. فسعى الأب إلى تأديب آخر أكثر قساوة، وتعرى من ثيابه وجرح جسده، وتفجر منه الدم، وبدأ يبكي بشدة لعل المريض يلين لهذا المنظر والأذى الذي أوجبه تعنته.

ثم صلى الأب ثانية ملحا على الله أن لا يضيع هذه الروح. ولما أنهى مناجاته رجع إلى المريض وطلب منه بجرأة وليونة أن تهدأ مخاوفه وأن يعترف نادما، واعدا إياه أنه سيتحمل المسؤولية لكي يطلب من العدالة الإلهية أن تمحو أخطاءه سواء هنا، أو في العالم الآخر،

أو في المكان الذي يهيئه الإله، وألح عليه أن يعتقد جازما في المغفرة التي أيأسه منها الشيطان. وعند سماع المريض لهذا الكلام تنهد عميقا، وقال متألما إنه ملزم على فعل ما يقوله له الأب رغم أن سبيله للنجاة كان ضئيلا، فأكد له الأب مغفرة أخطائه، ووضع يده في يد المريض شاهدا للإله على هذا الالتزام.

ومنذ تلك اللحظة التي اتفقا فيها على هذه المعاهدة الغريبة غاب الشيطان عن المريض، ولم يعذبه بالرؤى، وتراجع حزنه، واعترف بصفة عامة بكل حياته، وعاش ثلاثة أيام بعد اعترافه تصالح معه خلالها عدة مرات لكي يحثه على التألم لخطاياه بفضل القربان، وبكى كثيرا طيلة هذه الأيام، إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة، فكانت الكلمات الأخيرة التي قالها، شفقتك اللانهائية مباركة. أما الأب فلم يفارق هذا المريض لحظة واحدة ولم يأكل شيئا لأنه كان يقلد يسوعا في هذا العمل، وحتى تتم هداية هذه الروح بواسطة شفقة الله وفضله، وكذلك بفضل صلاة الأب وحنوه وإماتة نفسه. ولن أروي هنا باقي الأعمال الفاضلة التي قام بها فراي طوماس في البعثات، ولكني سأتهم بالإغفال إذا لم أعقب على هذا العمل الشجاع الغريب الذي قام به فراي طوماس بما ثبت عن قبول الله للمعاهدة الطيبة التي عاهد بها المريض، وكما سنروي في الفصل التالي:

- **الامتحانات التي امتحن بها الله فراي طوماس حتى موته السعيد للبرهنة عن رضاه على روح الأسير:**

ليس هناك في الكتابات المقدسة شجاعة أكثر شهرة من شجاعة موسى عندما تعاهد مع الله أن يغفر للشعب الكافر، فاستجاب له الله وغفر لهم. ولو عانى سان باولو كثيرا من العذاب من أجل إنقاذ الخاطئين، لما تحقق له ذلك، ولتحولت محاولته إلى مجرد آمال. وقد شرح هذه الآمال بعض القديسين مثل الدكتور سان أكوستين، والأب سان بوينافينتورا، فقولهما إن من يريد أن ينقذ روحا يجب أن يعاني عذاب جهنم محبا لله، ولا يكون قادرا على سماع الإدانة، ولكن كل هذا الحنو المشتعل يبقى مجرد أمل إذا لم يستجب الله، ولم يسمح بإنقاذ هذه الروح، ولقد تمكن هذان القديسان من تحقيق هذا الإنقاذ، لأن الله قبله. لذلك يمكن القول إن الحادث الذي وقع لفراي طوماس كان متفردا، وليس من شأني أن أقارن بينه وبين هؤلاء القديسان اللذان يتميز كل واحد منهما بفضائله الخاصة التي أفاد بها الكنيسة الكاثوليكية، ولكن يمكن القول أن حادث فراي طوماس متفرد كما أراده الله أن يكون.

عاش فراي طوماس بعد الحادث سنتين عانى خلالهما من المطهر الحسي. وقال لمعرفه أنه منذ اللحظة التي مات فيها الأسير بدأ يحس بآلام وتعذيب المطهر، فعندما كان

يذهب إلى الصلاة ليستمتع بزيارة سيده المحبوب، كان يعاني من بعض التجرد والعزلة، حيث بدا له أن الله قد نساه. وقد ظن أن ذلك تسبب له فيه بعض الذنوب الخطيرة التي ارتكبها مع الله، كما كان يظن أن تلك المعاهدة التي عقدها مع تلك الروح لم تنل رضى الله، رغم أنه بعد ذلك واسى نفسه بالنهاية التي آل إليها، لأنه التمس من الله من قبل أن يمنحه الإحساس بالآلام التي أحس بها الصليب، وقد حصل على هذا الفضل بحيث كانت تشتد عليه الآلام في كل جمعات السنة، وفي الأسابيع المقدسة.

ويتبين أن الله قد سمح للشياطين أن يعذبوه مثل يعقوب، فاستغلت الأرواح التعيسة هذا الإذن للثأر من صبره، واتفقت أن تمنع عنه زيارة الإله، والإيحاء له بكثير من الأوهام المغررة مثل التقدير الكبير الذي اكتسبه بين الرجال بصفته قديسا، أو هداية الأسير بصفته فعلا دالا على توبته وصلاته. ورغم هذه المعاناة الداخلية، فإنه كان راضيا بما حكم به الله عليه، لذلك رأى الشيطان العدو أنه لا يمكن أن يحقق انتصارا في معركته الداخلية.

لقد قضى الأب كل حياته في مواجهة الشيطان، لكن المواجهة في السنتين الأخيرتين كانت أشد عنفا، وكان هذا كان دليلا على رضى العدالة الإلهية على روح الأسير. فقد كان الشياطين يخرجونه في كثير من الأحيان من غرفته ويأتون به إلى بستان الدير فيمرغونه، ويجلدونه ويصارعونه حتى تنهك قواه فلا يستطيع الحراك لعدة أيام. وكانوا يعذبونه عادة في أيام الاحتفالات، ففي أحد راموس كان الأب مع الجماعة يؤدي الأعمال المقدسة، فجاءوا إليه وأخرجوه إلى البستان وعذبوه حتى كاد يختنق. وفي عيد ميلاد المسيح عذبوه بوحشية، ومرض بسبب هذا العذاب، وعانى آلاما شديدة، ولم يتمكن من حضور المقدسات، فطلب من الحارس أن يسلوه بالقداس في قاعة المرضى، حيث كان يسمعه جاثيا على ركبتيه بدون عكاز، وكانت آلامه تتوقف في وقت سماع القداسات مما سبب للجميع إعجابا كبيرا حتى ظنوا أنه مرضه الأخير.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد عذبه الشياطين في هاتين السنتين في طهارته التي حافظ عليها طوال حياته، حيث كانوا يتجسدون في أشكال إنسانية من الجنسين ويمارسون في حضوره حركات المباضعة، بحيث كانوا يريدون ؟كما قال معرفه؟ أن تحترق رؤيته الطاهرة في نار حارة بهذه المظاهر الفاحشة.

وأخيرا فإن هذه التعذيبات الشيطانية التي رواها لمعرفه أبادت قواه، وسقط في السرير كليا منهكا، وصرح الأطباء آنذاك أنه سيموت خلال بضع ساعات، إلا أن الأب بين للحارس أن تكهن الأطباء خاطئ، وقد استطاع تقبل الأسرار المقدسة في تلك الحالة مما

يدل على حياته المضبوطة، رغم أن أكبر عذاب عاناه في هاتين السنتين هو غياب سيده الإلهي عنه. وقد هزل جسده من كثرة العذاب، بحيث كان يؤلمه الثوب إذا مس أصبعه، إلا أنه لم يشك ولم يتنهد طيلة معاناته، حيث كان يبدو ظاهريا أنه لا يشتكي من شيء.

لقد عانى في جميع الجمعات من شدة الألم، إلا أن هذه الشدة زادت في مرضه الأخير حتى استحالت عيشه، وخلال خمسة أيام قبل موته لم ينم ولم يأكل ولم يشرب، وصرح لمعرفه أنه كان يعاني من آلام المطهر في السرير وكأن خطايا الأسير كانت كثيرة، وكان من الممكن أن يذهب إلى الجنة بسرعة، بسبب فضائله الكثيرة، إلا أن الله أراد أن ينهي وجوده في هذا العالم بالخطايا المنتمية إلى غيره.

قال للحارس أنه لا يحتاج إلى رهبان يحمونه، لأنه لن يموت إلا بعد أيام. وجاء ثلاث من أبناء إخوته، وكانوا كلهم أساقفة يعيشون في مدينته، وعندما دخلوا إلى غرفته، جلس في سريره ووجه إليهم خطبة مشجعة حمسهم فيها على فضائل السمو الأسقفي، وكأنه كان في شبابه القوي. وعندما سأل عن سبب قرع الجرس أجابوه أن الاحتفال سيكون في اليوم الموالي في دير مريم القديسة، ثم ودع أبناء أخيه، وطلب أن ينادوا معرفه، فكشف له عن موته في تلك الليلة، ومنذ تلك اللحظة انتهت كل همومه وآلامه وإيحاءات الشيطان، وفي ساعاته الأخيرة كان مشغولا بتأمل سام وممارسة أفعال فاضلة.

وفي السابعة ليلا أمر الممرض أن ينادي الرهبان، فالتمس منهم السماح عن فتوره والتكلف بروحه، وغنى لهم نشيد صلاة، وطلب منهم أن يغنوا له نشيد (بين يديك أيها الإله)، ومات يوم السبت ليلا في 20 نوفمبر سنة 1660 يوم عيد مريم، وكان عمره ثلاثة وستون عاما قضى سبعة وثلاثين منها في الرهبنة، وجاء إلى البعثات مرتين، رغم أنه في المرة الأولى لم يتجاوز مازاكان، وفي الثانية بقي أربع سنوات.

وقد أثر موته في كل العامة، وجاء كثير من المجاورين لرؤية القديس، وكان الرهبان يحرسونهم لكي لا يقوموا ببعض الأعمال الطائشة، حيث كان بعضهم يعلق سبحته على جسده، ومنهم من يقطع قطعة من ثوبه، وبقي الجسد يومين بدون دفن، وظل وجهه مشرقا، وضاربا إلى الحمرة، وظلت كل أعضاء جسده مرنة، وتفوح منها رائحة طرية بحيث أن الذي يمسها بيديه يبقى فيها الشذا لمدة طويلة، ودفن في دير مدينته. ولقد أحبه الجميع لكثرة فضائله، حيث كان بكرا ومعرفا وشهيدا وقديسا وغير ذلك من الفضائل التي اتصف بها يمكن أن يطلع عليها في تاريخ الإقليم، إذ لم أرو إلا القليل، لكي نعرف من ازدهار البعثة المقدسة في المغرب وتنوع نتائجها المعجزة كما رأينا حتى الآن.

• أمر الملك الجديد عبد الكريم بهدم الدير القديم وعقاب الله له بشدة على هذا الفعل :

جاء إلى إسبانيا الأب فراي طوماس، وبقي في البعثات فراي ألونسو دي خيسوس ماريا مع الراهب الخادم فراي فرانسسكو دي لاس ياكاس. وبعد أن اعتلى العرش الملك الجديد المولى عبد الكريم ابن بكر بدأ يهيأ أمور الحكم ويسعى إلى نشر الأمن احتياطا من أتباع الملك الميت. وفي اليوم الرابع من حكمه ذهب الراهبان لتهنئته والتماس الإذن للاستمرار في أرضه، فوافق على بقائهم والمحافظة على الامتيازات التي منحها لهم من قبل الملوك السابقون. وبعد ذلك خرج الملك مع جيشه لإخضاع آسفي التي تمردت عليه. وخلال غيابه انعدم الأمان، وعاش الرهبان خائفين في ظل هذا الوضع، حيث كان المسلمون يأتون إلى الدير، ويسجلون ما في مكاتبهم، ويأخذون ما أرادوا ولا يمكن للرهبان أن يقدموا أية شكوى، لأن المسؤولين كانوا يخفون المجرمين ولا يعاقبونهم مخافة وقوع الاضطراب في العاصمة.

أنهى الملك الحرب ولم يتمكن من إخضاع هذه المنطقة كما كان يتمنى، إلا أنه ترك ثلاثة آلاف فارس يحاصرونها ورجع إلى العاصمة ينشر فيها الأمان في الطرق التي كانت غير آمنة. وكان هناك قائد من أكبر المتملقين إلى الملك والمقربين إليه التمس منه حيازة الكنيسة والدير ليبني في أرضها قلعة ومسكنا بتكاليف قليلة، فوافق الملك على طلبه وأمر الرهبان أن يبحثوا عن بيت آخر ليقطنوا فيه إذا قرروا البقاء في مملكته، واقترح عليهم أن يمنحهم كل الفضل والمساعدة للذهاب إذا تعبوا من الغياب عن وطنهم، ثم أمر بنقل الأسرى إلى مساكن أخرى. فأجابوه شاكرين لطفه، وأنهم يفضلون البقاء في أرضه لأنهم بفضله يحسون كأنهم في وطنهم وديرهم. وقد جاء هذا الأمر في يوم الجمعة من المجمع الديني، فخرج الأسرى والرهبان وظلوا مسجونين، وأخذ القائد المفاتيح مسرورا بحيازة كل هذا المكان.

ذهب هذا القائد إلى الدير مع ابنه الوحيد، ولما دخل الفتى بدأ يستهزئ بكنيستنا قائلا أنه سيقيم فيها اصطبلا للبهائم، ولم تمر ساعتان على هذه الزيارة سقط الفتى ميتا وهو يلعب بمفاتيح الدير دون وقوع حادث ما. فأدركت الأم أن هذا الموت كان عقابا لما قام به زوجها تجاه كنيسة الرهبان، إذ كانت تبكي وتقول للذي يدخل إلى مواساتها إن هؤلاء الرهبان قديسون، وإن سيدها عيسى إلههم ثأر من ابنها، وإن زوجها لم يفكر بحكمة عندما حذرته من هذه الأخطاء، وقد نصحته بإعطاء المفاتيح إلى الرهبان، لأنها لا تريد مزيدا

من الآلام، لكن الزوج خاف من أن يشيع خبر خبثه، فقال إن الألم حرمه من التفكير الصحيح، ودفعه إلى ارتكاب هذه الحماقات.

ولم يتبع هذا الجشع نصيحة زوجته، وواصل الله عقابه له فماتت ابنته بعد بضع ساعات، وبذلك انتهت الزوجة إلى التأكد من قناعتها. إلا أن الزوج لم يقتنع، وفي الليل كان ذاهبا إلى القصبة فتعثر فرسه وسقط على مهماز مزق بطنه، ولما أتوا به إلى منزله، ورأت الزوجة تفاقم الآلام أخذت المفاتيح وأرجعتها إلى الملك قائلة له إنها لا تريدهم في بيتها، وإن كان في ذلك مخالفة لأوامره، إذ لم يبق أحد من عائلتها لم يتلق العقاب الإلهي. ولعل الله لم يشأ أن ينتزع الحياة من هذا القائد في هذا الحادث ليعاني عقوبات أكثر على محاولته الماجنة لإقامة مربط في المكان المخصص لطهارة أمه، إذ وضعه أميره في السجن العمومي مع المجرمين محملا بسلاسل ثقيلة وهو لم يشف بعد. وآنذاك اعترف بخطاياه باكيا، بحيث كان يطلب من مسيحي عبر شباك السجن أن يلتمس من الرهبان أن يسمحوا له، وأن جشعه هو الذي جره إلى هذا الشقاء. ولم يكتف بذلك، بل إنه طلب العفو من أحد الرهبان عندما جاء إلى السجن لزيارة أسير. وقد أظهرت هذه الحوادث للعامة أن القساوسة رجال طيبون ومقدسون، وليسوا كالآخرين. وظلت مفاتيح الكنيسة موضوعة في مكان في قصر الملك لا يستطيع أحد أن يقترب منها لكي لا يجر على نفسه التعاسة.

وهكذا بقي الرهبان عشرة أيام في بيت اليهودي إسحاق بلياشي الذي استضافهم بلباقة رغم عداوته للديانة المسيحية، ولعل صداقة هذا اليهودي مع التجار المسيحيين الذين يستأجرون الميناء هي التي ألزمته بإيوائهم. و في هذا الزمن ارتاب الملك من سعي بعض الثوار إلى اتخاذ الساجنة حصنا لهم للتمرد عليه، لأنها كانت تتضمن بعض الأبراج المجاورة والمهيمنة على القصر الملكي، وكان هذا الملجأ محاطا كله بسور وأبواب، ولكي يتفادى هذا الخطر أمر بهدم البناء كله، إذ كان الرهبان مازالوا في بيت اليهودي، عندما جاءهم أمر الملك في إحدى الليالي بعدم الخروج من المنزل الذي يقيمون فيه، ولم يعرفوا السبب رغم أنهم كانوا مستعدين لطوارئ سيئة.

وفي أحد البعث الانتصاري للمسيح جاء إلى الراهبان باكرا حارسا الملك، وذهبا بهما إلى الكنيسة، وعندما وصلوا وجدوا في الباب كتائب تتكون من مائة رجل مسلح. فقال قائد هذا الجند إلى الراهبان إن الملك يريد أن يهدم الدير، ويأمرهما أن يخرجا التحف وإلا فستدفن في الخراب، وأن ذلك سيتم بعجل. وأطاع الراهبان الأمر، إلا أنهما لم يدركا

إلا أشياء العبادة عندما بدأ هؤلاء الهمجيون بهدم المنزل، ولم يتذكرا الكؤوس المقدسة التي وجدوها مكشوفة في مكان بقرب الدير، إذ ربما أتى بعض المسلمين إلى الدير خلال غيابهما وأرادوا سرقتها -لأنها كانت من فضة- فنسوها هناك. وقد نهب القائد وباقي الجند أغلب ما في الدير، وأخذوا كيسا فيه ستون بيسو كانت كل المال الموجود لدى الراهبان للاستعانة به، لأن الإقليم لم يكن يرسل مساعدات، وأتوا به إلى الملك الذي رده وقال لهم إنه لم يأمرهم بالسرقة ولكن بمساعدة الرهبان لاستبدال منزلهم، ولكن هذا الأمر لم يكن كافيا لمنع كل واحد من فعل ما شاء. وبقي الراهبان المسكينان في الشارع، فرماهما الناس بالحجارة، وبصقوا وصفروا، ودعوا عليهما.

حمل الراهبان ما قدرا عليه على أكتافهما إلى منزل الصديق اليهودي، حتى يبحثا عن مساعدة أخرى، أما الأسرى فقد ألفوا لكل واحد منهم بيتا صغيرا وحرسهم جند الملك، بحيث لم يتمكن الراهبان من إسعافهم. أما المكان الذي عين لإقامة المبشرين، فلم يكن صالحا، لأنه كان مفتوحا وغير آمن من المسلمين، وكان المكان الأقل سلبية هو حي اليهود، إذ رغم مجاورتهم لليهود الخونة، فقد كان مكانا محاطا بالسور ويقفل بالباب ويحرسه حارس مسلم. لكن اليهود الذين يكرهون الكنيسة والأساقفة عندما علموا أن الرهبان يريدون العيش في حي اليهود، تآمروا فيما بينهم لكي يوقفوا مسعاهم، فجمعوا كمية من المال ووزعوها بين القياد الذين يملكون السلطة القوية لكي ينفذوا لهم رغبتهم، ولم يكن على الرهبان إلا الصبر ودعاء الله، حيث قضوا أياما كثيرة في القصر الملكي يقبلون الأيدي القذرة لتحقيق استمرار بقائهم لخدمة الأسرى المساكين.

وهكذا فقد عانى الراهبان في المقر الجديد من المضايقات والمعاملات السيئة، بحيث أهانوهما بالسب الفاحش و هددوهما، وسببوا لهما كثيرا من المتاعب. فاليهود هم أحقر الناس الذين يوجدون في الأرض. وقد صبر الراهبان على كثير من العذاب حتى يأذن لهم الملك بالبقاء، ويحصلوا على منزل جديد. وأحس اليهود بالإهانة والندم عندما صرفوا أموالهم ولم يحققوا مبتغاهم. لكن شرهم وثأرهم لم يقف عند هذا الحد كما سنرى.

هدم الملك الكنيسة القديمة والدير وكل الساجنة، وأخرج الخشب للاستعانة به في أعمال أخرى، وبكى الراهبان في هذا اليوم كثيرا، لأنهما أحسا أن الله أوقف رعايته لهذه الكنيسة التي تكلف المبشرون من أجل الحفاظ عليها كثيرا من المعجزات، وكانت مهد البعثات والجوهرة الأولى التي ملكها المسيحيون في بلاد الكفر، وبيت الأشراف السعيد

الذي آوى كثيرا من الشهداء والآباء، وإن كانت الكنيسة قد استمرت حتى اليوم وشهدت توسيعا أكبر لم تشهده من قبل.

أقام الرهبان في منزل مناسب شكلا من أشكال الدير، وقضوا وقتا هادئا بعيدا عن مراقبة المسلمين، فكان في الأعياد يأتي القليل من الأسرى للنوم في الدير، وفي الصباح يؤدى القداس ويعترفون، وتؤدى خطبة وعظية، ثم يأتي أسرى آخرون خلال النهار، ويقيم الأسقف قداسا آخر، إذ لم يكن ممكنا أن يحضر الجميع قداسا واحدا. وهكذا مرت بعض الأيام دون أن يستطيع الشيطان إعاقة القربان المقدس، ولا الفوائد الروحية لهؤلاء المسيحيين المساكين، إلا أن أصدر الملك أمره بعدم خروج الأسرى من أسوار قصره، لأنهم كانوا يعيشون في المداخل الأولى للقصر. إلا أن الأسقف سعى إلى مواجهة هذا العائق، فكان يذهب في الصباح الباكر ليحتفل بالقداس في منزل أحد الأسرى، وشيد مذبحا متنقلا، ثم بدأ يقيم قداسين ليحضر الجميع، وأدار لهم الأسرار المقدسة، حتى سمح له الملك من بعد بإقامة مصلى محتشم في القصبة الملكية نفسها، حيث كان يحضر الجميع بالإقبال نفسه.

- **جهود مختلفة قامت بها البعثات في هذه الأزمان :**

حدثت في المملكة بعض الفتن والتمردات الشعبية التي انعكست سلبياتها على الرهبان أيضا، لأن الحروب الدائرة في إسبانيا وفي المغرب أعاقت الطرق وطلب النجدة ووصول الرسائل. وقد زاد الأمر سوءا نقل الدير إلى مكان آخر وانقطاع إعانة المسلمين عن الرهبان. فقد أتى إلى الملك سفير البرتغال ليسلمه تهنئة بلاده، والتمس شراء ثلاثة آلاف من الخيل، ورافقت هذه المساعي هدية محتشمة. وبما أنه لم تأت من إسبانيا رسالة ما تلتمس الحفاظ على الدير والرهبان، فقد كان الملك منزعجا من هذا الأمر.

ولعل كل هذا الأمور دفعت الأب فراي ألفونسو إلى إرسال مرافقه فراي فرانسسكو لكي يخبر الإقليم بكل الحيثيات. بحيث لم يكتف الأب بإرسال الرسائل ولكنه أرسل مرافقه باعتباره رجلا مقتدرا لكي يجيب على كل الاعتراضات التي يمكن أن يحتج بها الإقليم للحفاظ على البعثات، مثل الفتن المستمرة التي تحدث في المملكة، وعدم توفير هؤلاء الملوك الأمان للدير، وحاجة الأسرى إلى التوجيه المستمر في المجال الديني ورئيس يدير لهم المقدسات، والمصاريف المستمرة التي تقتضيها تقديم الهدايا إلى الأمراء للحفاظ على الدير وسلبيات أخرى. لكن هذه النفقات كانت تتدبر بفضل الله، وبمساهمة الأسرى

للمحافظة على هذه الكنيسة في قلب بلاد الكفر. وقد التمس الأب - في الرسائل - من الإقليم النظر إلى الموضوع بشفقة وتفكير .كما التمس منه الإذن بالبقاء لدعم هذه البعثات، وأنه في حالة بقائه فإنه يحتاج إلى أسقف آخر مرافق، لأن الوحدة تعذبه.

وهكذا ذهب المرافق إلى الإقليم وسلمهم الرسائل مخبرا إياهم بكل المعطيات، وبقي فراي ألونسو وحده تواسيه التراتيل التي يناجي فيها الله الذي يحضر إليه لتسليته. وقد استمر في مساعدة المسيحيين، وحدث له حادث في أحد الأيام مع أحد رجال الملك، ذلك أنه عندما تغير مكان الدير، وأمر الملك بعدم خروج الأسرى من القصبة، أقاموا مذبحا متنقلا في منزل أحد الأسرى لقول القداس، إلا أن الوضع لم يكن مريحا، فالتمس الأب من أخ الملك ؟ كانت تربطه به علاقة ودية ؟ بناء منزل في ملجأ الأسرى لكي يحضر معهم في بعض الأوقات ويعاقبهم على أخطائهم ويوصيهم بإتمام التزاماتهم. واستجاب الملك للالتماس رغم عدم اهتمامه بأمور الرهبان، لأن الأب قدمه بشكل جيد وباللغة العربية. ومر في أحد الأيام بالقرب من البناء مخصي من رجال الملك المهمين الذين حرضهم اليهود في الحادث السابق، ولما رأى فراي ألونسو يحمل قفة الطوب عامله بخشونة، وهدده بحرقه إذا تابع البناء بالطوب الذي يحمله. وأخبر الراهب أخ الملك بهذا التهديد، فطمأنه هذا الأخير. وفي اليوم نفسه أراد ذلك المخصي أن يسلي نفسه بقتل الذباب، بحيث وضع شيئا من البارود على بعض الآجر بشكل يجذب تلك الحشرات، وعندما بدا له الوقت مناسبا أشعل النار في البارود، فطارت فيه هذه الشعلة وأحرقته جميعه وأساءت إلى وجهه. وهكذا كان عقاب العدالة الإلهية سريعا من الذي أراد أن يهين هذا الأب ويحرقه بالطوب نفسه.

ذهب فراي فرانسيسكو إلى إسبانيا في المناسبة التي عين فيها أب إقليمي جديد، وهو الأب فراي فرانسيسكو ديل روساريو، حيث أخبره بكل المعطيات وبالوحدة التي يعاني منها الأسقف القديس. فعقدوا اجتماعا خاصا حول الموضوع، وقرروا استمرار هذه البعثات من أجل شرف الإله ومجد المذهب والإقليم، رغم أنها تكلف الكثير من أجل الحفاظ عليها. وقد عين في هذا الاجتماع للمرة الثالثة فراي خوليان باستور حارسا رغم كبر سنه، وعينوا مبشرين هما فراي لويس دي سان أكوستان، وفراي فرانسيسكو دي لاس ياكاس للمرة الثانية، وحملهما الأب الإقليمي رسائل إلى الوحيد المسكين يشجعه على المواظبة والصبر على المعاناة. إلا أنه في الوقت الذي قرر الإقليم إرسالهما وصلت رسائل من فراي ألونسو ينصح فيها بعدم إرسال المبشرين بسبب اشتعال المملكة بالحروب، فقد جهز متمردو آسفي كتائب كثيرة من الفرسان وصلوا بها حتى وادي مراكش، وسيطروا على

مداخل مختلفة، بحيث لا يجرؤ أحد أن يعبر الطريق، وإذا جاء المبشرون من هذه النواحي ربما أسروهم. وهكذا بقي فراي ألونسو وحده يعاني من الخوف خمسة أعوام، بحيث رافقه الراهب الخادم فراي فرانسيسكو سنتين فقط.

وبهذه الرسائل توقف عبور المبشرين إلى المغرب. وخلال هذه الفترة قرر الأب الإقليمي إرسال فراي خوليان إلى مدريد لإخبار فيليبي الرابع بهدم الدير، وقد أثر فيه هذا الحادث كثيرا، فأمر بتسليم ألف ومائة وأربعين بيسو للحارس ليكمل ما تبقى من الإثني عشر ليبرة من الذهب التي غرمت من أجل هروب الأسرى الأربعة، لكي تخصص هذه الكمية إلى جانب صدقات أخرى لإعادة بناء الدير في مكان آخر، إذ كان الملك الكاثوليكي هو أداة الحفاظ على هذا الدير وبنائه وإصلاحه ورعايته.

في هذه الحقبة عمت المجاعة في المغرب وتسببت في موت الكثير من الناس، حيث كان يخرج من القصر الملكي في بعض الأيام ثمانية إلى عشرة أجساد ميتة، لأن كل المخازن الملكية خلت من الحبوب. وقد اندهش الكفار آنذاك من عدم موت أحد من المسيحيين رغم أنهم عبيد تعساء ومنهكون بالعمل المتواصل. ولعل ذلك كان مكافأة من الله للأسقف القديس الذي استعد لهذه المناسبة باقتراض بعض المال وشراء الحبوب، وإقامة طاحونة يدوية في الدير، حيث كان يقضي طيلة اليوم في طحن الحبوب بيديه الكريمتين، ويعجن في الليل تلك الكمية، ثم يأتي بالخبز على أكتافه إلى حيث يعمل الأسرى ويوزعها بينهم، ورغم قلة تلك الكمية إلا أنها كانت كافية لمقاومة شدة الجوع وخطر الموت. حيث كان الأسقف يعمل ليلا ونهارا مثل الأم التي تخدم أطفالها بعطف.

وقد واجه الأسقف بعض الافتراءات من بعض المسيحيين الذين اتهموا الرهبان باغتصاب الصدقات وصرفها في الغذاء عوض تقديمها فدية لتخليصهم من الأسر، ولم يكن قد تجرأ أحد من المسيحيين قط على قول ذلك في وجه الأسقف حتى هذه المناسبة. ولعل هذا الحادث وقع بإيعاز من الشيطان الذي أراد أن يعيق هذه الأعمال المقدسة بوسائل مختلفة، فتارة عبر المسلمين واليهود والملحدين، وتارة أخرى عن طريق الكاثوليك أنفسهم. إلا أن الأسقف أراد الثأر من خبث الشيطان بالصبر، ومعاقبة أفعال أولئك المسيحيين الجاحدين بفضائل كثيرة. وقد أراد الله أن تتحسن الأحوال الفاجعة، فانتشر الهدوء والأمن في المملكة، وقرر الإقليم إرسال المبشرين، وعاش فراي خوليان خلال هذه الفترة حياة هادئة.

- **موت الأب فراي خوليان باستور في قادس عندما كان متوجها إلى المغرب، ونبذة مختصرة عن فضائله :**

لعله من الجحود أن نغفل عن ذكر الفضائل البطولية للأب المكرم فراي خوليان باستور، والتي مارسها خلال حضوره في هذه البعثات. وإذا كنت قد أغفلت ذكر ذلك خلال حديثي عن المبشرين الآخرين، فإن ذلك ليس إنكارا للجميل أو الاحترام الذي نكنه لهم، ولكن لأن هذا المبشر يستحق لقب "ناصر" البعثات في الإقليم، ذلك أنه أول من ذهب إلى هذه البعثات بعد الشهيد المجيد، وقضى فيها كثيرا من الوقت، وخدم الكنيسة الكاثوليكية وأفادها بكثير من الفوائد الروحية، وهذه الأمور هي التي تميزه عن الآخرين.

نشأ فراي خوليان في مدينة كانيا فيراس في ألكاريا أسقف كوينكا، وهو ابن شرعي لأبوين شريفين ومتدينين ربوه على تقاليد مقدسة حتى سماه الجميع قديسا، وبما أنه رأى أن ملذات الدنيا ستحول دون حصوله على الجنة، فقد سعى إلى الرهبنة منذ الصغر. ولما مرت عشر سنوات عن انفصال إقليم الأم القديسة عن إقليم سان كابرييل، قبله الأب الإقليمي آنذاك فراي خيمنيس بسرور، بعدما علم بخصاله المثالية، وأذن له بممارسة الرهبنة في دير قادس الذي كان حارسه آنذاك فراي خوان دي برادو الذي ذهب من بعد إلى المغرب. ورغم أن فراي خوليان لم يجد عندئذ حظا لممارسة الرهبنة، فإنه لبس على الأقل تنوراتها الأولى ومارسها عشرين يوما قبل إبحار برادو في 7 نوفمبر 1637.

وبعد هذه الفترة كرس فراي خوليان نفسه لخدمة الله والمذهب وممارسة الفضائل حيث كان لا ينام في الأعياد الدينية، منتظرا دائما مجيء حبيبه في الساعات الأخيرة بحسب تقديره. لقد عاش هذا الأسقف فقيرا وعندما مات في قادس تهافت الكثير على ما تركه ليتخذوه رفاتا. فلم يجدوا ما يوزع عليهم غير بعض النعال القديمة والمرقعة التي قطعوها إلى قطع صغيرة ووزعوها. كما ترك الميت طستا من دمه الذي استخرجه من أجل مساعدة المرضى، فأتى الذين لم يتمكنوا من أخذ قطع النعال بمناديل، وأخذوا بها قطرات الدم. أما ما كان يملكه هذا الأسقف فهي المسوح التي كان يعاقب بها جسده البريء، ولباس الرهبنة الذي لم يزله قط إلا ليغيره بآخر مثله، ولو في المرض الخطير. فعندما عانى من مرض شديد التمس منه معرفه أن يتعرى من ثوبه الخشن الذي يؤذي جسده، فرفض قائلا : إن الحمار يكون أكثر طاعة عندما يضرب كثيرا، لكن معرفه ضغط عليه بسلطته، فأطاعه

في يوم واحد فقط، ثم لبسه ثانية وحزمه بشدة أكثر.

لقد كان زهده صارما جدا، بحيث كان كثير الصيام، وفي جميع مناسبات الصيام لا يأكل إلا خبزا قليلا، ويأكل الطعام في الاحتفالات فقط، وكان لا يأكل اللحم إلا في المرض بأمر من معرفه، وفي الأوقات الجماعية كان يأكل صحنا من الحساء أو العشب. وخلال تسع عشرة سنة قضاها في المغرب لم يأكل إلا بعض الفواكه اليابسة. ومنذ بداية ممارسته للرهبنة لم ينم عند قيامه في صلواته للفجر حتى وإن كان متعبا، حيث يقضي الوقت الذي يفصل عن الصلاة الذهنية في الممارسات الشاقة، كما كان اللباس يصيبه بقروح في جسده. وهكذا فقد سببت له كل هذه المشاق هزالا شديدا أدهش الجميع من سان بيدرو دي ألكانتارا حتى الملك كارلوس الخامس.

وكان هذا البطل المتواضع ذا رأي فاعل، وعندما يؤخذ بمشورته يفترض متواضعا أن رأي غيره هو الصائب. وقد اعترف لكثير من المعرفين بحسب تنوع الأديرة التي عاش فيها، وشهدوا فيه بإجماع بعد موته أنه سواء عندما كان راهبا أو قسيسا لم يخطأ قط. ورغم ذلك فإنه بكى كثيرا عندما تعمد وكأنه أذنب كثيرا. وعندما كان ينفرد بنفسه في غرفته كان يضع حبلا حول عنقه، ويجثو على رجله ويعترف بأخطائه، حيث كان يواظب على كل ما قاساه الصليب لكي يعفو عنه.

كان فراي خوليان محبا للطهارة ويعتبرها الخصلة الأولى للروح، بحيث إن إهمالها يفسد حماية الفضيلة. وهذا العذاب الخارجي مع الآخر هو الذي أكسبه احترام القديس بين المسيحيين، والكفار أيضا، فسماه المسلمون واليهود بدورهم قديسا، لأنهم يميلون طبيعيا إلى الطيب. فعندما جلد عند هروب الأسرى أحس المسلمون بالغرابة ووبخوا بعنف منفذي العقاب لتعذيبهم رجلا فاضلا. فالفضيلة تراها حتى الأعين العمي، وحتى هؤلاء الجلادون تأثروا من بعد، لأنهم اندهشوا عندما عروا جسده النحيل الذي كان مليئا بالمسوح والقروح. وقد سأله الرهبان عن إحساسه عندما بقي وحده في مراكش بدون معرف، فقال لهم إنه عاش في عذاب داخلي وخارجي وهو ينتظر الموت.

كان يتميز بالذكاء منذ صغره، لذلك أصبح عالما بالفلسفة وعلم اللاهوت والوعظ، وشرح الكتابات المقدسة، وكان محبا لقراءة الكتب، وخاصة كتب سان أكوستان، بحيث كان متمكنا منها ومستشهدا بها. وكان يجادل اليهود بكثير من الحجج التي تبين عميهم وتكشف عن قوة الحقيقة. وقد ألف كتابا ضد اليهود، برهن فيه بالحجة الأكيدة على مجيء المسيح

ومعجزات الديانة المسيحية، مستشهدا بعهد الكتاب المقدس، ومبينا بوضوح أخطاء العبريين. وقد اطلعت على هذا الكتاب بخط الكاتب الأصلي، وتحسرت على عدم خروج هذا الكتاب إلى العامة لكي يطلع عليه العلماء، وإنه لمحزن أن تضيع مثل هذه الكتب التي يعاني كتابها من أجل تأليفها، وتموت في آخر المطاف مع موتهم، ولعل قلة الاهتمام والورع هي التي تسبب هذا الضياع.

كان فراي خوليان أيضا حواريا كرس نفسه لإنقاذ الأرواح، فقد بقي في المغرب وحده مرتين يرعى الأسرى بجسده وروحه، وأرسل - مثل سان باولو؟ رسائل وكتبا إلى المسيحيين الذين يعيشون في الأنحاء البعيدة، بحيث لم يكن من الممكن أن يذهب بنفسه إليهم. كما أنه حقق هداية بعض اليهود والملحدين والمرتدين. وكانت له محاورات ورعة مؤثرة مع السيدة مريم، كما كان واعظا مقنعا.

كان هذا الأب يأمل دائما أن يموت مضحيا من أجل الدين والمسيح. واستمر وقتا طويلا في البعثات، وهو فضل لم يرزقه الله لكثير من القديسين، وكان دائم الصلاة والاتصال بالعالم الآخر. ففي يوم عيد الفصح عندما كان يحتفل مع الجماعة، ويغني النشيد، خرج مسرعا وصعد سلم الخشب المكون من سبع مراقي بدون أن يجلس، وذهب إلى غرفته، ولما تبعه الرهبان وفتحوا الباب وجدوا في الداخل أضواء كثيرة أعاقت رؤيتهم، فانسحبوا ودام في هذا الحلم وقتا كثيرا.

وقد اختاره الإقليم مرة أخرى لإرساله إلى البعثات رغم كبر سنه وضعف صحته، ووجود رهبان آخرين ذوو قداسة في هذا الوقت. فقد قضى في الإقليم بعض الأيام، ومات حارس كنيسة مراكش فراي فرانسسكو دي سان بوينا بينتوراس، وبقي ألونسو دي خيسوس ماريا، وكان من المؤكد إرسال مبشرين جدد، فالتمس الشيخ فراي خوليان الذهاب ليهب حياته في سبيل الدين وخدمة العبيد. وقد قررت جمعية النشر إرساله نائبا حواريا لتشريف هذه البعثات. وعندما كان في دير قادس مع مرافقيه ينتظر فرصة العبور داهمه المرض الأخير.

دام مرضه ثلاثة وستون يوما طهره فيها الله بالآلام الشديدة، ولم يتخل عن تقشفه ومشاركته في الأعمال الدينية الجماعية حتى ظن حارس الدير أنه مات، ونادى الأطباء وكثيرا من الديرانيين، فوجدوا المريض قد أتم تكفيراته منهكا، فعرفوا اقتراب موعد موته. وقد طلب الأب من الأسقف أن لا يتعرى من لباسه الفقير ليلبس نسيج القطن، فاستجاب لطلبه.

ثم طلب الزاد الأخير الذي تقبله بدموع غزيرة رغم ضعف قوته، كما تقبل الدهن الشديد، متناوبا مع الجماعة في ترديد التراتيل والصلوات. وقد قال الأطباء أن استمرار حياته في تلك الأيام كان معجزة. وعندما رأى المريض إخوانه منشغلين برعايته أمرهم بالذهاب قائلا لهم أنه لن يموت إلا بعد أيام من المعاناة، وقد تم ما تنبأ به بالتدقيق، حيث عاش اثني وثلاثين يوما منذ قوله ذلك.

في يوم موته اعترف في الصباح وتناول العشاء الرباني. وقد قال معرفه إن الشيطان عذبه داخليا بوحشية في الأيام الثلاثة الأخيرة، إلا أنه قاوم بمساعدة الله، وإنه في اليوم الأخير تجسد له الشيطان مرئيا، وكان يريد أن يخنقه، ولكن السيدة مريم أنقذته ونبهته إلى قرب ساعة موته وشجعته للمبارزة الأخيرة. كما صرح لمعرفه أن مقاومته للشيطان وانتصاره عليه قد أنهكه، وأنه استغاث بصورة الصليب المنقذ في هذا القتال الذهني.

وفي الساعة الأخيرة من حياته التائبة نادى معرفه، وصرح له أنه سيموت والتمس منه استدعاء الجماعة لتغني له صلاة "الكريدو"، وغنى معهم كأنه بعث من جديد، ولما أنهوا النشيد وأبيات (ائت إلينا وزرني أيها الإله الخالق)، التمس من الممرض أن يأتيه بالورق، ورنم صلاة الجنازة وطلب منهم أن يغنوها، وتكفن بنفسه، بحيث غطى بلباسه كل جسده حتى يديه ورجليه، ووضع الحبل في موضعه، والقلنسوة في رأسه، ووضع يديه على صدره، ووضع عينيه في السماء، ولفظ أنفاسه، دون أن يحتضر ويشهق، حتى ظن الرهبان أنه لم يمت. فاعتبروا موته حلما. لقد مات خوليان في الساعة الأولى من الليل يوم الأحد 31 دجنبر 1662. في الثالثة والستين من عمره، حيث قضى أربعة وثلاثين سنة في الرهبنة، وتسع عشر سنة في البعثات التبشيرية، حيث قضى كل هذه السنوات في الصيام والتوبة وتكفيرات أخرى. وقد اشتهرت فضائله، بحيث أثر في جميع أهل المدينة وسموه قديسا، ودفن في الدير نفسه الذي تسلم فيه لباس الرهبنة. لقد دخل فراي خوليان إلى المذهب والدين قديسا، وخرج منهما قديسا إلى الجنة.

- **تعيين حارس جديد، و مواجهة المبشرين لكثير من المخاطر في البحر:**

ليس هناك شيء أكثر تعذيبا من الإحساس بضياع الأمل، فالآمال تعذب إلا أنها تفرح عند تحققها، وإذا خابت فإنها تكون بمثابة القتل المضاعف. لقد وصل إلى المغرب خبر موت الأب فراي خوليان، فكان ذلك مؤثرا في جميع المسيحيين الذين كانوا ينتظرون مجيئه، وفي الأب فراي ألونسو الذي أحبه كثيرا. وبعد موت هذا الأب اختار الإقليم فراي أنطونيو دي لاكروس حارسا لكنيسة مراكش، حيث كان الأب الإقليمي آنذاك هو فراي

بارطولومي دي لوسينا. وهكذا خرج الحارس الجديد من قادس مع مبشرين هما فراي لويس دي سان أكوستان، وفراي فرانسيسكو دي لاس ياكاس في يوم 5 غشت 1663، وقضوا خمسة أيام في البحر، وعندما اقتربوا من أزمور هبت عاصفة قوية منعتهم من الدخول إلى الميناء، وسارت السفينة في مهب الريح طيلة أربعة أيام حتى قرر القائد المجيء في زورق إلى أزمور للبحث عن سفينة تدخلهم، وأتى معه فراي لويس الذي بقي في اليابسة. ورغم خروج سفينة المسلمين لإنقاذ المبحرين، إلا أنها فشلت لأن العاصفة تفاقمت، وسارت السفينة بدون زورق وبقليل من البحارة، حيث فقد الآخرون. وظل فراي لويس ينتظر إثني عشر يوما، فظن كل من في الميناء أنهم غرقوا، وبقي الأب وحده حزينا لا يوجد معه إلا كتاب الصلوات في أرض لا يعرفها وبين أناس بربر غرباء، وبكى كثيرا على أسقفه المقدس ومرافقه فراي فرانسيسكو، إذ افترض أنهما غرقا في البحر. وأشفق قائد الميناء على فراي لويس، ورافقه إلى مراكش، حيث عانى الأب تعبا كبيرا في الطريق، ووصل يوم 18 شتنبر، واستقبله الأب الوحيد فراي ألونسو بفرح كبير.

لقد جاءوا في السفينة بكل المؤونة التي يحتاجونها في الدير والمال لقضاء الديون التي استدانوها، إذ لم يكن قد بقي في الدير حتى قماش النظافة، وكان فراي ألونسو يستعمل قماش الصوف الخشن والمرقع. وواسى الراهبان بعضهما على بؤسهما وتعاسة الراهبان اللذان افترضا أنهما ماتا في البحر.

لم تأخذ السفينة اتجاهها الصحيح بسبب العواصف واتجهت نحو طنجة، بدون أن يعرف البحارة الميناء الذي يتواجدون فيه، وما إذا كان منطقة مسيحية أو مسلمة، لأنهم كانوا يجهلون خريطة هذا البحر، ويضاف إلى هذا لم يكن عندهم زورق للقفز إلى اليابسة. وبعدما رآهم عمال الميناء تائهين، أسعفوهم بقائد وبعض البحارة وجميعهم إنجليز، فرجعوا إلى قادس، ثم قاموا بسفر جديد، ووصلوا إلى المغرب في 23 نوفمبر، فكان وصولهم معجزة، ويشبه انبعاث ميت، لأنه لم يصل عنهم أي خبر حتى دخلوا الميناء، فشكروا الله وأدوا الديون المستحقة عليهم، وأصلحوا بعض احتياجات الدير والأسرى وعاشوا في هدوء.

- **الموت المثالي للقديس سان فرانسسكو دي لاس ياكاس:**

يعتبر سان باولو ميزة الحنو أهم فضيلة في مملكة الفضائل، إذ بدونها لا يمكن أن تكون هذه المملكة قائمة على أساس جيد. وقد توفرت هذه الميزة في القديس فراي فرانسيسكو دي لاس ياكاس، الراهب الخادم الذي خدم البعثات لمدة سنوات كثيرة. وقد

أكسبته فضائله لقب القديس، حيث كان الرهبان الذين يعرفونه ومعرفه الذي علم كل أخباره الداخلية ينادونه القديس، كما ثبت من كثير من الرسائل التي كتبت إلى السامين والتي يخاطب فيها بالقديس، ولا شك أن هذا اللقب لا يكتسبه الرجال إلا بالفضائل.

ولد فراي فرانسسكو في كانييتي دي لاس طوريس، شغل مهمة أسقف قرطبة، وهو ابن شرعي لأبوين محترمين، ربوه دائما على خوف الله. وكان فرانسسكو مجتهدا حيث حصل على كثير من المنافع. وقد دخل إلى دير سان دييكو في إشبيلية في 12 يناير 1641، فأبان عن حماس روحي مشجع للجدد، كما أنه كان مثالا نافعا للكبار. ومارس كل الفضائل، وعاقب جسده بالمسوح الشديدة، وكان يقوم في الليل بأعمال دينية زائدة. وكانت أكثر صيامه بالماء والخبز، ولا يأكل العشب إلا مرغما في الحفلات نتيجة للجهد الجسدي الذي يبذله.

كان دائم الصلاة والتجرد، وكان فقيرا يستعمل لباسا واحدا، وإذا اقتنى آخر يتصدق بالقديم على المساكين. كما كان ذكيا، ولذلك كان يرسله الأساقفة إلى إسبانيا لإنجاز مهام البعثات، لأنه كان يحسن التفاوض. كما أن السامين كانوا يستشيرونه في أمور مختلفة، فيتواضع ويقول إنه مجرد مسكين جاهل. لقد قام خلال البعثات بأعمال فاضلة، وأكد الأب بيدرو دي ألكانتارا أنه خلال الأعوام الثمانية التي رافقه فيها لم يسمح للرهبان الأساقفة بالقيام بالأعمال المتواضعة، كالتشطيب وتنظيف المنزل، معتبرا أن هذه الأعمال الجماعية من اختصاص الخدم وليس الأسياد. ولعل حب الله والتضحية من أجل الدين هما اللذان أتيا به إلى المغرب ليعاني من ذلك العذاب الكبير.

وقد أكسبه حنوه المتفرد لقب أم الفقراء في إفريقيا، لأنه كان أقرب إلى حنان الأم. حيث كان يسعف الأسرى المساكين، ويغسل لهم، وينظف ملابسهم، ويرتب أسرتهم، ويقدم لهم الأكل بيديه، ويواسيهم بالكلمات الطيبة ليقبلوا على الأكل، وإذا اشتهى مسكين شيء لا يوجد في الدير يجلبه له من خارجه. ورغم كثرة المرضى واختلاف رغباتهم، فإنه يعد لكل واحد ما يرغب فيه. وعندما كان يحمل القدور ويذهب بها إلى الأسرى يقولون "هاهي الأم جاءت بفتاتها". وعندما بقي مع فراي ألونسو كانا يعجنان في الليل، ويأتيان بالخبز إلى حيث يعمل الأسرى ويوزعانه. وكانا يعانيان من تصرفات المسلمين السيئة مثل الضرب بالحجر والصفع.

ولم يقتصر سان فرانسيسكو على غسل لباس المرضى والرهبان، إذ كان يغسل أيضا ثياب الأسرى الفقراء ويرقعه، وينازع الرهبان الآخرين في جمع الثياب لترقيعها، لأنه كان

يستهدف بهذا العمل رضى الله، ولذلك فإنه لم يفرق بين الأشخاص الذين يخدمهم. ففي كثير من الأحيان كان يشمل بشفقته المسلمين أيضا، وخاصة الأطفال الأيتام الذين كانوا يأتون إلى الدير باكين، فكان يؤويهم ويجلسهم في مكان على قطع من الحصير، ويصنع لهم قدرا من البقل ويوزعه لهم، ثم يوزع على الذين لا يملكون منهم لباسا بعض التنانير التي يخيطها من الثوب الذي يستعمله البربر عندما لا يكون مقيدا بالتزامات محددة.

وتشكل كل هذه الفضائل تاجا جميل المنظر حتى بين المسلمين العميان الذين لاقى منهم كثيرا من التعذيب، لأنه كان يحسن إلى الجميع دون تمييز بين المؤمن والكافر. لقد كان فراي فرانسيسكو في كل أعماله رجلا حواريا ومنفذا لتعليمات الأب الملائكي، ويكفي هنا أن الأب فراي خوليان باستور اختاره مرافقا ومساعدا له، عندما بقي وحده في مراكش، وذهب باقي الرهبان إلى إسبانيا بعد فرض الغرامة.

لم يمر على مجيئه من إسبانيا في المرة الثانية سنة كاملة، فمرض بسبب العمل المتواصل، وقد عانى آلاما شديدة خاضعا لاختبار الله، واعترف عند قرب موته أنه خلال أربع وعشرين سنة لم يرتكب خطأ ضد الشريعة وأوامرها. وتقبل كل المقدسات ثم مات سعيدا، ودفن في دير الكنيسة. وقد أثر موته في العامة، وخاصة في المساكين الذين بكوه، قائلين أن أمهم ماتت وتركتهم أيتاما في أرض تعيسة، وبكاه المسلمون أيضا لطيبته التي فقدوها. مات في سنة 14 شتنبر سنة 1664 حيث قضى أربعا وعشرين سنة من الرهبنة وثمانية عشر سنة في البعثات.

- **جلد الرهبان وتعذيبهم بعد موت القديس فراي فرانسسكو :**

مسألة الحذر حاجة ضرورية، وخاصة تجاه أولئك الذين يدارون السم لاستفراغه حينما تتهيأ لهم الفرصة. لقد ظل اليهود يدارون غدرهم منذ الحادثة السابقة التي تمكن فيها الرهبان من تأسيس الدير في حيهم، بحيث ظلوا يترصدون الفرصة لتحقيق مكرهم وأملهم في تدمير الدير وإهانة الرهبان. ولقد أبانوا عن هذا الغدر بعد موت القديس فراي فرانسيسكو.

كان هناك مسيحي برتغالي متزوج يملك في بيته بنتا يهودية، ومات المسيحي بعد أيام قليلة من موت فراي فرانسسكو. وفي شهر يناير من السنة الموالية وضعت اليهودية مولودا، فشاع خبر جرمها، خاصة وأنها كانت تعترف بأنها مازالت بنتا. وعرف القضاة اليهود بالخبر، واستدعوها للمحاكمة، فاعترفت أمام كبرائها وبعض المسلمين الشهود

أن أب مولودها مسيحي، وأنه تسبب في هذا الحمل قبل موته بأيام، فسجنوها. وكان من بين هؤلاء القضاة قاضيان عدوان للرهبان وخاصة لفراي فرانسيسكو الذي وبخهم في الحادث السابق، وكانت أمهما مشهورة بالأكاذيب والسحر، وقد دلت الملك على طريقة لكسب المال الكثير من اليهود والمسلمين، فاكتسبت إرادته. وعين ابنيها قاضيين في حي اليهود. وهكذا حرض هذان الاثنان أمهما على إخبار الملك بحادث اليهودية، واتهام الأب الميت لكي يفرض على الرهبان غرامة قاسية، خاصة وأنهم كانوا قد جاءوا حديثا من إسبانيا. ومن ثم أقنعت اليهودية الملك بهذا الافتراء، فأرسل موكبا من الجنود إلى الرهبان، وخيروهم بين دفع غرامة ألف بيسو مقابل ما فعله الأب الميت في تلك المرأة، أو يقتلون جلدا، أو يحرقون أحياء.

ولعل العقاب والعنف والوحشية هي الشكل الأنسب الذي ينفذ به دائما هؤلاء البربر أوامر الملك من أجل مجاملته. وهكذا أتى هذا السرب من الشياطين إلى الدير، وضربوا الباب بعنف، ودخلوا مستشيطين ينادون كبير الرهبان، فخرج الحارس فراي أنطونيو دي لاكروس وأسقفان مرافقان. ولما أخبروهم بالأمر دافع الرهبان عن براءة الميت، وبينوا لهم أن المجرم كان أسيرا عند الملك، وأنهم ليسوا شركاء في جرائم أسراه، وأنهم في الأخير لا يملكون ذلك المال لدفعه، لذلك فهم راضون بأن يفعلوا فيهم ما سمح به الله ما دام لا يوجد في هذه الأرض قانون غير الاستبداد والطمع.

فأجابهم رئيس الجند بوقاحة أن الحادث كان محققا، وأن الحكم صدر عن القاضي المنفذ، لذلك فقد جاء لأخذ الألف بيسو وليس لأخذ التصريحات، أو ينفذ حرقهم. ولم يرغب الرهبان أن يموتوا من أجل المال وتنتهي بسبب ذلك البعثات، فقرروا أن يعطوهم ستمائة بيسو التي كانوا يملكون. لكن فراي ألونسو عندما ذهب لإحضار المال، دخل كاتب الملك مع مرافقين آخرين إلى داخل الدير، وترك الحارس في المدخل مع مسلمين آخرين، ثم بدأوا بسرقة المذابح، وعرف فراي لويس الجسارة غير المحتشمة لهؤلاء، فأخذ صورة ليسوع المسيح كانت في المذبح الأكبر لينقذها من التدنيس، فلطمه كاتب الملك لطمة أسقطته على الأرض، وسال الدم من وجنتيه، ثم رمى كل الصور على الأرض. فأخبر فراي لويس الحارس، ودخل فرأى انتهاك وتدنيس المذابح والصور والمعبد، وتوجه إليهم بحماس ووبخهم بشجاعة واصفا إياهم بالعميان، ومبينا لهم أنه لا ينقصهم البرهان عن نور الدين المسيحي، وعقاب الله القاسي على تدنيس وسرقة المذابح التي يهدى فيها القربان

الجميل إلى الله، والتجرؤ على المعبد الحقيقي الذي يعبد فيه الله بدون خلط للطقوس المدنسة، لأن أمثلة هذا العقاب الذي نفذ في أسلافهم كثيرة، ومكتوب في تواريخهم، ولكنهم مخدوعون لأن الشيطان أعماهم بشريعتهم الخاطئة التي تؤدي بهم إلى جهنم، ومحمد الذي يسمونه رسولا. ثم أمرهم بالتوبة والخوف من العقاب الإلهي على تدنيسهم لمعبد المسيح الإله الحقيقي وأمه الطاهرة.

وعلى غرار هذا المثال المسيحي للأسقف المقدس، رفع فراي لويس صوته يعظ بالشريعة المسيحية محتقرا محمدا ومدافعا عن الصور المقدسة. وهكذا عندما سمع هؤلاء البربر إيذاء رسولهم ضربوا الرهبان بعنف، وحاولوا قلع ألسنتهم المباركة، وشوهوا وجوههم وجروهم إلى خارج الكنيسة، وربطوا أيديهم مع أرجلهم في صحن الدير، وجلدوهم بشدة ثأرا لرسولهم. ولم يعرف فراي ألونسو ماذا يجري في الخارج، رغم أنه سمع أصواتا مبلبلة، وتنبأ بوقوع شيء، فخبأ الكؤوس المقدسة وخرج إلى الفناء، ولما رأوه كبلوه ولم يجلدوه، لأنه لم يتكلم بسوء عن محمد، فانجر على ظهر الحارس والتمس منهم أن لا يقتلوه لأنه بريء ولم يقل إلا الحقيقة، وأن يعاقبوه بدلا منه.

لقد أصاب فراي ألونسو بعض الجلد، لكن ارتماءه على ظهر الحارس أدهش الجلادين فتوقفوا، وذهبوا للبحث عن الحطب لحرقهم أحياء. ولم يتجرأ كاتب الملك على تنفيذ هذا العقاب، فترك كتيبة من الجند مع الرهبان، ثم ذهب إلى الملك وأخبره بما حدث، فانزعج لأنه لم يكن ينوي قتلهم، وأمر أن يضعوا الحارس بصفته المسؤول على إهانة شريعته مع بعض المجرمين المسجونين في برج لا إنساني، حيث سجن الشهداء الخمسة لمذهبنا، والأبوان فراي ماتياس دي سان فرانسسكو، وفراي كينس دي أوكانيا، وأثقلوه بالسلاسل حيث عانى آلاما كثيرة في مرافقة اللصوص. ثم وضع الراهبان الآخران كل واحد على حدة في بيوت اليهود مع حراستهما، وأخذوا مفاتيح الدير، وسلبوا منه ما أرادوا، وما لم يعجبهم قطعوه وكسروه.

فرح الرهبان بسجنهم حيث كانوا يطلبون من الله باستمرار أن يرزقهم فضل الموت في سبيل هذا الحادث الذي تحول إلى قضية مجيدة. ولقد ذهب إلى زيارة الأسقف بعض الأسرى المساكين الذين كانوا يدفعون بعض المال للسماح لهم برؤيته. وكان الأسقف يرسل من سجنه إلى القديسين نصائح تشجعهما على القتال السعيد. لقد أحس المسلمون والمسيحيون وبعض اليهود ببراءة الرهبان، والميت القديس الذي أحبوه وعرفوا سيرة

حياته، لذلك شاع بينهم أن الملك سيلقى نهاية سيئة نتيجة لأمره غير العادل، وبدأ الناس يعارضونه، وصاحت اليهودية في سجنها بالدفاع عن براءة الرهبان، وأقسمت على مسؤوليتها عن خطئها، فأقلق ذلك الملك، وقرر النظر في الموضوع ثانية.

ومن ثم عقد الملك اجتماعا خاصا مع علمائه، حيث حضر القاضي والمفتي والفقهاء الكبار، و أمر كاتبه أن يقدم شهادته، فلم يتناول كل الحادثة، وروى فقط الشتائم التي أساء بها الأسقف إلى محمد. وهكذا تداولوا فيما بينهم الحادث، وصوتوا جميعهم على الحكم الذي يقضي بإحراقهم أحياء، إلا اثنان منهم. ولعل هذا الحكم يوازي حكم المولى الغالي ضد الشهيد خوان دي برادو، بسبب تبشيره بشريعة المسيحيين رغم ما حصل عليه من امتيازات. ولم يصوت الشيخان المسلمان ذوا الرأي الحكيم، لأنهما عرفا براءة الميت والرهبان الذين استفزهم الكاتب، ولما سألهما الملك عن رأيهما: أجاباه أن الحادث الأول لم يكن فيه شهود على الجرم المفترض إلا اليهودية التي صرحت بقولها تحت ضغط المحاكمة أن الأسير هو السبب في هذا الفحش، وليس الراهب الميت، وأنه ليس هناك قانون يحمل الشخص ظلم الآخر، وأنهما مقتنعان بما أقسمت به اليهودية لأنهما يعرفان سيرة الميت الطاهرة، وأن الرهبان يتميزون من بين جميع المسيحيين بكونهم رجالا طيبين، وقد ثبت ذلك من خلال أعمالهم مع المسلمين في أيام المحنة.

ويضاف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان لا يتهمون، لأن القانون يمنحهم أمانا ملكيا في هذه العاصمة. وقد سمح لهم الملوك بحيازة كنيسة يحتفلون فيها بشعائرهم مع باقي المسيحيين. ولذلك فليس هناك حجة على توبيخهم على ما سمح لهم به. وبما أن الكاتب ومساعدوه هم الذين استفزوهم بسرقة صوامعهم وإهانة مقدساتهم، فقد كان من الطبيعي أن يدافعوا عن أنفسهم، وذلك يعد من قبيل التزاماتهم تجاه دينهم. وفي النهاية وجب على الملك أن يرد إليهم ديرهم ويطلق سراحهم، ويعاملهم معاملة حسنة، ولا يضايقهم لأنهم نافعون للبلد أكثر من التجار بالنظر إلى معاملتهم الحسنة لجميع الناس. وإذا كان الملك السابق المولى الغالي حكم على الراهب بالموت، فقد عاقبه الله بموت مشؤوم، وشمل عقابه كل المدينة. وأن الملك إذا كان عازما على تنفيذ قراره فإنهما لا يوافقان عليه وسينسحبان من مجلسه.

وذعر الملك من رأي الشيخان ولكنه اقتنع به، فأمر بإخراج الرهبان من السجن وإرجاعهم إلى ديرهم لممارسة شعائرهم الإكليروسية مع المسيحيين، كما أمر برد كل ما

أخذ من الدير رغم أن كل شيء كان قد ضاع. وقد ردت إليهم على الأقل ستمائة بيسو، وثبتت براءتهم في هذه المحكمة. وبهذا ارتبك اليهود المعارضون، وعاقبهم بعض المسلمين على جرمهم، وفرح الجزء الكبير من العامة على قرار الملك الحكيم في هذا الموضوع. أما الرهبان فقد حزنوا، لأنهم كانوا يأملون الموت من أجل هذه القضية، ولكنهم خضعوا لإرادة الله، واعتبروا أن اقترافهم لذنوب ما هو ما أعاق استشهادهم.

وقد استطاع الرهبان أن يحققوا بعض النتائج الروحية، وذلك بتبشير البعض بالعقيدة المسيحية، والمحافظة عليها عند آخرين. وقد أمر الملك أن يكون الطفل الذي ولد من الأسير عبدا مثل أبيه، ولذلك أرجع إلى الدير لكي يعمدوه ويربوه تربية مسيحية مثل باقي الأسرى. أما اليهودية التي عرفت مكر قومها فقد طلبت التعميد المقدس، وأخبروا الملك بالتماسها، فأذن لها أن تعتنق المسيحية، وعلمها الرهبان أصول الدين، وبعد أيام من تعميدها ماتت. وكانت نتيجة هذا الحادث بالنسبة إلى الرهبان مفرحة، أما اليهود فقد تجرعوها بمرارة.

- **موت الأب فراي أنطونيو دي لاكروس نتيجة للجلد:**

كلما كانت السفينة خفيفة الثقل، كانت أقدر على السير في اتجاهها وآمنة من الغرق. ولا يهم في السفينة الدينية أن تكون مثقلة بالفضائل العالية إذا لم تكن مؤمنة بفضيلة التواضع. لقد تميز الأب فراي أنطونيو دي لاكروس بكثير من الفضائل، إلا أنه اعترف أن الوصول إلى درجات التقدير والاحترام لا يكون إلا باعتماد فضيلة التواضع الكبير باعتبارها أحسن الفضائل.

نشأ الأب في مدينة إشبيلية، وهو ابن لأبوين نبيلين ينتميان لدون أنطونيو دي سيكورا والملقب بسيلفا، حيث خول له هذا الدم الشريف إيجابيات كثيرة. وقد قرر التخلص من غناه بالتنازل عن كل إرثه، والجري نحو الصليب عاريا بدون عوائق، فتسلم اللباس من مذهب الصغار، ومارس الرهبنة في 10 مايو 1633، وأنهى مدة تدريبه بتقديم مفهوم جيد ومثالي عن فضيلة التضامن.

لقد اكتسب جميع الفضائل في وقت قصير، وكان مواظبا على التأمل، ولم يتغيب قط عن الساعات الثلاثة للجماعة. وكان محافظا على صلاة الفجر، ويقضي باقي الوقت حتى النهار في الأعمال المقدسة. وقد كان حريصا على قضاء هذه الأعمال بتواتر مضبوط، فإذا أدركه الوقت في الحفل سجد في الأرض وعبد الألوهية المقدسة وبشرية يسوع، أما

في المناسبات فإنه يقوم بصلاة متواصلة.

لقد عاقب جسده كثيرا بالعذاب الدموي والمسوح الشديدة، فكان لا يريح جسده ليخضعه لعبودية الروح. وكان يتميز بميزة مهمة وهي التواضع التي شهد له بها كل الرهبان الذين كانوا يعرفون خصاله، إذ كان يعتبر نفسه دائما سيئا رغم أعماله الفاضلة. كما كان يعتبر أن أصله النبيل لا يمكن أن يرفعه إلى درجة التقدير الذي يسعى إليه، لأن النبل يمكن أن يخول له الاحترام في الدنيا ولا يميز بين رفات الأموات في القبر.

ونتيجة لهاته الخصال والمنافع الروحية التي يتميز بها فقد عينه السامون أسقفا، من حيث إن هذه الوظيفة تقتضي من صاحبها أن يكون مطيعا وأن يقدم تنازلات كثيرة، لأن عمل الأسقف هو موت مستمر. وهكذا كان فراي أنطونيو في حراساته سباقا إلى كل الممارسات التي تجسد سمة التواضع، حيث تحمل العمل الجسدي الشاق مثل حمل التراب والآجر على كتفيه، ونخل الكلس أو تكويم الردم في الليل، وعندما كان الجميع يستريح في القيلولة يقوم هو بتنظيف البناء من الأوساخ بنفسه، وإذا قال له عمال البناء أن لا يقوم بهذا العمل، يجيبهم بأنه خلق لكي يكون عاملا في مثل هذه الأعمال.

كان دائما يستصغر نفسه ويقول إنه نشأ للقيام بالأعمال المتواضعة، ورغم ذلك فقد كان يلتمس من الجميع الدعاء له أن يشفق الله عليه وينجيه من جهنم. وعندما كان في البعثات أسعف كثيرا من المرضى المساكين، فهيأ أسرتهم، وقدم لهم الأكل والدواء بيديه، وغسل الكؤوس الوسخة. كما كان واعظا مقنعا ومؤثرا، ولذلك كان الأسرى يحترمونه ويبكون عليه عندما يرجع إلى إسبانيا.

كان هذا الأب يأمل دائما هداية الكفار الذين عاش بينهم والموت من أجل الشريعة المسيحية مثلما مات المسيح في الصليب، وقد حقق له بعضا من هذا الأمل عندما ذهب للمرة الأولى إلى البعثات سنة 1646 مع الأب فراي فرانسسكو سفير فيليبي الرابع، حيث أصابه ألم التعذيب، عندما جلد من أجل غرامة الإثني عشر ليبرة من الذهب. وعندما أتى إلى الإقليم مع الحارس فراي بيدرو ومات فراي خوليان، عين حارسا لكنيسة مراكش ونائبا حواريا بأمر من الكرسي الحواري. ورغم تنازل الأب عن هذه المسؤولية، إلا أنهم ألزموه بها، فغدا بذلك متواضعا في التنازل ومتواضعا في القبول. وهكذا سافر إلى المغرب أسقفا في سنة 1663.

وعندما كان حارسا اختلق اليهود ذلك الافتراء الذي أقلق هدوء فراي فرانسسكو في

قبره. وقد استهدف المسلمون فراي أنطونيو بعقابهم، لأنه دافع عن تدنيس الكنيسة وبين لهم أخطاء القرآن، فجلد مع باقي الرهبان وسجنوا جميعهم. ورغم أن الله أعاق بحكمته تنفيذ حكم الحرق فيهم إلا أن الأطباء والرهبان شهدوا أن الجلد والتعذيب هما اللذان سببا لفراي أنطونيو الموت، بحيث أصيب منذ ذلك اليوم بالحمى التي ظلت تتفاقم حتى فارق الحياة. كما أن هذا الجلد في جسده النحيل سبب له قروحا متعددة تألم منها وأنهكت قواه. ولم تعقه هذه الآلام عن القيام بالأعمال الجماعية.

وعندما تنبأ الأطباء بموته القريب تلقى ذلك بفرح لأنه سيتمكن من اللقاء والاستمتاع بمحبوبه. لكن عاملان كانا يتصارعان في نفسه وهما، الخوف من عقاب جهنم، والأمل الكبير في الشفقة الإلهية. وقد تقبل الزاد الأخير باكيا بشدة وطريحا على الأرض العارية. وطلب الدهن الشديد من فراي ألونسو الذي كان أيضا حارسا للدير، والذي تسلم هذا التكليف المتميز من الرئيس الإقليمي الجديد الأب فراي ألونسو دي فلوريس، فكان فراي ألونسو دي خيسوس ماريا أسقفا للدير، وفراي أنطونيو أسقفا للبعثات. وعندما اقترب أجله فوض النيابة الحوارية بدعم من الكرسي الروماني إلى فراي ألونسو لكي لا تبقى البعثات بدون أسقف.

وقد حاول الحارس أن يؤجل منحه الدهن الشديد لبعض الأيام، إلا أنه رفض مفضلا أن يتقبله وهو في وعيه الطبيعي ويمتلك القدرة على أداء الشكر لله، وترديد التراتيل والصلوات مع الرهبان. وبعد أن أنهى هذا العمل، فقد استعمل لسانه وقضى اليوم كله صابرا ومتواضعا في محاورة يسوع. وقد حافظ هذا الرجل طوال حياته على الطهارة، وخلال مرضه كان يقوم بإشارات وكأنه يرمي عنه ثقلا ما حتى تعب وسال عرقه.

وعندما فشل الشيطان في الانتصار عليه رجع إلى قتاله من جديد، فتنهد فراي أنطونيو بعد هذا القتال بعمق وهدأ حتى لفظ أنفاسه بليونة. واطمأن الجميع أنه سيفوز بالجزاء الحسن، ودفن في كنيسة الدير، إذ كانوا مازالوا في حي اليهود الذي يقع خارج أسوار المدينة، لذلك لم يكن هناك مانع من الدفن في الكنيسة. مات في شتنبر 1666، وقضى في الرهبنة ثمانية وعشرين سنة، وفي البعثات عشرة أعوام. وكان دائما يأمل هداية الأرواح إلى الديانة الكاثوليكية والموت في سبيل هذه الغاية، وقد حقق الله له هذا الأمل، فاعترف بسببه كثير من المرتدين بأخطائهم، واهتدى بعض اليهود، وأنهى حياته بهداية هولندي مارق نصير لمذهب كلفينوس البروتستانتي.

ليس قصدي أن أقدس الشهداء الذين لم يصرح بهم الكرسي الحواري المقدس، ولكن يمكن القول إن الجلد والتعذيب الذي عاناه فراي أنطونيو بسبب الدفاع عن الكنيسة والصور المقدسة والوعظ بحقائق الدين هي التي سببت له الموت، ولذلك يمكن أن نسميه شهيدا. ويقاس على هذا أن سان مارسيليو حينما مات بسبب التعذيب الذي لاقاه في السجن الذي وضعه فيه الملك، لقبته الكنيسة شهيدا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى سان خوان بابا الذي مات في السجن بأمر من الملك تيودوريكو، وسان سيلفيريو الذي مات منفيا في جزيرة بأمر تيودورا أكوستا. ومات سان بونسيانو في جزيرة سردينيا بأمر من الملك أليخاندرو. وكل هؤلاء وآخرون الذين ماتوا مضطهدين ومجلودين أو منفيين لقبتهم الكنيسة بالقديسين والشهداء إنصافا لهم، إذ يكفي ما عانوه من اضطهادات سببت لهم الموت من أجل الهدف النبيل، لكي يوضع لهم دثار الشهداء الأحمر. ومع ذلك يمكن القول إن فراي أنطونيو هو فقط إنسان وواعظ تقي، فكثير من الناس يمكن أن يخول لهم حماسهم الكاثوليكي نهاية نبيلة.

- **فدية فراي ألونسو لأربعة فتيات مسيحيات بفضل يسوع ماريا :**

الاقتناع بالبراءة لا يتم أحيانا إلا بعد الفتنة والعذاب. فبعد معاناة الرهبان القديسين من البهتان السابق، ودفاع العامة عنهم اقتنع الملك بخطإ اعتدائه الطائش، وبدأ يغير معاملته الخشنة تجاه الرهبان، وعاشوا في هدوء رغم بعض الديون المرهونة عليهم بسبب التخريب الذي لاقوه والغرامات التي أدوها. وجاء من إسبانيا قبل موت الأب فراي أنطونيو بأيام قليلة الراهب الخادم أندريس دي لاكونسبسيون للمساعدة في هذه البعثات المقدسة، وتعويض فراي فرانسيسكو. إلا أنه لم يمكث في المغرب إلا ثلاث سنوات بسبب ضعف صحته، ثم رجع إلى الإقليم، فأرسلوا الإذن لفراي ألونسو ليكون حارسا للدير لسد الفراغ.

كان في هذا الوقت في مراكش أربع فتيات مسيحيات أسيرات، وجميعهن أخوات من أب وأم تزوجا في هذا الأسر. كانت كبراهن تبلغ اثني عشر سنة، والأخرى عشر سنوات ونصف، والثالثة تسع سنوات، والصغرى ست سنوات. وكان وجود هؤلاء الفتيات في هذا الوضع يقلق الرهبان والأبوان لأنهم كانوا يخافون أن يرغمهن الملك على الارتداد، ويتخذهن زوجات له. وهكذا قرر الرهبان أن يربوهن سرا، ويلقنوهن حقائق الدين المسيحي النافعة، لإعدادهن للطوارئ التي يمكن أن يواجهنها. وكان يعلمهن الأب فراي ألونسو، لأنه هو الذي رباهن منذ ولدن، وأحبهن بتواضعه، وبكى دائما للخطر الذي كان يتهددهن.

لكن الملك علم بالخبر؟ ولا شك؟ من قبل بعض المرتدين المتملقين له، فطمع أن يحصل على هؤلاء الفتيات، وأمر أن يحضروهن إلى القصر لكي يربيهن على ضلالاته، إلا أن الله أراد أن يحرر هؤلاء البريئات، فمرضن في وقت واحد مرضا خطيرا، ولم يتجرأ خدم الملك أن يأتوا بهن، وعندما أخبروه بدا له أنه في مقدور أبويهن أن يرجعا لهن صحتهن، وظل يرسل في مناسبات أخرى لإحضارهن، وفي كل مناسبة يقدر الله حادثا خاصا، كما أن المرض ذهب بجمالهن.

ماتت الأم وهي تعلم الخطر الذي يهدد بناتها، أما الأب فكان يذهب إلى العمل، وتبقى الصغيرات وحدهن، فازداد خوف الرهبان عليهن، لأن الملك إذا علم بهذا الوضع سيحضرهن إلى القصر ويعالجهن، ومن ثم يصبح مستحيلا إصلاح الأمر، ولذلك حاولوا اكتشاف طريقة لإطلاق سراحهن.

وفي هذا الوقت أتى إلى مراكش فراي أندريس لخدمة البعثات، وعندما أخبروه بالحادث قال إنه التقى في إشبيلية عند مجيئه بفارس نبيل وعده بتقديم المال لفدية الأسرى الذين يوجدون في خطر روحي في بلاد الكفر، وذلك في سبيل خدمة الله. وبهذا كتب فراي ألونسو إلى هذا الفارس يلتمس منه أن يسعفهم بهبة ثلاثة آلاف بيسو لمحاولة إطلاق سراح الفتيات، آملين في شفقة الله أن يتم المحاولة، فأجاب في الحال دون نيكولاس بوكاريلي أن الفارس الإشبيلي في قادس، ومستعد لدفع هذه الكمية وإن كانت تحتاج إلى كثير من التحويلات.

وهكذا اطمأن الحارس بهذا الجواب ثم ذهب إلى أخ الملك يلتمس منه أن يتدخل لدى الملك لكي يأذن له بالذهاب إلى بلده، لأنه حن إلى رؤية إخوانه إذ ظل أربعة عشر سنة في المغرب ولم يغادره قط. كما التمس منه افتداء الفتيات الأربعة الأسيرات بالمال، وافترض أنه يريد أن يذهب بهن لأنهن مريضات وعلى وشك الموت، واعدا إياه بالاعتراف بالفضل.

سمع الأمير البربري هذا الالتماس برضى، وتقدم به إلى أخيه الملك الذي وافق عليه بدوره رغم تردده في البداية، وأمر بمناداة الحارس وقال له إنه لا يأذن له بالذهاب إلى بلده إلا إذا وعده بالرجوع، لأنه لا يريد أن يحرم منه، وإن طلبه للأسيرات الأربعة هو أمر جد مستحيل، لكنه من أجل أن يعرف الإسبان معاملة الملك الحسنة للرهبان فإنه يعطيه إياهن ليذهب بهن متى شاء. وموازاة مع هذا التمس الملك من الراهب أن يأتي له ببعض النسيج الرقيق، مع إعطائه فقط ثلاثمائة إلى أربعمائة بيسو. فتوسط أخ الملك ليرفع المبلغ إلى

ألف بيسو، وقبل الراهب طلبه وشكر هبته آملا في الله أن تلين القلوب الكاثوليكية وتدبر له الكمية التي تنقصه، لأن كل شيء يتم بالرعاية الإلهية.

أطلق الملك سراح الفتيات الأربعة وسعى بعض القياد إلى نصحه بأن لا يسمح بذهابهن، على اعتبار أنهن نشأن في هذه الأرض ليكن مسلمات، وأنه سيغضب رسوله إذا أرسلهن إلى أرض يضعن فيها، وأنه كان يجب أن يطلب في فديتهن مبالغ كبيرة، لأن المسيحيين يقدرون الفتيات كثيرا. فغضب الملك من فتواهم، وعلل موقفه بأن عظمته تحتم عليه أن يهب الكثير الذي لا يستطيع أحد من العامة فعله، كما أنه قام بهذا الفعل إرضاء للراهب، ولكي يعرفوا في إسبانيا أن هناك في المغرب ملوكا ليسوا في مقام عامة المسلمين، ولذلك فقد أعطاهم ما يقدرون ليشكروا ذلك، وأن المكافأة التي أشار بها على الراهب لم تكن للتعويض، ولكن اعترافا بالفعل الجميل، وبذلك أسكت هؤلاء القياد وأربكهم.

وهكذا بعد الحصول على الإذن، سعى الحارس إلى إخراج الفتيات وتأمينهن في إحدى المعاقل المسيحية خوفا من أن يغير الملك فتواه، فذهب بهن إلى مازاكان واتفق مع قائد سفينة في أزمور أن يبحر بهم من مازاكان إلى قادس، ورافق الأسقف الفتيات ودخل بهن إلى الكنيسة، حيث سمعن قرع الأجراس الذي كان غريبا بالنسبة إليهن. وبعد أن أدوا الشكر لله شفيت الفتيات من المرض بمعجزة.

وهكذا خرجوا من مازاكان في 19 يناير سنة 1668، وكان البحر هائجا حيث لم يتوقف الجو السيئ طوال يومين ونصف، وفقد البحارة أملهم عندما بدأت السفينة بالغرق. إلا أن الحارس ظل يواسي الفتيات ويلتمس الوصول السليم للمركب. ثم خرج على ظهر المركب مع الطفلة الصغرى، وأمر الجميع بالهدوء والاطمئنان، لأن الله الذي أنقذ تلك الفتيات البريئات بكثير من المعجزات لا يمكن أن يغرقهن في البحر، وهكذا حمسهن للبكاء لكي تهدأ مياه البحار. فذهبت الطفلة إلى سرير مؤخرة السفينة وقامت بنفسها بالأعمال المقدسة، وخلال زمن قصير صفا الجو وهدأ البحر، وشكروا الله جميعهم على ذلك الفضل. ومساء ذلك اليوم تبعتهم سفينتان تركيتان، فخافوا من الخطر الجديد وشجعهم الأب فراي ألونسو، وغنى مع الطفلات تراتيل السيدة مريم، واقتربت السفينتان منهم وشاهدوهما على ضوء القمر، لكنهما اختفتا فجأة.

وصلوا إلى قادس يوم 14 فبراير، واستقبلهم أهل هذه المدينة بفرح كبير. وأعلم الحارس من بعد نيكولاس بوسكاريلي بمجيئهم، وبكل ملابسات السفر، وأنه افتدى

الرهينات بألف بيسو، ومن ثم فإنه ينقصه ستمائة بيسو. فوعد الفارس النبيل الأب بدفع كل المال لكي يكون صاحب الفضل عند الله. ثم ذهب الحارس بالفتيات إلى أسقف قادس دون فراي ألونسو فاسكيز دي طوليدو (من مذهب سان فرانسيسكو)، وسلموا عليه. فتعهد هذا الأسقف أن يضعهن في الأديرة ليكن طاهرات، حيث جعل اثنان راهبتان في دير سانطا ماريا في قادس، والاثنان الأخريين في دير شيكلانا. وبذلك نال الثلاثة، الأسقف وفراي ألونسو والفارس النبيل فضل الله وساهموا في الحفاظ على البعثات المقدسة.

- **التغييرات التي طرأت على الحكم في مملكة المغرب وبعض الاهتداءات التي حصلت في هذا الزمن :**

حكم المولى عبد الكريم تسعة أعوام تميزت بعدم الاستقرار وكثرة الثورات الشعبية، وانتهت بموته على يد حارسه الخصوصي الذي قتله برمح ثم قطعوه إلى قطع. واعتلى العرش من بعده ابنه المولى بكر الذي حكم فقط شهرين، لأن رجال الدولة الرئيسين لم يرضوا عنه لاستيائهم من أعمال أبيه. وفي هذه الحقبة انقسم المغرب إلى مملكتين، حيث قام المولى رشيد ليعلن نفسه ملك مملكة فاس، فخضعت لحكمه كل تلك الأقاليم بصفته أمير تافيلالت. وبعد موت المولى عبد الكريم أرسل القياد نوابهم إلى فاس يستحثون المولى رشيد ليأتي بجيشه ويستولي على العرش باعتباره الوريث الشرعي الشريف المنحدر مباشرة من البيت الملكي لهذه المملكة.

وهكذا جهز ملك فاس جيشا، وذهب به إلى مراكش، واستطاع بسهولة الانتصار على الملك الجديد، وبايعه الناس ملكا شرعيا للبلاد في شهر غشت سنة 1668. وسجن المولى بكر ومناصروه، وعاقبه المولى رشيد بنحره على مرأى من العامة، ثم أمر بإخراج جثة المولى عبد الكريم من القبر وإحراقها لكي يكون المشهد عبرة للأجيال اللاحقة، وثأرا منه لخيانته وقتله الملك الشرعي. ولعل هذا العقاب يمكن أن يكون جزاء من الله له على أمره بحرق الرهبان بإيعاز من اليهودية الساحرة.

وعندما تسلم المولى رشيد الحكم أخبره الرجال الرئيسون بخبر اليهودية الشريرة التي أهانت حياء البنات الشريفات المنحدرات من البيت الملكي تملقا للملك المتوفى، كما أخبروه بعجرفة ابنيها اللذان أهانا الكثير من الناس بكفالة الملك أيضا. فأمر باعتقالهم مع حاخام معبدهم، وجرهم عبر الشوارع حتى إيصالهم إلى النار المعدة لإحراقهم. وهكذا أحرقوا الجدة والأبناء وزوجاتهم والأحفاد، وكانوا جميعهم أربعة عشر شخصا.

ذهب الأب فراي لويس لأداء الواجبات التشريفية للملك، فاستقبله بلطف ووعده بالحماية الملكية. وفي هذا الوقت كان فراي ألونسو قد أتى بهدية الشكر على إطلاق سراح الفتيات الأربعة، وعندما وجد هذا التغيير الطارئ استعان بهذا الدين ليقدمه هدية إلى الملك الجديد. وعند وصوله إلى الميناء أرسل إلى الملك الذي كان لازال في مراكش يلتمس منه الإذن لمقابلته، لأن تغير الحاكم اقتضى طلب إذن جديد. وقد منحه المولى رشيد الإذن ليستقبله في فاس فذهب إليها، ومن هناك أرسل مبشرا جديدا وهو فراي ألونسو دي لاكونسيبسيون، لكي يرافق فراي لويس في وحدته القاسية التي واجه فيها أخطارا كبيرة.

نظم الملك أمور الحكم، وترك في مراكش ابن أخيه المولى محمد نائبا عنه وتابعا له، لكي يدير أمور الحكم في هذه الأقاليم، ثم عاد إلى فاس واستقبل فراي ألونسو بحفاوة، وأمر بإكرامه ومساعدته. وقدم الأب الهدية للملك، فقدرها وطلب منه أن يفصح عن حاجته التي يريد الحصول عليها في مملكته، فاستغل الأب هذه المناسبة لصالح الأسرى، وطلب من الملك بناء دير في فاس يقيم فيه الرهبان بالشكل نفسه الذي سمح به في مراكش، وأن يتمتع بامتيازات الأمان والحرية، لإسعاف الأسرى ومعالجتهم وتلقينهم. حيث كان يبلغ عددهم ثلاثمائة أسير، يعيشون بدون أسقف. فأذن له الملك بذلك، لأنه رغب في إقامة دير في عاصمة ملكه التي أحبها للرفع من منزلتها. كما أذن له أن يأتي بالعدد الذي يرغب فيه من الرهبان ليمنحهم الأمان الملكي، وعين له المكان لبناء الدير الذي نملكه حتى اليوم، حيث يوجد الجزء الأكبر من الأسرى.

فرح الأسرى كثيرا بهذا الفضل، وودع الحارس الملك والأسرى، وكتب إلى رهبان مراكش يخبرهم بما حققه، ثم ذهب إلى إسبانيا لإخبار الإقليم بما حصل، وتهيئ ما يناسب لتأسيس الدير الجديد في فاس. وقد تداول الإقليم هذا الموضوع في مجلس استشاري عقد في 18 مايو سنة 1669، وعين خلاله أب إقليمي جديد هو فراي بارطولومي دي سان دييكو، كما عين فراي لويس دي سان أكوستان حارسا لدير مراكش، والذي كلفه المجمع المقدس للنشر بمهمة النائب الحواري أيضا، وأعفي فراي ألونسو من مهمته وبقي في الإقليم لإرساله إلى روما وكيلا للهيئة القضائية في الفاتكان سعيا لالتماس عبادة مقدسة للشهيد فراي خوان دي برادو. وبهذا ظل فراي لويس مع مرافقه فراي ألونسو دي لاكونسيبسيون يمارسان الأعمال المقدسة في مراكش وفي فاس وسلا وتافيلالت، حيث كان يرسل إليهم الرسائل المستنهضة وكتبا روحية أخرى، لكي يستأنسوا بها وتواسيهم بقراءتها جماعة، وتشجعهم على الصبر على أعمالهم، وتقوى عقيدتهم. كما كان يرسل

إليهم الصدقات لسد حاجياتهم. وقد التمس الراهبان بخجل مرات عديدة هذه الصدقات من التجار لإصلاح أحوال الأسرى دون تمييز بين جنسياتهم.

وقد جنى الأب فراي لويس من خلال هذه المساعي كثيرا من النتائج في هذه السنوات الثلاثة، حيث حقق هداية أكثر من ستة أشخاص حسب ما أخبر به الإقليم، وعمد سبعة أطفال يهود بدعوى علاجهم بالأدوية لأنهم كانوا يحتضرون، وبرأ ثمانية مرتدين تابوا إلى دينهم الحق وأرسلهم إلى المعاقل المسيحية. وهكذا تلقى الرهبان في هذا الزمن رسائل متكررة على عملهم ومساعدتهم في هذه البعثات من المحاكم ومن دول مختلفة مثل فرنسا، والبرتغال، وطوليدو، وغرناطة، وقرطبة. كما أدت هذه الدول الشكر للإقليم الذي تكلف في سبيل ذلك جهدا ماديا وروحيا وجسديا، حيث ضحى كثير من أبناء الإقليم للمحافظة على هذه البعثات.

• اضطهاد الرهبان وأمرهم بالخروج من المملكة :

عندما ذهب السلطان المولى رشيد إلى فاس لمباشرة حكمه، بدأ ابن أخيه المولى محمد بصفته حاكما لمنطقة مراكش يهيأ أمور حكمه. وكان ما زال شابا وتنقصه التجربة، ولذلك كان يوجهه ويؤثر فيه بعض الطامعين، فأضحت سياسته غير متزنة. وفي ظل هذا الوضع عانى الرهبان متاعب كبيرة سبب لهم فيها يهودي متملق منحه الملك رئاسة الحي اليهودي. ولم يأذن له الله أن يستمر في إيذائهم، فذبحه الملك بعد أيام من تسلمه هذه الرئاسة.

ولم يكتف الوالي بقطع رأس هذا اليهودي، بل أمر بهدم جميع المعابد اليهودية التي كان عددها إثنى عشر معبدا، وبقي فقط دير المسيحيين الذي ارتفع فوقه الصليب دون أن يتجرءوا على هدمه. وقد خلف هذا الحادث إحساسا محزنا بالنسبة إلى اليهود الذين سعوا دائما إلى هدم كنيسة المسيحيين.

كان الأسرى في هذا الوقت لازالوا يعيشون داخل القصبة، وكان يذهب إليهم الراهبان للاحتفال بالقداس، ويقيمان قداسا آخر في الدير للتجار وباقي المسيحيين. وفي هذه المناسبة مرض أربعة أسرى وحاول الراهبان إخراجهم لإسعافهم روحيا فلم يفلحا، واضطرا إلى الذهاب إليهم لرعايتهم، إلا أنه جاء أربعة من خدم الملك، وكبلوا الأسرى جميعهم بالسلاسل بسبب جرح أحد خدم القصر من قبل أحد المسيحيين عندما أتى إلى أخذ الخمر.

وعندما أنهى هؤلاء الخدم السود مهمتهم ذهبوا إلى سيدهم وأخبروه أن القسيسان يصلبان القداس مع الأسرى في المصلى الذي أقامه فراي ألونسو في القصر بإذن من الملك السابق. فاستغل الخبر أحد مقربيه المتظاهر بالتحمس لدينه وعاب على الحاكم قبوله بوجود عبدة الأصنام في أرضه وقصره، على اعتبار أن ذلك ينهى عنه رسولهم، وحذره من نزول عقاب سيئ بالمملكة من نبيهم القديس على وجود هؤلاء القوم السيئين بين المسلمين الذين يعبدون بعض الهراوات، ويسيئون إلى الإسلام، ويمنعون كثيرا من المسيحيين من الدخول فيه كما تدل على ذلك التجربة، حيث كان الكثير منهم من قبل يهتدي إلى دين محمد عندما لم يكن هناك قساوسة. وأن الله لاشك سيعاقب أولئك الملوك على قبولهم لهؤلاء الناس مقابل تلك المخدرات التي يهدونهم إياها. وأن بعض المسلمين يتكلمون بخير عن الرهبان لأنهم يتلقون منهم الرشوة، فخلق المسلمين لا يقيس الفضيلة بالقلب وإنما بما تأخذه الأيدي. وعلى هذا النحو حرض هذا الرجل الحاكم على إصلاح الخطأ الذي تورط فيه السابقون.

لقد كان هذا الرجل مثل شيطان حقيقي، حيث أقنع باقتراحاته المنافقة الحاكم الطفل، فأرسل في الصباح الباكر بعض قياده دون عقد اجتماع استشاري، وأتوا بالراهبان إلى القصر، وتبعهم الناس برمي الحجر والبصاق والسب، ثم أدخلوهما إلى الفناء الداخلي للقصر، وظلا هناك محروسين من الصباح حتى التاسعة ليلا بدون أكل ولا شرب، ولم يقابلهما الملك.

وهكذا عانى الراهبان من التعذيب حيث أهانوهما كثيرا، فجروهما من لحاهما المكرمة وبصقوا على وجوههما، وسبوا مقدساتهما بكلمات مدنسة. وصبرا على هذه الشدائد، وطلبا من الله مساعدتهما على الانتصار، وقد تهيآ للدفاع عن عبادة الصور المقدسة حتى الموت إذا سألهما نائب الملك لأنه يعد من قبيل الالتزامات التي يوصي بها المجمع المقدس المبشرين.

أمر الملك في تلك الليلة بتجريدهما من اللباس وربطهما في السواري الباردة، إلا أن الله لم يسمح بإتمام أمره، فقد مر من هناك باشا كبير ذو سلطة ونفوذ أشفق على الراهبان، ونصح الحاكم بالتراجع عن ذلك الفعل الذي لا يليق بالبيت الملكي، ووضع الراهبان في مكان آمن حتى يتم التحقيق معهما، وآنذاك يمكن معاقبتهما بما يسمح به القانون. وبناء على هذا الالتماس أمر الحاكم أن يذهبوا بالراهبان إلى ساجنة الأسرى

مع بقاء الحرس معهما حتى ينادوهما في اليوم الموالي إلى المحكمة. ثم كتب إلى المفتي يسأله عن حكم الدين فيما يخص بقاء الوثنيين في مملكته تحت راية السلام وقبولهم أحرارا ومنعهم من ممارسة وثنيتهم في أرضه، أو حرقهم لأنهم أقاموا تماثيل وصلوات في هذه القصبة.

وهكذا قضى المفتي اليوم كله في تحليل في هذه القضية العسيرة التي لم يتوصل فيها إلى نتائج. وفي أحد الأيام اجتمع العلماء الكبار، واقترح القاضي آراء في صالح القضية وأخرى ضدها، فاحتاروا في إصدار الحكم الأخير، وقرروا أن يأمروا القساوسة بالخروج من المملكة دون أن يجادلوهم في أسس عبادتهم لكي يتجنبوا الشك في إصابة الحكم أو خطئه. وفي هذا الاجتماع حضر كاتب الملك السابق الذي جلد الرهبان في الحادثة السابقة، والتمس من الحاكم أن ينفذ فيهم قرار الطرد، وأن يجلدهم وينتزع منهم ما يملكون، لكي يقولوا في بلادهم أن المسلمين يملكون أيدي ثقيلة.

مال الحاكم إلى رأي الجميع، لكن الباشا الذي شفع للرهبان في الليلة السابقة بين لهم أن القرار غير صائب، وأن الأجدى هو أن يخرج الرهبان من المملكة تحت ظل الأمان الملكي مثلما دخلوا دون إهانتهم لكي لا يقولوا في مملكتهم أن المسلمين قوم لا يحكمهم قانون ولا سياسة ملكية جيدة، وإن عبادة المسيحيين للهراوات تسمح بها لهم شريعتهم، ولذلك فالحكم يجب أن يكون قانونيا وليس إراديا.

وهكذا اقتنع الملك برأي الباشا وقرر طرد الرهبان دون إهانتهم، وكلف الكاتب المتوحش بتنفيذ الأمر، فجاء إلى الراهبان اللذان كانا مع الأسرى وأخبرهما بأمر الطرد، فأحسا بالألم، لأن آمالهما أحبطت في الدفاع عن العبادة المسيحية الإلهية في المحكمة العامة. وخضعا للقدر على اعتبار أنهما لا يستحقان هذا الفضل، وأجاب الحارس بتواضعه أنهما جاهزان للأمر الملكي، والتمس منه البقاء يومين لترتيب الدير والحصول على إذن ملكي مكتوب لكي يسمحا لهما في ساحة أزمور بالعبور إلى ساحة مازاكان. فغضب الكاتب عند سماع هذا الالتماس وكأنه أهين بهذا الرد، إذ كان يريد إجابة عنيفة لكي يقيم عليها حجته الإجرامية. وأجابهم بأنه لا يمكن أن يخالف الأمر العالي، وأن يخرجا بسرعة لكي لا يطبق عليهم عقاب عدم الطاعة، وأنهما لا يحتاجان إلى إذن آخر.

وهكذا فضل الحارس عدم الإجابة، وذهبا إلى الأسرى وأخبروهم بالحادثة الأليمة، فبكوا جميعا بشدة، وقبل بعضهم رجلي الحارس، وعانقه البعض الآخر، وكان المشهد مؤلما توازى فيه صوت السلاسل مع الأنين. ثم التمس الأسرى -بواسطة المال- من بعض

المسلمين الأقل وحشية، ومن قائد مقرب من الملك أن يلتمسوا للرهبان إذنا ملكيا للبقاء يوما واحدا حتى يهيئوا تحف الدير، فحصلوا على هذا الإذن وذهبوا إلى الدير.

ولما شاع الخبر في المدينة بطرد القساوسة حضر حشد كبير من المسلمين إلى باب الدير، وأغلقت أبواب الحي اليهودي، وعبر اليهود عن فرحتهم بهذا القرار بصخب، فقام رئيس الحي المسلم وأربعة آخرون بضربهم، ولم يستطيعوا إسكاتهم بسبب كثرتهم. وهكذا تكلف أحد المرتدين ببيع بعض التحف، وانشغل الراهبان بحزم أشياء العبادة الإلهية والكتب، وحولوا الكؤوس المقدسة إلى فضة مهشمة لكي يستبدلوها بالنقود، لأنهم أكدوا لهم أنه في أزمور لن يسمحوا لهم بإخراج قطعة من الفضة. وفي اليوم نفسه خرج من مراكش تاجر مسيحي ليبحر من أزمور إلى قادس، فأرسلوا معه الكتب وأشياء القربان المقدس، واحتفظوا فقط بكأس واحد ليتمكنوا من الاحتفال بالقداس.

وفي مساء ذلك اليوم دخل إلى قلعة القصر قائد مقرب من الملك، فالتمس منه الأسرى باكين ومتأوهين أن يتدخل لدى الملك لكي يتنازل عن قراره بطرد الرهبان. وفي تلك الليلة ذهب الملك إلى النوم فتعسر عليه، وأمر نساءه بالابتعاد عنه لأنه أحس ببعض الخوف من الموت كما أمر باستدعاء هذا القائد الذي كان عالما وباشا وصديقا له. ولما أتاه حكى له مخاوفه التي أحاطت به، فارتأى الباشا أن يسليه بحكاية بعض القصص والأخبار المختلفة، وفتح كتابا وبدأ يقرأ عن غير قصد آيات من القرآن تقول إنه إذا كان بين أسرى الجيش المسيحي قساوسة فيجب معاملتهم بالحسنى، لأنهم لم يأتوا للنزاع، وإنما لتعليم المسيحيين المبادئ الطيبة. فأمر الملك الباشا أن يشرح له هذا النص من القرآن الذي يدافع عن الرهبان بدون التماس منهم، لكي يتبين له حقيقة قراره الذي أصدره في حقهم. ولعل الله هو الذي هيأ هذه الأسباب مجتمعة لكي يكون الحادث أعجوبة.

وعلى هذا أرسل الملك أمرا إلى الرهبان بالبقاء إذا كانوا لم يخرجوا بعد، وأن يرجعوا إذا خرجوا، ومنحهم الأمان وعاملهم منذ ذلك الحين معاملة طيبة باعتبارهم رجالا مسالمين وطيبين كما يقول قرآنهم. وفرح الأسرى بهذا القرار وأدوا الشكر لله وللأم الطاهرة مع الراهبان اللذان بقيا في ديرهم، رغم عدم وجود التحف التي اقتنوها من بعد بثمن مضاعف. أما اليهود فقد استمروا في عنادهم وعميهم الذي يحرمهم من الاتعاظ بالمعجزات.

- **موت السلطان المولى رشيد، وتسلم أخيه المولى إسماعيل الحكم وما حدث من تغييرات :**

إذا تجاسر الإنسان على إدراك إلى ما لم يهيئه له القدر، فإنه لا شك ينتهي إلى التعثر

والسقوط وفقدان كل ما حصل عليه وما يريد بلوغه. وهذا ما حصل للمولى محمد الذي كان حاكما على منطقة مراكش بفضل عمه الذي عينه نائبا عنه، إذ أن طمعه أعماه وأقنعه بأحقيته في السيطرة على ملك المغرب، وتشاور مع بعض القياد الذين أرادوا استغلال الوضع لصالحهم، فوافقوه والتمسوا له بعض الجنود، ودعموا ثقته بنفسه بقولهم له، إن العامة يحبونه كثيرا لدعته، وإن عاصمة المغرب وكل الأقاليم الإفريقية كانت منذ القديم هي مراكش وليس فاس.

ولما بدءوا بتهييئ الأمور وجلب الأسلحة علم السلطان بالمؤامرة، فجهز جيشا ودخل به إلى مراكش منتصرا، وقطع رؤوس المتآمرين الذين أدركهم قبل إتمام تهييء أمورهم جيدا. أما ابن أخيه فقد خلع له كل التشريفات ونفاه إلى قلاع تافيلالت. ثم أقام احتفالا بهيجا لشكر الأمناء الذين أخبروه بالمآمرة، وبينما هم يحتفلون ويلعبون بالبنادق، سقط الملك من الفرس، ومات بعد ثلاثة أيام من دخوله مراكش في سنة 1672 حيث حكم فقط أربع سنوات.

وقد ترك هذا الملك ولدين صغيرين لم يؤهلهما سنهما لتسلم زمام الحكم، فرجع ابن أخيه المنفي الذي لم يكن قد وصل إلى تافيلالت، فبايعه العامة في مراكش والفرسان الذين أتى بهم عمه وجلس على العرش. ولما انتشر خبر موت المولى رشيد والمبايعة الجديدة لابن أخيه، انقسم المغرب إلى دويلات، بحيث نصب كل إقليم سيده.

وكان حاكم مكناس في عهد المولى رشيد أخوه المولى إسماعيل، ولم يكن هذا الأمير الحاكم معروفا من قبل العامة، وكان في خدمته أسير مسيحي يقدره كثيرا يسمى فرناندو بلينو من مالقة، وعندما توصل بخبر موت المولى رشيد في مكناس شجع هذا الأسير سيده للسيطرة على الحكم من حيث أحقيته به، فأجابه المولى إسماعيل أنه لا يملك مناصرين لإخضاع العامة لسيطرته، رغم كونه ابنا للملوك السابقين، وشريفا وأخا للملك المتوفى. لكن الأسير حمسه كثيرا وألح عليه باستغلال وضع المغرب الذي كانت أقاليمه آنذاك كلها مجزأة، واقترح عليه اتخاذ مكناس عاصمة لتخضع لها جميع مناطق المغرب، ثم وعده بالخروج مع من أمكنه جمعهم من المسيحيين والمسلمين للهتاف به ومبايعته، حيث سيسمع العامة ذلك وسيتبعونهم جميعهم، لأن كل واحد منهم سيخاف على نفسه العقاب، وبذلك سيكسب بداية التأسيس والمبايعة.

وهكذا تأثر المولى إسماعيل بنصيحة الأسير، فجمع مسلم مقرب منه وذا مكانة عالية كل الخدم والحاشية وأفراد الحكومة وبعض مناصريه، وركبوا الخيول وأمامهم الأسير

قائلين بأصوات عالية "الله ينصر مولاي إسماعيل"، وهي الكلمات التي يبايع بها المغاربة ملوكهم، مثل ما نبايع نحن ملوكنا حيث نقول عاش ؟ عاش. ولما سمع الناس هذه الهتافات ظن كل واحد أن الآخرين بايعوه، وهتف له كل العامة في المساء نفسه. ثم أرسل مأمورين إلى بربر الجبال، وعرب الجهات المحيطة بالمدينة، فبايعوه. وبذلك استطاع أن يؤلف مجموعة قوية من الجنود المناصرة له. وخضعت له بعض المدن الرئيسة، ورفضت مدن أخرى الإذعان له وخاصة مدينة فاس التي قاومت بعض الأيام. وقد حكى لي أسير في هذه الحقبة كيفية خضوع فاس إلى المولى إسماعيل، وهو حدث لم يسجله رهباننا في رواياتهم التاريخية لأنهم لم يكونوا قد أتوا بعد إلى فاس.

سيطر المولى إسماعيل على القلاع العليا التي تهيمن على مدينة فاس، كما سيطر على فاس العالي الذي يسمونه فاس الجديد التي أسسها الملوك، وأتى بالمدفعية لكي يهدم البيوت وأسوار مدينة فاس القديم، وهي الأكثر غنى وكثافة سكانية. وقاتلوا بعض الوقت بإطلاق بعض طلقات المدفعية، فلم تخضع المدينة وظن الملك أنه سيضطر إلى كثير من المقاومة بسبب قلة الذخيرة الحربية، ولأن تلك القذائف كانت تدخل في الحيطان ولا تحدث الدمار الذي يتوخاه لكي يصرخ النساء والأطفال ويلزموهم بالطاعة. فبين له الأسير فرناندو أن الرصاصات مستديرة لذلك تطمر في الحيطان، ولو كانت مشبكة لهدمت البروج بشكل أحسن، وبما أنها لم تتوفر لديهم، اقترح فرناندو على الملك أن يستعينوا بسلاسل الأسرى، فاتبعوا رأيه، وخضعت لهم المدينة خلال بعض الساعات. ومنذ هذا الانتصار أمر الملك أن تزال السلاسل للأسرى.

وهكذا هدم الملك كل سور هذه المدينة الذي يتصل بفاس الجديد ليتركها آمنة، ولازالت المدينة تستمر حتى اليوم بدون سور، لكي يستطيع الملك الدخول إليها بسهولة إذا حاول أهلها الثورة عليه. ومنذ هذا الوقت جمع حوله كثيرا من الناس، وشق طريق ازدهار عظمته، حيث جهز جيشا عظيما، وذهب به إلى مراكش ليجرد ابن أخيه من الحكم، فنازل جيشه وانتصر عليه، رغم أنه تكلف كثيرا من القتلى في صفوفه، وهرب ابن أخيه مع بعض حاشيته إلى تارودانت، حيث أتاح له هؤلاء العرب أن يتحصن بهم لبعض الوقت. ثم خانوه وذبحوه، ودخل عمه إلى هذه الأراضي.

وقد دخل المولى إسماعيل إلى مراكش منتصرا في 1 يونيو عام 1672، واعتلى العرش في الرابعة والثلاثين من عمره، وهو الملك الذي حكم كثيرا من الزمن في هذه القرون الأخيرة. وقد خضعت له كافة أقاليم البلاد، وأطاعه الناس وخافوه، وروت عنه الأخبار أن

معاملاته كانت جد وحشية مع المسلمين ولطيفة مع المسيحيين.

وقد تغيرت جميع الأمور بحكم المولى إسماعيل، فهو الملك الأول الذي أزال السلاسل للأسرى في مراكش وأرسلهم إلى فاس التي كان فيها أكثر من ثلاثمائة أسير. ثم هدم قلاع مدينة مراكش، وطرد نائب الملك السابق، وعين حاكما خاصا للمدينة لا ينتمي إلى العائلة الملكية لكي لا ينازعه في الحكم، ثم أخرج جميع الشرفاء من المدينة وسجنهم في أنحاء مختلفة، وقطع رؤوس الذين شك في أن يتسببوا في إثارة الفتن والثورات، وبهذا وطد دعائم حكمه.

ولما رأى الرهبان هذه التغيرات والقسوة التي يسلكها الملك الجديد في معاملاته، التمسوا من صهره الباشا الرئيس سيدي عمار أن يتدخل لدى الملك لكي يمنح لهم الأمان الملكي على غرار الملوك السابقين، لكي يستمر وجودهم في المملكة بصفتهم رجالا أحرارا يسعفون الأسرى، ويملكون الكنائس لممارسة عباداتهم. وهكذا قدم الباشا الرهبان للملك، فالتمسوا منه البقاء في مملكته في حالة رضاه، والرجوع إلى أوطانهم في حالة رفضه. فأشاد الباشا بخلق الرهبان الطيب والمسالم، وبهدفهم الذي يتواجدون من أجله وهو خدمة الأسرى، بحيث أنهم لا يشكلون مصدر قلق للحكم. فمنحهم الملك الإذن بالبقاء إذا رغبوا فيه، ولكن في فاس حيث كان يوجد هناك أكثر من أربعمائة أسير، ووعدهم بالمساعدة وتوفير العيش الآمن، وعهد بذلك إلى الباشا الذي قام بأعمال طيبة تجاه الرهبان، ومن ثم شكروا فضل الملك، وتحول الدير إلى العاصمة الجديدة، التي حقق فيها الرهبان أهدافهم التي أتوا من أجلها إلى هذه البلاد، وهو خدمة الأسرى المساكين.

- **وصف موجز لمدينة فاس البالي :**

تنقسم مدينة فاس إلى قسمين، فاس البالي، والتي تعرف عند الأسرى بفاس القديم، وفاس الجديد الذي بني من بعده. وتبعد الواحدة عن الأخرى بستمائة قدم. وسأتكلم في هذا الفصل عن مدينة فاس القديم، وذلك في سياق محاولة عرض وصف مختصر للعواصم التي كانت توجد لنا بها كنائس، قصد إدراك بعض الأمور. ويوجد وصف لهاته المدينة أكثر إسهابا في كتاب دون لويس دي مارمول الذي يصف كل إفريقيا.

تعتبر فاس القديم الأكثر كثافة من ناحية السكان، وعلى هذا يمكن أن نسميها عاصمة لكل الأقاليم المغربية. وتقع هذه المدينة بين المرتفعات والسهول. ويقول المؤرخ إنها بحسب قياس بطولوميو تملك ثمان درجات في الطول و15 دقيقة، وثلاثة وثلاثين درجة في العرض و40 دقيقة. وقد كانت فاس القديم من قبل تنقسم إلى قسمين، قسم يضم ضريح

المولى إدريس الذي ينحدر منه هؤلاء الملوك الحاضرون، ويفتخرون به باعتباره شريفا شرعيا من أحفاد محمد، وينسبون إليه الفضل في إدخال القرآن إلى نواحي فاس، ولهذا السبب يعظمونه مثل رسولهم. ويبعد قبر المولى إدريس هذا عن مدينة مكناس ثلاثة فراسخ، حيث يقع في سلسلة جبال زرهون في موضع أسس لتمجيده، ومنحه الملوك امتيازات كبيرة، بحيث لا يمكن للعدالة أن تخرج مجرما إذا لجأ إليه، كما أن الذين يحرسون جسده يمجدونهم مثل القديسين. ولم يكن يسمح للمسيحيين بالوصول إلى هذا المكان، إلا أنني اقتربت منه، وأؤكد أنه المكان الأكثر بهجة من كل الأمكنة التي رأيتها في جميع الأرض. أما القسم الآخر فقد بناه المولى الحسن حفيد المولى إدريس، ويقولون أن الملك يوسف اللمتوني الذي أتى من بعد وحد القسمين تحت اسم واحد وهو فاس البالي، رغم أنهم لازالوا يعترفون ببعض التقسيم في بعض الأماكن.

يقطن في هذه المدينة حوالي مائة ألف من السكان البيض والتجار الأكثر غنى في الأرض. وتنقسم المدينة إلى اثني عشر حيا يرأسها أربعة وعشرون نائبا يخضعون كلهم للباشا الرئيس الذي يرأسهم جميعا. وتحيط بالمدينة أسوار قديمة، لكنها اليوم هدمت، وتملك سبعة أبواب تؤدي إلى حقول مختلفة. أما المنازل فهي عالية ومبنية من الحجر القوي، وبعضها غير مهذب، وبدون نوافذ، والبعض الآخر نظيف جدا من الداخل. وتشاهد المدينة من أحد الحصون خارج الأسوار، حيث يبدو المنظر أكثر جمالا، لأن المدينة كبيرة وآهلة بالسكان، وأغلب منازلها تتوفر على حدائق، ولذلك تبدو كأنها جنة. ويمر عبر المدينة واد القنطرة الكبير الذي ينبع من منبع غزير يبعد ثلاثة فراسخ ونصف عن المدينة، ويجري عبر سهل ويمر عبر بعض المرتفعات، ثم ينقسم إلى مجريين يجري الواحد عبر مصنع الغلايات، ويجري الآخر في المصبغة. ويجتمع الاثنان في ضفة البساتين المسماة (بابارار) والتي تبلغ مسافتها فرسخا، ثم يصبان في واد سبو الذي يبعد عن مدينة فاس فرسخا ونصف. وتخصب المياه هذه المنطقة، حيث تنمو كثير من الأشجار التي تحيط بالمدينة، كما توجد داخل المنازل كثير من المشاتل، التي تبدو من فوق كأنها حديقة واحدة بقصور مختلفة. ويوجد على ضفاف الأشجار خارج المدينة حيث يمتد القصب من المدينة القديمة حتى الجديدة خمسة عشر مطحنة ملكية، ومصانع لثقب أنابيب البنادق، ومصنعا للبارود، يحتوي على إثنى عشر مهراسا، ومعملا للنسيج، وكل هذه المصانع والمطاحن تعمل بالماء، وفيها يعمل الأسرى، ويحرسهم حارسان مرتدان أو رجال سود. وفي داخل المدينة توجد أكثر من أربعمائة مطحنة لطحن الحبوب، وحوالي ستة إلى ثمانية أحجار، وجميعهم يطحنون بالماء الذي يأتي من واد غزير يدخل إلى المدينة عبر سبل مختلفة

ويتفرع إلى فروع كثيرة، بحيث تجد في كل شارع عيونا مختلفة وغزيرة، وحمامات كثيرة يقصدها المسلمون كثيرا.

تضم المدينة ستمائة وخمسون جامعا، تحتوي جميعها على حمامات أو ينابيع يجري فيها الماء الغزير، لكي يغسل المسلمون قبل الصلاة، كما تملك جميعها أبراجا يصعد فيها المؤذنون الذين هم القيمون المكلفون بمناداة العامة واستدعائهم إلى الصلاة. ومن بين كل هذه الجوامع تعتبر فقط خمسين جامعا هي الرئيسة، حيث يذهب إليها المسلمون في كل جمعة باعتباره يوم عيدهم إلى أداء الصلاة. وأشهر جامع هو الجامع الأكبر، ويوجد في وسط المدينة في سهل كبير تبلغ دائرته حوالي نصف فرسخ، ويملك أبوابا ثانوية، وستة أبواب رئيسة تؤدي إلى شوارع مختلفة، وهذه الأبواب مبطنة بقطع رقيقة وجميلة من النحاس، وقباضات مختلفة من المعدن نفسه، كما يضم الجامع عشرة آلاف وخمسمائة سارية بيضاء من المرمر تدعم سبعة عشر جناحا في العرض، ومائة وعشرين جناحا في الطول. ولم أدخل إلى هذا الجامع لأنه غير مسموح للمسيحيين، ولكني مررت عبر الشوارع، ورأيت داخله عندما كانت أبوابه مفتوحة، فتبين لي المنظر الجميل للأجنحة المتلاقية. ويقولون أنه في كل جناح يوجد قنديل يمكن أن يحرق ألف فتلة مرة واحدة. وأنه في (المحراب) الرئيس الذي يوعظ فيه وتشرح الشريعة هناك يوجد قنديل كبير، وآخر أكبر منه خمسين مرة يوجد في محيط دائرته. ويقال أن هذه القناديل مصنوعة من المعدن الذي أتوا به من إسبانيا عندما فقدوها، وقد أهداها الملوك إلى هذا الجامع الشهير شكرا لله على الانتصارات التي حققوها.

ويوجد داخل هذا الجامع مدرسة كبيرة يدرس فيها الطلبة منذ القديم علم اللاهوت وعلوما أخرى، وتملك تجهيزات كافية. إلا أن الملوك الأغبياء اغتصبوا كل إيراداته، فلم يعد الطلبة يلازمون الدروس بكثافة مثل القديم، ومع ذلك يلجأ إليها الكثير يوميا للدراسة. ويتخرج الدارسون من هذه المدرسة بدرجة الطالب، وهي أعلى درجة، ويشتغلون كتابا عامين، أو محامين ملكيين، أو وعاظا، أو كتابا شرعيين. وبالنسبة إلى مصاريف الدراسة، يعتمد الطلبة الميسورون على عائلاتهم في إتمام الدراسة، ويبحث الطلبة الفقراء عن بعض المسلمين الذين يتكفلون لهم بهذه المصاريف. ويقضي الطلبة اليوم كله في المدرسة، ويرجعون إلى بيوتهم في الليل، ويواصلون في الدراسة حتى يأذن لهم فقهاء الجوامع حتى يكونوا كتابا أو مستشارين للحكام الرئيسين. وبالإضافة إلى هذه المدرسة الرئيسة هناك أكثر من خمسمائة مدرسة صغيرة تعلم أيضا علم البلاغة والفصاحة وعلم القرآن.

وتعد القيسارية الشيء الأكثر غنى وجمالا في هذه المدينة، حيث تقع في سهل في وسط المدينة قريب من الجامع الكبير، وهي تشبه المدينة بأسوارها وأبوابها الجيدة والسلاسل التي تعبرها لكي لا تدخل إليها الخيول. وتضم خمسة عشر شارعا تتعاقب فيها المتاجر الغنية فقط، بحيث لا يوجد هناك منازل. وفي الليل عندما يذهب جميع التجار تغلق الأبواب، ويقوم بدورية الحراسة قائد القيسارية مع حراسه الذين يؤدى أجرهم من المساهمة الجماعية للتجار. وتتجمع المتاجر التي تبيع بضاعة واحدة في جهة واحدة، إذ ليس من الضروري أن تمر عبر جميع الشوارع لشراء بضاعة ما. ويباع في القيسارية النسيج والأقمشة وأنسجة الحرير والقطن وخارج القيسارية توجد متاجر متتالية أيضا تبيع الفواكه والحبال وجميع الأشياء الاستهلاكية. وهناك مكان آخر في وسط المدينة مماثل للقيسارية يباع فيه البرانس واللحافات وأنسجة أخرى من الصوف. وجميع هذه المتاجر نظيفة جدا، بسبب كثرة العيون الموجودة في كل مكان. ففي الصيف عندما ينصرم النهار يسقون كل شيء، ويعطرون الجو بحرق البخور لكي يطهروا الأجواء، فيغدو هذا المكان نقيا وهادئا، رغم كثرة الناس الذين يملأون الشوارع.

وعلى هذا النحو فهم يحرصون على جمال وترتيب كل الأشياء في مختلف الأحياء، ومن ثم فليس من الضروري أن تبحث في كل المدينة عند الحاجة إلى اقتناء أي شيء، بحيث يستطيع الأجنبي من خلال الأسماء العامة أن يعرف مكان وجود الخبز واللحم، أو أي شيء آخر. كما يوجد في المدينة أكثر من ثلاثمائة فندق، وهي عبارة عن خانات صغيرة متتالية في شوارع خاصة دون أن يتخللها منزل. ويوجد في الساحة أمام المسجد الرئيس ما يقرب من مائة مكتب للكتاب، وفي شارع آخر قريب من هذه الساحة يوجد أكثر من خمسين دكانا للطلبة الذين يجلدون الكتب. وهناك أيضا موضع يجتمع فيه العمال فيقف الرجال في جهة، والنساء في جهة أخرى، بحيث إذا احتاج أحد إلى خادم أو خادمة للعمل خلال يوم واحد أو أربعة أيام، فإنه يأتي إلى هذا الموضع، فيجد خدما بيضا وسودا ومن أعمار مختلفة. ويوجد في موضع آخر الخيول المسرجة التي تحمل الأثقال والناس إلى الوجهة التي يريدون أن يتجهوا إليها. وفي مكان آخر نظيف جدا تباع باقات الزهور والمزهريات من مختلف الأصناف، لأنهم يستعملونها في الهدايا. فمسلمو فاس دنيويون وفاسدون ويحبون تبادل الهدايا، ولذلك فهم يحملون دائما المسك والعنبر، وجميعهم بيض ولا يقبلون السود إلا خدما، ويعتدون كثيرا بالأندلسيين على اعتبار أنهم ينحدرون من الموريسكيين المطرودين من إسبانيا، ومازال الغرناطيون يعيشون منعزلين لكي يتميزوا عن الآخرين.

وفي الأخير هذا هو وصف المدينة التي رأيتها، وهي تشبه في شكلها وبناياتها كثيرا مدن أوربا.

- **وصف مدينة فاس الجديد مكان تأسيس الدير :**

سميت مدينة فاس الجديد بهذا الاسم لكي تكون أكثر حداثة من الأخرى. وقد بنيت بدورها قديما من قبل يعقوب ابن عبد الحق الملك الأول لفاس من العائلة النبيلة لبني مرين، حيث جعلها عاصمة له بدلا من مراكش. وقد أسس هذه المدينة في سهل عال، لكي يسعفه هذا الموقع في السيطرة على المدينة القديمة، بحيث لا تتجاوز المسافة من باب الكلابات في فاس الجديد إلى باب المحروق في فاس القديم أكثر من ستمائة قدم. وبما أن المدينة القديمة كبيرة وتتكون من ثلاثة معاقل، فإنهم وضعوا في المدينة الجديدة الجنود والذخيرة الحربية ليكونوا قادرين على ردع كل تمرد. ولعل الملك المولى إسماعيل لم تخضع له هذه المدينة إلا بتدمير أسوارها، وعزل أتباع الملك السابق.

بنيت هذه المدينة الجديدة في سهل جميل على ضفاف وادي فاس الذي تسمى باسمه المدينتان، وتحيط بها أسوار قوية وأبراج كثيرة ومعقل قوي في الباب الذي يؤدي إلى الحي اليهودي. وتنقسم المدينة إلى ثلاثة أقسام، ويقطنها حوالي عشرة آلاف ساكن. ففي القسم الأول توجد القصور الملكية، وهي واسعة وجميلة رغم قدمها، وتطل أسوارها على مياه وادي فاس العذبة، وتوجد فيها ينابيع وحدائق كثيرة غير مهذبة لأنه لا يعيش فيها اليوم أحد. وقد ترك المولى إسماعيل في هذه القصبة زوجته التي كانت من قبل زوجة أخيه المولى رشيد، لأنها رفضت الخروج من هذه المدينة، لكي لا تكون جارية للملكة السوداء التي تعيش اليوم في مكناس، ذلك أن هذا الملك عندما لا يجد سببا كافيا لقتل بعض نسائه، فإنه ينفيهن في هذا المكان، وهن يخضعن جميعهن للملكة الرئيسة، التي تملك هنا في فاس حرسها ومخصييها. كما يوجد في هذه القصور مسجد كبير وجميل يؤدي فيه الملوك صلاتهم.

في القسم الثاني من المدينة كان يوجد فيه قديما الأسلحة وخيول الملك، ولكن أقيم فيه من بعد الحي اليهودي بأمر من الملك المولى أبوسعيد. فقد كان اليهود يعانون كثيرا من التعسفات عند موت كل ملك، فالتمسوا الأمان، ومنحهم الملك هذا المكان لكي يحتموا بالحرس المسلح، ويبتعدوا عن المسلمين، لأن المكان يقع بين السور الأساس للمدينة وبين السور الخارجي للقصبة، بحيث يبدو الحي مثل مدينة محاطة بسور. وقد كان اليهود يؤدون جزية مضاعفة مقابل هذا الأمان الذي يوفر لهم، واحتراما لباقي اليهود القاطنين في

أماكن أخرى. ويعتبر هذا الحي هو الأكثر ازدحاما باليهود في كافة المملكة، ويدفنون داخله موتاهم، ويتوفرون فيه على معابد لا تتميز في شكلها عن منازلهم، لأن المسلمين لا يسمحون لهم بذلك، كما يملكون متاجرهم الخاصة هناك، حيث يوجد يهود أغنياء جدا، إلا أن هذا الملك أفقرهم بفرض الغرامات الكثيرة عليهم.

والقسم الثالث هو المدينة الرئيسة التي يعيش فيها كل السكان، والرجال الرئيسون في هذه المدينة هم سود من نسب يسمونه الاوداية. واليوم يحترم الناس هؤلاء الرجال أكثر من قبل لأنهم آباء الملكة السوداء، وهم فرسان الملك، ورجال بارعون في الحرب، ولكنهم لا يخرجون إلا إذا خرج الملك، ولذلك فهم يملكون جميع الأسلحة والخيول ولا يؤدون الغرامة عليها. وقد وضعهم الملك في هذه الناحية حرسا للقلعة لكي يخضع فاس القديم. وهم رجال متوحشون ومستبدون، ويعكسون بهذه المواصفات مزاج الملك وخلقه.

المدينة من الداخل ليست جميلة، ولا نظيفة كالأخرى، وتضم شارعا واحدا فقط جميلا يمتد من باب إلى أخرى، ويبلغ طوله ربع فرسخ. والقسم الأكبر من المدينة مغطى بالعريش، وتوجد فيه متاجر أقل غنى وجمالا من التي توجد في فاس البالي، وقصر الملك الذي بني في وقت قصير، كما يوجد فيه بيت المال الذي يعيش فيه كل الموظفين والعمال، وتوجد أيضا محلات الصياغة والدمغة. وقد وضع الملوك في هذه المدينة كل الذخيرة الحربية والمدفعية، إلا أنني لم أر اليوم إلا ثلاثة مدافع قديمة ومفككة في مدخل باب (الكلابات).

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من المدينة في طريق مكناس ينبع وادي فاس من منبع غزير توجد به حصون محروسة، وهو مكان بهيج، ويأتي هذا الوادي إلى سهل كبير، ويمر عبر أسوار القصر الملكي، وسلسلة بساتين خصبة، ثم يدخل في وسط المدينة، ويمر مخفيا عبر الشوارع، ويخرج فقط من باب واحدة هي باب الحديد، فيسقي كل البساتين التي توجد في هذا المكان وبعض الأشجار الكثيفة، ويزود خمسة عشر طاحونة ملكية بالماء، ثم يخرج عبر ميدان فاس القديم، ويتواصل حتى يختلط بالوادي الكبير سبو. وبما الماء يتواجد بغزارة، فإن الأشجار كثيفة والعيون كثيرة جدا، بحيث توجد في فاس القديم فقط ستمائة عين. كما يوجد في هذا المكان ميدان متسع تبلغ مسافته عشرة فراسخ في الطول وخمسة في العرض يسمى (سنغوفور) مغروس كله بالأشجار والخضر، وتوجد به الحدائق البهيجة، والمزارع المغروسة بالورد والليمون وأشجار الإترنج والبرتقال والياسمين، حيث تبدو وكأنها جنة. وبهذا يمكن القول أن الله قد عاقبنا عندما حرمنا من هاتين المدينتين، أو أفضل نقول مدينة واحدة، ومنحها للكفار لكي يملكوها ويستمتعوا بأراضيها الخصبة وجنانها.

• **انتقال الرهبان إلى فاس و تأسيس الدير في هذه المدينة :**

بعد حصول الرهبان على إذن الملك بتأسيس دير جديد تهيأوا للسفر إلى فاس، وجمعوا متاعهم الذي كان خفيفا بسبب قلة التحف المتبقية، ثم سلموا هذا الدير لبعض الأرمن الكاثوليك والتجار الأحرار لكي يعيشوا فيه، ولازال المسيحيون يعيشون فيه حتى اليوم ولم يتحول إلى ملكية المسلمين. وقد أراد الباشا صهر الملك مساعدة الرهبان، فعرض عليهم مرافقة الجيش الذي أتى ماشيا حتى هذه الأنحاء، لكنهم شكروا لطفه واعتذروا له مفضلين الذهاب في قافلة، لأنهم ليسوا متعودين على الجلبة الحربية. واستجاب لهم الباشا وزودهم بأسيرين لمساعدتهم، وخادما مسلما يعرف القشتالية ليسعفهم في التواصل باللغة، ثم أمر بمنحهم المؤونة اللازمة ورسائل تقدير لتسليمها إلى حاكم سلا، ورسائل أخرى إلى حاكم فاس لكي يستقبلهم ويهيئ لهم وسائل الراحة، ورسالة إلى وكيله الذي كان أسيرا من بين إثنى عشر أسيرا يملكهم، لكي يؤويهم ويساعدهم بالنفقة كلما احتاجوا إلى ذلك.

وهكذا خرج الرهبان من مراكش محملين بالرسائل، وبكوا عند توديعهم لهذه الأماكن التي عانى فيها القديسون من التعذيب، والتي توجد فيها مقابرهم، وذلك في شهر يونيو يوم سبت الثالوث المقدس سنة 1672، ومروا عبر سلا لتفقد حال مائتي وخمسين أسيرا كاثوليكيا، بالإضافة إلى التجار المسيحيين الذين قضوا سنة ونصف بدون أسقف. ومن ثم قضوا هناك وقتا طويلا حتى أصلحوا الأمور الدينية لهؤلاء وعرفوهم وقوموا انحراف وارتداد البعض منهم.

وهكذا ودع الرهبان هؤلاء المسيحيين المساكين، ووعدوهم بإرسال بعض الرهبان عندما رأوهم يتألمون على فراقهم. ولما وصلوا إلى فاس استقبلوا بحفاوة من قبل الأسرى الذين طالما أرسلوا لهم إلى مراكش يبينون لهم حاجتهم إلى الأسقف. وقد عاشوا على أمل تحقيق ذلك المسعى منذ أن زارهم فراي ألونسو دي خيسوس ماريا. وهكذا ساعد الأسير وكيل الباشا الرهبان، لكنه لم يجد لهم مأوى آخر أفضل من الإصطبلات، حيث أمضوا شهرين في غرف يعيش فيها الأسرى. ومن ثم أقام الرهبان في فاس القديم، وكان الجزء الكبير من الأسرى يعيش في فاس الجديد، لذلك كان يتحتم عليهم دائما الذهاب من مدينة إلى أخرى لأداء القداس، حيث كانوا يقطعون حوالي فرسخا، ويمرون عبر الشوارع الرئيسة، فيتعرضون للمضايقات من قبل الكفار الذين لم يكونوا متعودين على لباس الرهبان. ولما قرأ الحاكم الرسائل استقبلهم بحفاوة ولطف، فالتمسوا منه أن يمنحهم منزلا

ليخفف معاناتهم اليومية، وعلى هذا بحث لهم عن منزل في الحي اليهودي، لكن اليهود رفضوا إقامة كنيسة بجوار معابدهم، ولما رأى المبشرون أنهم سيضايقونهم باستمرار كما حدث في مراكش، التمسوا من الباشا الحاكم الإقامة مع الأسرى في سجنهم سعيا لتحقيق الهدوء والاستقرار، ولكي لا يخرج المسيحيون إلى جهة أخرى لسماع القداس. فمنحهم الحاكم والملك ما أرادوا، وأقاموا في الساجنة مصلى من الألواح على شكل كوخ يلجأ إليه الأسرى لقضاء الأعمال الدينية.

وقد أرسل الأسقف فراي لويس إلى الإقليم يخبره بما حدث، وذلك في المناسبة التي انتخب فيها الأب الإقليمي الجديد فراي كريستوفال دي سانطا ماريا في الاجتماع الذي انعقد في 1 يونيو 1672 عام، حيث عين الأب الجديد فراي ألونسو دي لاكونسيبسيون حارسا لدير فاس، وفراي لويس نائبا حواريا لهذه البعثات. وقام الإقليم من بعد بإرسال بعض الهبات من أجل بناء الدير، ورسائل شكر فيها اجتهاد الراهبان، وشجعهما على المواظبة في إسعاف الأسرى، ووعدهما بالمساعدة، ولم يرسل الإقليم في هذه الحقبة مبشرين آخرين، لأن الملك المغربي كان مشغولا بالحروب لإخضاع بعض الأقاليم الثائرة، وسمح فقط بمساعدة الراهبان المتواجدان في المغرب دون إعطاء إذن ؟مثل أجداده- يسمح بدخول رهبان آخرين.

وهكذا قام الراهبان ببناء الدير عندما توصلوا بالمساعدات من الإقليم. فساجنة الأسرى بفاس عبارة عن ميدان واسع، محاط بأسوار عالية وقوية، ولها باب واحدة هي التي نفذت فيها قديما جميع العقوبات، ولهذا أسموها دار الموت، التي تعني منزل البكاء بسبب كثرة الصياح والبكاء على المدانين. وداخل هذه الأسوار توجد منازل الأسرى المتلاصقة، حيث تشكل في مجموعها سياجا مربعا مثل الأسوار. ففي هذا المكان بنى الرهبان ديرا صغيرا على مساحة ضيقة من "بارتين" في العرض وثمانية في الطول. وقد تألف الدير من طابقين، ففي الأعلى بنوا ثلاث غرف وضعوا فيها المكاتب، وغرفة للأكل من الألواح. وفي الأسفل أقاموا الكنيسة، فبنوا المصلى والمذبح بالألواح، ولم يعلقوا التحف والصور تحسبا للطوارئ، وأقاموا الأبواب المرفوعة، بحيث يظهر المصلى والمذبح، ويسمع القداس من المدخل الرئيس لأن الكنيسة صغيرة، ولا يتمكن الجميع من سماع القداس رغم قيام القسيس بأداء قداسين. وعند الانتهاء من البناء أتى الحاكم لرؤيته، ثم رجع في يوم آخر مع بعض رجال الدولة، فأعجبوا بما فعله الرهبان في هذه المساحة الضيقة. لقد كانت إمكانات البناء فقيرة، بحيث اشتروا الألواح والكلس والآجر

ومواد أخرى بمبلغ أقل من ثلاثين بيسو، إذ اعتبروا أن ما يصرف في بناءات مكلفة مسألة غير ضرورية في أرض لا يضمنون فيها الأمان والبقاء. ولقد ساهم بعض الأسرى في بناء هذه الكنيسة متمثلين في ذلك بالأسقفين اللذين كانا يحملان الآجر والخشب الثقيل لرفع هذا البناء الذي ارتأوا أن يغيروا شكله مع مرور الزمن، حيث بنوا مذبحين متوازيين داخل الكنيسة، مثل ما يوجد في الكنائس ذات المصليات، وأزالوا الأبواب المرفوعة، فأصبح بإمكان الجميع سماع القداس داخل الكنيسة نفسها.

وعندما انتهوا من البناء احتفلوا بإهداء الكنيسة إلى السيدة مريم يوم 7 دجنبر 1672 ولقبوها باسم الولادة الطاهرة. وحضر الأسرى هذه الاحتفالات وفرحوا برؤية عبادة الإله في هذه الأرض الكافرة، وعلقوا في المصلى صورة للولادة الطاهرة. وفي يوم 8 دجنبر، وهو اليوم الذي تحتفل فيه الكنيسة العالمية بعيد ميلاد المسيح، احتفلوا بالانتقال إلى المعبد الجديد، ففرشوا أرض هذا السجن بالعشب الطري، وعلقوا باقات الورود في الحيطان، وزينوا المذبح بورود الورق وبعض الحرير، ولم يجدوا أثمن من هذه الزينة لكي يهدوها إلى الإله وأمه.

أعدوا الاحتفال منذ بزوغ الفجر، وشكلوا موكبا من المصلى القديم إلى الكنيسة الجديدة، وأتوا بالصورة المقدسة للولادة الطاهرة، وعلقوها في مذبحه، وهم يغنون بحزن النشيد، وغنى الحارس القداس باحتفالية كبيرة، وغنوا أناشيد شرف الطهارة للسيدة مريم، ثم ألقى الأسقف خطبة وعظية خاطب فيها قلوب المساكين وواساهم. لقد كان هذا العيد بالنسبة إلى الرهبان أسعد يوم نسوا فيه كل معاناتهم. وقد التمسوا من الحراس أن لا يفتحوا أبواب الملجأ، فمر الاحتفال في هدوء مثلما يتم في البلاد المسيحية.

- **تواجد الرهبان في مكناس وتطوان وممارساتهم الروحية :**

لعل أحب شيء عند الإنسان هو تحقيق الآمال التي يصبو إليها. ولقد خرج المبشرون من إقليمهم الهادئ يسعون إلى تحقيق هدفين نبيلين هما : التضحية بحياتهم في سبيل عقيدتهم المسيحية وخدمة الأسرى، وإذا كانوا قد تمنوا الهدف الأول ولم يدركوه، فإن الثاني حققوه وعوضهم عن الأول. ولقد ارتفع عدد الأسرى في هذه المملكة، بحيث وصل عددهم في فاس إلى ستمائة، وفي مكناس إلى مائة وخمسين، كما وجد آخرون في تطوان. ومن ثم تحمل الرهبان مهمة الحواريين القديسين، حيث كانوا يتنقلون من مدينة إلى أخرى، معرضين حياتهم للأخطار لكي يصبحوا من عداد أبناء الكنيسة المختارين.

كان هناك فقط راهبان في دير فاس، وكانا يتوصلان باستمرار برسائل من المسيحيين في مكناس وتطوان التي تبعد عن فاس حوالي ستة وخمسين فرسخا، يلتمسون

فيها المواساة الروحية. وهكذا كتب الراهبان إلى الإقليم لكي يرسل لهما مبشرين آخرين، فأرسل الأب الإقليمي الذي كان آنذاك كريستوفال دي سانطا ماريا، الأسقفين فراي دييكو دي بورنوس، وفراي فرناندو دي أوتريرا، والراهب الخادم فراي كاسيار دي سان أكوستان، وأرسل معهم بعض المساعدات. ومن ثم ذهب راهب إلى مكناس وأقام في سجن الأسرى الذي كان مظلما ومتعفنا. إذ يقول فراي ألونسو في إحدى رسائله أنه كان يقيم الصلاة والعمل الإلهي بمساعدة ضوء الشمس القليل الذي ينفذ من أحد الشقوق. كما ذهب راهب آخر إلى تطوان. وقد أضيف رهبان آخرون عندما انتخب الأب الإقليمي فراي خوان دي أسونا. ونشير هنا إلى أنه لم يعرف في هذه الحقبة عدد الرهبان في البعثات.

وفي فاس ارتأى الرهبان أن يؤسسوا شكلا من أشكال التعاون الروحي بسبب تنامي عدد الأسرى، فأقاموا الجمعيات الدينية، وعينوا رؤساء لها ليهتموا بالمحافظة عليها، ويجمعوا الهبات لاستعمالها في الأهداف المقدسة. كما سنوا قوانين لإسعاف ومعالجة الأسرى المرضى روحيا، لأن بعض النفوس كانت قد لانت ومرضت بسبب نقص الأساقفة والموجهين. وهكذا اجتهدوا بلطف في تطبيق هذه القواعد المجربة التي تركها قدماؤنا، لكي لا تضيع هذه الأرواح في الجحود والموت التعيس، واتبعوا في ذلك الحذر ورصانة العقل، لأن تطبيق هذه القواعد في هذه البلاد لا يكون جيدا وفعالا مثلما هو الحال في البلاد المسيحية.

وعلى هذا النحو فقد تمكن الأساقفة من معالجة كثير من الأرواح المريضة كما قال فراي لويس في رسالة أرسلها إلى الأب الاقليمي، حيث كان قد ابتعد الكثير منهم عن روح العقيدة، وانغمسوا في ارتكاب الفواحش بسبب الحرية التي أتاحوها لهم في هذه البلاد، فماتت أغلب العادات المسيحية، ورغم ذلك فقد حاولوا تصحيح كل هذه الأمراض الضارة بلطف.

أسس الرهبان هنا أيضا المذهب الثالث للأب سان فرانسسكو، وقد تمكنوا بفضله من هداية البعض منهم، والذين أصبحوا يمارسون شعائر الدين المسيحي أفضل مما يمارسونه في أوطانهم. ومن هؤلاء المهتدين ثلاثة ملحدين كانوا قد يئسوا من أخطائهم، ومرتدان كان الواحد منهم مريضا جدا، فصالحوه وبكي كثيرا ثم مات بعد ساعة من ذلك، أما الآخر فقد كان مريضا، إلا أنه استرد عافيته بعد تبرئته، ثم ذهب إلى الباشا الحاكم وأعلن اعتناقه للمسيحية رغم تعريض نفسه لخطر الموت، فأمره الباشا أن يستبدل لباس المسلمين بلباس المسيحيين، ووضعه في الأسر للعيش بين المسيحيين حتى الموت، وقليلا ما كان يحصل مثل هذا الموقف اللطيف في هذه الأرض. وقد واجه الرهبان بعض الأحوال السيئة حينما

هرب أسير كان في خدمتهم، ففرضوا عليهم غرامة ألف بيسو، إلا أنهم اجتهدوا بالالتماس والإصرار، فأدوا فقط ثلاثمائة بيسو للباشا. وفي هذه الحقبة أيضا تدهورت صحة الأب فراي لويس دي سان أكوستان بسبب كثرة الأعمال، والسفر عبر الطرق. فألحوا عليه بالذهاب إلى الإقليم حتى يسترد عافيته، فغادر هذه البعثات حزينا بعد أن قضى فيها إحدى عشر سنة كاملة. وبقي الرهبان الآخرون يشرفون على جميع الأعمال الدينية.

- **طرد المبشرين وذهابهم إلى إسبانيا، وبقاء الأسر بدون أساقفة :**

لقد كانت الممارسات المقدسة التي قام بها الأساقفة الحواريون والجهود الصوفية التي حققوها في انزواءاتهم، والنتائج الروحية المتواصلة التي حصلوا عليها في أوساط المسيحيين والكفار مغضبة للشيطان ومبطلة لمكره، فالتمس انتقامه من الرهبان ليس فقط في التعذيبات التي سيبها لهم من خلال إيعاز المسلمين واليهود والملحدين، ولكنه سعى إلى الأرض لكي تنتهي البعثات، ولذلك غير من مؤثراته لتحقيق هذا الغرض، وتقنع بلباس الفضائل الدينية.

وأشير هنا إلى أنني في رواية هذا الموضوع سأعتمد على الذاكرة من أجل ذكر المنسي وعلى الصير من أجل الهدوء، لأن التذكر والسكوت يعتبر إهمالا، ولا يليق الصمت بالمؤرخين لتقديم رواية تاريخية مترابطة، وسأكتفي برواية الحادث هنا دون إضافة تعابير أخرى.

عندما كان رهباننا في ديرهم يؤدون ممارساتهم الروحية والإنسانية تجاه الأسرى جاء إلى هذه المملكة بعض العلماء الرهبان من مذهب آخر، دفعهم الحماس الرهباني ومجمعهم الإلهي إلى المجسء لمساعدة الأسرى المساكين وإصلاح أحوالهم السيئة وإنقاذهم. ومن أجل تنفيذ هذه الممارسة المقدسة عينوا رهبانا كبارا ذوو خصال وفضائل عالية، وخبرة في معاملة الكفار، ويحاكون في عملهم المسيح المصلوب.

وهكذا دخل الرهبان الجدد إلى إقليمي فاس ومكناس، وعاينوا جميع الأسرى لينفذوا عملية إنقاذ مناسبة، وقد علموا أن مبشرينا كانوا يملكون ملجأين في مكناس وتطوان، وديرا في فاس، كما أنهم كانوا على علم بالنتائج التي حققوها لصالح الإله وكنيسته، والإذن الذي سمح لهم به الملوك المغاربة للمحافظة على هذه الكنيسة في مملكتهم، رغم أن هذه المحافظة كانت مكلفة.

لقد اعتبر هذا المجمع الإلهي أن الفرصة مناسبة لإرسال هذا الجيش المقدس، إذ كان هناك دير ورهبان يسهلون لهم مهمة الإنقاذ عن طريق الاتصال المستمر. كما أنه لم تكن هناك عوائق كثيرة لكي يحصلوا على منزل خاص يعالجون فيه الأسرى ويؤسسون

بعض المستشفيات. وهكذا اقترح الرهبان الجدد هذه الأهداف المقدسة على بعض الباشاوات ليخبروا بها الملك ويمنح إذنه بتنفيذها. وبما أن المسلمين يميلون بطبعهم إلى الأمور الجديدة، ويضاف إلى ذلك إلى أنهم أصحاب مصلحة وماكرون، فقد استحسنوا هذا الاقتراح، لأنه يتضمن منافعهم الخاصة، وأصروا على تنفيذه.

وهكذا اقترح هؤلاء الباشاوات على الملك هذه المسألة، وبينوا له مظهرها النافع، فمنحهم من بعد إذنا لكي يبقى الرهبان الجدد في مملكته في الوضعية نفسها التي كان عليها الرهبان الفرنسسكان لإقليم سان دييكو طيلة سنوات عديدة، وأمر بطرد المبشرين القدماء من المملكة بدون تمهل. ومن تم ذهبوا إليهم في آخر المساء وأبلغوهم بالأمر رسميا، فتوسلوا إليهم أن يرجئوهم في تلك الليلة، ويسمحوا لهم بالبقاء في منزلهم المتواضع حتى طلوع النهار، لأنهم لا يملكون مكانا آخر يلجأون إليه، فلم يستجيبوا لهم، وخرج الرهبان في الليل باكين على كنيستهم، ولجأوا إلى أكواخ بعض الأسرى المساكين.

وهكذا قضوا تلك الليلة الحزينة متكئين على سرير عار، لأن الأسرى لم يكونوا يملكون غير تلك السعاف الخشنة. ثم أمر الملك أن يتسلم الرهبان الجدد حيازة الدير في اليوم نفسه الذي سافر فيه مبشرونا إلى إسبانيا. وقد تعللوا ببعض المصاريف وتبعيات المنزل، إذ كان من المفروض أن يمهلوهم بعض الأيام حتى لا يخرجوا مضطهدين، وإذا افترضت أن رهباننا التمسوا البقاء ليرافقوا الآباء الجدد ليس كرهبان وأساقفة ولكن أسرى أحرارا للمساهمة في عملية الإنقاذ لما أشفق عليهم هؤلاء المسلمون الذين لا يدركون لغة الأسف والحنو، لأنهم يدركون فقط صوت المصلحة. ولذلك لم يجد رهباننا صديقا واحدا من بين جميع الأصدقاء الذين عرفوهم يشفع لهم للبقاء، بل تواطأوا جميعهم على عدم تمديد أيام إقامتهم، فخرجوا تاركين منزلهم ومصاريفهم وأشياء أخرى.

وهكذا لما رأى الرهبان أن خروجهم أمر لا مناص خضعوا لحكم الله الكريم. ولم تكن هناك أسباب واضحة تعلل هذا الطرد غير كره هؤلاء الكفار لأسس مذهبنا الكاثوليكي الفاضل، الذي يعمل به أساقفتنا، حيث احتجوا بمعارضة بعض المواضيع والأهداف الدينية، ويفهم ذلك من فهمهم السيئ للغرض الواضح للآباء المكرمين. وبما أن هؤلاء لا يدركون الفضائل الحضارية، فقد كان أكيدا أن يدعوا أي حجة لإنهاء البعثات من هذه الأرض.

ومن ثم أخذ الرهبان التحف المقدسة، وخرجوا متأثرين بترك هذه الكنيسة التي ملكها مذهبنا منذ القديم، وعانى رهبان إقليمنا من أجل المحافظة عليها وإصلاحها ومواساة الأسرى الذين لم يتحسروا على ذهابهم كثيرا، وذلك لوجود الرهبان الجدد إلى جانبهم،

ولكن رغم ذلك فقد كان صعبا عليهم أن يفارقوا هؤلاء الرهبان الذين تعودوا على خدمتهم. ومن ثم اجتمع المبشرون الذين كانوا متفرقين في مكناس وتطوان، ودخلوا إلى سبتة مثل الإسرائيليين محملين بعهد مريم القديسة، وشريعة يسوع المسيح في 15 فبراير عام 1677، وكان النائب الحواري للبعثات آنذاك الأب فراي فرناندو دي سان جوسيب، والأب الإقليمي هو فراي خوان دي أسونا، والنائب الحواري فراي لويس دي سان أكوستان الذي كان متواجدا في الإقليم. وقد استقبل القائد العام لمعاقل سبتة السيد ماركيز دي تروسيفار الأساقفة الإنجيليين بحفاوة، لأنه يدين بالمذهب الكاثوليكي، فتأسف على طردهم، وتكلف بحمايتهم، وكتب إلى ملك إسبانيا لكي يأذن لهم بتأسيس كنيستهم في سبتة، وقد تحقق ذلك، وظلوا بقرب هذه البلاد البربرية يتحسرون على صوامعهم الهادئة التي أخرجهم البربر منها بممارساتهم الوحشية.

وبعد مرور بعض الأيام مات الأب المكرم الذي كان العنصر الفاعل لالتماس الإذن من الملك المسلم لتأسيس الدير، ونتيجة لموته عرفت البعثات تحولا، حيث اضطر الرهبان إلى ترك ملجإ تطوان نتيجة لمضايقات المسلمين لهم، أما في فاس فقد حرضوا الملك على فرض ضرائب عالية على الرهبان لكي يسمحوا لهم بالبقاء، فلم يستجيبوا لذلك وتوقفت مهمتهم الإنسانية.

وقد استطاعوا أن يحققوا حتى ذلك الوقت إنقاذ مائتي أسير، حيث كانت هذه النتيجة جيدة بالنسبة إلى الغرض الذي تواجدوا من أجله في هذه البلاد التي لا توجد فيها قوانين ثابتة، وقد بقي هؤلاء الرهبان ثلاث أو أربع سنوات ثم رجعوا جميعهم إلى إسبانيا تاركين الأسرى بدون رعاية أسقفية، ومن ثم انتهت النتائج الكثيرة التي حققها وجود الأساقفة في هذه البلاد للكنيسة.

أما الحجج التي تعلل بها الملك البربري لطرد الرهبان فقد كانت واهية، كما عبر هو بنفسه عن ذلك في رسالة سلمها في سنة 1704 إلى فراي دييكو دي لوس أنخلس، وهو أب مؤهل من قبل الكنيسة العليا، وواعظ الملكين وأب إقليمنا سان دييكو، ونائب حواري لبعثاتنا، وسأورد هذه الرسالة في الباب الثاني.

ومجمل القول إن هذا الحادث الأخير كان مؤلما بالنسبة إلينا، حيث بقي الأسرى بدون رعاية روحية، رغم أن الله قدر بعنايته أن يأتي أسقف أسير من مذهبنا، أسعفهم بحماس، واستمر الحق الذي عملت من أجله البعثات.

الفصل الثالث

الكنيسة على عهد المولى إسماعيل

رواية تاريخية عن جهود ونتائج البعثات المقدسة في مكناس وفاس وسلا وتطوان من خلال المواساة الروحية والجسدية للأسرى المسيحيين[214]

مقدمة :

من بين السنن الحسنة أجرى إقليمنا المقدس مباحثة حكيمة توخت الإدارة الصائبة والاستقرار للبعثات التبشيرية الموجهة نحو إفريقيا. ومن بين التوصيات التي أمر بها الكرسي الحواري في إحدى أوامره أن يقوم حراس دير الحمل الطاهر لمدينة مكناس بتحرير تقرير تاريخي حقيقي عن حضور الهيئة التبشيرية على رأس كل ثلاثة سنوات، وما حدث لهذه البعثة خلال فترة عملها، وبعد التصديق عليه من طرف المجلس يرسل بعد ذلك إلى الرؤساء السامين للجمعية المقدسة الدينية للنشر إلى روما، لكي تتمكن هذه الجمعية من الاطلاع على متاعب وجهود إقليمنا من أجل حماية وزيادة البعثات التبشيرية وصيانتها، وذلك من أجل ازدهار عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة، مجد الإله، وسعادة الكنيسة الأم، عماد ديانتنا الملائكية، والمفخرة الوحيدة لإقليمنا المقدس.

ومن ثم وجدت نفسي نتيجة الالتزام بالعمل والامتثال لمجموعة من القوانين المبررة أن أعمل على صياغة هذه الرواية التاريخية التي تعبر ولو بإيجاز عن الحالة التي توجد عليها البعثات التبشيرية لإفريقيا، ونتائج متعددة منذ شهر أبريل لسنة 1709 إلى سنة 1712.

ولكي نتحرى وضوحا أكثر، ونتفادى كل غموض في قراءة هذا السرد التاريخي، سنفصل ذلك في أقسام مختلفة كما سيلاحظ في الفقرات التالية.

(214) هذا الفصل هو ترجمة لمخطوط من ق 18 يتضمن رواية تاريخية عن نتائج البعثات في المغرب للأب فراي خوان دي لاكونسيبسيون النائب الحواري لبعثات المغرب وحارس كنيسة مكناس. ويتألف المخطوط من 61 صفحة، وستة مواضيع يوطئها الكاتب بمقدمة.

• عن الكنائس التي مازالت تحتفظ ببعثتها ومصلياتها :

قبل أن أحكي عن الممارسات التي اشتغل بها الرهبان المبشرون لتوزيع الغذاء الجيد على الأسرى المسيحيين المساكين، والذين هم في أمس الحاجة إلى المواساة بدا لي أن أهتم في هذا الكتاب بذكر الكنائس والمذابح والمصليات التي مازالت محفوظة في مملكات إفريقيا. وقد اختيرت هذه الأماكن بكيفية محددة من أجل أداء التراتيل الدينية للعبادة الإلهية والممارسات الروحية للأمة المسيحية.

لقد وجدت إذن داخل الحدود التي تنتمي إلى بعثاتنا في هذه المملكات البربرية ستة كنائس يلجأ إليها المسيحيون الذين يترددون عليها وكذا المغاربة واليهود (من مختلف الهيئات). من هنا ارتأيت أن أحكي عن المشيدات العظيمة الممتعة، والأماكن التي توجد فيها، وقد شجع إقليمنا على كتابة هذا التاريخ لأنه يمنح صيتا ذائعا لكاتبه، ويرضي التدين المسيحي وفي هذا الصدد نقول : وجدت كنيسة في مدينة تطوان يحضر فيها راهبان بصفة مستمرة، وتسمى بالاسم المجيد لسيدة الملائكة، كما وجدت كنيسة أخرى في مدينة سلا يحضر فيها أيضا راهبان باستمرار وتسمى بالعيد المجيد للسيدة مريم القديسة.

في مدينة فاس توجد أيضا كنيسة أكبر من السابقتين يتواجد فيها راهبين، وأطلق عليها لقب السيدة القديسة حنا أم السيدة مريم. وتسمى فاس هذه بالجديدة، وقد أقامت فيها البعثة على مدار عدة أعوام ملجأها الذي كان يقيم فيه راهبان مرفوقان بعدة مسيحيين.

وقرب مدينة فاس الجديدة وعلى بعد ميل واحد منها توجد مدينة فاس الأخرى المسماة بالقديمة، والتي رويت أخبارها في مختلف كتب التاريخ، وفي هذه المدينة الكبرى أضيف في الثلاث سنوات الأخيرة كنيسة أخرى وملجأ.

لقد حدث في شهر مارس من السنة الماضية (1711)، أن الأسرى المساكين الذين تواجدوا في الملجأ مع الرهبان عانوا اضطهادا كبيرا نتج عن مكر وخبث بعض وجهاء هذه المدينة الذين كان أغلبهم يكن كرها للمسيحيين. إذ هيأوا خديعة وصلت أخبارها إلى الملك، بحيث أخبروه بأنباء خاطئة وحجج وحقائق مغلوطة تلتمس السيطرة على المنزل الذي يعيش فيه الرهبان والأسرى. وهكذا حصل هؤلاء الظالمون المفترون على إذن الملك، وعادوا إلى فاس، واقتحموا المنزل بجنون ثائر وضجة ووحشية كبيرتين، حتى بدا أنهم تحولوا إلى رجال متوحشين. شاهد الرهبان الخراب الذي خلفه هؤلاء، مما ولد في أنفسهم احتقارا أليما مشوبا بالدموع لن يقدر أحد من هؤلاء الهمجيين أن يعالجه، ولذلك استغاثوا بالسماء طالبين الثأر من الهمجيين لمعاقبة جهلهم.

لقد حدث كل هذا في الوقت الذي كان فيه أحد الراهبين يقول القداس، لذلك حاول الرهبان إيقافهم حتى ينجز القسيس بسرعةالقربان المقدس ويخلع الثياب المقدسة، إلا أن جهود الراهبين لم تفلح في إصلاح أي شيء، فكفر هؤلاء المغاربة واستعانتهم بالإذن الفاسق لقوانينهم دفعهم إلى تجاوز حدود المعقول. وهكذا التجأوا إلى حاكم المدينة الذي أمدهم بحراسه لإفراغ منزل المسيحيين ومحاولة هدمه بشكل تعسفي، وقد صادقت سلطتهم على ذلك، مع أن أمر الملك يقضي بحماية الملجأ وساكنيه، وقد احتج الرهبان على شر هؤلاء الزعماء وعلى بياناتهم الظالمة التي لا تنفذ بدون تلقي أمر من الملك، ومع ذلك نفذوها على أساس أنهم يؤدون واجب عملهم. وهكذا قاموا بإجراء جرد للمنازل والأكواخ التي يمتلكها المسيحيون، وقصفوا البراميل وقرب الماء والنبيذ، وفي الوقت نفسه أعطي الأمر بأن لا يسجل ولا يكتب أي شيء من الأشياء أو المصالح التي يمتلكها الرهبان. وأخرج المفترون من المنزل وأغلقت جميع الأبواب، واحتفظ بالمفاتيح، وأبقيت الحراسة الكافية حتى لا ينفذ أي عنف. لقد أظهر هؤلاء المغاربة للرهبان المنكوبين خبثا كبيرا، ونصحوهم ببشاشة غير معهودة بالانتقال إلى المدينة الأخرى حيث يوجد المسيحيون، لأن قاضي المدينة ملزم بتنفيذ الأمر الذي يتلقاه من الملك. وقد قبل المبشرون النصيحة الجيدة وانتقلوا ببعض خدمهم الذين أطلق سراحهم إلى فاس القديم، وهناك التجأوا إلى منزل المسيحيين الذي يشتغلون فيه بصنع البارود للملك، وأخبروا دير مكناس بما وقع لهم من غير أن يبينوا لهم هدف الانتقال، ثم اشتروا منزلا صغيرا، وأقاموا فيه مع المسيحيين منتظرين ماذا سيأتي من مكناس.

في الوقت الذي عانى فيه المسيحيون في فاس هذه المحنة، كانت مكناس تعيش أيضا أجواء سيئة، ذلك أن ابن الملك المسمى بمولاي علي قتل ابن أخيه المسمى بمولاي عبد المالك، وبما أن المغاربة ينسبون هذا الحدث إلى الإفراط في شرب الخمر، فقد أخبروا الملك بذلك وأكدوا له أن سبب تلك المصيبة هو فقدانهما للوعي من جراء احتسائهما لكمية كبيرة من الخمر.

شاع هذا الخبر السيئ بين المسيحيين، وارتابوا في أن يهدأ غضب الملك وأن يتراجع عن تنفيذ تصرفاته التعسفية، لذلك توجهوا إلى الدير كلاجئين ورافقهم الرهبان يطلبون من الله المغفرة، ويتضرعون للوساطة القوية لمريم القديسة حتى يهدأ غضب الملك ويلينه خبر ما، فلا يقوم بتصرف ما ضد المسيحيين.

لقد حزن رهبان مكناس لرؤية معاناة إخوانهم في فاس، لذلك كان عليهم اللجوء إلى

الملك من أجل مواساتهم، وقد شكوا كثيرا في الحصول على مقابلة حسنة نتيجة للمستجدات التي تعانيها مكناس، إذ كان الكلام محرجا في مثل هذه الظروف، ولا توجد وسيلة أكيدة لتحقيق أي نجاح في رفع المعاناة عن أولئك المنكوبين. إلا أنه بعد مرور أربعة أيام على وقوع الحادث تشجع راهبان للمثول في حضرة الملك، فقدموا له بكل تواضع وتدين شكوى إخوانهم بفاس وكانوا في منتهى الرضى وهم يدافعون على براءتهم.

سمع الملك بحلم مرافعة هؤلاء الرهبان وشهادتهم التي تثبت على أن المنزل الذي استولى عليه المغاربة بفاس هو ملك للرهبان. ثم أصدر أمره بأن يرد المنزل مرة أخرى، وبأن لا يرتكب أحد في مملكته هذه المظاهر المثيرة لغضبه أو يتدخل أحد في المسائل الخاصة برهبان إمبراطوريته.

أرسل هذا الظهير إلى حاكم فاس على يد أحد خدم الملك. وقد وجد المبشرون في شخص هذا الحاكم عطفا ورحمة، إذ قام باستدعاء أهم شخصيات المدينة والجيران، ليسترد الرهبان وجميع المسيحيين منزلهم القديم في هدوء، ثم عقد لهم مأدبة في منزله حيث قام الحاضرون بتوبيخ المعتدين على دير المسيحيين بعبارات مخزية تستنكر تصرفهم المشين. وفي الوقت نفسه واسوا الرهبان، وأكدوا لهم إرادتهم الحسنة التي شوهدت دائما في هذه المدينة على أن يكونوا جيرانا شرفاء وأمناء. وهكذا رجع المبشرون إلى منزلهم القديم، وفي الوقت نفسه إلى منزل آخر في المدينة الكبيرة حيث يوجد المذبح الذي يحتفل فيه بالأعمال الإلهية. وقد تم العزم على الحفاظ على هذين المنزلين، حيث قسم الرهبان الأيام الاحتفالية لكي يتمكن جميع المسيحيين من الاستماع إلى القداس في مختلف الأيام.

ومن الكنائس الأخرى التي نحكي عنها هناك كنيستان في مكناس تعتبران أساسيتان في البعثة. الأولى توجد داخل الدير المسمى بالحمل الطاهر لسيدتنا، وهو اسم جميل حظي به الدير والبعثة، وتتألف هذه الكنيسة من ثلاثة مذابح، ورابع بني في اصطبل المستشفى، لكي يتمكن المرضى من سماع القداس.

أما الكنيسة الأخرى، فتوجد في مكان مميز لسكن الأسرى، وهذا الموقع هو عبارة عن قرية محاطة بسور، قريبة من وسط مكناس، تسع لستمائة مقيم من مختلف الجنسيات. ومن أجل تفادي بعض السلبيات وتوفير الهدوء الكامل، فقد وزع هؤلاء المقيمون على مختلف أحياء هذه المدينة لكي يسكن كل واحد منهم مع مواطنيه.

في وسط هذه القرية إذن توجد الكنيسة السادسة والأخيرة من هذه الكنائس، ولأنها جد قديمة وضيقة ومهددة بالانهيار بشهادة الأساقفة، فقد هدمت إلى حد أساساتها وأعيد بناؤها من جديد بسعة مريحة تكفي لإيواء جميع المسيحيين، بحيث شيدت من ثلاث قاعات وعلى خمسة قضبان أكثر طولا، وثلاثة أكثر في الارتفاع. أما أرضيتها التي كانت من قبل خشنة، ومن تراب ولم تكن تسمح بالنظافة الجيدة، فقد أصبحت الآن لائقة وحسنة المنظر، إذ ركبت بلاطات من الحجر الرخامي ومن القاشاني بأحجام مختلفة وملونة شكلت تنوعا جميلا يفتن الأنظار. ونحتت أيضا صور وبني عرش جديد بتخطيطات هندسية غريبة، وعلقت صورة لسيدتنا مريم القديسة أحضرت من إسبانيا، وقد رسمت بيد رسام جسد فيها أسطورة عيدها المجيد، إطاراتها مذهبة ونسيج ستارها من الذهب. أما الأضواء فإنها تشاهد من خمسة نوافذ بشبابيك من حديد تمتد على الحائط الجديد، وكل هذا يثير ولاء كبيرا وحنوا عند المسيحيين الغيورين والمتحمسين للعبادة الإلهية.

في بناء الكنيسة التي نحكي عنها لوحظت بعض الأمور العظيمة الموجبة لليقظة والحكمة، إذ كان من اللازم البحث عن مغاربة يعملون في الخدمات التي يأمر بها المسيحيون، ويمتلكون في الوقت نفسه الاستعداد للعمل في بناء الكنيسة، وهذا أمر لا يقبله المغاربة، لأنه يتعارض مع كثير من أخطاء ملتهم.

ومن هنا نستخلص أنه لا يمكن الشروع في هذا البناء نتيجة وجود نقص في البنائين، وانعدامهم بين المسيحيين. ولكن على المستوى العملي كان كل شيء عكس ما سبق ذكره، فقد أقبل المغاربة على العمل برغبة منقطعة النظير دون أن يتبادر إلى تفكيرهم ارتياب فيما يقومون به، بل إنهم كانوا يعملون بكثير من المواظبة والإصرار التي لا يحرصون عليها في أعمالهم الخاصة بهم، لأنهم يعرفون أنهم يحظون بالاحترام والرضى وهم يعملون في الكنيسة.

استغرق البناء شهرا، وفي تلك الأثناء شاع الخبر في جميع أنحاء المدينة إلى درجة أن عددا لا يحصى من الأشخاص من جميع الشرائح حضروا لفحص هيئة الدير فنتج عن ذلك خوف كبير لدى الرهبان، وندموا على اتخاذهم قرار البناء الذي أثار كل ذلك الاهتمام. لكن حضور العناية الإلهية جعل جميع الأشخاص الذين حضروا لا يقومون بفعل ولا ينطقون بكلمة تثير الشبهة. والواقع أن جميع المغاربة لما شاهدوا حماس المسيحيين في العمل ورأوا الرهبان يشاركون بدورهم في رفع أكياس المعدات، وشاركوهم في العمل باحتفال وفرحة كبيرين. وكان هناك مغربي تميز بصفة خاصة وسط هؤلاء لاعتقادهم في عفافه بالرغم من روحه المرحة التي تدفعه إلى القيام ببعض الأعمال المثيرة للضحك مثل إحضار

ثعبان حي داخل صدره وأفعال أخرى مماثلة تثبت على أنه ساحر كبير، إلا أن ذلك لم يشغله عن الحضور يوميا في المواعيد المحددة والعمل المستمر في جميع الأيام، والقيام بمراقبة المعلمين ومنعهم من التوقف عن العمل.

أما بالنسبة إلى مواد البناء التي تستهلك بكثرة كالكلس، والحجر، والطوب، والخشب هي هبات من المغاربة أنفسهم، فابن أكبر قائد لهذه المملكة ؟وهو ودود مع الرهبان؟ قد بادر إلى إهداء كل الكلس الذي يكفي عندما بين له العمل، وشرحت له قلة الوسائل، كما قدم آخرون كاليهود والمرتدين هبات أخرى أقل أهمية. فالكل في هذه البلدة السعيدة ساهم في هذا البناء إما بالمشاركة في العمل أو إعطاء الصدقات.

لقد تم الانتهاء من إنجاز الكنيسة دون حدوث أي أمر محزن، وهذا يعود إلى العناية الإلهية التي يسرت عمل كثير من الأشياء دون أية معارضة. وهكذا نرى سكان مدينة بابل، وهم الأعداء الأكثر تطرفا ضد المسيحية يطلبون برجاء السماح لهم برؤية الكنيسة عند الانتهاء من إنجازها، وقد أذن لمن لم يعرف عنهم أمور سيئة. لقد أضحت الكنيسة كلها مزخرفة، العرش، والصور والأصباغ واللوحات... ولذلك احتار الزوار، وأعجبوا بشكل هذا العمل إعجابا عميقا، فقد قالوا بلغتهم: "حقيقة أن المسيحيين يسبقون المغاربة في المعرفة وفي عبادة الله. فرغم أن هؤلاء الأسرى المساكين منفيون من وطنهم، فإنهم يسهرون بشدة على العناية بكنيستهم، في حين نحن في أرضنا لا نجتهد في مثل هذه الأشياء المشابهة".

هذه الأقوال سمعها بعض المسيحيين العارفين باللغة، وبكل إيمان وابتهاج أتوا إلى الرهبان لإخبارهم بها. وهكذا فإن من يقرأ هذه الرواية التاريخية يتبين له جليا ورع وتدين المسيحيين واجتهادهم في تزيين ونظافة معابدهم، ومؤكد أنهم لن يبنوا معابد ضيقة، ولن يشاهد الفقر، وقلة النظافة التي يعاني منها عدد لا يحصى من الكنائس الموجودة في أراضي المسيحيين أنفسهم.

بالإضافة إلى هذه الكنائس الستة توجد في البعثة أديرة أخرى، وأماكن لممارسة الشعائر المقدسة في مختلف الأوقات. ففي مدينة طنجة حيث يصل إلى مينائها عدة مراكب لتجارة المسيحيين، يوجد منزل شيد به مذبح يحتفل فيه بالقربان المقدس، يذهب إليه أحد ميشري تطوان عندما يستدعي الأمر ذلك. أما في مدينة العرائش حيث ما زال يعيش هناك كثير من المسيحيين الأسرى وبعض التجار الرومان، يوجد أيضا منزل يأتي إليه راهب ثلاث أو أربع مرات في السنة لأداء الشعائر، وذلك من أجل مواساة هؤلاء

المسيحيين وتقويتهم بسر الاعتراف والقربان المقدس.

كما يوجد أيضا في مدينة مكناس دير في حدادة الملك التي يعمل فيها كثير من المسيحسسن، حيث يقومون بعدة حفلات في السنة، وفي الأيام الأكثر احتفالية يؤدى القداس، وذلك من أجل تقوية الورع والتدين.

وفي اصطبلات الملك التي تبعد ميلين عن المدينة يعيش هناك جزء مهم من المسيحيين، ويملكون ديرا تمارس فيه شعائر القداس عندما تسمح بذلك ظروفهم، لأن بعد المسافة قد يعرضهم إلى بعض الأخطار.

ودائما في البلدة نفسها حيث يعيش المسيحيون؟ كما قلت سابقا - موزعين على عدة أماكن مختلفة تبعا لاختلاف جنسياتهم، يوجد في منطقة البرتغاليين دير داخل المستشفى. وقد جدد هذا الدير في السنوات الثلاثة الأخيرة ليصبح أكثر قدرة، حيث يؤدى فيه القداس، ويحتفل بالقربان المقدس في بعض حفلات السنة، وذلك من أجل تسليتهم الروحية وتسلية مرضاهم.

في جميع هذه الكنائس والأديرة يوجد كل ما يمكن أن يحتاج إليه من كؤوس ومذابح وثياب مقدسة ليس فقط في أيام الاحتفالات، ولكن أيضا للخروج إلى النجدة إذا استدعت الحاجة إلى ذلك. ويحظى دير مكناس بعناية خاصة فهو مجهز بكل شيء وبوفرة بالغة لكي يتمكن من إعانة جميع المذابح والكنائس والأديرة في جميع الوظاءف ومختلف الأوقات، وذلك تماشيا مع الطقوس الدينية المقدسة.

ويحافظ على السر المقدس للقربان المقدس بصفة دائمة في كنيستين فقط، وهما كنيسة دير مدينة مكناس، وكنيسة ملجأ فاس، حيث توجد هناك بيوت القربان المقدس المناسية في أماكن مخفية لقضاء الحاجة، إذ يقل فيها الخطر عن غيرها. أما في الكنائس الأخرى فيحافظ فقط على الزيت المقدس للمرضى عندما تستدعيه الحاجة.

- **عن الممارسات التي يقوم بها الرهبان والأسرى في هذه الكنائس :**

تشكل المعابد أماكن محددة للتعبير عن طرق دينية من العبادة الإلهية. وسأتكلم في هذه الفقرة عن الممارسات المختلفة لتكريم وعبادة الإله الحقيقي، وعن الأعمال التي اشتغل بها الرهبان والأسرى في هذه المعابد.

يعتبر منزل مكناس ديرا رسميا، ويحظى أسقفه بلقب الحارس المختار مثل أساقفة الأديرة الأخرى التابعة للمذهب. ويتوفر هذا الدير على ستة إلى ثمانية أو أكثر من الرهبان

الرعايا، بالإضافة إلى أصحاب الملاجئ الذين يخضعون إلى أسقف مكناس، ويفضلون قوانيننا رغم أنهم يزيدون عن اثني عشر راهب.

إن ما يمكن تأكيده هنا أننا في هذا الدير ندبر كل أمورنا من أجل ممارسات الجماعة التي تلزمنا بها قوانين ديننا المقدس. وبهذا المقتضى يمثل العمل الإلهي المهمة اللازمة للجماعة الدينية والتي تنفذ بصفة ضرورية في جميع الأيام. ورغم أنه يصعب الحفاظ على النظام الوجيه لكنيستنا الأم بالنسبة إلى توزيع الساعات القانونية، فإن العمل الإلهي يصلى في جميع الأيام، بالإضافة إلى الغناء في بعض الأوقات، وتتوزع الصلاة بشكل خاص، بحيث تؤدى كل صباح مرة واحدة خلال ساعات قليلة، وتؤدى كل مساء في الساعة المخصصة لها، وهكذا فإن البدايات والنهايات وصلوات الفجر، كلها تقضى بشكل مطابق مع القوانين الكنائسية للمذهب، كما ترتب هذه الأمور بتوافق مع الأعمال المنفردة لإسبانيا حسب بيان أصدرته الجمعية المقدسة للشعائر الدينية بطلب من مبشرينا.

ويحتفل في جميع هذه الكنائس بقربان القداس العظيم في سائر الأيام عند طلوع الشمس كل يوم، حتى وإن لم يكن اليوم مخصصا لأداء الفرض، ذلك أن الورع الكبير لهؤلاء الأوفياء، والذي يلاحظ في جميع الجوانب يجعل الفرق ضئيلا بين مختلف الأيام.

ففي هذه المدينة حيث يوجد المسيحيون، يعيش بعض الكهان الأسرى في مواقع خارج الدير، لذلك نرى هؤلاء الأوفياء يهبون دائما لحمايتهم، ويكرسون وقتهم لتنظيف الكنيسة والمذابح وأداء القداس في سائر أيام الأسبوع. وفي جميع الأيام التي تسبق العيد يذهب مبشر واحد، أو أكثر، ليسمع القداس لجميع من في البلدة ويذكرهم بالأعياد وواجبات الصوم التي تكون في الأسبوع الموالي.

يجتمع الرهبان في الكنيسة في جميع الأيام في ساعة الصلاة على مريم العذراء، ومثل ذلك يقام في باقي الملاجئ. وبعد أداء الجميع للصلاة والسلام الملائكي بما فيهم المرضى والمسيحيين التابعين لمصلحة المنزل، يصلى الصليب والقربان المقدس، وتؤدى تراتيل أم الإله مع صلوات أخرى وعبادات أدخلها مبشرونا الموقرون. ثم بعد ذلك يقرأ في كتاب روحي موضوعا عن الصلاة الذهنية التي تدوم ساعة. وعند الانتهاء من هذه الصلاة يسطر نظام مطابق لما تقتضيه قوانين إقليمنا المقدس، تحدد فيه أيام صيام الميلاد وصوم الأربعين والوقت الباقي ثلاثة أيام في الأسبوع.

بالإضافة إلى هذه الأعمال الجماعية هناك أمور أخرى تتصل بقاعة الأكل. إذ تتم

إدارة الغذاء الذي يحتاج إليه الرهبان بنظام وهدوء، في هذا الدير وباقي الأديرة الأخرى التابعة للمذهب. وخلال فترة الأكل يقرأ راهب في كتاب روحي، ويتناوب الكل على أداء هذه الممارسة المقدسة. وتتم هذه القراءة في جميع الأيام، وتتعطل عند مجيء أحد أبناء الملك، وذلك لسببين أولهما، أن ابن الملك لا يمكن منعه من الدخول، وثانيهما أنه ليس من الإيجابي القراءة في حضرته.

أما الوقت الذي يفضل عن هذه الأعمال الجماعية فيجتهد فيه كل راهب – في غرفته الخاصة – في الدراسة وقراءة الكتب لكي يمتلك القدرة على إدارة شؤون حياة المسيحيين. وهكذا يتم الوعظ بكلمة الله بصفة دائمة، بحيث إذا قورن بين كنائس وأديرة البلاد المسيحية وبين الكنائس في بلاد البربر، نخلص إلى أن الوعظ في الكنائس البربرية أشد قوة مما هو في الكنائس بالبلاد المسيحية. وعلة ذلك أنه في جميع الأعياد التي تنسب إلى يسوع المسيح وأمه القديسة والحواريين المقدسين، يتلقى المسيحيون خطبة دينية في الكنيسة.

وفي عيد أبينا الملائكي سان فرانسيسكو تعدد فضائله العجيبة بإخلاص وتهافت من قبل الأوفياء، وذلك خلال عرض القربان المقدس ويحدث ذلك أيضا في أعياد أخرى كثيرة خلال السنة، يميل إليها المسيحيون بعواطفهم الحنونة. ذلك أنه رغم الضيق الذي يسببه لهم الأسر الطويل يوجد منهم من يتفرغ بكل ورع للاحتفال بالقديسين. ويكون هذا الاحتفال بإلقاء خطبة دينية، وعرض مقدس، وأضواء وافرة، وتوزيع الأكل على الفقراء، وأعمال خيرية أخرى مشابهة، تتمثل في إعطاء الصدقات لهؤلاء الفقراء لتمكينهم من العيش في ظروف أحسن في الإمبراطورية ذات المجد الخالد، (يعني حياة الأخرى).

ورغم هذه الأعياد والمظاهر الدينية التي تشاهد بكثرة طيلة السنة، ويتجسد فيها اعتناء الرهبان المبشرين بالتدين المسيحي وحماستهم له، فإن الكل يتحمس بشدة للاحتفال اللائق بعيد الولادة الطاهرة لمريم القديسة أم الإله وسيدتنا الشفيعة، التي لقب باسمها هذا الدير والبعثة.

في اليوم الأول من العيد يشكل مذبح عظيم يسع لاثنين، وفي بعض الأحيان لثلاثة أحمال من الشموع، وبعد ذلك يكمل هؤلاء المسيحيين. وفي اليوم الثامن تكون الاحتفالات على حساب الطريقة الثالثة المجيدة للأب الملائكي سان فرانسسكو. وفي جميع الأيام الثمانية للعيد يؤدى العرض المقدس مرتين في كل يوم، الأول في الصباح قبل الفجر عندما يغنى القداس، والثاني في الليل في ساعة الأرواح، حيث يتم الوعظ بخطبة دينية. وتغنى في

كلا المناسبتين مختلف الأغاني الدينية عن ميلاد المسيح العجيب بأدوات موسيقية تشكل مصلى موسيقيا مناسبا يندهش ويتعجب له كل من شاهده في مكناس، بحيث لا يمكن كبح هذا الإعجاب الذي ينتهي بالدموع الغزيرة، وذلك إجلالا للأميرة ملكة السماوات، وللأرض التي يحتفل فيها بكثير من الأضواء الساطعة بين سحب الأعداء المظلمة.

وخلال الأيام المقدسة للصوم الكبير يمارس الوعظ بمواظبة وبصفة دائمة، وذلك بسبب لجوء المسيحيين الأوفياء إلى الدير وسعيهم المتواصل إلى الرهبان من أجل تحصيل الفائدة. ومنذ أربعاء الرماد، تعلق ورقة في الكنيسة يشهر فيها نائب الرئيس الحواري اليوبيل المسمى "بالأربعين ساعة" في الأحد الخامس من أيام الصوم الكبير، وهذا يعتبر واحدا من المزايا المنفردة التي يهبها الكرسي الحواري. ويشهر هذا اليوبيل نفسه بالاحتفالية نفسها في كل الكنائس الأخرى للبعثة، ويستمر الوعظ في مكناس في سائر الأيام، حيث تتوزع مهام الوعظ بين الرهبان، فمنهم من يحملون على عاتقهم شرح الأناجيل المقدسة، ومنهم من يشرح ويعدد فضائل الإنجيليين القديسين لتلك الأيام، وآخرون يواظبون على رواية وتهذيب القصص المقدسة التي تحيط بمختلف مراحل أسر الشعب العبري، والتنبيه إلى المعجزات الإلهية التي تحققت مرات كثيرة لصالح الإسرائيليين. ويواظب الرهبان على كل هذه الأمور لكي لا يفقد المسيحيون الأسرى الأمل ويتشجعوا كسابقيهم ويتمكنوا من مشاهدة تكرار هذه المنافع المفيدة نفسها في هذه الأوقات.

وعلى هذا النحو تتوزع هذه المهام بمشاهدة متنوعة وبصفة دائمة، لأنها تشكل ثوابت حقيقية للكتب المقدسة التي تهيئ غذاء ضروريا للعارفين والجهلاء على حد سواء، لذلك نعترف بالفضل لهما.

وتمارس مهمة الوعظ أيضا في الملاجئ، حيث يكون الوعظ بكلمة الله واجبا في جميع أيام الاحتفال، ويوجه إلى جميع المسيحيين سواء منهم الأحرار الذين يمارسون التجارة في الموانئ، أو الأسرى الذين يحسنون التصرف من أجل استيفاء فروض كنيستنا الأم المقدسة، والحصول على ثواب اليوبيل المقدس.

وفي عيد أبينا الملائكي سان فرانسيسكو تعدد فضائله العجيبة بإخلاص وتهافت من قبل الأوفياء، وذلك خلال عرض القربان المقدس ويحدث ذلك أيضا في أعياد أخرى كثيرة خلال السنة، يميل إليها المسيحيون بعواطفهم الحنونة. ذلك أنه رغم الضيق الذي يسببه لهم الأسر الطويل يوجد منهم من يتفرغ بكل ورع للاحتفال بالقديسين. ويكون هذا

الاحتفال بإلقاء خطبة دينية، وعرض مقدس، وأضواء وافرة، وتوزيع الأكل على الفقراء، وأعمال خيرية أخرى مشابهة، تتمثل في إعطاء الصدقات لهؤلاء الفقراء لتمكينهم من العيش في ظروف أحسن في الإمبراطورية ذات المجد الخالد، (يعني حياة الأخرى).

ورغم هذه الأعياد والمظاهر الدينية التي تشاهد بكثرة طيلة السنة، ويتجسد فيها اعتناء الرهبان المبشرين بالتدين المسيحي وحماستهم له، فإن الكل يتحمس بشدة للاحتفال اللائق بعيد الولادة الطاهرة لمريم القديسة أم الإله وسيدتنا الشفيعة، التي لقب باسمها هذا الدير والبعثة.

في اليوم الأول من العيد يشكل مذبح عظيم يسع لاثنين، وفي بعض الأحيان لثلاثة أحمال من الشموع، وبعد ذلك يكمل هؤلاء المسيحيين. وفي اليوم الثامن تكون الاحتفالات على حساب الطريقة الثالثة المجيدة للأب الملائكي سان فرانسسكو. وفي جميع الأيام الثمانية للعيد يؤدى العرض المقدس مرتين في كل يوم، الأول في الصباح قبل الفجر عندما يغنى القداس، والثاني في الليل في ساعة الأرواح، حيث يتم الوعظ بخطبة دينية. وتغنى في كلا المناسبتين مختلف الأغاني الدينية عن ميلاد المسيح العجيب بأدوات موسيقية تشكل مصلى موسيقيا مناسبا يندهش ويتعجب له كل من شاهده في مكناس، بحيث لا يمكن كبح هذا الإعجاب الذي ينتهي بالدموع الغزيرة، وذلك إجلالا للأميرة ملكة السماوات، وللأرض التي يحتفل فيها بكثير من الأضواء الساطعة بين سحب الأعداء المظلمة.

وخلال الأيام المقدسة للصوم الكبير يمارس الوعظ بمواظبة وبصفة دائمة، وذلك بسبب لجوء المسيحيين الأوفياء إلى الدير وسعيهم المتواصل إلى الرهبان من أجل تحصيل الفائدة. ومنذ أربعاء الرماد، تعلق ورقة في الكنيسة يشهر فيها نائب الرئيس الحواري اليوبيل المسمى "بالأربعين ساعة" في الأحد الخامس من أيام الصوم الكبير، وهذا يعتبر واحدا من المزايا المنفردة التي يهبها الكرسي الحواري. ويشهر هذا اليوبيل نفسه بالاحتفالية نفسها في كل الكنائس الأخرى للبعثة، ويستمر الوعظ في مكناس في سائر الأيام، حيث تتوزع مهام الوعظ بين الرهبان، فمنهم من يحملون على عاتقهم شرح الأناجيل المقدسة، ومنهم من يشرح ويعدد فضائل الإنجيليين القديسين لتلك الأيام، وآخرون يواظبون على رواية وتهذيب القصص المقدسة التي تحيط بمختلف مراحل أسر الشعب العبري، والتنبيه إلى المعجزات الإلهية التي تحققت مرات كثيرة لصالح الإسرائيليين. ويواظب الرهبان على كل هذه الأمور لكي لا يفقد المسيحيون الأسرى الأمل ويتشجعوا

كسابقيهم ويتمكنوا من مشاهدة تكرار هذه المنافع المفيدة نفسها في هذه الأوقات.

وعلى هذا النحو تتوزع هذه المهام بمشاهدة متنوعة وبصفة دائمة، لأنها تشكل ثوابت حقيقية للكتب المقدسة التي تهيئ غذاء ضروريا للعارفين والجهلاء على حد سواء، لذلك نعترف بالفضل لهما.

وتمارس مهمة الوعظ أيضا في الملاجئ، حيث يكون الوعظ بكلمة الله واجبا في جميع أيام الاحتفال، ويوجه إلى جميع المسيحيين سواء منهم الأحرار الذين يمارسون التجارة في الموانئ، أو الأسرى الذين يحسنون التصرف من أجل استيفاء فروض كنيستنا الأم المقدسة، والحصول على ثواب اليوبيل المقدس.

ويؤدي الرهبان الوعظ بثبات ومثابرة كبيرين، فبحسب تجربتهم تنتشر في أرض البربر الحرية والعادات الخليعة والمدنسة، وبما أن المسيحيين يتاجرون باستمرار مع المغاربة، فإن هذا يفرض المواظبة على إلقاء صوت كلمة الله في أسماع الرعية الكاثوليكية وإنذارهم بالحقيقة والخطر الذي يهددهم به المحمديون الذئاب.

ولا يقف الأمر عند حد هذا العمل المحكي عنه في الكنيسة، ذلك أن وجود الأسرى والمرضى داخل الدير، وحضور الكثير من المسيحيين التابعين لمصلحة الدير والمستشفى يستلزم بالضرورة الحضور طيلة مدة الصيام ثلاث مرات في كل أسبوع، وذلك في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، من أجل وعظهم بعظات روحية تسلي المرضى وتخفف آلامهم، وتعرف للجميع صحة الروح.

وعلى هذا النحو من العمل المتواصل تحصد البعثة نتائج وافرة، تتجسد في التواتر الكبير للأسرار المقدسة، بحيث لا يمر يوبيل في السنة دون أن يسجل فيه كثير من الاعترافات والعشاءات الربانية. ففي أيام الصوم الكبير تجرى كثير من التكفيرات العامة مثل أعمال الدم والسلاسل وممارسات أخرى مقدسة تؤدي إلى تعذيب بعضهم لمنح العبرة للآخرين. وعندما يأتي اليوم الشهير لليوبيل السعيد للأربعين ساعة، يتنامى حماس القساوسة ويقضون الجانب الأكبر من الليل يسمعون الاعترافات. و في يوم الفصح في الخميس المقدس تأتي كثرة كبيرة للامتثال أمام الكنيسة حيث يصل عدد المسيحيين الذين يوفون الفروض الإكليروسية إلى الألف، لذلك تكون هناك صعوبة في سماع كل الاعترافات.

ومن الفضائل التي تميزت بها البعثة هناك المذهب الثالث المحترم لسر الاعتراف لأبينا الملائكي سان فرانسيسكو. وقد أسس هذا المذهب من قبل مبشرينا القدماء

ويتألف اليوم من قرابة مائتي راهب عضو يساعدون المبشرين بممارساتهم المستمرة من أجل إصلاح عادات الشعب المسيحي. ويحتفل في كل سنة بعيد أبينا القديس سان فرانسيسكو وكذلك بعيد القديس أو القديسة المعلن عن حمايتهما ورعايتهما للمذهب.

وتؤدى العبادات الدينية بقداسة في الأيام الثمانية لعيد الولادة الطاهرة لسيدتنا. ويقام مأتم جليل تلقى فيه خطبة من أجل أرواح إخوانهم الموتى. فالذين يموتون في هذه الأرض يحضرونهم بالتابوت والشمع، ويرافقونهم حتى القبر مهدين إياهم صلاة وقداسا مغنى. وفي كل الأشهر يقام عشاء رباني عام، وفي كل اثنين يغنى القداس من أجل الموتى، ثم بعد ذلك يمر بموكب الأرواح.

وفي كل جمعات السنة يمشون بجماعة يحملون الصليب بأقدام حافية في شوارع البلدة. وفي وقت الصوم الكبير ينضاف إلى هذا الموكب التقي شيئان: غناء الكتاب المسيحي في هذه الشوارع نفسها في كل يوم اثنين، وغناء العذب والرنان من أسطورة آلام سيدتنا في كل أربعاء. وينتهي الموكب في الكنيسة بعبادة الصليب التي يؤديها اثنين مع اثنين بأقدام حافية. وبهذه الطقوس الركوعية والانحنائية نفسها تحيي الكنيسة يوم الجمعة المقدس.

وفي جميع ليالي السنة يجتهد الرهبان الأعضاء في استدعاء المسيحيين لأداء صلاة السبحة المقدسة في الكنيسة، وتراتيل سيدتنا. وقد انتشرت هذه العبادة في كل الأماكن حيث تجتمع مجموعة من المسيحيين في الدير ليلا لأداء هذه الممارسات الروحية بحضور المرضى والأصحاء معا، فتؤدى ممارسة الطريق المقدس في كل اثنين وأربعاء وجمعة في إصطبل المستشفى، وتصلى السبحة المقدسة وتراتيل أم الإله في الأيام الباقية من الأسبوع.

ولا يسمح الرهبان بالتراخي في تنفيذ هذه الأمور لأنهم يعرفون جيدا أنهم يعيشون وسط الكفار، وهذا يقتضي الاستعانة المستمرة بالله وبالأم القديسة للحماية والرعاية في المحن الكثيرة.

وهكذا فإن كل عمل كنائسي يحتفل به في كنائس المسيحية ينفذ في كنائس البعثة، فيحتفل بفرض الرماد، وتوزيع الشعلات وباقات الزهور. وفي الأسبوع المقدس تغنى (الظلامات) في جميع الأنحاء، ثم يؤخذ الأثر الذي يضم ويحفظ بصيانة كبيرة جسد المسيح المقدس، وهذا شيء يجري في جميع الكنائس والملاجئ، بصرف النظر عن

حجمها. ففي مكناس حيث يكثر عدد القساوسة المبشرين ومنهم الأسرى، تنجز كل هذه الأشياء باحتفالية أكثر، ففي الدير توجد الصيانة الكافية للملابس المقدسة، والكثرة الكافية من القساوسة والتواجد الكبير للمسيحيين.

في الخميس المقدس يتم الوعظ بثلاث خطب في مكناس. الأولى تتم صباحا في الدير في الساعة العاشرة. وبعد الانتهاء من أداء الغسل الذي ينجز في جميع السنوات من قبل الأسقف ورئيسين لابسين كالعادة، يعدون اثني عشر بذلة جديدة توزع على اثني عشر من المساكين الأسرى الأكثر عفة واحتياجا. حيث يعترف هؤلاء المساكين ويتناولون العشاء الرباني في اليوم نفسه. وبعد الخطبة يقدم إليهم أكل غزير يوزعه الرهبان على المائدة. وفي باقي الوقت الذي يفصل عن أعمال يوم الجمعة المقدس يتناوب راهبان مع اثنين آخرين ليركعا أمام الأثر بمشاعل مضيئة في أيديهما، وذلك بمصاحبة آخرين يرتدون لباس الجنود لحراسة القربان المقدس.

أما الخطبة الثانية للخميس المقدس، فتلقى في الدير أيضا في الساعة الأولى من الليل، وفيها تعدد لطافات إلهنا وسيدنا الدائم الجلالة والاحترام.

أما الخطبة الثالثة والأخيرة للخميس المقدس فتتم في الليل أيضا، ولكن يوعظ بها في كنيسة إقامة المسيحيين. وفي هذه الخطبة تسرد وتشرح الطرق التي تتضمنها القصة المقدسة لآلام موت معلمنا ومنقذنا يسوع المسيح.

ويعتبر ليل الجمعة المقدسة من أهم المناسبات المؤثرة في جميع المسيحيين، والتي يحضرها جميع الرهبان. فعندما يبدأ نزول الظلام تذهب الجماعة إلى حيث يقيم الأسرى، ويدخلون إلى الكنيسة، وهناك تغنى الشعائر الإلهية، ثم بعدها يتم الوعظ بخطبة العزلة التي تنتهي بإنزال جسد يسوع منقذنا الذي أعطى بموته أفضل حياة للرجال، حيث تفهم المعاني التأملية التي يلقيها الخطيب بليونة كبيرة. وتنفذ الأفعال العجيبة من قبل رجلين محترمين، يرتدون لباشا محتشما ويصحبهم بعض الأطفال المناسبين للحادث، والذين يضفي عليهم لباسهم مظهر الملائكة، ليستقبلوا أدوات آلام المسيح، والتي تؤخذ بعد ذلك بوقار كبير، وتوضع بأيدي صورة مقدسة لمريم القديسة في عزلتها الراشدة. هذه المدلولات هي جد واضحة للحواس، إلا أن صوت الواعظ يزيد ارتفاعا ليعدد هذه الأفعال العجيبة ويثبت لنا ما نسيناه من ماضينا نتيجة لقلة اعتباره والغفلة عنه والجحود لفضائله. وتتعالى في محفل الحضور زفرات الخدم ودموع

المعترفين المصحوبة بآمال فاعلة للتغيير إلى حياة أفضل. وبعدما يتم الانتهاء من خطوة الإنزال يهيأ موكب ديني للجنازة المقدسة، ويرافقه عدد كبير من المسيحيين الذين يلتمسون إذنا من حكامهم ليتواجدوا جميعا في الكنيسة في تلك الليلة. وتظهر أضواء كثيرة من خارج الموكب الذي يمشي فيه الجميع بالمشاعل والشموع. وحتى الذين لا يلتزمون بواجب المسيحيين، تجدهم يحملون مشعلا خلال مرور الموكب. ومن ثم يذهب الجثمان المقدس إلى قبره، فهو معجز بفقره وصنعته المتمثلة في النجارة. ولحمله في الموكب يوضع على أكتاف القساوسة، ويصاحبه الأطفال المرتدون للباس الملائكة، يحملون في أيديهم السلالم والأدوات المقدسة لآلام المسيح. ويغنى مزمور "خروج إسرائيل" بأصوات رنانة وعذبة ومنسجمة، تصدر أصداؤها المجتمعة عن ضربات المكفرين الذين يبلغ عددهم ما بين الثلاثين والأربعين رجلا يحدثون هيجانا كبيرا ووقارا ورصانة وهدوءا، بحيث لا تسمع إلا التنهدات ولا تشاهد إلا الدموع في الأعين.

أما بالنسبة إلي، فقد تأثرت كثيرا بهذه المظاهر الاحتفالية التي قدمت إلي عبرة كبيرة، بحيث شاهدتها لمدة سبع سنوات متتالية، وفي كل سنة كانت تبدو لي شيئا جديدا كأنني رأيته لأول مرة. وأستطيع أن أجزم من خلال تجربتي، ومن خلال ما رأيته أنه لا يمكن أن نصادف أفضل من هذه المناسبة لإثارة وتليين القلب المسيحي الشديد الصلابة والقسوة.

لقد حدثت كل هذه الطقوس في منتصف الليل، وبما أن مكان تواجد المسيحيين يقع في وسط المدينة، فإن المغاربة كانوا يشاهدون ويسمعون كل شيء خاصة وأن منازلهم كانت هي السائدة والأكثر علوا. وقد كان بعضهم يحزنون ويشفقون لحال المسيحيين الذين يريقون عن طواعية دمهم الطاهر بغزارة كبيرة. ونشير هنا إلى أن هؤلاء المغاربة رغم مشاهدتهم وسماعهم لهذه الأشياء، لم يحاول أحد منهم أن يمنع ذلك إلى أيامنا هذه.

إن كل ما سبق يؤكد أن هدف التدين المسيحي هو التفاني في خدمة الله، ونتبين أن جميع حفلاتنا المقدسة، وعجائب ديانتنا المسيحية أقيمت في هذه الأرض بين أكبر أعدائنا بالاحتفالية نفسها التي تقام بها في الأرض المسيحية، وكأن كافة من في المملكة مسيحيون، بحيث لا يترك شيء من هذه الحفلات المهيبة، باستثناء دقات الأجراس والخروج إلى الشوارع العامة. وأكبر هذه الأعياد وأهمها هو عيد القربان المقدس الذي يعتبر أعجب ما في عقيدتنا. وهكذا تجدهم يحتفلون بالقداس مرتين في مدينة مكناس بغرابة لا توصف. ويجري الاحتفال باليوم الرئيس في سكنى المسيحيين، ويحتفل بيوم

الأحد في الدير. وفي اليوم السابق لعيد الجسد وبعد أن يقوم الأسرى والرهبان بجميع ممارسات المستشفى والدير، يذهب جميعهم إلى مكان إقامة المسيحيين. وفي ساعة "الأرواح" يشير الأسقف إلى تشكيل دورية تتألف من بعض رؤساء الأسرى، وضباط آخرين. ويهدف هذا التشكيل إلى تفادي حدوث أي شيء مقلق عند ازدحام الجمهور، أو تشتت للقدرات. وبعد ذلك يبدأ بتشكيل المذابح في أماكن مختلفة، بزينات كثيرة وتحف غريبة يعدها المسيحيون من قبل، بحيث تشكل خمسة أو ستة مذابح عجيبة ولائقة رغم ضيق المكان والشوارع. ويتنافس في تشكيلها نوابغ ذوو أفكار مبتكرة. وعند الانتهاء من هذه المذابح، وتزيين الشوارع بالزهور والعشب، وعدد لا يحصى من المشاعل يذهبون لتوزيع الناس على المذابح، حيث تعزف الآلات العذبة، وتجري مظاهر احتفالية مختلفة وتسليات سارة مجسدة للفرحة، إذ يقضي الجميع ليلا مليئا باحتفاليات متدينة حتى طلوع الفجر، فيعلن عن خروج شمس العدالة المسيح القديس. ويغني الأسقف القداس، وفي الوقت نفسه يغنى القداس في مذابح الشوارع الأخرى لكي يتمكن جميع الأوفياء من سماعه. وبعد ذلك يشكل الموكب لكي يخرج للجمهور السيد الإله الذي يهتف الجميع في وعاء قربانه الذي يحمله الأسقف في يديه. وتذهب في الموكب صور أبينا المقدس الملائكي سان فرانسيسكو التي يتكلف بتزيينها الرهبان الأعضاء، وصور القديس سان تيلمو المجيد الذي ذهب إليه الكثير من البحارة مصحوبين بكثير من الأضواء، وأخيرا السيد القديس سان ميشال الذي يعتني بزينته الجميلة ضباط ورجال الجيش، ثم يحمل الجثمان على أكتاف أربعة جنود. ويوضع وسام القربان المقدس في يدي قسيس أو في يدي أحد خدم الملك الذي يملك احتراما ما إذا كان في الأسر. وبعد ذلك يذهب القسيس تحت مظلة ذات قضبان يحملها قساوسة. وعندما يصل وعاء القربان إلى مدخل الكنيسة يبدأون بإطلاق ألعاب نارية كبيرة يعدها الأوفياء من قبل، ولا يساورهم أي خوف من تعرضهم لإيذاء المغاربة نتيجة للضجيج المدوي الذي تحدثه هذه الألعاب، لأنهم يجيبونهم بأنه يوم أعياد الفصح. وهكذا يتابع الموكب السير في المذابح بابتهاج كبير وإيمان وورع، ويغني جميع الأوفياء أناشيد المسيح، وكأنهم لا يعيشون بين المغاربة. وعندما تنتهي الاحتفالات الخاصة بهذا اليوم يختفي من الشوارع كل من كان فيها.

وتعاد هذه الشعائر الخاصة بعبادة الإله المقدس للمرة الثانية في الدير في ليلة الأحد. فعندما يعود المسيحيون من عملهم عند غروب الشمس يستعدون لتناول عشاء غزير،

وتشكيل قداسات مختلفة في فناءات المنزل. وبعد ذلك يرتفع صوت في البوق الذي أعطانا إياه المولى إسماعيل كيفما شئنا في المناسبات العظيمة، يقول إن اليوم الذي يتعشى فيه فقراء يسوع المسيح هو اليوم الأكثر احتفالا. وبعد تشكيل ثلاثة أو أربعة مذابح عجيبة، يشكل الموكب لكي يسير في الوقت المحدد له في كل أنحاء المستشفى والدير. وتجتمع أصوات كثيرة منها أصوات الرهبان والأسرى، تغني أغاني دينية كثيرة عن ميلاد المسيح العجيب على إيقاع المعزف وأدوات أخرى، كما يؤدي الحاضرون رقصتين على الطريقة الأكثر شيوعا في إسبانيا.

وهكذا توجه كل هذه الحفلات والأعمال الإكليروسية من قبل الرهبان باحتراس شديد حتى تقام بالكيفية نفسها التي يحتفل بها في الأراضي المسيحية وفي المجمعات الديرانية الأكثر تعبدا.

ولن أسجل في هذه الرواية بعض الأعمال الأخرى الخاصة بعبادة الإله تناسب شعائر وتقاليد كنيستنا الأم، وذلك بهدف الإيجاز أولا، ولقلة أهميتها ثانيا، ولأن الهيئة التي توجد فيها البعثة قد لا تقيمها. إلا أنني لم أهمل الإيمان الكبير وتعبد هؤلاء الفقراء المسيحيين الذين يواظبون به على ممارساتهم الدينية الحسنة، رغم أنهم يخرجون في جميع الأيام إلى العمل قبل طلوع الشمس، ويعودون حتى غروبها جد منهكين من التعب ومن البرد الشديد في وقت الشتاء. وكل هذه المعاناة لا تعوقهم من حضور الممارسات الجماعية في الكنيسة، وسماع القداس الذي يقال دائما في الصباح. لذلك فإن تواجد رهباننا للعيش في هذه الأرض بين هؤلاء المسيحيين له عدة منافع، وتتمثل إيجابيته في التخفيف من قمع هؤلاء المخطئين. فالرحمة الإلهية تواسي هؤلاء المساكين في كثير من أحزانهم وهمومهم، وتمنحهم قدرة على المواظبة في خدمة الله المقدسة لكي ينالوا حرية الجسد في هذه الحياة، وحرية الروح في الجنة.

- **عن مستشفيات الأسرى المرضى في مكناس وإسعاف الرهبان فيها :**

إن الحماس الذي دفع المبشرين إلى المجيء طوعا إلى هذه الأرض للبحث عن إخوانهم الأسرى غير كاف، فرغم أن جميع اهتماماتهم وممارساتهم التي حكينا عنها تستلزم بالضرورة الحصول على الجزاء الحسن لأرواحهم، فإن هناك أمورا أخرى مهمة يقتضيها واجبنا الأساس، وتتمثل في الإحسان إلى أجساد الأسرى المريضة والمعلولة، وإيجاد الطرق والأدوات الكفيلة بمعالجتها. ولهذا الغرض وجدت في مكناس أربع

مستشفيات، يوجد ثلاث منها داخل سكنى المسيحيين، ويوجد الرابع ؟وهو أهمها؟ في الدير. وسأتكلم بإيجاز عن الثلاثة الأوائل، ثم بعد ذلك عن الرابع.

تتقسم سكنى المسيحيين إلى ممالك مختلفة، حيث يسمى الموقع الذي يقيم فيه الإسبان إسبانيا، والموقع الذي يعيش فيه الفرنسيون فرنسا، والآخر البرتغال، والآخر جنوة. ويوجد في موقع الفرنسيين مستشفى صغير يحضر فيه وكيل وممرض بصفة دائمة، لكي يجد المساكين المرضى العناية الجيدة والتخفيف عن آلامهم. ويعفي الملك هؤلاء المسيحيين الذين يقومون بهذه الأعمال الإحسانية من أداء أي عمل آخر. أما وسائل هذا المستشفى فهي جد ضعيفة لأنه لا يملك موردا ماليا قارا يستجيب لجميع مصاريفه، ما عدا بعض الدكاكين التي يملكها بعض المسيحيين، وبعض الصدقات التي يرسلها لهم التجار الأحرار المنتمين إلى جنسيتهم، والذين يتواجدون في موانئ هذه المملكة.

المستشفى الثاني يمتلكه الجنويون، وبسبب قلة عددهم، فإنهم يستطيعون إدارة شؤونهم والعناية بجميع مرضاهم.

المستشفى الثالث يمتلكه البرتغاليون، وهو أفضل وأكثر سعة وقدرة من الآخرين، فهو يملك دخلا وصدقات مستقرة تفي لحاجيات مصاريفه، بالإضافة إلى الإدارة الجيدة لشؤونه، والتي تسعى قدر المستطاع أن تحاكي مستشفى الإسبان.

تملك كل هذه المستشفيات الغطاء المناسب والنظيف، والأدوية القليلة التي لا تكفي لجميع أولئك المساكين المعرضين للأمراض المختلفة، لذلك يضطرون أحيانا للجوء إلى الدير الذي يجدون فيه مبتغاهم، لأن الدير يتلقى تمويلا خاصا من قبل ملك إسبانيا الكاثوليكي. أما الطبيب الذي يحضر لزيارة هذه المستشفيات فهو ينتمي إلى الدير، وقد يكون أسيرا يعفيه الملك من العمل الجماعي لأنه يتفرغ لمعالجة إخوانه.

ورغم تواجد هذه المستشفيات خارج الدير، فهي في رعاية الرهبان يديرون أمورها، ويقضون جميع الأعمال المتعلقة بالمرضى والمساكين المحتاجين بحماسة وإحسان كبيرين. ولا يعطى السرير لأحد من هؤلاء المرضى دون أداء الاعتراف أولا، ولذلك يتردد عليهم الممرضون باستمرار من أجل إسعافهم بالقرابين المقدسة عندما تقتضي الحاجة ذلك.

المستشفى الرابع والأخير هو المستشفى الإسباني الذي بني داخل الدير، يتألف من صالتين شاسعتين تسعان لمائة سرير، يتردد عليه الكثير من المرضى حتى أن الرهبان يضطرون أحيانا إلى إفراغ غرفهم الخاصة من أجل تحقيق الإسعاف اللائق. ويتناسب عدد

الأغطية مع عدد الأسرة الموجودة. ومن أجل التدبير الجيد يتحمل رجلان طيلة السنة مهمة ترقيع أغطية المرضى، والتي هي عبارة عن غطاءات ووسادات وأفرشة وأقمصة. وتوجد داخل المستشفى صيدلية تمون جميع حاجياته الاستهلاكية، وتتوفر على مختلف الأدوية التي ترسل من إسبانيا. ويعمل بهذه الصيدلية أسيران يتحملان مهمة تنظيف الأدوية وتقديمها، كما يتوفر المستشفى على جراح ومعالج يعملان بتناوب وبماهية متناسبة مع مهامهما.

ويتكفل الملك دون فيليب الخامس (ملك الدولة الإسبانية) بجميع نفقات المستشفى، وهو يحاكي بهذا الفعل الورع عمه الراحل الملك دون كارلوس الثاني المؤسس بحبه وعطفه الأبوي لهذه الأساليب المحسنة، فقد سند وأسعف كثيرا رعاياه الأوفياء، حتى لا يقنطوا ويصمدوا جنودا شجعانا يحافظون حتى النفس الأخير على الاسم المجيد للرومان الكاثوليك.

يعتبر هذا المستشفى القناع المتعبد والدرع الذي يسند ويحجب جميع البعثة وأعمالها، لأن أغلب المغاربة اقتنعوا على أننا جئنا إلى هذه المملكة المتسعة من أجل مواساة ومعالجة إخواننا المسيحيين الأسرى. وبما أن هذا الأمر نافع للملك، وبما أن جميع العبيد هم في ملكه فإنه مغتبط جدا من عملنا، وأظهر في مناسبات كثيرة عن مظهر شكور جدا. فقد كان من العادي أن يتشرف الملك بهذا المنزل ويعتبر هذا المستشفى وهذا الدير من أحسن أعماله، ومن الأشياء المتفردة والمحترمة في ذاكرة ملكه، ولذلك عندما أتى عمه من تافيلالت لزيارته أرسله مع حاشيته لرؤية منزل المسيحيين لكي يروي عن أشياء كبيرة حينما يعود إلى ذويه، وهذا الأمر نفسه حدث مع شخصيات أجنبية أخرى. وقد وصلتنا أخبار أكيدة على أن الملك في حواراته اليومية مع قياده يتكلم باستمرار عن الدير ويمدح السخاء الجميل لملوك إسبانيا، الذي تتحقق به هذه الأعمال الخيرية رغم البعد المكاني.

وبوجه عام يشكل هذا الدير وهذا المستشفى بالنسبة إلى المغاربة أمرا جديدا، وبالنظر لما أثاره من ارتباك وحيرة، فهي أمور أثارت إعجابهم الكبير لأنها لا تمارس عندهم. فبحسب ظنهم دخل الرهبان إلى هذه المملكة الغريبة لممارسة الأعمال الإحسانية فقط دون تحقيق أية أهداف أخرى، حيث يقوم الأسرى بأعمال شاقة وكثيرة بمحض إرادتهم كالسهر على نظافة الأسرة، وتوفير الأكل بغزارة، والقيام بأعمال التمريض، مثل معالجة الجروح المتعفنة وأمراض أخرى مثيرة للاشمئزاز، وكل هذا مع الالتزام بدقة بالمواعيد في ممارسة مهامهم المتعبة. وعلى هذا النحو تؤدى كل هذه

الأعمال مجتمعة وتسير بشكل تام ومضبوط، حيث يظل المطلع على ذلك معجبا وحائرا، وهناك الكثير من الذين رأوا ذلك مرات كثيرة، عادوا يلتمسون فرص المشاهدة باستمرار ليجدوا ما يسجلوه من جديد. أما البعض الآخر فإنه يتحفظ على وجود مثل هذا المنزل الذي لا يسمح بإقامة نظيره في أراضي المسيحيين، لكن الشك سرعان ما يتلاشى من أذهانهم حينما يدركون المصاريف المالية الكثيرة التي يحتاجون إليها لمعالجة أسراهم في بلاد المسيحيين، وهم غير قادرين على ذلك. ومن ثم فإن تمويل مثل هذا المستشفى يمثل شيئا بسيطا نظرا لعدم استطاعتهم توفير الأموال الضرورية لصرفها على أسراهم.

وعن طريق هذا المستشفى تمكن الرهبان من التعرف على هذه المملكات الشاسعة بفضل مستوى الاتصال الكبير بجميع طبقات المجتمع المغربي ابتداء من الملك ومن يوجد داخل قصره حتى المغربي الأدنى من العوام، حيث يتم إسعاف الجميع بالطبيب والدواء. لذلك ظل الرهبان باستمرار يحظون بتقدير الملك ورجال الدولة المهمين. وحيث أن الرهبان اعتادوا على زيارة هؤلاء المغاربة وهم مرضى وإهدائهم الدواء، فقد وهبوهم الصدقات الكثيرة من القمح والشعير ومنتوجات أخرى بكثير من العطف مثل ما يفعل الأمراء المسيحيون. وفي هذا السياق سأتكلم في الفقرة التالية عن ما يمكن أن يكون هدفا يوجب العبرة للقارئ، حيث سأحكي عن الإدارة الجيدة للمستشفى وهذه الصدقات.

يعتبر الدير ملجأ لكل فقير مسيحي أصيب بمرض أو أحس بشيء من الآلام. وأول ما يبدأ به المريض عند دخوله هو رؤية الطبيب، وإذا استدعت حالته المكوث في السرير يخبرون الممرض لكي يهيأه للاعتراف، ويحضر الراهب الأسبوعي ليستمع إلى اعترافه، فيأتون له بالماء في طست ويطوقونه بفوطة، ويركع الراهب ويغسل رجلي المريض ويقبلها، ويضعه في السرير بحنان كبير من أجل إراحته والتخفيف عنه. وفي اليوم نفسه أو في اليوم الموالي يقدم له العشاء الرباني لتبدأ معالجة الجسد ومداواة الروح معا، والتي تلاقي في الغالب الأعم نجاحا كبيرا، حيث تلمس نتائج هذه الإسعافات الورعة في مناسبات كثيرة. فالمسيحيون في هذه الممالك يقضون الجانب الأكبر من حياتهم جنودا أو سجناء، لذلك فمن الطبيعي أن يوجد بينهم بعض المارقين عن التقاليد، وحينما يأتون إلى المستشفى قصد المعالجة فإنهم لا يتأثرون بحنان وورع سر الاعتراف للقربان المقدس إلا عندما يرون القسيس ساجدا على رجليه يغسلهم ويقبلهم ويبكي، وآنذاك تلين قلوبهم القاسية وتبكي أعينهم بكاء غزيرا مصحوبا بزفرات الألم.

يتم إسعاف المرضى الفقراء طيلة مدة مرضهم بحنو واحتراس كبيرين، ويزورهم الطبيب مرتين في اليوم، ولا يوجد نقص في الأدوية التي تتوفر بكثرة داخل المنزل، ويوجد الأكل بغزارة، حيث يحتوي على لحوم متعددة مثل لحوم الأكباش، والدجاج، والحمام. ويشرف على تسيير الأكل رجل فاضل يعمل على توزيعه بحسب ميل وشهية المرضى. وهكذا يحضر راهب في سائر الأيام في وقت تقديم الأكل، وبعد الصلاة على القداس يشرف بنفسه على توزيع اللحوم، ويحرص على مراقبة كل تهاون أو قلة نظافة، أو ترك أحد المرضى بدون أكل. وبالنسبة إلى المنهارين من المرضى فإن الرهبان يعتنون بهم أكثر، حيث يناولونهم الطعام مثل ما يفعل الأمهات مع أبنائهم. وبعد انتهاء الأكل تسحب الصحون من قبل الراهب نفسه، ويؤدون واجبات الشكر لله على نعمه، ثم يذهب الرهبان جماعة لغسل هذه الصحون، حيث يؤدون طيلة أداء هذا العمل صلاة "رحمة يا إلهي" مع صلوات الموتى "من الأعماق" مثلما تؤدى في باقي أديرة الإقليم، ويؤثر ذلك في المسيحيين ويهذبهم، كما يثير إعجاب المغاربة الذين يرونه.

وفي مساء كل يوم بعد صلاة العمل الإلهي تذهب الجماعة مباشرة إلى قاعات المرضى، فيتفقدون الجميع للتخفيف عن آلامهم ويعالجون الحمى الحارة التي يعانون منها، كما يراقبون نظافة أغطية الأسرة ويغيرونها بأخرى إذا كانت وسخة. وعند الانتهاء من زيارة الأسرة يتوقفون بعض الوقت في قاعات التمريض يحكون للمرضى عن تسامح الشهداء القديسين والمعترفين الذين نالوا استحقاقات كبيرة في الاستراحة الأبدية في السماء مقابل الأعمال التي قاموا بها.

وفي أيام الاحتفال يشيد مذبح في جناح المرضى، ويعلن في يوم الاحتفال باليوبيل عن العشاء الرباني العام في الوقت المناسب لجميع الأسرى الموجودين في الدير سواء المرضى منهم أو الأصحاء. وعندما يتعذر على أحد المرضى الحضور لارتباطه برؤية الطبيب يعطى له زاده، ويقدم له القربان المقدس، ويظل الراهب الأسبوعي في رعايته. ولا يموت أحد المسيحيين بدون قرابين، حيث يظل القسيس بقرب المحتضر يحمسه ويساعده حتى تزهق روحه.

في هذه السنوات الثلاث مات مائة وثلاثون مسيحيا كما ثبت في كناش الموتى، ويشمل هذا العدد سائر المسيحيين من مختلف الجنسيات، حيث تقبل جميعهم القرابين المقدسة، ما عدا الذين ماتوا نتيجة حادثة طارئة أو على أيدي الملك أو أبنائه، حيث لا يمكن التحضير لهذا الأمر الطارئ. ويرقد جميع المحكي عنهم في المقبرة الإكليروسية، حيث

يتم الدفن بطقوس احتفالية، ويتنافس الأسرى فيما بينهم في الاجتهاد في أداء العمل التعبدي، إذ يوجد منهم من يحمل على عاتقه بدافع ورعه وإرادته الخاصة حفر جميع قبور الموتى الذين يحتاجون للحمل على الأكتاف. وتبعد هذه المقابر عن المدينة نصف الفرسخ، وبما أن عدد المسيحيين كبير وعملية الدفن تتم دائما في الليل باعتباره الوقت الأكثر مناسبة لذلك، فإنه يشكل موكب كبير تبلغ فيه عدد الأضواء المائتان وأحيانا الثلاثمائة، فتحير المغاربة الذين يخرج قسم كبير منهم إلى جنبات الطريق التي تمتد من المدينة وتصل حتى المقبرة، ويصطفون في صفوف واسعة للمشاهدة، ولا ينطقون بأية كلمة. وخلال سير الموكب يصلي بعض المسيحيين صلاة السبحة، ثم يغنون تراتيل سيدتنا. ويغني الذين يتواجدون في مؤخرة الموكب صلاة الليل مع الرهبان موازاة مع دقات الأجراس دون حيطة من أن يسمع المغاربة هذه الأصوات.

- **أعمال أخرى يقوم بها المبشرون من أجل مواساة الأسرى المساكين :**

يوجد المسيحيون الذين سقطوا أسرى في هذه البلاد في أردئ حالة من الفقر والبؤس على وجه الأرض، والشواهد على ذلك كثيرة بحيث أن البعض عقد مقارنة بين هذا الأسر وبين ما لاقاه الإسرائيليون في مصر، فتوصلوا إلى أن أسر المسيحيين عند المغاربة هو أكثر خطورة، لأنه أسر مؤبد وشاق، حيث العمل كثير ومتواصل، والأكل قليل بصفة دائمة، وفي كثير من الأيام لا يوجد، بالإضافة إلى الفقر والعري والمعاملة الظالمة التي يتلقوها من المغاربة، والتي تتجسد في أكبر البلاوي الجسدية التي يمكن أن تصادف في هذا العالم. وكما هو مؤكد فقد تدخل الرهبان بكافة الطرق من أجل التخفيف من كثرة الأعمال التي أنهكت قوة هؤلاء الأسرى. وبما أنه لا ينبغي المبالغة في الحديث عن ما وقع، فإنني سأروي بنوع من الذاتية عن طريقة العيش والمعاملة التي يلاقيها المسيحيون من المغاربة، لكي لا ينعتني أحد بعدم التروي أو عدم التمعن.

يستيقظ المغاربة الذين يتولون حراسة المسيحيين قبل طلوع الشمس، يوقظونهم بضرب الأبواب ويرسلونهم إلى العمل، وإذا تأخر أحدهم عن الخروج بعض الوقت يضربونه بالهراوات. ويقوم هؤلاء المسيحيون في سائر الأيام بأعمال شاقة لا يقوون عليها، وتشمل بناء الأسوار وهدمها، وتحضير مزيج البناء، وتخليط الكلس، وتهيئ الأفران لشويه، ونقل مواد البناء في عربات متفككة، وترويض الثيران التي تجرها، وإخراج المياه بالمضخات، وتحريك مخرطة ثقب البنادق، ووصنع البارود. وتتواصل هذه الأعمال الشاقة طوال اليوم من الصباح حتى غروب الشمس دون أن تتخللها فترات الراحة سواء في حرارة الصيف أو

في برودة الشتاء. ويتحتم على المسيحيين أن يقبلوا هذا الأسلوب البربري علما بأن فيهم الشيوخ الضعفاء الذين لا يقوون على هذه الأعمال، ومع ذلك لا يسمح لهم بالتوقف للاستراحة، وإذا حاولوا ذلك، فإن العقاب يكون وحشيا، حيث يرمون هؤلاء المسيحيين بالحجر الذي يصيب رؤوسهم فتتفتق، ويضربونهم بالكلمات القوية التي تؤدي بهم إلى الإغماء والإصابة في أجسادهم. وهذه البلاوي هي التي يحاول الرهبان أن يخففوها عن الأسرى المساكين، حيث يلتمسون من الحراس بتليين معاملتهم مع الأسرى، وقد يحصلون في بعض الأحيان على نتائج طيبة.

ورغم كل هذه المحن المتواصلة التي يلاقيها هؤلاء المسيحيون المساكين، وحرصم الكبير في خدمة الملك، فإنهم لا يأخذون إلا خبزا واحدا في سائر اليوم، وهو قدر قليل. ويتم توزيع الخبز تحت إشراف قائد، وتتقص حصص العطاء اثنين إلى ثلاث مرات في الأسبوع، ولهذا السبب يهيئ الدير في فرنه ثلاث حصص مختلفة من الخبز يوميا لتغطية الحاجة الاستهلاكية للدير والمستشفى، ولتوزيع جزء منها على الأسرى الذين يمرون على الدير عند رجوعهم من العمل عند غروب الشمس، فيأخذون نصف خبزهم دون تمييز بين جنسياتهم لأنهم يتساوون في العطايا، ما عدا الضعفاء منهم والأكثر احتياجا فإن الرهبان يعدون لهم ما يوفر في المطابخ، كما يوفرون للكثير منهم فرصة النوم في المستشفى وحصص أكل رسمية. ومع أن المستشفى لا يحتاج إلا إلى ثمانية أسرى، فهناك أكثر من ثلاثين أسير طلب من الملك السماح لهم للالتحاق بالدير، وخاصة الضعفاء منهم الذين خارت قواهم بحجة الحاجة إليهم لخدمة المرضى، وهم يهدفون بهذا الالتماس في الحقيقة عتقهم من الأعمال الشاقة.

الأكل واللباس هما حاجتان ضروريتان بالنسبة للفقراء، ولا يمنح الملك للمسيحيين شيئا آخر غير الخبز الواحد، وهذا ما يسبب لهم معاناة وألما دائمين، ويولد لدى الرهبان إحساس بالعجز عن إصلاح هذا الوضع. وقد دأب ملكنا وسيدنا حفظه الله ؟بفضل تدينه الكاثوليكي؟ في كل سنة على إرسال ستمائة بيسو إسكودو من الفضة على شكل هبات للأسرى الذين ينضوون تحت راية ملكه، كما تجتمع هبات أخرى خلال السنة تساهم أيضا في إنقاذ الكثير، حيث تخصص في الأسبوع المقدس اثني عشر بذلة توزع على اثني عشر مسكينا، كما توزع حصة أخرى من اللباس من أجل أن تشمل الهبة كثيرا من المساكين. ويحدث هذا الأمر أيضا في عيد الفصح وميلاد منقذنا، كما يوفر الرهبان ثيابهم وأقمشة الصغار والموتى، وثيابا أخرى تطلب من جهات مغايرة من أجل استيفاء الحاجات الملحة.

وفي كل أحد توزع ستة أحذية يتناوب عليها هؤلاء المساكين.

بالإضافة إلى هذه الإسعافات التي يسهر عليها الرهبان للمواساة والاستجابة للحاجيات المستمرة للفقراء المساكين، هناك أمور أخرى ذات أهمية واعتبار كبيرين تتعلق بعدد من المواقف التي عرض فيها الرهبان حياتهم للخطر من أجل إنقاذ إخوانهم الأسرى. وبما أن رواية جميع الحوادث سيكون مطنبا، فإنني سأكتفي برواية البعض منها لكي نستنتج منها الآخر.

في يوم الثالث عشر من يونيو من سنة 1709 تقدم ثلاثة عشر مسيحي بشكوى إلى الملك بسبب ما لاقوه من معاملة وحشية من القائد الذي يشرف عليهم في العمل، وحيث أنهم وجدوا الملك غاضبا ومستاء فإنه عاقبهم عقابا رهيبا ولا إنسانيا وخاصة الذين حاولوا الإدلاء برأيهم، وينفذ العقاب ستة جلادين يأخذون المسكين، ويرفعونه عاليا، ثم يقذفونه بعيدا ليسقط على رأسه، وبعد ذلك يحركون جسده ويعطونه الضربة الثانية في فمه وظهره حتى يغمى عليه، ومنهم من يموت بسبب ذلك. وبهذه الطريقة أمر الملك معاقبة هؤلاء المسيحيين كما أمر كذلك أن يسحبوا الأسرى من أرجلهم وفمهم إلى الأسفل، وضربهم كثيرا بالأرجل في وجوههم وآذانهم وصدورهم ليتركوا شبه ميتين. وعندما وصل خبر هذا العقاب إلى الدير خرج راهبان لالتماس العفو عن هؤلاء المساكين، والحصول على إذن لحملهم إلى المستشفى، وقبل الوصول إلى الملك حاول بعض المغاربة إقناع الراهبين بعدم الدخول ليس لعرقلة إنقاذ المسيحيين، ولكن خوفا عليهما من الملك الغاضب الذي يمكن أن يؤذيهما مثل ما فعل بإخوانهما. غير أن حماس الراهبين وشفقتهما على هؤلاء المساكين دفعتهما إلى المقاومة والوصول إلى المكان البعيد الذي وجدوا فيه، فقدما التماسهما بعدما سئلا عن مبتغاهما، ثم حصلا على إذن من الملك لحملهم إلى المستشفى، وقال لهما عند توديعهما ببرودة كبيرة وما يشبه التأسف على ما وقع: "يمكن يا رهبان أن يعالج الطبيب جيدا هؤلاء المسيحيين، وسيأخذ منهم دما كثيرا لأنهم جد مجروحين". وعند الوصول إلى الدير قدم الرهبان لهم جميعا المسح الشديد، ومات ثلاثة منهم في الحال، لأنهم كانوا جد متضررين، وبقي الآخرون أحياء تعاني أجسادهم من كسور كبيرة.

في يوم الثلاثين من غشت من السنة نفسها وصل إلى مكناس خمسة وثلاثون مسيحيا أسيرا جددا، أمسك أربعة وعشرون منهم في بارجة تابعة لحصن مليلية. وحيث أنهم أخبروا الملك بما سببه هؤلاء المسيحيين من خسارات في بلاده، وأسرهم للكثير من المغاربة تبين أنه سيحكم عليهم بالقتل، لذلك رافقهم راهبان، وعندما مثلوا في حضرة

الملك، التمسا منه عدم إذايتهم وإطلاق سراح القبطان الذي يتهمه المغاربة أكثر من غيره، من أجل إرساله إلى إسبانيا. وقد كان هذا القبطان بدينا، لذلك قال الملك بنوع من الملاحة عند إطلاقه "هاكم أيها الرهبان هذا المسيحي فإنه وجبة جد مناسبة للإفطار".

في اليوم الأول من أبريل من سنة 1710 أحضروا إلى هذه المدينة أسيرا مسيحيا برتغاليا من سجن مازاكان.كان هذا الأسير جاسوسا يمشي بفرسه لاكتشاف الميدان، فابتعد كثيرا عن جماعته وسقط في كمين المغاربة، ولما رأى الخطر محدقا به رمى برمح فأصاب به مغربيا وقتله، وقد كان على وشك الهروب لولا أن قتلوا فرسه بعيار ناري وسجنوه، وأتوا به إلى مكناس بالرمح نفسه الذي قتل به المغربي، ومثل أمام الملك ليتفحص جنايته. عرف الراهب هذا المسيحي وشجعه للموت بصفته جنديا ليسوع المسيح، ثم ذهب معه للمثول أمام الطاغية الذي كان مثل الأسد يحمل الرمح في يده ويخترق المغاربة الحاضرين الذين كان بعضهم منشورين على الأرض. ولما رأى الراهب أن الموت يتهدد هذا المسكين بسبب تهمة الجاسوسية، تقدم إلى الأمام، ورفع صوته بكل إيمان متعللا بعدة أعذار لصالح المسيحي، حيث لان الطاغية عند سماعها وعفا عنه. وقد روى المغاربة الحاضرون بعد ذلك المجازفة الورعة التي تجرأها الراهب لتسريح حياة هذا المسكين، وشهدوا بأنفسهم على أن هذا الفعل لا يقدر أن يقوم به أكبر القواد وأكثرهم أهمية في هذه البلاد.

في يوم السادس عشر من ماي من السنة نفسها حدثت مشاجرة بين مسيحي وآخر ضربه بفأس في رأسه وقتله. فأمسكوا بالمجرم وأتوا به إلى حضرة الملك، ورافقه الرهبان بعد أن عرفوه، فوجدوا الملك بشوشا على غير عادته عندما أخبروه بالجريمة، وسألهم بهدوء: "أنتم هل تسامحون هذا المسيحي"، فأجابوه "نعم"، بعد ذلك رد: "إذن حتى أنا أسامحه"، وأمر بإطلاق سراحه، وهذا ما أثار إعجاب الحاضرين بعدما كانوا قد استيقنوا من عبارات الملك أنه سيقتله.

في اليوم الثامن عشر من يونيو من السنة نفسها أمر الملك بإحضار أبناء عائلة مسيحية تتكون من الزوج الإسباني جوسيب دياس، وزوجته البرتغالية مريا دي سيلفا وأبنائهما الثلاثة (طفلة وولدين). ولما وصل خبر هؤلاء إلى الدير، وتبين للوالدين أنهم أضلوا لهم الطفلة التي كان عمرها اثني عشر سنة، أعد الرهبان هدية وذهبوا بها إلى الملك في اليوم الموالي يلتمسون منه بإذعان العفو عن المسيحي المسكين وإرجاع أطفاله

له، ورغم معارضته فقد خضع أخيرا للتوسلات الرهبانية، وأمر بإخراج الأطفال من القصر إلى أبويهم، وفرح الرهبان لرؤيتهم مرة أخرى أحرارا وهم على دين المسيح.

لقد ظل المسيحي جوسيب دياس أسيرا لمدة طويلة، وكان يحظى دائما بتقدير الملك، حيث خدمه كثيرا داخل مملكته وخارجها، فعمل رئيسا أعلى لجميع معامل صنع البارود، كما أرسله الملك إلى مملكة البرتغال وإلى مملكة إنجلترا. وقام بكل هذه التفويضات بكثير من الإخلاص، وعاد إلى الملك بعدة هدايا جميلة. ورغم كل هذا، فإن أول فعل قابله به عندما رجع من إنجلترا هو انتزاع أطفاله، ولم يعرف سبب هذا الفعل الذي لعله أن يكون قد نتج عن خبر ما سيئ وصل إلى الملك ضد هذا المسيحي المسكين، أو لأن هذا الأخير لم يأته بالجواب الذي يروقه من الذين أرسله إليهم. وبعد إرجاع الملك هؤلاء الأطفال بسبب مساعي الرهبان لم يشف غليله ما تلقاه هذا المسيحي. ففي شهر شتنبر من السنة نفسها أمر بإحضار الطفلة إلى داخل القصبة، وجعلوا للأب أغلالا ثقيلة يذهب بها للعمل في بناء الأسوار مع باقي المسيحيين. وقد كان هذا الفعل بمثابة سهم نافذ بالنسبة إلى الرهبان الذين لم يتوقعوا ما يدور في تفكير الملك لتهييئ التماسات أخرى يطلبون بها عفوه، وفي هذا الوقت نفسه جاء الخبر المشؤوم الذي يفيد أن الملك قد أدخل هذه النعيجة البريئة إلى نساء متوحشات في قصره، لكي يردوها عن دينها وتعتنق الإسلام بقوة التعذيب والآلام، وبعد أربعة أيام من الضرب بالهراوات ونقص في الغذاء نالوا ما أراده. وقد بكى جميع المسيحيين من هذه الاستبداد والآلام التي لم يقدروا على ردها. ورأى الرهبان أنه لا يمكن إبطال ما فعله الملك، فذهبوا إليه وقدموا إليه التماساتهم بالعفو عن الأب الحزين والمنكوب، فأمر الملك بأن يزيلوا له الأغلال وأعطاه الإذن بالعودة إلى بيته.

في اليوم السابع والعشرين من الشهر والسنة نفسيهما، علم الرهبان أن مسيحيين كانا يذهبان إلى العمل ويرجعان منه مقيدان بالأغلال لمدة عدة أيام، ويصعدون في الأسوار وينزلون منها وهم في الحالة نفسها. ولما تأكد الرهبان أن الجريمة التي اتهما بها لدى الملك ليأمر بعقابهما كانت بهتانا ذهبوا إليه، وقدموا له التماسا من أجلهما، فعفا عنهما بكرمه الظاهر من خلال التلميح الأول.

في اليوم الواحد والعشرين من فبراير من سنة 1711، أحضروا إلى مكناس إسبانيا مسيحيا يسمى إيخينيو فرنانديز، فر من هذه الأرض ليدخل في أحد حصون إسبانيا، ولما علم الرهبان بالخطر الذي يتهدده، وهو القتل من قبل الملك بسبب تهمة الهرب، ذهب

راهب ليتعرف على المكان الذي يوجد فيه السجين، وتفاوض مع المغاربة الذين أمسكوه بإعطائهم ثلاثين بيسو على أن يطلبوا من الملك العفو عن المسيحي ويتركه حيا. وقد نفذ المغاربة وعدهم بكثير من المواظبة، ودافعوا عن هذا المسيحي وأوهموا الملك على أنه فقد عقله نتيجة الأسر وكثرة الأعمال، وهو ابن لقبطان إسباني كبير، ولذلك هرب دون أن يعرف حقيقة اتجاهه. واقتنع الملك بهذه الآراء ونجا المسيحي من الموت، وأدى الرهبان الثلاثين بيسو في موعدها إلى المحامين.

في اليوم التاسع من مارس من السنة نفسها قبض ابن الملك المسمى المولى المتوكل على مسيحي برتغالي يسمى مانويل سيرينا في بيته، وأمر خدامه بخلع ملابسه وتعذيبه، وذلك بجره بحبل في كافة المنزل. فربطوه أول الأمر، لكنهم كانوا ينوون قتله. ولما وصل الخبر إلى الدير، حضر راهب بسرعة كبيرة ملتمسا العفو عن هذا المسيحي المسكين بأعلى مظاهر الخشوع، لكن الطاغية الغاضب صوب البندقية إلى صدري المسيحي والراهب معا مهددا إياهما بالقتل. ولم يتنازل الراهب المليء بالحماس عن مطلبه، وقبل رجلي ابن الملك الذي كان مخمورا، وقدم له التماساته المذعنة باسم أبيه، ثم أهدى له بعض الهبات التي تلين الحجر. وبفضل الله، وبعد أكثر من ثلاث ساعات من الإلحاح، انتصر الراهب وحصل على العفو للمسيحي ثم رافقه حتى أخرجه إلى الشارع بعيدا عن الخطر.

في اليوم الثاني والعشرين من يوليوز من السنة نفسها، حدث أن مسيحيا في سن العشرين يسمى استيفان فيفان، ولد في مكناس من أبوين فرنسيين كانا أسيرين، تشاجر مع مغربي من سنه، فأعطى له ضربة بركبته في المعدة، وتركه ميتا. وبعد سجنه ذهب راهب ليعرفه من أجل الموت. فأحضروه في اليوم الموالي للمثول أمام الملك الذي أخبروه بالجريمة، وبما أن القرار الذي ينتج عن قتل المغربي يقضي بقتل المسيحي أيضا، فقد خرج راهبان لطلب الالتماس، وبعد محاولة الحراس منعهما من الدخول إلى القصر، رأوا الأسير وحثوه من جديد على التوبة عن أخطائه. وتدخل واحد من الراهبين مرتين لدى القضاة، فلم يستجيبوا لطلبه، إذ لم يكن من الممكن أن يعفى عنه في هذه المرة، وكان لابد أن يعاقب. وقد تآمرت المدينة ضد هذا المسيحي المسكين، لأنه بقتله سيردون دم المغربي (هكذا يقولون هم)، فحضر والدا المغربي واعتنوا بهما كثيرا. وفي مظاهر احتفالية قطعوا رأس المسيحي وفقأوا عينيه ورموه في نار كبيرة هيأت من قبل، وبقي فيها من غروب شمس اليوم الذي قتل فيه إلى صباح اليوم الموالي. وجمع المسيحيون بإذن الملك ما بقي من الجسد مع كل الرماد، وذهبوا به بكثير من الحماس إلى القبر في المقبرة

الجماعية. وقد خلف هذا الحادث كثيرا من الحزن والشفقة على هذا الميت الذي عانى كثيرا من التظلم، ومات جنديا شجاعا ليسوع المسيح. لقد كان هذا المسيحي مرتدا في صغره، وفي سنه الثانية عشر خرجوا به من مكناس فكلفهم ذلك صرف كثير من المال وتقديم الالتماس من قبل أبويه والرهبان، وعاش خلال هذه المدة مسيحيا مثل باقي المسيحيين، ثم عاد بعد بضع سنين إلى مكناس والتحق بالرهبانية، إلى أن حدثت له هذه النكبة غير المتخيلة التي ظلت تروى، ومات مسيحيا تائبا ومعترفا.

في اليوم الثاني والعشرين من أكتوبر من السنة نفسها، أحضروا إلى مكناس مسيحيا من جنسية فرنسية يسمى خوان طورلون بتهمة قتله لمغربي. ولما عرف الرهبان بالحادث قدروا الخطر، وذهب اثنان منهم إلى السجن الذي وجد فيه الأسير وتفاوضوا مع الحراس بالمال لدخول واحد منهم، ليعرفه ويستحثه على الموت، وأصدر الملك أمرا للذهاب به مرة أخرى إلى المكان الذي قتل فيه المغربي، والواقع في جبل يبعد عن مكناس بأربعة عشر فرسخا، وهناك أعدموه. ولعل العناية الإلهية الخاصة هي التي جاءت بهذا المسيحي إلى مكناس حتى يتمكن من تحقيق سر الاعتراف للقربان المقدس قبل وفاته.

في اليوم الثالث والعشرين من الشهر والسنة نفسيهما أحضروا إلى مكناس مسيحيا إسبانيا يسمى خوان كومس فلسكيت كان قد هرب، ورآه الحراس بالقرب من مليلية حيث قبضوا عليه. وعندما علم الرهبان بمجيئه ذهب واحد منهم إلى بيت القائد الذي كان الأسير مسجونا فيه، وواجه هناك كثيرا من الصعوبات التي أعاقت رؤيته. غير أن ابنا لهذا القائد كان نصيرا للرهبان (وهو نفسه الذي أشرت إليه سابقا، وهب كل الكلس الذي استهلك في بناء الكنيسة) اعتنى بهذا المسيحي وأدخله إلى البيت، ووضعه في مكان يوجد به شباك حديدي يسمح برؤيته والتكلم معه وتعريفه، وقد تولى هذا الإبن بنفسه مهمة الحراسة حتى أنهى الراهب مهمته وخرج إلى الشارع. وشاءت إرادة الله أن يذهبوا بالمسيحي إلى حضرة الملك، فحكى له عن الكيفية التي هرب بها، والتي تمت بتنكره في صفة مغربي متدين، حمل سبحة كبيرة في عنقه، وتظاهر بأنه أخرس يستجدي الأكل والماء بالإيماءات، وأعطيت له الصدقة، على اعتبار أنه متدين. وقد وقعت هذه الحكاية من نفس الملك موقعا حسنا، فضحك كثيرا، ووهب الحياة للمسيحي.

في اليوم العاشر من مارس من سنة 1712 قبض المغاربة على مسيحي في وضع مشين مع امرأة متزوجة، وذهبوا بهما إلى السجن للمثول أمام الملك. ويقضي قانونهم في مثل هذا الجرم بقتل الشركاء عن طريق الرجم بالحجارة، أو حرقهم أحياء في موضع حرق

الكلس. ولما عرف الحادث في الدير، ذهب راهبان ليعرفا المسيحي ويشجعانه، وتسلل دون أن يراه المغاربة إلى الموقع الذي سجن فيه المجرم وبقي معه لمدة طويلة. ثم بعد ذلك ذهب أحد الراهبين يقدم الالتماس، وذهب الآخر يتفاوض مع المغاربة من أجل إنقاذ حياة المسيحي، ونظرا لكثرة عددهم فقد كان من الضرورة صرف ستة وأربعين بيسو لإرضائهم، والإفراج عن المسيحي والذهاب به إلى الدير لتوبيخه على الجرم الفاضح الذي سببه لإخوانه واغتصابه لستة وأربعين بيسو التي كانت ستصرف في أمور أخرى أكثر أهمية، وتحطيمه لحياته الشريفة بنفسه.

وفي اليوم الذي أطلق سراح المجرمة المغربية، جاءوا بزوجها الغائب إلى مكناس في ظرف وجيز ليرافقها للمثول أمام الملك، وإخباره بما تقوم به زوجته في غيابه في الوقت الذي يهرق هو دمه في الأرض الجرداء (حيث كان يشغل مهمة قبطان أسود ويحظى بتقدير الملك). فعرف الرهبان آنذاك أنه يجب عليهم تحمل إصرار كبير من أجل تهدئة الملك لأنه لم يكن هناك حل لهذا المشكل، وهكذا تدخلت الملكة بسلطتها لكي تمنع دخول القبطان إلى قصر الملك لتقديم شكايته، وسلموا المرأة إلى زوجها الذي كان يريد قتلها، ثم أعدموها خنقا. وظل المسيحي حيا بعد تقديم كثير من الالتماسات وقضاء الرهبان لأوقات عصيبة خلال هذه الدعوى.

وتوجد أمور أخرى يمكن أن نرويها في هذا السياق، لكنها أقل اعتبارا، وقد راعى جميع الرهبان بصفة دائمة كل المحن التي تحصل للمسيحيين مع الملك وأبنائه أو مع مغاربة آخرين. فقد كان الدير هو الملجأ الوحيد الذي يسعى إليه المسيحيون لطلب الاستعانة في حالة وقوع مشاكل مثل سرقة ثياب أو أدوات العمل، أو فقدان بعض الحاجات في لعب القمار، حيث يأتون إلى الدير ليخلصهم الرهبان من المحن والعقوبات. ويجدون - بوجه عام - جميع الحلول لمشاكلهم. وعلى الرغم من أن إخراج المسيحيين من هذا الأسر الرهيب يشكل الهدف الأساس الذي يسعى إليه الرهبان لتحقيق إرادة ملكنا الكاثوليكي حفظه الله، فإنه في هذه السنوات الثلاثة لم يتم استرداد الأسرى نتيجة للثورات الكبرى والحروب الكثيرة التي عرفتها إسبانيا، حيث لم تجتمع الإمكانات الكافية لتحقيق عملية الافتداء، ومع ذلك أتى الأب فراي دييكو دي لوس أنخلس في شهر يوليوز من سنة 1709 ليتفاوض مع الملك على إطلاق سراح مائة وستة من المسيحيين الذين أسروا في سنة 1708. وقد تكلف المذهب المجيد الثالث لأبينا فرانسيسكو دي لافيا وبلاط الملك في مدريد بسمو كبير مصاريف فداء ستة أسرى من بينهم اثنين صارا راهبين، الواحد إسباني من ديانة سان أكوستان، والآخر برتغالي من ديانة سان بنيتو.

• التقدير والصيت اللذين حظي بهما المبشرون عند المغاربة والصدقات التي تلقوها منهم :

على الرغم من أن المغاربة هم - بوجه عام - قوم غير منظمين لا يتوفرون على مدارس وعقول مثقفة ومكابح توجه رغباتهم، فإنه لا يمكن أن ننفي عنهم ذلك النور الطبيعي الذي يلقيه الله في جميع أبناء ابن آدم لمعرفة الاختلاف بين الحسن والسيئ. ومن ثم فإذا كان هؤلاء القوم يعتبرون عقيدة الرهبان ضالة وزائفة، فإنهم سرعان ما يتراجعون عن هذا الحكم، ويصفوننا بالكمال عندما يطلعون على حيثيات حياة الرهبنة التي تؤكد فعل الشيء الكثير من الذي تفعله القوى الإنسانية. فالذين لا يخلصون للدير لا يعرفون من هم الرهبان، فهؤلاء هم الذين يقنعون بالقليل، ويحتقرون العالم، ويرتدون الجراب، ويتعاملون بالمعاملة الحسنة والمتواضعة والحنونة مع المحسنين، ومسجونون باستمرار ومجاملون وصادقون، إذ ينهجون في جميع معاملاتهم سياسة حسنة. وعند رؤية كل هذا مجتمعا فإنه يجب أن نوافق الحق، ونعترف بأن الرهبان رجال طيبون، وأن تقاليدهم حسنة وموافقة للصواب.

وعلى هذا الأساس حاول الملك أن يستكشف طريقة عيش الرهبان، فقد أدت به يقظته الكبيرة وتبصره إلى القيام بمساعي متقنة، تمثلت في تخصيص جواسيس من المغاربة ومن المرتدين لمراقبة حركات الرهبان، وقد حصلنا على الخبر الأكيد لهؤلاء الجواسيس بفضائل الله ورحمته التي يهبنا إياها، فنجونا من المكائد المؤذية، واهتدى ذلك المستبد لتقدير كل الأشخاص والمنازل التي توجد في مملكته.

ويحرص الرهبان كثيرا على ملاطفة الملك رغم أنهم ليسوا ملزمين بذلك، إذ يحملون بعض الهدايا من وقت لآخر، وخاصة في الأيام المتقدمة لأعياد الفصح، وتقتصر هذه الهدايا على بعض حلويات إسبانيا، ويقدر الملك ذلك ويخصص خطبة دينية عريضة للمغاربة في اليوم الذي يأتي فيه الرهبان يقول فيها: حقيقة أن الرهبان هم أشخاص متعقلون وسياسيون، يحسنون معاملة الملوك والأمراء، وكافة جمهور العوام، ولو وجد بينكم أناس بهذه المعاملة، لوثقت بهم في إدارة مملكتي، لكني ملزم بتسليط قوة سيفي عليكم جميعكم لكي تحققوا شيئا في المستقبل.

وبهذه الإشادة الملكية نشأ المظهر الطيب للرهبان، بحيث خلفت آثارا عجيبة من بينها أن المغاربة أصبحوا يدركون أن الملك يهدأ ويرضى عندما يرى راهبا ولو كان غاضبا بشدة. لذلك كان المغاربة يأتون إلى الدير في كثير من الأيام التي يقع فيها التعذيب بالهراوات، والطلقات النارية، وطعنات الرمح، يطلبون من الله أن يذهب راهب لرؤية الملك

ولو بحجة السلام عليه، وبنصر الله يهدأ الغضب، وينتهي الضرر ويستقبل الملك الراهب ويتكلم معه بكثير من الهدوء.

أرسلت إسبانيا في واحدة من المناسبات عبر ميناء سلا قنطارين من الشمع، قنطار واحد من الشموع طلبه دير، وقنطار آخر من الشموع الخامة لصنع بعض الأدوية. ويحتكر الشمع يهودي يضلل الجميع، حيث تصرح له وللحاكم ببطاقة الامتيازات التي خولها لنا الملك في الأزمان القديمة. ورفض اليهودي الاستجابة لطلبنا بدعوى أن هذه الوثيقة الملكية معدومة القيمة لأنها قديمة، ولذلك قدمت شكوى في هذا الشأن للملك، الذي أرسل في الحال تأنيبا لقائد الميناء، ووبخه على تخويله الشمع لذلك اليهودي اللئيم، لكي يضايق الرهبان. وتم الأمر بإرجاع الشمع، ومنح امتياز جديد أفضل من القديم يخول للرهبان الدخول والخروج من جميع الموانئ دون أي تفتيش. وأعلن هذا الأمر رسميا لجميع القضاة، وباقي أفراد العدالة الذين تلقوا هذا القرار الملكي بحسرة كبيرة ولم يجاملوه.

وبهذه الإرادة الطيبة من الملك التي لوحظت في هذه المناسبات وغيرها، أصبح القياد يعاملون الرهبان معاملة طيبة وعائلية، فهم ملزمون بتقديرهم لأنهم لاحظوا تعاطف الملك معهم، ولذا فقد كانوا يأتون مرارا إلى الدير يقضون المساء في مناقشات حضارية، وكان الرهبان يبادلونهم هذه الزيارات مرات عديدة، بحيث إذا ذهبوا مع أحدهم إلى بستانه للتخفيف من السجن المتواصل، يشتكي الباقي من عدم الاستجابة لطلبهم. وهكذا حظي الرهبان بمعاملة كريمة من قبل هؤلاء المغاربة المهمين، ولقوا منهم أفعالا نبيلة تعد من مكرمات الأمراء، ولذلك سأقتصر على ما قلته تحاشيا للإطناب، ولصعوبة رواية كل الحوادث. ويكفي القارئ هذا لكي يشهد أن هذه الفضائل نشأت من الحياة العفيفة والنشيطة التي مارسها الرهبان المبشرون وسط البربر، وهي بذلك تعد من محصلات البعثة التبشيرية التي عملت على تليين المعاملة الإنسانية والسياسية لأناس خشنين وعدوانيين في طبعهم، ويكرهون المسيحيين. الحمد لله المبارك منشئ كل شيء طيب.

وبالنسبة إلى الصدقات التي أعطاها المغاربة إلى الدير في هذه السنوات الثلاث فهي معجزة مذهلة وموجبة للاعتبار، وهذا شيء يستحقه الأب الكبير سان فرانسيسكو الذي عاش فقيرا ومحتقرا لكل أشياء العالم. وقد عايشت بدوري هذه المعجزة التي ظلت عندي دائما مشكوكة. وفي هذا السياق سأروي عن الذين وهبوا الصدقة، والذين أمروا بها، لأنهم أعطوا بهذا الفعل العبرة للمسيحيين، ولأن رواية مثل هذه الأمور يعد ضروريا لدى المجمع

الرسولي الحواري الملائكي مالك العالم.

تمت زيارة الملك لتهنئته على تحسن حاله من الحادثة المؤلمة، وأهدوا له بعض الحلويات التي يحبها، وخصص في هذه المناسبة صدقة منقطعة النظير. حيث أمر واحدا من مخصييه من داخل القصر أن يأخذ من خزانته الخاصة مقدار خمسة عشرة بيسو، ويعطيها للرهبان بمظاهر التقدير والإذعان، لكي يكون فعله هذا غير مسبوق من قبل رجال الدولة المهمين الذين أعطوا ما ملكوا عندما أمرهم الملك بذلك.

المولى (أحمد) الإبن الأكبر للملك، وهب للدير الذي أسعفه بالأدوية في مرضه صدقة مقدارها خمسة وسبعون بيسو، وخيلا، وخمسة وسبعين فنيقة من القمح.

المولى علي، وهو ابن الملك أيضا، وهب خيلا.

المولى المتوكل ابن الملك أعطى اثنان وعشرون فنيقة من القمح وخمس فنيقات من الشعير.

سيدي محمد ابن الملك أعطى خيلا.

المولى عبد الكريم، ابن الملك، وهب ثلاثة خيام وسبعة حصائر رقيقة من الحلفاء المطرزة، وغطاءين تستعملان في الطرق.

المولى إدريس، ابن الملك وهب فرسين وبغلة، وبقرة.

القائد الخضر، أعطى بقرة وثلاثة أرباع من السمن.

القائد سيدي الهواري أعطى خمسة وأربعين فنيقة من القمح، وقنطارا ونصف من السمن.

القائد سيدي أحمد حاكم طنجة، وهب بقرتين مع عجليهما.

القائد عبد المالك مجاري أعطى قنطارا من الطحين وخروفين وأربع وعشرون دجاجة.

ابن القائد بنيسو أعطى أربعمائة وثمانين حملا من الكلس وخروفين وحصيرتين رقيقتين من الحلفاء المطرزة، وأربعين دعامة.

القائد عبد الرحمن عزوز أعطى خلال هذه السنوات الثلاث مائة وثلاثة وثلاثين عربة من التبن.

الباشا سيدي التليغي أعطى أربعة عشر حملا من الكلس.

القائد عبد الرحمن ابن الباشا بلغيار أعطى ثلاث قنطارات من الأرز.

القائد محمد ابن القائد عمرو أعطى عشرة بيسوس وعشرة خرفان وثلاث قنطارات من الشمع.

القائد علي اللب أعطى ثلاثمائة وأربع وعشرين من الدعامات السميكة، وثلاث مائة واثنين وتسعين قنطارا من الفحم، وكبشا.

مرتدون مختلفون تصدقوا بثمن مظلة من حرير لموكب القداس، ومقعد بستة سلالم، وكلاهما مطرزين.

مرتدون آخرون أعطوا في مناسبات مختلفة إحدى عشر ونصف فنيقة من القمح، وستة وعشرين قنطارا من الطحين، وأربع قنطارات وربع واحد من الشمع، وستة فنيقات من الشعير، وخمسة فنيقات من الحمص، وعجلة، وكبشين.

مرتد وهب قطعتين من قماش روان لصنع ثوب خزانة الكنيسة.

ميمران كبير اليهود أعطى ستين بيسو إسكودوس.

يهودي آخر أعطى ربع واحد من الشمع.

هذه هي مجمل الصدقات التي تلقاها الدير في هذه الفترة من أيدي المغاربة، وكثير منها كانت وافرة. ولذلك ينبغي علينا في إقليمنا المقدس أن نشكر إلهنا كثيرا ونطلبه بخشوع كبير بأن لا نفقد هذه الأرواح، وأن تنير فضائل أبينا الملائكي سان فرانسيسكو عقولهم لإدراك ومقت الأخطاء التي يعيشون فيها لاعتناق ديننا المقدس وثوابته الحقيقية الدائمة.

- **المرتدون الذين تابوا في هذه الفترة بسبب الإسعافات التي قدمها لهم الرهبان :**

لقد أرجأت الحديث عن معاملة المرتدين المتصالحين إلى النهاية عن قصد لأتوج به هذه الرواية التاريخية. لقد حملت عبء ممارسة التبشير الحواري، وأرسلت إلى هذه الأرض مع باقي الرهبان من قبل البابا الكنائسي العالي ليسوع المسيح، وبموجب هذا اللقب الذي تحظى به والمهام التي كلفنا بها وجب علينا البحث والاعتناء بالنعيجات الضائعة من القطيع الكاثوليكي والتي هلكت بين ظلمات محمد.

لقد اضطر كثير من المسيحيين المساكين تحت وطأة الظلم والاضطهاد بالعمل والجوع والعرى وصعوبة التخلص من الأسر، بل ونتيجة لضعف نفوسهم، أن يصدقوا أكاذيب الأعداء، ويدوسوا على معتقدات المسيحيين ليسرعوا إلى عمق التعاسة ويصبحوا

مسلمين. ولقد عاينا ذلك، بحيث كان الذين يتبعون شريعة المغاربة يحتقرون الشريعة المحبوبة اللينة ليسوع المسيح. وفي هذه السنوات الثلاث صحا بعضهم من اعتقاده السيئ، وأتوا حزينين إلى الكنيسة يطلبون الشفقة ليردوا أرواحهم مرة أخرى إلى طريق النجاة. وعلى الرغم من وجود أسماء هؤلاء المرتدين وأسماء آبائهم وأوطانهم مسجلة في كتاب الدير الذي يعين على التهيء لطوارئ المستقبل، فإنني لا أسمي هنا أحدا منهم، ولن أذكر آباءهم ومواطنهم لكي لا تكون هذه الرواية مكروهة وسيئة الاستقبال. والذين تصالحوا هم كما يلي :

ارتد أحد المسيحيين عن ديننا المقدس كان قد عاش لمدة اثني عشر سنة بين المحمديين الضالين، ولما تهدده خطر الموت خاف من الهلاك وأتى إلى الدير يلتمس الشفقة وتبرئة أخطائه في اليوم الثالث من دجنبر من سنة 1710، فمنحت له التبرئة بدون الاحتفالية المعتادة، لأن حالته الخطيرة لم تسمح بذلك، لكنه خرج من هذه المحنة سعيدا، ومثل يوم الثالث من مايو من سنة 1711 أمام الجماعة ليعترف بجميع بنود ديننا المقدس، ويرتد عن جميع أخطائه التي عاش فيها.

مسيحي آخر أقر بعد عشرين سنة من ارتداده بظلم شريعة المسلمين، فهداه الله ليدرك وضعه السيئ، ويلتمس علاجه، وجاء إلى الدير مرات عديدة يطلب بدموع غزيرة مغفرة أخطائه، والتصالح مع كنيستنا الأم المقدسة. لقد عاينا ألمه ومثابرته على التوبة، فمثل يوم الرابع من يناير من سنة 1711 أمام الجماعة، واعترف بجميع بنود ديننا المقدس، وارتد عن جميع الأخطاء التي عاش فيها.

إنريكي سميث ذو عقيدة لوتيرية، نشأ في مدينة هامبركو، وأسر في هذه المدينة لمدة قصيرة، ولما مرض جاء إلى مستشفى الدير، وقبله الرهبان لأن أهل وطنه لا يملكون مستشفى ولا مأوى، وقد امتد مرضه طوال فترة الصيام الكبير، واستنهضه الرهبان كثيرا لكي يكره أخطاء لوتيرو، ورغم سماعه لكثير من العظات كانت تلقى آنذاك في قاعة المرضى، ومشاهدته للمارسات المقدسة للطريق المقدس، وورع السبحة المقدسة لسيدتنا، والإسعافات الحنونة للرهبان مع المرضى، فقد ظل ثائرا ومتصلبا لا يقبل المحاورة من الجميع. ولكنه في الأخير سمع إقناعات الرهبان، وتفهمها، وحاول وعظ صديقه بلغته بكثير من الثبات ليعترف بأخطائه الشقية. وبعد هذا التصلب، وفي ليلة الخميس المقدس اعترف الرهبان بحسب رأي الطبيب أن هذا الرجل مرضه خطير، وقد استنهضه راهب من جديد مقدما له حججا مقنعة عن الهلاك الأبدي الذي يتهدده بعد

الموت في العالم الآخر، أو النعيم الذي يمكن أن يضمن به سعادته الأبدية. فاقتنع بهذا البيان واستجاب له، وعبر بصوت عال عن رغبته في أن يموت مسيحيا حواريا رومانيا، وعن إدراكه للسلسلة الموصولة من الأخطاء التي ارتكبها باعتناقه للمذهب اللوتيري الذي كرهه حقيقة. فاجتمعت الجماعة فورا وكثير من المسيحيين الذين بقوا في تلك الليلة في الدير، برأوه وسامحوه في هالة من الفرح المشوب بالدمع الكثير. ووصوه بجميع بنود الكنيسة الرومانية، فتفهمها بسهولة كبيرة، وتقبل القرابين المقدسة وسر الاعتراف، ثم أدى هذا الامتحان بنجاح، وسر الاعتراف بدموع غزيرة، ثم استقبل بشجاعة الورع المقدس، والزاد الأخير وتنهد كثيرا وبكى ملتمسا مساعدة ملكة السماوات بكلمات جد ورعة، ومتضرعا لله وحده. وفي اليوم السابع من محاورته، والذي صادف السادس من أبريل من سنة 1711، مات تائبا، بعد أن تقبل كل المقدسات، واستراح بصفة أبدية.

مسيحي آخر رحل بإرادته من الأراضي المسيحية إلى أرض البربر، وارتد عن ديننا المقدس وأسلم، وعاش ثلاثة أشهر في مدينة تطوان نادما وباكيا يطلب مغفرة أخطائه وعزم على الهرب من البربر. ومن ثم تصالح معه الراهب رئيس هذا الملجأ، وبرأه في اليوم العاشر من يناير من سنة 1712.

مسيحي آخر رحل من الأراضي المسيحية إلى أرض المغاربة واعتنق دينهم وأنكر بجرأة شريعة يسوع المسيح، وعاش في فقر كبير مدة أربعة أشهر في مدينة تطوان، ثم بعد ذلك أدرك الخطر المحيط به، فالتمس بصدق كبير من رهبان ملجأ تطوان علاجا لروحه، فاستجابوا له ووعدوه بالهروب، ولما تيقن الراهب الرئيس لهذا الملجأ من حقيقة سر اعترافه تصالح معه، وبرأه في اليوم الرابع عشر من يناير من سنة 1712.

مسيحي عاش بين الضالين المحمديين لمدة اثنتين وعشرين سنة، وبعد هذه الفترة الطويلة من الضلالة أدرك بفضل الله حياته المهدمة، وعزم على إنقاذ نفسه، فجاء إلى الدير في حالة من الحزن والتواضع، واعترف علنا بجرائمه، ثم التمس الشفقة باكيا بغزارة، وكرر التماسه بعض المرات، وصولح في الأخير، وبرئ في حضور الجماعة في اليوم التاسع عشر من مارس من سنة 1712.

مسيحي قبض عليه هاربا من هذه الأرض، وجاءوا به إلى حضرة الملك، ولكي لا يفقد حياته التي كانت مهددة فقد روحه وغدا مسلما، وعاش في هذه الحالة مدة ستة عشر سنة، ثم صحا وعيه الخاطئ بعد أن أصيب بمرض. وأعلم هذا المسيحي الدير عن طريق شخص أمين لكي يسعفوه في الواقعة الرهيبة، والتمس بصدق كبير علاج حياته المهدمة.

فتنكر الراهب ورافق الطبيب ليقدم له علاج الروح، واعترف المريض بأخطائه في يوم التاسع والعشرين من مارس في سنة 1712، ومات بعد ذلك بوقت قليل في اللحظة التي كان يتلفظ فيها بحنو كبير الأسماء الحلوة ليسوع ومريم.

راهب قسيس لن أذكر مملكته ودينه احتراما لموطنه وعائلته المقدسة ظل لبعض السنوات محافظا على رهبانيته، ولما وصل إلى علمه أن الراهب دييغو دي لوس أنخيليس سيخرج ستة مسيحيين رشحهم الملك لإطلاق سراحهم وأنه لن يكون ضمن المجموعة اتخذ قرارا متهورا لا يمكن أن يتخذه رجل ذو مسؤوليات كبيرة. لقد غاب عنه نور الإيمان والحق الكامل وراودته الخيالات الشيطانية اليائسة من يسوع المسيح، فذهب إلى حضرة الملك، وتواجه مع جميع المسيحيين بكل وقاحة وتهتك مستهترا بالوقار العالي للقسوسية محتقرا يسوع المسيح، وأعلن ارتداده عن المسيحية واعتناقه الإسلام، لكن الملك لم يقبل هذا الاعتراف، وشك في صدق نية الراهب، فحذره قائلا: "إذا لم يكن هذا الفعل ثابتا، وكنت تتوخى مصلحة دنيوية، فإني أرفض ذلك". فأصر الشقي بسبب عميه وعناده على موقفه بحجة أنه أدرك أفضلية شريعة المسلمين على شريعة المسيحيين. ولما سمع الملك ذلك نزع عنه ثوبه، ووهب له ثوبه الخاص وألبسوه إياه. وفي اليوم نفسه الذي صادف آنذاك الحادي عشر من أكتوبر من سنة 1709، مروا به في موكب من المغاربة عبر الشوارع العامة بالهتاف الكبير. ولقد سبب هذا الموقف حزنا وألما للمسيحيين والرهبان، تضاعف بمجيء هؤلاء إلى أبواب الدير لكي يلبسوه ثوب الملك بكثير من الصخب ومظاهر الانتصار. ولم يقنع الراهب بارتداده عن دينه، بل أسرع في الانتقال من هوة إلى أخرى، حيث قدم التماسات لإنهاء علاقته بالرهبان والمسيحيين، وصرح للمغاربة بكل ما يفعله القساوسة، ويعظوا به في الكنيسة عند اجتماعهم بالمسيحيين، وبأنهم يعرفون المرتدين. لكن إله بني إسرائيل الرحيم يدافع دائما عن الرهبان البريئين، ويدفع عنهم غضب جهنم وموج الأجواء السيئة والمخيفة، ويؤمنهم من كل ما يفزع. لقد خيب هذا الراهب أملنا عندما ارتد وألقى بنفسه في جهنم مرتكبا هذه السلسلة المتواصلة من الأخطاء. وبناء على كل هذا كلف الرهبان بعض الأشخاص الأمناء بمحاولة وعظه وإيقاظ روحه النائمة، فرجع عن ضلالته عندما أصيب بمرض شديد فتح عينيه المغمضتين ليرى ما فعله من جرائم مستنكرة، وأرسل إلى الدير يطلب الشفقة بألم شديد مشوب بالدموع، فأسعفه الرهبان بالطبيب والدواء لمعالجته، وسهروا عليه في جميع الأيام وفي حالة اشتداد مرضه، وبفضل الله المحسن تحسنت صحة الراهب، واستمر يلتمس تبرئة أخطائه نادما. وقد أجلت مصالحته

لمدة ستة أشهر حتى يتلقى التشجيعات من قبل الراهب استيفان دي أونكريا، وترضى الكنيسة عليه بسبب الإهانة التي سببها لها. لكن الأسقف السعيد لم يحتج إلى التشجيعات لكي يعترف بعقيدة يسوع المسيح، وهكذا قبلته نقابة كنيستنا الأم في اليوم الثالث من أبريل من سنة 1712 ليرتد عن الأخطاء المحمدية ويعترف بجميع بنود العقيدة المسيحية في حضور جميع الرهبان.

هذا هو عدد المرتدين الذين تصالحوا في هذه الفترة، ولقد فرحنا وابتهجنا برجوع هذه النعيجات المسكينة إلى القطيع الكاثوليكي. وقد عمل الرهبان على توجيه وهداية هؤلاء المرتدين وغيرهم من الذين عاشوا في فترات أخرى. ويوجد من بين هؤلاء المتصالحين رجال يقومون بوظائف كثيرة في كنيسة الماسورة، ويأتون إلى الكنيسة يسمعون الخطبة ومبادئ العقيدة المسيحية، والقداس، ويدخل معهم عدد لا يحصى من المغاربة. ورغم أن أغلب المرتدين و المتصالحين يقيمون في مكان صغير يبعد أربعة أميال من مدينة مكناس، فإنهم يتناوبون في الإتيان إلى الكنيسة لاستيفاء جميع المسؤوليات.

ويسعف الرهبان هؤلاء المتصالحين عندما يصابون بالمرض، رغم إقامتهم البعيدة عن المسيحيين وعدم إمكانية معالجتهم في مشفانا. وهكذا عندما يتم إعلام الدير، يرسل الطبيب لرؤية المريض ولمعاينة بيته والناس المحيطين به وتجارتهم لتحديد الشكل الأفضل الذي يمكن أن تقدم فيه القرابين المقدسة، ويحصل الرهبان على كل ذلك، ولكن بصعوبات كبيرة.

مسيحي قضى جانبا من حياته مرتدا، والجانب الآخر متصالحا، وعاش الثلث الأخير من حياته شيخا مسكينا ومتسولا وأعمى، وعندما أصيب بمرضه الأخير في مدينة فاس حيث كان يعيش، تكلف المسيحيون الذين كانوا يسعفون بعض المرتدين القاطنين في بيته أن يلتمسوا له العلاج، فتلقي القرابين المقدسة قبل فقدان روحه. و هكذا تنكر أحد رهبان الملجأ ودخل إلى البيت السعيد، حيث قدم للمريض الزاد الأخير، والدهن الشديد، وعمل على تسليته حتى فارق الحياة في شهر ماي من سنة 1712.

مسيحي آخر متصالح متزوج بمسيحية مرتدة ومتصالحة، لما أحس بمرضه الخطير التمست زوجته من الرهبان إنقاذه بإحضار القرابين المقدسة. فتنكر الراهب في صفة أسير لأن المسيحي وزوجته كانا يعيشان بين المغاربة، وذهب بمرافقة الطبيب ومسيحيين آخرين من مصلحة المستشفى حاملين الدواء. فأعطاه الراهب الزاد الأخير، و لم يكن

هناك وقت لإعطائه الدهن الشديد، لأنه سرعان ما فارق الحياة، وذلك في اليوم الأول من شتنبر من سنة 1712.

ولا ننسى أن نذكر هنا بعض التعميدات التي حصلت في هذه الفترة، ويتعلق الأمر ببعض تعميدات الأطفال الصغار، وأبناء المغاربة والمرتدين، وقد عمد بعضهم على يد الرهبان، وعمد البعض الآخر على يد الطبيب، ذلك أنهم يعترفون أن التعميد هو علاج إنساني للطفل. وقد تعمد خمسة في هذه الفترة، ومسيحيون آخرون وأبناء مرتدين أيضا، لأنهم على الرغم من ارتدادهم فإنهم يحرصون على التعميد، مخافة أن يموت أطفالهم دون تعميدهم، ويكلفون الأكثر تجربة في هذا الميدان ليتم التعميد بنجاح، فهم يواظبون على هذا العمل الجيد، لأنهم يعرفون جيدا ما ينبغي فعله.

يوجد في الدير حوض للتعميدات الاحتفالية، وكتاب تسجل فيه أسماء الذين تعمدوا في هذه الأرض، وقد حصل في هذه السنوات الثلاثة عماد واحد لطفل ينتمي إلى أبوين مسيحيين.

وأخيرا فقد اهتم الرهبان في هذا القطيع الكاثوليكي الصغير بتدبير كل ما ينتمي إلى الحياة المسيحية مثل الحفلات المقدسة والمراسيم الممدوحة لكنيستنا الأم، واعتنوا بعبادة الله الحقيقي وخشيته المقدسة، متحدين مع قلوب الأوفياء لكي يخافه الجميع ويحبه ويكرمه. وبما أنهم يدركون صفاء شريعتنا المقدسة وثوابتها وحقائقها، فإنهم يعرفون كيفية مواجهة الآثام والعادات البذيئة التي تتضمنها العقيدة المضللة لمحمد، فيقضون حياتهم متعبين ومعذبين، ومضطهدين مثل يسوع المسيح، ليحكموا معه بمجد في العالم الآخر مع زمرة الشجعان، ويهلك المعيبون إلى الأبد.

لقد ذكرت بإيجاز في هذه الفقرات الستة بيانا محترما عن البعثات التبشيرية لإفريقيا في محاورتها، وتناميها، ونتائجها، لكي يتشرف ويتمجد إقليمنا المقدس سان دييكو بالجوهرة الثمينة التي أضافها الكرسي إلى سلسلة أعماله المسعفة والساهرة، ولكي لا تكل وتيأس البعثات التبشيرية من أداء عملها في البلد التي توجد فيه، فتنمو وتزدهر. وقد ساعد ملكنا الكاثوليكي دون فيليب الخامس (حفظه الله ووفقه) مثل عادته الرهبان في أراضي البربر، فسندهم بجميع المصاريف، لذلك يكون من العدل أن يعهد الله إلى جلالته الكاثوليكي والعائلة الملكية هذا الفعل الجميل المتفرد، لكي يحقق للإقليم فضائل متعددة وإفادات كثيرة كما رأينا ذلك جميعا. ويرسل إقليمنا هذه الرواية التاريخية المحترمة إلى

روما لكي يطلع الكرسي الحواري على ما حدث خلال هذه الفترة في البعثات التبشيرية لإفريقيا. وكل ما كتب يتطابق مع الحقيقة العامة والمعلومة لدى جميع المسيحيين والرهبان، ومن ثم تشكل هذه الرواية شهادة في كل زمن وفي كل محكمة، قمت أنا بكتابتها ووقعتها بالطابع الأعلى للبعثة والدير، وأمضاها أيضا أربعة رهبان مبشرين سامين وقدماء في دير الولادة الطاهرة لسيدتنا في العاصمة مكناس في العاشر من شهر أبريل من سنة 1712، وهم فراي خوان دي لاكونسيبسيون مدرس مساعد لعلم اللاهوت وحارس ونائب الحواريين، فراي دييكو دي لاكونسيسيون مبشر حواري، فراي فرانسيسكو دي لاتريندادا واعظ ومبشر حواري، فراي أنطونيو إبانييز دي لاس ياكاس واعظ ومبشر حواري، فراي بدرو دي ألكانترا واعظ ومبشر حواري.

الفصل الرابع

الكنيسة الحديثة في القرن التاسع عشر

وضعية البعثات التبشيرية في إفريقيا الطنجية والجهود والنتائج الروحية التي حققها حارس الدير القديم لمدينة مكناس ونائب الرسول الحواري لهاته البعثات ورهبان آخرون منذ الواحد من أبريل سنة 1802 إلى الواحد من الشهر نفسه سنة 1805[215]

- **ساداتي السامون :**

لكي لا نثقل عليكم بتكرار الحديث عن العادات والمذهب وشكل إدارة هؤلاء الناس سنشير فقط إلى أنه يوجد حاليا في المغرب أربعة ملاجئ يتوزع فيها اثني عشر مبشرا حتى حدود شهر غشت، حيث مات راهب واحد، وبقي في طنجة حارس مع ثلاثة مبشرين، وراهبان في العرائش، وراهبان في موكادور، وثلاثة رهبان في الرباط.

- **النتائج الروحية :**

لقد تم الاحتفال في هذه الملاجئ بسبعة تعميدات، وعمد أطفال آخرون من آباء كاثوليك، كما تم الاحتفال أيضا بالقربان المقدس بشكل متواتر جاوز الأربعمائة مرة. ولم يتوقف في هذا الزمن مجيء الهاربين من الجندية من المعاقل الأربعة التي يملكها ملك إسبانيا في إفريقيا. وقد قام المبشرون بجهود كبيرة من أجل إنقاذ هؤلاء المنكوبين من اعتناق الإسلام. وعلى هذا فمن بين مائة وأربعين تخلى أربعة منهم عن المسيحية واعتنقوا

(215) هذا النص ترجمة لرواية تاريخية مخطوطة عن النتائج التي حققتها البعثات في المغرب أرسلت إلى المجمع المقدس، وتوجد في أرشيف البعثة في طنجة، ونشرها الأب لوبيز في مجلة "Mauritania" ع177، 1 غشت، س 1942. ص 252 - 253

الإسلام، أما الآخرين فقد حافظوا على إيمانهم نتيجة للتشجيعات والاستنهاضات المتواصلة، ورجعوا إلى أوربا.

وقد اعتنق الإسلام آخرون لكنهم تراجعوا عنه، كما حدث في العرائش، حيث أسلم رجل لمدة ثلاث سنوات ثم تراجع عنه إلى المسيحية نتيجة استنهاضه المتواصل من قبل الرهبان الذين يقيمون في هذه المدينة، والذين لم تذهب جهودهم عبثا تجاه هذا الرجل، إذ لم تكد تمر بعض الأيام حتى جاء يبحث عن المبشرين يلتمس منهم أن يقبلوه في نقابة الكنيسة، فامتحنه الرهبان وعاينوا الأهداف التي دفعته للرجوع إلى المسيحية، وصالحوه بحكمة وانتباه. وبعد مرور بعض الأيام رجع إلى أوربا.

كما قام الرهبان في طنجة بتعنيف شخص آخر اعتنق الإسلام، مما أدى به إلى الارتداد إلى المسيحية من جديد. وقد بلغ خبره إلى القاضي بوشاية بعض المسلمين، ولما تأكد من مسيحيته أرسله إلى الملك المولى سليمان لكي يسمع منه قراره. فحدث في هذه المناسبة أن بعض المسيحيين جاءوا بهدية إلى الملك في مكناس، والتقوا بهذا المسيحي المرتد في الطريق، فشجعوه وأقنعوه بعدم المثول أمام الملك خوفا عليه من العقاب أو التهديد، فرجع إلى طنجة، وحكى ما جرى له إلى نائب الأسقف الذي أرسله إلى رهبان العرائش، ومن هناك أبحر إلى أوربا.

وفي مدينة طنجة قام أخوان كاثوليكيان يشتغلان لدى قنصل إنجلترا بسرقة أشياء هينة القيمة من بيته. وعندما علم القنصل بالسرقة أمر بوضعهما في سجن المسلمين وضربهما يوميا مع تعذيبهما في الوقت نفسه بالجوع والعطش والنوم على الأرض العارية مقيدين بالسلاسل. ولما علم الأب نائب الأسقف بما يعانيه السجينان سعى إلى التماس العفو عنهما لدى القنصل الذي رفض طلبه، ثم سعى عند قناصلة آخرين للتخفيف عنهما فلم يحصل على رد إيجابي، بل زادت معاناة الأسيرين من كثرة الأشغال الشاقة. وهكذا كتب الأب إلى حكومة نيسا، حيث موطنهما، لكي تخبر حكومة فرنسا بالأشغال التي يعانيها هذان التعيسان. فأرسلت الحكومة بسرعة إلى وكيلها تأمره بإرسال نائب الأسقف إلى الملك ليطلب منه إطلاق سراح السجينين، فعفا عنهما الملك وسلمهما إلى قنصل فرنسا الذي أرسلهما إلى أوربا. ولم يرتد هذان الأسيران عن دينهما رغم مكوثهما ثمانية أشهر

في السجن ومعاناتهما من التعب والأشغال، وإلحاح المسلمين عليهما بالارتداد. فقد أعطيا بذلك مثالا رائعا لكثير من المسيحيين الموجودين في طنجة.

لقد منح القبر الإكليروسي لعشرين كاثوليكيا ماتوا في هذه البعثات، ومن بينهم راهب مبشر عينته إسبانيا لتعليم اللغة العربية. وطيلة هذه السنوات الثلاث احتفل بزواج واحد فقط. أما الممارسات الروحية والأعمال الإكليروسية، فقد استمرت بالحجم والعناية نفسيهما التي كانت عليه في السنوات السابقة.

هذه هي ساداتي السامون النتائج الروحية التي جناها المبشرون في هذه السنوات الثلاثة من أجل خدمة الإله وإنقاذ الأرواح. ويصادق على هذه الرواية الأب الحارس ونائب الرسول الحواري، ومبشرون آخرون يوجدون في مدينة طنجة ومختومة بطابع هذه البعثات، ومصادق عليها من قبل كاتبها في الواحد من أبريل سنة 1805. فراي خوان دي سوطومايور دي سانطاريطا حارس ونائب الأسقف (توقيعه). فراي أندريس لوكي دي خيسوس (توقيعه). فراي بيدرو مارتين ديل روساريو (توقيعه). وهناك طابع جاف ملصق ضارب إلى الحمرة.

رواية تاريخية عن النتائج الروحية التي حققتها البعثة من سنة 1808 إلى سنة 1815[216]

حالة البعثات في مملكتي مراكش و فاس، والنتائج الروحية التي حققها نائب الرسول الحواري ومبشرون آخرون لهذه البعثات. منذ الواحد من أبريل سنة 1808 حتى الواحد من شهر شتنبر سنة 1815، وتوجه هذه الرسالة إلى المجمع المقدس للنشر.

ساداتي السامون : من أجل إنجاز أحد المهام المتصلة بمؤسستنا فإن رهبان إقليم سان دييكو من مذهب الحفاة الصغار للأب سان فرانسيسكو في الأندلس والمبشرين الحواريين المرسلين من قبل المجمع المقدس للنشر إلى أرض المغرب، يلتزمون بإبلاغكم أخبارا مضبوطة وبسيطة عن الحالة الراهنة لهذه البعثات، وعن جهودها، ونتائجها الروحية التي جناها المبشرون من 1 أبريل سنة 1808 إلى واحد شتنبر 1815. ونشير هنا إلى أن كثرة، أو قلة هذه النتائج إنما ترجع أسبابها في الغالب الأعم إلى الأحداث السياسية التي هزت جميع دول أوربا، وهو ما يسمح لنا بكتابة بيان موجز عن الأحداث الأليمة التي وقعت في هذه المملكة، وذهب ضحيتها عدد من المسيحيين.

- **الحالة السياسية لهذه المملكة :**

قد بينا لسيادتكم في رواية سابقة عن النتائج الروحية لسنة 1808 أن الإنجليز استولوا على جزيرة برخيل الصغيرة القريبة من إفريقيا في مضيق جبل طارق، حيث بنوا فيها أكواخا، ووضعوا بطاريات من أجل الدفاع عنها، وفي الوقت نفسه أقاموا قاعدة بحرية للسفن الحربية التي سعوا بها إلى إعاقة التجارة الإسبانية والاستيلاء عليها. وقد تسببت حرب ساحة سبتة التي يملكها ملك إسبانيا في انتشار المجاعة والفاقة.

(216) النص رواية تاريخية مخطوطة في أرشيف البعثة في طنجة، ويتألف المخطوط من 32 صفحة كتب في اثنين وعشرين صفحة، والباقي كله بياض. وقد نشره الأب فراي خوسي لوبيز في مجلة "Mauritania" في جزءين، يتناول الجزء الأول الحالة السياسية للمغرب، ع 179 – أكتوبر – س 15 - 1942 من ص 301 إلى 304. ويتناول في الجزء الثني للأحداث الخاصة والنتائج الروحية للبعثة، ع 180 - 1 نوفمبر – س 15 – 1942، من ص 333 إلى 336.

وعندما بينا ذلك في الرواية السابقة كان الأمر مازال حديث الوقوع، بحيث لم يعرف ما إذا كان احتلال الجزيرة قد جرى بموافقة المولى سليمان (وهو الملك الحالي للمغرب)، ولم نكن نملك أي أساس للكشف عن ذلك. حقيقة لقد كانت الحكومتان المغربية والإنجليزية متفقتان على فكرة هذا التأسيس، لكن مخططاتهما لم تتمخض عنها نتيجة ذات أهمية، وتغيرت كليا بسبب الاختلال السياسي الذي حصل في إسبانيا في شهر مايو 1808. فمنذ هذا الزمن تغيرت أيضا المصالح المشتركة بين الدولتين الإسبانية والإنجليزية، نتيجة لعلاقات الصداقة الكبيرة، والروابط الثابتة التي أضحت تجمع بينهما. وبناء على ذلك فقد غادرت إنجلترا الجزيرة دون أن ترجع إلى احتلالها إلى يومنا هذا.

وهكذا فالأمور السياسية التي استقرت في إسبانيا، والعلاقة التي أقامتها هذه الدولة مع إنجلترا، والحرب التي أعلنتها ضد فرنسا قد تسببت في دخول هذه الدول جميعا في مواجهة حربية لتحقيق مصالحها في المغرب. بحيث كانت كل واحدة من هذه الدول تسعى إلى استمالة الحكومة المغربية إلى جانبها لكي تصبح حليفتها، وتحصل على المؤونة، فتضايق الدولة الخصم، وتخرج من الحرب بأكبر قسط من المصالح. ولم يكن ملك المغرب في وضع يسمح له باتخاذ موقف ثابت تجاه أية دولة من الدول التي تسعى إلى التحالف معه. ففي سنة 1807 أرسل هذا الملك سفيره إلى باريس، وفي بداية سنة 1808 رجع هذا السفير إلى بلاده يحذر الملك من نوايا فرنسا تجاه المغرب. وقد روى مرافقو السفير لأصدقائهم أشياء كثيرة مما سمعوه، من بينها أن الفرنسيين يعبرون إسبانيا، فشاع هذا الخبر بسرعة بين جميع الناس وتناقلوه، حتى قالوا إن الفرنسيين استولوا على إسبانيا، وأنهم سيأتون مع الإسبانيين لغزو بلادهم والاستيلاء على منازلهم. لقد كان هذا هو منحى التفكير العام، وقد تحاشينا ذكر كثير من الهراءات لكي لا نضايقكم بها. ومن ثم فإن تعصب بعض هؤلاء المسلمين، وخوف وجبن البعض الآخر، مع نقص في المعرفة قد دفع هؤلاء لمضايقة المسيحيين، والتسبب لهم في محن كثيرة عانوا منها في هذه السنوات السبع. فكل مسلم يريد أن نخبره عن هدف دخول الفرنسيين إلى إسبانيا وعن مشاريعهم اللاحقة، وكأن كل مسيحي يعرف جميع الأخبار المضمرة في وزارات أوربا.

وهكذا تضاربت الآراء واختلفت بين هؤلاء المسلمين بحسب المعلومات القليلة التي يعرفوها عن هذه الدول، أو حسب ميلهم ومصالحهم التي تربطهم بواحدة من هذه الدول أكثر من الأخرى. فبعضهم يصف الفرنسيين أنهم رجال جاحدون وخونة، بينما يظن البعض الآخر بأنهم قوم لا يقهرون بفضل خبرتهم وما يتميزون به من قيمة، والأغلب منهم يصف

الإسبان بأنهم خونة وأنذال لأنهم لم يمنعوا عبور الفرنسيين إلى بلادهم. وبسبب تهيج هؤلاء قررت الحكومة المغربية أن تتخذ بعض الاحتياطات بدون أن تبين عن موقفها المؤيد أو المعارض لأي دولة من الدول الأوربية المتحاربة.

لقد علم الملك أنه من الضروري تهدئة الآراء المتضاربة التي تنامت بين رعاياه، وعلم بما حدث في 2 ماي 1808 في مدريد والاستعدادات التي تقوم بها جميع الأقاليم الإسبانية لتواجه حملة نابليون، فقرر تكوين جيش، وإعلام الأوربيين أنه عازم على المقاومة، ومواجهة القوة بالقوة في الحالة اللازمة. وهكذا جمع رعاياه ليحد من ازدياد التحزبات، لكن الجزء الأكبر من هذا الجيش اجتمع بدون أن تتوفر له مؤونة احتياطية، وخيم بسرعة على مقربة من طنجة، ولم يستطع أن يستمر كثيرا من الزمن إذ كان النقص حادا في المخازن والمؤونة والعدة الحربية. ومن ثم تعللوا بأسباب مختلفة لإنهاء ذلك التجمع، وقرر الملك المغربي آنذاك أن ينسحب هؤلاء الحرس من الموانئ ويقيم مكانهم آخرون من مختلف المدن الشاطئية، حيث كان ذلك لازما من أجل الدفاع عنها. ثم رجع الملك مع جيشه إلى فاس بدون أن يحقق شيئا يستحق الذكر.

لقد أرغم الملك في هذه السنوات السبع على جمع جيوشه في مختلف الأوقات لإخماد الاضطرابات في الأقاليم التي ترفض دفع الضرائب، وقد كلفه ذلك كثيرا من النفقات والدم. كما أنه انشغل بالثورات التحررية لإقليم الريف، والتي امتدت من شاطئ البحر، وسلسلة الجبال القريبة من تطوان حتى حدود مملكة تلمسان.

في ربيع سنة 1812 اقتربت بعض البواخر المسيحية إلى الشواطئ المغربية، وقامت بشراء بعض الحبوب وأشياء أخرى وذهبت بها إلى أوربا. وبعد أن علم الملك بوقوع هذه التجارة الاحتيالية في أراضيه، أمر بتجهيز إحدى سفنه لمنع التهريب، والقبض على كل من يساهم في هذه التجارة دون استثناء أي دولة. وقد كانت نتيجة هذا التدبير القبض على سفينة من البحارة الإسبانيين الذين كانوا يقومون بعملهم قرب معقل الحسيمة، وقيادتها إلى طنجة. أما الجيوش التي أرسلها الملك لمواجهة وتهديد الثائرين فقد هزمت نهائيا، بحيث توحد الريفيون وهاجموا أتباع الملك، وشتتوهم، وأخذوا منهم بعض البطاريات والمؤونة والعدة الحربية، وبهذا انتهت الحملة العسكرية هذه السنة.

في سنة 1813 استمر الريفيون في تجارة التهريب بنشاط واسع ودون مواجهة عوائق، فأمر الملك أن توضع على وجه السرعة بارجة وسفينة حربية في ميناء العرائش لكي

تجتازان الشاطئ في الوقت الذي يتوجه فيه جلالته بنفسه مع جيشه إلى هذه المنطقة، قصد ردع الأوربيين وإخضاع رعاياه، وإجبارهم على دفع الضرائب الكثيرة التي امتنعوا عن دفعها لبعض السنوات. ولم يحقق الملك شيئا في هذين المهمتين، وهزم جيشه من قبل الثوار الذين ضاعفوا نشاطهم التجاري في التهريب نتيجة للانتصار الذي حققوه.

لم تستطع الكتيبة الصغيرة أن تقبض على أية سفينة من السفن المحملة ولا السفن الذاهبة إلى التزود بالسلع. وقد حاولت هذه الكتيبة تحقيق بعض الانتصار، فألقت القبض على أربعة سفن إسبانية كانت ذاهبة بالمؤونة إلى المعاقل، وأخرى ذاهبة إلى مالقة، فاقتادوها إلى تطوان، واستقبلوا طواقم هذه السفن بالضرب على الدفوف كما هي عادتهم في الاحتفال بالقبض على الأسرى، ووضعوهم في السجن مقيدين بالسلاسل، وفرضوا عليهم الأشغال الشاقة، فعانوا كثيرا في السجن. وخلال ذلك أخبر القنصل العام لإسبانيا الملك المغربي بمصدر وقيمة تلك السفن العشرين، فأصدر هذا الملك أمره بالإفراج عن الأسرى، وتسليمهم سفنهم، وأمر كذلك بأسر كل من يتواجد من الأوربيين على سواحل الريف أو في أي مكان مشتبه فيه، وقطع رؤوس الربابنة بدون الإصغاء إلى مطالبة قنصل الدولة التي ينتمي إليها المقبوض عليهم. وبهذا القرار أراد الملك أن يتظاهر بأنه سلك سلوكا كريما ومتسامحا، لكن الحقيقة أن صدره يضمر نوايا غير التي أظهرها في هذه المناسبة.

وهكذا فقد حدث أن مركبا تجاريا إسبانيا جاء من ميناء بيراكروس في أمريكا الشمالية محملا بالفواكه والسلع متجها إلى جزيرة ميورقة، فاعترضته البارجة المغربية في مرتفع رأس ترافالكار الذي يوجد في مدخل جبل طارق، وصعد المغاربة بهدوء على ظهرها، ووجهوها بالمخادعة إلى طنجة، ثم اقتادوها إلى ميناء العرائش بأمر من قنصل إسبانيا. كما حدث حادث آخر مماثل لسفينة إنجليزية جاءت من تيرانوفا محملة بسمك القد ومتجهة إلى جبل طارق، فأتوا بها من رأس سان فيسينتي في شاطئ البرتغال إلى العرائش بالمخادعة نفسها التي اقتادوا بها السفينة الإسبانية. وقد اقتنع القائدان أنه طيلة غيابهما عن أوربا قد وقعت أمور جديدة مهمة، وأنه من الممكن أن تكون إحدى الدول الأوربية قد أعلنت الحرب مع أحد الولايات البربرية، ولذلك اتفقا على الذهاب إلى أخذ الأوامر من قنصليهما لكي يتفاديا هذا النوع من الأذى الذي يمكن أن يقع لهما، لأن دفاعهما عن نفسهما كان مستحيلا.

وبالنظر إلى الكرم النبيل الذي استخدمه الملك مع المراكب الأربعة الإسبانية،

افترضوا أنه سيستخدم هذا السلوك نفسه مع آخرين. ويفرض هذا السلوك موقف هذان القائدان والوثائق التي أتيا بها معهما، وبالتالي فإن تنوع قيمة البضاعة أوجب على العدالة أن تنظر إلى القضية بطريقة مختلفة عن سابقتها. وهكذا احتجزت السفينتان في ميناء العرائش، وسرق المسلمون ما أرادوا من المتاع والبضاعة، ثم أخبروا الملك لكي يقرر ما يجب فعله. فأمر جلالته وكيلا عنه لكي يأخذ المستندات التي أتوا بها من السفينة، ويذهب إلى طنجة ويقدمها للسيدين القنصلين في اجتماع خاص مخصص لهذا الشأن، ويصرحان إذا كانت المستندات متفقة مع قوانين التجارة. وكل هذا المظهر الشكلي لم يكن الهدف منه إلا ربح الوقت، واستنفاذ صبر المسيحيين، والبحث عن حجة مموهة لكي يستولوا على كل البضاعة، أو على الأقل على الجزء الأكبر منها كما تحقق في نهاية الأمر. وقد صرح القنصلان أن المستندات واضحة وموافقة كثيرا للقوانين التجارية. واختلق المفوض حججا كثيرة معارضة لهذا التصريح، بحيث لوحظ من بعد التصرف السيئ الذي سلكه في هذه المفاوضات. ورأى الريانان المظهر السيئ الذي اتخذته هذه القضية وقدرا الأضرار والأذى الذي يمكن أن يلحقهما من قبل الخديعة التي يحبكها المفوض، فسعيا إلى إنقاذ جزء من البضاعة، لكي يتفاديا كثرة المصاريف التي تتراكم عليهما بسبب الحجز، أو بسبب الردود السيئة التي يمكن أن تحدث بين الحكومتين، والتي قد تؤدي إلى حرب فيكونان من أوائل ضحاياها. وهكذا رأى المفوض أن الاقتراح ليس قليل القيمة، فكتب إلى الملك يخبره عن الوضعية التي وصلت إليها القضية، فقبل الاقتراح وأمر أن ترد السفينتان إلى ربانيها اللذان قدما له هدية قيمة من المال والفواكه، وتقبلها منهما وكأن ذلك كان شكرا واجبا على الإيواء الطيب الذي منحه للمسيحيين في موانئه. لقد سعى الوسيط إلى كسب أفضل فائدة لنفسه دون الاهتمام ببحارتنا المنكوبين.

في أواخر شهر يوليوز لهذه السنة أسرت سفينة إسبانية خلال استعدادها للرجوع إلى مالقة بعد أن شحنت بالصوف ومؤن أخرى أتت بها من ميناء معقل الحسيمة، فاقتادوها أيضا إلى العرائش. وقد كان من بين ركابها جوسيفا لويير المولودة في مالقة والتي كانت على وشك الولادة، فقررت العودة إلى وطنها مع زوجها بنيتو تينيرو. وأعلم الرايس الملك بأسر المركب الجديد، فقرر الملك أن يمثل أمامه شخصيا كل البحارة والمسافرين، وبكت جوسيفا والتمست العفو لأنها كانت على وشك الولادة بين حين وآخر. ولكنهم أصروا جميعا على سفرها إلى مدينة فاس مع القيام بالأشغال ومعاناة الأتعاب الكثيرة بسبب وعورة الطرق، ونقص المؤونة. وعندما وصلوا إلى القصر الكبير في 17 غشت 1813 ولدت

جوسيفا بنتا، وعمدها على عجل أحد رفاق السفر يسمى خوان ميخيل، فالتمسوا جميعهم من القائد والجنود الذين يقتادونهم أن يتوقفوا عن السير لمدة ثلاثة أيام حتى تسترجع قوتها، وتتمكن من مواصلة السفر بتعب لا يوصف. وما إن وصلوا إلى حضرة الملك حتى بادر بالسؤال عن صفة المسافرين، والميناء الذي خرجوا منه، ومكان وجهتهم، والبضاعة التي يحملون، وأسئلة أخرى تتصل بالسفن المهربة. ولما أخبر بكل شيء وبالأتعاب التي لحقت بجوسيفا لوبيز، أشفق عليها وأمر حاكم العرائش أن ترد السفينة للرجوع إلى مالقة احتراما لهذه المرأة المسيحية. لقد سهلت هذه المرأة على مرافقيها هذا الموقف، باعتبارها المرأة المسيحية الوحيدة التي وجدت في عاصمة الملك منذ أن انتهى الأسر. وقد استرعى هذا التصرف النادر والغريب انتباه كثير من الدول، كما أثارت هذه المرأة فضول بعض نساء سرايا فاس، فأردن رؤيتها وزرنها، وقدمن لها هدايا صغيرة لإرضائها. وفي الأخير رجعوا جميعهم إلى العرائش، ثم أبحروا إلى مالقة بدون مواجهة حادث ما.

لما انتهت الحملة سنة 1813 أمر الملك أن يجرد الكتيبة الصغيرة من السلاح، وبهذا التدبير تابع المهربون نشاطهم بشكل واسع بدون مواجهة عائق ما. إذ لم تكن هذه التهديدات كافية لكي توقف هذه الفوضى، بل سببت فعلا عكسيا. وانتشر هذا النشاط في أقاليم أخرى، إذ لم يكن هناك في جميع شواطئ المغرب غير تجارة التهريب.

كما أن الحكومة لم تكن تعامل الرعايا إلا بممارسة الظلم، بحيث لم يكن هناك شيء إلا الطاعة أو التضحية بالنفس.

لقد تسببت طريقة تحصيل الضرائب في ضرر كبير للرعايا من الصعب التعبير عنه. وتبين ذلك في حالة ارتجاج الأقاليم وسعيها إلى الاستقلال. فالرّعاة والفلاحون هم المالكون الذين يدفعون منذ القديم الضريبة من المواشي التي يربونها، والفواكه التي يجنونها. لكن الملك أمر منذ بعض السنوات أن يدفعوا هذه الضريبة نقدا، ولا يملك هؤلاء التعساء دائما القدر نفسه الذي يجب عليهم أن يدفعوه بسبب نقص الأسواق، إذ لا يتمكنون من بيع محاصيل أتعابهم. ولكي يتفادوا العقاب أو تعريض أملاكهم للخطر، فإنهم كانوا يبيعون مواشيهم ومحاصيلهم في حالة سيئة. ومن هنا اتفق الناس في كثير من الأقاليم على قرار رفض دفع هذه الضرائب والسعي إلى الاستقلال. وفي هذه الحالة من الاضطراب والهيجان سعى الملك إلى استمالة كثير من الثوار إلى جانبه، لكنه لم يستطع أن يخضع أهل إقليم الريف، لأنهم كانوا مزهوين بالانتصارين اللذين حققوهما سنة 1812 و 1813، كما

أنهم كانوا يسعون إلى تدعيم استقلالهم. وعلم جلالته أن جميع التدابير المتخذة كانت غير نافعة لتحقيق الأمن في بلاده، فأمر أن توضع بارجة وسفينة تجتازان سواحل الريف وأسر السفن الأوربية التي تحاول التهريب، وفي الوقت نفسه قام بتهييء جيش كبير يقوده بنفسه لإخضاع الثوار. وقرر هؤلاء الدفاع حتى النهاية عن أنفسهم، لكن غياب قائد يقودهم سبب لهم التفرقة، وانتصار الجيش الملكي عليهم. وبعد ذلك عين الملك قائدا حاكما لهم من الإقليم نفسه، ومن ثم انتصرت القوات الملكية سنة 1814، ولم تعد السفن تجتاز السواحل، ولم تحجز سفن أخرى. ويبدو أنه من خلال هذا المسعى لم يجرؤ أي إقليم على الثورة، غير أنه في هذه الأيام التي نكتب فيها هذه السطور من يونيو 1815 قامت ثورات أخرى، وقد تهيأ جلالته شخصيا لإخضاعها في أقاليم دكالة وعبدة وتادلة وتامسنة.

ولكي لا نضايق ساداتكم فإننا نحذف أخبارا كثيرة تتصل بهذا البلد، ونأتي إلى رواية بعض الأحداث الأليمة التي سقط فيها كثير من المسيحيين ضحايا بسبب تعصب المسلمين وكراهيتهم، بدون أن يتسبب لهم المسيحيون في أي أذى.

• أحـداث خاصـة :

في 6 أكتوبر من سنة 1808 كان الحارس ونائب رئيس هذه البعثات فراي ميكال برال في غرفته، فأطلقوا من مسافة بعيدة طلقة نارية أصابت عتبة النافذة بدون أن تسبب ضررا. ورغم القيام بمساعي كثيرة للعثور على منفذ هذا العمل، لكنها ذهبت سدى، ولم يعاقب أحد، وهذا ما دفع إلى الاستمرار في تنفيذ هذا النوع من الجرائم بغير عقاب كما سترون سيادتكم في الأحداث التالية:

في سنة 1809 نفي أنطونيو بيريس المزداد في مدينة سيلس في مملكة مورسيا إلى حصن سبتة بسبب هربه من أحد طوابير جند البحرية الإسبانية، فهرب من هذه الساحة أيضا وجاء إلى طنجة، ورفض اللجوء إلى قنصل إسبانيا، وطلب من قنصل فرنسا أن يمنحه الحماية هو وثلاثة مرافقين له هاربين من الجندية. وفي يوم 10 نوفمبر كانوا جميعهم في سطح منزل القنصلية الفرنسية يشاهدون احتفال المسلمين باليوم الأول من رمضان، فأطلق أحدهم من بين جموع الناس رصاصة اخترقت جبهة أنطونيو، ومات في الحال.

في يوم 10 مارس 1810 خرج ما بين اثني عشر أو ثلاثة عشر فرنسيا للتجول. وعند رجوعهم من المكان الذي يسمى المرسى في مدينة طنجة أطلقت عليهم طلقة نارية بالقرب من بستان قنصل الدانمارك، فأصابت الرصاصة عنق أحدهم كان يمشي متقدما وأسقطته بدون حراك، فاندهش مرافقوه مما حدث، بقي بعضهم يحرسون ما حسبوه

أنه جثة، وذهب آخرون لإخبار قنصلهم والرجوع بمساعدين يعينوهم على نقل صديقهم إلى طنجة. وهكذا أحضروا الإسعاف بسرعة، ونقلوا صديقهم محروسين بجنود المسلمين الذين أمرهم الحاكم أن يرافقوهم. وبعد يومين استرجع الجريح وعيه، ودام علاجه أكثر من ثلاثة أشهر، لكن هذا الرجل بعد التئام جرحه فقد المرونة في حركات رأسه كالانثناء والاستدارة.

في يوم 21 من الشهر والسنة نفسيهما كان ثلاثة مبشرين في سطح الملجأ في الساعة الحادية عشر، فأطلقت طلقة نارية من مسافة بعيدة دخلت من النافذة إلى غرفة الأب فراي بيدرو مارتين ديل روساريو، وتركت أثرا في الباب وسقطت على الأرض.

في سنة 1811 نودي تاجر فرنسي يسمى السيد استران بروكيسي إلى باب بستان القنصل الدانماركي، فرموه بالرصاص من أراضي قريبة، إلا أنه كان محظوظا لأن الرصاصة أصابت الباب، ونجا هو من الأذى.

وقد نجا مسيحيون كثيرون كانوا يتجولون غير محترسين في بستان قنصل السويس في مناسبات مختلفة، وأطلق عليهم المسلمون طلقات نارية.

في صباح أحد الأيام جاء إلى الميناء السيد موريل طباخ قنصل فرنسا، فضربه أحد الأولياء من الخلف بحجر في رأسه أسقطته في الأرض فاقد الإحساس، ولجأ إلى مسجد قريب. وقد وقع هذا الحادث في شارع يتردد عليه الناس كثيرا في مدينة طنجة، فتنبهوا بسرعة إلى هذا المنكوب، وجاء كثير من المسيحيين وحملوه إلى منزل سيده حيث عولج من جرحه خلال شهرين.

في 23 شتنبر 1812 بين العاشرة والحادية عشر ليلا مات غدرا السيد أنطونيو فيسينتي لابراك في غرفة منزله في طنجة، و هو من جنسية فرنسية، ويبلغ من العمر ثمانية وستون سنة، ولد في مدينة أليرون في إقليم بيارني في جبال البرين المنخفضة، وتزوج في قادس بدونيا جوسيفا فرنسيسكا دي فوينتيس المزدادة في هذه المدينة. كما حدثت نكبة أخرى موازية لأخ السيد أنطونيو، يسمى برناردو لابراك يبلغ من العمر خمسة وخمسون سنة، ولد في مدينة أوليرون، وتزوج في قادس أيضا بromانا دي فوينتيس أخت جوسيفا المشار إليها.

في الساعة المذكورة دخل الأخوان إلى المنزل، ولم يلاحظا أمرا جديدا، وعندما كانا يتناولان العشاء هوجما فجأة من قبل خادمهما (وهو مسلم من إقليم الريف) ومرافقيه الثلاثة الذين كانوا مختفين في المنزل، وارتمى الأربعة جميعهم على المسيحيين

وجرحاهما. ويظهر أن السيد أنطونيو بعد أن تلقى بعض اللكمات هرب من قاعة الأكل وصعد في السلم للاختفاء في الغرفة، إلا أنه لم يتمكن، فقد تبعه اثنان منهم ولكموه في رأسه كثيرا حتى سقط ميتا. أما السيد برناردو فيبدو أنه قاومهم كثيرا بسكين كان في يده، إذ سال من جروحهم دم كثير، إلا أن هؤلاء الغزاة الأربعة أمسكوه وذبحوه على المائدة، وسرقوا كثيرا من المال والتحف الفضية والذهبية، لأن الميتين تاجرين كبيرين في قادس، ثم قضوا تلك الليلة في المنزل، وانتظروا حتى فتحت أبواب المدينة وهربوا بأثقالهم إلى إقليم الريف الذي ينتمون إليه.

في سنة 1813 جاء من لندن إلى ميناء موكادور مسافر ألماني ليعاين بنفسه بعض الأمور التي تستوجب المعرفة في هذه المملكة. وقد أعلمه المسيحيون المستقرون في الميناء بالأخطار التي يمكن أن يتعرض لها، وحثوه كثيرا على التراجع عن سعيه، إلا أنهم لم يستطيعوا رده عن قراره. وعلم بعض المسلمين بمسعى هذا الألماني، فظنوا أنه يحمل معه مالا كثيرا، وأن نواياه مؤذية للمسلمين. وهكذا بعد سيره يومين من موكادور إلى مراكش، هجموا عليه ليلا وقتلوه، وسرقوا ما كان معه

في سنة 1814، وفي الوقت الذي لم تكن قد انتهت حملة الريف قبضوا بالخديعة على سفينة إسبانية في ميناء سانطا كروس دي بربريا كانت في موكادور تبيع بعض المواد من جزر الكناري، ولم تتزود بالسلع بل اشترى البحارة طعم الصنارة وذهبوا للصيد كما تعودوا على ذلك لتوفير بعض مصاريف السفر. وبعد أربع ساعات من مباشرة عملهم اقترب منهم مركب فيه ثلاثة مسلمين، فأعطوهم الماء والخبز وأعطاهم المسيحيون بعض الأشياء. وفي اليوم الموالي رجع هؤلاء المسلمون بعد أن خططوا لسرقة السفينة والاستيلاء عليها، وجاء معهم آخرون يقرب عددهم من أربعة عشر في مركبين، وأتوا معهم بالخبز وبعض الفواكه، لكي لا يشك المسيحيون في نيتهم السيئة عند رؤية كثير من الناس. وبعد أن دخل المسلمون في السفينة سلموهم الطعام، ثم أخرجوا السلاح الأبيض الذي أتوا به مخفيا وهاجموا المسيحيين وجرحوا من كان قريبا منهم. وبما أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا مستعدين لمثل هذه الخيانة، فإنهم لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم فاستسلم سبعة منهم فيهم قائد السفينة، وقتل أربعة منهم من الضربات الأولى، وسحبوا الأحياء إلى الأرض وسجنوهم حتى انتهوا من سرقة ما في السفينة، ثم قادوهم إلى ميناء سانطاكروس دي بربريا وقدموهم إلى القائد متهمين هؤلاء المسيحيين بأنهم لصوص جاءوا للسرقة في هذه الأرض، وأخبروهم بكثير من الأشياء ليعاقبوهم. ولم يعاقبهم القائد، وأرسلهم إلى الملك حيث وصلوا بعد 23 يوما من السير في الطريق والمعاناة من قساوة شهري غشت وشتنبر،

حيث كان الملك في أرض الريف. ولقد مرت سنة تقريبا ولا نعرف ماذا حل بهؤلاء التعساء. وعندما علم قنصل إسبانيا بما حدث في سانطاكروس قام بمساعي كثيرة من أجل استلامهم وإرسالهم إلى جزرهم، وأجابه الملك بأنهم أرسلوا إلى حصن مليلية. فأرسل القنصل إرساليات أخرى إلى حاكم مليلية وإلى المعاقل الإسبانية الأخرى ليتأكد من وصولهم، وأجابوا جميعهم أنهم لم يتلقوا هؤلاء الإسبان، وأنهم لا يملكون عنهم أدنى خبر. ويبدو أنه من المحتمل أنهم ماتوا في هجوم من الحملات الليلية التي يقوم الريفيون ضد الجيش الملكي، إذ لا يوجد أي خبر عنهم.

في ليلة 29 أبريل سنة 1815 ذبح فرنسسكو سانطاس من قبل المسلمين. وهذا الرجل ولد في مدينة أبيرو في البرتغال، وهو عازب، وبستاني قنصل البرتغال، وكان يعيش في البستان، ويشرف على المال الذي يؤديه للعمال. وقبل يومين من قتله أعطى إلى أحد العمال بعض البيسوس القوي لكي يستبدله في طنجة بعملة البلاد، ويبدو أن هذا العامل أخبر بعض مرافقيه عن المال الذي استبدله، وأنه رأى كمية كبيرة منه فقرروا بذلك سرقته. وهكذا وجد خادم القنصل فرانسيسكو سانطاس في باب غرفة المنزل. ومنذ ذلك الحين اختفى أربعة من المسلمين الريفيين العاملين في البستان، وذهبوا بكل المال الذي كان يملكه الميت، وبعض طقوم الأكل من الفضة، وساعة، وقطعا من الثوب الأبيض.

في مساء 6 مايو من هذه السنة أبحر مركب من الصيادين الإسبان من قادس إلى طنجة، حيث ألزموا بسبب الريح على التوقف في الشاطئ، فأطلق مجهول من الأرض بعض الطلقات النارية، فأصيب أحد البحارة وسقط قتيلا. وهو مزداد في أويلفا ومتزوج في قادس.

في يوم 17 من الشهر نفسه حصلت نكبة مماثلة لإنجليزي دكتور في الطب ومتزوج في جبل طارق..

هذه ساداتي هي بعض الأحداث المأساوية التي عانى منها المسيحيون في هذه البعثات في هذا الوقت التعيس، ولقد تعمدنا غض الطرف عن ذكر كثير منها، لكي لا نضايقكم ونصرف انتباهكم بها. و لقد سببت لنا هذه الأحداث مضايقات كثيرة، وحرمتنا من الخروج خارج المدينة للاستجمام والاستراحة من الأعمال اليومية. وبالإضافة إلى هذا فإننا نهان في منازلنا بالسفاهات واللعنات التي توجه ضدنا وضد ديننا الإلهي، إذ يعتقد هؤلاء المتعصبون أنهم بالإضرار بالمسيحيين بوسائل مختلفة يقدمون هدية إلى الله. كما أنه يبدو غريبا السلوك الذي يسلكه خاصة المسلمون معنا، بحيث أنه رغم المطالب التي قدمت إلى الحكام والباشوات، والشكاوى التي وصلت إلى الملك لكي يوقف جسارة رعاياه،

لكنه لم يحدث أي تعديل ولم يعاقب أي أحد ولو ظاهريا، ولذلك استمر المعتدون المتفاخرون بعدم عقابهم بتنفيذ مضايقات مماثلة.

ومن هذه المشاهد المتوحشة الدموية ننتقل إلى إخبار سيادتكم بالحالة الحالية لهاته البعثات، والنتائج الروحية التي حصلت عليها في السنوات السبع الماضية.

• **الحالة الحالية والنتائج الروحية للبعثة :**

لقد تسببت الوضعية الخطيرة التي تمر بها إسبانيا في ندرة المرتب المالي المخصص لدعم هذه البعثات. وقد اضطررنا إلى التوفير القاسي في جميع الملاجئ، بحيث ضايقتنا الحاجة كثيرا، فبعنا بعض الكؤوس المقدسة وقطعا أخرى من الفضة المستخدمة في الكنيسة، لكننا لم نكن نحتاجها مطلقا في ذلك الوقت، ولم تبلغ قيمة تلك التحف جميعا إلى ألف ريال، وفي النهاية لم نملك شيئا آخر يمكن أن ندبر به المال. وفي هذه الحالة عقد الحارس ونائب الرئيس مع المبشرين في طنجة اجتماعا خاصا ليدبروا وسيلة يقضون بها الاحتياجات المستعجلة للبعثة. وعقد هذا الاجتماع في يوم 11 من نوفمبر 1812، فعرض الأب نائب الرئيس الحالة المالية التي تعاني منها الملاجئ الثلاثة، ولاحظ المبشرون أن الهبة التي حصلت في طنجة من قيمة التحف المباعة لم تصل إلى مائة ريال دي فيون، وأنه نتيجة لذلك لا يمكن إنقاذ الملاجئ الأخرى. واتفقوا جميعا على أن يذهب الأب فراي ميكال برال -الذي كان في هذا الوقت نائب الرئيس- إلى قادس، ويتداول هذا الأمر مع الأب الإقليمي الرئيس والأب المفوض ليقرروا ما يظهر مناسبا، وتنقذنا الحكومة بمساعدة ما في هذه البلاد.

وهكذا ذهب نائب الرئيس بسرعة إلى قادس، وتداول مع الأب المفوض في غياب الأب الإقليمي الرئيس الوسائل الفاعلة لوجود مخرج لهذه الضائقة. وتقدم كلاهما إلى السيد أمين خزانة المال ورجال آخرين أوجبوا عليهم الاشتراك في تسليم المساعدة، فحصلا على مائة بيسو قوية رجع بها نائب الرئيس إلى طنجة، وقسمها على الملاجئ الثلاثة لمساعدة المبشرين. ومنذ ذلك الوقت حتى الحاضر تلقينا كميات أخرى حصل عليها الأب المفوض، رغم عدم كفايتها لسد المصاريف الضرورية كالغذاء و اللباس، والعناية بحاجيات أخرى تتصل بالبعثة. ومع ذلك فقد أسعفتنا كثيرا، لأننا كنا نستلف بعض المبالغ حتى نحصل عليها بسبب التأخر في دفعها. وهكذا استطعنا بواسطة هذه الهبات وأخرى جادت بها شفقة المؤمنين أحيانا ومنحت في أحيان أخرى مشروطة بمقابل، أن نحافظ على البعثة، رغم أن هذه الوضعية كلفتنا كثيرا من الأعمال ومعاناة الفاقة، وواجهنا ذلك بثبات

واثقين في العناية الإلهية، لكي لا تتخلى عنا في زمن المحنة الصعبة لخدمة شجرة السيد التي زرعها شهيد المغرب سان خوان دي يرادو، وحافظ عليها الرهبان المبشرون أبناء الإقليم المقدس لسان دييكو، بفضل حماسهم الحواري على امتداد مائة وثمانين سنة.

ورغم اتخاذ كل هذه الاحتياطات التي أشرنا إليها فقد عانينا من حاجة صعبة اضطرتنا إلى التخفيض من عدد الملاجئ والمبشرين. ومن ثم تنازل عن أسقفية البعثة فراي ميكال برال، وقبل استقالته الأب الإقليمي الرئيس، وعين فراي أندريس لوكي دي خيسوس رئيسا حواريا ونائبا للرئيس، وقبل هذا التعيين بعد التردد في 1 أكتوبر 1813. وذهب برال إلى إسبانيا بعد أن خدم هذه البعثات قرابة عشرين سنة. ورغم ندرة الهبات الملكية ونقص الموارد فقد حاولنا التغلب على الصعوبات لدعم الأسقفين المبشرين اللذين كانا في ملجأ موكادور، إلا أن الاضطرار إلى الاعتماد على البريد المسلم دائما لإرسال الهبات القليلة، وبعد المسافة التي تفصل طنجة عن موكادور (أكثر من مائة فرسخ) قد حتم علينا حذف هذا الملجأ، فأمر الأب نائب الرئيس أن يذهب واحد من الأسقفين اللذين كانا هناك إلى العرائش والآخر إلى طنجة، وحصل ذلك في شهر نوفمبر 1813. وفي شهر يونيو ذهب أسقفان مبشران إلى إسبانيا بعد أن مارس أحدهما العمل الأسقفي لمدة إحدى عشر سنة، والآخر أربعة عشر سنة. وعلى هذا النحو تقلصت البعثة الآن في ملجأين، الواحد في طنجة، والآخر في العرائش، ويوجد فيهما خمسة أساقفة وراهبان خادمان.

في المدخل الغربي لجبل طارق توجد مدينة طنجة الساحلية، وتملك البعثة فيها ملجأ يعيش فيه اليوم الأب نائب الرئيس. وأسقفان مبشران، وراهب خادم حسب ما تسمح به ظروف البلاد من راحة وأمان، ويشتغلون جميعا بأشغال البعثة المحترمة. ولقد استأثرت هذه المدينة بالاهتمام الأكبر للمبشرين وحققوا فيها نتائج كثيرة، لأن المسيحيين يترددون عليها كثيرا بسبب قربها من أوربا، ولأنهم يجدون فيها راحتهم المنشودة. فلقد دفعت الحرب المدمرة الدائرة في أوربا منذ عدة سنوات كثيرا من العائلات المسيحية إلى الهروب في هذه الأيام الأخيرة والبحث عن ملجأ يحتمون فيه، وهكذا هرب كثير من الفرنسيين والإيطاليين والبرتغاليين والإسبانيين من دوي الحرب والاضطرابات والفقر الذي ينتشر في كل أنحاء أوربا. كما لجأ الجنود المواظبون بدورهم إلى هذا الميناء للاستمتاع بالاستقرار الذي لم يمكنهم أن يتمتعوا به في أوطانهم. ففي سنة 1809 ارتفع عدد اللاجئين، وخاصة عدد الفرنسيين المعتقلين في سفن الباهية في قادس، وآخرون كثيرون هربوا من الجنود الذين يسيطرون على الجزيرة الإسبانية. وقد أمر الملك أن

يذهب جميع الفرنسيين، سواء منهم المتزوجون أو العازبون إلى العرائش، واستقروا في هذه المدينة حتى تنامى عددهم، فأثارت هذه الوضعية شك الملك، وأمر في يوليوز 1810 أن ينقل عدد كبير منهم إلى ميناء كونيل في إسبانيا، وهناك بقوا مع جنود وطنهم، وقد أعفاهم الملك من الأداء في المراكب التي تنقلهم، فذهبت عائلات كثيرة وعدد كبير من الجنود والتجار للاستقرار في قادس وساحات تجارية أخرى بأوربا. وقد ظلت عائلات أخرى كثيرة تستقر في طنجة، بعضها في حماية القناصلة، والبعض الآخر كان يؤدي مبالغ مالية للحكومة لتسمح لهم بالبقاء آمنين في البلاد. ومنذ التاريخ الذي أمر فيه الملك بترحيل تلك العائلات لم يزد كثيرا عدد الفرنسيين اللاجئين إلى طنجة. أما الذين أتوا خلال هذه الفترة وحتى حدوث السلام العام سنة 1814، فقد نقلوا إلى الموانئ التي تحتلها فرنسا في إسبانيا وإلى ميناء مارسيليا في بعض المراكب التجارية المغربية.

في يوم 25 يونيو من السنة الحالية أمر باشا هذا الإقليم بإخراج كل المسيحيين من طنجة، وخاصة الذين لا يملكون تكليفا محددا من وطنهم وليسوا في حماية السادة القناصلة. ولم تسعف هؤلاء التماساتهم ولا تبرعاتهم المالية، ونفذ هذا الأمر بقساوة شديدة، بحيث لم تمنح لهم حتى مهلة يوم واحد ليدبروا أموالهم، ويصلحوا شؤونهم التي كانت ستقضى في مواعيد مؤجلة.

وهكذا أمر المنفذون بترحيل عائلة أو عائلتين في كل يوم، حيث حمل أثاثهم إلى الجمرك ونقلوا في المراكب، ولم تجد جهود والتماسات القناصلة نفعا لكي لا يعامل مواطنو بلدانهم بشكل استبدادي، ولقد سبب شكل تنفيذ الأمر ذعرا بين المسيحيين، بحيث تناسى فرنسيان متزوجان التعليم الديني الذي تلقياه فتخليا عن ديننا المقدس واعتنقا الإسلام، ولديهم طفلة يبلغ عمرها ثلاث سنوات. لقد كان هذا الفعل مؤثرا بسبب ما فعله هذان الأبوان الكاثوليكيان من سوء بنفسيهما وإبعاد الطفلة عن طريق النجاة. وأخيرا ليس هناك اليوم في طنجة أكثر من سبع عائلات كاثوليكية، وفي موكادور أربعة أشخاص. وبوجه عام فقد تقلص عدد المسيحيين الذين يقيمون في هذه المملكة.

وخلال هذه المحنة التي مر بها المسيحيون في ميناء طنجة والعرائش مارس المبشرون أعمال مهمتهم الحوارية حسب ما تطلبته الحاجة. فبالإضافة إلى إدارة القرابين المقدسة وممارسات دينية أخرى، انصب اهتمامنا على إيقاف انتشار المذهب الماسوني الفرنسي، حيث عزم عدد من الشبان الفرنسيين على نشر هذا المذهب، فبدأوا مشروعهم في البداية سرا ثم أعلنوه، واستطاعوا أن يجروا إلى صفهم بعض التابعين الذين خدعوهم

بوعود السعادة. وقد خصص هؤلاء الرجال - الذين يسمون أنفسهم الملهمون - منازل لاجتماعاتهم التي كانوا يعقدوها ليلا. وما أن وصل خبر تزايد انتشار هذا المذهب المرذول إلى المبشرين حتى بادروا إلى عقد اجتماع بينهم تداولوا فيه كيفية توقيفه. ومن ثم اقترحنا الالتقاء مع من يسمون أنفسهم برؤساء هذه الجمعية المضحكة، إلا أننا اقتنعنا أن هذه الخطوة ستكون عديمة الفائدة، ولذلك ارتأينا تعنيف مختلف الكاثوليك وتحذيرهم بصفة دائمة لمنعهم من الانجراف وراء الإغراءات المفرطة التي يضللوهم بها ليدخلوهم في هذه الجمعية الفاسدة المدانة من قبل الباباوين الساميين كليمنتي الثاني عشر وبنديكتو الرابع عشر. ولقد وفقنا برحمة الله إلى وقاية كثير من الكاثوليك ضد هذا الوباء المتعصب، والذين كانوا سيرفعون عدد التابعين لتقليعة فرانكو ؟ماسوني. ومهما كان هدف هؤلاء الناس فإنهم لم يكتفوا بالسوء لأنفسهم، بل ألحوا على الآخرين لكي يكونوا مثلهم.

لقد انشغل المبشرون أيضا بتعليم كثير من أبناء الكاثوليك الذين يحضرون دائما إلى ملجأ طنجة لتعلم الشريعة المسيحية وقراءة وكتابة مبادئ علم الحساب. كما عمد خمسون طفلا أبناء آباء كاثوليك.

ونتيجة للفضل الخاص للأب السامي كليمنتي الرابع عشر، ونائب رئيس هذه البعثات فراي ميكال برال، تمت إدارة القربان المقدس لسر تثبيت العماد لستة كاثوليك بالغين، وأصلح حالهم بتعليم المجمع المقدس للنشر في روما 4 ماي 1774.

وقد تردد جمهور كثير لحضور القرابين المقدسة والعشاء الرباني، وعيد الفصح، وواظبوا على المجيء أسبوعيا لتقبل القرابين الإلهية.

وقد أعطي الزاد الأخير إلى سبعة وثلاثين مريضا، والمسحة الأخيرة المقدسة لثلاثة وثلاثين فردا.

واحتفل أيضا بتسعة عشر زفافا، ومنح القبر الإكليروسي إلى اثنان وأربعين ميتا كاثوليكيا ماتوا في هذه المملكة.

هذه هي ساداتي السامون الحالة الحالية لهاته البعثات والنتائج الروحية في هذه السنوات السبع البئيسة التي جناها العمال الحواريون الذين يعملون على حماية الوضع الروحي الجيد للكاثوليك الموجودين في مملكة ملك فاس ومراكش. ولتوثيق هذه الرواية التاريخية نوقعها بأيدينا ونختمها بطابع هذه البعثات، ويصدق عليها كاتبها في طنجة في 1 شتنبر 1815.

مراسلات أسقف المغرب الفرنسي مع المبشرين الإسبانيين بالمغرب من 1836 إلى 1841[217]

1 - الرسالة الرعوية :

من ماريا نيكولاس سلفيستري كيون أسقف المغرب بفضل رحمة الإله والمحكمة الحوارية المقدسة، إلى الآباء والمؤمنين الكاثوليك المتفرقين في مملكة المغرب، سلام السيد يسوع المسيح وبركته عليكم.

إخواني الأعزاء: بعد أن رفعت العناية الإلهية جاحدا مثلي إلى المقام الأسقفي واختارتني لكي أكون راعيا لقطيع ضئيل مشتت وسط أرض غريبة، فإن من بين رغباتي الملحة أن أعرف الحالة الراهنة للكنيسة التي أمثلها. فبعد المسافة وصعوبات الاتصال أعاقوا إنجاز رغباتي، وقد أمدني السيد قنصل فرنسا ببعض البيانات المفصلة، وليتها كانت مسلية. فالكفر الذي تئن منه جميع الأقاليم يسبب الألم لكما، حيث تقاسمتما وحدكما مسؤولية الأسقفية المقدسة في هذا الصرح الفقير الذي يحتفل فيه بالمعجزات العظيمة لعبادتنا المقدسة. إن سيد السماء والأرض هنا مهمل بسبب الفاقة، و إذا سمحتما لي أخواي العزيزان فإني أقول لكما بكلمات الحواري الكبير أوساري : الله شاهد على الحنو الذي يحبكم به يسوع المسيح. ورغم أني غائب عنكم بالجسد، إلا أني حاضر معكم بالروح

(217) توجد جميع هذه المراسلات في أرشيف البعثة في طنجة، وتوجد أيضا ترجمة للرسالة الرعوية الأولى إلى الإسبانية، وقد نشر الأب هذه الرسائل جميعها في مجلة "Mauritania" باللغة الإسبانية ما عدا الرسالة الأخيرة رقم 6 التي ورد نصها بالفرنسية. وقد نشر هذه الرسائل في ثلاثة أجزاء، حيث وردت الرسالة الرعوية في ع 198 - 1 مايو – س 1944 - ص 144 و 145. ووردت الرسالتان الثانية والثالثة في ع 199 - 1 يونيو - س 1944 - ص 171 و 172. ووردت الرسائل الرابعة والخامسة والسادسة في ع 201 -1 غشت - س 1944 - ص 225 و226.

أشارك في جميع محنكم، وإذا كان هناك شيء يمكن أن يخفف إحساسي من الحرمان الذي تعانون منه فهو الفرحة بصبركم المسيحي. ومازلت مثل سان بابلو أطمئن إلى مواظبتكم على تدبير الأوامر العليا، ووجود الانسجام بينكما، وثبات العقيدة المسيحية. ومن خلال الشهادة التشريفية التي منحها لكما مساعد جلالة الملكة المسيحية مع الملك المغربي، نعرف أنكما حصلتما عليالشهادة نفسها من قبل الكفار والأوربيين الذين لا يشاركون في مقدساتنا. ورغم أن هؤلاء لايبالون بالتماساتنا إلا أننا نعرف أن كثيرا منهم أسرعوا بمساعدتكما وكانوا كرماء معكما. وسيكون جحودا أخواي العزيزان أن لا نسمعكما، لأنكما صلة وصلنا معهم. وبسبب المحبة الحارة التي أكنها لكما فإنني وضعت آلامكما وآلامي عند أرجل عرش يأخذ بعين الاعتبار ابتهالنا، وأعني أخواي ملك كريم الأخلاق منحته طيبة السماء إلى فرنسا، ومساعدة ليست أقل فضلا منه، وهي ملكة الفرنسيين، وكذا الأميرة أديلاييدا أخت الملك. فهؤلاء الثلاثة جميعهم أرادوا بأنفسهم معرفة البيان الذي عرضته عن حاجاتكم، فلا تتأخروا عن هذا الكرم الملكي. وسيكون زائدا عن الحاجة أخواي العزيزان إثارة حماسكما عن طريق الكلمات، فسيخبركما قلبيكما بما يجب عليكما الاعتراف به من حب لهذه العائلة العظيمة التي ستتلقون منها نعمة غير متوقعة، ويؤكد لكما هذا الاعتراف ازدهار الشعب الفرنسي واستمراره في الرقي، كما أن الله الكبير يملك في يده قلب الملوك كما تقول الكتابة المقدسة. ولا يمكن أن نتجاهل عمله في كل ما مر من قبل ست سنوات، والذي يؤكد العناية المقتدرة لهذا الملك الجليل الذي يحكمنا، والذي استطاع أن يحافظ علينا وسط كثير من الأخطار. لقد أعطى هذا الملك للعالم المثال بحذقه في علوم الحكم ومعرفته العميقة بالرجال والأحوال، وحكمته وثبات نصائحه، وهكذا اجتمعت لديه الفضائل الخاصة بالقيمة البطولية، فأنجز نتائج طيبة وسط الظروف الخطيرة. وقد وصل إلى أسماعكما الهجومات المخيفة التي تجرءوا بها على شخصه، وتحققتما أن الله الحافظ لبلادنا فرنسا يسهر على ملكنا الجليل وينصره في كل مرة يتعرض فيها للخطر. ولأن شيمتكما تعترف بالفضل، فإني ألتمس منكما أن تطلبا من جميع المؤمنين في صلاتهم شكره في شرف الإله، والدعاء له أن تحميه يد الإله المقتدرة وتهبه حياة خاصة من أجل سعادة فرنسا. ولا تغفلا في الاحتفال الشرعي لجمع المؤمنين أن تستحضروا في ذاكرتكما والتماسكما لإله الرحمة أسماء المحبة للمحسنين الأجلاء. سلام وفضل السيد يسوع المسيح معكم. أعطيت في باريس في السربون في 6 يونيو 1836 م.ن سيلفيستري كيون أسقف المغرب، القائم بصدقات جلالة ملكة الفرنسيين.

2 - الرسالة الثانية :

"من أسقف المغرب القائم بصدقات جلالة ملكة الفرنسيين إلى الأبوين الكريمين، لقد تسلمتما مبلغ ألف فرنك من قبل جلالتي الملك والملكة والأميرة أديلاييدا، وقد بادرت إلى إرسالها إليكما عن طريق السيد القنصل العام لفرنسا السيد ميشان الذي وافق على تسليمها من أجل مصلحتكم، ولذلك أطلب منكما أن تشكروه نيابة عني. ولكي أرسل هذا المبلغ توجهت إلى بنك باريس في طريق فلوريس هيراد، والذي اشترك بدوره في هذه القضية الطيبة وأصر على إرسال المبلغ بدون مقابل. وستجدون أيضا عشرين نسخة مطبوعة من الرسالة بفضل جلالتي الملكين. وقد توسلت إلى السيد ميشان أن يوافق منح واحدة من هذه النسخ التي يمكن أن تلقى موافقة من قبل القائم القديم بهبات مدرسة لويس الأكبر، وأنا أتذكر أنه كان لي هناك تلميذ بهذا الاسم. لقد أخذت كل المعلومات اللازمة من أجل مراسلتكما أبواي المكرمان منتهزا في هذا الغرض أريحية قنصل بلادنا. وقد أخبرني بنفسه عن حالة تقدم سنكما، والرئاسة المقدسة التي تقومان بها بكثير من الحماس والمثالية، وهو ما يمكن أن يجعلكما تحتاجان إلى رجل كنائسي، فإذا احتجتما إلى هذا الكنائسي بلغاني إذا كنتما تريدان أبا من جنسيتكما ليتبع تعليماتكما ويكون جاهزا للعمل أكثر من غيره. كما أطلب منكما أبواي المكرمان أن تخبراني بالأشياء المستعجلة التي تحتاجان إليها لخدمة مصلاكما، وإذا كنتما لا تملكان ثياب الخدمة الدينية والكؤوس فإني سأعمل للحصول عليها. وأخبراني أيضا إذا كنتما تأملان تعليم بعض الأطفال، واقترحا علي كيفية مساعدتكما في هذا العمل الرائع والمستحق للتقدير عند الله والرجال، لأنه سيكون من بين هؤلاء الأطفال من يحقق آمالكما في المستقبل. وإني أعهد إليكما أبواي المكرمان بكل الأصوات التي يمكن أن يستوعبها قلبيكما الإنجيلي، لأنه يسعى إلى تحقيق آمالها، كما أشاطركما في مساعيكما لتنزل البركات من السماء على أمتنا المسيحية. وقد حملتني جلالة الملكة بصفة خاصة أن تدعوا من أجلها ولعائلتها الجليلة في القداس. تقبلا أحاسيسي الصادقة، وسلام وفضل يسوع المسيح معكما. 20 يوليوز 1836 أسقف المغرب.

3 - الرسالة الثالثة : رسالة جوابية من المبشرين إلى أسقف المغرب الفرنسي

"السيد السامي أسقف المغرب القائم بتوزيع الصدقات لدى جلالة ملكة الفرنسيين بباريس.

طنجة 10 أكتوبر 1836. سيدنا السامي لقد تلقينا من الفارس ميشان القنصل العام

لفرنسا الرسالة الودية التي أرسلتموها إلينا، وعلمنا بالإسعاف الكريم الذي تكرمت به علينا بدعمكم طيبة وشهامة جلالتي الملك والملكة وصاحبة السمو الملكي الأميرة أديلاييدا. ورغم أن هذا الإسعاف لم يصل إلى أيدينا بعد، فإنه يجب علينا أن نعترف بالجميل للمحسنين السامين ولسيادتكم الذي سهلتم لنا هذا الإسعاف الكبير والمناسب بالنسبة إلينا في الظروف الحالية، حيث نعاني من فاقة حادة بسبب توقف الدعم الذي كانت تخصصه لنا حكومتنا. لقد أنقذتمونا إذن سيدي السامي، ولذلك يجب أن نردد شكرنا الكثير إليكم. وقد تلقينا أيضا العشرين نسخة من الرسالة التي أرسلتموها لنا، وأعجبنا بالروح المتحمسة والإحسان الذي يتضمنه محتواها. إن تقدم سننا يحتم بالتأكيد أن يشترك معنا شخص آخر يساعدنا في الأعمال الدينية، وقد قمنا بعدة مساعي لتحقيق ذلك، ونرجو من الله أن نحصل على ذلك بسرعة. إن المراسلة مع هذه البعثة، والتي تسندوها بطيبتكم ستكون متبادلة بيننا مغتنمين في ذلك المعاملة الطيبة التي عاملنا بها الفارس ميشان منذ البداية، فهذا الإنسان الرائع لم يتغافل عن مواساة حظنا التعيس، إذ يدفع لنا دائما المرتب السنوي الذي تمنحه جلالة الملكة المسيحية في موعده، ويسهل لنا التواصل مع سيادتكم، وهذا ينتج عنه إيجابيات كثيرة لصالح الحفاظ على العبادة الإلهية في هذه البلاد البربرية، ولدعم هذه البعثة. حقيقة أنه تنقصنا تحف كثيرة لعبادة الإله وأمه القديسة، فرغم ما خصصه لنا جلالتي الملكين والأميرة من عطاء، إلا أننا لازلنا نضايقكم ونحاول أن نلفت نظركم الخيري وسيادتكم إلى هذه الأشياء التي تنقصنا. وسنغتنم صفات حلمكم وإحسانكم لنؤجل إلى مناسبة أخرى إخباركم بكل ما نعتقد أنه يناسب التعليم الجيد للأطفال، وكل شيء يخضع إلى ألمعية واجتهاد سيادتكم، وجلالتي الملكين والأميرة. وتأكدوا أننا نطلب دائما في القربان المقدس واحتفالات دينية أخرى الحفاظ على صحتكم وصحة كل العائلة الملكية، ولا ننساكم أنتم ومحسنون آخرون لهذه البعثة. إننا نتشرف بأن نتقدم إلى سيادتكم بالجواب على رسالتكم لترفعوها إلى صاحبي الجلالة والأميرة، معترفين في الوقت نفسه بالامتنان الدائم لهذا اللطف القسيسي الجميل. من فراي خوسي يابون.

4 - الرسـالـة الرابعـة :

من أسقف المغرب والقائم بالصدقات لدى جلالة ملكة الفرنسيين إلى أخويه المحترمين الراهبين الخادمين للكنيسة الكاثوليكية. لقد تلقيت مساعداي المحترمين

رسالة من القنصل العام لفرنسا في طنجة السيد ميشان أعلمني فيها بالنتائج التي عرضتموها، والتدبير الجيد الذي سلكتماه في الظروف الصعبة التي توجدون فيها. وقد وضعت هذه الرسالة تحت أعين جلالتي الملكين المسيحيين اللذين أرادا المساهمة لإرضاء مطالبكما، ويلتمسون منكما الاستمرار في الشيء نفسه. فأنا ممتن لكما، ولذلك أكتب إلى السيد القنصل العام لفرنسا معبرا له عن التقدير للخدمات التي تقدماها إلى كنيستنا، راجيا منه أن يوزع بينكما مبلغ مائتي فرنك، تكرم بها عليكما جلالتي الملكين وصاحبة السمو الملكي الأميرة أديلاييدا أخت الملك. وأتمنى أن تستخدم هذه الهبة في شؤون العبادة الإلهية التي أخبرتماني عنها، كما يجب أن تكرساها لمنفعة عاهلينا المحبوبين. وأكرر دعوتي إليكما لكي ترسلا مع قنصلكما كشفا بكل ما يمكن أن تحتاجانه في عملكم المقدس الذي تقومان به بمثالية كبيرة. وتأكدا أن ما أنتما فيه من محن الحياة عابر، وهو يتحول إذا تمت المواظبة عليه حتى النهاية إلى ثقل هائل من الأمجاد والسعادة الخالدة. صدقاني أخواي العزيزان والمحترمان أن لا شيء من آلامكما وأحزانهما يمكن أن يكون غريبا عني. وأنا دائما أضع في اهتمامي الأول أن أبين لكما حقيقة إحساسي. خادمكما المتواضع والودود جدا م. ن. س كيون أسقف المغرب والقائم بصدقات جلالة الملكة. باريس 4 شتنبر 1897.

5 - الرسالة الخامسة : جوابان من المبشرين إلى الأسقف.

"إلى السيد السامي الذي يحظى باحترامنا وتقديرنا. لقد تسلمنا الرسالة التي بعثتموها إلينا بتاريخ ٤ شتنبر من قبل هذا الفارس ميشان في موعدها المحدد. ويعد هذا نتيجة طبيعية لصفاتكم الجميلة وحماسكم الحواري والطيبة التي تخصصوها لنا. ونحن شاكرين جدا سعيكم، ونأمل أن تتاح لنا مناسبات نبين فيها ذلك عمليا، وبما أن هذا لم يتح لنا حاضرا، فإننا نكتفي بتوجيه أكثر أصواتنا المتحمسة إلى القادر الكلي أن يحفظ جلالتي الملكين وصاحبة السمو الملكي الأميرة أديلاييدا، وسيادتكم الذي طالما سعيتم إلى مواساتنا. إن الهبة التي زودتمونا بها قد خففت بشكل ما من معاناتنا، وأنتم تعرفون الطوارئ الكثيرة التي يمكن أن تقع ونسعى إلى تحملها بالصبر الذي نستلهمه من ديننا الذي نمارسه دائما، ولا شيء يمكن أن يؤثر في تغييره، ولعله يمكن الخروج من هذه الطوارئ بنتائج، لكن ذلك لا يتحمله إلا الأقوياء الذين يتمتعون بفضائل أخرى نفتقدها نحن. وبما أن الكائن الأعلى يرى الجوهري في القلب الإنساني، ويشفق على فقره، فإنه يتذكرنا بما

ينقصنا لكي نحقق مساعينا. وعلى هذا نلتمس من سيادتكم أن تستمروا في حمايتنا ورعايتنا، وأن تؤكدوا لجلالتي الملكين والأميرة أننا نستمر في التوسل إلى الله حسب مشيئتهم ومن أجل سعادتهم الكبرى. كما نلتمس منكم أن تضعوا هذين القسيسين الخادمين عند الأرجل الملكية".

وتذيل هذه الرسالة بملحق، عبارة عن مذكرة موقعة من قبل الأب يابون عن الأشياء التي تلقاها.

"يصرح نائب الرسول الحواري الآتي ذكره، أنه تلقى في هذا اليوم من السيد ميشان القنصل العام لفرنسا صندوقا يحتوي على الأشياء التالية :

1 - حقة القربان الفضية من أجل القداس.

2 - معطف مطري بشعار أحمر وعلامة من ذهب.

3 - جبينية بيضاء بعلامة من ذهب.

4 - ثوب لإقامة القداس بشعار من أجل الأيام المدرسية، وملحفة يدوية، ونسيج الكؤوس، وكيس من أجل أغطية كؤوس القربان، ومظلة بعلامة من ذهب.

5 - ثوب آخر أسود ووسطه أبيض لإقامة القداس، وملحفة، ونسيج الكؤوس، وكيس من أجل أغطية الكؤوس، وكلها بعلامة من فضة.

6 - قميص القسيس مطرز من حزامه الأسفل وأكمامه من أجل الأيام الكلاسيكية.

7 - قميص آخر لجميع الأيام.

ومن أجل أن أثبت النفع به، أوقع على ذلك في طنجة في 22 يناير 1838 فراي خوسي يابون".

6 - الرسالة السادسة:من الأسقف إلى المبشرين :

"أخواي العزيزان والمحترمان، لقد أيدت بشدة تأسيس مدرسة يتعلم فيها أطفالنا المسيحيون ويعهدون إلى توجيهكم ويتلقون التربية الدينية والفكرية الجيدة. فأنتما بهذا تحاكيان المعلم الإلهي الذي كان يحب أن يجمع الأطفال حوله ليعلمهم ويباركهم.

إن المبادئ الطيبة التي يتلقاها هؤلاء الأطفال منكما يجب أن تكون دليلهم الأكيد في حياتهم، لأنها ستعلمهم خدمة الإله والممارسة المنتظمة للأعمال التي تفرضها الديانة المقدسة، ليحبوا بعضهم البعض، ويتعاونوا على ممارسة الأعمال الحسنة، ويتحملوا

بشجاعة وامل جميع الظروف الإنسانية، ويحترموا ويحبوا المحسنين إليهم، ويخضعوا للإرادة الإلهية. ومن هنا يجب عليهم معرفة وممارسة الواجبات التي تحقق سعادة الحياة الحاضرة والمستقبلية، لأنها العلم الحقيقي والغنى الأكثر بقاء. وإني أكتب إلى السيد القنصل العام لأشكره على افتصالات التي يقوم بها من أجل إنجاز ما يهمكم، ولأخبره أن صاحبي الجلالة المسيحيين وضعوا تحت تصرفكم مبلغ خمسمائة فرنك سترسل إليكم باستمرار. إني ألجأ إلى صلواتكم، وأجدد تأكيد اعترافي.

السيد كيون أسقف المغرب، القائم بصدقات جلالة ملكة الفرنسيين. مونتفرميي 5 يوليوز 1841.

الفصل الخامس

الكنيسة المعاصرة وامتداد حدود مؤسساتها

تأسيس البعثة الكاثوليكية في الرباط[218]

لعله من الصعب معرفة السنة التي أسس فيها المبشرون الفرنسسكان البعثة في الرباط، بسبب ضياع المستندات التي يمكن الاعتماد عليها في هذا الشأن. ولازال الدير الذي بني سنة 1860 يحتفظ بلوحة حجرية جميلة كتب عليها اسم الملك الإسباني الذي بناه برعايته ورعاية القوات الملكية لقشتالة، والسنة التي بني فيها. لكن البيانات المتعصبة للحاكم وللسياسة لا يمكن أن تفصح في حد ذاتها عن حقائق مجدية. وتبين بعض المستندات الموجودة في أرشيف البعثة أنه في العشرين سنة الأخيرة من القرن السابع عشر، والنصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى السنة السادسة من القرن التاسع عشر أسعف المبشرون الفرنسسكان الأسرى المسيحيين في سلا والرباط ومختلف المدن الشاطئية. وقد انسحب آخر المبشرين سنة 1812 إلى العرائش وطنجة بسبب نقص وسائل الحياة أو لغياب المسيحيين. ومنذ هذا التاريخ لم يستقر المبشرون في الرباط بصفة دائمة حتى 27 دجنبر 1890، حيث أرسل المفوض فراي خوسي لرتشوندي الأب فرانسسكو كارباخال ليؤسس البعثة في هذه المدينة.

وعندما تنامت الجالية المسيحية والأوربية بالرباط، التمس القنصل الإسباني من المبشرين الحواريين الذين يستقرون بالدار البيضاء أن يستقروا معهم بصفة دائمة لتحسين عاداتهم وأخلاقهم وتعليم أبنائهم التربية الدينية والوطنية الواجبة. وهكذا عرض

(218) هذا النص من سلسلة النصوص التاريخية التي كتبها الأب المؤرخ أنطونيو لوينكو عن تأسيس الكنائس واستقرار البعثات في المغرب في القرن العشرين. وقد ورد النص في مجلة "Mouritania" في جزءين الجزء الأول في ع 166 - 1 شتنبر - س 14 - 1941 ص 283. والجزء الثاني في ع 167 - 1 أكتوبر - س 14 - 1941. ص 312 إلى 315.

المبشرون على رؤساء البعثة هذه الالتماسات، على اعتبار أنه كان قد حان الوقت المناسب لبداية العمل وتذليل الصعاب التي تعيقهم.

ويمكن القول إن البعثة الكاثوليكية تأسست في الرباط منذ مجيء الأب كارباخال سنة 1890. ومن خلال التاريخ المكتوب لهذه البعثة نورد في هذا السياق بيانا للمؤسس نفسه يقول فيه: "بأمر من الأب فراي ليرتشوندي النائب الحواري لبعثات المغرب، أنا المبشر المذكور أسفله أتيت إلى مدينة الرباط يوم 27 دجنبر 1890 بهدف البحث عن منزل وتأسيس البعثة، فأويت إلى قنصلية إسبانيا، حيث كان هناك مصلى بلقب السيدة ديل كارمين يأتي إليه الآباء المبشرون الذين يأتون من الدار البيضاء للقيام بالزيارة المقدسة، والإحتفال بالأعمال الإلهية، وإدارة المقدسات للمؤمنين من هذه الجالية الكاثوليكية. وعندما أتيت إلى هذه المدينة بدأت مباشرة بالبحث عن منزل ملائم، فلم يقبل أحد أن يكتريه لنا، فبعضهم - مثل سيدي محمد السويسي- خافوا من عقاب الحكومة، وبعضهم لم يتفهم قصدنا، وكذلك بسبب نقص الاتصالات في هذه المدينة. وفي النهاية علمت أن نائب القنصل البرتغالي الكاثوليكي عازم على الذهاب إلى بلده وسيعوضه عبري يسمى يعقوب بناتار، ولم يكن هذا العبري في حاجة إلى منزل نائب القنصل لأنه كان يملك بيتا، فكتبت إلى رئاسة البعثة في طنجة لكي يلتمسوا من فخامة رئيس البرتغال تمكينهم من الحصول على هذا المنزل وأداء كرائه، طالما لم يسلم لنا السلطان المولى حسن منزلنا أو منزلا آخر طلبه السيد رئيس إسبانيا، حيث لم يتم تسليم أي شيء بسبب الإهمال وقلة العزم، وهو ما يمكن أن يكشفه البيان الذي كتبته عن هذا الطلب، والذي يحتفظ به في الأرشيف. لقد قرر السيد رئيس البرتغال الدكتور خوسي دانييل كولاسو أن يترك لنا المنزل، وبعد توقيع العقد من قبله ومن قبل فراي خوسي رودريكو نائب الأسقف في هاته البعثات (نسخته يحتفظ بها أيضا في الأرشيف) أعطي الأمر لبناتار لكي يسلمني مفتاح المنزل، والذي سلم لي فعليا يوم 1 يوليوز سنة 1891. وقد بقيت في قنصلية إسبانيا ستة أشهر وعشرة أيام، واحتفلت في مصلاها بالأعمال الدينية والمقدسات، ووعظت بالكلمة الإلهية المؤمنين في الآحاد، وفي أيام أعياد أخرى.

وبما أني كنت وحيدا، فقد كان يأتي من حين إلى آخر واحد من المبشرين الآباء من الدار البيضاء لكي يعرفني ويرافقني لبعض الأيام، إذ كنت أشعر بالحزن لوجودي وحيدا كثيرا من الوقت دون مرافقة الرهبان، رغم أن السيد القنصل رافاييل أكاروني وعائلته كانوا يعاملوني جيدا. وبعد أن تسلمت المنزل كتبت إلى الأب الرئيس في الدار البيضاء لكي يأمر

بتعيين الرهبان لهذه البعثة الجديدة. وفي يوم 8 يوليوز سنة 1891 التحق بالبعثة الأب فراي خوسي كونساليس والأخ الخادم فراي ماتيو ألفاريس. وبما أن المنزل كان في حالة سيئة، بدون أبواب ولا نوافذ، فقد تابعنا الاحتفال بالأعمال الإلهية في مصلى القنصلية حتى يوم 4 أكتوبر من السنة نفسها، وهو يوم عيد الأب الأول، حيث افتتحنا هذه الكنيسة الصغيرة التي نملكها في منزل نائب القنصل البرتغالي بلقب سان فرانسسكو حسب ما اقترحه المفوض الحواري لهذه البعثات. وقد طلبت من الإله سيدنا وتدخل مريم العذراء والأب الأول أن تزدهر هذه البعثة يوما بعد يوم من أجل تحسين الوضع الروحي للجالية الكاثوليكية الصغيرة في الرباط ومجدها وشرفها. وكذلك كنت لا زلت آمل استرداد منزلنا، إذ في هذا الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور، فإننا لازلنا في منزل نائب القنصل البرتغالي ذو الظروف السيئة وغير الصحية، وقد آن الوقت لكي يعيش مبشرو هذه المدينة في منزل صحي ولائق عن الذي نعيش فيه اليوم.

في الرباط 25 أكتوبر 1893 - فراي كارباخال - توقيعه."

وسنحاول في هذا السياق أيضا أن نورد بيان الأب كارباخال عن المساعي التي قاموا بها من أجل استرجاع منزلنا القديم، ولكن إيجاز هذا العمل لا يسمح لنا بنقله كاملا.

ويبدأ الأب كارباخال بيانه بالتأسف على النشاط الضئيل للسفير والرئيس المفوض لدى جلالة الملكة الكاثوليكية الذي لم يعمل على إنجاز الأوامر، وترك الفرصة لحيلة وسياسة الحاكم الذي لا يعرف الدبلوماسية الأوربية، واعتمد فقط على التسويف في هذه القضية.

عندما لم يتمكن الأب كارباخال من استئجار منزل للبعثة في المدينة، كتب إلى الأب ليرتشوندي يستعجله لاسترجاع المنزل القديم. وفي 5 فبراير 1891 كتب له الأب ما يلي: الأب المحترم، لقد توصلت بالأمر اللطيف الذي أرسلته إلي بتاريخ 13 من الشهر الماضي، وأكتب لكم اليوم لكي أبين لكم أن رئيس إسبانيا وجه إلي رسالة لطيفة كشف فيها عن نتائج المساعي التي قام بها للحصول على حيازة المنزل القديم في هذه المدينة، وقد أرسلت لكم نسخة الرسالة للاطلاع عليها. فأخبرني بكل ما وقع ولا تتخذ قرارا في هذا الشأن مهما وقع، ولا تقبل اقتراحا من أي صنف بدون أن تستشيرني أولا بما يمكن أن يكون إيجابيا. وأخبرني إذا كان السيد أكاروني قد تلقى رسالة من السيد الرئيس تتعلق بمنزل الرباط".

ونسخة الرسالة الرسمية للرئيس التي أرسلها الأب لرتشوندي مرفقة برسالته مازالت مستنسخة وبيانها ما يلي: "يليق بي الرضى أن أحيطكم علما بأن الوزير وجه إلي بيانا

بخصوص مطالبتي بمنزل الرباط الذي تتوفر البعثة على ملكيته، ويقول لي مامضمونه: "الوزير المفوض من جلالة ملك المغرب 14 يناير 1891. لقد بين السيد رنالدي للسلطان عن التماس الرهبان باسترجاع المنزل وخرابه الذي ملكوه قديما، وقدم موازاة مع ذلك عقد الشراء والموقعين اللذين يذكران فيه. وقد أصدر ملكنا أمره الشريفي إلى حاكم الرباط لكي يباشر التحريات الملائمة ويتأكد مما إذا كان هذا المنزل معروفا وممكنا استرجاعه من الشخص الذي يملكه وتسليمه إليهم. وفي الحالة المعاكسة يتم البحث لهم عن منزل آخر. في 1 من جمادى الثانية 1308 - الموقع محمد المفضل ابن محمد الكرني -". سأرجع إليكم المستندات الثلاثة التي استلمتها بعد أن استعان بها في مطالبته، والتي تنتمي إلى أرشيف البعثة. حفظكم الله سنوات كثيرة. طنجة 2 فبراير 1891. فرانسسكو فيكيرا، إلى فراي خوسي لرتشوندي نائب المفوض الحواري للبعثات الكاثوليكية في المغرب".

ويجيب الأب كارباخال في تاريخه على كل هذا مبينا أن السيد أكاروني نائب قنصل إسبانيا لم يتلق أية مراسلة رسمية من رئيس البعثة في طنجة، وأنه لم ترضه شروط الوزير الكرني المتضمنة في رسالته، لأنها تنم عن موقف متردد في القضية، وأنه يلاحظ على السيد فيكرا قلة عزمه في معالجة الشؤون الوطنية مع المغاربة، وهذا كله لا يسبب استغرابا عند الأب الرئيس، حسب ما صرح به للأب كارباخال في السطور التالية المؤرخة في 20 فبراير وبيانها : "الأب العزيز، لقد تلقيت رسالتكم اللطيفة في 13 من الشهر الجاري، وفي جواب عليها أقول إن لا شيء يثير غرابتي من حيث إنهم لم يعطوا بعد الأوامر اللازمة لتسليم منزلنا، إذ ليست المرة الأولى التي تقع فيها مثل هذه الأمور.

كتب الرسالة السابقة الأب لرتشوندي الذي اضطر إلى التغيب لبعض الوقت عن البعثة. فكتب الأب كارباخال إلى الأب خوسي رودريكز نائب المفوض الحواري ليلتمس من السيد فيكيرا تفعيل المطالبة المتوقفة، وخلال تلقيه الإجابة توسل إلى السيد نائب القنصل للتأكد مما إذا كان حقيقة قد تلقى حاكم الرباط الأمر الشريفي لمباشرة الإجراءات المناسبة لتسلم المنزل، وقد قبل السيد أراكاوني هذا الالتماس، ووجه إلى الحاكم رسالة بالعربية تقول : "أحيطكم علما أن الرهبان الإسبان طلبوا من السلطان مولاي الحسن المنزل وأموره التكميلية، والذي كانوا يملكونه في الرباط منذ الأزمان القديمة حسن ما تثبته وثائق الملكية وعقد الشراء التي قدمها الرهبان إلى السلطان عن طريق سفير إسبانيا في طنجة. وعند الاطلاع على هذه المستندات وجه الوزير سيدي محمد المفضل بن محمد الكرني رسالة رسمية إلى السفير المذكور بتاريخ 1 جمادى الثانية من العام

الجاري 1308 هـ مبلغا إياه أن السلطان المولى الحسن أرسل أمره الشريفي إليكم، لتسلموا المنزل المذكور وما ينتسب إليه إلى الرهبان. وأتوسل إليكم أن تخبروني ماذا ستفعلون بخصوص هذه القضية أو ما تفكرون في فعله، وألتمس منكم أيضا أن تجيبوني في اليوم نفسه لأننا نأمل معرفة حيثيات هذه القضية بسرعة. الرباط 29 مارس 1891 الموافق 18 شعبان 1308. الموقع نائب قنصل إسبانيا رافاييل أكاروني".

وقد أجاب حاكم الرباط على هذه الرسالة بما يلي: "توصلنا برسائلكم المؤرخة في 18 من الشهرالجاري، ولم نفهم معناها ولا هدفها، وأدركنا فقط أنها تتعلق بمنزل لا نعرفه ولم نتلق أي شيء عنه. حفظتم في أحسن حال، وقع في 19 شعبان سنة 1308، محمد النويزي كان له الله الحليم".

ويقول الأب كارباخال معلقا على هذه الرسالة إنه ليس هناك مسلم ولا يهودي ولا مسيحي لا يعرف أن الحمان الحزري مع كل ما يوجد حوله هو ملك للبعثات الفرنسيسكانية والقائد المسكين يتظاهر بأنه يجهله. ولقد أشرنا في البداية اعتمادا على كتاب تاريخ المغرب للأب كاستيانوس، أن حاكما أباد معالم هذا المنزل لكن بقاء لوحة حجرية فيه دلت على مصدره والهدف الذي بني من أجله، وأنه في سنة 1860 كان موجودا.

ولا أريد هنا إيراد جميع مراسلات السلطات في هذا الشأن، وما أوردته كاف لكي يبين العقيدة التي صدر عنها هؤلاء في معالجة هذه القضية، وخاصة السلطة المسلمة التي أبانت عن نية سيئة ومكر دنيء. ونهتم في هذا السياق بموقف الأب كارباخال تجاه العقيدة السيئة للسيد فيكيرا وقلة عزمه في هذه القضية.

لقد أشرنا سابقا أنه عندما تغيب الأب ليرتشوندي عن البعثة كتب الأب كارباخال إلى الأب خوسي رودريكز الذي أجابه برسالة مؤرخة في 31 مارس من سنة 1891 بيانها : "ذهبت في هذا الصباح إلى السيد الرئيس لأفيده باسم الأب الرئيس من أجل إنجاز أمر السلطان، وأجابني السيد الكريم أن السلطان أصدر أمره إلى الحاكم في هذا الشأن لكي يباشر التحريات المناسبة، وأنه إذا عرف منزلنا فسيأخذه من الشخص الذي يملكه لكي يسلمه لنا، وفي الحالة المعاكسة سيبحثون لنا عن منزل آخر - كلمات حرفية من الرسالة التي وجهها الغرنيت إلى الحاكم والسيد القنصل - وقال إنه يجب على السيد أكاروني أن يفعل هذه القضية ويعاين إنجاز الحاكم والمسؤولين لأمر السلطان، وإنه إذا لم ينجزوا هذا الأمر، فيجب على السيد القنصل أن يكتب إلى المفوضية لكي تطلب من جديد من السلطان إنجاز ما وعد به. ومن هنا يتبين أنه لن يساهم في هذه القضية ...".

وعندما تلقى الأب كارباخال هذه الرسالة، التمس من السيد أكاروني إعادة السؤال عبر توجيه رسالة إلى الحاكم في هذا الشأن، فلم يجب عليها. ثم وجه إليه رسالة ثانية حدد فيها مهلة 24 ساعة لكي يجيب عليه، أو يخبر حاكمنا بكيفية التصرف في الموضوع، فأجاب على الرسالة الثانية بمراوغات في القضية تتبين في هذه العبارات الحرفية التالية: "وبخصوص ما قلتم لي أنه في قدرتي وسلطتي معالجة هذا الأمر، فإنني أقول لكم إننا لم نتلق حول هذه القضية أي أمر من الحكومة". وهكذا يتبين لنا سوء نية حاكم الرباط والوزير الكبير الغرنيت.

وبعد هذه الإجابة الثانية لمحمد السويسي خاب أمل الأب كارباخال في إمكانية الحصول على منزل البعثة القديم، وخاصة عندما تلقى رسالة من الأب رودريكز بتاريخ 17 أبريل 1891 والتي يقول فيها : " لا أدري متى سيمنح لنا منزل، فقد قال لي السيد الرئيس إنه كتب إلى السيد أكاروني مرتين ولم يجبه".

يقول الأب كارباخال إن السيد فيكيرا كتب حقيقة مرتين إلى السيد أكاروني، لكنه لم يجبه بكلمة واحدة حول المنزل. وقد قرأت رسالتي السيد فكيرا، وكانتا خاصتين ولا تعالجان نهائيا القضية الدبلوماسية والقنصلية. فما هو الهدف المجهول الذي كتب من أجله الأب رودريكيز إلى السيد أراكوني مرتين ولم يجبه؟

ولما أخبر السيد الرئيس الأب رودريكز أن السيد أراكوني لم يجبه، اتصل به الأب كارباخال وسلمه الرسالة التي تلقاها من نائب المفوض الحواري للبعثات، ونصحه بأن يخبر الرئيس السيد فيكيرا بالمساعي التي حققها. وهكذا شكا الرئيس من سلوك حاكم الرباط، وأرسل له الرسائل التي تناولت الوساطة في هذا الموضوع. ولم يتأخر السيد أراكوني عندما تلقى الإجابة، إذ في 22 أبريل أخبر نائب القنصل بكل شيء، وبين له أنه من الأفضل أن لا يعالج الموضوع مع الحاكم طالما "لا يملك تعليمات التفويض". ويتبين من هنا أنه لا يذكر في هذه الإجابة ما قاله من قبل للأب رودريكز حسب رسالته إلى الأب كارباخال بتاريخ 31 مارس التي أوردناها سابقا.

ورغم كثرة الحلول التي بحث عنها، فقد تبين أنهم رفضوا تسليم المنزل لأنه كان في حي المسلمين، ولأنه تحول إلى حمام للنساء، وهو "حمام العزري". ويلاحظ في الرسائل نفسها التي نقلها التاريخ سوء نية الحاكم، وقلة عزم قنصل إسبانيا الذي كان يجب أن يسهر على حقوق وامتيازات الوطن الذي يمثله.

ويبدو أننا تجاوزنا حدود الاختصاص في هذا العمل، ولذلك سنقف عند هذه النقطة ونمر إلى وصف ما يهم الحالة الحالية للبعثة، ولكن ليس قبل أن نؤكد أن الأب كارباخال يملك الحجة لكي يشتكي من النية الصالحة والسيئة للحاكم، والشك في سلوك السيد فيكيرا ونائب المفوض الحواري للبعثة، والسيد أراكوني الذي عاتبه لاحقا لتناوله رسائل القضية بدون أمره.

لقد اضطر الأب كارباخال إلى مغادرة الرباط عندما عين رئيسا للبعثة في موكادور سنة 1893، واستمرت بعثة الرباط في قنصلية البرتغال في تلك الظروف السيئة التي تركها مؤسس هذه البعثة مسجلة في بياناته، ولم تتحسن أحوال هذا المنزل رغم الإصلاحات المستمرة التي قاموا بها. وعندما حصلوا على أرض لإقامة بناء جديد برزت صعوبات تمثلت في الجانب المالي، وفي الظروف السياسية المحلية والمدنية. وهكذا استمر المبشرون يبحثون عن الحل لمدة عدة سنوات، إلى أن قام المفوض الأعلى لإسبانيا في المغرب بزيارة بروتوكولية للمنطقة الفرنسية لمعاينة وضعية المبشرين، فلقبهم بشهداء الروح المضحية والحوارية، ووعد بالإجراء الفعال لتأسيس منزل البعثة الجديد الذي يقتضيه شرف إسبانيا وكرامتها".

وفي بداية 1912 تم شراء أرض لبناء منزل البعثة الجديد بلغت مساحتها 505 متر مربع، وكانت تقع في طريق باب لعلو، بمبلغ 30 ألف بسيطة. وبعد مدة من الزمن ارتأت السلطات الفرنسية أن المدخل القديم للمدينة غير كاف لعبور المسافرين والمركبات، فقررت فتح باب آخر جديد في السور، ووجب على البعثة أن تتنازل عن جزء من الأرض يمر فيه الشارع الجديد، فنقصت مساحة الأرض إلى 463 متر مربع. ورغم صغر مساحة هذه الأرض فقد كانت قيمتها كبيرة، حيث وصلوا إلى عرض مائة ألف فرنك، لكن الأمر السياسي في مدريد أعاق عملية البيع. وفي 1915 ارتأت إدارة الأعمال العامة من أجل مصلحة المدينة فتح باب آخر في السور ومرور الشارع وسط أرض البعثة، فاقترحت الإقامة على الحكومة الإسبانية استبدال الأرض الواقعة في طرف باب لعلو بأخرى في عرس المامونية، وبعد أكثر من سنة من المفاوضات تمت عملية التبادل. وفي 26 غشت 1916 صدر ظهير شريف يسمح باستبدال أرض يملكها المخزن تبلغ مساحتها ألف وخمسمائة متر مربع تملكها البعثة، والواقعة في طرف فسحة باب لعلو. وفي هذا الظهير تقرر أن يمنح للبعثة تعويض مقداره عشرون ألف فرنك. وكتب عقد التبادل بالعربية وترجم إلى الفرنسية ويحتفظ بهما في أرشيف البعثة. وموازاة مع عقد الملكية هناك اتفاقية

بالفرنسية وقعت من قبل مدير مصالح الدولة السيد دي شافيكني، ومن قبل رئيس بعثة الرباط خوان كانتليس. وقد عقدت هذه الاتفاقية بين رئيس المصالح البلدية للرباط الذي انتدبته الإقامة العامة لهذا الغرض، ورئيس البعثة الكاثوليكية الإسبانية الذي منحه السيد أسقف فيسيا ورئيس البعثات الكاثوليكية الصلاحيات لهذا الشأن.

وهكذا حصلوا على أرض بشروط جيدة، وفضلت لهم بعض الفرنكات لبداية أعمال البناء، ورغم ذلك لم تبدأ الأعمال ؟ فلعلها مقاصد العناية الإلهية التي لا يمكن كشفها. ونود أن نتحدث هنا عن نشاط البعثة رغم الظروف السيئة التي وجدت فيها.

بعد الاحتلال الفرنسي تنامت الحاجة للتوجيه الروحي للعدد الكبير من المسيحيين سواء المدنيون أو الجيش، ذلك أنه رغم وجود القساوسة فقد كانت هناك ضرورة إلى بناء مصلى اقتصادي وقادر على استيفاء هذه الحاجة بسبب صغر حجم مصليات البعثة الموجودة. فاستأجروا من السلطان أرضا صغيرة لمدة عشر سنوات بجانب حصن روتنبرغ الذي يسمى اليوم إيرفي، وبني فيها كوخ من الخشب، واستخدم مصلى، وأضيف إليه بعض الغرف خصصت للأب الذي كلف بشؤون العبادة فيه. وفي 21 يناير 1913 افتتح هذا المصلى، وأشرف على شؤونه الأب جوسيب هاردي، وهو قسيس عسكري عاش مع المبشرين الإسبان منذ مجيئه من فرنسا، وعين بأمر من السيد فراي فرانسيسكو سرفيرا أسقف فيسيا والمفوض الحواري لبعثات المغرب. وفي سنة 1915 أمر المفوض الرئيس الأب خوسي بتانسوس بتشييد المصلى العسكري.

وقد تكونت جالية مسيحية كبيرة في مدينة القنيطرة التي لا تبعد كثيرا عن الرباط، فاستوجب على البعثة الاعتناء باحتياجاتهم الروحية، لكنه كان من الصعب تحقيق ذلك لأنه لم تكن هناك كفاية من المبشرين لتغطية حاجيات الجالية في الرباط التي تتنامى يوما بعد يوم، واقترح الأب لابي كاغيك - و هو أسقف من أسقفية ألبي - حلا لهذه المشكلة، وبيانه بناء مصلى في القنيطرة. ومن ثم أرسل المفوض الحواري الأب بتانسوس وثيقة ترخص هذا البناء الذي تم في 4 يونيو 1914، وعين في هذا التاريخ نفسه السيد لابي كاغيك رئيسا لهذه الكنيسة رغم إقامته في الرباط.

لقد استطردنا قليلا لنبين العمل التبشيري الذي قام به مبشرونا في الرباط رغم الظروف السيئة التي كانت تحيط بهم.

لقد قلنا إنه في سنة 1912 تم شراء أرض لبناء الكنيسة، وإن الظروف والأحداث التي

طرأت لاحقا تسببت في استبدالها بأرض أخرى سنة 1915. ورغم حصول هذا الاستبدال بشروط جيدة بالنسبة إلى البعثة الإسبانية، وجودة موقع الأرض، فقد تأخرت أعمال البناء عدة سنوات، ولكن في النهاية توجت جهودهم بالنجاح.

في شهر يوليوز من سنة 1935 قمنا بزيارة بعثة الرباط لكي نطلع على تواريخ البعثة، فوجدنا في التاريخ الصغير للكنيسة بعض الإشارات السطحية التي تغفل ذكر تاريخ افتتاح البعثة الجديدة، وتقول هذه البيانات ما يلي: "بعد التغلب على عدد لا يحصى من الصعوبات أمكن في النهاية بناء بهو من ثلاثين متر خصص نصفه مؤقتا للمصلى، والباقي لعزف الرهبان. وتقع هذه الإقامة الجديدة في شارع الماريشال أمام الأمومة، ويتاخمها من جانبيها مركز الشرطة، ومؤسسة الفنون الجميلة وواحد من الأسوار القديمة. وكان ثمن الأرض مائة وخمسون ألف فرنك. والعائلة التي توجد في هذه البعثة تتكون من الأب خوسي بيريس الذي استمر فيها حتى مات، والأب خوان كانتليس الذي خلفه في الرئاسة، والأب خوليان تيرون".

متى انتقل الرهبان من قنصلية البرتغال إلى المنزل الجديد؟ لا توجد أية إشارة في كتاب التاريخ، وهناك فقط إشارة تقول: "في يوم 21 نوفمبر من عام 1931 جاء لمباركة الإقامة الجديدة لرهباننا الإسبان أسقف طنجة فخامة الأب بتانسوس، وأسقف الرباط الأب هنري فياي، والمندوب الإسباني الدائم الأب بنيامين براساليس، وقنصل الرباط خوان دي أونتيفيروس، ورئيس هذه البعثة الأب خوسي بيريس".

ورغم أن سعة المصلى كانت مضاعفة بالمقارنة مع منزل البعثة الأول فإنه لم يكن كافيا، وذلك بسبب الموقع المركزي لهذا المصلى. فقد كان يحضر بالإضافة إلى الجالية الإسبانية عدد كبير من العائلات الفرنسية التي كانت تعيش بالقرب من هذا المصلى. وهكذا ارتأوا بناء الكنيسة بصفة نهائية، لكن الجانب المالي أعاق هذا المسعى، وكذا الظروف السيئة التي تمر بها إسبانيا، وخاصة الحكومة الجمهورية الماركسية التي كانت ترفض بناء الكنائس. لكن كل هذه الصعوبات لم تعرقل العمل بصفة نهائية، حيث بني ما أمكن بناؤه من الكنيسة، بفضل شفقة المؤمنين الإسبان وبعثات أخرى تعاونت فيما بينها لهذا الغرض. ورغم أنها كانت تحتاج إلى إصلاحات وتوسيعات إلا أنها لم تكن مستعجلة.

المهندس ليون دوماس هو الذي وضع التصاميم، ورغم أنه لم يمكن تنفيذها في وقتها، إلا أنه تقرر تطبيقها حتى حامل الصليب. وقد حدد ميزانية أعمال البناء في مائة وستة

وأربعين ألف فرنك. وتعهد بهذه الأعمال المقاول السيد ساوير.

بدأت الأعمال في أواسط يونيو 1933، وكان مدير الفنون الجميلة يعارضهم دائما لأنه كان يؤمن بأفكار الحكام الإسبان. وانتهت الأعمال في أكتوبر من السنة نفسها، وافتتحت الكنيسة الجديدة في 12 نوفمبر سنة 1933.

في يوم السبت 11 نوفمبر، بارك السيد فياي بوفار جرسا اشترته السيدة بيشار بمبلغ ألفي فرنك وأهدته إلى سان أنطونيو. وفي يوم 12 من الشهر نفسه بارك المفوض الحواري للرباط السيد فياي نفسه الكنيسة حسب الطقوس، ثم احتفل الأب المفوض الدائم للفرنسسكان الإسبان فراي بنيامين نراساليس بالقربان المقدس، ووعظ فيه الأب سيلفيستري شالور كاتب المفوضية الحوارية بالرباط. وعند الانتهاء من القداس ألقى السيد الأسقف والمفوض الحواري فياي خطبة مدحية مؤثرة، والتي أجاب عليها الأب بنيامين براساليس. وقد حضر كل هذه الاحتفالات القنصل الإسباني والشخصيات الرئيسة من الجالية الإسبانية، وعائلات فرنسية كثيرة وجمهور من جنسيات أخرى.

وفي النهاية نشير إلى الأساقفة الذين ترأسوا بعثة الرباط منذ تأسيسها حتى هذه الأيام وهم كالتالي:

الأب فرانسسكو كارباخال	1890 إلى 1893
الأب خوسي بيريز مايو	1893 إلى 1896
الأب خوان روسيندي كاساس	1896 إلى 1898
الأب إوسيبليو أويباري	1898 إلى 1901
الأب فابيان كاستيا	1901 إلى 1904
الأب مارسيلينو كوركويرا	1904 إلى 1907
الأب خوسي ألفاريس	1907 (مؤقت)
الأب خوان كانتليس	1910 إلى 1928
الأب خوسي بيريز	1928 إلى 1938
الأب فيسينتي فلوريس	1938 ويتبع

الشاون يوليوز 1941

تأسيس بعثة أصيلة[219]

تقع مدينة أصيلة التاريخية على الشاطئ الأطلنطي على بعد أربعين كلم من طنجة. وقد اشتهرت هذه المدينة بماضيها الحربي، حيث كانت تنتقل بسرعة من حرب إلى أخرى كما تدل على ذلك أنقاضها.

ويرجح أن تكون هذه المدينة من بناء الفينيقيين، لأنها كانت من مدن موريطانيا الطنجية وعرفت باسم خوليا كونسطانطيا أوزيليس، وسميت أصيلة في زمن البرتغاليين، ثم سميت أزيلا من قبل المهيمنين العرب الأواخر. وفي الزمن الذي نؤرخ فيه لها يقيم فيها الشهير الريسوني في قصره الذي سيخلد اسمه في الأجيال القادمة، وقد كتبنا هذا في سنة 1927 في "مذكرات تاريخية عن بعثة المغرب".

وعندما دخل الجيش الإسباني إلى هذه المدينة استقر فيها قليل من المسيحيين، وكانوا يتلقون المساعدات الروحية من الرهبان المستقرين في العرائش ومن الأب ألفاريس في القصر الكبير. وكان الأب مرسيلينو كوركويرا من إقليم سانتياكو يأتي إلى أصيلة باستمرار كلما استدعت الحاجة إلى ذلك ثم يرجع إلى العمل في كنيسة العرائش.

وفي ماي 1912 عندما وجد الأب كوركويرا في أصيلة لاحظ ازدياد عدد المسيحيين بسبب فرض الحماية الإسبانية عليها والمؤسسات المدنية والعسكرية التي استقرت فيها، فأشار على الأسقف بضرورة الإسراع في استئجار مكان للاحتفال فيه بالأعمال المقدسة، بسبب الحاجة الملحة والمتزايدة إلى ذلك.

(219) النص للأب ليونكو ورد في مجلة "Mauritania" ع 206 - 1 يناير - س 1945 - من 10 إلى 12.

وفي غشت سنة 1912 قام السيد الأسقف بشراء موضع صغير تبلغ مساحته ستة أمتار في الواجهة وثمانية عشر مترا في الأرضية، قريب من البحر، وأدى مقابله ثلاثة آلاف وخمسمائة بسيطة حسانية.

وبما أن هذا المكان لم يكن يتمتع بشروط جيدة، وكان يجب أن يقوموا فيه بأعمال كثيرة لإصلاحه، فقد ظلوا ينتظرون فرصة أخرى للحصول على مكان أكثر مناسبة للهدف المنشود. ولم تتأخر الفرصة كثيرا، إذ وجه الأب ألفاريس من القصر الكبير رسالة إلى السيد الأسقف بتاريخ 30 مارس 1913 يخبره بأن الأب كوركويرا وقع عقدا لإيجار منزل في أصيلا، تملكه زاوية المولى عبد القادر، مؤديا عشرين دوروس سنويا. وفي هذا المنزل أسست البعثة وظل الأب كوركويرا يأتي من العرائش طيلة سنتين بعد هذا التأسيس، للاعتناء بالمصالح الروحية للمسيحيين المقيمين في هذه المدينة.

وعندما تنامى عدد العائلات المسيحية في هذه المدينة أضحى استقرار المبشرين بشكل دائم في البعثة أمرا ضروريا. فالذي تعين عليه تأسيس البعثة وجب عليه أن يعاني آلاما كثيرة، لكن المعاناة ليست عائقا بالنسبة إلى المبشر في عمله الحواري.

وهكذا عين الأب كوركويرا لتأسيس البعثة، وخرج من العرائش مع فراي فرانسسكو سيرا،ثم أبحرا في سانطا تيريزا، وهي باخرة صغيرة تحمل مؤونة الجيش. وبعد سفر متعب وصلا في 1 يوليوز سنة 1915، ومنذ هذا اليوم أسست البعثة باسم سان بارطولومي إحياء للذكرى التاريخية لتأسيس الأسقفية زمن الهيمنة البرتغالية.

وفي رسالة أرسلها الأب مارسيلينو إلى السيد الأسقف في 2 يوليوز أخبره عن وصوله ومساعيه الأولى يقول فيها: "لقد وصلنا بالأمس مساء بعد سفر طويل وشاق، فتعبنا كثيرا، وازداد وضعنا سوءا عندما وجدنا أن الذي يملك مفتاح المنزل لم يفرغه إلا بعد وقت متأخر، وما احتطنا منه حصل مضاعفا، إذ وجدنا المنزل مثل مرحاض حقيقي. يا لها من ليلة قضيناها فيه.

يجاور المنزل الذي أسست فيه البعثة جامع شارع سيدي بن سعيد، رقمها 12، واستأجرت لمدة عشرين سنة.

وبعد وقت قصير مرض الأب كوركويرا بحمى المستنقعات بسبب الظروف السيئة للسكنى، فانتقل إلى طنجة يوم 6 شتنبر من هذه السنة نفسها، وناب عنه في البداية الأب فرانسيسكو راي، وبعد ذلك عوضه بصفة دائمة.

كان الأب فرانسيسكو راي مبشرا شابا قويا، وقد تمكن من تحمل المشاق وحده في هذه المغارة، إذ لم يكن ممكنا أن يعطي اسم آخر لهذا المنزل الذي أسست فيه البعثة الكاثوليكية في سنواتها الأولى، فقد احتوى على غرفة صغيرة لا تسع إلا سريرا صغيرا ومائدة، والباقي خصص للمصلى الذي لم يكن يصلح للاحتفال بالأعمال الإلهية، وخاصة القداس الذي كان يحتفل به في الأعياد في المصلى العسكري لكي يتمكن عدد أكثر من الأشخاص من سماعه.

ولما انتقل المستشفى العسكري إلى موضع آخر غادر القساوسة المصلى الصغير الذي بناه مهندسو الجيش ليتمكنوا من الاحتفال بالقداس يوميا، ومن ثم التمس الأب راي هذا المصلى من السلطات العسكرية، وعندما منح له، نقل له العبادة الإلهية واحتفالات دينية أخرى، وخصص كل المنزل للسكنى. وقد بني هذا المصلى على حصن صغير على الحائط البرتغالي الذي يحيط بالبلدة القديمة، وهو قريب من المنزل الحالي للباشا سيدي دريس الريفي.

وقد ظل الأب فرانسسكو راي وحيدا في هذه البعثة حتى يوم 26 يونيو 1918 حيث جاء إلى أصيلا خوسي لوييز أنطونا، وبعد شهرين توجه الأب فرانسيسكو إلى الدار البيضاء في المنطقة الفرنسية وعوضه الأب خيسوس يرييتو بعض الوقت بسبب ظروفه الصحية المتدهورة.

وفي يوم 1 نوفمبر 1918 تسلم حيازة أسقفية سان بارطولومي لأصيلا الأب فيسنتي فلوريس، ومن بين المساعي التي قام بها استئجار المنزل المقابل ونقل السكنى إليه لكي يكون الاتصال معه عبر نفق فوق الشارع، وتؤدى العبادة والقداس في ظروف جيدة.

حصلوا على أجراس صغيرة عن طريق الهبات، وقاموا بوضع برج صغير لتعليقها في يوم عاصف، فسقط على أحد السقوف وهدمه. وجاء في هذا اليوم السيد السامي أسقف فيسيا، والأب المكرم سيرفيرا، وكاتبه الأب خوسي لوييز للقيام بالزيارة الرعوية والاحتفال بالقربان المقدس لتثبيت العماد، فاضطروا إلى القيام بكل احتفالات الزيارة المقدسة في صالة قصر الريسوني، وفيها استمر الاحتفال بالقداس حتى تم كراء موضع مناسب لهذا الغرض في شارع القنصل زوكاستي، حيث بلغت مساحة المصلى الجديد ثمانية أمتار مربعة، وتم الانتقال إليه في يوم 26 نوفمبر 1920.

وعندما انتقلت البعثة الكاثوليكية إلى الموضع الجديد قاموا بالاحتفال علنا بالقربان

المقدس في موكب لا يقل قيمة عن المواكب التي تمر في المدن الإسبانية. وقد تحقق ذلك في يوم 26 مايو 1921، وفرح المسيحيون كثيرا بهذا الجو الذي أوحى لهم بالتواجد في وطنهم.

وفي 8 شتنبر قام النائب العام الحواري الأب بتانسوس بمباركة صورة الراعي القديس لهذه الأسقفية بارطولومي، وهي هدية من خوسي إيرينسيا.

في يوم 1 يونيو 1922 بدأت أعمال بناء منزل البعثة في الأرض التي وهبها المخزن للبعثة الكاثوليكية، وتبلغ مساحتها ألفي متر مربع، وذلك بإشراف الراهب فرانسيسكو سيرا من مدرسة شيبونيا في إقليم غرناطة.

وعندما انتهت الأعمال افتتح المنزل والمصلى المؤقت في يوم 7 دجنبر 1923. وخصص قسم المصلى لمصلى القربان المقدس وصالة الاستقبال، وأضيف باقي المنزل إلى الكنيسة التي وضع حجرها الأول في اليوم نفسه بمباركة النائب الحواري وأسقف فيسيا الأب سيرفيرا، وحضور الأب بتانسوس، والأب خوسي لوييز كيزان، والأب بيدرو كيخو، وفراي دييكو أونيون، وفراي لويس سفاديرا، وكل هؤلاء من طنجة. وحضر كذلك الأب فيسينتي فلوريس، وأنطونيو بينيرو، وفراي فرانسسكو سيا، وفراي فيسينتي أونيون. وحضر من الجانب المدني ؟ العسكري القائد العسكري للساحة خوليو كانطورني، وكورونيل قناصي إفريقيا، وشخصيات أخرى مع جمهور كبير.

بعد أيام من وضع الحجر الأساس توقفت الأعمال، لأن مؤسسة العمل الخيري سحبت الإعانة المالية التي خصصت لهذا البناء. وبعد الحصول على الإعانة المالية الجديدة في شهر نوفمبر سنة 1927، استأنفت الأعمال التي لم تتوقف حتى النهاية في أواخر يونيو 1929.

واحتفل بالافتتاح في 25 يوليوز سنة 1929. وفي 23 ذهبوا إلى طنجة بالسيارة الخاصة لباشا أصيلة سيدي دريس الريفي لمرافقة أسقف كاييبولي الأب بتانسوس والمراقب المحلي المنتدب السيد فياتا، والأب أنطونيو بنييرو رئيس وأسقف أصيلة. ورافق السيد الأسقف الأب خوليان ألكورتا، والأب خوسي لويير، وكاتبه وفراي كابرييل روخو خادمه، وكان ينتظر مجيئهم الباشا سيدي دريس وسلطات أخرى للمدينة.

وفي هذا السياق نأخذ من كتاب "مذكرات تاريخية للبعثة الكاثوليكية الفرنسيسكانية الإسبانية في المغرب" ص 130 ما كتبناه منذ بعض السنوات: "لم يكن الأب السامي

بتانسوس يصل إلى العاصمة الأسقفية (طنجة) (إذ كان يقوم بزيارة رعوية إلى المنطقة الشرقية) حتى بدأ يحضر للذهاب إلى أصيلة لمباركة وافتتاح الكنيسة الجميلة التي أنهى أعمالها الأخ فراي فرانسيسكو سيرا، واستدعيت كذلك سلطات الحماية. وفي يوم 25 يوليوز عيد الحواري سانتياكو القديس الحام لدولتنا الإسبانية اجتمعوا في الكنيسة، وتم افتتاحها ومباركتها حسب الطقوس من قبل المفوض الحواري، وساعده الأب أنطونيو سانتيش، وبيلايو فرنانديز، والأساقفة المحترمون لكنيسة طنجة، وكنيسة سانطاكروس في القصر الكبير. ولما انتهت المباركة جلست السلطات في الأماكن المهيأة لها سلفا، حيث جلس فخامة السيد دون لويس ماريسكال الذي يمثل السيد المفوض السامي المنتدب والسيد أسقف دي كاياماكتا، وجلس في مكان متميز أصحاب الفخامة القائد مولا رئيس دائرة العرائش، وبرناردو ألمييدا القنصل العام لإسبانيا في طنجة، وسيدي دريس الريفي باشا أصيلا، وممثلين عن مختلف هيئات المدينة. ثم بدأ الاحتفال بالقداس من قبل المفوض ومساعدة الأبوين لويس دي أولياكا، وأنطونيو فليكس، وغنى المعلم كالاأورا من المصلى الموسيقي في طنجة القداس بأفضل العناصر الموسيقية الموجهة من قبل الأب بيدرو كيخو أورتير دي ساراتي. وقام بإلقاء الكلمة في مقصورة الكهنة الأب المساعد بنيامين براساليس، والأب أنطونيو سانشيس. ثم قام الأب بوينا فينتوراس أسقف كنيسة قلب يسوع في طنجة بإلقاء خطبة أيقظت ببلاغتها مشاعر الفرحة والإعجاب بالأعمال المهمة التي تصل تاريخ أصيلة البرتغالية ببطولة محاربينا في هذه الأراضي الإفريقية، وعمل المبشرين الفرنسيسكان الذين زرعوا بأيديهم بذور الحضارة والسلام والإحسان، والذين احترموا دائما من قبل المغاربة .كما يدل على ذلك حضور الباشا سيدي دريس الذي أراد الاشتراك في فرحة المسيحيين بافتتاح المعبد الجديد الفاخر. ولما انتهى القداس أدوا فعل الشكر.

وقد حضر الافتتاح بالإضافة إلى المبشرين المذكورين، الأبوان خوسي رودريكز، وياسكوال أربوسا، والإخوة فراي دييكو أونيون وفراي خوسي بلانكو وفراي فرانسسكو بيكا من طنجة، وجاء من العرائش الأبوان فيسينتي فلوريس، ويرودينسيو رويس، مع فراي تيودور بارانديكا.

وبعد انتهاء الاحتفالات الدينية، استدعي الجميع إلى طعام متواضع ترأسه الأسقف ومرافقوه في فندق "لاكارتاخينيرا".

لقبت الكنيسة بسان بارطولومي، وقياسها 31 بـ 9 على السطح، وثلاثة أمتار ونصف

في العلو على الطراز الروماني ؟ الكورينتي ذو الشكل الجميل والأنيق. ونشير هنا إلى أن الكنيسة بناها أخونا الراهب فرانسيسكو سيرا، وكانت العمل الأخير من الأعمال التي شيدها حيث مات بعد إنجاز هذا البناء بأشهر قليلة بعد مرضه بسبب كثرة العمل.

ونشير إلى أنه منذ 1921 ظل يحتفل بعيد القربان المقدس بموكب عمومي واحتفل به بشكل منتظم يوم 24 يونيو 1928، حضره السيد أسقف كابييولي والأب بتانسوس الذي أتى من طنجة مرافقا بأربعة آباء من هذه البعثة.

وقد حمل وعاء القربان السيد الأسقف العسكري للسياحة وبيدرو فيرنانديز، والأسقف الأب فيسينتي فلوريس. وحمل قضبان المظلة مدير بنك الدولة ورؤساء البريد والتلغراف والمالية، السيد كوماندانتي دي ألكانتارا، والسيد ماريستاني رئيس "منزل إسبانيا"، وقاموا بالتجول عبر شوارع "كارسيا دي لاماطا" و "قنصل زوكاستي" و"رامون كاخال" و "الكاردينال سيسنيروس".

وفي السنة الموالية جرى الاحتفال بنفس هذه الرسمية، رغم أنهم تلقوا اتصالا شفويا من القنصل يمنع كل المواكب بأمر من المفوض السامي. ولم يقدموا التفسير لذلك؟

وتتبين نشاطات هذه البعثة بشكل خاص في جمعية الإحسان، والقلب المقدس، وبنات مريم، وحماية المسيحيات الصغيرات لتزنين وبني عروس.

وننهي هذه البيانات المختصرة بالإشارة إلى الأساقفة والرؤساء الذين ترأسوا هذه البعثة منذ تأسيسها حتى هذه اللحظة :

الأب المكرم مارسلينو كوركويرا	1915
الأب المكرم فرانسيسكو راي فاسكيز	1915
الأب المكرم خيموس يرييتو	1918
الأب المكرم فيسينتي فلوريس	1918
الأب المكرم أنطونيو بينييرو	1924
الأب المكرم مانويل سالكادور	1932
الأب المكرم سيلفيستري فرنانديز	1935

الشاون نوفمبر 1944

بيانات تاريخية عن تأسيس البعثة في شفشاون[220]

لقد تسبب انشغالنا بالوظيفة القسيسية في تأجيل الكتابة التاريخية عن تأسيس البعثات الكاثوليكية في المدن المغربية، ونقوم اليوم بإرسال بيانات عنها دوريا إلى مجلة موريطانيا. وإدراكا منا للالتماسات المحترمة التي وجهت إلينا كتابة، والتي تمثل بالنسبة إلينا أمرا لاستئناف كتابة الروايات التاريخية الموجزة عن هذه البعثات، فإنني أؤجل الحديث عن بعثة طنجة لاحقا وهي البعثة الوحيدة التي بقيت واستمرت من بين البعثات القديمة، وأخصص الحديث في هذا السياق عن بعثة مدينة الشاون، المدينة المقدسة عند جبالة وسلطانة الأخماس.

ومن أجل إسبانيا وجنودها الموجهين إلى أراضي المغرب، فإنني أرى أنه لابد من كشف الستار الذي يخفي أسرار هذه المدينة المحصورة بين الأسوار، والمخبأة بين الجبال، والمحاطة بالأبراج، والمحمية بقصبتها، بحيث تدل جميع هذه الآثار على ماضيها الحربي.

لن أتعمق في الكشف عن الأصول التاريخية لهذه المدينة، ولكني أشير فقط إلى بعض البيانات الموجزة عن تأسيسها. إذ تقع الشاون في منحدر جبل القلعة الذي يعد من سلسلة جبال المرتفع التي تفصل بين غمارة والأخماس والذي يسمى بماكو، وهو المرتفع الأكثر بروزا من تسوكة.

---

(220) النص للمؤرخ لأب ليونكو بيريز ورد في مجلة "Mauritania" في جزءين، الجزء الأول في ع 183 - 1 فبراير - س 1943 - من ص 36 إلى 39، والجزء الثاني في ع 184 - 1 مارس - السنة 16 - 1943، من ص 61 إلى 63.

والراجح أن الشاون أسسها البربر، ويدل اسم الشاون أو شفشاون مقصد الصور، لكن الشاون البربرية توجد في مكان مقابل للمكان الذي توجد فيه المدينة اليوم، والذي يسمى العدوة.

ولعل الحقيقة التاريخية الوحيدة التي يمكن اعتمادها في هذا السياق هو أن المؤسس الحقيقي للشاون التي تستمر إلى اليوم هو مولاي علي بن موسى بن راشد ابن علي بن سعيد بن عبد الوهاب الشريف المنحدر من مولاي عبد السلام سنة 876 هـ /1471م.

ولعل اختيار ابن راشد للمكان الذي توجد فيه المدينة يرجع إلى موقعه الدفاعي، ولذلك فإن أول ما قام به هو تصميم القصبة الكبرى التي كانت مهمة في تلك الأزمان بسبب كثرة الحروب، كما قام ببناء السور الذي يحيط بالمدينة القديمة التي تقوم اليوم في حي السويقة. وبما أن ابن راشد كان شريفا ومتدينا ينحدر من مولاي عبد السلام فقد بنى الجامع الرئيس الذي تغيرت معالمه اليوم عما كانت عليه من قبل.

لقد ارتبط تقدم وتوسع المدينة بالصراعات المصيرية بين القبائل والهجرات المختلفة سواء القبائل أو الموريسكيين الذين طردوا من إسبانيا، واستقر بعضهم في هذه المدينة وكونوا حيهم الذي سموه بحي الريف الأندلسي، الذي أسس فيه منزل البعثة الأول، وهو من الأحياء المهمة والمتسعة في المدينة.

لقد كان الهدف من بناء المدينة على هذا النحو هو الدفاع عنها ضد المسيحيين وخاصة البرتغاليين الذين كانوا في تلك الحقبة يغزون المدن المهمة وينتزعونها من المسلمين، وكذا التحرر من السلاطين المستبدين الذين قهروا تلك القبائل بالضرائب الكثيرة والجائرة، بحيث كان الموقع الطوبوغرافي للأرض والوضعية الإتنوغرافية للسكان عاملان مساعدان على تحقيق هذه الأهداف. وقد عاشت هذه المدينة منغلقة واستمرت على ذلك الحال تجهل الحضارة، رغم أن خيال بعض الجوالة حاول أن يقدم بعض الأوصاف الغريبة عنها والتي تبعد كثيرا عن الحقيقة.

وهكذا لم تنزع مدينة الشرفاء، أو المدينة المقدسة، أو مدينة الغموض ستارها العجيب الذي يلفها حتى دخلتها الجيوش الإسبانية منتصرة يقودها كاسترو خيرونا، وغزتها بالحضارة الإسبانية.

وكان حكم المدينة في عهد ابن راشد يشبه الإقطاعات القديمة، بحيث استطاع هذا الأمير أن يكتسب تدريجيا نفوذا كبيرا في أكبر القبائل في شمال المغرب، والتي كان زعماؤها يحضرون إلى الشاون ويؤدون له فروض الطاعة. وعلى هذا النحو حقق هذا الحاكم الاستقلال التام عن سلاطين المغرب، ووصل تأثيره إلى مدن طنجة وتطوان، ولعل هذا ما يفسر إرسال سيدي المنظري إلى ابن راشد ثلاثة آلاف أسير برتغالي كانوا مأسورين في مصانع الأحزمة مع أربعمائة من جنوده في ضواحي سبتة وأصيلة، فاستخدمهم ابن راشد في بناء جسر وادي الريف-سبانين، والذي يسمى عند العامة جسر البرتغاليين.

لقد كان سيدي المنظري يمثل خليفة ابن راشد في مدينة تطوان، وقد استمر في تحمل هذه المسؤولية منذ ما قبل 1490 حتى سنة 1511 وهي السنة التي مات فيها ابن راشد.

وبعد وفاة ابن راشد خلفه في حكم المدينة ابنه محمد الذي أكسبها هذا الامتداد الذي تعرفه اليوم، بحيث منح للموريكسيين كل التسهيلات لبناء مساكنهم وحفزهم على مباشرة الأعمال الفلاحية والبناء.

وأسر محمد ابن راشد في أكبر الحروب الدموية التي قام بها أبو حسون عم سلطان فاس أبو العباس أحمد مع قبائل جبالة، وخلال أسره تسلم قيادة المدينة ابنه أحمد بن محمد، وعندما أطلق سراحه رجع إلى حكمها ثانية لكنه لم يدم طويلا، فلقد أرسل أبو محمد عبد الله المكنى بالغالب بالله جيشا بقيادة ابن أخيه محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ لإخضاع المدن المستقلة، ولما تبين محمد بن علي بن راشد وقوع الهزيمة هرب عبر مضيق تسملان إلى ترغة (غمارة)، ومن هناك أبحر مع أبنائه وخدمه إلى المدينة، ومات فيها.

وهكذا دخل ابن عبد القادر منتصرا إلى المدينة بعد حصار عسير، واستقر فيها بعض الوقت حتى اقتنع الشاونيون بالخضوع إلى سلطان المغرب. فذهب مع ابن عبد القادر إلى فاس أشهر أعيان المدينة لأداء الطاعة إلى السلطان، وعند رجوعهم أتوا معهم ببعض اليهود الذين علموهم صناعة الفضة والمعادن.

ومنذ هذه الحقبة تراوح حكم مدينة شفشاون بين الخضوع لسلاطين المغرب، وبين الاستقلال أحيانا، وظل يحكمها المسلمون إلى أن أمر المفوض الأعلى داماسكو برينكير العقيد ألبرتو كاسترو خيرونا أن يخرج من معسكر مصب وادي لاو ويبسط سيطرته على الشاون. فدخل من الجهة الشمالية للمدينة، وظلت الكتيبة الرئيسة تنتظر في دار عقوفة،

ثم دخلوا إليها دخولا احتفاليا يوم 14 أكتوبر 1920.

وهكذا جاءت كثير من العائلات المسيحية إلى الشاون، فتعاطى كثير من الإسبانيين للتجارة، واشتغل آخرون بالبناء، وكان القساوسة العسكريون هم الذين يعتنون بهم روحيا بتنسيق مع بعثة مدينة تطوان التي كانت تستقر فيها الإرساليات الكنسية.

وفي سنة 1921 قام النائب الرسولي العام الأب بتانسوس بزيارة تفقدية إلى شفشاون وحقق في هذه المناسبة تعميدات مختلفة في 24 دجنبر 1921. وبعد ذلك قام الأب بوينا فينتورا دياس بزيارة تبشيرية، كما كان الأب لويس أولياكا أسقف تطوان يأتي إلى الشاون كثيرا لكي لا يفقد الاتصال بالمسيحيين الذين كانوا يلتمسون منه دائما أن يكون بينهم أب مبشر بصفة دائمة.

وهكذا اتصل الأب لويس بالمفوض الحواري السيد دون فراي فرانسيسكو سيرفيرا نائب أسقف بومبسيوبوليس Pompciopolis، وأخبره بالحاجة الملحة لوجود بعثة في شفشاون. وعندما حان الوقت المناسب أعطى المفوض الحواري الإذن للأب لويس لتحقيق مساعيه وإقامة مصلى مؤقت يقيم فيه راهب، واقترح الأب خوسي بتانسوس أن يذهب نائب أسقف المضيق إلى الشاون ليكون مبشرا هناك، وتلقى في هذا الشأن جوابا إيجابيا.

لقد تحققت هذه المساعي في بداية سنة 1924، وتقرر أن يتم تأسيس المصلى في الأسبوع المقدس، لكن ذلك لم يتم بسبب الأحداث الأليمة التي وقعت في بداية ذلك الأسبوع المقدس، حيث قام لصوص هريرو بأسر فراي ميكال ياسر، وفراي أنطونيو بيريز الذي كان سيكون مرافقا لأسقف الشاون، وقتلوا فراي خيسوس بربيرو. ولم يسجل مثل هذا الحادث في تاريخ البعثة منذ استشهاد خوان دي برادو، إذ كان المبشرون يعاملون دائما بتقدير واحترام.

وبالإضافة إلى هذا الحادث حوصرت الشاون حصارا قاسيا نتج عنه مغادرة الجيوش لها في نهاية نوفمبر من سنة 1924، حيث انسحبت على مراحل متدرجة إلى بن قريش بقيادة كاسترو خيرونا، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من احتلال هذه الأراضي الجاحدة.

لقد سقيت الشاون بكثير من الدم المسيحي الإسباني، ولذلك لم يمر وقت طويل حتى عادت القوات العسكرية المسيحية منتصرة عبر شوارعها بقيادة الكورونيل دون أوسوالدو

فرناندو كاياس في غشت 1926. وقد دخلوا إلى الشاون بعد أن انتصروا على قبائل "بوكوية" و "غمارة".

وهكذا رجع المسيحيون من جديد إلى التوافد على الشاون، وعندما زارهم الأب لويس وأسعف احتياجاتهم الروحية، التمسوا منه مجددا الإتيان بمبشر يقيم بينهم، فأرسل في هذا الشأن إلى المفوض الحواري بتانسوس أسقف كابييولي الرسالة التالية : "السيد السامي، في كل مرة أقوم فيها بزيارة الشاون من أجل إنجاز أوامر سيادتكم وواجباتي باعتباري قسيسا خادما ألاحظ الحاجة إلى تأسيس منزل للبعثة في هذه المدينة، فعدد المسيحيين في تزايد مستمر، ويبلغ عدد التلاميذ في مدارس الأولاد والبنات أكثر من أربعين تلميذا في كل مدرسة، كما أن هناك عدة أشخاص يعيشون في جماعات غير قانونية. ولقد أوشك السيد تينيينتي كورونيل كاياس على الانتهاء من بناء كثير من البيوت من أجل سكن الموظفين وعائلاتهم. وأخر الكثير ذهابه إلى المدينة بسبب الصعوبات في أداء الواجبات الروحية. وقد احتفظت لنا السلطة هنا بمنزل طالما لم تبن كنيسة.

وعلى هذا فإني أظن أنه من واجبي أن أظهر إلى سيادتكم رأيي المتواضع، وبيانه أن يستقر في هذه المدينة مبشر، ولاشك أنكم ستعملون بشكل إيجابي وصحيح في هذا الشأن. وحفظ الله سيادتكم لكثير من السنين. تطوان 1 أبريل 1929 - فراي لويس أوليكا، توقيعه. إلى السامي والمكرم الأسقف والمفوض الحواري للمغرب".

وما أن تلقى المفوض الحواري هذه الرسالة حتى بدأ يخطط لتأسيس البعثة، فكتب إلى المندوب السامي الذي تحمس للفكرة، وتشاور مع الجندي النظامي الأعلى. وبعد موافقة مشتركة تم تعيين الأب لوينكو مبشرا، وفراي فيكتوريا توباربيرو - الذي كان في بعثة الحسيمة - مرافقا له.

وهكذا تقرر تأسيس البعثة في الشاون في النصف الثاني من شهر مايو. وعندما رجع أسقف كابييولي والمفوض الحواري للمغرب الأب بتانسوس من المؤتمر المريمي الذي انعقد في إشبيلية، منح للمبشر لوينكو قدرات أسقفية واسعة، وحمله مسؤولية تأسيس البعثة. كما تلقى هذا المبشر قدرات مماثلة من الأب النائب والجندي الأعلى الأب خوليان ألكورتا الذي عينه رئيسا للمنزل. فذهبا سويا إلى الشاون مع الأخ المرافق المشار إليه سابقا.

وفي يوم 27 مايو 1929 خرج المبشران من طنجة، وبعد المبيت في تطوان رافقهما الأب لويس أولياكا، ووصلا إلى الشاون يوم 28 في الحادية عشر صباحا، وقدموا أنفسهم إلى السلطات، ثم رجع الأب لويس في اليوم نفسه إلى مقره بتطوان.

وفي المساء سلمهم السيد كورونيل كاياس ملكية المنزل، وهيأوا كل ما كان ضروريا من أجل الافتتاح الرسمي للبعثة الذي تم بعد يومين. وجاءت من طنجة في اليوم نفسه شاحنة محملة بالأشياء التي يحتاجها المنزل، مثل بعض الصور والثياب، والأثاث الضروري.

وجاء السيد القائد مساعد الكورونيل كاياس بأمر من رئيسه ليسهل لنا كل ما نحتاجه. فزودنا بمذبح صغير ليحتفل القسيس العسكري بالقربان المقدس مع المدنيين المسيحيين في أيام الأعياد. وقد وضعنا فيه صور سان أنطونيو بصفته قديسا حاميا، وسان خوسي، والطفل يسوع.

واستدعيت السلطات وجمهور كبير حضروا جميعهم إلى منزل البعثة للاحتفال بالقداس الأول، ووجه النائب الأسقفي الكلمة إلى الجميع، فسلم عليهم أول الأمر باسم السيد الأسقف، وبين لهم أنه رغم تواضع هذه البعثة فإنها ستتحول إلى بعثة كبيرة بفضل الراعي الإلهي وسيد الجميع، مثل حجر الخردل الذي يتحدث عنه الإنجيل، والذي حوله إلى شجر وارف قادر على إيواء طيور السماء ودواب الأرض. وأعلن في الأخير باسم الأسقف عن تأسيس البعثة قانونيا في هذا اليوم الاحتفالي بجسد المسيح في 30 مايو 1929 ولقبت باسم سان أنطونيو دي بادووا.

وعند انتهاء القداس رفع محضر إلى المفوض هذا بيانه: "في مدينة الشاون وفي المحمية الإسبانية في مملكة المغرب، أنا المبشر الحواري المذكور أسفله، بإذن من سيادتكم، أنتم السيد فراي خوسي ماريا بتانسوس أسقف كابييولي والمفوض الحواري للمغرب، أسست وافتتحت قانونيا بعثة الشاون يوم 30 مايو 1929 باسم المجيد سان أنطونيو دي بادووا، وبعد مباركة المكان، احتفلنا بالقربان المقدس. ولكي يثبت هذا المحضر يوقعه معي السلطات التي حضرت الاحتفال. الشاون، عيد القربان المقدس لجسد المسيح في 30 مايو 1929، فراي أنطونيو لوينكو. ووقع إدواردو سايينزدي بورواكا، وخوسي كاستيو، وأنطونيو أوتشووا وأنطونيو كارسيا خاين ...".

وبما أن الكورونيل كاياس كان غائبا عن هذا الاحتفال فقد وجه له الأبوان لويس ألياكو

وأنطونيو لوينكو برقية، فأجاب على الأول بالرسالة التالية: "ألتمس منكم شاكرا قبول تهنئتي بتأسيس بعثة الشاون، ويمكن أن تعتمدوا على التسهيلات في كل شيء، متمنين نتائج كثيرة لصالح حضارة المغرب بواسطة الثقافة الدينية لهاته البعثة. سلامي واحترامي. العقيد كاياس".

وأجاب على الأب لوينكو برسالة نقتطف منها ما يلي: "يمكن أن تتأكدوا أنني سأفعل كل ما يمكن من أجل تأسيس هذه البعثة، وتسهيل الحياة والإقامة في الشاون.

وريثما أرجع فإني ألتمس منكم أن تطلبوا كل ما أردتم الحصول عليه من القائد كاليرا، أو القائد كارسيا، وتأكدوا أن طلبكم سيكون مسموعا.

وعندما أرجع سأقوم بتدبير كل ما يحتاجه المنزل، وسأخصص موردا ماليا للمصلى، وسأتكلم مع المبعوث السامي لكي ينظر في إمكانية الشروع في بناء مصلى متواضع وفي مكان أفضل من المنزل الحالي".

كما كتب الكورونيل كاياس إلى مساعده ليسلم لنا جنديا خادما، أعفوه من الخدمة العسكرية ووضعوه في خدمتنا.

وعندما رجع من إسبانيا قام مباشرة بزيارة البعثة، وأمر بإصلاح سطح البيت، والزجاج، وتركيب بعض الأبواب اللازمة لفصل المصلى عن باقي المرافق، وتباحث في هذا الأمر مع المبعوث السامي الذي وعد بالاهتمام ومساعدة هذه البعثة.

احتفل بالقداس الأول في ساحة المنزل لعدم وجود ظروف مناسبة في الغرفة التي خصصت للمصلى، وبما أن هذه الغرفة منفصلة عن المدخل فقد بقي القربان المقدس في بيت القربان المتنقل الذي أرسل إلينا من طنجة، إذ لم تتسع هذه الغرفة إلا للمذبح. ومن أجل الاحتفال بالقربان المقدس فتحت الباب التي تصل بين الغرفة وساحة المنزل، فتحول الجميع إلى مصلى.

وفي 18 يونيو 1929 أرسل السيد الأسقف السامي والمفوض الحواري رسالة إلى الأب لوينكو بما يلي: "يجب عليكم أن تعتنوا بالمسيحيين الذين يمكن أن يتواجدوا في سوق أربعاء بني حسان وباب تازة".

وفي تلك الأيام ذهب المبشر إلى باب تازة بهدف تعميد طفلين، ولد أحدهما في هذه

البلدة الناشئة، فقدموا له هدية كبيرة باعتباره المولود الأول. وفي هذه المناسبة استدعى القائد المراقب زامورة جميع الموظفين، وقام بجمع الصدقات من جميع الحاضرين، فاجتمعت أربعمائة بسيطة سلمت للمبشر لكي يفتتح في الشاون بطاقة التوفير لصالح أسينيون بونيبيا المسيحية الأولى التي ولدت في باب تازة. وعندما أرسل المبشر هذه البطاقة إلى القائد المراقب، أجابه بالرسالة التالية: "الأب المكرم تلقيت منكم بطاقة التوفير لصالح الطفلة أسينسيون بونيبيا، وقد سلمت إلى أبوي المستفيدة اللذان عبرا عن تشكراتهما، التي ألتمس منكم أن تقبلوها أنتم والسادة الذين شاركوا في هذه العملية. الصديق القائد زمورة".

وباب تازة بلدة ناشئة حديثا تتضمن كتلتين من البيوت، بحيث عندما وقع السلام لمحميتنا في هذا المكان يوم 10 أو 12 يوليوز 1927، كانت هناك فقط قبة صغيرة يجتمع عندها سنويا جميع القبائل القريبة ليحتفلوا بالمهرجانات الدينية الكبيرة، ولم يكن هناك أي مسكن. ويروي القبليون أن أحد القديسين المتجولين قال منذ سنوات إنه ستقوم في هذا المكان مع الزمن مدينة مسيحية كبيرة، ولهذا عندما وقعت إسبانيا السلام مع رؤساء وشرفاء الأخماس خضعوا متلفظين كثيرا بعبارة "هذا هو المكتوب".

وفي 4 يوليوز قام الأسقف بالزيارة الأولى للبعثة، وفي اليوم الموالي جاء من ميدان العقيد كاياس. وبعد الاتفاق مع المبشر على التفاصيل وساعة الخروج إلى باب تازة -حيث كان من المقرر أن يشرف هناك على سر تثبيت العماد - تباحث معه في قضية بناء الكنيسة ومنزل البعثة، إذ كان قد تكلم في هذا الموضوع مع السيد المبعوث السامي الذي وعده بمنح ثلاثين ألف بسيطة، ووعد الأسقف بالمساعدة بالمواد والمواشي ... ولكنه خرج بعد بعض الوقت إلى تطوان.

كتب المبشر رسائل كثيرة إلى الأسقف يبين له فيها الحاجة المستعجلة لبناء الكنيسة ومنزل البعثة، فتيسرت الأرض مجانا، ووعدنا بالمساعدة المادية، لكنه مر وقت طويل ضاعت معه الفرصة المناسبة، بحيث عندما تقرر البدء في أعمال البناء نشأت الجمهورية المشؤومة وضاع كل شيء.

وفي 27 يناير 1931 أخذ مهندس فومينتو السيد لاطوري النقط الرئيسة لوضع التصميم. وفي 28 مارس بدأ بناء فومينتو السيد سانطوني بإعادة بناء منزل البعثة، وانتهى

يوم 30، ثم بدأ بفتح الخنادق من أجل وضع الأسس وملئها.

ونتقل من تاريخ البعثة أنه في يوم 6 أبريل بدأوا بملء أسس المنزل وجزء من أسس الكنيسة المستقبلية. وفي وسط الأسس التي تتصل بجدران الكنيسة حيث يجب أن يكون المذبح الأكبر، وضع صندوق صغير من الألمنيوم يحتوي على وسام سان أنطونيو، ووسام كوراسون الذي باركه البابا بيو (11)، ووسام لابياتا ميكاييلا، ووسام لاميلاكروسا. وهذه الأوسمة الثلاثة الأخيرة أعطتها لي لويسا دي كارلوس من أجل وضعها مع حجر التأسيس الأول بختم سان خوسي ومباركة سان فرانسيسكو. ويتضمن هذا الصندوق أيضا مكتوبا يقول : "بسم الله آمين، بدأت أعمال هذه الكنيسة ومنزل البعثة المهداة لسان أنطونيو دي بادووا في يوم 31 مارس 1931، وكان البابا في هذا الوقت هو بيو الحادي عشر، والنائب الحواري للمغرب هو فراي خوسي بتانسوس، والنائب الأسقفي لهذه البعثة الأب هو أنطونيو لوينكو من إقليم سانتياكو دي كوميوستيلا".

وفي 15 أبريل عندما أعلن عن قيام الجمهورية كانت الأسس قد استوت، وانتابهم بعض التخوف على مستقبل هذا البناء، لكنه بعد شهر من ملئ الأسس زال هذا الارتياب. وفي 12 ماي عندما شرعوا في مدريد ومدن أخرى من إسبانيا في حرق الأديرة والكنائس، بدأت الأعمال في بناء كنيسة هذه البعثة رغم فزع بعضهم وتهديد البعض الآخر بفعل الشيء نفسه الذي تم في إسبانيا. وهكذا لم يتوقف البناء حتى النهاية، وتم الافتتاح يوم 31 غشت، أي بعد أربعة أشهر من الشروع في إقامة الجدران.

وعند البدء في بناء الجدران اتصلوا بالأب لوينكو يطلبون منه شراء الأرض التي منحت من قبل مجانا، فكتب إلى السيد الأسقف يخبره بذلك، إذ تحولت الأشياء وتبدل الرجال أيضا. ولم يتوقف المبشر إزاء هذا العائق، فاكتفى بما بنى، وقام بشراء الأرض باسم السيد الأسقف مؤديا سبعمائة وعشرة بسيطة على الأرض وعقد الملكية. وقد تم الشراء وتسليم المال أمام القاضي وعادلين، وكتبوا عقد البيع والشراء بالعربية، ولم يسلم إلى السيد المراقب إلا يوم 14 أكتوبر. وقام بتلخيص العقد وترجمته ترجمان المراقبة، وهو يقول ما يلي: "اشترى الإسباني السيد أنطونيو لوينكو باسم السيد الأسقف ضيعة تقع في التشريبة خارج البلدة، يبلغ عرضها 23 مترا وطولها 29 مترا تتحدد من الشمال مع بن عيعات، ومن الجنوب مع الحبوس، ومن الغرب مع النيار وبوينة. والبائعون هم: عائشة، وفطوم، وخدوج

بنات سلام بن الحاج حامد أسطوط، وهؤلاء باعوا بمكتوب موافق للقانون، وقيمة الضيعة مائة وأربعون دوروس (عملة إسبانية).

وفي 24 صفر 1350 الموافق لـ 4 يوليوز 1931 وقع العقد العادلان سيدي لحسن العمارتي، وسيدي محمد الحتري، وصدق عليه خليفة القاضي في غياب سيدي محمد بن محمد العلمي. وهي نسخة ملخصة ؟ترجمان العملة المحلية محمد بن جلول (موقع).

وقبل أن نتم هذا البيان عن شراء أرض المنزل، نشير حسبما قرأناه في تاريخ البعثة إلى أن القاضي والعادلين رفضوا استلام ثمن أتعابهم، لأنهم قالوا إن المبشرين جاءوا إلى أرضهم لفعل الخير للجميع. كما نثبت أيضا إلى أن محتسب المدينة سيدي بكر سهل لنا كثيرا حيازة الأرض، فهو أهل لتشكرنا الدائم.

وعندما اقتربت الأعمال من النهاية، وبقي فقط بعض التلميعات الخارجية تم الافتتاح يوم 31 غشت، وانتقلت البعثة في اليوم نفسه إلى البناء الجديد الذي يتألف من أربع غرف مخصصة للمصلى، والتي رغم صغرها فهي أكثر اتساعا من الغرف التي كانوا فيها.

وفي التاسعة صباحا جاء في سيارة المفوضية من تطوان السيد أسقف كابييولي والرسول الحواري لهاته البعثات، ورافقه الآباء لويس أوليكا، وأنطونيو فليكس، وسلفادور يونس، وألفونسو كارسيا، وكابريال خادم السيد الأسقف، وجاء في سيارة أخرى وفد عن موسيقيي كنيسة تطوان ترأستهم دونيا أنخلينا دي سولير من جمعية سيدات القربان المقدس.

وبعد ساعة من وصول السيد الأسقف والآباء المشار إليهم باركوا المصلى والمنزل وصورة السيدة مريم التي أهداها سادات كاستيو والمراقب المحلي، وأشرف نائب الأسقف على الاحتفال بالقربان المقدس. وعند الانتهاء شرع الأسقف في تعميد الطفل أنطولو كارسيا كراسيا مفتتحا بهذا العمل حوضا تعميديا جميلا وثمينا صنع من قبل منزل كونساليس لإشبيلية في معامله للخزف، وأهداه آباء مبتدئون سادات كارسيا خاين. ولما انتهى الاحتفال بالتعميد، أدير قربان سر تثبيت العماد لأطفال مختلفين وكان الحضور كثيرا ومتميزا.

وبعد أن تناول السيد الأسقف مع مرافقيه غداء متواضعا في فندق السياحة، اتجه إلى "علي ثلاث" لزيارة أعمال الكهربة المغربية، ومن هناك ذهب إلى تطوان.

وبعد أيام من الافتتاح الديني انتهت الأعمال المتبقية في المنزل، وبقي إتمام شراء عقار الكنيسة الذي كان أرضا للحبوس، وقد كانت الظروف المالية غير مناسبة بسبب نظام الجمهورية التعيسة الذي لم يخصص لنا ميزانية كافية لمصاريف المنزل، إذ كلف البناء وحده 36043 بسيطة و85 سنتيما.

وهكذا تم نقل المصلى إلى المكان المؤقت، ولم يقوموا إلا بأعمال الإصلاح مثل استبدال القرميد القديم بآخر جديد، ووضع جرس صغير فوق مدخل البعثة.

في سنة 1936 وبعد الأحداث المجيدة لـ 18 يوليوز بدأت السلطات تهتم بمصالح إسبانيا في هذه الأراضي، وبدأ التفكير في بناء الكنيسة، وقاموا بالخطوات الأولى لاستبدال أرض الحبوس بأخرى للمخزن. وبعد الحصول على نتائج إيجابية، تم تكليف السيد أنكولو بوضع التصاميم، وفي بداية يوليوز 1937 جاء فراي فليكس أورمازابال لإعادة تأسيس الكنيسة وفتح الأسس وملئها.

وفي يوم 10 شتنبر تكلف المقاول دون مانويل سابيتر روساليس بالأعمال، وفي يوم 14 من الشهر نفسه قام أسقف كابيبوليو والرسول الحواري للمغرب فراي خوسي ماريا بتانسوس بمباركة الحجر الأول، وساعده في ذلك الآباء فراي أنطونيو فليكس، وفراي بنيامين براساليس رئيس بعثة تطوان وفراي خوسي لوبيز كاتب المفوضية الحوارية، وفراي خوليان ترون رئيس وقسيس هذه البعثة، والأخ الخادم فراي دومينكو كالبو. وقد حضر الاحتفال المفوض الأعلى دون خوان بييكبدر ورافقه كاتبه الخاص السيد خيمنس مورو، والمراقب الإقليمي دون خوسي مارتوس وسلطات أخرى من الشاون. ولما انتهوا من وضع الحجر الأول تناولوا الغذاء في الفندق، ثم رجعوا جميعهم إلى تطوان، وبقي مسيحيو الشاون مبتهجين بهذه الكنيسة التي سيؤدون فيها عباداتهم الروحية.

ولم تسمح الظروف بسير الأعمال بالسرعة المأمولة، ففي بعض الأحيان كانت تنقص مواد البناء، وفي أحيان كانت تطرأ تغييرات على تصميم البناء الذي وضعه السيد مارتوس، ووجهه الرسام الهندسي الإقليمي السيد يونسي، إذ لم يكن هذا التصميم مناسبا للكنيسة، فالإفراط في النوافذ جعل منها مكانا لا يطاق في فصل الصيف وباردا في الشتاء، بالإضافة إلى قلة الأمان بسبب انخفاض هذه النوافذ، بحيث يمكن بسهولة مهاجمتها وسرقتها كما حدث بعد أشهر قليلة من افتتاحها.

لقد أعاقت ظروف الحرب التي كانت تمر بها إسبانيا عملية التموين بالأشياء الضرورية للبناء.وتأخر موعد العمل عن ما كان مقدرا، وكان افتتاح الكنيسة في 8 مارس 1940، أي بعدما يقرب من ثلاث سنوات من وضع الحجر الأول.

وفي يوم الافتتاح جاء السيد الأسقف ورافقه كاتبه الأب خوسي لوبير، والأب خوسي ماريا رودريكيز، وفراي كابربال روخو من طنجة. وجاء من تطوان فقط فراي تيودورو براندیکا للغناء والعزف طيلة القداس الذي احتفل به السيد الأسقف. وقد حضر هذا الاحتفال من الجانب المدني فخامة المفوض السامي دون كارلوس أسينسيو، ومندوب الشؤون البلدية، وموكب آخر تعود الحضور في مثل هذا الاحتفال. كما كان من بين الحضور السلطات المحلية وجمهور كثير. ولما انتهى الاحتفال رجع المفوض السامي مع معيته إلى تطوان.

لقد تحددت ميزانية أعمال الكنيسة في البداية في 85.990، لكنها ارتفعت إلى بعض الآلاف بسبب حصول تعديلات كثيرة مثل تحطيم جهة البرج التي لم تعجب المراقب الإقليمي. وعند الانتهاء من الأعمال كان قد صرف الجزء الأكبر من الميزانية (75.000). وفي نهاية 1940 وبداية 1941، قدمت المفوضية السامية مساعدة كبيرة، بحيث سلم للمقاول بقية ما يستلزمه وهو 19.487.70 حسب البيانات المسجلة في أرشيف مصلحة سياسة المراقبة الإقليمية. ونشكر كثيرا السيد روماكيرا رئيس هذه المصلحة.

وفي غشت 1941 بدأت الأعمال بقرب الكنيسة على نمط البناء الذي يحيط بساحة إسبانيا، ولكنها لم تتم لنقص المواد الملائمة وقلة المواصلات. وبما أن مصارف المياه في سقف القرميد لم تكن قد حفرت، فقد أمر الكاتب العام طوماس كارسيا فيكيراس المقاول في زيارة قام بها بتقدير ميزانية صغيرة، وبناء على ذلك منحت المفوضية العليا للبعثة مبلغ 1500 بسيطة، وباشر الرهبان عملهم في كنيسة سان أنطونيو.

قبل أن ننهي هذا العمل، لابد أن نشير هنا إلى عقود الرخص والتبادل مع الحبوس وشراء أرض الكنيسة.

في نشرة المنطقة رقم 27 لـ 30 شتنبر 1937 نشر الظهير التالي: "الحمد لله وحده، يعرف من مكتوبنا العالي المنصور من الله، أنه وصل إلى علمنا التماس رسمي من سيادة أسقف كاپيولي والنائب الحواري للمغرب بأن نتنازل له عن أرض المخزن التي تشغلها البعثة، والمسماة التشريبة الواقعة في مدينة الشاون، والتي تبلغ مساحتها 886 متر مربع

بهدف بناء كنيسة كاثوليكية فيها.

ونتنازل مجانا عن قطعة الأرض الملتمسة لصالح البعثة الفرنسيسكانية الكاثوليكية الإسبانية في المغرب. والذين يقرأون هذا المكتوب يعملون بمضمونه دون تجاوز حدود الاختصاص.

أعطي في تطوان، في 23 جمادى الثاني 1356 الموافق لـ 31 غشت 1937". ونظر هذا الظهير المرسل من قبل الخليفة في هذا التاريخ، والذي يتنازل مجانا عن أرض المخزن التي تستغلها البعثة الفرنسيسكانية الكاثوليكية الإسبانية.

وآتي إلى إعلان هذا الظهير وتنفيذه، أعطي في تطوان في 31 غشت 1937، المفوض السامي بيكبدير".

لكن التنازل المجاني الذي نص عليه هذا الظهير لم ينفذ، فقد ألحق بظهير آخر استدراكي (تقويمي) يقول ما يلي: "الحسن بن المهدي أعانه الله. لقد فحص الظهير المعلن في 23 جمادى الثانية 1356، الموافق لـ 31 غشت 1937، ولوحظ أن فيه خطأ في صياغته. فقد قيل أنه يتم التنازل مجانا على الأرض الخاصة بالمخزن إلى البعثة الكاثوليكية، والأصح هو أن يتم التنازل عن الثمن الأصلي الذي بلغته أرض التشريبة الموجودة في مدينة الشاون، والتي سعتها 887 متر مربع وهو 3544 بسيطة إسبانية. ونتيجة لذلك فقد أمر المدير العام لأملاك المصطفية المخزنية ليأمر بالتعليمات المناسبة لتستوفى الإجراءات الضرورية لهذا البيع. والذين يقرأون هذا المكتوب يعملون بمحتوى ما فيه، بدون تجاوز حدود الاختصاص. والسلام. في 18 شوال 1356 الموافق لـ 21 دجنبر 1937. وتقارن النسخة الحالية مع النسخة الأصلية، من قبل العابد والعالم الفقيه قاضي مدينة الشاون، والنتيجة غير قابلة للتغيير، ويوقع شهادة صدق المقارنة لهذه النسخة مع الأصلية سيمحمد الحسني العلمي من أجل الحصول على نتائج قانونية، وتقام شهادة موثقة على شهادته، في 24 صفر الخير 1357 الموافق 27 أبريل 1938، صدقه ووثقه عبدي الله الحسن بن الحاج محمد العمرتي، ومحمد بن محمد أسبان أعانهما الله. وقعاه وأقراه شرعيا". "الحمد لله هيأت هذا التاريخ سالفا، ووقعه وصادق عليه عبد ربه محمد بن محمد الحسني العلمي أعانه الله. هناك توقيع يقول: محكمة العدالة لإقليم الشاون - الشاون في 28 نوفمبر 1938، السنة الثالثة الانتصارية، بترجمة الترجمان أنطونيو رويدا - موقع - هذه نسخة للترجمة الرسمية رقم 1743 ...".

وبما أن قطعة الأرض التي بنيت فيها الكنيسة كان يملكها الحبوس، فإننا نورد هنا العقود التي تؤكد التبادل بأرض المخزن، تقول النسخة الرسمية للترجمة رقم 1741 "الحمد لله. الذي هيأ توقيعه بعد التأريخ يشهد أن الأرض التي مساحتها 886 مترا مربعا، الواقعة في التشريبة في الجهة الخارجية لباب العين من مدينة الشاون، والمجاورة لبناية البعثة الكاثوليكية تنتمي إلى الأملاك الخليفية. وقد تم تبادل هذه الأرض مع حبوس الشاون بقطعة أخرى منذ سنة. وكل ما تم تبيانه يملك مرجعية، ولكي نثبته نصدق عليه ونقيم محضرا من شهادته. وعلم من الجهة المختصة في 24 من صفر الخير 1357 - التصديق الموثق - عبدي ربهما الحسن بن الحاج محمد العمارتي ومحمد بن محمد أسبان أعانهما الله -توقيعهما - هيأه سابقا ووقعه وصدق عليه عبد ربه محمد بن محمد الحسن العلمي، أعانه الله - و وقع -.

هناك ختم يقول : "محكمة العدالة لإقليم الشاون - الشاون 28 نوفمبر 1938 السنة الثالثة الانتصارية - عن ترجمة الترجمان أنطونيو رويدا - موقع -.

عقود شراء أرض المخزن هي كما يلي : " الترجمة رقم 1742 - الحمد لله - الأب دون خوليان تيرون رودريكز، إسباني ومقيم في الشاون اشترى باسم أسقف البعثة الكاثوليكية دون خوسي بتانسوس من البائع الحالي أمين مصطفى من الشاون، وسيمحمد ابن أحمد الجشين المقيم في الشاون والممثل للأملاك الخليفية حسب إذن البيع الذي يملكه، واستنادا إلى الظهير الشريف. فالنسخة تتضمن مساحة القطعة الأرضية التي يبلغ امتداد سطحها إلى 886 متر مربع، والواقعة في الجهة الخارجية لباب العين من مدينة الشاون. وقد سجل في العقد المقيد سابقا بكل إيجابياته ومنافعه وقوانينه شراء ثابت نقدا بدون شروط ولا إبطال للبيع ولا اختيار لشيء آخر غير الذي قيد بثمن 3544 بسيطة إسبانية. وقد قبض البائع المذكور من المشتري المذكور المجموع الكامل والقاطع برؤية المذكورين أسفله، وبقي بالتالي عفو المشتري لهذا الدفع باعتباره ممثلا للموكل. وهكذا بقي معترفا أنه مالك لما اشتراه بملكية قانونية وثابتة، وغدا في ملكه الخاص، ويوافق مالك الملك الأكيد القانون التقليدي. وقد تم البيع بعد النظر والرضى والمعرفة بمداه كما استلزم، وصودق على هذا البيع بعد الحصول على الإذن القضائي الشريف للباشا الشريف سيليزيد بن صالح الغماري. وقد نال الطرفان المستفيدان شهادة موثقة تخص كم بقي مقيدا

ومعروضا عليهما، ويوجدان في حالة تامة وقانونية، ويعرفان بالشكل الذي يقدره القانون في 28 رجب 1357 الموافق لـ 23 شتنبر 1938 - تصديق موثق - عبدي ربهما الحسن بن الحاج محمد العمرتي، ومحمد بن محمد أسيبان أعانهما الله - الحمد لله - هيأ سابقا، وقعه وصادق عليه في هذا التاريخ عبد ربه محمد بن محمد الحسني العلمي أعانه الله - توقيعه -. وهناك ختم يقول : محكمة العدل لإقليم الشاون - الشاون 28 نوفمبر - 1938 السنة الانتصارية الثالثة - بترجمة الترجمان أنطونيو رويدا ؟توقيعه؟.

الترجمات المشار إليها بأرقام 1741 - 1742 - 1743 مرخص بها، فهي مصورة ومرتبة وموقعة من قبل رئيس السياسة أنطونيو روماكيرا، وسلمت إلى رئيس البعثة مرفوقة بالإرسالية التالية رقم 174 : " أتشرف بأن أرسل إليكم نسخة من الترجمة رقم 1741 لعقد شراء أرض المخزن واستبدالها مع الحبوس، الذي أصبح حاليا في ملكية البعثة. حفظ الله إسبانيا، وحفظكم لأعوام عديدة - الشاون 10 يناير 1940، المراقب الإقليمي خوسي مارتوس، توقيعه. المكرم الأب خوليان ترون، رئيس البعثة الكاثوليكية. الشاون.

وفي نهاية هذه البيانات نورد أسماء الرؤساء والأساقفة الذين ترأسوا منزل بعثة الشاون : الأب أنطونيو لوينكو بيريز 1929 إلى 1932

الأب خوسي لرتشوندي 1932 من أبريل إلى غشت

الأب كريكوريو رويس من غشت 1932 إلى مايو 1933

الأب خوليان تيرون رودريكز 1933 إلى 1940

الأب أنطونيو لوينكو بيريز من 24 شتنبر 1940

الشاون دجنبر 1942.

تأسيس بعثة الناظور[221]

عندما عينا رسميا في سنة 1928 مؤرخا للبعثة حسب قرار قوانين البعثة، كتبنا في مذكرات البعثة التاريخية ما يلي: تقع بلدة الناظور على بعد خمسة عشر كلم من مليلية في شاطئ "مار تشيكا". وتوجد تحديدا في بداية السهل الذي يحيط بجبال كبدانة وبني بولفرور ومازوزة، ويمتد في بدايته خليج صغير مكون من جبلين صغيرين مسننين يشكلان ثديي الناظور ويتجهان إلى البحر، إذ يوجد في أحدهما المحطة الفرنسية للقطار، ويوجد في الآخر معامل الطحين التي هدمت عند الاحتفال بالانسحاب سنة 1921، ومقبرة السكان الأصليين التي أعاقت توسع المدينة، وهو ما أدى إلى نقل المدينة إلى الجانب الآخر من المقبرة، حيث أضحت اليوم قريبة من المحطة السككية والمعدنية لشركة معادن الريف والدولة ... والتي تمتد حتى سلوان وجبل العروي. وهذه المدينة أسسها الإسبان، وهي مفصولة عن الأصلية بطريق مليلية زايو، وتتميز بشوارع واسعة ومستقيمة يبلغ طولها عشرين مترا وعرضها عشرة أمتار في العرض، ويجتازها في الاتجاهين شارعان من 40 مترا. وتتألف المنازل حتى الآن من طبقة واحدة، و تحيط بها أشجار التفاح، وحدائق واسعة، وبلاطات مائية. وقد غرست عبر الشوارع كثير من الشجيرات، حتى غدت الناظور وكأنها حديقة، وتتميز بكل مقتضيات النظافة العصرية، ورغم أن الرياح إعصارية هنا فإن هذه الأشجار الكثيفة والمتقاربة تحد من قوتها.

---

(221) النص للمؤرخ لوينكو بيريز ورد في مجلة "Mouritania" في جزءين، الجزء الأول في ع 213 - 1 غشت - س 1945 - ص 230 و231، والجزء الثاني في ع 214 – 1 شتنبر – س 1945 ص 262 و 263.

بعد الاحتلال الإسباني لهذه المدينة في نهاية 1909 وبداية سنة 1910 أقبل عليها كثير من التجار ليستقروا بها، فجاء في البداية اليهود الذين اشتغلوا بتجارة المواد الاستهلاكية كالنسيج والسكر والشاي والحبوب والشمع، فحولوا المدينة إلى مركـز تجاري لكل قبائل الوسط، حيث رأينا مجيء قوافل التغذية والجمال في كثير من الأحيان إلى الناظور. وبسبب وجود قوافلنا العسكرية في هذه المدينة، فقد استقر بها كثير من الفلاحين جاءوا من الجزائر وإسبانيا، حيث لم يجدوا الأمان والحماية هناك لممارسة الفلاحة بسبب الحرب الأوربية. ويبلغ عدد الجالية الأوربية ألفي فرد، ورغم أن هؤلاء لا يفتقدون إلى مساعدين دينيين بسبب وجود الأساقفة العسكريين، فإن نشاطهم الديني لم يكن ثابتا، إذ يؤدون ما يسمح لهم به تنقلهم المستمر، وهكذا قرر المفوض الحواري استجابة إلى دعوات القساوسة وحاجة الرعايا المسيحيين إلى مبشر ليعاين أولا إذا ما كان مناسبا إرسال ممثل للبعثة، وليؤكد حضوره في هذه المدينة التي لم يقم بزيارتها أي مبشر، ولم يمارس فيها أي نشاط أسقفي رغم انتمائها إلى حدود المفوضية الحوارية.

وقبل إرسال المبشر الأب سيرفيرا إلى مليلية لمعاينة مساعي تأسيس البعثة في هذه المنطقة التابعة لمفوضيته، اقترح أن تتأسس البعثة في مليلية لتكون مركزا مساعدا لكل المدن الريفية عندما يكون ذلك ضروريا، مع ضرورة الحماية العسكرية له. لكن لماذا لم تتأسس هذه البعثة في مليلية؟ ونحن نريد هنا فقط إثارة هذه القضية لكي لا تبقى في منطقة المنسي، وبعد ذلك يمكن أن نكشف عن أسباب سكون هذه البعثة وموجهيها.

وعندما احتلت قبائل مزوزة وبني لفرور وكبدانة، دخل إليها الآباء الكبوشيون من أجل تمسيح هذه الأراضي بحجة حقوق البعثة، وبدأوا بالتطلع إلى الاستقرار في مليلية ثم التنقل من هناك إلى المدن المختلفة. وهكذا اتصلوا بأسقف مالقة وبالحكومة، وحصلوا على كثير من التوصيات ضمنوها توصيات نونسيو بيو الخامس في إسبانيا. وقد أخبر أحدهم المفوض الحواري بالمسعى الذي يتطلع إليه الكبوشيون، وهو مسعى من الطبيعي أن يؤذي البعثة مع مرور الزمن. فقام بمبادرة مشتركة مع أسقف مالقة لتأسيس البعثة في مليلية من أجل الهدف الذي أشرنا إليه، رغم أن هذا الأسقف سهل في البداية مسعى الكبوشيين. وهكذا ذهب الأب سيرفيرا لاحقا إلى مدريد برسائل خاصة إلى الأشخاص الذين يمكنهم تسهيل مطلبه، فاتصل بعد موافقة رسمية مع كاتب جلالة الملك، والقائد العام لمليلية، والجنرال الرئيس للقيادة الحربية العامة لمليلية، والوصيفة الكبرى لجلالة الملكة دونيا ماريا كريستيانا، وقد قرأنا كل الإجابات على الرسائل المحترمة. وفي الوقت نفسه كتب الأب إلى المفوض العام للفرنسيسكان في إسبانيا الأب بكزورتوندووا لكي

يساهم شخصيا بمساعدته مع الحكومة والشخصيات الملكية، ولكي يقدم خدمة إلى البعثة والمذهب، فاتفق كلا الأبوان على العمل في الاتجاه نفسه، وعندما وجد الحل المناسب طرأ حادث تمثل في تكليف المفوض العام الأب أكيو ليلتمس من أسقف مالقة الترخيص له بتأسيس البعثة في مليلية. ولعل الأسباب التي دفعت المفوض العام ليقوم بذلك ترجع إلى انتماء مليلية إلى مالقة، ولذلك واجه الرؤساء كثيرا من الصعوبات، إذ كان يجب عليهم أن يستشيروا مع أسقف مالقة الذي أعطى للمفوض الحواري الإذن لتأسيس منزل في مليلية، وأقل ما كان يمكن أن يكون هو أن يبين المفوض العام هذه الصعوبات للأب سيرفيرا، وأن يسلكا اتفاقا مشتركا كما كان مقررا، وأن لا يعهد إلى الأب أكيو بالمساعي التي حققها الأب سيرفيرا، وقد استغرب هذا الأخير كثيرا عندما علم من الأب أكيو نفسه وكاتب الأسقف بالقرار الجديد وبهذا التغيير في السلوك والأهداف. وكل هذه الأسباب دفعت الأب سيرفيرا إلى الكتابة إلى النائب العام الأب بكزورتوندووا لكي يخبره بإيقاف مساعيه وحرمانه من تسلم رئاسة البعثة التي سعى إلى تحقيقها. وعلى هذا النحو توقف تأسيس البعثة، واغتنم الكيوشيون الفرصة، واستقروا في مليلية بمساعدة أب تابع لهم بصفة مساعد القسيس بدون أن يحصلوا على موافقة من الحكومة. فمن هو المسؤول إذن عن ما حصل؟. من الممكن وجود الإجابة التي تحاشينا ذكرها في مسودات الرسائل التي أجاب بها كاتبها على رسائل الأب سيرفيرا، لأنه لا يمكن إصلاح الخطإ الذي اقترف.

وبعد اتفاق الأب النائب العام والأب أكيو، تم إرسال الأب جون روسيندي كاساس في سنة 1914 إلى مليلية، بهدف الحصول على أراضي في هذه المدينة ومدن أخرى في هذه المنطقة. فخرج من طنجة وذهب إلى مالقة، وبعد التقابل مع السيد الأسقف هناك توجه إلى مليلية، حيث ظل هناك حتى بداية ماي، ثم رجع إلى طنجة يحمل معه رخصة الأراضي في مليلية، وكشف الدفع بمبلغ 25 سنتيم للمتر المربع لقطعة أرضية تبلغ مساحتها 2480 متر مربع، وقطع أرضية أخرى في الناظور وسلوان وراس الماء بتنازلات مجانية تكرم بها القائد العام فرانسسكو كوميت خوردانا الذي وعد بإرسال تصميم بناء أرض سكانكان إلى طنجة.

ومن ثم خرج الأب روسيندي من مليلية يوم 6 مايو 1914، بهدف مقابلة الأب سيرفيرا في طنجة الذي كان يهيئ للسفر إلى إسبانيا.

ونأخذ في هذا السياق من المجلة المدرسية المنشورة من قبل مدارس ألفونسو 13 عدد "تأسيس منزل ريبرا في طنجة" ما يلي: "من أجل افتتاح بعثة كاثوليكية إسبانية جديدة في الناظور (مليلية) والاعتناء هناك باحتياجات المسيحيين في الأراضي المجاورة كسلوان ورأس الماء وسيكانكان وخوان دي لاس ميناس ... خرج في العاشر من الشهر الحالي الأب

المبشر خوان روسيندي، وفي الأيام الأولى من أكتوبر 1915 نشر تلغراف الريف البيان التالي: (تشرفنا بزيارة الفاضل والعابد الأب الفرنسيسكاني خوان روسيندي كاساس، كاتب أسقف فسييا الذي دفع البعثة إلى تأسيس منزل في مدينة الناضور. ومنذ وقت طويل سعى جيران هذه المدينة إلى تأسيس الكنيسة ...)".

والحق أنه حسب الرسالة التي أرسلها الأب روسيندي إلى أسقف فيسيا، فإن الأب خرج من طنجة في النصف الأول من شتنبر 1915 من أجل هدف مقدس، حيث حمل معه حقيبة بكل ما هو أساسي للاحتفال بالقداس وإدارة المقدسات الأخرى، ووصل إلى مليلية في 24 من الشهر نفسه، وبقي هناك حتى تهيأ له كل ما هو ضروري لاستقراره في الناضور، وفي يوم 31 أكتوبر افتتحت البعثة واحتفل بالقداس، وألقيت العظة إلى الجمهور والسلطات الحاضرة، ولقبت البعثة باسم سانتياكو الحواري قديس إسبانيا.

لقد حصلت بعثة الناظور على رعاية خاصة خلال تأسيسها، ومساهمة المحسنين والورعين بالمساعدات، حيث وفق الأب خوان إلى استئجار مكان واسع عبارة عن فندق في ساحة البيلار، وهو مكان مركزي في الناظور تبلغ مساحته 19 x 1/2 متر، ومناسب لتأسيس مصلى مؤقت حتى تبنى الكنيسة في الأراضي المفتوحة من قبل المخزن.

كما استأجر أيضا موضع صغير للسكنى أقام فيه ثلاثة مبشرين ويسر لهم راحة نسبية، ولم يستغرق تجهيز هذا السكن وقتا طويلا بفضل المساعدة الطيبة للمليليين وخاصة دون كارلوس دي إيزاكيري، والجنرال أيزيورو، وروبيرتو كانو، وشخصيات عسكرية أخرى. إذ كان يجب تجهيز المنزل بكل ما هو ضروري ليطلبوا من الأسقف إرسال مرافق آخر لهم، وهكذا حصلوا على سريرين مع أغطيتهما، ومجموعة من الكراسي، ومنضدتين، ومائدة للطعام مع خزانة الأطباق والكؤوس، وخزانة الكتب بأبواب زجاجية، ومائدة المطبخ مع لوازم المطبخ والأواني الضرورية.

ولما تم تهييئ المنزل أرسل السيد الأسقف الأب أنطونيو لوينكو الذي جاء إلى الناظور في يوم 19 فبراير 1916 لمساعدة الأب خوان على ممارسة النشاط التبشيري في هذا الميدان الواسع، حيث لم يتحدد هذا النشاط في مدينة الناظور فقط، بل مورس حسب الحاجيات المتطلبة في زلوان، وجبل العروي، وسكانكان وتجمعات مسيحية أخرى توجد في مختلف معسكرات هذه الناحية.

وبالتماس وتوجيه رؤساء شركة معادن الريف، بدأت البعثة تحتفل بالقداس في جميع الآحاد وأيام الأعياد لعمال المناجم في جبل ويشان. وقد أمر المهندس المدير كيارمو

بتهييئ مصلى هناك، وتحديدا في مدرسة، حيث بنى مذبح صغير مصور، وكرسي للاعتراف، فكان يحتفل في كل يوم ب 10 إلى 12 اعتراف وعشاء رباني. وبدأ الاحتفال بالقداس يوم 5 نوفمبر 1916، بحضور الأب روسيندي والسلطات الرئيسة للشركة ولمنجم مليلية مع عائلاتهم. وقد فرح المسيحيون القاطنون في هذه المرتفعات كثيرا بافتتاح هذه المصلحة الدينية، حيث يحضر معهم المعلم الإلهي ليواسيهم ويخفف عنهم العمل الشاق.

وقد تنامت نشاطات هذه البعثة من يوم إلى آخر، واستدعت الحاجة أن يرسل الأب خوان إلى النائب الحواري رسائل مختلفة يلتمس فيها إرسال مبشرين آخرين إلى هذه الأراضي بهدف الاستقرار في مختلف التجمعات المسيحية التي وعدت بمساعدة البعثة ماليا وتغطية كل مصاريف المبشرين.

وهكذا أرسل الأب سيرفيرا الأب ألفونسو راي الذي وصل إلى الناظور يوم 3 مايو 1917، لكن البعثة لم تؤسس في مناطق أخرى مباشرة بعد وصوله. فلعل بعض الصعوبات يمكن أن تكون قد اعترضته، لكننا لم نتمكن من معرفتها.

في يونيو 1917 ذهب الأب خوان روسيندي إلى إسبانيا بعد الترخيص له، وعوضه الأب لوينكو رئيسا وقسيسا مؤقتا، فناداه إلى مليلية بعد أقل من شهر من تسلمه هذه المسؤولية عقيد المراقبة العسكرية ماريانو بناك (وهو مسيحي كاثوليكي) ليأمره بالاحتفال بالقداس في زلوان في كل أيام الأعياد، وسهل كل ما هو ضروري من أجل التنفيذ، بما في ذلك وسيلة النقل التي بدونها كان مستحيلا الاستجابة إلى هذا الطلب، إذ لم يبق في بعثة الناظور إلا مبشرين، وكان يجب عليهما إنجاز كل الالتزامات المتفق عليها مع شركة معادن الريف، والخاصة بالمنزل. واحتفل بالقداس في مدرسة في هذا المكان برضى جميع المسيحيين القاطنين هناك. ولما رجع الأب خوان من إسبانيا ارتأى عدم الاستمرار في الاحتفال بهذا القداس بحجة النقص في المبشرين، ولقد أنجز هذا الالتزام في غيابه عندما كان هناك مبشران فقط، ولا يمكن أن نفهم هذا النقص منطقيا مع أنهم أصبحوا بعد مجيئه ثلاثة.

وفي غشت 1917 نودي رئيس الناضور تلغرافيا لحضور اجتماع في سلوان، وذلك للاحتفال بعيد انتقال العذراء وإعلانها قديسة لهذه البلدة، وهي فكرة باركها النائب الحواري الأب سيرفيرا. وقد حصلوا على صورة ثمينة للعذراء القديسة في معجزتها، وهي صورة ظل أهل سلوان يقدسونها، حتى فقدانها سنة 1921 حيث فقدت مع هذه البلدة كل الرموز الدينية.

ولما التمس الأب خوان روسيندي اتحاد هذه المنطقة بإقليم سانتياكو، جاء إلى الناظور في 13 مارس 1919 الأبوان أفلينو موينيوس وخوسي سلفاري، والأخ فراي

خوسي بلانكو ليتحملوا أعباء هذه البعثة التي تسلم منصب الأسقفية والرئاسة فيها الأب أفلينو موينيوس.

وفي يوليوز 1921 قرر النائب الحواري الأب سيرفيرا افتتاح ومباركة الكنيسة الجديدة ومنزل البعثة التي بدأت الأعمال فيها سنة 1917 ولم تكتمل نهائيا، ولكنها كانت صالحة لكي يقيم فيها المبشرون، ويحتفل فيها بالعبادات. وفي اليوم الذي قرر فيه الاحتفال وهو 25 من يوليوز عيد الحواري سانتياكو الذي أطلق اسمه على هذه الكنيسة، حدثت كارثة أنوال التي سقط فيها كثيرا من الضحايا، وانتهت بفقدان كل هذه المنطقة التي سقيت بكثير من الدم الإسباني. ولم يدم لحسن الحظ هذا النصر كثيرا للمتمردين، بحيث أعادت السلطة العسكرية تنظيم قواتها، وبدأت الاحتلال من جديد في شتنبر من السنة نفسها، وسقطت الناظور في أيدي القوات الوطنية. ومن ثم أصلحت الأضرار التي ألحقها المسلمون بالكنيسة الجديدة ومنزل البعثة، وأمكن في النهاية فتحها يوم 21 دجنبر سنة 1921، وجهزت بالصور والملابس المقدسة، وباقي الأشياء الضرورية بفضل شفقة جلالة الملكة دونيا فيكتوريا والإسبانيين الكاثوليك الذين أرادوا إصلاح الأضرار المهينة التي لحقت بالصور وكل متعلقات العبادة الإلهية التي هيأت من أجل الافتتاح في يوليوز. وقد كان الوسيط بين هؤلاء المتبرعين وأسقف هذه البعثة رئيس القيادة العامة لمليلية الجنرال كافالكانتي الذي كان على اتصال بالأب ألفونسو راي المكلف من قبل رئيس هذه البعثة. وقام بالاتصال المباشر مع جميع الواهبين الأب أفلينو، فتلقى منهم كل الأشياء والوسائل المتعلقة بالعبادة، والتي كانت كثيرة حتى جاوزت ما كان مطلوبا.

في الاحتفال الرسمي للافتتاح قرأ السيد أسقف فيسيا الأب سيرفيرا ما يلي: "فعل التقديس" "سيدي المقدس ملك الملوك وسيد المهيمنين، ينحى أمام عرشكم الفاضل والرحيم أبناؤكم، وهم يأملون تجديد التقديس في هذه الأرض الإفريقية مثل ما يقام لكم في مذبح ونصب إسبانيا أيها الملك الكاثوليكي والمحبوب.

ونأتي اليوم لكي نكرس في أرضكم هذه وإليكم هذا المثال الشامخ للدولة الإسبانية، آملين إتمام تقاليد العقيدة والإيمان التي اتبعها كبراؤنا، مثل هؤلاء المحاربين الشجعان الذين غزوا بالصليب، وتفاخروا في أعمالهم وأعلامهم بصورة مريم. آه يا سيدي، يا إله الجند، نعترف أنكم الطريق التي تؤدي إلى الحياة الأبدية، والضوء الذي ينير العقول، والأساس والحصن لكل الفضائل، ومن خلال عرشكم هذا سترون اليوم أبناءكم مجتمعين في هذه الكنيسة المتواضعة في الناظور يهدون إليكم فيها مذبحا، حيث ستعبد ويلمع ضوء الحقيقة والدين في هذه الأرض المغزوة بالدم.

باركهم يا سيدي لكي يرجعوا منتصرين إلى منازلهم، وبارك عائلاتهم التي أهدت هذه الكائنات العزيزة عليها من أجل الوطن، وهي تستحق الجزاء الطيب والاحترام لأنها وهبت حياتها من أجله لذلك نطلب منكم أن تقربوهم من قلبكم.

وفي الأخير باركنا جميعا، لكي تحقق المملكة بهذه المباركة ما وعدتنا به من السلام والعدل، ولكي تنتصر جيوشنا، ولتكن سيدي شفقات قلبك الإلهي على وطننا المحبوب".

لقد أشرنا سابقا أنه في شهر يوليوز 1917 أمر مهندس البعثة الأخ فراي فرانسسكو سيرا ببداية الأعمال في منزل البعثة وكنيسة الناظور من أجل إعادة البناء ثانية وفتح الخنادق للأسس. وقد تنازل المخزن مجانا عن المساحة الذي تحيط بالأرض كلها. وعندما اجتمعت المواد الأولية، وتحققت الأعمال الأولى، ذهب إلى إسبانيا من أجل الحصول على ترخيص البناء، والاتفاق على المواد التي ستستعمل في الأعمال اللاحقة حسب ما تسمح به الظروف المالية "لمؤسسة العمل الخيري"، وذلك بتخصيص الميزانية السنوية لأعمال البعثة. وبسبب هذه الظروف تأخر البناء أكثر مما كان متوقعا، واستمرت الأعمال أربع سنوات.

تشكل الكنيسة ومنزل البعثة مجموعا متناسقا. ففي وسط الكنيسة بنوا شكلا متوازيا للأضلاع من 35.50 متر في الطول، و 9.50 من الجانب. ويتقدم هذا المجموع برجان جميلان يشكلان الرواق الذي يشمل الواجهة الجميلة، ويبدأ المنزل ببعض الأمتار عن البرجين، ويحيط بمتوازي الأضلاع نبات يتدلى من جوانبه الثلاثة، وشقة أرضية في الجانب المقابل للبرجين وعندما أصبح الأب خوسي سلفاري رئيسا للبعثة بعد بعض السنوات أضيف عليها طابق في الجهة التي تطل على "بحر تشيكا".

وعند استرداد الناظور أصابت قذيفة من مراكبنا الحربية سقف القرميد، فأصلح في مناسبات متعددة حتى تقرر إسقاطه كليا، وإصلاح بهو المعبد أيضا.

ظل الأب ألفونسو رئيسا وأسقفا للمنزل حتى ارتأى السامون ضرورة فتح بعثة جبل ويشان التي أغلقت منذ الأحداث المشؤومة لـ 1921، فأرسل إلى هذا المكان لممارسة الأعمال الحوارية في هذه البعثة التي أسسها بنفسه سابقا.

وعوض الأب ألفونسو النائب الأسقفي لوادي مارتيل الأب خوسي سيلفاري الذي انضم إلى البعثة في 18 أكتوبر 1924. وكان الاهتمام الأول لهذا الأسقف الجديد هو الاهتمام بالمصلحة الروحية لجميع التجمعات المسيحية التي تدخل ضمن مسؤوليته.

وفي عيد البعث الجديد سنة 1925 بدأ الاحتفال بالقداس في سلوان، واستمر هذا

الاحتفال في جميع الأعياد. وفي سنة 1925 نفسها بدأ الاحتفال بالقداس في اليوم التاسع من كل شهر في جبل العروي، وقد تم الانفاق على هذا القداس من المبالغ الزائدة عن الكمية المحصلة لبناء النصب التذكاري لضحايا جبل العروي في 1921، بحيث أودعت هذه المبالغ في بنك إسبانيا ومليلية باسم "هبة". وكان رئيس البعثة في الناظور يسحب منها قدرا كل ثلاثة أشهر لتغطية مصاريف القداس الذي يحتفل به في اليوم التاسع من كل شهر، من أجل الضحايا الذين ضحوا بأنفسهم في جبل العروي ويرقدون فيه.

سنطيل كثيرا هذا البيان إذا حاولنا تسجيل كل خطوات العمل الإنجيلي لهذه البعثة. وبما أنه يتحتم علينا في سياق هذا العمل المشكور أن نهتم بوصف المصليات التي بنيت في المدن المختلفة لهذه المنطقة، فإننا سنتوقف عند هذا الحد لكي نتحدث عن البعثات الأخرى بالتوسع الذي تستحقه.

ونضيف هنا بيانا أخيرا مكملا بذكر الرؤساء والأساقفة الذين تولوا رئاسة هذه البعثة:

الرؤســـاء و الأساقفـة :

الأب خوان روسيندي كاساس	1915 - 1919
الأب أفلينو موينيوس ميان	1919 - 1921
الأب ألفونسو راي فاسكيز	1921 - 1923
الأب خوسي سلفاري لويز	1924 - 1941
الأب إيوليتو ينايرو كوسطا	1941 - ويتابع

المؤقتـون:

الأب أنطونيو لوينكو بيريز	من يونيو 1917 إلى يناير 1918
الأب أنطونيو فيلكس	من يوليوز إلى شتنبر 1926
الأب بيدرو لويس لوبيز	من غشت إلى نوفمبر 1931
الأب إبيو ليتوبينيرو كوستا	من يونيو إلى أكتوبر 1936

الشاون، يونيو 1945

خاتمة :

لم يكن الغرض من ذلك العرض التاريخي للوجود الكنسي بالمغرب هو التعبير عن موقف إيديولوجي أو عقائدي من الكنيسة، بل كانت الغاية المثلى منه هي إشراك الآخر سواء كان مسيحيا أو مسلما في صياغة وجهة نظر موضوعية عن حيثيات الحضور الكنسي بالمغرب. ولعل الأبعاد المختلفة لهذا التواجد الكنسي هي موضوع التساؤل منذ بداية هذا البحث، أي ما هو الدور الذي قامت به الكنيسة وما زالت تقوم به في المغرب.

لقد التزمت الكنيسة في جميع المراحل التاريخية بالنهج الذي رسم لها من حيث إنه كان مفضيا إلى تحقيق المصلحة على مستوى الإنجاز العلمي وتوجيه أهداف الكنيسة الرومانية والحفاظ عليها. ويمكن أن نتبين ذلك من خلال مجموعة المهام التي انتدب الراهب المبشر لتحقيقها على المستوى العقائدي والسياسي والاجتماعي والثقافي.

ونستطيع هنا أن ندخل إلى الجانب العقائدي من خلال ما تثيره النصوص التي قمنا بترجمتها من قضايا تبين طبيعة العبادة المسيحية وحيثياتها، ووجهة نظر المسيحي تجاه الإسلام، وإصراره على تأكيد استمرارية الديانة المسيحية وقيمها الروحية والحضارية. وتأسيسا على ذلك فإنه يمكن القول أن دور البعثات التبشيرية لم يكن محايدا ولا دلالة له من الناحية الدينية، وهذه القناعة تمليها التجربة التاريخية التي مرت بها الكنيسة، إذ تم استغلال الدعوة التبشيرية وفقا للخيارات التي أتيحت للمبشر بحسب اختلاف الظروف التاريخية والاجتماعية.

ورغم مختلف المحاولات التنصيرية التي مارستها الكنيسة إلا أنها في الغالب لم تواجه المغاربة مباشرة وصراحة في عقيدتهم لأنها أدركت أن المواجهة المباشرة تستفز الآخر المسلم للمقاومة وتدفعه أكثر إلى التمسك بدينه، ولذلك ظلت الكنيسة حريصة على إثبات تواجدها لتمنح لنفسها مشروعية البقاء والاستمرارية، فاتجهت إلى تغليف الأغراض التبشيرية بمضمون إنساني واجتماعي، بينما تراوح موقف السلطة الحاكمة على مدار التاريخ بين السلبي والإيجابي. وقد غلب الموقف الداعي إلى التعامل الإيجابي مع الكنيسة منذ عهد المولى إسماعيل، وأصبح الاتجاه العام يسير منذ حكم هذا الملك هذه الوجهة نفسها، ويظهر ذلك في العدد الكبير من ظهائر الأمان التي أثبتت مشروعية التواجد الكنسي واستمراره على أرض المغرب.

ولم تفقد هذه المشروعية مبرراتها حتى حدود عصرنا الحالي حيث شكل تاريخ الكنيسة في المغرب مسارا متصلا تداخلت فيه الإنجازات السابقة مع اللاحقة. ولعل هذا العمر الزمني الممتد للكنيسة في المغرب والمكتسبات التي استطاعت أن تحققها في مراحل مختلفة من هذا الامتداد هو الذي أتاح لها تطوير إمكاناتها، فتطورت بذلك أساليب التبشير بتطور أساليب العصر، وخطت الكنيسة خطوات كبيرة نحو مشروع تبشيري واضح المعالم احتمى بإدخال وسائل التحديث كالمدارس والمستشفيات والمعامل، ولجأت إلى تغيير نظم وأوضاع الحياة الاجتماعية من حيث عادات وأساليب الحياة والعلاقات بين الناس، فكان لذلك أثره الاجتماعي والاقتصادي والتربوي في مسار المجتمع المغربي.لقد رسمت الكنيسة في المغرب في جميع مراحل تواجدها خططا محددة مدروسة للأهداف والعناصر التي توخت تحقيقها. ومن هذه الأهداف كيفية النفاذ إلى المجتمع الآخر عن طريق الفكر، على اعتبار ما للثقافة من دور مهم في الحياة الاجتماعية من حيث إنها ترتبط بثوابت المجتمع وقيمه ومتغيراته.

ولهذا استنتجنا من كل ما سبق أن الكنيسة لم تجد فعالية كبيرة في تحويل المسلمين عن دينهم إلى المسيحية، لكنها أدركت في نهاية الأمر أن تغلغل الثقافة الجديدة في بنية المجتمع المغربي سيؤدي حتما إلى التأثير في ثوابته العقائدية والفكرية، ومقوماته

الحضارية، فتتعرض إلى الانحلال والطمس والتدمير. ومن هنا حرصت الكنيسة على نشر المستشفيات والمدارس، وبعث الإرساليات الطبية التي أدت إلى نتائج أسرع وأنجع، بحيث استطاعت المدارس أن تنشئ جيلا متعلما بعيدا عن البيئة المغربية وقيمها، وحتى عندما انتقلت هذه المدارس إلى الأسلوب العلماني، فإنها ظلت تسير في الاتجاه نفسه، وكانت الخطوة الأولى التي حققها هذا التعليم هو تكوين جيل موال قلبا وقالبا للدول المسيحية التي تشرف على تعليمهم.

وخلاصة كل القول أن الكنيسة لعبت في العصر الحديث دورا في نقل ونشر القيم الأوروبية الحديثة، ولعبت دورا أيضا في تثبيت المشروع الاستعماري، حيث جاء المد التبشيري الجديد موازيا للتوسع الاستعماري للدول المسيحية، ولحركة استشراقية واسعة ساعدت الكنيسة على تغيير آليات مواجهتها للمجتمع المغربي، فأصبحت العملية التبشيرية تبعا لذلك جمعا للأدبي والتعليمي والسياسي والإنساني والدبلوماسي. واعتمدت في كل هذا على تسريب المرتكزات الفكرية الجديدة وتكريسها لتؤمن نفوذها.

صحيح أن الكنيسة بناء على كل الجهود التي بذلتها في محاولتها التنصيرية فشلت في تنصير المغربي المسلم، ولكنه حتى عندما يظل البون بعيدا بين ما نشدته وبين ما حققته في أرض الواقع، فإنها مضت في إثبات مشروعية بقائها، واستطاعت أن تتحرك في إطار الإمكانيات التي أتيحت لها لتحاول تخليق الواقع المسيحي، وتضليل مقاصدها وأهدافها التبشيرية من خلال العمل الإنساني والسياسي.

ومن ثم يمكن القول إنه رغم ما قدمته الكنيسة في المغرب من إنجازات تاريخية للدولة المسيحية، فإنها لم تستطع أن تجعل الدين المسيحي خلال جميع مراحل تواجدها بديلا تاريخا وحضاريا ودينيا للمجتمع المغربي. ومن هنا تحولت الكنيسة من التوجيه الديني المسيحي إلى التوجيه اللاديني لأنه أصبح أقدر على التأثير والتوجيه وتدمير أغلب الأسس والقيم الذاتية للمجتمع.

وقد أصبحت الكنيسة الآن جراء ما تعيشه من مد خارج ترابها تغذيه الحكومات العلمانية بالمال والدعم، وجراء ما تعيشه من انحصار وجزر داخل ترابها بسبب بعد أبنائها

عنها وازدياد نمو الجاليات غير المسيحية في نطاقها، تروج لفكر جديد. فقد تبنت الحوار مع الأديان الأخرى وتزعمت دعاوى حوار الحضارات والثقافات. وهي إذ تلج هذا الباب تتسلح بقوة حكومات الدول التي تمثلها، وبقوة تفوقها العسكري ونفوذها المالي.

وإذا كان لنا أن نعتبر الحوار الديني أداة إيجابية لتحقيق الاتصال المسيحي الإسلامي باعتباره وجها من وجوه الاتصال الثقافي والحضاري، فانه يخرج عن هذا المدلول لدى الطرف المسيحي الذي يتعمد دائما توجيه الحوار بما يخدم مصالحه ويرسخ مبادئه.

لقد حاولت الكنيسة في مراحل سابقة من تواجدها أن تستغل الحوار وسيلة للتنصير، فأدرك المغاربة أبعاده ومقتضياته آنذاك، لأن الكنيسة تحاور دائما في إطار هدف ثابت ومحدد لا يتجاوز التأكيد على أن المسيحية هي الدين الصحيح إلى الاعتراف بالإسلام وخصوصياته ومكوناته. فكيف يتم التفاهم من خلال هذا الحوار وبلورة نقاط الاتفاق والاختلاف، علما بأن الحوار يتطلب القدرة على الاستماع والتواصل. ولعل أفضل مرجع - من وجهة نظرنا - يمكن أن نستند إليه في بلورة أسس هذا الحوار الديني يتمثل في قوله تعالى في الآية الكريمة : "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون".

لائحة المصادر والمراجع

المصادر العربية :

- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ط 1972
- ابن خلدون : كتاب العبر، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1988
- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح، إبراهيم الكتاني وجماعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1985
- ابن زيدان عبد الرحمن : إتحاف أعلام الناس، مطابع إديال، الدارالبيضاء، ط 2، 1990
- الزياني أبو القاسم : البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، د.وتح : رشيد الضاوية، مطبعة المعارف الجديدة، ط 1، 1992.
- الناصري أبو العباس : كتاب الاستقصا لأخبار دول الأقصى، تح : جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، ط 1954.
- مويط : رحلة الأسير مويط، تر محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ط 1990.
- الشهرستاني : الملل والنحل، تح: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ط 1980.
- محمد داوود : تاريخ تطوان، المطبعة المهدية، تطوان (د.ت).
- الرهوني أبو العباس : عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تح: جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، ط 1، 1988 .

المصادر الأجنبية :

Bueuaventaraz dia : Berve reseña historica de la mission Franciscana de Marruecos, Tanger,Tip Mission catolica, 1920.

España y los Francisianos en Marrocos Tanger, Tip Mission Catolica ,1913.

La Mission catolica de Marruecos y la caridad cristiana. Tanger. Imp de Mission catolica.

Diaz Don Julian : Memoria Sobre la Sgrada Eucaristia en Marruecos Algeciras.Tip.Antonia Paca (S.A).

Fortunato Fernandez y Romeral : Los Franciscanos de Marruecos, Tanger, Mission catolica, 1921.

Francisco de san juan del puerto : Mission Historial de Marruecos, Francisco Garay, Impressor de libros, Sevilla 1708.

Gabriel de Aranda : la vida del siervo de dios Fernando de Contreras.

Jorado Levy Maria : Memoria historica de los obispados de ceuta y Tanger, Tanger, Mission catolica, 1909.

Juan de la concepcion : Relacion veridica en que brevemente se declaran y manifestan los progresos y frutos de las santas missiones de Mequinez , Fez, Zalas y Tetuan que en las partes de berberia mantiene con autoridad apostolica la santa provincia de san diego de Andaluzia (S.a 1712 ?).

Lopez José : - Catalogo Bibliografico de la Mission Franciscana.

- La obra de España Misionera en Marruecos, Larache, Artes graficas, Boca, 1939.
- Memoria sobre la mision Franciscana de Marruecos, Tanger, Misión catolica, 1924.

Madroñal Mateo : Carta escrita al Padre procurador en Madrid, Imp, Antoño Sanz, Madrid, 1755.

Matias de San Francisco: Viage a Marruecos , Impresor del Reyno, Madrid, año 1644.

المراجع العربية :

- جوليان شارل أندري : تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، الدار التونسية، ط 1983.
- جنيبير شارل : المسيحية نشأتها وتطورها، دار المعارف (د. ت).
- حركات إبراهيم : المغرب عبر التاريخ، دار السلمي، الدارالبيضاء، ط 1، 1965.
- شلبي أحمد : مقارنة الأديان (المسيحية)، مكتبة النهضة المصرية، ط 10، 1993.
- مؤنس حسين : تاريخ المغرب وحضارته، الدار السعودية، جدة، ط 1، 1990
- العروي عبدالله : مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط 4، 1994.
- غطيس مصطفى : تمودة،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، (د. ت).
- السائح حسن : الحضارة المغربية عبر التاريخ، دار الثقافة، ط 1، 1975.
- طعيمة صابر : التاريخ اليهودي العام، دار الجبل، ط 1975.

المراجع الأجنبية :

Caillé Jacques : les accords internationaux du sultan sidi Mohamed, Librairie generale de droit,1960.

Coindreau Roger : Les corsaires de salé, Société d'éditions, Paris 1948

Fernando de carranza : La guerra Santa por mar de los corsarios berberiscos , Imp africa, (S.A).

Francis Rapp : L'Eglise et la vie religieuse,presses universtaires de France , Paris ,3ème Edition ,1983

Landaver Ignacio Bawer : la Mission Franciscana en Marruecos Edit, Ibero-Africano Americana (S.A)

Lopez José : El Padre Lerchundi, Imprenta clasica Glorieta de la Iglesia , Madrid, 1927.

Penz charles : les Captifs Français du Maroc au 17ème Siécle

Pons.A : La nouvelle Eglise d'Afrique ,Imp Grosse Bascone Muscat, Lib , Louis Namura , Tunis (S.A).

Raymond Darricau et Bernard Peyrnons : Histoire de la spiritualité, Presses universitaires, 2ème ed. 1994.

المعاجم العربية :

ابن منظور : لسان العرب، دار صادر، بيروت (د . ت).

حسن سعيد الكرمي : الهادي الى لغة العرب، دار لبنان، ط 1، 1992.

هنري س. عبودي : معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس-لبنان ط 1991.

المعاجم الأجنبية :

A.Rey et J. Rey .de bove : Le Petit Robert -Le Robert Paris, ed1 982.

Manuel Alvar Ezquerra : Diccionario Général , Zanichells Biblograf.

Paul Poupar et une comité : Dictionnaire des religions,Presses universitaires de france, 2ème ed 1985.

المجلات العربية والأجنبية :

مجلة دراسات أندلسية ، ع 11، جانفي 1994.

مجلة كلية الآداب بفاس ، ع 7، 1983 - 1984. ع 2، 1985.

Mauritania :

- 146 , Enero 1940 .
- 147 , Febrero 1940.
- 166 , Septiembre 1941.
- 167, Octubre 1941.
- 177, Agosto 1942.
- 179, Octubre 1942.
- 180, Noviembre 1942.
- 183, Febrero 1943.
- 184, Marzo 1943.
- 198, Mayo 1944 .
- 199, Junio 1944.
- 201, Agosto 1944.
- 206, Enero 1945.
- 208 , Marzo 1945 .
- 213, Agosto 1945.
- 214 , Septiembre 1945.
- 333, Agosto 1955.
- 281, Abril 1951.

فهرس الكتـــاب

الصفحة	المحتويـــــــات
3	مقدمـة
6	**القسم الأول : مقاربة تاريخية عن التواجد الكنسي بالمغرب**